فلاديمير بارتول

آلموت

ترجمة

فاطمة النظامي

منشورات الجمل

رواية

فلاديمير بارتول

آلموت

رواية

ترجمة

فاطمة النظامي

منشورات الجمل

فلاديمير بارتول: آلموت، رواية
ترجمة: فاطمة النظامي
الطبعة الأولى ٢٠٠٩ ـ الطبعة الثانية ٢٠١١
Vladimir Bartol: ALAMUT, roman 1938

تلفاكس: ٢٢٣٦٤٦٨ ١١ ٠٠٩٦٣
ص. ب: ١١٤١٨ دمشق ـ سوريا
taakwen@yahoo.com
ولمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠٠٩
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

المقدمة

إنه واحد من الكتب التي انتظرت طويلاً على باب السَّراي قبل أن تقبل أو يعترف بها. ومن هذه الجهة فإن مغامرة هذا الكتاب كانت شيئاً يحتذى به. لا بدَّ من القول بأن كل شيء تضافر كي يجعل من آلموت ـ طيلة نصف قرن ـ نصاً ملعوناً. خاصة وأن اللغة التي كتبت بها هي اللغة السلافية! لغة الأقلية في يوغوسلافيا نفسها، والتي يتحدثون بها في مقاطعة صغيرة محصورة بين النمسا وفينيت. لم يكن أدب هذه المنطقة ذائع الصيت على الرغم من أنها كانت في الحقيقة تضم عدداً من الكتّاب الموهوبين بشكل رفيع، من المعروف أن لعنة حلت ولزمن طويل ببعض آداب أوروبة لمجرد أن كتابها قد استخدموا لغات كانت تعتبر بغيضة: «فنلندية، ليتوانية lituannien، هنغارية، ألبانية». إننا نتذكر الدهشة والمتعة التي أحس بها القراء الفرنسيون إذ اكتشفوا ـ منذ بضع سنوات ـ رائعة الفنلندي «ميكا فالتاري سنوحي المصري» كرواية تاريخية تألقت بشكل عجيب. ولاقت في بلادنا نجاحاً متأخراً تستحق أضعافه. مغامرة مماثلة أوشكت أن تدنو من المؤلف الحالي الذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٣٨، ركنها بالتعاقب في خزن مختلفة، قبل أن تخرج منها القصة الضخمة فجأة، وحديثاً ككتاب تنبؤي، من خلال واحدة من تلك النزعات التي امتلكت مفتاحها.

فعلاً كان التاريخ في المنطلق، هو المسؤول الأول عن المجازفة في هذه الرواية التي ولدت تحت أسوأ طالع. قلنا إن فلاديمير بارتول لم يكن

يتوخى السهولة تحديداً عند كتابته باللغة التي هي لغته، لكنَّ القدر لم ينصفه عندما شاء له أن يولد في يوم من أيام عام ١٩٠٣ في أنحاء تريسته triesta ـ المدينة السلافية. . . إلى أن ألحقها الطليان بهم بلا سبب معقول غداة الحرب المسلحة. ولد لأهل فكر محلي، صقلتهم الثقافة الفرنسية.

لطالما كان يتواجد على مقاعد السوربون في العشرينات. قام بجلٍّ دراساته في ليوبليانا lyubljana عاصمة منطقته، دراسات يمكن أن نصفها مشتتة أو موسوعية، بحسب المنظار الذي نريد أن نتطلع منه:

فلسفة، علم نفس، (اكتشف مبكراً مؤلف فرويد الذي لم يكن عرف جيداً في ذلك العصر)، بيولوجي (سيولع طيلة حياته بدراسة الفراش)، وتاريخ الأديان أخيراً. ثقافة لم تكن مهيأة إلى نجاح محقق في بلاد مزقتها النزاعات منذ ما قبل الحرب الأخيرة. كانت ليوبليانا في أعوام الثلاثينات في الواقع مفترقاً لتصادم إيديولوجيات متضادة بشكل عنيف. فالنمسا المجاورة استسلمت لإلحاقها بألمانية النازية وكان للفاشيستيين الطليان الذين سادوا تريسته أنصارهم المتحمسون، حتى ضمن الحرم الجامعي، وكان الاشتراكيون ينفخون بمكبرات الصوت، بسذاجة أو بدراية، مروجين لـ «الستالينية». بحاثة في عدة مجالات، كان بارتول يفضل بوضوح أن يطارد الحقيقة بجلد بين صفحات الكتب. بدلاً من أن يصغي إلى هؤلاء الذين احترفوا الصراخ على شرفات الحانات، أو على منصات الاجتماعات السياسية، أنصار أية جهة كانوا، موقف حذر، لكنه موثوق نوعاً ما في الأحقاب المضطربة. هذا الرفض الهادئ للنزعات الكلِّيَّانية اليمينية واليسارية على حد سواء. انطوى على الجرأة وبعد النظر. «شيئان نادران في ذلك العهد» بأن يضع الجميع في نفس السلة بمن فيهم الأصدقاء. يبدو أنه لاقى مشقة كبيرة في نشر الأفكار التي يحملها في سرِّه. وهو إذ شرع في تأليف آلموت ـ سيقضي في تأليفها عدة سنوات ـ فإن هذا سيكون كي

يضلل مراقبيه: أية وسيلة هي أفضل من أن يلجأ إلى ضرب عرف حيادياً «رواية المغامرات!» كي ينقل خطاباً حُسِبَ أنه مدمر؟

لا بدَّ للتقدير من أن يتضح أنه غير مناسب، لأن الحرب اندلعت في هذه الآونة بالذات ووئد الكتاب عند ولادته.

جاء في سيرة حياة بارتول الرسمية، بأنه انخرط في ما بين عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ في المقاومة ضد المحتل الألماني، وكان لا بد له من أن يتوقع، وبحسب المنطق السليم، رؤية كتابه يرى النور من جديد عند التحرر. لم يكن هذا صحيحاً. يوغوسلافيا الماركسية، التي انتصرت فيها الواقعية الاشتراكية، لم تستحسن كثيراً الفلسفة المحررة من الوهم والتي أفصحت عن نفسها هناك، اختار بارتول أن يغادر بلاده بشكل موقت ليقيم في تريسته. بقي فيها عشر سنوات (١٩٤٦ ـ ١٩٥٦) عند عودته كانت نزعة «ltitisme» قد قررت تقريباً، فأعيدت طباعة آلموت «شكل سري». عام ١٩٥٨، واستطاع الكاتب أن يتابع مجرى حياته بنوع من الاطمئنان. إنما لم يسمح لكتابه بالخروج من المطهر ولم يصبح موضوعاً للنشر إلاً بعد موته (١٩٦٧) والذي اعتبر بالإجماع على أنه رائعته. ولم تظهر له بعد ذلك إلاً طبعتان عام ١٩٨٤ وعام ١٩٨٨.

كان رأيهم في حينها، وعلى الرغم من حماسة قلة من القراء بأنها، وُفّقت بالتملص لتصل إلى الشهرة: ممَّا هو ليس فعلاً من أجل عصرنا مما تصدى له الكتاب في الحقيقة هو بعض الجوانب الأقل تهاوداً. لأن بارتولِ، متذرعاً بنقلنا إلى إيران القرن الحادي عشر، العصر الذي انتصرت فيه طائفة الحشاشين، يحدثنا عما يضمره نزعة كليَّانية أبدية. لنسارع إذاً إلى طمأنة القارئ المتشكك: آلموت هي نقيض رواية «قضية» أي نوع من مقالة مثقلة وبشكل محزن يصل إلى قصد أمثل. لكنها تشيع سأماً غير منسجم غالباً مع متعة النص. لأن كل دهاء بارتول يكمن تحديداً بإخفاء ظاهرة سياسية هي بالنسبة لنا معاصرة تماماً. . .خلف قصة خيالية تاريخية

منسقة بدقة. . . والقيام بذلك بنوع من عبقرية التمويه بحيث إن القارئ غير المنحاز يستطيع أن يحسب آلموت على أنها رواية مغامرات «كغيرها». لا شك أن بارتول أراد أن يجسد من خلال وجه حسن الصباح الرهيب، المسمى «شيخ الجبل» صورة ديكتاتور عصرنا المثالي. لا بد له من الاعتراف حتى بأنه استوحى، وهو يكتب كتابه، من النماذج الثلاثة التي كانت في متناول يده: ستالين وهتلر وموسوليني، ليس إلاّ.

ولا يغربن عن بالنا أن بارتول كنابوكوف، وكونغريف، مارس عمل الاختصاصي بالحشرات بموازاة عمله ككاتب، مكون على مبدأ «الاصطياد البارع» كان ينقد وبدقة بالغة أدنى أواليات ما يجدر تسميته العقل الكلي. لكنَّ دقته تمتد أيضاً، ومن حظنا، إلى اللوحة التي رسمها للمجتمع الإسماعيلي في العام ألف. الذي درسه عن كثب. ولو أنه تصرف أحياناً بواقعية الأحداث تصرفاً «شاعرياً» فإننا في ما عدا ذلك نكون قد أتينا على ملامته أكثر مما ينبغي.

هذا التآلف مع روح الإسلام. أضفى على قصته نوعاً من السحر الحالم الذي جعلها بالإضافة إلى ذلك، تنتمي وفي أكثر من فصل، إلى الحكاية أكثر منه إلى الرواية. لا سيما أنه مكنه من أن ينعش بجلاء موضوعاً يستطيع قراء ١٩٣٨ وبحق أن يعتبروه تجريداً.

نحن نريد التحدث عن الإرهاب الإسلامي والذي حسبوه في دقته «معرفة تاريخية». . . ظاهرة أعادت إليها نهاية عصرنا كل الحالية التي نعرفها. مات بارتول عام ١٩٦٧، ولم يشك إطلاقاً بالوجه المحذِّر لكتابه. لأنه أخيراً وهو يفتش في طيات التاريخ عن وجه يمكن له أن يجسد «الديكتاتور المطلق» أمام نواظرنا. «وأن يجسده، يصر على ذلك، بحسب معايير الكليانية المعاصرة» لم يفعل شيئاً أفضل من أن يعرض لنا آية الله القرن الحادي عشر، مخترع العمل الفدائي الانتحاري والمنظر الأول (الفعّال) للإرهاب السياسي الديني! حاسة شمٍّ رائعة. سيقال!

إنما هنالك أكثر من هذا. فالمرء يلاحظ وتدريجياً انه يتقدم في هذه الرواية التي أنشأها مهندس بارع. بحيث إن وسائل الذعر الموصوفة هنا هي بالضبط تلك التي تمارسها، حرفياً، تمامية إسلام اليوم... والتي لخص بارتول مشروعها بشكل رائع على لسان حسن: «هكذا، فإن السيادة هي ملك ذاك الذي يجعل سلاطين العالم مكبلين بالخوف...» لنستبدل كلمة ملوك بـ «حكومات» فتصبح ممارسة ملوك الإيمان الجنونية هذه، هي نفسها التي يزعق بها الآن متعصبو عصرنا المعممون في مواجهة العالم. لا يعتمد بارتول الوعظ في الخطاب الذي يتوجه به إلينا، قلنا ذلك، مما يضع كتابه في الجهة المعاكسة لـ «أدب الرسالة». فعل الكاتب خيراً بعدم إدانة الوحش الذي جعله يحيا أمام نواظرنا، جذاباً ومرعباً بشكل مدهش في كل أحواله. من غير المجدي إبطال وحشية كاليغولا، أو حسن، أو ستالين. لا أهمية لأنهم كانوا مخيفين. وإنما لأنهم كانوا بحق رجالاً. وبهذا يلتقي هنا بارتول مع توماس مان، والذي تناول هو أيضاً في نص «هتلر، أخي» تحليل وجه الطاغية، من وجهة نظر أكثر كآبة. وجهة نظر «إنسانية جداً» في الواقع. فإذا ما سحرنا الطغاة الأكثر استبدادية أو الأكثر جنوناً إلى هذا الحد، والذين تناوبوا على إلهام إشيل، وشكسبير أو آرتود، فلأن الصوت الباطني يتحدث داخلهم بكل صدق، بينما نعمل نحن كل ما بوسعنا على إخراسه فينا... مع احتمال تركه يفعل إثر ذلك بلا شعور. كان بارتول المحرَّر من الوهم يعلم أن الخير والشر يتآخيان غالباً في النفس الإنسانية. يموت غوله عندما يعترف لنا بأن تعصبه نفسه لم يكن إلا التنكر لعقل تخلص من كل وهم. هل نتخيل إرهابياً يستمد إلهامه من فلسفة لم ينقدها المفكر سيوران؟ مفارقة الجلاء التي يجاهر بها سيوران نفسه على أنها «رذيلة» وعلى أنها الأكثر تهديماً ربما: «الرذيلة الوحيدة التي تجعلك حراً... حراً في صحراء!».

الناشران


rico
Riko94
Riko94_

الفصل الأول

في ربيع العام ١٠٩٢ ميلادي، شهدت طريق الجيوش القديمة، والتي كانت تتوغل ابتداءً من سمرقند وبخارى وصولاً إلى سفح جبل الإيلبوزر شمالي خراسان مرور قافلة على درجة من الأهمية، غادرت بخارى مع بداية ذوبان الثلوج، وغذت في السير منذ بضعة أسابيع. كان قادة القافلة يلوحون بسياطهم، ويحثون بصراخهم الصاخب البهائم المنهكة تقريباً. كانت الجمال الوحيدة السنام، والبغال، والجمال ذات السنامين، تتقدم في رتل طويل، ورجال الموكب الذين امتطوا خيولاً صغيرة ذات شعر طويل، يتأملون سلسلة الجبال التي كانت تنتصب في الأفق بحالة من السأم من طول الانتظار.

مرهقين من هذا المسير البطيء يتلهفون من أجل الوصول إلى الهدف. كانت قمة «دوفاند» المكسوة بالثلج تقترب ببطء، لكنها سرعان ما اختفت خلف النتوء الذي كانت الطريق تلتف حوله، كانت الريح الندية القادمة من الشمال تنعش الدواب والناس، أمّا الليالي فقد كانت قارسة البرد، وكذلك كان قادة القافلة المرافقون قد اقتربوا من بعضهم بعضاً يتذمرون وهم يلتفون حول النار.

كان من بين الجمال واحد يحمل بين سناميه ما يشبه الخصّ (الهودج) ومن وقت إلى آخر كانت يد ناعمة تمتد لتفرج ستارة نافذة هذا الملجأ، مفسحة المجال لظهور وجه صبية مذعور. كانت عيناها المحمرتان لكثرة ما ذرفتا من الدموع، تلقي على الناس نظرة استفهام، تبحث عن جواب

على السؤال الممضّ الذي كان يعذبها منذ بداية المسير: إلى أين يصطحبونها، وماذا ينوون أن يفعلوا بها؟ لكنَّ أحداً لم يكن ليعير إلى حضورها أي انتباه. وحده دليل القافلة، رجل في العقد الخامس من العمر كئيب يرتدي سروال أعرابي فضفاض، ويعتمر كوفية بيضاء كبيرة، كان يرمقها بنظرة شزرة مذ لمحها من خلال الفرجة الصغيرة. أسرعت حينئذ إلى سحب الستارة، وتكوَّرت داخل خصّها. فمنذ أن باعها سيدها في بخارى إلى هؤلاء الناس وهي تعيش نهبة لخوف قاتل، وفضول مرعب لمعرفة المصير الذي ينتظرها.

ذات يوم، وبعد أن قطعوا شوطاً لا بأس به من الطريق، إذ بفصيلة من الفرسان تهبط المنحدر الناهد على يمينهم وتقطع عليهم الطريق. توقفت البهائم التي تتقدم الركب من تلقاء نفسها. استل الأدلّة والرجال سيوفهم الضلعة، اصطفوا وكأنهم يستعدون لخوض معركة، رجل كان يمتطي حصاناً أشهب، انفصل عن المقتحمين واقترب إلى حيث يمكن للصوت أن يبلغ مداه. أطلق صرخة لا بّد أنها كانت نوعاً من كلمة سر، أجاب عليها رئيس القافلة فوراً. ثم تسارع الرجلان، لمقابلة بعضهما بعضاً، تبادلا التحية بلطف، ثم حلّت الفرقة الجديدة مكان الفرقة القديمة، تحوّلت القافلة عندئذٍ، متخذة طريقها عبر الجبال، ولم تتوقف إلا عند منتصف الليل، خيموا في واد ضيق، كان بالإمكان أن يصل إليه خرير مياه مسيل بعيد. أشعلوا النار وأكلوا على عجل، ثم استسلموا للنوم كصرعى.

ما أن طلع الفجر حتى هبّوا من جديد، اقترب دليل المجموعة الصغيرة من الخصيّ الذي كان رجال القافلة قد فصلوه ووضعوه أرضاً من أجل الليل، سحب الستارة وصرخ بصوت أجش:

حليمة!

بدا الوجه المذعور من خلال الفرجة، ثم انفتح باب ضيق ومنخفض.

وبيد حازمة أمسك الرجل الصبية من معصمها، وجرَّها خارج الملجأ. كانت أوصال حليمة ترتعد خوفاً، وقالت في سرها «الآن انتهيت».

زعيم الغرباء الذين كانوا قد التقوا القافلة أمس هذا اليوم أمسك بيديه عصابة سوداء، وبإشارة من الدليل، ودون أن يتفوه أحد بأدنى كلمة، وضع العصابة على عيني الفتاة وعقدها على قذالها بإحكام. ثم وهو يمتطي حصانه، استدرج إليه الفتاة الأسيرة، وبرفق وضعها وأجلسها عرضاً على سرج حصانه، وغطّاها ببرنسه الفضفاض. ثم همز حصانه ليأخذ في العدو. انطوت حليمة على نفسها، شاحبة من الخوف وقد تشبثت بفارسها.

كان خرير مياه المسيل يقترب. توقفوا ومحادثة خاطفة تمّت بين الفارس ومجهول. حثَّ حصانه من جديد، لكنَّ المسير هذه المرة كان أكثر بطأً وأكثر حذراً. أحسّت حليمة بأن لا بدّ لتلك الطريق الضيقة والخطيرة من أن تكون بمحاذاة المسيل تماماً. نفثة باردة جاءت من الأعماق، وشعرت بقلبها ينقبض من جديد.

توقفوا ثانية. وسمعت أثناء هذه المرة صراخاً وكلاماً مبهماً، وعندما استأنفوا المسير، كانت الحوافر تطرق الأرض مصدرة صوتاً أصم: عبروا لتوهم جسراً فوق المسيل.

الأحداث التي تلت جعلتها تقع تحت تأثير تفكير مرعب. كانت تسمع صراخاً ونداءً كما لون أن عصابة مسلحة كانت تتخاصم من حولهم. ترجل الفارس تاركاً فوقها برنسه. سحبها عندئذ من يدها وخطا سريعاً، تارة على أرض مستوية، وتارة على ما يشبه السلم، وأحسّت بعد قليل بأنهما كانا يخترقان مكاناً حالك الظلمة، وبغتة رفع الرجل عنها المعطف فشعرت بأيادٍ أخرى تمسك بها. وأحسَّت برعشة تخترق جسدها، كما لو أن ملاك الموت كان يقترب منها.

كان يحملها بين ذراعيه، يجس الجدار بإحدى يديه. متقدماً بحذر، وقعت يداه على شيء ما، رفعه بعنف، وجلجل صوت ضجيج مدو

أطلقت حليمة صرخة، وحاولت الإفلات من قبضة المجهول الذي اكتفى بالضحك وقال لها بلهجة رقيقة:

ـ لا تصرخي أيتها الصغيرة الشغبة. فليس هناك من ينوي سلخك.

سُمع صرير باب معدني. وعَبَرَ عصابة حليمة وميض شرارة نور غامض.

«سيرمونني في السجن...» وسمعت هدير ماء يأتي من الأسفل.

كتمت الفتاة أنفاسها إذ سمعت وقع أقدام حافية، اقترب أحدهم والرجل الذي كان يحملها سلّمها إلى القادم الجديد.

ـ هاكَ يا عدي. خذها.

كانت اليدان اللّتان تلقّتاها عاريتين تماماً وقويتين كقائمتي سبع. ولا بدَّ للرجل الذي كان يحملها من أنه كان عاري الصدر أيضاً. تأكدت من ذلك عندما رفعها نحوه. إنه عملاق حقيقي لا ريب.

استسلمت حليمة لقدرها، لا حول لها بالنسبة لما ينتظرها من الآن فصاعداً حملها الرجل وهو يركض على ما يشبه عبّارة متحركة، كانت تتأرجح تحت ثقلهما بشكل مزعج، وأخذت الأرض تصرُّ تحت أقدام هذا المجهول كما لو أنها كانت مغطاة بحصى ناعمة في هذه اللحظة أحست الفتاة بدفْء أشعة الشمس الجميل، كان ضوؤها ينفذ عبر العصابة التي كانت تغطي عينيها وفجأة أخذت تشم عبق الخضرة الندية والأزاهير.

حدث ارتجاج مفاجئ، فهمت حليمة منه أن الرجل قد قفز إلى المركب فاعتراه تمايل شديد. صرخت حليمة، وتشبثت بكتفي العملاق، أمّا هو فقد ضحك وحسب، بصوت حاد أو شبه طفولي وبدماثة قال:

ـ لا تجزعي أيتها الغزالة الصغيرة. إني أصطحبك إلى الضفة الأخرى. ونحن سائرون... أجلسي هنا! أقعدها على مقعد مريح وأخذ بالتجديف.

هُيِّء إليها أنها تسمع ضحكاً قادماً من البعيد، ضحك صبايا مبتهجات، أرهفت السمع، لا إنها لم تخطئ، أصوات كانت تصلها بوضوح. أحسَّت بعزاء كبير، عساها لا تتعرَّض لمكروه، بما أن هناك أناساً مسرورين إلى هذه الدرجة.

رسا المركب على الضفة. تناول الرجل الفتاة ثانية بين ذراعيه وقفز على اليابسة. تسلَّقا طريقاً منحدرة وعرة. ولدى وصولهما إلى قمته، ألقى الرجل بحمله. وساعد الصبية على الوقوف على قدميها. صراخ صاخب كان يندفع من كل مكان. وسمع وقع أحذية عديدة تقترب وبضحكة طنّانة صرخ الرجل:

- إني أعهد إليكن بها.

ثم عاد إلى المركب الموجود في الأسفل وابتعد مجدفاً.

اقتربت إحدى الصبايا من حليمة كي تنزع العصابة عن عينيها، بينما صرخت الأخريات:

- كم هي رقيقة!

- وكم هي لا تزال صغيرة، إنها طفلة حقاً. . .

- طفلة هزيلة جداً، أرهقها السفر. . . لكن انظرن كم هي طويلة وممشوقة، كشجرة سرو. . .

انزلقت العصابة عن عيني حليمة التي نظرت نظرة مبهوتة. كانت الحدائق تترامى حولها، حدائق حقيقية، في بداية إزهار فصل الربيع. كلُّ الصبايا اللواتي كن يحطن بها كنَّ كالحوريات، لكنَّ تلك التي انتزعت عصابتها كانت أجملهن.

- أين أنا؟ سألت بصوت خافت وخجول. أخذن يضحكن كما لو كان حياؤها قد أسرَهُنَّ.

صعد الدم عندئذ إلى وجهها، لكن الشابة الجميلة التي خلّصتها من العصابة حضنتها من خصرها بحنان وقالت لها:

ـ لا تخشي شيئاً أيتها الطفلة العزيزة، أنت بين أناس طيبين.

كان صوتها عطوفاً ودافئاً، أسرعت حليمة إلى قبالتها، وأفكار غريبة صارت تتبادر إلى ذهنها «ربَّما أكون قد جئت أحد الملوك؟...».

اصطحبنها عبر ممر مفروش بالحصى الأبيض، ومن كل صوب كانت تمتد مساكب العنصل والزنابق المتناسقة بانتظام، بكل الأطوال ومختلف الألوان: نباتات بصلية ذات سوق محدبة، ألوانها إمّا أصفر برّاق أو أحمر فاقع، بنفسجي مخطط أو مبرقش أيضاً. عناقيد هشة من العنصل بيضاء أو وردية باهتة، أو زرقاء إمّا فاتحة أو غامقة، ليلكية وصفراء فاتحة، بعضها كان غضّاً وشفّافاً كالزجاج، بنفسج وزغد نبت على الحواف، وإلى جانبه يتفتح السوسن والنرجس، هنا وهناك تكشف الورود البيض بزهو عن زهيراتها الأولى، وعطر مثمل يعطِّر الجو. مما أذهلها. كنَّ يسرن بمحاذاة الرِّياض الرحبة، المؤطرة بالأدغال المقلمة بعناية والتي تفتقت براعمها الكبيرة على أجوافها الحمرا والبيضا والصفرا من بعض الأمكنة.

أفضى بهنَّ الممرُّ إثر ذلك إلى ما بين أحراش الرمان الكثيفة المَوَشّاة بالأزهار الأرجوانية ثم وصلن إلى جبال الليمون والدرّاق، جئن أخيراً بستاناً تزهر فيه أشجار اللوز والسفرجل والتفاح والإجاص... حملقت حليمة بعينين واسعتين.

ـ ما اسمك يا صغيرة؟ سألتها إحدى الصبايا.

ـ حليمة. همست بصوت يكاد لا يسمع.

أخذن بالضحك، فامتلأت عينا حليمة بالدموع.

ـ لا تضحكن أيتها القردة! وبَّختهن مريم المسؤولة عنها. دَعنَ الصغيرة وشأنها، إلى أن تستعيد رشدها. فهي مرهقة ومرتبكة.

ثم قالت متوجهة إلى حليمة:

ـ لا تحقدي عليهن لكونهن هكذا. إنهنَّ شابات وفارهات، عندما ستتعرفين عليهن ستجدين أنهنَّ لسن شريرات، بل وأعتقد بأنهن سيحطنك بمحبتهن.

بلغن غيضة سرو. وخرير ماء من المستحيل تحديد مصدره كان يرافق مسيرهن. شيء ما أخذ يلمع بين الأشجار، ما لبثت حليمة المحتارة أن ميَّزت أنه واجهة قصر صغير تحيط به الأشجار من كل جهاته، وترخي عليه الشمس بأشعتها البيضاء، ينفتح مدخله على حوض ماء دائري تزينه نافورة ماء، توقفن في هذا المكان، فأخذت حليمة تجول بأنظارها من حولها جبال شاهقة تحيط بهنّ من كل الجهات، والشمس التي أرسلت بخيوطها على الحواف الصخرية قد أضاءت الذُّرى المكسوة بالثلوج. نظرت إلى الوجهة التي جئن منها. وصخرة ضخمة، بل قل جبلاً، بدت وكأنها ألقيت بشكل غير متعمد لترتج الوادي الذي كانت تشرف عليه الحدائق المتعلقة مشكلةً حوله ومداً عميقاً. من هذا العلو، كانت شمس الصباح تضيء قلعة عظيمة تتربع على قمة الصخرة...

ـ وما اسم هذا المكان؟ سألت حليمة بخوف مشيرة بيدها إلى الأسوار الملاصقة للبرجين السامقين.

ـ سيتسنى لك الوقت لطرح أسئلتك في ما بعد. أجابت الوصية عليها، أنت متعبة، ولسوف نأخذك لتغتسلي أولاً. ونقدم لك الطعام، ثم نتركك تستريحين. أخذت حليمة، وهي تتشجع شيئاً فشيئاً، تتأمل صاحباتها بفضول، وقد بدين وكأنهنّ يتنافسن في إظهار مفاتنهنّ، وأناقتهن، وحفيف خفيف كان يصدر من سراويلهن الحريرية الفضفاضة وهن يمشين، وكل واحدة اختارت اللون الذي كان يليق بها أكثر، وانفرجت صداراتهن الجميلة الملتصقة بأجسادهن المطرّزة بشكل بديع، المزدانة بالمشابك، المذهبة، المرصّعة بالأحجار الكريمة على قمصان من الحرير الفاخر،

وازدانت معاصمهن بأثمن الأساور، وطوّقت أعناقهن بعقود من اللؤلؤ والمرجان، منهن من أرخين شعرهن المكشوف للريح، ومنهن من عقدن حول رؤوسهن أوشحة على شكلِ عمامات صغيرة. وقد انتعلت كل واحدة صندلاً من الجلد الملون مفصلاً بشكل فني. تأمّلت حليمة في بؤسها، فأحسّت بالخجل «ربما لهذا كنّ يضحكن مني؟» فكرت.

كان القصر الذي وقفن أمامه محاطاً بدرج منخفض من الحجر الأبيض. وأعمدة عدة يرتكز السطح عليها، لا يمكن لشيء كهذا أن يرى إلاّ في هياكل المعابد القديمة، ومن حصن صغير خرجت امرأة ذات هيئة مألوفة، هزيلة ونحيلة كالعود، تنظر إلى محيطها بشيء من العجرفة، سمراء البشرة، بارزة الوجنتين، كانت عيناها القاتمتان تتقدان بوميض محموم، وشفتاها الرقيقتان المزمومتان تعطيان انطباعاً بالصرامة، بل بالقسوة بكليتها. كان يتبعها حيوان غريب يشبه الهرّ، شعره أصهب، وجسمه يعلو فوق قوائمه بشكل يدعو إلى الغرابة حدّق بحليمة، وأطلق زمجرة عدوانية، جعلت الفتاة تصرخ من الذّعر وتنكمش خلف الوصية عليها والتي حاولت أن تهدئها:

ـ لا تخافي صديقنا أهريمان. فهو فهد أمين، مُدجّن كالحمل، لا يطال أحداً بالأذى، سوف يعتاد عليك وستصبحان صديقين حميمين.

ـ نادت الحيوان، أمسكته بقوة من طوقه، ثم هدأته. وفي الحال كفَّ عن الزمجرة وأخفى أسنانه.

ـ أترين. ـ أردفت ـ صار أقل شراسة. بينما ستغيرين ثيابك ستجدينه صار أكثر ألفة. داعبيه جيداً كي يعتاد عليك، ولا تخافي فأنا أمسك به بإحكام.

تغلبت حليمة على أولى بوادر خوفها، انحنت إلى الأمام بحذر، مدّت ذراعها وأخذت تدغدغ ظهر الحيوان برفق فهرّ بشكل ودي ورخيم كما

يفعل هرٌّ حقيقي تماماً. وثبت الفتاة إلى الخلف، واسترسلت في ضحك امتزج بضحك صاحباتها.

ـ من تكون إذاً هذه القردة المتخوفة يا مريم؟ سألت العجوز وهي تخترق حليمة بنظراتها.

ـ جاء لنا بها عدي لتوه. يا أباما، إنها لا تزال شديدة خجولة. ـ أجابت تلك التي كانت بمثابة دليل بالنسبة إلى القادمة الجديدة.. وهي تدعى حليمة.

اقتربت العجوز متفحصة الفتاة الغريبة من أخمص قدميها وحتى مفرق رأسها، أخذت تجسُّها مثلما يدلِّس نخّاس حصان سباق.

ـ ربّما سنفعل منها شيئاً! إنما يجب تغذيتها لأنها نحيلة كالمسمار.

ثم أضافت ملسوعة من الغضب:

ـ وهذا العبد الحيوان، هذا الخصيّ التعس هو من أحضرها إليك؟ لقد أخذها بين ذراعيه إذاً يا له من نذل خصيّ! كيف لسيدنا أن يضع فيه ثقة كهذه؟

ـ لم يفعل عدي إلاَّ ما يمليه عليه واجبه، أردفت مريم. هيَّا لقد حان الوقت كي نحيط هذه الطفلة بعنايتنا.

أخذت حليمة بيد، وباليد الأخرى كانت لا تزال تمسك بطوق الفهد، سحبتهما كلاهما يتبعهما حشد صغير من الصبايا. مشين أولاً بمحاذاة الممر العلوي الذي كان يلتف حول البناء الذي بنيت جدرانه من المرمر الصقيل الذي تنعكس صورة الأشياء فوقه كالمرآة، كانت هناك سجادة فاخرة تمتص وقع الخطى، وعند أحد المخارج العديدة أفلتت مريم الفهد، فوثب على قوائمه الطويلة ككلب، وأدار رأسه السنورية نحو حليمة التي بالكاد تمالكت نفسها. سلكن ممراً. . . . . . ، ودخلن قاعة عالية ومقبَّبة، لم يسع حليمة إلاَّ أن تصرخ من الانذهال، إذ لم تكن تتصور وجود شيء على هذه الدرجة من الأبهة حتى في الأحلام. كان السقف من الفسيفساء

الزجاجي الفاقع الألوان التي كانت تمنح الضوء ألوان قوس قزح، ووابل من الأشعة البنفسجية والزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء والبيضاء كان ينهمل على الحوض الدائري، حيث كان الماء المتجدد الذي يصله بشكل غير مرئي يصدر وقعاً ناعماً وعلى صفحته القزحية كانت تتموج الألوان وتنتشر حتى المقاعد الموضوعة خلف الجذر، والمغطاة بأرائك طُرِّزت بإبداع.

عند العتبة، توقفت حليمة فاغرة فاها، تائهة العينين من الدهشة، ومريم تنظر إليها بابتسامة خفيفة. انحنت فوق الحوض وغطست فيه يدها.

ـ الماء لذيذ. إنه دافئ بشكل مناسب ـ قالت:

ـ أوعزت إلى الصبايا اللواتي كنَّ بصحبتها، بتحضير كل ما يلزم من أجل الاستحمام. ثم أخذت تعري حليمة، أسبلت حليمة التي كانت تسعى إلى الاختباء خلف مريم عينيها، وقد أزعجها القيام بذلك على مرأى من صديقاتها، لكنَّ هذا لم يمنع الأخريات من تفحصها بفضول وهنَّ يضحكن بصوت خفيض.

ـ انصرفن أيتها الشقيات! قالت مريم ساخطة.

ومن دون أن ينبسن ببنت شفه امتثلن لها، وغربن في الحال.

رفعت مريم شعر الطفلة الجميلة، وجمعته على شكل كعكة في أعلى رأسها، كي تتفادى تبليله، ثم دعتها إلى النزول في الحوض، حيث أخذت تدعكها وتغسلها كما ينبغي، ثم أخرجتها من الماء ونشَّفتها جيداً بمنشفة طرية ناولتها القميص الحريري، وألبستها السروال الفضفاض الذى حضّرته الصبايا، والصدارة التي كانت تتسع عليها ثم ساعدتها في ارتداء سترة كانت تصلها حتى ركبتيها.

ـ ستكتفين اليوم بثيابي. وعمَّا قريب سنعد لك ثياباً على مقاسك ستجدين كم ستليق بك. أجلستها على سرير كانت قد فرشته بالأرائك كي تستريح.

ـ استريحي هنا قليلاً، أما أنا فسأذهب لأرى ما حضرن مما يفتح شهيتك.

وبيدها الوردية الناعمة داعبت وجهها. وفي هذه اللحظة أحسَّت الاثنتان بألفة تربط بينهما. وبعفوية قبَّلت حليمة أطراف الأصابع الندية للوصية عليها.

تصنعت مريم نظرة قاسية، لكنَّ حليمة ما كانت لتشعر فيها بأي بغض، بل ابتسمت لها معبرة عن مدى سعادتها. ما كادت مريم تخرج حتى أغمضت حليمة التي أتلفها الإرهاق عينيها، حاولت في البداية أن تغالب النعاس وقد عاودتها الفكرة نفسها: «يجب عليَّ أن أستيقظ في الحال». لكنها ما لبثت أن غطت في سبات عميق.

عندما أستيقظت أحسَّت لبرهة أنها تائهة: ما هو هذا المكان الذي ألفت نفسها فيه؟ ماذا جرى لها؟ دفعت الغطاء الذي غطتها به الصبايا خلال نومها خوفاً عليها من البرد. جلست على طرف السرير، دعكت عينيها، ثم نظرت حولها، وجوه أنثوية فتية مليحة للغاية كانت أمامها تغرق في ضوء متقزح. كان الوقت يميل نحو المساء، جثت مريم فوق أريكة على ركبتيها، وناولتها كأساً من الحليب البارد، فأخذتها حليمة وشربتها بنهم وملأت لها صديقتها التي كانت تمسك بجرة مبرقشة كأساً أخرى أفرغتها بجرعة واحدة. اقتربت منها عندئذ صبية سوداء البشرة وقدمت لها على طبق مذهب كل ما لذَّ وطاب من أنواع الحلوى المصنوعة من سميد القمح والعسل والفواكه. تذوقته حليمة كله.

ـ كم هي جائعة! قالت إحدى الصبايا.

ـ وكم هي شاحبة. أردفت الأخرى باندهاش.

ـ لنضع لها أحمر الشفاه والخدود. اقترحت شقراء جُميلة.

ـ على الطفلة أولاً أن تشبع جوعها ـ علَّقت مريم ـ ثم التفتت إلى الفتاة السمراء التي كانت تحمل الطبق المذهب

ـ قشري لها إصبعاً من الموز أو برتقالة يا سارة. ثم التفتت نحو حليمة:

ـ أية فاكهة تفضلين يا طفلتي؟

ـ إني لا أعرف طعم أي منها. أريد فعلاً أن أذوق الاثنتين.

ـ أثار هذا ضحك الصبايا وابتسمت مريم. ابتسمت حليمة أيضاً عندما قدمت لها سارة الفواكه الغريبة التي لم تكن قد رأتها من قبل. لم تستطع أن تقاوم تلك الطيِّبات حتى أخذت تلحس أصابعها بعد أن التهمتها. ما أحسست بنفسي مرتاحة إطلاقاً بهذا الشكل ـ أسرَّت لهن ـ وضحك غامر أخذ بالفتيات من جديد، ولم تتورع مريم حتى من أن تفصح عن ابتسامة وهي تربت على وجه حليمة، التي أحسَّت بالدماء تسري ساخنة في عروقها. بريق شعَّ من عينيها، مستعيدة صفاء مزاجها، فأخذت تتحدث بثقة.

جلست حولها الصبايا، بعضهنَّ يطرِّزن، والأخريات يخطن، وجميعهن انهلن عليها بالأسئلة. ناولتها مريم عندئذ مرآة معدنية، وبدأت تضع لها أحمر الشفاه والخدود، وتكحل لها عينيها وحاجبيها.

ـ أنت تدعين حليمة ـ إذاً ـ قالت الشقراء التي اقترحت تزيينها ـ أمَّا أنا فأدعى زينب.

ـ زينب. اسم جميل أكَّدت حليمة.

ـ علا صوت الضحك من جديد.

ـ من أين جئت.

ـ من بخارى.

ـ أنا أيضاً جئت من هناك تدخلت جميلة ذات وجه مستدير كالقمر، وأطراف ممتلئة وذقن ناعمة ملتفة، وعينين مخمليتين دافئتين». أنا أدعى فاطمة. من كان سيدك السابق؟

أرادت حليمة أن تجيب لكن مريم التي كانت تجمل لها شفتيها قطعت عليها الإجابة.

ـ انتظري لحظة وأنتن لا تزعجنها.

قبلت حليمة لها أطراف أصابعها خلسة، مما جعلها تعرض نفسها للتعنيف:

ـ إبقي ساكنة أيتها الطفلة الشقية. إنما لم تستطع الأخرى أن ترمقها بنظرة قاسية.

أحست حليمة بأنها قد كسبت فعلاً ودَّ الجميع، مما أفعم قلبها بالاطمئنان.

ـ سيدي السابق؟ عادت إلى حديثها عندما فرغت مريم من طلاء شفتيها، وهي تنظر إلى نفسها بعجب في المرآة... كان تاجراً يدعى علي، فهو رجل مسنٌّ وطيبٌ

ـ لماذا باعك ما دام طيباً؟ قالت زينب.

ـ كان فقيراً، وألمّت به فاقة، لم يكن لدينا ما نأكل حتى، كل ثروة هذا الرجل الطيب كانت ابنتيه، وقد خدعه طالبا زواج منهما، ونكثا في تأدية حقه. كان له ابن أيضاً راح ضحية قطاع طرق أو مرتزقة ذلك المكان من دون شك.

ثم اغرورقت عيناها بالدموع.

ـ كنت منذورة له...

ـ من كان أهلك؟ سألت فاطمة.

ـ لم أعرفهم أبداً. لا أعلم شيئاً عنهم. أتذكر فقط أنني كنت أعيش عند التاجر علي. إذ طالما كان ابنه موجوداً كنا نستطيع أن نجد الكفاف بأية طريقة كانت. ثم عمَّ البؤس: كان سيدي يتألم كثيراً، يتعذب، ويقضي وقته بالصلاة، فأوحت له زوجته أن يصطحبني إلى بخارى ويبيعني. نقلني على حمار إلى المدينة وكلما كان يعرضني على واحد من التجار كان يستفسر: أين سيصحبونني وإلى من سيهدونني؟ إلى أن وجد أخيراً تاجراً

كان يشتري لصالح سيده. أقسم هذا الرجل بذقن النبي بأنني سأعامل كأميرة. وافق علي الطيب على الثمن. وذرف الدموع مدرارة عندما أخذوني وبكيت أنا أيضاً. وهاأنذا أجد أنّ البائع كان مصيباً وأجد نفسي حقاً كأميرة هنا. كانت ابتسامات تعلو شفاه الصبايا وقد بدا عليهنَّ التأثر، وهن يرمقن بعضهن بنظرات من عيون دامعة.

ـ سيدي أيضاً بكى عندما باعني ـ قالت زينب ـ أنا لم أولد أمة، إذ كنت ما أزال طفلة عندما اختطفني الأتراك، وأخذوني معهم إلى ما وراء فيافيهم. تعلمت ركوب الخيل، ورماية السهام كفتى. كانوا يعجبون أيضاً بعيني الزرقاوين وشعري الأشقر، وكانوا يأتون من البعيد ليتفرجوا عليّ، ويزعمون بأن هناك زعيماً مقتدراً لو علم بوجودي لاشتراني بالتأكيد. ومن ثم فإن حبيس السلطان قد أدركنا وقتل سيدي. كان عمري عندئذ عشرة أعوام. تقهقرنا أمام جحافل الأعداء في مجزرة راح ضحيتها الكثير من الرجال والخيول، ومنذ ذلك الحين أخذ سيدي لقب زعيم العائلة، واتخذني كزوجة شرعية له في حريمه. لكنَّ السلطان سلبنا كل شيء. فغدا سيدي شرساً. كان يبرحنا ضرباً كل يوم. فهو لم يشأ أن يذعن إلى سلطة الأمير. أخيراً عقد الزعماء السلم، فجاء تجار إلى عندنا وأخذوا يعملون بالنخاسة. لمحني أرمني، فتبع سيدي. أهداه المواشي والمال، ورأيتهما ذات يوم يدخلان خيمة: ما أن رآني سيدي حتى سحب خنجره، أراد أن يطعنني خوفاً من أن يغرَّر ببيعي. لكن التاجر حال دون ذلك. وانتهيا إلى عقد الصفقة. كنت أحس بأني سأموت. أخذني الأرمني إلى سمرقند. كان قبيحاً، وهناك باعني إلى سيدنا. لكن هذا قد مضى. . .

ـ تعذبت كثيراً، أيتها الصغيرة المسكينة فاطمة ـ تمتمت حليمة مداعبة لها وجهها بحنو.

ـ هل كنت زوجة سيدك؟ أرادت أن تعرف فاطمة.

شعرت حليمة بالدم يصعد إلى وجهها.

ـ ماذا تقصدين بذلك؟

ـ لا تطرحي عليها مثل هذه الأسئلة يا فاطمة ـ قالت مريم حانقة ـ ألا ترين أنها لا تزال صغيرة؟

ـ ألم يكن عليَّ أن أتجشم ذلك قبل أن يكون لي عمرها؟ تنهدت فاطمة ـ أقرباء لي باعوني وأخي إلى فلاح، كان عمري بالكاد عشرة أعوام عندما كان عليَّ أن أكون زوجته، وبما أنه كان مديناً وغير قادر على إيفاء دينه، فقد أعطاني إلى دائنه مقابل هذا الدين دون أن يعترف له بأنني كنت أعيش في مصاحبته، ممَّا جعل سيدي الجديد يوسعني بالإهانات، يضربني ويعذبني صارخاً في كل الجهات، بأننا قد خدعناه، الفلاح وأنا، مقسماً بكل الشهداء بأنه سيقتلنا.

لم أفهم من ذلك شيئاً. كان سيدي عجوزاً ودميماً. وكنت أرتجف أمامه كما لو كنت أمام السلطان. . . تمادت عليَّ زوجتاه الأوليان بالضرب، وسمح هو لهما بذلك. جاء بالمرأة الرابعة، وكان لطيفاً جداً معها، ممَّا لم يؤد إلاَّ إلى إيقاع كل فظاظته علينا، أخيراً، أنقذنا من قبل دليل قافلة سيدنا الذي اشتراني كي تزدان بي هذه الرياض. . .

كانت حليمة تنظر إليها عبر الدموع التي تنهمر من عينيها. ثم ابتسمت.

ـ وكما ترين ـ لقد انتهيت بالمجيء إلى هنا، حيث أنت بأحسن حال ـ قالت.

ـ حسبنا اليوم كلاماً. قاطعتهن مريم بعد قليل سيهبط الظلام، وأنت متعبة كثيراً. غداً سيكون لدينا شغل. إليك بهذا المسواك كي تنظفي أسنانك، كان عبارة عن عود تنظيف رفيع منتفش في نهايته خيوط دقيقة.

كان من السهل أن يكتشف المرء كيفية استعماله. ناولنها بوتقة ماء صغيرة، وعندما انتهت أخذنها إلى غرفتها.

ـ سيكون لك من زينب وسارة رفيقتان ـ قالت لها مريم.

حسن أجابت حليمة.

كانت أرض الغرفة مفروشة بسجادة مزركشة من الصوف السميك والجدران مغطاة بالسجاد أيضاً، والسرير المنخفض مجهَّز بالأرائك المطرَّزة بذوق. قرب كل سرير وضعت طاولة منحوتة بمنتهى الدقة فوقها رُتّبت حاجات الزينة مع مرآة مفضَّضة، وثريا مذهبة كانت تتدلى من السقف وتحمل خمسة مصابيح. ألبست الصبايا حليمة ثوباً طويلاً من الحرير الأبيض الفاخر، وعقدن لها شريطاً حول خصرها، وأخذنها أمام المرآة. سمعتهن حليمة يتهامسن بأنها كانت جميلة وفاتنة «أجل، أنا جميلة فعلاً ـ حدَّثت نفسها ـ جميلة كأميرة».

تمدَّدت على السرير، بعد أن رتَّبن لها الأرائك، غطَّينها بلحاف من الريش وانسحبن على رؤوس أصابع أقدامهن. دسَّت رأسها بين الوسائد الطرية، ونامت برهافة، مدركة أنها قد بلغت سعادتها حقاً.

أيقظتها أشعة الشمس الأولى التي كانت تلمع خلف النافذة، فتحت عينيها، وأخذت تتأمل الوجوه الملونة المرسومة على السجَّاد، وانطباعها الأول كان يوحي إليها بأنها ما تزال مسافرة. رأت على الجدران صياداً يمتطي حصاناً يطارد ظبياً ويحمل في يده رمحاً. تحته نمر وجاموس يتعاركان بضراوة، زنجيٌ خلف ترسه يوجه سِنَّ حربته على أسد مريع. فهو يترصد لغزال عادت إلى ذاكرتها عندئذ أحداث مساء الأمس: تذكرت أخيراً أين صارت. ـ عمتِ صباحاً أيتها المرموطة الصغيرة ـ حيتها زينب ـ وجلست على سرير صديقتها. نظرت اليها حليمة، وقد تملكها الإعجاب: كان شعرها البرَّاق كالذهب في الشمس يتهدل على كتفيها في خصلات مجعدة. «إنها لأجمل من جنيَّة» فكرت ـ ردَّت عليها التحية وهي مسلوبة اللبِّ، وألقت بنظرة على السرير الآخر. كانت سارة لا تزال نائمة، نصف مكشوفة، وجسدها الأسمر يلمع كخشب الأبنوس، أفاقت على محادثة جارتيها، فتحت عينيها اللتين كانتا تلمعان كنجمتين في الظلام. صوبتهما

على حليمة التي وجهت إليها نظرة غريبة. ثم سبّلتهما في الحال كسنور أربكته نظرة البشر. نهضت، اقتربت من سرير حليمة وجلست عليه بدورها.

ـ لم تسمعينا البارحة مساءً، عندما ذهبنا لننام ـ قالت ـ لقد قبَّلناك، لكنك، وبكل بساطة أدرت لنا ظهرك، وأنت تطلقين زمجرة استياء.

ضحكت حليمة على الرغم من أن نظرة الحسناء السوداء قد أخافتها نوعاً ما، لاحظت أيضاً الزَّغب الذي يعلو شفتها العليا.

ـ لم أسمعكنَّ قط ـ أجابت ـ كانت سارة تفترسها بعينيها، كان بودها أن تقبلها لكنها لم تتجرأ. ألقت على زينب نظرة عابرة ثم جلست أمام مرآتها لتسرّح شعرها.

ـ علينا أن نغسله لك اليوم ـ همست سارة إلى حليمة هل تسمحين بأن أكون أنا من ستقوم بهذه المهمة؟

ـ أود فعلاً.

كان لا بد لها من أن تنهض أخيراً، ورفيقاتها اصطحبنها إلى حجرة الحمامات المخصصة لاستعمالهن الخاص.

ـ أنتنَّ تستحممن كل يوم؟ قالت مندهشة.

ـ طبعاً، أجابت الشابتان ضاحكتين.

وضعنها في مغطس من الخشب، وقد تمادين بمضايقتها، صرخت، تنشفت، ثم وضعت ثوبها وهي منتعشة بحبور.

تناولن الغداء في حجرة مستطيلة الشكل لكل واحدة منهنَّ مكانها الخاص، أحصت حليمة الأمكنة فكانت أربعة وعشرين بما فيها مكانها، وفي الحال عرفت أين هذا المكان إنه الأفضل بالنسبة إلى الطاولة فقد أجلسنها إلى جانب مريم.

ـ ماذا تعرفين بالضبط؟ سألتها هذه فجأة.

ـ أعرف التطريز والخياطة والطبخ.

ـ هل تعرفين القراءة والكتابة؟

ـ أقرأ قليلاً.

ـ يجب أن تختمي ذلك كله. وفنَّ الشعر؟

ـ لم أدرسه.

ـ حسن سنعلمك كل هذا، وكثيراً من الأمور الأخرى.

ـ حبذا، قالت حليمة في اندفاع من الفرح الخالص. طالما رغبت في التعلم.

ـ لتعلمي أننا نتابع برنامجاً مدرسياً صارماً. لا بدَّ لك من متابعته بنظام. وأنبهك إلى شيء آخر: لا تطرحي أبداً أسئلة عن مواضيع ليس لها علاقة مباشرة بمواد التعلم. بدت لها مريم أكثر حدة وصرامة من يوم أمس. مع ذلك فقد وجدتها لبقة من ناحيتها، وتكن لها الودَّ حتى.

ـ سأطيعك في كل شيء. وسأفعل ما تقولين لي أن أفعله ـ وعدتها.

ـ كان من الواضح أن لمريم شأواً كبيراً بين رفيقاتها، وكان ذلك يستدعي فضول حليمة المحبطة، لكنها لم تتجرأ على السؤال.

تناولن فطورهن من الحليب والمعجنات المحشوة بالفاكهة المجففة والعسل، ثم أكلت كل واحدة منهن برتقالة بعد الإفطار بدأ الدرس. ذهبن إلى الغرفة الزجاجية المجهزة ببركة ماء.

في هذا المكان الذي أذهل حليمة يوم أمس، جلسن على الأرائك، ووضعن ألواحهن الصغيرة على ركبهن المثنية أمامهن، حضَّرن أقلامهن وانتظرن.

خصَّصت مريم مكاناً لحليمة وأعطتها ما تكتبه.

ـ افعلي بهذا مثلما ترين الأخريات يفعلن، على الرغم من أنك لا

تجيدين الكتابة بعد، سأعلمك ذلك لاحقاً. عوِّدي نفسك من الآن على الإمساك باللوح والبوص جيداً.

ثم توجهت نحو المدخل، وقرعت على الصنجة المتدلية على الجدار، وفي اللحظة التالية دخل الحجرة عبد عملاق، في يده كتاب ضخم، ويرتدي سروالاً قصيراً مخططاً، وجلباباً مفتوحاً من الأمام يتهدل حتى كعبيه، ينتعل نعلاً بسيطاً، وعلى رأسه عمامة خضراء ناعمة. تربَّع على أريكة معدَّة له. قبالة الفتيات البيضاوات.

ـ سنأخذ اليوم يا عصفوراتي، يا حماماتي الصغيرات آيات من القرآن.

وعند هذه الكلمة وضع جبينه على كتاب وبورع ـ حدَّثنا فيها النبي عن مباهج وملذات الحياة الآخرة. إني أرى بينكن شابة لم أرها من قبل، ذات نظرة ثاقبة، فضولية، تلميذة متلهفة إلى التعلم، إنها تسحر الألباب. وكي لا يفوتها أقل جزء من المعرفة أقل شيء من هذا العلم، فإن فاطمة البارعة، والنبيهة ستعيد على مسامعنا، وستشرح لنا ما نجح البستاني المتشكل عدي في غرسه وفي زراعته في قلوبكم الصغيرة. . .

نعم إنه عدي فعلاً الرجل الذي نقلها يوم أمس إلى هذه الرياض، لقد تعرَّفت حليمة على صوته في الحال. انتابتها رغبة في الضحك، لكنها تمالكت نفسها بشجاعة. رفعت فاطمة نحو المعلم ذقنها المستدير، وأخذت تستظهر من سورة الحجر، الآيات ٤٥-٤٨ بصوت رخيم، غنائي تقريباً: «إن المتقين في جنَّات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين».

أثنى عليها عدي ثم استظهرت آيات أخرى عن ظهر قلب. عندما انتهت التفت نحو حليمة:

ـ يا حلوتي الفضية ذات الخطوة الرشيقة، والذهن المتوقد، لقد أعجبتك تلك الدُّرر التي ازدانت بها تلاوة صديقتك الصغيرة عمراً، الكبيرة بحكمتها، وأدركت ما استطاع علمي وعميق فكري أن يبذره وينميه في

صدور حورياتنا ذوات العيون الجميلة. والآن انتزعي أنت الولدنة من صدرك أيضاً، وأعيري أذنك الذكية إلى ما توحي إليك به معرفتنا المقدسة إلى أن تصبحي سعيدة في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة.

أخذ بعد ذلك يهجئ ببطء كلمة كلمة، آية جديدة من القرآن. كانت الأقلام تجري وتصر على الألواح الصغيرة. وكانت الفتيات يكرِّرن ما كنَّ يكتبنه بصوت خافت وهن يحرِّكن شفاههنَّ قليلاً.

انتهت الحصة. استراحت حليمة من الإصغاء. كل شيء كان يبدو لها حينها مضحكاً، غريباً وغير واقعي. نهض العبد، وضع جبينه باحترام ثلاث مرات على الكتاب وقال:

ـ أيتها الشابات الحسناوات، تلميذاتي المجتهدات الرشيقات والحيويات، كم أنتن كذلك، يكفي علماً لهذا اليوم، ما سمعتنَّه قد نسخ بأمانة على ألواحكن، لترسخنه في عقولكن، ولتحفظنه عن ظهر قلب دون ان تغفلن أي شيء. واحرصن أخيراً على تثقيف هذه السُّماني الطريفة رفيقتكنَّ في العلوم المقدسة، وعلى استبدال جهلها بالمعرفة.

ابتسم كاشفاً عن صفين من الأسنان البيض، وقد جال بعينيه المستديرتين ثم غادر قاعة الصفِّ بوقار.

ما كادت تسدل الستارة حتى انفجرت حليمة ضحكاً. وقد سرت عدوى حبورها إلى الأخريات، لكن مريم سحبتها متخذة منها موقفاً جدياً.

ـ إيَّاك وأن تهزئي من عدي بعد الآن يا حليمة: هو يبدو غريباً للوهلة الأولى، إنما له قلب طيب وهو يقدم كل ما بوسعه من أجلنا: إنه يفهم الكثير من الأشياء سواء في تجويد القرآن أو الفلسفة الدنيوية، ملمٌّ بعلم العروض، وعلم البيان، ويعرف النحوين العربي والفارسي، ولسيدنا ثقة كبيرة به...

ـ أخفضت حليمة عينيها، وقد تملكها الخجل، لكنَّ مريم أضافت وهي تداعب وجهها:

ـ أنت ضحكتِ. لا بأس في ذلك. الآن فهمت. وللمستقبل فسوف تتصرفين بشكل مختلف. على هذا حيتها بإيماءة من رأسها، وتبعت الشابات الأخريات إلى الرياض.

صممت سارة على اصطحاب حليمة إلى غرفة الحمام كي تغسل لها شعرها بنفسها. بدأت بتشعيث شعرها ثم بتعريتها حتى خصرها، كانت يداها ترتعشان قليلاً، شعرت حليمة بشيء من الضيق، لكنَّها اختارت ألاً تعير ذلك أيَّ اهتمام.

ـ من يكون سيدنا إذاً؟ سألت.

كان فضولها أقوى منها، وكانت تدرك ومن دون أن تفهم سبب ذلك أن لها نفوذاً على سارة التي كانت مستعدة لتجيب على أسئلتها.

ـ سأقول لك كل ما أعرف. همست وقد اعترت صوتها رجفة غريبة. لكنَّ الويل لك إن خنتني. ومن ثم فيجب عليك أن تحبيني. هل تريدين أن تعديني بذلك؟

ـ أعدك بذلك.

ـ إننا ننتمي إلى سيدنا. مما يعني أنه رئيسنا. إنه سيِّد مقتدر، مقتدر جداً، لكن ماذا أقول لك أيضاً...

ـ تكلمي.

ـ ربَّما لن تريه إطلاقاً. نحن هنا منذ عام أنا وبعض الأخريات، وحتى الآن فإننا لم نلمحه.

ـ ومن يكون سيدنا؟

ـ صبراً، سأقول لك كل شيء. هل تعلمين من يكون الأول من الأحياء بعد الله؟

ـ الخليفة.

ـ خطأ، ولا حتى السلطان. الأول بعد الله هو سيدنا.

ـ حملقت حليمة بعينيها، مصعوقة، أحسَّت وكأنها تعيش حكاية من نسج الخيال، لا لم تعد تقتصر الآن على سماع الراوي. بل صارت هي نفسها جزءاً من القصة. . .

ـ تقولين إن أيّة واحدة منكنَّ لم ترَ سيدنا بعد؟

انحنت سارة نحو أذنها:

ـ بلى، واحدة منا تعرفه جيداً. إنمّا الويل لنا إن علم بأنّنا نتحدث عن هذا.

ـ سأكون صامتة صمت القبور. وإنما من هي التي تعرف سيدنا فعلاً؟

كانت تدرك من يمكن لها أن تكون، لكنها أرادت فقط أن تتأكد من ذلك.

ـ مريم ـ همست سارة ـ فقد نالت حظوته. . . لكن الويل لك إن خنتني.

ـ لن أتفوه بذلك إلى أحد.

ـ حسن. عليك أن تحبيني لأنني منحتك ثقتي.

ـ كان الفضول يقضُّ مضجع حليمة. سألت أيضاً:

ـ ومن تكون تلك المرأة العجوز التي التقيناها البارحة أمام المنزل؟

ـ أباما، لكنَّ التكلم عنها هو أخطر من التكلم عن مريم.

مريم طيبة وتحبنا، أباما شريرة وتمقتنا. هي أيضاً تعرف سيدنا جيداً. إنما انتبهي لا تفضحي نفسك، ولا تطلعي أحداً على ما تعلمين.

ـ لن أكشف عن نفسي أبداً يا سارة.

أسرعت الطفلة السوداء تغسل لها شعرها.

ـ أنت رقيقة جداً يا حليمة همست.

كانت الأخرى متضايقة، لكنها تظاهرت بعدم سماعها أي شيء.

فلا يزال لديها أشياء كثيرة تريد معرفتها.

ـ عدي هذا؟ تابعت.

ـ إنه خصيّ.

ـ خصيّ؟

ـ هو رجل لكن ليس رجلاً حقيقياً.

ـ لم أفهم شيئاً.

استرسلت سارة في شرح دقيق، فقطعت حليمة الحديث بتبّرم.

ـ لا أريد أن اسمع كلاماً من هذا القبيل.

ـ ستضطرين إلى سماع الكثير من الأشياء الأخرى عن ذلك.

أحست سارة بالإهانة، وعندما انتهت من غسل شعر رفيقتها، أخذت تغسله بالزيت المعطر وتقبلها، لكنَّ حليمة رمقتها بنظرة شزرة بحيث إن سارة خافت من المجازفة بأية حركة أخرى. دعتها إلى الخروج من غرفة الحمام، وخرجت بها إلى الشمس كي يجف شعرها سريعاً.

كانت هذه هي المرة الأولى حصراً التي تجد حليمة نفسها فيها وحيدة منذ أن دخلت هذا العالم الغريب. فهي في الواقع لم تكن تعرف شيئاً. لا أين كانت، ولا ما عليها أن تفعل، لم تكن محاطة إلاً بالأسرار. إنَّما لم يكن هذا مزعجاً بالنسبة لها. على العكس، لم تكن منحرفة المزاج في ذلك المكان اللائق بالجن والعفاريت، ومن ثم فقد كان لديها ما تشبع به فضولها، «من الأفضل أيضاً أن أتظاهر بالبلاهة ـ حدثت نفسها ـ هكذا لن تتجه الأنظار إليَّ، وسوف أستطيع أن أندسَّ فيما أقدر أنه ممكن. وإذا ما تصرفت بهذا الشكل فإن الأخريات سيحطنني بعنايتهن عن طيب خاطر...».

ما أباحت لها به سارة، رماها في عالم من الألغاز التي أرغمتها على التفكير بأن مريم التي عُرفت بوجهها المحبب جداً والطيب جداً، لها وجه مستتر آخر.

إنها في انسجام مع سيدنا؟ ماذا يمكن لهذا أن يعني؟ وما هي إذاً الامتيازات التي حظيت بها أباما الشريرة التي هي على صلة وثيقة بسيدنا أيضاً؟ والمضحك عدي، الذي وضع فيه سيدنا ثقة كبيرة على حد قول مريم؟

ثم من هو سيدنا المقتدر، والذي لا تتجرأ سارة أن تتحدث عنه إلا بصوت خافت؟ بما أنها لم تستطع الاستقرار في مكانها، فقد جازفت بنفسها منقبة في أحد الممرات. انحنت على إحدى الأزهار الصغيرة، فأجفلت الفراشات التي حطّت عليها النحل البري والحشرات المرقطة المحملة بغبار الطلع كانت تدنُّ حولها حشرات وبراغش صغيرة تطير في دفء الشمس الربيعي. أمدتها هذه المخلوقات الكثيرة بالفرح وبالتآلف مع الطبيعة بأسرها. حياتها القديمة المضجرة صارت إلى نسيان، مثلما نسِيتْ مخاوف وشكوك رحلتها الشاقة.

يطفح قلبها الآن بلذة وسعادة العيش. لقد أحسَّت أنها قد وصلت حقاً إلى الفردوس.

شيء ما تحرك في حرش الرمان، أرهفت السمع، ومن خلف الأغصان المقطوعة وثب حيوان مرن ذو قوائم دقيقة. «غزالة» ـ فكّرت ـ توقف الحيوان وتأملها بعينيه الجميلتين اللامعتين. قهرت الشابة أول مظاهر خوفها.

جلست القرفصاء ودعت الحيوان إلى الاقتراب مقلدة بشكل عفوي مفسر القرآن الغريب.

ـ أيتها الغزالة الصغيرة، أيتها النحلة الصغيرة، ثاغية تقتربين مني، رشيقة القوائم، رقيقة القرنين، أنت ترين، لا أستطيع أن أمضي في قولي إلى أبعد من ذلك، فأنا لست العالم عدي. اقتربي من حليمة الشابة، الجميلة والتي تحب الغزالة الصغيرة واللطيفة. . .

لم تستطع أن تكبح نفسها من الضحك على ذلاقة لسانها. اقتربت

الغزالة، وقد مدت خطمها إلى الأمام، وأخذت تشمها، وتلحس لها وجهها في مداعبة جميلة.

ضحكت الشابة، وأخذت هيئة الدفاع عن نفسها، بينما كان الحيوان يتمادى في مداعباته. فجأة، تراءى لها حضور كائن آخر، لم يكن أقل حيوية، استطاعت أن تسمع لهاثه، اقترب منها من الخلف إلى أن مسَّ أذنها، التفتت، وبقيت مسمَّرة في مكانها من الخوف. بالقرب منها تماماً، كان ينتصب أهريمان، الفهد الصغير، والذي أخذ بعد قليل ينافس الغزالة في مداعباتها باندفاع.

وقعت حليمة على قفاها، بحيث إن الوقت لم يسعفها بعد أن وثبت إلاً بالاستناد على يديها، لم تستطع أن تصرخ، ولا أن تنهض، وكانت عيناها تنمان عن قلق شديد. حدَّقت بالسنور المنتصب على قوائمه، تنتظر اللحظة التي سيثب فيها عليها، لم يكن لدى الحيوان أية نية عدوانية. كفَّ في الحال عن الانشغال بها، وأخذ يمرح مع الغزالة، يلتقطها من أذنيها، ويشرئب نحو عنقها، متكلفاً المشاكسة، كان عليهما أن يتعارفا، فقد أصبحا صديقين حميمين بشكل واضح تشجعت حليمة وضمت بين ذراعيها عنق كل من الحيوانين.

نخر الفهد وأخذ يهرُّ كهرٌ حقيقي، بينما عادت الغزالة تلحس وجه الشابة التي أخذت تتفنن في ملاطفة الحيوانين موجهة إليهما أرق كلماتها، لم تستطع أن تستوعب كيف بإمكان فهد وغزالة أن يكونا صديقين في هذا العالم، إذ إن الله، وبحسب قول النبي قد ادَّخر هذه الأعجوبة إلى قاطني الجنة.

سمعت أحداً يناديها، نهضت وأخذت الوجهة التي جاء الصوت منها، تبعها أهريمان، ترافقه الغزالة التي تشبثت برغبتها في المداعبة، موزعاً لها ضربات قوية على يسارها وعلى يمينها متعمداً التنكيد عليها.

انضمت حليمة إلى رفيقاتها اللواتي كنَّ ينتظرنها من أجل حصة الرقص.

عقصن لها شعرها إلى الأعلى خلف رأسها واصطحبنها إلى الصالة الزجاجية.

معلم الرقص هو الخصّي أسد، رجل شاب، متوسط القامة، أمرد الوجه، ذو قسمات أنثوية تقريباً، هو أيضاً أفريقي وذو بشرة غامقة إنما أقلُّ سواداً من عدي. وجدته حليمة ظريفاً ومسلياً. عند دخوله خلع جلبابه الطويل، ووقف أمامهن، وهن يرتدين سراويل صفراً قصيرة جداً، انحنى وقد علت ثغره ابتسامة ودية، فرك يديه بهيئة فرحة، وبعد أن دعا فاطمة لتجلس أمام قيثارتها، أخذ يتلوى ببراعة على نغم الآلة، أهم ما في فنه كان يتركز على حركية بطنه والتحكم بعضلاته. حركة ذراعيه الدائرية وخطوته الراقصة لم تكن إلا نوعاً من المرافقة الإيقاعية لباليه حقيقية وقد طيَّع لها حركات بطنه، وضَّح الراقص ما عليهن أن يفعلن، وكان لا بد للصبايا من أن يبذلن كل ما بوسعهن لتقليده، طلب منهن أن ينتزعن صدارتهن، وأن يتعرَّين حتى الوسط. كانت حليمة متضايقة للغاية، لكنها عندما رأت الأخريات يمتثلن دون قلق قلَّدتهن طوعاً، وبعد أن سمى الأستاذ زليخة وفاطمة كأفضل الراقصات، تناول نايه وأخذ يعزف. كانت حليمة وحدها من تملَّت زليخة حينئذ: كانت بشكلها العام أجملهن جميعاً، بأطرافها الممتلئة الغضة، ومخملية جسدها الناعم، إنها الأولى في مجموعتها، وتعمل كمساعدة لمعلم الرقص، تنفذ تماماً ما كان يبتغيه ولم يكن على الأخريات إلاَّ تقليدها باذلات في ذلك أقصى جهدهن.

والناي في يده، كان معلم الرقص، يتنقل بينهن معايناً بعين الخبير مرونة وعمل العضلات، مصححاً ومبيناً بنفسه ما كان عليهن أن يفعلن. . .

بعد الدرس، أحسَّت حليمة المتعبة بالجوع ينهشها. مضينَ إلى الرياض، حريصات على ألاَّ يبتعدن كثيراً، لأن مادة جديدة تنتظرهن: إنها مادة العروض أسرَّت حليمة إلى سارة بأن عصافير بطنها تزقزق. فأشارت

إليها هذه بأن تنتظرها. ثم اختفت داخل القصر. عادت سريعاً ودسَّت لها في يدها موزة انتزعت قشرتها وقالت:

ـ ليس من المسموح أن نأكل بين الوجبات. مريم صارمة جداً حيال هذه المسألة. إنها تخشى علينا من البدانة، ستعاقبني بالتأكيد لو عرفت بما قمت به.

ـ لا يتجرأن على الأكل خوفاً من السمنة. هذا ما كان بالنسبة لحليمة شيئاً جديداً. فالعكس هو الصحيح! إذ كلما كانت المرأة مكتنزة، كلمَّا امتدحت. ما أخبرتها به سارة لم يكن إلاً مزحة جديدة، لان هذه المنطقة الرائعة تفيض بكل ما يطيب للنفس!

كان عليهن أن يعدن إلى قاعة الصف. أستاذهنَّ في الشعر هو عدي. وجدت حليمة في هذا، مادة من أمتع المواد، وتحمست لها في الحال.

شرح لهن أستاذهن المحبب أول بيت من قصيدة في الغزال (Gazhal) حيث أخذت كل الفتيات في شحذ مخيلتهن، وأنشدت مريم إثر ذلك البيت الذي كان عليهن أن يرتجلن أبياتاً على نمطه، وما تبقى من الوقت كان وقت فراغ، أخذت الفتيات يتنافسن في ما بينهن على نظم الشعر، بعد عشرة أبيات كان أكثرهن قد استنفد قدرته على الإبداع. وحدهما فاطمة وزينب ما زالتا تتنافسان بإصرار وقد توقفتا على مضض على الرغم من كل شيء.

لم يضايق عدي حليمة في المحاولة الأولى والثانية. فلا بد لها أن تألف ذلك بالطبع، ولكم وجدت متعة لدى سماعها إياه يدعوها لتحضير نفسها من أجل المحاولة الثالثة.

كانت ضمنياً تحس بشيء من التخوف، لكنها وأمام الثقة التي أظهرنها لها، تشجعت ورغبت من عميق نفسها أن تجاري الأخريات.

نطقت مريم بالشطر الأول:

ـ «لو كان لي جناحا الطائر السماوي...»

انتظر عدي بضعاً من الوقت. ثم سألهنّ كلاً بدورها:

ـ زليخة: «لطرت إلى شمس الصيف...»؛

ـ سارة: «لصرت مفعمة بالطيبة...»؛

ـ عائشة: «لواسيت كل المساكين...»؛

ـ سيت: «لغنيت غناء يفيض بالبهجة...»؛

ـ جادا: «لسعيت دوماً للبحث عن الحقيقة...»؛

في هذه اللحظة أشار عدي إلى حليمة برأسه، ودعاها لأن تكمل بمودة

حاولت وهي خجلى: «لو ددت معك...»؛

نسيت ما كانت تريد أن تقول. توقفت.

ـ كان الكلام على طرف لساني. قالت معتذرة.

ضحكن جميعاً. وأشار عدي إلى فاطمة:

ـ هيا أيتها الصغيرة فاطمة: تعالي لمساعدتها.

أكملت فاطمة بيت حليمة: «لأردت أن أحلق معك نحو الخلود».

أسرعت حليمة إلى استرجاع دورها.

ـ لا ليس هذا ما كنت أنوي قوله ـ قالت مغتاظة، انتظرن سأتوصل إلى ذلك بنفسي.

قالت وقد رخّمت صوتها:

ـ «لانطلقت معك إلى السماء اللازوردية.»

ضحك صاخب رافق كلماتها. نهضت وقد احمرَّ وجهها من الغضب والحياء، هرعت نحو الباب لكن مريم سدَّت عليها الطريق، وهرعن كلهن عندئذ لمواساتها، وأخذن يشجعنها، شيئاً فشيئاً، هدأت وأخذت تمسح دموعها. وضح عدي بأن الشعر زهرة يمكن للجميع اقتطافها إنما ثمن ذلك هو الجهد الدؤوب. وإن هي أخطأت في المرة الأولى، فإن هذا لا

يعني أن تثبط همتها. ثم طلب من الصبايا متابعة ذلك. لقد استنفدن ما لديهن من القوافي، وبقيت فاطمة وزينب وحدهما تحاوران:

ـ فاطمة: «أفيدي يا حليمة من التعلُّم المسموع».

ـ زينب: «ليس لك أية سلطة كي تتكلمي هكذا يا فاطمة. بحسب ما أعلم».

ـ فاطمة: «لو كان لي من العلم أوسع منك، لما تباهيت بذلك أبداً».

ـ زينب: «اكبحي نفسك أيتها الصداميّة».

ـ فاطمة: «ما يزعزع سكونك هو حضور بديهتي».

ـ زينب: «أبداً، لا خلاف إلا في تباهيك».

ـ فاطمة: «حسن وفخار، قرينتان تتلازمان، بدلاً من الضعة التي يولدها القبح عندك».

ـ زينب: «أتقصدينني؟ بكل فحش دمامتك؟».

ـ فاطمة: «آه ياللهول! أَوَ تَحسبين هزالك على أنه رشاقة؟».

ـ زينب: «على أية حال فأنا أضحك فقط من عماك».

ـ فاطمة: «وما رأيك بسذاجتك؟».

ـ زينب: «تعتقدين بأنك تعوضين عن تفاهتك».

ـ يكفي يا صغيرتي ـ قال عدي متدخلاً ـ فبالقوافي الجميلة، والأقوال المأثورة تصادمتما، وتخاصمتما، وتفسختما، وجرحتما بعضكما بعضاً، وتمازقتما بكلام بارع، لقد تبادلتما الورود، وتراشقتما بالنظرات السود، لتنسيا مشادتكما الآن، ولتصلحا ما بينكما. لتتسابقا إلى المنافسة في المعرفة، والمناظرة الخطابية. والآن، هيا إلى المطعم للتلذذ بالمآكل. . . على هذا، انحنى بلباقة، وغادر قاعة الصف، وما لبثت الفتيات أن حذون حذوه، متلهفات لأن تذهب كل واحدة وتأخذ مكانها في غرفة الطعام. على عكس وجبة الفطور التي كانت تنتظرهن على الطاولة، فإن هذه الوجبة قدمت لهن من قبل ثلاثة خصيان: حمزة، وطلحة، وسهيل، وفي

هذه المناسبة علمت حليمة أن هناك سبعة خصيان مكرسين لخدمتهن. فبالإضافة إلى المعلميْن اللذيْن عرفتهما، والثلاثة الذين يقدمون الطعام، هناك اثنتان من تلك الشخصيات الغريبة، كانا مكلفَيْن لصيانة الحدائق: معاذ، ومصطفى. والمطبخ كان من شأن أباما. ولم يكن على حمزة وطلحة وسهيل إلا مساعدته، إذ كانوا متفرغين للأعمال المنزلية، ينظفون، ويرتبون الأثاث، ويقومون بالجلي، ويسهرون على النظام، ويحرصون على نظافة ما يوجد في المنزل.

كل الخصيان، وهكذا أباما، يسكنون في روض معزول بخنادق عن المبنى الذي تقيم فيه الفتيات، لهم مبناهم الخاص، بينما تسكن أباما بمفردها في منزل صغير.

كثير من الأمور كانت تثير فضول حليمة، لكنها لم تكن تتجرأ على طرح أي سؤال في حضور مريم، كانت تنتظر اللحظة التي تنفرد فيها مع سارة بفارغ الصبر. بدت لها الوجبة كمأدبة حقيقية مشاوٍ طازجة من لحم الطيور مع قدير، خضراوات متنوعة، أصناف مقلية، جبنة وكعك، سكاكر بالعسل، مع فاكهة مطبوخة، في الختام كوب من شراب كان يصعد إلى رأسها بشكل غريب.

ـ هذا شيء من الخمر، همست سارة. يسمح لنا به سيدنا بعد الغداء. ذهبتا إلى غرفتهما، وهناك صارتا وحيدتين، في جعبة حليمة كثير من الأسئلة ستطرحها:

ـ كيف يكون لسيدنا الحق بإباحة الخمر في حين أن النبي حرمه؟

ـ له الحق بذلك. قلت لك إنه هو الأول بعد الله. إنه نبي جديد.

ـ ألم تقولي أن أية واحدة منكنَّ لم ترَ سيدنا ما عدا أباما ومريم؟

ـ لا أحد سوى عدي. رجله المؤتمن. لكنَّ أباما وعدي يبغضان بعضهما بغضاً شديداً. بشكل عام أباما لا تحب أحداً. كانت جميلة جداً في شبابها، إنَّما زمنها قد ولى والغيظ يجهز عليها.

ـ لكن من تكون بالضبط، أباما هذه؟

ـ صهِ، إنها امرأة بغيضة، تعرف كل أسرار الحب، جاء بها سيدنا إلى هنا، كي تعلمنا ما تعرفه. سترين بعد الظهر، يبدو أنها قد عاشت شبابها طولاً وعرضاً.

ـ لماذا علينا أن نتعلم الكثير من الأمور؟

ـ لا أعلم بالضبط، لكنني أظن أنَّ علينا أن نُعدَّ من أجل سيدنا.

ـ هل نحن منذورات له كحريم؟

ـ ربما. والآن قولي لي هل أحببتني؟

ـ تكدّرت حليمة، كان مما يعكرها جداً أن تسألها سارة عن مثل هذه البلاهات في الوقت الذي لا يزال لديها الكثير من الأشياء المبهمة التي تبحث عن معرفتها.

استلقت على ظهرها فوق سريرها، وقد أخذت رأسها بين يديها، وهي تنظر إلى السقف.

جلست سارة على السرير بالقرب منها، وأخذت تتأملها من دون حراك. وفجأة انحنت عليها وأخذت تقبلها بلهفة، تظاهرت حليمة في البداية بجهلها معنى هذه القبلات، أمّا وقد احتدم هياجها في آخر المطاف فقد انتهت بأن دفعت سارة.

ـ أريد فعلاً أن أعرف ما ينوي سيدنا أن يفعله بنا.

لأمت سارة إهانتها وأخذت ترتب شعرها.

ـ بودي لو أعرف ذلك فعلاً، لكنَّ أحداً لا يتحدث عنه أبداً.

ـ بل من المحظر طرح أسئلة حول هذا الموضوع.

ـ هل تظنين أن من الممكن لنا أن نهرب من هنا؟

ـ هل أنت مجنونة، ما كدت تصلين حتى أخذت تطرحين أسئلة كهذه؟ ليت أباما تسمعك! أفلم تري تلك التحصينات؟ إلى تلك الصخرة الوعرة؟

إنها الباب الوحيد للخروج إلى العالم، حاولي اجتيازها لو كنت تتجرأين.

ملك من إذاً هذه القلعة؟

ـ ملك من؟ كل ما ترينه هنا، وكل مكان حولنا بما فيه نحن هو ملك سيدنا.

ـ سيدنا يسكن هذا القصر من دون شك؟

ـ لا أدري. ربَّما.

ـ وربَّما لا تعرفين أيضاً ماذا يسمى هذا الإقليم؟

ـ أجهل ذلك. أنت تسأليني الكثير. من الجائز أن يكون عدي وأباما يجهلان ذلك. مريم فقط...

ـ لماذا مريم فقط...

ـ ألم أقل لك إنهما على صلة وثيقة؟

ـ ماذا يعني هذا. كانا على صلة وثيقة؟

ـ هذا يعني أنهما كانا كزوج وزوجة.

ـ لكن من قال لك ذلك؟

ـ صهِ! اكتشفنا ذلك بأنفسنا.

ـ لم أفهم.

ـ من الطبيعي أن لا تفهمي. طالما أنك لم تعيشي في حريم أبداً.

ـ أنت عشت في حريم إذاً؟

ـ نعم يا عزيزتي! ليتك تعرفين! كان الشيخ معاوية بمثابة عشيق لي. في البداية كنت أمته، اشتراني منذ كان عمري عشرين عاماً. ثم صرت عشيقته، تماماً مثلما ترينني ألازمك الآن. ذات يوم كان يجلس على حافة سريري، وكان ينظر إلي.

«يا قطتي السوداء الصغيرة اللذيذة...» هذه هي كلماته التي كان

يستخدمها. عانقني. ليتني أستطيع أن أصف لك ما أحسست به. كان رجلاً وسيماً، كل نسائه كن غيوراتٍ مني. لكن لم يكنَّ يستطعن أن يفعلن شيئاً للنيل مني، لأنه كان يؤثرني، لقد شِخْنَ من الغضب والغيظ مما زادهن قبحاً في نظر ذاك الذي كنَّ يحاولن إغراءه. كان يصطحبني معه في أسفاره. وذات يوم هاجمتنا قبيلة معادية، وقبل أن يتمكن رجالنا من اتخاذ وضعية الدفاع خطَفني هؤلاء اللصوص، واصطحبوني معهم. باعوني في سوق البصرة إلى سيدنا. حيث كنت تعيسة إلى أبعد الحدود.

انفجرت في نحيب. ودموع غزيرة انهمرت على صدر حليمة.

لا تحزني يا سارة، فأنت في النهاية في حال جيدة معنا.

ـ ليتني أعرف إن كنت تحبينني قليلاً، كان معاوية جميلاً جداً وكان يحبني حباً جمًّا.

ـ لكنني أحبك فعلاً يا سارة ـ قالت حليمة ـ وأخذت تقبلها... كي تعود إلى أسئلتها في الحال.

ـ ومريم؟ هل تعرفين إن كانت قد عاشت هي أيضاً في حريم؟

ـ نعم، لكنها لم تلقَ القدر نفسه، كانت كأميرة، ورجلان لقيا حتفهما من أجلها.

ـ لماذا جاءت إلى هنا إذاً؟

ـ أهل زوجها باعوها كي ينتقموا منها، لأنها لم تكن مخلصة، كل أقارب زوجها كانوا يرونها خائنة.

ـ لماذا كانت خائنة؟

ـ لا تزال هذه الأشياء بعيدة عن متناول فهمك يا حليمة إنه لم يكن الرجل الذي يناسبها.

ـ بالتأكيد لم يكن يحبها.

ـ أوه، بلى، كان يحبها، لقد مات من فرط حبه لها.

ـ كيف استطعت معرفة ذلك؟

ـ هي حكت لنا كل شيء عند قدومها.

ـ لم تكن معكنَّ إذاً منذ البداية؟

ـ لا، ففاطمة، وجادا وصفية وأنا، كنَّا الأوائل في هذا المكان. مريم أتت في ما بعد. في ذلك الوقت كنا جميعاً نعامل على قدم المساواة. أبَّاما وحدها من كانت ترأسنا.

ـ إنّما لابدَّ أنك تعرفين كيف تعرفت على سيدنا؟

ـ ليس لديَّ ما أقوله لك عن ذلك بعد. سيدنا نبي، لا بدَّ من الاعتقاد بأنه يعلم كل شيء. يرى كل شيء.

استدعاها ذات يوم، ولم تبح لنا هي بذلك. لكننا نحن حدسنا هذا. من ذلك الحين لم نعد نُعتبر متساويات معها. صارت هي من تعطينا الأوامر وأخذت تضارع أباما. ومن ذاك الحين أخذت سلطتها تتعاظم، لا بد لأباما حتى من أن تدين لها بالطاعة... وأن تكنَّ لها بغضاً مقيتاً.

ـ هذا غريب للغاية.

دخلت زينب وجلست أمام مرآة مزينتها، كي ترتب شعرها وتتزين.

ـ حان الوقت يا حليمة الآن ـ قالت ـ يبدأ الآن دور أباما لا داعي لأن تعرضي نفسك للسانها. الويل للواتي يتأخرن في الوصول إلى قاعة الدرس. إليك بالحمرة والكحل كي تزيني وجنتيك وحاجبيك، وبمستخلص الورد كي تتعطري. أعطتني مريم هذا من أجلك هيا انهضي!

ساعدتها زينب وسارة في ترتيب نفسها. ولشدّت ما شق على حليمة أن تحبس نفسها عن الانفجار ضحكاً عند دخول أباما، لكنّ نظرة العجوز والصمت المخيف قد دفعا بها إلى اتخاذ حذرها.

نهضت الصبايا وانحنين باحترام.

كانت المرأة العجوز ترتدي زيًّا غريباً. ساقاها اللتان برزت عظامهما كانتا تتموجان تحت سروال حريري فضفاض. وقد وضعت صدارة حمراء مطرزة بخيوط ذهبية وفضية، واعتمرت عمامة صغيرة صفراء تزينها ريشة طويلة من ريش مالك الحزين، وأقراط ذهبية كبيرة مطعمة بالأحجار الكريمة تتدلى من أذنيها، بالإضافة إلى عقد من اللآلئ الكبيرة يلتف عدة أدوار حول رقبتها. وخلاخيل ثمينة ودقيقة الصياغة في معصميها وفي عرقوبيها. ما كان لهذا البذخ إلاً لأن يكشف عن عمرها ويبرز قبحها. فطلاء شفتيها وخديها الفاقع الاحمرار، وسواد حاجبيها المصطنع جعلاها تبدو كفزّاعة متحركة.

أوعزت إلى الفتيات بالجلوس، بحثت عن حليمة بعينيها، وقد بدر منها هزء صامت ثم أخذت تهدر:

ـ آه، لقد برَّجتُنَّها جيداً، هذه الصغيرة! إنها تفتح عينيها الواسعتين كعجلة مدللة لم يسبق لها أن رأت ثوراً على الإطلاق، أو فكرت بما ينتظرها. أرهفي السمع إذاً، وابذلي ما بوسعك كي تتعلمي أخيراً شيئاً مفيداً، لا تتصوري بأن رفيقاتك قد خُلقن عالمات، ربما تكون حواسهن قد استيقظت في الحريم، قبل مجيئهن إلى مدرستي، إنّما هنا قد بدأن يعرفن أي علم عسير تتطلبه خدمة الحب. في بلدي في الهند يبدأون في تعلم هذا العلم منذ نعومة أظفارهن، لأن من الحكمة ما قيل بأن الحياة قصيرة إذا ما قورنت بطول فضيلة المعرفة. هل تعلمين أيتها التعيسة ما هو الرجل؟ هل تعلمين لماذا لم يكن هذا الرجل الشنيع رجلاً بالفعل؟. . . تكلمي. . .

ارتعدت أوصال حليمة، كانت تجول حولها بنظرات يائسة تبحث عمّن يحميها. لكنّ كل الصبايا كنّ ينظرن أمامهن بإصرار وعيونهن مشدودة إلى الأرض.

ـ يبدو أن لسانك قد بقي ملتصقاً في قصرك أيتها المسكينة البلهاء ـ قالت العجوز بشراسة ـ انتظري سأشرح لكنَّ ذلك.

أخذت تبين بنوع من المجون عن الجزء الذي تتم فيه العلاقات بين الرجل والمرأة. خجلت حليمة خجلاً شديداً بحيث لم تعد تعرف أين تنظر.

ـ هل فهمت الآن أيتها الصغيرة؟ سألتها في النهاية العجوز المسنة.

أومأت حليمة بحياء أن نعم. على الرغم من أنها لم تفهم إلا نصف الكلام الذي تلفظت به الأخرى، والقسم الباقي لم يكن واضحاً أبداً...

ـ هذا عقاب من الله نفسه. إنّما هو وحده العظيم من يلزم بإيصال هذه الحكمة السامية إلى رؤوس الإوزات! ـ قالت بحنق.

هل لدى تلك الصراصير فكرة عمّا يلزم من علم، ومن حسٍّ فطري في سبيل إرضاء السيد أو العشيق في كل شيء؟ بالتطبيق، التطبيق دائماً هو ما له أن يمضي بالتلميذ إلى الهدف من حسن الحظ أن قدرك المنصف قد وفر لك كل فرصة في سبيل إرضاء شبقك، ودون أن تسببي مساساً بفن الحب السامي. لتعلمن أن الرجل أشبه ما يكون بقيثارة حساسة، وعلى المرأة أن تعرف كيف تعزف عليها الكثير من الأنغام. لا تستطيع الجاهلة البلهاء أن تعزف عليها إلاً بضعة إيقاعات، أما الموهوبة المتعلمّة فسوف تعرف كيف تبتكر من تلك الآلة مقامات جديدة. قردة جاهلات!

لا بدَّ لكن من أن تجدن عزف الكثير من التقاسيم الصادرة من هذه الآلة البارعة والتي عهد إليكن بها، أرجو ألاً يكبدني من هن من أصحاب المعرفة غرامة الندم على عدم سماع ضربات جديدة تخرج من تحت أصابعكن مصحوبة بصرير وصئي.

استرسلت عندئذ في عرض دقيق لممارسات قائمة على ما سمته علمها النقي، وفنها الإلهي حتى علت حليمة عندئذ حمرة الخجل حتى عنقها وأذنيها.

مع ذلك، وعلى الرغم منها، كانت تصغي وفضول محموم يجتاحها. لو كانت وحيدة مع سارة على الأقل، من دون مريم التي كان حضورها يسبب لها مضايقة كبيرة لأمكن لشروحات أباما أن تمتعها. إنَّما في الظروف الحالية لم تكن لتستطيع أن تكفَّ عن خفض عينيها، كانت تشعر بنفسها ودون أن تعرف السبب خاطئة ومواطئة.

انتهت أباما أخيراً. غادرت حجرة الصف بتعجرف ومن دون أن تستأذن أو تنحني. أسرعت الصبايا إلى الخارج متلهفات لقضاء بعض الوقت في الاستراحة. انتشرن في مجموعات صغيرة ضمن الرياض، تعلقت سارة بحليمة التي لم تكن تتجرأ على النظر في مريم، إنَّما مريم نادتها بنفسها، حضنتها من خصرها وجذبتها إليها وسارة تتبعهما كظلهما.

ـ هل اعتدت قليلاً على نمط حياتنا؟ سألتها مريم.

ـ يبدو لي كل شيء غريباً وجديداً. أجابت حليمة.

ـ أرجو ألاَّ تكوني مستاءة هنا؟

ـ أوه على العكس! في هذه الحياة كل ما يدعو إلى السرور. فقط هناك أشياء كثيرة لم أستوعبها.

ـ بطول البال يا جميلتي كل شيء بأوان.

وضعت حليمة رأسها على كتف مريم. ونظرت إلى سارة خلسة تملكتها رغبة في الضحك، وقد لمست نظرة صديقتها السمراء الناطقة بعذاب الغيرة.

«إنهن يحببني» ـ حدثت نفسها ـ وهذا ما كانت تستعذبه.

أدى بهن الممر وعبر مشاتل كثيفة إلى حافة مشنَّفة فوق المجرى المائي الذي كان يتدفق هادراً في أعماق الوادي الصخري. لاحظت حليمة أن الحدائق قد أقيمت وسط الصخر. زواحف كانت تتدفأ في الأسفل تحت

أشعة الشمس على أكمة كانت تشرف على المجرى، وظهورها تلمع كالزمرد.

ـ انظري كم هي جميلة ـ قالت مريم بدهشة.

ارتعشت حليمة.

ـ تُبّاً لها! إني لا أحبها أبداً فهي شريرة.

ـ لماذا؟

ـ يقال إنها تأكل البنات.

ابتسمت مريم وسارة.

ـ من حكى لك هذا. يا طفلتي العزيزة؟

خافت حليمة لما تلفظت به من حماقة جديدة، فأجابت بحذر:

ـ كان سيدي القديم يقول باستمرار: «لتخشْين الصبيان! فإذا ما مروا فوق الجدار وتسللوا إلى الحديقة، فاهربي أمامهم، لأنهم بالتأكيد يخفون سحلية أو أفعى تحت ثيابهم. ولو أفلتوها عليكن فالويل من لدغتها!».

انفجرت مريم وسارة ضحكاً. كانت سارا تلتهم حليمة بعينيها. عضّت مريم على شفتيها، وطمأنت ربيبتها:

ـ هيَّا لا يوجد هنا صبيان أشرار، إضافة إلى أن زواحفنا ساكنة وأليفة للغاية، فهي لم تؤذِ أحداً على الإطلاق.

صفرت إثرَ هذه الكلمات، فأدارت الزواحف رؤوسها في كل الاتجاهات، كما لو كانت تبحث عن معرفة من يناديها، مكثت حليمة بين مريم وسارة فقوي إحساسها بالأمان.

ومن صدع صخرة، ظهر رأس مخروطي، وبسرعة البرق مدَّ بلسان صغير مشقوق عدة مرات على التوالي. كان الرأس يرتفع شيئاً فشيئاً إلى الأعلى، وما فتئ عنقه المرن يشرئب.

ليس هناك أي شيء يرقى إليه الشك:

أمام ناظريها، استمال صفير حيَّة كبيرة صفراء ضاربة إلى السمرة، تدب زاحفة خارج الصدع. أطلقت حليمة صرخة، وقد أرادت أن تجذب إليها مريم وسارة فبذلتا ما بوسعهما لتهدئتها.

ـ لا تخافي يا حليمة ـ قالت مريم ـ نحن نسميه «بيري peri» يكفينا أن نصفر فتخرج الأفعى من مخبأها، وتلتف نحونا، إنها وديعة ولا يمكن لأحد أن يشكو منها، بصورة عامة، فإننا حيوانات وبشراً نعيش في وفاق ضمن هذا الرياض: منقطعين عن بقية العالم، نحن سعداء بوجودنا معاً. هذا كل شيء.

ـ أرجوكما. لنرحل ـ قالت متوسلة.

امتثلتا وهما تضحكان.

ـ لا تكوني فزعة جداً. بكَّتتها مريم. أنت ترين جيداً أننا جميعاً نحبك هنا.

ـ هل توجد حيوانات أخرى؟

ـ ستجدين الكثير مما يثير إعجابك. هنا معرض للوحوش حتى. لكن المرء لا يستطيع أن يذهب إلى هناك إلاً بالقارب. اطلبي من عدي أو مصطفى عندما ستجدين الوقت كي يقلاًك إلى ذلك المكان.

ـ أوه بكل سرور. المكان الذي نقيم فيه واسع جداً إذاً!

ـ واسع بحيث إن من الممكن لمن يضل فيه أن يموت جوعاً.

ـ أوه! لن أجازف بذلك إذاً بمفردي.

ـ مع ذلك، فليس في هذا شيء بالغ الخطورة. فالروض الذي نعيش فيه، هو في الواقع نوع من جزيرة محاطة من جهة بالمجرى المائي، ومن كل الجهات الأخرى بمنحدرات حصينة. هذه الجزيرة ليست بكبيرة جداً، وإذا لم تخرجي منها، أَيْ إذا لم تجتازي النهر فإنك لن تضلِّي...

إنما هناك، ومن خلف تلك الأسوار الصخرية تبدأ الغابات المأهولة بالفهود المفترسة. . .

ـ لكن كيف استطعت الآن أن تضعي يدك على أهريمان الأنيس جداً والهادئ جداً؟

ـ لقد وُلد في هذه الغابات نفسها من وقت قريب. كان لا يزال يشبه هرّاً صغيراً. غذَّيْناه بحليب الماعز، ونتحاشى حتى الآن أن تقدم له أصغر قطعة من اللحم، خوفاً من يصبح مفترساً.

مصطفى من أحضره لنا.

ـ أنا لا أعرف مصطفى.

ـ هو رجل شهم كما هي حال كل خصياننا. في الماضي، كان حامل المشعل عند أمير مشهور. كان عمله شاقاً ولهذا هرب، فعهدت إليه صيانة رياضنا مع معاد. لقد حان الوقت للدخول إلى قاعة الدرس ستعلمنا فاطمة وزليخة الموسيقى والغناء. فاطمة تغني غناءً عذباً.

ـ هذا يسرني! . . .

كانت حصة الموسيقى والغناء عبارة عن استراحة جميلة بالنسبة إلى الصبايا، فمريم كانت تمنحهم كل الحرية، كنَّ يغيِّرن أماكنهنَّ، ينفخن في المزامير، ويعزفن على القيثارة والمزهر. ويضربن على العود المصري، يؤلفن ويغنين أغنيات هزلية صغيرة، يتبادلن النقد، ويتنافسن متنازعات. ولا جدوى من الجهود التي كانت تبذلها فاطمة وزليخة من أجل فرض سيطرتهما، إذ كانتا تضحكان هما أيضاً، وترويان على مسامع بعضهما الحكايا، وتبطران بابتهاج تعلقت سارة بحليمة من جديد.

ـ أنت مغرمة بمريم. رأيت ذلك جيداً.

رفعت حليمة بكتفيها.

ـ لن تستطيعي أن تخفي علي ذلك. فأنا أقرأ ما تنطوي عليه سريرتك.

ـ حسن، وبعد؟

ـ امتلأت عينا سارة بالدموع.

ـ أنتِ وعدتِني أنك ستحبينني.

ـ لم أعدك بشيء.

ـ أنت تكذبين. فلأنك قد تعهدْت بذلك وضعت فيك كل ثقتي.

ـ لا أريد التحدث عن تلك الأمور.

خيَّم صمت عام. وصمتت سارة وحليمة بدورهما. وقد أصغتا فجأة. تناولت فاطمة قيثارتها، ثم بعد قليل رافقت ألحانها بأغان جميلة قديمة، موضوعها الحب. كانت حليمة متأثرة بكليتها.

ـ هل تستطيعين أن تسجلي لي هذه الكلمات؟ طلبت من سارة

ـ سأفعل ذلك، لو كنت تحبينني.

أرادت أن تتعلق بها، لكنَّ حليمة دفعتها.

ـ لا تثقلي عليَّ الآن، يجب أن أصغي.

انتهى الدرس، فمكثن لحظة في قاعة الدراسة، كل واحدة مشغولة في عملها، يخطن ويطرِّزن، بعضهنَّ منهمكات في حياكة سجادة يتابعن الغرز فيها بأناة، وأخريات أحضرن إلى القاعة بعض المغازل التي مُدَّت بشكل جميل، كل واحدة تغزل الصوف أمام مغزلها. كانت المحادثة تدور حول الأمور المنزلية، حول حياتهم الماضية، وحول الرجال والحب. ومريم تراقبهن متجولة بينهن ويداها خلف ظهرها.

كانت حليمة تفكر بمصيرها، ومن دون أي عمل، تتجول هنا وهناك مصغية إلى كل ما يقال، إلى أن تركزت أفكارها حول مريم، وما الذي بينها وبين سيدنا؟ كي يكونا متوافقين إلى هذه الدرجة؟ هي أيضاً عرفت حياة الحريم. هل من الممكن لها أن تكون قد قامت بهذه الحركات التي

تحدثت عنها أباما؟ أرادت أن تتمنع عن تصديق ذلك، وطردت كل الأفكار القبيحة وحاولت أن تقنع نفسها بأن أشياء كهذه لا يمكن لها أن تحصل.

تعشَّين قبل غروب الشمس بالضبط، ثم ذهبن ليتنزهن، بينما أخذت العتمة تعم الحدائق، وأوائل النجوم بدأت تلمع في السماء. مشت حليمة في ممر، تتوسط سارة وزينب اللتين كانت كل منهما تمسك بإحدى يديها.

كنَّ يتحدثن بصوت شبه مسموع، وخرير مياه المجرى المائي قد بلغ أشده، كان المشهد يمتد أمامهنَّ على مدِّ النظر، وشعرت حليمة بقلبها ينقبض. كانت تعتمل شعوراً من المرارة المشوبة بنوع من اللذة. أحسَّت بنفسها تائهة، صغيرة جداً في عالم سحري ذي خصوصية، كل شيء يبدو فيه غريباً. كان المكان لا يزال يعجُّ بالأسرار البعيدة عن الإدراك. ضوء مترنح لمع في طل الأحراج، كوَّرت حليمة نفسها بخوف، واقتربت منهما لدى رؤيتها الشعلة تتحرك وتقترب منهن، ورجل يحمل الشعلة جاء للقائهن.

ـ إنه مصطفى فهو يشرف على الرياض ـ وضحت سارة ـ

وصلن قرب عبد فارع القامة، ذي وجه مستدير، يرتدي جلباباً طويلاً شدَّ وسطه بنطاق غليظ يتدلى حتى أقدامه تقريباً. عندما لمح الصبايا، ابتسم لهنَّ ملء شدقيه، مبدياً لهنَّ عن بشاشة ظاهرة.

ـ هذه هي القرقفة الصغيرة الجديدة التي حملتها الريح إلينا، قال بلطف وهو ينظر إلى حليمة. هذا المخلوق الغض الطري.

ظلٌّ خفيف أخذ يتراقص على شعاع المشعل المتذبذب، وفراشة ليل كبيرة كانت تحوم حول النار، كانوا جميعاً يتابعونها بعيونهم، كانت تمس المشعل تارة، وترسم دائرة في الأعلى تارة أخرى ثم تضمحلُّ في العتمة. لكنها كانت تعود بعد قليل إلى رقصها الذي يزداد حيوية. أخذت الدوائر التي كانت ترسمها تضيق وتضيق حتى صارت جوانحها طعاماً للنار. سمع نشيش كمرور نيزك. وسقطت البهيمة النكدة أرضاً.

ـ التعيسة! صرخت حليمة. أليست غبية للغاية؟

ـ لقد منحها الله الهوس في مهاجمة النار، علّق مصطفى باختصار... لتصبحن على خير.

ـ كم هو غريب... تمتمت حليمة.

قمن بنصف جولة، ثم عدن إلى غرفهن. خلعت كل واحدة ثيابها واندسَّتْ في سريرها. كانت حليمة منذهلة بأحداث النهار، عدي الساخر بكلامه المشجع، أسد معلم الرقص الرشيق، أباما في زيّها المضحك وتعليمها الفاحش، مريم الغامضة، الصبايا والخصيان، ووسط كل هذا، هي، حليمة، التي طالما كانت تحلم ببلاد مجهولة، وتتوق إلى مغامرات خارقة!

«هذا هو فعلاً» حدثت نفسها ثم حاولت أن تنام.

أحسَّت عندئذ بأن أحداً يلمسها برفق، وقبل أن يسعفها الوقت في الصراخ، سمعت صوت سارة يهمس لها:

ـ اسكتي يا حليمة، خوفاً من أن تستيقظ زينب!

في نفس اللحظة، اندسَّت الجميلة السوداء قربها تحت الغطاء، وجذبتها إلى قبالتها.

ـ قلت لك إنني لا أحبذ ذلك، احتجت حليمة بصوت خفيض، لكنَّ سارة غمرتها بالقبل وشلَّت مقاومتها.

نجحت أخيراً في تخليص نفسها. أخذت سارة تستخدم قدرتها على الإقناع، تهمس بأسلوبها بكلمات، كانت كلمات هوى. أدارت لها حليمة ظهرها، سدَّت أذنيها، فاستطاعت أن تنام.

قضت سارة شيئاً من الوقت لتفهم ما يجري. عندما صار عليها أن تأوي إلى سريرها كانت في حالة نفسية تتصارع فيها الدهشة والحيرة.

الفصل الثاني

في نفس الوقت الذي قدمت فيه حليمة، نتيجة ظروف خاصة لغايةٍ، إلى رياض سيدها المجهول، كان شاب يركب حماراً صغيراً، لونه بلون الليل، يسير بدوره في طريق الجيوش الواسعة، كان طريقه يؤدي إلى نفس الغاية، لكنه كان قادماً من الجهة المعاكسة. أي من الغرب. كان من الواضح أنه لم يخلع تمائم طفولته منذ وقت طويل، كي يلف رأسه بعمامة رجل، كانت ذقنه بالكاد مغطاة بزغب خفيف، وعيناه النابضتان بالحيوية لا تزالان تحتفظان بتعبير شبه طفولي.

كان قادماً من مدينة سافا الواقعة في منتصف الطريق بين همدان والعاصمة القديمة الرّيْ. كان جده طاهر الذي أسَّس في ما مضى حلقة إسماعيلية صغيرة، حيث كانوا يدرسون فيها بشكل أساسي عقيدة الشهيد علي السمحة. وتهدف إلى اتخاذ تدابير مدمرة ضد السلطان السلجوقي، شيخ مؤذني أصفهان، كان قد قبل في هذه الجماعة، وبعد بضع من الوقت، وأثناء اجتماع سرّي، فاجأت قوات السلطان مجموعة المؤمنين الصغيرة، واعتقلت بعضهم. اتهم المؤذن بأنه هو من وشى بهم. وضعوه تحت المراقبة السرية، ثم ما لبثوا أن تأكدوا من شبهاتهم التي تتجه ضده. وحكم على الرجل المغفَّل بالموت، ونفذ الحكم على وجه السرعة. على إثر ذلك اعتقلت السلطان طاهراً زعيم الجمعية بالذات، وحكمت عليه بقطع رأسه مع سابق العمد والإصرار من قبل الصدر الأعظم نظام الملك. دبَّ الخوف في أعضاء الجمعية الصغيرة التي تفرَّقتْ. ظنوا بأن هذا

الحدث قد أدى إلى دفن مشاريع الفرقة الإسماعيلية جدياً في سافا. أمَّا وقد صار عمر حفيد طاهر عشرين عاماً فقد أطلعه والده على كل جوانب الأمر. . . وهكذا فقد أمره بأن يسرج دابته، ويعدَّ العدَّة للرحيل. في يوم الرحيل اصطحبه إلى أعلى شرفات المنزل، ومن هناك دلَّه على قمة (دومافاند) المخروطية المكسوة بالثلوج، والتي تطاول الغيم الشاهق.

- آفاني، يا بني، ويا حفيد طاهر قال له - اِمض وإلى الأمام، تماماً في الطريق المؤدية إلى جبل (دومافاند) وعند وصولك إلى الرَّيْ، اسأل عن اتجاه «شاه رود» النهر الملكي، اتبع مجراه حتى تصل إلى منبعه، الذي ينبثق من خلف مضيق شديد الانحدار من الأعلى، ستلمح قلعة في هذا المكان، تسمَّى «آلموت» عشّ النسر الذي يقيم في هذه القلعة، إنه صديق ذاك الذي كان والدي وجدك طاهراً. السلام على روحه! لقد جمع كل من برع في الإرشاد الإسماعيلي قل له من أنت واعرض عليه خدماتك، وستحظى بفرصة الثأر لموت سلفك. هيا. ولترافقك بركتي.

تقلد حفيد طاهر بسيف منحن، انحنى أمام أبيه بإجلال، امتطى دابته الصغيرة، واستلم طريق الرَّيْ، حيث وصل إلى هناك دون أي عائق. في إحدى استراحات القوافل، تقصَّى عن أفضل طريق يمكن أن يسلكه من أجل الوصول إلى القصر الملكي.

- ما الذي جعلك تيمم شطر شاه رود، يسأله صاحب النزل متحيراً، لو لم يكن وجهك بريئاً لشككت بأنك تريد الانضمام إلى الزعيم الذي جمع حوله هؤلاء الهراقطة الكلاب في الجبل.

- لم أفهم إلى من تلمِّح. قال حفيد طاهر متحايلاً. أنا قادم من سافا، مبعوث إلى لقاء قافلة، أبي أرسلها إلى بخارى، والتي لا بدَّ لها من أن تكون قد تأخرت في مكان ما في طريق العودة.

- عندما ستخرج من المدينة، دعْ «دومافاند» على يمينك - شرح الرجل -

ستصل طريقاً مشخَّصة، هي نفسها الطريق التي تسلكها قوافل الشرق اتبعها وستوصلك حتى النهر.

شكره حفيد طاهر، وعاد إلى امتطاء دابته وبعد يومين من المسير سمع خرير المياه البعيد، غادر الطريق، دفع مطيته إلى الأمام، باتجاه النهر الذي كان يحاذيه ممر، متتبعاً ظاهر الجرف الرملي طوراً، مجتازاً الأشجار الكثيفة طوراً آخر. حيث صار ميل النهر أكثر انحداراً، وخرير المياه أكثر شدة... بعد أن سار جزءاً لا بأس به من النهار على هذا المنوال، حيناً على ظهر الحمار، وحيناً على أقدامه ألفى الشاب نفسه محاطاً بمفرزة من الخيالة، حصل هذا الهجوم بطريقة غير متوقعة.

غرب عن بال ابن طاهر أن يسحب سيفه، إذ كان الوقت قد تأخر عندما تنبَّه، أمسك بمقبض السيف وسبع حراب حادة كانت تُوجَّه إلى صدره. «من العار أن يخاف ـ فكَّر ـ إنمَّا ماذا يفعل أمام كثرة كهذه؟».

توجه إليه زعيم الخيَّالة بهذه الكلمات:

ـ ما الذي دفعك إلى العساس هنا أيها الغرُّ؟ هل جئت لتصطاد الترويته؟ إحذر من أن تعلق السنارة في حلقومك.

كان حفيد طاهر مرتبكاً للغاية، فإذا ما كان هؤلاء الخيالة من أتباع السلطان فلسوف يجهزون عليه، وإذا ما كانوا من الإسماعيلية فلسوف يحسبونه جاسوساً. أفلت مقبض سيفه وراح يبحث بائساً، علَّه يستطيع أن يفهم شيئاً من وجوههم الواجمة.

ألقى الزعيم على رفاقه نظرة ماكرة:

ـ تبدو أيها الوغد المجهول النسب، وكأنك تتظاهر بأنك تبحث عن شيء.

ـ وضع هذا الناطق يده على قربوس السرج ولوَّح بعصا صغيرة ترفرف في طرفها راية بيضاء. إنها رمز أتباع علي.

«ولو كان في هذا فخ؟ ـ فكَّر أفاني ـ ليكن! سأجازف».

مدَّ يده ـ وهو يترجل نحو العلم الذي تركه زعيم الخيالة يرفرف أمامه، ولامس به جبينه بإجلال.

ـ حيَّاك الله! صرخ الزعيم ـ أنت تبحث عن قلعة آلموت. اتبعنا إذاً!

وهمز مطيته موجهاً إياها إلى الدرب الذي يحاذي شاه رود، وعاد حفيد طاهر إلى ظهر حماره يغز المسير خلفه. ومشت بقية المفرزة في المؤخرة.

توغَّلوا في أكثر الجبال وعورة، وقد أخذ شاه رود يهدر في عنفوان رائع، وصلوا أخيراً أمام نتوء صخري يحتله برج ترقب. وعلم أبيض يخفق على ذروته. كان مجرى النهر يحيط بهذه الجبال الوعرة، مخنوقاً بمضيق ضيق، عدَّل الزعيم سير حصانه، وأوعز إلى الآخرين أن يتوقفوا ثم لوَّح برايته الموجَّهة إلى البرج، فتلقى من رجال متمركزين في الأعلى إشارة تدل على أن الممرَّ سالك.

أوغلوا في شعب بارد ومظلم، كانت الدرب ضيقة لكنها معلَّمة منحوتة الجوانب في الصخرة مباشرة. والمسيل يندفع خلف الوادي، وعند أحد المنعطفات توقف الزعيم، ومدَّ ذراعه نحو الجبل. لمح حفيد طاهر عندئذ، وعلى مسافة قريبة، برجين عاليين، يتلألأ بياضهما ضمن ظل الجبال، والشمس تضيئهما بأشعتها المتألقة. شيء كما لو كان في حلم.

ـ آلموت! صرخ الزعيم وهو يهمز حصانه، ثم ما لبث البرجان أن اختفيا من جديد خلف السفح المنحدر، استمرت الطريق في نزهتها المتعرجة المجارية للمجرى المائي حتى وصلت إلى اتساع الشعب المفاجئ، حملق حفيد طاهر، فأمامه كان ينتصب نحو السماء نتوء صخري هائل مكلل باستحكامات مندمجة مع الصخرة في بعض أجزائها. كان شاه رود ينقسم في هذا المكان إلى فرعين يحصران الصخرة العالية كالمشنقة، بهذا الشكل المنعزل، كان المكان الذي تشرف عليه القلعة، ينحدر تدريجياً عن حرف

الهاوية، واثنتان من زواياه الأربع الملتصقة بالأبراج تشرفان بشكل شامل على المكان من الأعلى.

كانت القلعة المتعذرة البلوغ والتي ضيَّق النهر الخناق حولها، النهر الذي كان يغور بين الحواجز بشكل شاقولي وتغلق الشعب تماماً كالمزلاج. تلك هي آلموت إذاً! الأمنع من بين الخمسين قلعة في منطقة رودبار، والتي بناها ملوك الديلم قديماً إنها بعيدة المنال.

أعطى رئيس المفرزة إشارة وبآلة مركزة في الجهة الأخرى من الجدار حُرِّك جسر انخفض إلى ما فوق سطح المسيل. دلف الخيالة منه، ودخلوا الساحة عبر ممرٍّ قباب هائلة.

نفذوا إلى مكان فسيح مكشوف إلى الهواء الطلق، فوقهم كانت الجبال مجزأة إلى ثلاثة طرقٍ عالية رائعة، وفي الوسط سلم حجري يصل مختلف الطوابق ببعضها على اليمين، وعلى اليسار. وعلى امتداد الحواجز ينمو الحور. ونباتات طويلة تمتد تحتها مراعٍ حقيقية، قطعان من الخيول والحمير كانت ترعى فيها، وإسطبل منعزلٌ يحتوي على نحو من عشرات الجمال التي كانت تجترُّ، وهي ترقد باطمئنان. وعلى الجانبين كانت المزارب والثكنات، وبيت الحريم، ومبان أخرى أيضاً.

جَيَشَانٌ صاخب كجيشان القفير استقبل قدوم حفيد طاهر. ذاك الذي كان يجول حوله بنظرة مرتابة. على شرفة الوسط،كانت تتدرب بعض وحدات الجنود، حيث كانت تسمع أوامر قاسية وقعقعة تروس وحراب، وصليل سيوف كانت تختلط أحياناً بصهيل حصان أو نهيق حمار. رجال آخرون كانوا يدعِّمون الحواجز: كانت البغال تجر خلفها الأحجار الثقيلة التي كان العمال يرفعونها بعد ذلك بواسطة رافعة إلى المكان المقصود. نداء، صرخات، يرجع صداها من كل مكان تغطي هدير المسيل.تفرَّق عناصر الحرس، وصاح الزعيم من بعيد منادياً جندياً كان يمر بالقرب منهم.

ـ هل القائد العسكري «مينوتشرشر»، موجود في برج الحراسة؟

ـ تسمر الجندي وقال:

ـ نعم ـ يا أبانا العريف.

أعطى الزعيم إشارة إلى الجندي كي يتبعه. توجَّها نحو أحد الأبراج السفلية. وبالقرب منهما سمعا ضربات قاسية مصحوبة بأنين متوجع. أدار حفيد طاهر رأسه: شاب كان مربوطاً إلى عمود حجري، عاري الظهر حتى وسطه، وعبد عملاق يرتدي سروالاً قصيراً مخططاً، ويضع على رأسه عمامة حمراء يجلد العاري بسوط من الجلد المفتول. تحت كل ضربة كان جلده يتشقق وتتفجر منه الدماء.

جندي كان يقف بجانب المنكَّل به، يحمل دلواً من الماء، ومن وقت إلى آخر يرش وجه ذلك البائس الشقيُّ. ضحك أبونا العراف، وهو يقرأ الرعب البادي في عيني حفيد طاهر.

لا ينام المرء على فراش من ريش، ولا يدعك نفسه بعطر العنبر في آلموت، تكون مخطئاً إن تحسب الأمر كذلك ـ قال ـ كان حفيد طاهر يمشي صامتاً.

تمنى أن يعلم ما كان هذا المسكين قد اقترف حتى وقعت عليه هذه العقوبة القاسية، لكنَّ إحساسه الغريب بالجور، قد خلع عنه شجاعة الاستفسار.

دخلا إلى بهو البرج، وتحت قناطره استطاع الولد أن يقدِّر مدى سماكة جدران القلعة الهائلة المرتكزة على أربع قواعد ثقيلة من الدبَش المنضد. وسلم رطب ومظلم يوصل إلى الأعالي، وصلا ممراً مستطيلاً، ثم صالة فسيحة، كانت أرضها مغطاة ببساط وأرائك فرشت في أحد الجوانب، رجل ذو خمسين عاماً، كان نصف مستلقٍ، جسمه مكتنز، ولحيته قصيرة مجعدة، يشوبها الشيب، ويعتمر عمامة كبيرة بيضاء، ويرتدي جلباباً موشّى بالذهب والفضة. وانتظر حتى أنظر إليه.

ـ أيّ خبر تحمل إلينا يا أبونا؟

ـ قبضنا على هذا الشاب خلال إحدى طلعاتنا للاستكشاف أيها القائد مينوتشرشر. هو يدَّعي بأنه كان يسير في الطريق إلى آلموت. تجلَّس القائد على مهل، فألفى ابن طاهر نفسه أمام رجل كأنه قدَّ من صخر، يحدِّق بالولد وقد وضع يديه خلف وركيه.

ـ من أنت أيها التعس؟ قال بصوت قوي.

لحظات من الحيرة، ثم ما لبث الفتى أن تذكر كلمات أبيه:

ألم يقصد هذا المكان كي يقدم خدماته عن طيب خاطر؟

تماسك، ثم أجاب بهدوء:

ـ أدعى أفاني، حفيد طاهر، طاهر سافا، الذي قطع الصدر الأعظم رأسه منذ سنوات لا بأس بها.

تملأه القائد بشيء من الدهشة المشوبة بالارتياب.

ـ هل أنت تقول الحقيقة؟

ـ لماذا أكذب أيها السيد النبيل؟

ـ إن كان الأمر كذلك، فلتعلم أن اسم جدِّك قد سطر بحروف من ذهب في قلوب كل الإسماعيليين. سيكون سيدنا سعيداً بأن يحسبك في عداد مقاتليه، أليس من أجل هذا جئت إلى هنا؟

ـ نعم كي أكون في خدمة زعيم الإسماعيليين الأعلى، وكي أثأر لموت والد والدي.

ـ حسنٌ، ماذا تعرفَ من الأعمال؟

ـ تعلمتُ القراءة والكتابة، والنحو أيضاً والعروض، وحفظت نصف القرآن عن ظهر قلب.

ـ لا بأس، وفنَّ الحرب؟

مكث حفيد طاهر مرتبكاً.

ـ أجيد ركوب الخيل، أرمي القوس، وأحسن الطِّعان والرِّماية.

ـ هل لديك زوجة؟

علَت الشابَّ حمرة الخجل.

ـ لا يا سيدي.

ـ هل عاشرت النساء؟

ـ لا يا سيدي.

ـ جيد.

التفت القائد العسكري نحو العريف:

ـ أبونا! اصطحب هذا الفتى، ابن طاهر إلى عند الداعية أبي سراقة، قل له إنني أنا من أرسله، إن لم يكن هناك من خدعة مدبَّرة، أظنُّه سيُسرُّ لذلك. انحنيا ثم غادرا الغرفة.

في الفناء، كان عمود التشهير الذي شاهدا الرجل موثوقاً إليه، وهم يجلدونه بالسياط، خالياً، وبقايا آثار من الدِّماء كانت تشهد عمَّا جرى منذ وقت قريب. كان ابن طاهر لما يزال يعتمله شعور غامض من الرعب، استعاض عنه الآن بإحساس مشجِّع بعدما تأكد من أنه في أمان، لم يكن مردُّ هذا إلاَّ لكونه حفيد طاهر الشهيد، أخذا يصعدان السُّلَّم الذي يؤدي إلى الفناء الثاني، ووصلا إلى بناء ناهد قليلاً على يمينهما، كان يبدو أنه يستخدم كثكنة. توقف العريف أمام المبنى، ونظر في جميع الجهات، كما لو كان يبحث عن أحد.

رجل أسود البشرة، يرتدي جلباباً أبيض وسروالاً أبيض، ويعتمر عمامة بيضاء أيضاً، كان يمضي راكضاً ليس ببعيد عنهما. استوقفه العريف وخاطبه بدماثة:

ـ أرسلني القائد العسكري مع هذا الشاب إلى عند الداعية أبي سراقة.

ـ اتبعاني، وضحك الشاب الأسمر ملء شدقيه، فالداعية المُجل في سياق تعليمنا علم العروض. ونحن على الشرفة في الأعلى.

قال وهو يلتفت نحو ابن طاهر:

ـ أتيت إلى هنا كي تصبح فدائياً؟ لم تصل بعد إلى آخر المفاجآت. أنا التلميذ عبيدة.

تبعه ابن طاهر، يرافقه العريف، دون أن يعي ما كان عليه أن يقول.

تسلّقوا حتى أعلى البناء الذي كان سطحه على شكل شرفة. كانت أرضيتها مغطاة كلها تقريباً بالسّجاد السميك، وزهاء عشرين شاباً يجلسون متربعين، كلهم يرتدون البياض كعبيدة، وكل واحد وضع لوحاً صغيراً على ركبتيه، وكلهم يجتهدون في تسجيل ما كان يقوله العجوز ذو الجلباب الأبيض الذي كان يجلس القرفصاء أمامهم. ويحمل بيده كتاباً، ما إن رآهما حتى نهض، وتغضّن جبينه استياء.

ـ عمَّ تبحث هنا في هذه الساعة؟ قال مخاطباً العريف، ألا ترى أننا في الدرس؟

ومن خلال ارتباكه، قال بصوت جليّ، بينما راح عبيده ينضم برزانة إلى رفاقه الذين كانوا يتفرسون القادم الجديد بفضول.

ـ اعذرني على إزعاجك أثناء الدَّرس أيها الداعية الوقور ـ قال أبونا. فقد رجاني الزعيم العسكري أن أصطحب هذا الشاب إلى عندك، إنه يفوضك أمره.

تملّى المعلم العجوز الفتى من رأسه حتى أخمص قدميه.

ـ من أنت؟ وماذا تريد أيها الشاب؟

انحنى الفتى بإجلال.

ـ أدعى أفاني، حفيد طاهر، طاهر الذي حكم عليه الصدر الأعظم بقطع

رأسه في سافا، أرسلني والدي إلى آلموت كي أخدم الدعوة الإسماعيلية وأثأر لموت جدي.

أشرق وجه الشيخ، وأسرع الخطو نحو ابن طاهر باسطاً يديه، وعانقه بمودة من القلب.

ـ سعيدة العيون التي تراك في هذا القلعة يا حفيد طاهر! كان جدك صديقي وصديق سيدنا... اذهب يا أبونا، واشكر القائد العسكري باسمي!...

وأنتم أيها الشباب، تأملوا جيداً هذا الرفيق الجديد! عندما سأحدِّثكم بالتفصيل عن التاريخ الإسماعيلي وعن مواقعه، فإنني لن أستطيع أن أمضي دون أن أذكر مأثرة سلف هذا الشاب الماجد. الإسماعيلي طاهر، الذي صار الشهيد الأول بالنسبة لقضيتنا في إيران كلها.

رمق أبونا ابن طاهر بنظرة تدل على أن المقابلة قد جرت على أفضل ما يكون. ثم اختفى عبر الفرجة التي تنفتح على السلم، شدَّ الداعية أبو سراقة على يد الفتى، وانهال عليه بالسؤال عن أبيه، وعن أسرته، ووعده بأن يخبر الزعيم الأعلى بقدومه. ثم أشار إلى أحد التلاميذ الجالسين حولهما:

ـ سليمان! اصطحب ابن طاهر إذاً إلى المهجع ودلَّه على مكان ذلك الممسوس الذي كان لا بدَّ من طرده. احرصْ على إزالة غبار الطريق عنه، وأعطه بديلاً لثيابه. ليكن جاهزاً من أجل صلاة الغروب. هبَّ سليمان واقفاً وانحنى أمام الشيخ.

ـ سأقوم بذلك، أيها الدَّاعية المبجل.

دعا ابن طاهر لأن يتبعه إلى الأسفل مباشرة. سلكا ممرًّا ضيقًا، وعندما وصلا إلى وسط الممر أزاح سليمان ستارة مسدلة أمام فتحة ومرَّر صاحبه منها، ودلفا داخل مهجع واسع.

عشرون سريراً منخفضاً صُفُّوا بمحاذاة الجدار الذي يقابل المدخل، أمَّا عن حال تلك الأسرة فقد كانت عبارة عن أكياس مليئة بالقش اليابس

ومغطاة بأغطية من الهلب، أمَّا وسائدهم فكانت من سروج الخيل، فوقها مجموعة من الرفوف الخشب مثبتة بالجدار، نُضِّدت عليها المواد المتنوعة بترتيب كامل: أطباق فخَّارية، سجادات صلاة، أدوات الغسيل والتنظيف. وعند قدم كل سرير إطار خشب يحمل الأسلحة: قوس، كنانة، سهام، حربة ورمح. وعلى الجدار المقابل ثلاثة شمعدانات برونزية ذات فروع عدة تعلوها المشاعل أيضاً في إحدى الزوايا، وفوق كل عمود، كان يقبع إناء من الزيت، عشرون سيفًا صقيلاً معقوفاً قد وضعت على مشبك، وعدد مماثل من التروس المجدولة على شكل دائرة ومزودة في وسطها بدعامة من البرونز، كانت الغرفة تتلقى الضوء عبر عشر نوافذ صغيرة. وضع الشبك عليها.

ـ هذا السرير شاغر، صرَّح سليمان وهو يشير إلى إحدى تلك الفرش المحشوة بالقشِّ، عزل من كان صاحبه منذ بضعة أيام. أنا من ينام هنا بجانبك، ومن الجهة الأخرى ينام يوسف، إنه من (داماغان) وهو أكبر وأقوى تلميذ في المجموعة.

ـ تقول إن سابقي قد عزل؟ قال ابن طاهر مندهشاً.

ـ نعم لم يكن جديراً بأن يصبح فدائياً.

تناول سليمان من على الرَّفِّ جلباباً أبيض مطويًا بعناية، وسروالاً أبيض، وعمامة بيضاء.

ـ هيا إلى غرفة الحمَّام ـ قال.

دلفا إلى الغرفة المجاورة، حيث رُكِّز فيها جرن من الحجارة تغذيه قناة ماء جارية. استحمَّ ابن طاهر على عجل، وناوله سليمان إثر ذلك ملابس ارتداها، ثم عادا إلى المهجع.

ـ رجاني والدي أن أبلغ تحياته إلى الزعيم الأعلى، متى تظن أنني سأستطيع أن أمثل أمامه؟

علت ثغر سليمان ابتسامة.

ـ اخلع هذه الفكرة من رأسك يا عزيزي. لقد مضى عام على مجيئي إلى هنا، وحتى الآن لا أعرف من يكون، أحد من بيننا لم يَرَهُ قط.

ـ هو لا يعيش في القلعة؟

ـ هو هنا. لكنه لا يغادر برجه أبداً. ما زال لديك من الأشياء التي عندما ستسمعها ستجعلك تفغر فاهك، سمعتك تقول إنك من سافا، وأنا من قزوين.

تملاه ابن طاهر جيداً. لا يمكن للمرء أن يتخيَّل أن هناك فتىً أجمل منه.

كان ممشوقاً كشجرة سرو، ووجهه النحيف جذاب جداً، لوحت الشمس والريح وجنتيه، بدت أمارات الصحة والعافية تحت تلك البشرة البرونزية وعيناه ذات الأهداب المخملية السود تنظر إلى العالم نظرة فيها اعتزاز النسر، زغب خفيف نبت على شفته العليا، وحول ذقنه. كانت كل ملامحه تنطق بالشجاعة والجسارة، وتكشف ضحكته عن صفين من الأسنان البيض السليمة: ضحكة صادقة، لا تخلو من شيء من السخرية، لكنها لا تهزم أبداً. لابدَّ لمن يراه من أن يحسبه أميراً فارسياً ممن وصفهم كتاب ملحمة الملوك، فكَّر ابن طاهر.

ـ شيء ما حيَّرني هنا ـ قال ـ في البداية يحسب المرء أن أعماركم قد تجاوزت الثلاثين ومع ذلك فهو عندما ينظر إلى ذقونكم يتيقن بأنكم لم تبلغوا العشرين.

حافظ سليمان على نفس الابتسامة:

ـ انتظر خمسة عشر يوماً، وستصبح مشابهاً لنا، شبه الأخ لأخيه. لتعلم أننا لا نلهو هنا بقطف الزهور، ولا بالتقاط الفراشات.

ـ بودي أن أطرح عليك سؤالاً ـ أردف ابن طاهر.

ـ رأيت منذ قليل رجلاً موثقاً إلى العمود ويجلد بالسوط. بودي لو أعرف أي خطيئة يمكن له أن يكون قد ارتكب حتى يستحق عقاباً كهذا؟

ـ جريمة لا تغتفر أبداً يا عزيزي. كان مكلفاً بمرافقة قافلة تسير في طريقها إلى تركستان. رجال القافلة الذين لم يكونوا من الإسماعيليين، تجرَّعوا من خمر جرارهم أثناء المسير، وقدموا إليه شيئاً من هذا الخمر، وهوَ قَبِلَ أن يشرب منه على الرّغم من أن سيدنا قد شدَّد على أنه أول المحرَّمات.

ـ سيدنا حرَّمه؟ قال ابن طاهر مندهشاً، إنَّما التحريم يصدر عن النبي نفسه وهو يجري على كل المؤمنين!

ـ لا تزال غير قادر على فهم ذلك. يا طائري الصغير، قال الآخر، سيدنا يبيح ويمنع ما يريد. ولا يحق لنا نحن الإسماعيليين أن نمتثل إلاَّ له وحده.

ذهل ابن طاهر وغمٌّ مبهم عصَّ على قلبه. فسأل أيضاً.

ـ قلت إن سابقي خلع أيضاً، ماذا اقترف؟

ـ كان يتحدث عن النساء بطريقة وقحة جداً.

ـ هل هذا محظور؟

ـ بطريقة قطعية! نحن مجموعة نُخْبَة، ونحن إذ نقف أنفسنا على ذلك، نكون في خدمة سيدنا مباشرة.

ـ علامَ سنقف أنفسنا؟

ـ قلت لك ذلك: سننذر لأن نكون فدائيين! عندما سنكمل تعليمنا، ونقدم الامتحان سنرقى إلى هذه المرتبة.

ـ وما هو الفدائي بالضبط؟

ـ الفدائي إسماعيلي مستعد للتضحية بنفسه بشكل أعمى، عندما يأمر

سيدنا الأعلى، عندما يموت وهو يقوم بواجبه يسمى شهيداً، عندما ينجح ويبقى على قيد الحياة يرقَّى إلى داعية. والى أكثر أيضاً.

ـ ما أسمعه الآن، يبدو لي جديداً للغاية، هل تظن أن الامتحان عسير؟

ـ من دون أي شك، وإلاً ما كنَّا لنقضي يومنا منذ الفجر وحتى الليل في إعداد أنفسنا من أجل ذلك. لقد سبق وناء ستة تحت العبء، واحد من بينهم خرَّ ميتاً في مكانه، والخمسة الآخرون طالبوا بتنحيتهم.

ـ لماذا لم يفضلوا مغادرة آلموت على أن يتصاغروا هكذا؟

ـ إيه يا عزيزي. لا مزاح مع آلموت. يدخل المرء إلى القلعة، إنَّما لا يخرج منها حياً متى أراد. هناك الكثير من الأسرار في هذه الأنحاء.

انفضّ التلاميذ إلى الغرفة. حيث كانوا قد اغتسلوا أثناء مرورهم قرب النبع وحضَّروا أنفسهم من أجل صلاة الغروب، عملاق أطول من ابن طاهر قامة يسترخي على سرير يجاور سريره.

ـ أنا يوسف من داماغان ـ قدَّم نفسه ـ أنا لست شرساً لكنني لا أنصح أحداً بأن يتحداني، علماً أننا سوف نتعارف عمَّا قريب...

وتمطَّى بأطرافه القوية، كما لو كان يريد أن يثبت صحة أقواله.

ابتسم ابن طاهر.

ـ سمعتهم يقولون إنك الأطول والأقوى بين التلاميذ.

ـ انتصب العملاق سريعاً كومض البرق.

ـ من قال لك هذا؟

ـ سليمان.

استرخى خائباً من جديد. وضحك الشباب من حوله خفية. اقترب عبيدة بدوره من ابن طاهر، كانت شفتاه الغليظتان تكشفان عن حركة غريبة عندما يتكلم:

ـ ماذا يروق لك عندنا يا صديقي؟ بالطبع، أنت لا تستطيع أن تبدي رأيك وقد وصلت لتوك. لتعلم فقط أنك عندما ستقضي أربعة أشهر في القلعة مثلي، ستجد أن كل ما ستسهم به سيذهب أدراج الرياح.

ـ هل فهمت دعابة هذا العبد الأسود؟ ما أن غطَ منقاره في عسل آلموت، حتى صار يسدي العبر إلى الآخرين.

ـ هل أسديها إليك؟ أنت أيها المغفل. أجاب عبيدة المغتاظ.

ـ لتتصالحا أيها الصديقان الصغيران ـ دمدم يوسف في سريره ـ لا تكونا قدوة سيئة أمام القادم الجديد.

شاب عريض المنكبين مقوس الساقين، وذو وجه وقور قدَّم نفسه بعد ذلك إلى ابن طاهر.

ـ أنا جعفر، من مواليد الريِّ، جئت إلى القلعة منذ عام، إن احتجت لبعض الإيضاحات، فما عليك إلاَّ أن تسألني.

شكره ابن طاهر، جاء الآخرون واقتربوا بعضهم إثر بعض يقدمون أنفسهم... عفَّان، عبدالرحمن، عمر، عبدالله، ابن فاكاس، خلف، سهيل، يزيد، محمود، أرسلان... أخيراً جاء دور أصغرهم. والذي قدَّم نفسه بصوت خجول:

ـ أنا نعيم من منطقة دومافاند.

أخذوا جميعهم يضحكون.

ـ لا شك أنه واحد من الشياطين الذين يقطنون الجبل. قال سليمان ساخراً..

رمقه نعيم بنظرة غاضبة

ـ لدينا وفرة من الأشياء التي ندرسها تابع ـ هل تعرف معلمنا؟ ذلك الذي رحَّب كثيراً بلقائك هو الداعية أبو سراقة: لقد طاف كل بلاد الشام مبشراً، عينه سيدنا كي يكون رئيسنا، إنه يعلمنا سيرة النبيين وسيرة

القديسين الشهداء الذين سقطوا من أجل القضية الإسماعيلية، زد على ذلك قواعد وعروض اللغة الفارسية.

ـ هل سمعتم زقزقة هذا الفتى الطائش! الأصغر سناً! والأكثر ثرثرة بين الجميع ـ ثم تابع قريباً ستتعرف بنفسك على معلمينا، تذكر يا ابن طاهر أن الداعية ابراهيم الذي يعلمنا العقيدة، والجبر، والنحو العربي، والفلسفة، هو صديق حميم لسيدنا. ومن المستحسن أن تتحمل تعنيفه. عنده عليك ان تعرف كل شيء عن ظهر قلب.

بالنسبة للإغريقي الحكيم، إنَّه يتقبل أيَّة ثرثرة شريطة ألا تفحمه. القائد العسكري مينوتشرشر لا يتقبل أي اعتراض، معه يجب أن ينفذ كل شيء في الحال، وبقدر ما تكون همتك عالية في التنفيذ، بقدر ما ستكتسب الحظوة لديه، أخيراً الداعية عبد الملك... إنه شاب، لكن سيدنا لا يدَّخر إبداء إعجابه به. فهو رجل قوي الشكيمة لا الجهد ولا الألم يثنيان من عزيمته ويحتقر أيضاً من لا يلتزم الصمت، إنه يهذب إرادتنا ويربينا على القدرة على الجلد: سترى أن المكانة التي يشغلها على درجة كبيرة من الأهمية... أهميته في نظر أناس هذا المكان أهمية العقيدة نفسها. ـ لا ترعب الزغلول كثيراً! قاطعه يوسف وإلاً لحاول الهرب. أحمر وجه ابن طاهر خجلاً.

ـ إني جائع، فأنا لم آكل منذ الصباح.

قهقه يوسف المبتهج.

ـ حسن، ستصوم أيضاً، وبحسب الأصول يا عزيزي.

انتظر فقط حتى تتعرف إلى عبدالله.

ـ إلى الصلاة! صرخ يوسف.

كل واحد ـ وابن طاهر كما الآخرون ـ تناول عن الرَّفّ سجادة مدروجة، وجرى ليأخذ مكانه على سطح المبنى، حيث كان ينتظرهم الداعية أبو سراقة.

عندما تفقَّدهم هذا، وتأكد من أن كل واحد منهم قد بسط سجادته بشكل مناسب، توجَّه نحو الغرب أي اتجاه المدن المقدسة. وشرع بالصلاة.

بسمل أولاً بصوت مرتفع، ثم أطرق في الأرض، وقف بعد ذلك منتصباً، مرَّة أخرى رفع يديه نحو السماء، ثم ركع من جديد حتى لامس الأرض بجبينه، ثم رفع هذا الدعاء.

ـ تعال إلينا، أيها المهدي، الموعود به، المنتظر، خلصنا من هؤلاء الغاصبين، أنقذنا من هؤلاء الهرطقة. أيُّها الشهيد علي، أيها الشهيد اسماعيل، كونوا شفعاءنا.

قلَّدَ التلاميذ حركاته وردَّدوا كلماته بعده.

كان الليل قد هبط فجأة، وأصوات هؤلاء الذين كانوا يصلون على الشرفات المجاورة كانت تصلهم، إحساس غريب وكئيب استولى على ابن طاهر، كل ما كان يعيشه حينذاك، لم يكن يبدو له إلاَّ كحلم، إنَّما حلم على درجة عجيبة من الجلاء. وهذه الابتهالات الجهرية إلى علي وإسماعيل، أمر لا يمارسه المؤمنون خارج آلموت ـ إلاَّ خلف ألف رتاج متين! كان حائراً ومشوشاً.

قاموا، ودخلوا إلى المهجع حيث رتَّبوا سجاداتهم بعناية وراحوا يتعشون.

رحبة، كانت غرفة الطعام الموجودة في نفس المبنى، إنَّما في الجهة المقابلة للمهجع. كان لكل تلميذ مكانه فيها، وعلى طول الجدار كانوا يمكثون جالسين أو مقرفصين على حصر صنعت من السوحر المجدول ووضعت على الأرض مباشرة. وثلاثة من رفاقهم كانوا يُعيَّنون بشكل دوري ليقدموا الطعام. كانوا يحضرون لكل واحد، رغيفاً كبيراً من خبز القمح، وأحياناً من خبز التين اليابس أو التفاح المجفف، يملأون لهم زباديهم بالحليب عدة مرات في الأسبوع، أمَّا اللحم فمرة واحدة: لحم

عجل، حمل، أو خروف مشوي على الجمر. كان أبو سراقة يأكل معهم، وهم يتعشّون بصمت مستغرقين بأفكارهم.

بعد العشاء، انتشروا في مجمعات صغيرة، البعض منهم راح يتطوَّف فوق على الشرفات، والآخرون غابوا خلف الحواجز. اصطحب يوسف وسليمان ابن طاهر معهما، كي يحدثاه عن الحياة في القلعة.

توقفت كل حركة وهدأ كل ضجيج وخيَّم الصمت على القلعة حينذاك واستطاع ابن طاهر أن يسمع خرير مياه شاه رود الذي كان يفعمه بأسى غريب. كان الظلام يلفهم، لا يشقه إلا ضوء خافت من النجوم اللامعة في السماء.

عبر الفناء رجل كان يحمل بيده مشعلاً متوقداً. حرَّاس حاملات المشاعل ظهروا أمام مباني الشرفة العليا، وتمركزوا في المداخل، ووقفوا بوضعية ثابتة متراصين كتراص حبات المسبحة في حبل مضيء. ريح خفيفة هبت من الجبال، تحمل معها صقيع الطقس، اهتزت المشاعل، فأخذت أطياف المباني والأشجار والرجال تهتز على الأرض وكأنها في غمرة رقص مقدس، وألق غريب كان ينير أطراف الحواجز، فبدت المباني والأبراج والحواجز في هيئة مختلفة، يتعذر عليك أن تتعرَّف عليها.

كل شيء أتخذ في تلك اللحظة شكلاً غريباً خرافياً. نعم صار ديكور المكان حينئذ كذاك الذي يصفونه في الحكايات...

كانوا يمشون بمحاذاة قسم السور الذي يحيط بالشرفات السفلى.

ـ لماذا لا نذهب إلى الأعلى؟ سال ابن طاهر مشيراً إلى المبنى الذي كان يحرسه حملة المشاعل.

ـ لا أحد يملك الحق بالذهاب إلى هناك سوى الزعماء. وضَّح سليمان. هؤلاء العمالقة الزنوج يحرسون شقق سيدنا: خصيان تلقاهم زعيمنا الأعلى كهدية من خليفة مصر.

ـ هل سيدنا يعمل في خدمة هذا الحاكم؟

ـ هذا ما لا نعرفه بالضبط ـ أجاب سليمان ـ ربَّما يكون العكس. . .

ـ كيف هذا؟ ـ قال ابن طاهر مندهشاً: أَوَلَمْ يستولي على آلموت باسم هذا الأمير؟

ـ هذه مسألة أخرى ـ أخبره يوسف ـ فنحن لا نعرف إلاَّ ما يقوله هذا أو ذاك إنَّما أنصحك بعدم طرح أسئلة عن هذا الشأن.

ـ كنت أحسب أن خليفة مصر هو زعيم الشيعة الأعلى، والذين ندخل ضمنهم نحن الإسماعيليين.

ـ سيدنا هو زعيمنا الوحيد، وليس علينا أن نمتثل لأحد غيره ـ قال يوسف ـ وسليمان بصوت واحد.

ـ جلسوا على تلعة من جدار الحصن، عند أسفل الحاجز.

ـ لماذا لا يكشف الزعيم عن نفسه للمؤمنين؟ سأل ابن طاهر بإلحاح.

ـ إنه قدِّيس ـ قال معترضاً، يدرس القرآن طوال النهار يصلي ويسن التعاليم لنا والوصايا. . .

ـ لا يحق لنا أبداً ان نحكم لماذا لا يكون بيننا ـ قال سليمان ـ الأمر كذلك وهو يعرف جيداً لماذا يجب أن يكون الأمر كذلك.

ـ كنت أتصور الأمور بصورة مختلفة ـ صرَّح ابن طاهر ـ كنَّا نحسب هناك ـ في بلادنا ـ أن الزعيم قد جمع جيشاً من الإسماعيليين مكرَّساً لمقارعة السلطان والخليفة الهرطقي.

ـ هذا أمر تبعي لكن ما يوجبه سيدنا علينا بشكل أساسي فهو الولاء والحماسة المقدسان للقضية الإسماعيلية.

ـ هل تظنون أنني سأستطيع اللحاق بكم، انتم الذين تقدمتم عليَّ في هذا المضمار؟ استفسر ابن طاهر بقلق.

ـ نفِّذ كل ما سيأمرك به رؤساؤك دون تردد، وستحصل على كل ما تبغيه قال سليمان باختصار. لا تتصور أن الطاعة أمر يسير. لا سيَّما وأن روح

التمرد سوف تستيقظ فيك في البداية، وأن الجسد، جسدك لن يكون راغباً في الاستجابة لأوامر الإرادة، نفسك ستهمس إليك بأن تدحض الكثير من الأوامر التي تُملى عليك، لكن لتعلم أن كل مقاومة، ليست إلاّ واحدة من أحابيل الشياطين التي تسعى لأن تحرفك عن جادة الصواب. لتنتصر وبجسارة على كل تمرد فيك وستصبح سيفاً بتاراً في يد سيدنا.

نداء البوق المتقطع رُجّع صداه.

ـ علينا أن نذهب إلى النوم. قال يوسف وهو ينهض ثم اتجهوا إلى قسمهم ودلفوا إلى مهجعهم.

عدة مشاعل كانت تشتعل في الغرفة. كان بعض التلاميذ يخلعون ملابسهم وآخرون قد ناموا، وأبو سراقة جاء ليلقي نظرة على مراقدهم متفقداً حضورهم متحريًا سيادة النظام. ثم وضع سلماً صغيراً خلف الجدار وأطفأ المشاعل. سراج صغير كان يلمع في إحدى الزوايا فوق حاملته، اقترب الداعية، وأشعل منه طرف عصاً ثم اتجه نحو المدخل بخطى هادئة. رفع الستارة بحذر خوفاً من أن تطال شعلته ثم انسلَّ من الفتحة. وقع خطاه ما زال مسموعاً في الممر.

منذ لحظات الصباح الأولى، أخذ نداء البوق ينتزع النوم من عيون الشُّبان، هبُّوا واقفين وراحوا يؤدون صلاة الفجر، افطروا، ثم تناول كل واحد سرجه وسلاحه وأسرع باتجاه الفناء. وبلمح البصر، كانت القلعة متأهبة: فالتلاميذ وبعد أن أحضروا خيولهم من الإصطبل، اصطفوا في رتلين بالقرب من مطياتهم، وعريف جاء ليقف في مقدمة كل رتل. ثم تقدم مينوتشرشر على فرسه نحوهم، مستعرضاً السرية موعزاً إلى أفرادها بامتطاء خيولهم، كانت البهائم تطرق الأرض بحوافرها. لقد انطلق الخيالة الواحد تلو الآخر عبر المعبر.

مروا من تحت برج الحراسة، وتسلقوا درباً تؤدي إلى نجد منبسط.

ومن أجل الجديد. فإن القائد العسكري، قد أعاد شرحاً موجزاً لأسس النظام الأساسية. ثم قسم السرية إلى مجموعتين عليهما أن تأخذا وضعية التقابل.

هذه تمثل الأتراك، وتلك تمثل العرب، ولأول مرة وقعت عينا ابن طاهر على التحام خيالة وشعور من الحماسة جعل قلبه يخفق.

ثم صار عليهم أن يتفرقوا كي يبدأوا تمريناتهم على استعمال السيف، ورمي الرمح، وإطلاق القوس.

وقبل صلاة الظهر، رجعوا إلى القلعة، كان ابن طاهر منهكاً، وبالكاد استطاع أن يعتلي سرج حصانه.

عندما ترجَّلوا. وجرُّوا خيولهم إلى الاصطبل، سأل سليمان مجازفاً.

ـ هل تتكررُ هذه التدريبات كل يوم؟

سليمان الذي كان منتعشاً ويبدو كما لو كان عائداً من نزهة جميلة أجاب بابتسام:

ـ هيا! يا عزيزي، ما هذه إلا بداية. انتظر قليلاً حتى يستلمك عبد الملك. سيريك ما لم ترَ من الأشياء الأخرى!

ـ أنا جائع، نظري مشوش. اشتكى ابن طاهر، هل لا أستطيع فعلاً أن أسدَّ رمقي بشيء؟

ـ تحمل! ليس من المسموح لنا أن نأكل أكثر من ثلاث مرات في اليوم. ولو حصل وباغتوك تأكل شيئاً خارج الوجبات النظامية، لقيدوك على عمود التعذيب، كذاك الجندي الذي رأيته يجلد البارحة لأنه تناول شيئاً من الخمر.

نضدوا أسلحتهم في المهجع، اغتسلوا، تناولوا ألواحهم وأقلامهم وصعدوا إلى الشرفة. رجل طويل ونحيل، يرتدي جلباباً فضفاضاً اقترب من القادم الجديد. كانت وجنتاه متهدِّلتين، وعيناه غائرتين في محجريهما

ويتفرس عالمه الأدنى بهيئة عبوس. أنفه الدقيق والمعقوف يشبه منقار نسر، لحيته الكثة التي خالطها الشيب، تتدلى على صدره، غرز أصابعه النحيلة والمعوَّجة كالمخالب في حزمة أوراق عليها كتابة كتبت بخط رائع. كان هذا هو الداعية ابراهيم، شيخ مبشر، على درجة كبيرة من الكفاءة، وعلى صلة وثيقة بالزعيم الأعلى. بدأ، بأن أمَّ فيهم الصلاة، صلاة الظهر، ثم تمتم بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، الكلمات المنصوص عليها، وعندما شرع بالابتهال إلى المهدي، أخذ صوته يعلو، ويتهدج، موقِّعاً كلماته باندفاع، لشدِّ ما يشبه اندفاع ضارب الإيقاع. ثم جاء موضوعه. شارحاً وبطريقة مملة القواعد الصعبة داعماً إياها بأمثلة مستمدة من القرآن. كانت الأقلام تمضي مسرعة على الألواح. وبالكاد كان يتسنى لهذا أو ذاك أن يتجرأ أو يستريح قليلاً، كانت هذه الحصة بالنسبة لابن طاهر بمثابة استراحة، فهُو متمكن من النحو، وكان سعيداً بشعوره بأنه لا يواجه في هذا أية صعوبة.

عندما فرغ الداعية ابراهيم من ذلك، انحنى بهيئة كئيبة رفع طرف جلبابه الفضفاض خوفاً من أن يتعثر به، واختفى. وبكامل وقاره، هبط السلم القاسي الذي يؤدي إلى الأسفل، أُذن أخيراً للطلاب بأن يتحركوا! انتظروا لحظة، كي لا يلتقوا الداعية على السلم، ثم انقضوا على الفناء واصطفوا في رتلين.

ـ ستتعرف الآن على الداعية عبد الرحمن ـ همس سليمان في أذن ابن طاهر ـ سأقدم لك نصيحتين: قوِّ عزيمتك، واستجمع كل إرادتك. فهناك واحد ـ كما أسلفت لك ـ مات وهو في حقل التمرين.

ضع ثقتك بالله، وفي حكمة سيدنا.

ترأَّس يوسف الرتل الأول، وأخذ سليمان مكانه في الوسط تقريباً، ووقف ابن طاهر في آخر الرتل. كان عبيدة يترأس الرتَّل الثاني ونعيم يختمه.

عملاق بارز العضلات، يسير بمشية جامحة. جاء ليحلَّ أمامهم. كان وجهه بارز التقاطيع، ونظرته حادة وثاقبة، ما أن استدل على ابن طاهر بين الفتيان المتجمعين حتى قال:

ـ ما اسمك إذاً أيها البطل؟

ـ أفاني، حفيد طاهر، من سافا.

ـ حسنٌ، لقد أبلغت ذلك، آمل أن تكون خلفاً جديراً بسلفك الماجد.
خطا بضع خطوات إلى الوراء ثم صاح آمراً:

ـ اخلعوا أحذيتكم، وإلى السور جميعاً.

وبلمح البصر خرجت الأقدام من نعالها، وأسرع الشبان نحو المتراس وانقضوا على الجدار العمودي، وقد مدُّوا أيديهم نحو ثغرات وكوى الرَّمي يتشبثون بأصغر نتوء في الحجارة خانت ابن طاهر شجاعته، لدى رؤيته هذا الجدار الحصين، لم يكن يعرف لا أين ولا كيف يوطِّد أمره. صوت همس له من أعلى:

ـ أعطني يدك!

نظر في الجو حيث كان سليمان مندفعاً في ارتقائه، وقد أمسك بالكوة اليد، ومدَّ إليه باليد الأخرى. تمسك بها ابن طاهر، وبقبضة حديدية سحبه سليمان اليه.

ـ هكذا! والآن إلى الأمام معي!

في ما بعد، كان كل شيء يسير على ما يرام. وبعد هنيهة وجد نفسه في ذروة المعقل كان الآخرون يهبطون الجدار الآخر من أعلى الهاوية.

كان شاه رود يزبد عند أسفل الجدار، ألقى ابن طاهر بنظرة عليه فألمَّ به الدُّوار.

ـ سأنتحر. . . همس ـ وهو مستعد لأن يستجيب إلى نداء ذلك الفراغ.

ـ التصق بي واتبعني ـ همس له سليمان بصوت متهدجٍ وآمرٍ.

أخذ ينزل، وما أن بلغ نقطة ارتكاز متينة، حتى سند ابن طاهر بيده، ثم بكتفه. وهكذا نزلا حتى أسفل الجدار بمحاذاة الهاوية بتؤدة ورباطة جأش.

بدا الوقت الذي كرَّساه من أجل بلوغ صخور الحافة سرمدياً بالنسبة لابن طاهر. تنفَّس الصعداء، رفع عينيه، وارتعش من الرعب، كان الجدار الشاقولي ينتصب نحو السماء، ولم يكن ليصدق بأنه قد أتى على هبوط هكذا جدار في تسلق حر، ظهر عبدالملك في أعلى السور، منتصباً على ساقيه المنفرجتين، وصرخ بالتلاميذ:

ـ إلى أمكنتكم!

أخذوا يتسلقون، تمسك ابن طاهر بسليمان، كان يتبعه كظله وهو يتنقل بحذر من نقطة ارتكاز إلى أخرى، وصلا أخيراً أعلى الجدار، كان هذا سهلاً كاللعب بالنسبة إلى هبوط الجدار الآخر. لحظات قليلة، وتذوق متعة الإحساس بأن قدميه تحطان ثانية على الأرض البطحاء.

تنفس التلاميذ لحظة. وأراد ابن طاهر أن يشكر سليمان. لكنَّ هذا رمقه بنظرة قلقة.

ـ في المرة القادمة، سنأخذ حبلاً ـ همس ـ يجب أن نتصرف بسرعة، بسرعة البرق.

خلعوا نعالهم. وعادوا إلى صفوفهم، وابتسامة ساخرة علت ثغر عبدالملك.

ـ ماذا دهاك اليوم يا سليمان، حتى تخلَّفت عن أن تكون الأول كما كانت عادتك؟ هل غدوت كسولاً؟ إلاَّ إذا لم تكن شجاعتك قد ضعفت؟ ربما كنت تطبق التمرين على أنك القدوة للقادم الجديد... لأنه كان في الواقع ملتصقاً بك كقرد، والآن لتريه أيَّ بطل أنت!... إمضِ خذ مكانك أمام الجميع واحبس أنفاسك!

أخذ سليمان مكانه أمام ابن طاهر، زمَّ أنفه وشفتيه ونظر أمامه، لكنَّ

نظرته كانت مبهمة، كما لو كان يثبتها في نقطة بعيدة جداً، خاف ابن طاهر. وحبس سليمان أنفاسه بين لحظة وأخرى كان وجهه يزداد احتقاناً، وبعد قليل، بدت عيناه المخبّلتان والهامدتان على وشك الخروج من محجريهما. كان ابن طاهر يرتجف خوفاً عليه.

فجرَّاء غلطته وقع العقاب على هذا الفتى الشجاع!

جاء عبدالملك يتمركز بجانب سليمان، وقد شبك يديه بهدوء على صدره يراقبه بعين الخبير. بدأ سليمان بالاختناق. تودَّجت رقبته بشكل مخيف، وعيناه الجاحظتان صارتا تخيفان من ينظر إليهما. فجأة أخذ يترنح، كما لو كان على متن قارب. ثم انهار على الأرض كشجرة نشرت من أسفل جذعها.

ـ جيد جداً ـ علَّق عبدالملك مادحاً.

تنفس سليمان بشكل صاخب. وعاد بريق الحياة إلى عينيه.

نهض بتؤدة، وراح يأخذ مكانه من جديد.

ـ هيا يا عبيدة! أرِنا التقدم الذي أحرزته في مسألة الإرادة!

صار وجه عبيدة الأسود بلون الرماد، نظر حوله بيأس، وبمشية مرتابة، جاء ليأخذ مكانه خارج الصفوف. ما إن حبس أنفاسه حتى تحولت نضارة وجهه إلى لون أسمر لامع، ثم ما لبث أن ظهرت عليه أولى علامات الاختناق، كان عبدالملك يراقبه بازدراء. أحسَّ ابن طاهر بأنه يسخر من الولد المسكين. ترنَّح عبيدة، وسقط على قفاه، ضحك عبدالملك هازئاً وبشكل لا يخلو من اللوم. وابتسامة مستترة عبرت شفاه التلاميذ.

رفس عبدالملك ذاك الذي كان ممدداً على الأرض، معنفاً إياه بطريقة تنطوي على سخرية رقيقة.

ـ انهض، انهض أيها الزغلول، أخشى أن يحدث لك شيء مؤسف!

ـ ثم أضاف بقساوة:

ـ كيف كان هذا؟

ـ انتصب عبيدة، وابتسم بارتباك يخالطه الخوف.

ـ لقد فقدت رشدي أيها الداعية الموقر.

ـ كيف يعاقب على الكذب عند الإسماعيليين؟

أخذ عبيدة يرتجف.

ـ لم أكن أستطيع التماسك، أيها الداعية المحترم.

ـ حسن، تناول السوط وعاقب نفسك بنفسك.

ضمن أدوات التعذيب التي أحضرها المؤدب معه، وجد عبيدة سوطاً قصيراً من الجلد. فك أزرار جلبابه، وتعرى حتى وسطه، ثم عقد أكمامه حول خاصرتيه كي لا تنزلق ثيابه إلى أخفض من ذلك. منكباه السوداوان كانا ممتلئين وعضلاته بارزة. هزَّ السوط فوق رأسه ثم ضرب نفسه بأول ضربة على ظهره سُمعت فرقعة حادة، وشقٌ أحمر ارتسم على جلده القاتم أطلق أنَّة لم يقطعها إلاَّ استمراره في جلد نفسه.

ـ عود هذا الفتى رخصٌ جداً. قال عبدالملك ساخراً. أقوى، أقوى أيها البطل! أخذ عبيدة يكدُّ دون جدوى، وصارت الضربات تنهال عليه قوية ومتقاربة، خَلُص بأن جلد نفسه بنوع من الاحتداد المتوحش، كان السوط يجرح جلده المبرَّح، والذي أخذ يتمزَّق من كل مكان غمر الدم ظهره ملطِّخاً جلبابه وسرواله الأبيضين، لقد شقَّق جسمه دون رحمة، كما لو كان يضرب واحداً من ألدِّ أعدائه.

أخيراً رفع عبدالملك يده:

ـ يكفي!

أرخى عبيدة السوط، انهار وهو يئن.

أعطى عبدالملك أمراً إلى سليمان باصطحاب الفتى إلى النبع لتغسيله وتضميد جراحه.

ثم قال وهو يلتفت حول التلاميذ محدقاً بابن طاهر:

ـ لقد شرحت لكم مراراً معنى تمريناتنا هذه، والهدف منها. يوجد بينكم الآن واحد جديد ولا أجد ضيراً في أن أعيد ما قلته مرة أخرى وبشكل سريع. لا بدَّ من أن يكون لعقل الإنسان، لفكره، لتطلعاته من أن يكون لهم تحليق النسر إذا لم يعترضه عائق كبير. هذا العائق هو جسدنا، بكل مواطن ضعفه. من من الفتيان لا يملك طموحات كبيرة؟ ومع ذلك فهو لا يحقق من ألف مشروع لديه إلاَّ واحداً. لماذا؟

فجسدنا الميَّال إلى الكسل، وإلى الرفَّاه السهل المنال، يخشى الصعاب التي بها تتحقق الأهداف السامية، أهواؤه الدنيئة تشلُّ إرادته ورغباته السامية. وقهر هذه الأهواء، وتحرير العقل من قيودها هو الهدف من تدريباتنا. تمتين الإرادة، توجيهها الوجهة المناسبة نحو هدف محدد: هي الطريقة الوحيدة من أجل التقدم، إلى أن يصبح المرء قادراً على إنجاز المآثر العالية التي تقتضي التضحية بالنفس. ليس ما يعنينا هو التشبه بتلك لكثرة من هؤلاء الذي استعبدتهم أجسادهم بكل حالات ضعفها، إنما نرمي لأن يصطفي المرء نفسه من بينهم ويكون سيداً على جسده ومسيطراً على أدنى نقاط ضعفه.

ليكن إلى هذا توقنا! وبذلك نكون على أتم الجاهزية لخدمة سيدنا، ولتنفيذ وصاياه. كان ابن طاهر يصغي إليه، وقد أشعَّتْ عيناه فجأة ببريق، نعم لقد كان هذا ما يتوق إليه، وبشكل لا شعوري منذ أن وجد: أن يقهر مواضع ضعفه كي يتمكن من أن يسخر نفسه في خدمة قضية سامية.

فجأة لم يعد ما شهده لتوه يبدو له مرعباً، وبمنتهى الاقتناع استطاع أن يجيب على عبدالملك الذي سأله إن كان قد فهم ذلك جيداً.

ـ فهمت أيها الداعية المبجل.

ـ إذاً قف في مقابل نسقك، واحبس أنفاسك!

نفَّذ من دون أي تردد، مرغماً نفسه على التطلع بعيداً، وإلى الأمام

مباشرة مثلما فعل سليمان، حبس أنفاسه. بدا له كل شيء من حوله، وفي داخله صامتاً، أخذ نظره يزوغ، وعروقه تتوتر، راودته الرغبة في استنشاق شيء من الهواء، لكنه عرف كيف يسيطر على نفسه، أخذت أذناه تطنان بشكل غريب، أحسَّ أخيراً بوهن غير مألوف في ساقيه، كان لا يزال يحتفظ بوميض من الوعي، ثم استرسل في ذهول... لكنَّ بصيصاً آخر من الوعي كان يهمس داخله: «عليَّ أن أتماسك، عليَّ أن أتماسك...» وظلام دامس تغلغل فيه. أخذ يترنح وبتثاقل وقع من طوله.

في اللحظة التالية، أحسَّ بعودة أنفاسه.

ـ كيف كان هذا؟ سأل عبدالملك ضاحكاً.

ـ نهض ابن طاهر ثانية.

ـ جيد أيها الداعية الموقّر.

ـ سنعمل من هذا الولد شيئاً. ثم التفت نحو ابن طاهر: ليس هذا إلا مقدمة لتمارين تنفسية أخرى... لنقل بالضبط، إنها اختبار لسبر الطاقة التي يمتلكها الإنسان للسيطرة على جسده. التعليم الحقيقي ما زال في بدايته، لكننا أحرزنا شيئاً من التقدم.

ـ ظهر عبيدة وسليمان من جديد، ألقى عبدالملك أمراً آخر، وفي المكان المعين، أخذ التلاميذ يحفرون الأرض بسرعة فائقة. مكونين حفرة، لا بدّ لها من أن تعدَّ بشكل مسبق كي تردم بالرمل حتى سطحها. كانت مربعة الزوايا وعميقة نوعاً ما. في الوقت المستقطع، راح بعضهم يحضر من المبنى المجاور دُستًا مليئاً بالجمر المتوهج، فرشوه في الحفرة وأججوه بعناية.

ـ بالمواظبة وبالتمرين ـ وضح عبدالله، فإن التمكن من الجسد ومن قوة الإرادة يبلغان الدرجة التي يتغلبان فيها ليس على مواطن الضعف البشرية وحسب إنما على الطبيعة نفسها وعلى قوانينها...

أيها القادم الجديد، افتح عينيك وتأكد من صحة أقوالي.

خلع نعليه، ورفع جلبابه حتى ركبتيه، وحزمه بشكل لا يطاله التلوث إطلاقاً، ثم رفع سرواله الضيق، ووقف أمام الحفرة المغطاة بالجمر أمامه وحدَّق أمامه.

ـ انظر إنه يركِّز تفكيره، ويستجمع إرادته همس في أذن ابن طاهر مجاوره.

ـ كتم ابن طاهر أنفاسه. وصوت همس له:

ـ «سترى هنا أموراً جُلَّى يا حفيد طاهر! أموراً لا تخطر حتى ـ في بال من هم هناك خارج هذه البلاد. . .»

وفجأة تحرك عبدالملك، وبخطوة حذرة لامس الجمر المتوهج برفق، ثم مسرعاً، ومنتصب القامة كشجرة سرو اجتاز الحفرة إلى جهتها الأخرى. هزَّ رأسه بلطف، كما لو كان يفيق من نوم عميق، ثم التفت نحو التلاميذ، صافي الوجه، وكشف لهم عن باطن قدميه. لم يستطع أيٌّ منهم أن يستدل على وجود أي أثر لحروق عليهما.

ـ هذا ما تفعله تربية الإرادة ـ جزم ـ من سيغامر بهذه التجربة بدوره؟

رشّح سليمان نفسه.

ـ نفسه دائماً ـ دمدم عبدالملك باستياء.

ـ حسنٌ، سأحاول أنا ـ أعلن يوسف ـ بصوت تملكَّه شيء من التردُّد.

ـ على الجمر نفسه؟ سأل عبدالملك بابتسامة ملغوزة.

جال يوسف بعينيه مرتبكاً.

ـ انتظر حتى نسخن الصفيحة. قال الداعية باهتمام.

أعرب جعفر عن رغبته في التجريب.

ـ جيد، ـ قال عبدالملك مستحسناً ـ إنَّما قل لنا أولاً بماذا عليك أن تفكر كي تستجمع إرادتك.

ـ الله، أنت العظيم القدير، لتقدِّر لي ألاَّ أحترق، وأنا لن أحترق أبداً، استظهر جعفر.

ـ جيد، ولكن هل تمتلك أيضاً الثقة اللازمة؟

ـ أمتلكها كلها، أيها الداعية المبجل.

ـ إذاً إلى الهدف، باسم الله!

اقترب جعفر من الحفرة وبدأ بأن ركَّزَ أفكاره وإرادته.

رآه التلاميذ مرات عديدة يقدم ثم يحجم لكنه ما زال بعيداً عن اتخاذ القرار.

ـ استرخِ ـ حثه عبدالملك. خلِّص نفسك من كل توتر، وامشِ بثقة! الله هو مالك مصائرنا. قذف جعفر بنفسه كقارب يقلع إلى الشاطئ، واجتاز الجمر بحركة سريعة وواثقة. بقي مذهولاً للحظة ثم لوى رأسه من فوق كتفه: لمح على قدميه الفحم المتوهِّج والمستشيط، وابتسامة من الغبطة أضاءت وجهه الشاحب. لقد كان يشعر بالرضى بشكل ملحوظ.

ـ شاب شجاع في الحقيقة: ـ صرخ عبدالملك ـ ووشوشة من الاستحسان تخللت الصفوف.

ـ هيا يا سليمان! أثبت جدارتك أنت أيضاً، مع أننا قد شهدنا على سعة معرفتك في المرة الماضية!

كان عبدالملك صافي المزاج. امتثل سليمان بسرور باردٍ. فكَّر ملياً، ثم اجتاز الجمر كما لو كان قد تمرَّن على هذا التمرين منذ زمن بعيد.

ـ سأجرب أنا أيضاً ـ قال يوسف متحمساً ـ وعليه، حدَّب جذعه، شدَّ عضلاته، وسار نحو الحفرة وهو يبذل جهداً ملحوظاً كي يركز تفكيره، دمدم الكلمات اللازمة بصوت عالٍ، لكنَّ التفكير بإمكانية الاحتراق لم يكن يفارقه أبداً. أوشك أن يحزم أمره بالتقدم، نظر أمامه، وخبط بذراعيه كسبَّاح يخشى من إلقاء نفسه في الماء البارد ثم تراجع سريعاً.

ابتسم عبدالملك.

ـ فكر بالله، ستجد عونه وانس الباقي ـ نصحه ـ ممَّ تخاف إن كان هو معك؟

سئم من التردد، قدَّم يوسف أخيراً إحدى قدميه نحو الجمر بتردد، لكنه أطلق صرخة في الحال، وارتد بوثبة مرعبة إلى الوراء.

وضحكة قصيرة مخنوقة تخلَّلت الصفوف.

ـ أنت شجاع لكنك ضعيف الإرادة.

قال الداعية، مكتفياً بهذا التعليق.

أطرق يوسف رأسه، وعاد إلى مكانه بين الصفوف.

ـ هل أستطيع أن أجرِّب أنا أيضاً؟ سأل ابن طاهر خجلاً.

ـ بالنسبة لك لم يؤنِ الأوان بعد يا حفيد طاهر ـ أجاب عبدالملك ـ لكنني لا أشك أبداً بأنك ستكون يوماً في عداد الأوائل.

راح التلاميذ يحضرون من الثكنة صفيحة جديدة، أضرموا الجمر، ووضعوا الصفيحة فوقه، أومأ إليهم عبدالملك، بأن تقدموا فوقه، تقدموا في رتلهم واجتازوا الجمر من على هذا الجسر المرتجل: مرتان، ثلاث، أربع مرات... وسرعان ما كانت الصفيحة تحمى محرقة بلظاها باطن أقدامهم.

عندما بلغت ذروة توهجها مكث سليمان في مكانه يطفر كالمسعور. تاركاً نفسه يتلظَّى ويشوى كي يعاقب نفسه على هزيمته السابقة.

كان ابن طاهر يتلَّظى هو أيضاً، يكزُّ على أسنانه، دائباً إلى إيهام نفسه بأنه لم يكن يحسُّ بشيء، إنَّما لم يكن بيده من حيلة، فهو لم يستطع أن يركز تفكيره بما فيه الكفاية؛ خشي أن يفقد وعيه في لحظة، فقد استنفد طاقته إذ كان ينقصه التمرن على مثل هذه التجارب.

أهاب لهم عبدالملك أخيراً بالتوقف، وبتنحية أداة التعذيب الجسدي.

أعيد تشكيل الصفوف للمرة الأخيرة. وقف أمامهم من جديد، تملأهم بنظرة صارمة، وأمرهم أن يتفكرُوا بما أتوا على رؤيته وعلى سماعه. وعلى ذلك، انحنى قليلاً، وانسحب مثلما جاء تماماً، بخطوات واسعة، قوية.

عاد التلاميذ إلى الشرفة، ففي هذا الوقت كان الداعية أبو سراقة يعلمهم علم العروض في لغة البلاد الفارسية، في الحال تجلّى تفوق ابن طاهر في هذه المادة، إذ كان يعرف أمثلة مستمدة من الفردوسي، ومن الأنصاري ومن الشعراء القدامى. عن كل ضرب من ضروب الشعر. هنأه أبو سراقة التي كان في أوج سروره منه على مرأى ومسمع من الجميع: حقًّا إن فن الحرب، وتربية الإرادة ضروريان للاسماعيلي المحارب، لكنَّ تدريب العقل على الكلام بقصد جعله طيعاً ومرناً في التعبير عن أفكاره بشكل صحيح ودقيق. ليس بأقل أهمية منهما، إني سعيد إذ وجدت في حفيد طاهر تلميذاً موهوباً.

حان وقت صلاة العصر، وأبو سراقة أمَّهم فيها، وهو في مكانه يحيط به الشباب، ما كاد ينتهي من ذكر عليٍّ وإسماعيل، حتى خارت قوى ابن طاهر وراح في غيبوبة.

وعندما قاموا عقب الذِّكر الأخير، ذهل نعيم الذي كان بجواره إذ رآه دون حراك، انحنى فوقه، فشاهد وجهه، وقد اعتلته صفرة كصفرة رمال الصحراء.

نادى يوسف وسليمان، بينما كان التلاميذ يتحلَّقون حول رفيقهم الممدد: أسرع واحد منهم بإحضار الماء وسرعان ما أنعشوه. صحبه سليمان ويوسف إلى المطعم فقد حان وقت الغداء، ما أن تخلَّص ابن طاهر من جوعه، حتى استعاد قواه. فربَّت له سليمان بمودة على كتفه.

ـ لا تقلق. سيقوى مراسك عما قريب، وستستطيع بعدئذ أن تتحمل

خواء معدتك ليوم، أو ليومين، وسيكون هذا بعد جهود ضارية، فالصيام عندنا لا يستثنى منه أحد، وعبدالملك يحرص على ذلك!

ـ ماذا سنفعل بالحمار الذي جئت عليه إلى القلعة؟ أراد أن يعرف أبو سراقة.

ـ تستطيعون الاحتفاظ به ـ أجاب ابن طاهر ـ فوالدي لن يحتاج إليه، ثم من الممكن أن يكون مفيداً لنا هنا.

ـ أحسنت الجواب ـ قال المعلم ـ عليك ألاّ تفكّر بالعودة إلى منزلك، فقد قطعت آخر صِلاتك بعالم خارج هذه البلاد: لتتجه أفكارك من الآن فصاعداً نحو قضية آلموت الوحيدة!

بعد الغداء، ذهب التلاميذ لأخذ قسط من الراحة في مهجعهم، استلقوا على أسرَّتهم وأخذوا يتحدثون. وعلى الرغم من إرهاقه، فقد كان ابن طاهر راغباً في الحصول على إيضاحات حول كثير من الأشياء التي كانت تثير فضوله والتي ما زالت غير مفهومة بالنسبة له.

ـ بودي لو أعرف ما هي صلتنا مع جنود الموقع بالضبط ـ سأل ـ وما هو الموقع النسبي الذي يشغله مختلف الدعاة والقائد العسكري مينوتشرشر؟ ألاحظ بأنني أجهل كل شيء عن مراتب التسلسل الإسماعيلي في آلموت.

ـ كل مؤمن عند الإسماعيليين له مكانة محددة ـ شرح له يوسف وجعفر الأغرار يرفدون الطائفة بالمريدين العاديين ويعلوهم الرِّفاق، وهم مؤمنون وراشدون ومحاربون يعلّمون الأوائل الحقائق الأساسية. المثقفون الذين يستطيعون أن يصبحوا جنوداً تحت إمرة الرفاق الذين يشغلون هنا منصب العرفاء وضباط الصف. أما من جهتنا نحن، فدائيي المستقبل، فلنا مكانة مستقلة. طالما نحن نتعلم، نكون مسؤولين أمام المتقدمين علينا، وأمام رؤسائنا المباشرين. لكننا لا تمثيل سننذر، فإننا لن نمتثل بعد إلاّ لأوامر زعيمنا الأعلى أو لنائبه، إن وجد خيراً في تعيين واحد منهم يأتي بعد ذلك الدعاة الذين يثقفوننا والذين يعرفون الحقائق السامية، مينوتشرشر، القائد

العسكري، وهو معهم في المكانة سواء، ثم يربو عليهم في المكانة دعاة الدُعاة: في الوقت الحاضر يوجد منهم ثلاثة: داعي الدعاة أبو علي، الذي قدم حديثاً إلى عندنا من سورية، داعي الدعاة بوزروق أوميد (أمل عظيم) حاكم قلعة رودبار، وداعي الدعاة حسين القيني الذي استولى باسم سيدنا على قلعة زور غامباداان في خوزستان. أخيراً وفي قمة هذا البناء وعلى رأس كل الإسماعيليين يأتي سيدنا، رئيسنا. حسن بن صباح.

ـ أي تنظيم معقد صرح ابن طاهر.

ـ لكنَّ التفاوت بين المراتب واضح جداً ـ قال سليمان ـ فالداعية عبدالملك مثلاً هو أدنى قليلاً من الداعية ابراهيم، ومع ذلك فهو يربو قليلاً على الداعية أبي سراقة على الرغم من أنه أصغر منه سناً. لكن القضية الإسماعيلية ونضالها مُتقدمان عنده على اعتبارات المراتب، وهذا مجمع عليه. توجد أيضاً فروقات في الترتيبات في ما بيننا، كما في مثل حالتك أنت الذي لم تأتِ إلى هنا إلاً منذ البارحة فأنت أدنى مرتبة من أي واحد من رفاقك، إنَّما عندما ستتميز بطريقة أو بأخرى بما يخص القضية الإسماعيلية، أو إذا ما تفوقت على الآخرين في يوم الامتحان فإنك سترتقي إلى الترتيب الذي تستحقه معارفك وكفاءتك.

ـ لهذا التميز البالغ الدقة في المراتب إذاً درجة كبيرة من الأهمية. ـ طبعاً! أصرَّ سليمان. في اللحظة الحاسمة سيعرف كل إسماعيلي موقعه. كل سيعرف بالتحديد، من عليه أن يَحكُم، ومن عليه أن يطيع. وبذلك يكون قد حسم وبشكل مسبق كل التباس وكل سوء تفاهم. هل ترى كل شيء بوضوح الآن؟

ـ كل شيء واضح تماماً.

قرعة الصنجة ذكرتهم بالتزاماتهم من جديد.

بما أن الطقس كان شديد الحرارة على الشرفة في ذلك الوقت، فالدروس ستعطى في المطعم.

كان الداعية أبو سراقة يلقي عليهم درساً في أصول الإسلام والتاريخ الإسماعيلي، استهلَّ الدَّرس بسؤاله التلاميذ عن المادة التي تناولوها بالبحث في الدرس الماضي بهدف إطلاع الجديد عما فاته، ثم ربط:

ـ بإقدام النبي على تزويج ابنته الوحيدة، فاطمة، من عليٍّ يؤكد أنه خصَّه بخلافته، لكن وبعد وفاته، فإن حماه أبا بكر قد تعدى وبحساسة على الوريث الشرعي وتسنَّم هو نفسه العرش المحفوظ لأمير المؤمنين.

منذ ذلك الوقت انشقَّ الصرح الرائع الذي شيَّده النبي إلى اثنين:

اليسار، المتمثل بهؤلاء الذين اعترفوا لأبي بكر بحقه في شرعية الخلافة، علمهم أسود، وكتابهم السُّنة التي ما هي إلاَّ عبارة عن كتاب جمعت فيه الأكاذيب المخجلة، وشهادات الزور التي ألصقت بالنبي ونقلت شفاهاً، عاصمتهم بغداد، حيث يحكمها الآن الخلفاء الكاذبون من سلالة العبَّاسِ ـ بقوة الخداع والأكاذيب الباطلة نجح العباس عم النبي في فرض نفسه على أتباعه... في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه إنسان يشك بانتصار العقيدة الحقة. نسل العباس يحميهم السلطان التركي ملك شاه. هذا السلجوقي الذي جاءت سلالته المشردة من Gog Magog كي يستولي على عرش إيران... نحن من أنصار الإمام الشرعي الأول، والذي هو عليّ. عليٌّ وحده. هكذا قد أمر النبي. نحن أخذنا جانب اليمين رايتنا بيضاء، وعاصمتنا القاهرة في مصر. فالخليفة الذي يحكمها ينحدر في الواقع من علي وفاطمة ابنة النبي بالذات.

لتعلموا في المحصلة، أن أبا بكر قد تبِّع بخليفتين باطلين: عمر وعثمان. عند موت هذا الأخير، فإن الشعب قد طالب بخلافة علي للنبي: لقد كان منتخباً، إنما بعد وقت قصير، فإن دمه قد انساح بسكين قاتل مأجور، تبعه في الخلافة ابنه الحسن إنَّما كان عليه أن يتنازل عنها إلى معاوية.

طالب الشعب عندئذ بالحسين، ثاني ولدي علي وفاطمة كي يجلس على

عرش الخلافة والذي استشهد غيلة، مع كل من كان معه في وادي كربلاء. منذ ذلك الوقت صار على سلالة النبي أن تعيش في الجبال وفي الصحارى هروباً من الاضطهاد والمذابح من قبل الأئمة الباطلين والمتعصبين لهم المجرمين. حقاً لا يستطيع أحد غير الله أن يطّلع على الكتاب الذي كُتب فيه كل شيء عن مصائر الناس والذي هو بيده... إنَّما من النبل أن نبكي الشهداء.

«أصغوا أيضاً... لقد قلنا بأن خلفاء النبي الشرعيين الذي يسودون القاهرة، هم من سلالة فاطمة وعلي فعلاً نحن نعترف بهم حقاً إنَّما لنا على ذلك بعض التحفظات. هذه التحفظات هي سرنا الذي ننوي على كشفه لكم تدريجياً. لنكتف اليوم بتعداد الأئمة الذين تعاقبوا بعد الحسين خليفة النبي الشرعي الثالث بالتسلسل، الرابع كان ابن الحسين، علي زين العابدين، الخامس كان ابن علي زين العابدين: محمد الباقر، والسادس هو جعفر الصادق. السابع وهو موضوع الخلاف. إذ كان لجعفر الصادق ولدان: هما موسى الكاظم، وإسماعيل، من يعترفون بالأول على انه الإمام السابع يعرفون أيضاً الخمسة الذين أعقبوه والذين كان آخرهم محمد العسكري، أمَّا من جهتنا فنحن نعتقد بأن الوريث الأخير المدعوَّ إلى الظهور، هو المهدي ـ لأن المهدي سيأتي!» وهو ليس من نسل موسى، وإنما من نسل إسماعيل! نحن نؤمن بذلك مستندين على دلائل أكيدة تثبت هذا التعاقب وتلك العودة. نحن لا نعترف أيضاً إلاَّ بسبعة أئمة لا جدال فيهم، حيث آخرهم وأكبرهم ليس موسى الكاظم، وإنَّما إسماعيل. وفي الحقيقة فإن أحد فرعي سلالته قد حاز في مصر على نفوذ كبير أين الآخر، الأكثر نبالة والأكبر أهمية؟ حتى اللحظة فإننا لا نعرف إلا شيئاً واحداً: إن السلالة الحاكمة لم توجد إلاَّ لتمهد له الطريق إلى أن ينتصر المؤمنون الحقيقيون على الغاصبين والهراطقة ويسودون الإسلام بأسره سيادة أكيدة. لأن من المنصوص عليه بأن بعد ستة أنبياء عظماء كانوا:

آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، سيأتي الرسول السابع الأعظم: المهدي، الذي سينحدر من نسل إسماعيل، هو من ننتظر الآن، ومنْ أجله نجاهد. ففي الواقع، وقد قلت لكم ذلك ـ فإن آلموت تكتنف على أسرار عظيمة. كانت هذه هي المرة الاولى التي يتجرع فيها ابن طاهر لباب المذهب الإسماعيلي الذي كان يبدو له غامضاً، فصار يرمي إلى اكتشاف رؤىً جديدة أخرى.

أنصرف أبو سراقة، وبعد خروجه، دخل اليوناني «تيوروس» الذي عرف بالحكيم (الطبيب)، والذي كان قد اتبع العقيدة الصحيحة، إلى قاعة الدرس.

كان رجلاً قصيراً بديناً، ذا لحية سوداء ذلقة، وشاربين سوداوين أيضاً، وجهه مستدير ومتورد، غريب القسمات، ذو أنف رفيع متطاول حتى شفتيه المكتنزتين الحمراوين كشفتي امرأة، ورغروغة ناعمة رقيقة، وعينين مستديرتين ومشعتين. . .

عندما كان يتكلم، أحدٌ لم يكن يعرف إن كان يتكلم بشكل جاد أو على سبيل المزاح، منحه التلاميذ لقب داعية، على الرغم من أنه لم يكن كذلك، لم يكن يُعرف عنه إلاّ شيء واحد: أن الزعيم الأعلى بالذات قد اصطحبه معه من مصر. حيث كان طبيباً واسع الثقافة ويدرس مواد عديدة، أهمها بنية جسم الإنسان وآلية عمله. ذو سمعة بوّأته مرتبة الحكيم، كان يدأب على التوفيق بين تعاليم القرآن والفلسفة اليونانية عندما كان يصف الأمراض، والسموم، وأشكال الموت المختلفة. كان يغني نصوصه باستشهادات مستمدة من فلاسفة بلاده ولا سيَّما الشكاكون، والكلبيون، والماديون، وكان التلاميذ يصغون إليه محملقين من الانذهال، وأكثر من واحد منهم كان يجد في تعليمه ما يسمى الزندقة. كان عنده مثلاً طريقة خاصة في تفسير منشأ الإنسان مازجاً ما توصل إليه فكره مع تعاليم مفكري اليونان، وإرشادات القرآن:

ـ تذكروا ـ كان يجب أن يقول دائماً ـ إن الله قد خلق آدم من أربعة عناصر، ومن أجل هذا الخلق فقد لزمته المادة الصلبة، إنَّما كانت قاسية وفتوتاً، فحوّلها إلى تراب، ومزجه بعنصر آخر: هو الماء من هذا المزيج من الماء والتراب خلق الصلصال، والذي منه سوَّى شكل الإنسان. لكنَّ هذا الشكل كان رخواً يتشوه لأقل لمسة، فخلق عندئذ النار كي يجفف الغطاء الخارجي لجسم الإنسان، وبذاك صار لجسم الإنسان جلد بقي طرياً، لكنه صار ثقيلاً جداً، فانتزع من صدره قليلاً من هذه المادة، وخوفاً من أن يخرّب هذا الفراغ تماسك هذا الشكل فقد نفخ فيه الهواء، وهكذا فقد اكتمل جسم الإنسان الذي لا يزال يتألف من هذه العناصر: تراب، وماء ونار وهواء.

ولكي يمتلك الإنسان الحياة ـ تابع الحكيم ـ فلتعلموا أن الله قد نفخ فيه الروح، وبما أن الروح من أصل إلهي فهي بالغة الحساسية بالنسبة للانسجام الذي عليه أن يسود بين العناصر الخاصة التي يتركب منها جسم الإنسان. وما أن يختل توازن عناصر هذا الجسم حتى تفارقه الروح وترجع إلى أصلها الذي هو الله نفسه.

ترجع اضطرابات التوازن بين العناصر إلى سببين: سبب طبيعي، وسبب غيبي.

لا يمكن للاضطرابات الطبيعية أن تؤدي إلاً إلى أربعة أشكال من الموت، فإذا جرح الجسم فإن الجسم يفقد دمه، ويحصل ارتفاع في العنصر المادي ويعقب ذلك الموت، وإذا ضغط على الحنجرة، أو إذا ما أعيق التنفس بأية طريقة كانت فإن الجسم يحرم من عنصره الهوائي، يختنق ثم يموت، شخص يموت برداً لأنه يكون قد فقد عنصر النار، أخيراً وإذا ما تصدع الجسم فإن العنصر الصلب يتهشم ويتلف، ويكون الموت في هذه الحالة حتمياً، وتبقى الميتات السحرية (العقاقيرية) وتدعى الطبية أيضاً، وهي الأكثر إشكالية وتنتج عن مسببات طبيعية غامضة، نسميها سموماً.

وتعمل العلوم الطبيعية على تعريفنا باستخدام ما يسمى السموم، وعلى تزويدنا بمعرفة تصنيعها كفن مفيد وضروري لكل إسماعيلي محارب.

لم يكن انذهال ابن طاهر بهذه المعلومات بأقل من سابقاتها. كل هذه الأمور كانت جديدة بالنسبة له! بالإضافة إلى الجهد الذي بذله لفهم الأسباب التي من أجلها تدرس هذه المواد البالغة التعقيد. انحنى الإغريقي مبتسماً وانصرف، عاد الداعية ابراهيم ليظهر من جديد أمام التلاميذ. وصمت مطبق تلا حضوره، ممّا جعل ابن طاهر يتنبأ بأهمية البحث الذي سيناقشونه، في الواقع، كان ذلك بصدد العقيدة الإسماعيلية.

استهل المعلم موضوعه بطرح سؤال وهو يعين بإصبعه الطالب الذي كان عليه أن يجيب، ثم تعاقبت الأسئلة والأجوبة، سريعة، رشيقة وموزونة بشكل يدعو إلى الغرابة. وابن طاهر يصغي بكل انتباهه.

- من هم المجوس؟ «lec feris»

- هم الأرواح الشريرة من جنس أنثوي كانت تسود العالم قبل zarathoustra «زاراثوسترا» الذي طردها إلى جهنم.

- من كان زارا ثوسترا»؟

- كان «زارا زوسترا» نبياً مزيفاً يعبد النار طرده محمد إلى بين الشياطين.

- أين تسكن الشياطين.

- في قمة الجبل «دومافاند».

كيف عرفنا ذلك؟

- من الأبخرة التي تنطلق من الجبل.

- ليس في هذا تفسير كاف.

- ومن العواء الذي نسمعه ويأتي من هناك.

- من هم السلاجقة.

ـ هم غزاة: أتراك جاءوا من بلاد gog magig كي يستولوا على السلطة في إيران.

ـ ما هي طبيعتهم؟

ـ جبلتهم مزدوجة: نصف بشر، ونصف شياطين.

ـ لماذا؟

ـ متَّحدون، أو أرواح شريرة، اقترنت مع الإناث من عرق بشري، السلاجقة كانوا أنسالهم.

ـ لماذا اعتنق السلاجقة الإسلام؟

ـ كي يخفوا حقيقة طبيعتهم.

ـ ما هي نياتهم؟

ـ إبادة الإسلام، وتوطيد مملكة الشياطين على الأرض.

ـ ممَّ استدللنا على ذلك؟

ـ من كونهم يساندون الخليفة الباطل في بغداد.

ـ من هو عدو الإسماعيلية اللدود في إيران؟

ـ الصدر الأعظم نظام الملك.

ـ ولماذا يكنُّ كرهاً قاتلا للمذهب الصحيح الوحيد؟

ـ لأنه هو بالذات مرتدٌّ عنه.

ـ ما هي جريمته النكراء؟

ـ جريمته النكراء هي برصد مبلغ عشرة آلاف ليرة ذهبية لمن يقطع رأس سيدنا.

ـ دبَّت الحمية في ابن طاهر، أجل! فالصدر الأعظم الذي قطع رأس جده كان مجرماً. وها هو الآن يتحسَّب ليجهز على زعيم الإسماعيليين الأعلى!...

ـ تلك كانت هي الأسئلة والأجوبة التي لخَّص بها الداعية ابراهيم، ما كان قد أعطاه حتى الآن. أشار بيده معلناً إلى أنه سيتابع المحاضرة. وبهمة عالية، وضع التلاميذ ألواحهم على ركبهم، وجهزوا أقلامهم، وأخذ المعلم يملي عليهم ما تجدر معرفته عن طبيعة السلطة الممنوحة إلى زعيم الإسماعيليين الأعلى. كان يطرح الأسئلة ويجيب عنها هو بنفسه. وابن طاهر يسجل وقد تملكه الانذهال.

ـ «ممَّن يستمد الخليفة سلطته على المؤمنين؟ ـ بالشكل المباشر من خليفة مصر المستنصر بالله وبشكل غير مباشر من الله».

ـ ما هو ناموس هذه السلطة؟ لهذه السلطة ناموس مزدوج: ناموس طبيعي وناموس مستوحى «فوق الطبيعي».

«سلطته الطبيعية عبارة عن ماذا؟ عبارة عن حقه في امتلاك حياة أو موت كل الإسماعيليين الذين يعيشون في إيران».

«ما هي سلطته المستوحاة؟ ـ هي بأن له القدرة والحق بإرسال من يريد إلى الفردوس».

ـ «لماذا كان سيدنا هو الأقدر من بين كل الناس الذين وُجدوا منذ الأزل على الأرض؟ لأنه تلقى من الله المفتاح الذي يفتح باب الجنة».

انتهت الحصة، عندما حان وقت صلاة المغرب تجمع التلاميذ عندئذ على المصطبة يعقّبون بانفعال على ما تعلموه خلال النهار، لا سيما وأنهم كانوا متلهفين لمعرفة رأي ابن طاهر الجديد بكل هذا.

ـ ما رأيته وسمعته من عبدالملك يبدو لي واضحاً ـ صرَّح ـ لكنني لم أفهم ما كان يقصد الداعية ابراهيم عندما قال، بأن الله أعطى مفتاح الفردوس إلى سيدنا؟

ـ ما الحاجة إلى التفكير بذلك؟ ـ قال يوسف جازماً ـ هذه من تعليمات سيدنا وعلينا أن نؤمن بها.

ـ جيد جداً، لكنني أتساءل في ما إذا كان علينا أن نأخذ هذا المذهب بالمعنى الحرفي، وإذا ما توجب علينا ألاَّ نرى فيه إلاَّ انطباعة ذهنية. . .

ـ ماذا تقصد بانطباعة ذهنية؟ سأل يوسف وقد نفد صبره. علينا أن نفهم ذلك ضمن الحدود التي قيل فيها هذا.

ـ لقد جاء إذاً بمعجزة جديدة ـ أصرَّ ابن طاهر.

ـ لمَ لا! قال يوسف باحتداد.

ـ لمَ لا؟ لأن النبي قد قال بجلاء بأنه ما كان للمعجزات أن تحصل إلاَّ في الأزمنة القديمة. فهو لم يجزها لا في عهده ولا في العهود اللاحقة.

يوسف أعياه الجواب.

ـ يجب ألاَّ تبدو لنا مأثرة إعطاء الله مفتاح الفردوس إلى سيدنا على أنها معجزة. لأن النبي لم يعتبر إسراءه إلى السماء أو لقاءه سيد الملائكة جبريل على أنه معجزة.

ـ حسين، لنفترض أن المسألة عبارة عن مِنَّة من الله منَّ بها على سيدنا ـ تابع ابن طاهر ـ فيتبقى أن نعرف متى وأين وبأية وسيلة قد استطاع الله أن يعطي مفتاح الفردوس إلى سيدنا.

ـ لا بدَّ من أن يكون الله قد ظهر على سيدنا بهيئة نبات، أو غيمة قريبة، ـ وضح سليمان ـ كما ظهر على الأنبياء في الأزمنة الغابرة. هكذا يكون قد سلمه مفتاح الفردوس، تماماً كما سلَّم ألواح الحقِّ إلى موسى على جبل سيناء.

ـ أتصور كل هذا بسهولة. أراد أن يسلم ابن طاهر الذي كان معانداً ـ لكنني لا أستطيع أن أغرس في ذهني أننا نعيش مباشرة في جوار نبي سام جداً، وقدير جداً.

ـ ربمَّا أنك لا تشعر بنفسك على قدر فهم هذا ـ قال سليمان مازحاً.

ـ بأي شيء نحن أشدُّ سوءاً من شعب الماضي المختار؟

جال ابن طاهر بنظرته حوله محتاراً، كان يرى وجوهاً تتوهج بحميَّة مهيبة. لا لم يكونوا قادرين على فهم الحيرة والشك اللذين كانا يجتاحانه.

ـ بدلاً من أن نتمسك بتخمينات سليمان، أرى أن من الأجدر أن نفكر بأن ملاكاً من عند الله قد صحب سيدنا إلى الفردوس وهناك هيئت له كل السبل كي يعهد إليه بمفتاحه.

ـ مهما يكن من أمر، فما زال علينا أن نعرف من أية طبيعة يمكن أن يكون هذا المفتاح، لأنه علينا أن نقتنع جيداً بأن لا الله ولا الفردوس ولا كل ما تحتوي عليه ليسوا من نفس الكنه التي فطر عليه عالمنا. فكيف كان من الممكن إذاً أن يحصل ويكون بيننا وعلى أرضنا حاجة ماهيتها من ماهية العالم الآخر. هل نستطيع أن ندركه بحواسنا، وإذا ما استطعنا ذلك فهل سيكون هذا شيئاً من الفردوس؟

ـ لقد أتيت على طرح سؤال رائع يا حفيد طاهر، قال يوسف مسروراً وهو يفرك يديه من السرور.

ـ من جهتي، فإنني أرى أن هذه المحادثة قد تجاوزت الحد الجائز ـ تدخَّل نعيم.

ـ اسكت إذاً أيها الصرصور ـ قال سليمان متهكماً.

ـ لقد جاء في القرآن ـ تابع جعفر تعليله ـ إن الصالحين سيلقون بعد موتهم نصيباً من مسرات الجنة التي تشابه بكل شيء مباهج هذا العالم، وسوف يتذوقون نفس ملذاته. وبالتالي فإن أشياء ذلك العالم لا يمكن أن تختلف كثيراً عن أشياء هذا العالم، ولا بدَّ للمادة التي صنع منها هذا المفتاح من أن تكون مماثلة للمادة التي صنعت منها أشياء هذا العالم.

ابتسم عبيدة ـ الذي كان ما زال يصغي بانتباه حتى ذلك الحين دون أن ينطق بكلمة ـ بخبث.

لديَّ تفسير جيد، من الممكن أن يحلَّ هذا اللغز الذي يحيط بهذا المفتاح الشهير ـ قال ـ لقد قيل لنا إن المفتاح الذي كان يفتح باب

الفردوس هو الآن بين يدي سيدنا الذي يعيش معنا على هذه الأرض. وبالتالي فإنه سيفتح به الفردوس من جهةٍ ما من الأرض. أيّاً كانت إذاً طبيعة الفردوس فإن سيدنا سيفتح جهةً ما من الأرض وبالتالي سيكون هذا المفتاح من ماهية هذا العالم.

ـ تفسيرٌ معتبر (قال يوسف متعجباً).

ـ نعم. إنه لتفسيرٌ بارعٌ (قال ابن طاهر).

ـ عبيدةُ ماكرٌ كالأوس (قال سليمان ساخراً).

ـ لكن ألا يتوجب علينا أن نسأل الداعية ابراهيم إن كان هذا التأويل صحيحاً حقاً؟

استفسر نعيم.

ـ يمكن لهكذا سؤال أن يكلّفك غالياً (أنذره سليمان).

ـ لماذا إذاً! قال نعيم ساخطاً.

ـ لان الداعية المبجل ابراهيم ـ يقضي إن كنت لا تعرف ذلك بعد ـ بألاّ نجيب إلا عندما نُسأل، وإن كنت تتذاكى عليه أيها الغرّ فإن هذا سيجرُّ إليك الكثير مما يكدر.

ضحك الجميع وتملّك نعيم غضبٌ شديد، يوسف الذي أفعمته هذه المحادثات البارعة والجذابة بسرورٍ كبير صوّب نظره إليه.

ـ تابعوا، تابعوا أيها الأطفال ـ قال متوجهاً إلى أصدقائه..

لكن صوت البوق قد ناداهم إلى صلاة العشاء.

بعد العشاء عدل ابن طاهر الذي نال منه التعب عن مصاحبة الآخرين في نزهة المساء عاد إلى مهجعه وتمدد على مرقده وقضى وقتاً لا بأس به قبل أن يستطيع أن يغمض عينيه فكل ما عاشه بعد مجيئه إلى آلموت كان يمرّ أمام ناظريه في شريط متعاقب من الصور المؤثرة. الداعية البشوش أبو سراقة، القائد العسكري الصارم ـ مينوتشرشر كانا يشدانه قليلاً إلى الحياة

خارج هذا المكان، الغامض والغريب، الحكيم الإغريقي والداعية عبدالملك الموهوبان للغاية بملكاتٍ رائعة وربما يربو عليهما في ذلك الداعية الغامض والكئيب ابراهيم قد أدخلوه عالماً جديداً خارقاً وأخذ يدرك تماماً بأن لهذا العالم قوانينه الخاصة، الصارمة والجامدة والذي كان منظماً وموجهاً من الداخل إلى الخارج مكتملاً وكافياً ووافياً بذاته منطقياً ولا يدانيه أي نقص، لم يكن له أن يدخله متخفياً فوجد نفسه ينقذف فيه بعنفٍ فظيعٍ، فحتى البارحة كان هناك في مكان آخر واليوم ـ إنه يلمس ذلك حقاً ـ قد صار ينتمي بكليته إلى آلموت.

حزنٌ عميقٌ استولى عليه لأنه ودّع عالماً بأسره وبدا له أن درب العودة مسدود في وجهه إلى الأبد لكنه في الوقت نفسه أحسّ بنشوة اللهفة إلى معرفة الغد والفضول المولع لمعرفة الأسرار التي تكهنها في كل مكانٍ حوله والإرادة الخارقة التي تدفعه لئلا يكون أبداً دون رفاقه.

هاأنذا إذاً في آلموت قال لنفسه بصوتٍ عالٍ، ما لي إذاً في النظر إلى الوراء؟ وفي هذه الأثناء عادت إلى تفكيره مرةً أخرى ذكرى منزله الذي ولد فيه، منزل أمه وأبيه وأخوته فودعهم في سرّه، وبعد أن كدّرته هذه الرؤى، نام بانتظار سعيد إلى المجهول.

الفصل الثالث

لم يمض إلاّ قليل من الوقت على مجيئها هذه الأماكن الجديدة بالنسبة لها، حتى اعتادت تماماً على حياتها الجديدة، ونتيجة لتوالي ظروف غريبة لم تكن لتفهمها، كانت تحصل دائماً على كل ما ترغب. لكن شيئاً واحداً لم تكن تتحمله، هو غيرة سارة الأبدية.

كانت تود أن تثبت ظرفها في كل مكان، وأن تتبادل القبلات مع الجميع، وأن تكون محبَّبة من الواحدة أو من الأخرى، ولم تكن تتحمل أن يعترض أحد عليها في ذلك. في الحقيقة أحبها الجميع، حيوانات وأناس، حتى أبَّاما نفسها كانت تتنازل أحيانا، وتكشر عن ابتسامة رؤوف عندما اقترافها حماقة ما. ولم تكن حليمة لتتورع عن اغتنام هذه الحظوة، كانت مشاكسة ونزوية بما يرضيها، وكانت ترى في خضوع الجميع لرغباتها ـ المتواضعة على الغالب شيئاً طبيعياً. كانت سارة ضحيتها الأولى، فأقل إشارة من حليمة كانت بالنسبة لها أمراً سعيداً لكونها تستطيع القيام على خدمتها في كل شيء، مخلصة بذلك إلى ماضيها كأمة.

كانت تحتمل وبإذعان كل نزعاتها وأهوائها، وإذا ما أبدت حليمة أي ميل، إزاء واحدة أخرى، فإن هذا كان يكدرها ويجعلها تعيسة إلى أقصى حد. هكذا كانت الحال في النهار، أما عند قدوم المساء، فما تكاد الفتيات يطمرن رؤوسهن في وسائدهن، وتستسلم زينب إلى النوم بعناء، حتى كانت سارة تسارع وتندسُّ تحت غطاء حليمة لتحضنها وتقبلها، في البداية، واجهت حليمة هذه المبادرات بنوع من المقاومة، أمَّا وقد تعودت

على هذه الحركات التي تنم عن عاطفة مشبوبة فقد أعرضت عن ممانعة ذلك، وصارت تحدث نفسها أيضاً بوجوب التساهل مقابل خدماتٍ لا تحصى تقدمها لها سارة طيلة النهار.

وعندما كانت ترى نظرة سارة المتفحصة تقع عليها، وتجدها فريسة هم شديد، إذ كان هذا فوق احتمالها، لم تكن تستطيع أن تحجم عن مناداتها وعن معاملتها بطولة البال. وعندما كانت تنهال عليها إثر ذلك باللوم، كانت حليمة تهددها بألاً توجِّه إليها بعد ولو نظرة.

كان من البديهي أن تحس بحاجة حيوية إلى خدمة أحد بدافع الحب، وبالخضوع إلى كل رغباته، وما هذا إلاَّ ثمناً لغيرتها، التي كانت تعذبها عذاباً لا حدود له.

سعيدة بالعيش، كانت حليمة تستمتع بشبابها وبالشمس كعصفورة أو كفراشة وكونها مركز اهتمام ومحط رعاية كل من حولها كان يبدو لها أمراً طبيعياً، وأخذت تشعر بأن العالم كله يدور في فلكها. في أوقات فراغها، كانت تجري في الرياض التي ازدادت أهمِّية، تستنشق عطر الورود الوافرة، والتي كشفت الواحدة إثر الأخرى عن تويجاتها الرائعة، تقطف باقات لتزين بها الشقق، وتتغالب مع أهريمان والغزالة الصغيرة التي سموها سوزان كانت قد قامت بجولة في الأماكن، مكتشفة الكثير من خباياها، متأكدة بأم عينيها من أن الحدائق محاطة بالماء من كل الجهات، وقد تملكها الإعجاب بالنباتات البرية، التي كانت تمتد على مد النظر وتجاوز نباتات المنتزه من الجهة الأخرى.

كان هذا في الواقع يشابه إقامة حقيقية في الجنة.

تجرأت بعد قليل، وخاطرت بالذهاب إلى الصخور بمفردها، حيث كانت الزواحف تتشمَّس، وحيث تقطن pere، الأفعى الصفراء. إنَّما وحتى قبل أن تظهر الأفعى رأسها المثلث، أسرعت هاربة، من دون أن تتجرأ على الالتفات قبل أن تصل إلى النواحي التي اعتادت صديقاتها على ارتيادها.

ذات يوم، وفي مثل هذا الرّواح المنفرد، عثر عليها عدي ومصطفى، أرادا أن يخيفاها، فحاولا الاقتراب منها بصمت لكن حليمة كانت تكمن كفأرة. سمعت صوتاً، وعندما وجدت أن الزنجيين يريدان مباغتتها ولَّتْ هاربة.

عدي الذي بقي في الخلف صرخ إلى مصطفى:

ـ امسكها!

وبالفعل، وثب مصطفى عدة وثبات وأمسك بها، أخذها بين ذراعيه القويتين، وناولها إلى عدي، تخبَّطت حليمة، ضربت، عضَّت، صرخت بهما أن يتركاها. تسلَّى الخصيان بذلك، وتعالى ضحكهما أكثر فأكثر.

ـ لنعطِها إلى الزواحف! قال مصطفى.

صرخت حليمة عالياً. ففزع الاثنان كثيراً.

ـ لا، الأفضل أن نجعل منها كرة نلعب بها، اقترح عدي.

رجع بضع خطوات، بسط ذراعيه وقال لشريكه:

ـ اقذف إليَّ بها. شدي يديك تحت ركبتيك! هكذا ـ أمرها مصطفى ـ تمسكي جيداً بمعصميك.

أخذت حليمة تجد المغامرة مثيرة.

نفذت ما قاله مصطفى، وفي الحال أخذت تطير في الجو، ككرة حقيقية بين يدي عدي. صرخت كشوَّاكة حية يُسلَخ جلدها! إنَّما بذعر مرح، مدفوعة بالاستمتاع بسماع صوتها. استدعت صرخاتها أهريمان، الذي جاء ليرى ما هو الشيء الغريب الذي يجري هناك. تمركز الحيوان قرب عدي، يتابع بعينيه ورأسه الكرة الحيَّة التي تطير من يدين إلى يدين أخريين. راقت له هذه اللعبة بشكل واضح، إذ أخذ ينخر بحبور.

ـ هل لاحظت كم غدت طرية ومكوَّرة؟ أعرب مصطفى عن اندهاشه.

أطلق عدي ضحكة فرحة:

يا ضلعي الصغير العزيز، يا كعيكتي اللذيذة، يا أمل علمي ويا مولاة حكمتي كثيراً كبُرْتِ، وباللحم اكتنزت، منذ أن عندنا صرت!

وعلى هذا المنوال، كانت تطير في الفضاء جيئة وذهاباً، فوق عشب الحدائق، عندما سمعَت صرخات أبَّاما الغاضبة القادمة من الجهة الأخرى.

ـ أبَّاما! اختنق مصطفى الذي أسرع إلى إيقاف حليمة على قدميها. وعلى هذا ولَّت هاربة واختفت خلف غابات الممر.

ـ ما أنتما إلا بهيمتان دنستان، وحيوانان داعران!

كانت أبَّاما تولول من الجهة المقابلة، سأشكوكما إلى سيدنا، كي يخصيكما مرة أخرى. لقد وسختما أجمل زهراتي، زرَّ الورد الذي لم يتفتح بعد.

قهقه الخصيان.

ـ ما لك تولولين أيتها الضفدع القبيحة، أيها الكركيُّ العجوز! ـ قال عدي ساخراً ـ انتظري قليلاً فقط أيتها الساحرة المشؤومة، حولاء نتنه سنرجمك ونسلخك. . .

ـ أبله حقير، قالت أباما وهي تضرب الأرض بحافرها، اشتهيت اللحم الطري معلوم!

في شبق المخصي! حمداً لله على أنهم انتزعوا منك رجولتك، تيس أسود بقرن مهشم! أية فرصة طالما أن لا حيلة لك، حتى لو كنت تريد ذلك! . . .

ـ ثار عدي وهو يضحك من جديد:

عندما رأى عدي هذا، نزل بدوره حتى ضفة المسيل تناول واحداً من المجاذيف التي كان يخبئها تحت الدُّغلة ووثب نحو الماء ضارباً صفحته بضربة رشيقة، فتناثر الماء على اباما بشكل جميل. أطلقت العجوز صراخاً حاداً، فتلوى الخصيان من الضحك، وألقى عدي بالمجذاف تحت الشجرة

وانسحب مسرعاً مع مصطفى بينما كانت هي تلوِّح بقبضتها في اتجاههما، مقسمة بأنها ستقتلهما.

ريثما يتحقق ذلك، لم يكن عليها إلاَّ أن تصبَّ جام غضبها على حليمة. في نفس اليوم وبختها أمام رفيقاتها ونعتتها بالرذائل والنفاق.

هددتها بكل عقابات هذا العالم وذاك. ولدى إحساسها المبهم بنفسها مخطئة بالمحاباة التي كانت توفرها سراً إلى سارة لاحظي كم نداريك، أيتها العجوز القبيحة الشيطانة البشعة، هل تحلمين بأن أحداً سيرسل إليك بالأنبياء السبعة دفعة واحدة، فلو أن كلباً هرماً رضي بك لطار صوابك فرحاً. صرَّت أباما بأسنانها، ثملة من شدة الغضب، ركضت حتى الضفة الأخرى، كما لو كانت تريد أن تلقي بنفسها في الماء.

اتهمت حليمة نفسها بضلال فظيع، لأنها استطاعت الإفلات بعناء من معانقات السمراء، فقد تجرأت على النظر في عيني مريم، بهيئة بريئة جداً. أصابها تعنيف أباما في الصميم، فأسبلت عينيها، وعلتها حمرة الخجل حتى أذنيها.

ما أن ابتعدت أباما، حتى جاءت مريم لمواساتها، تحثها على ألاَّ تعنى بتبكيت العجوز كثيراً: الكل يعرف أن أباما شريرة وتمقت الخصيين بالإضافة إلى أن أحداً لا يشك ببراءة ذلك اللعب.

متأثرة بالثقة التي شهدت لها بها مريم، والتي رأت فيها أقلّ ما تستحقه، ذهبت تختبئ في ركن وهي ترثي لحالها. آلت على نفسها أن تتغير إلى الأفضل، وألاّ تستسلم إلى سارة بعد. إنما من الصعب أن تقلع عن عادة قديمة. فبقي كل شيء كما كان عليه في السابق.

توالت الأيام، وعجت الأمسيات بحياة غامضة، كانت الجداجد تغني والضفادع تنقُّ في الخنادق، والخفافيش تطير قرب النوافذ المضاءة تطارد الحشرات وفق طيرانها الصامت.

لعل أكبر متعة كانت تجدها الصبايا أثناء تلك السهرات، هي الإصغاء

إلى القصص والأساطير التي كانت فاطمة تقصها عليهن، تلك الفتاة الرائعة الملمّة بكل شيء.

كانت تعلم كل شيء عن الكثير من الأمور، ولم تكن لترتبك في أي شيء كان، تعرف المزيد من الأحجيات. وتجدها دائماً حاضرة في ذهنها، ومع الزمن صارت تبتكر الكثير منها بنفسها أيضاً.

كانت تعرف كل الأغاني العاطفية التي تُغنّى في سوريا ومصر وأقصى بلاد العرب وصولاً إلى فيافي تركستان المتجمدة.

بنى الخصيان من أجلها مِصرى من الزجاج، تتناسل فيه ديدان القزّ المستقرة على أغصان انتزعت من أشجار التوت التي كانت تسمق من الأسفل كصفصاف على ضفة ماء. إذ أثبتت أنها تعرف استخراج الحرير الذي ستحتاج إليه الصبايا من شرانقها. تلك الصبايا اللواتي كن يحبذن سماعها تروي هذه القصص الجمة المتواصلة في سياق ألف ليلة وليلة، أو يطالبن بفصل مقتطف من كتاب «ملوك الفردوسي».

كانت تكشف فيه عن إبداع يليق بشهرزاد، وتستفيض عمّا محاه الزمن من ذاكرتها بارتجالات من بنات أفكارها. وكثير من القصص الأخرى التي كانت كلها من ابتكارها. واحدة من تلك الحكايات كانت تؤثر في الصبايا بشكل خاص: حكاية النحّات فرهاد والأميرة شيرين.

ما كنّ ليقدرن أثناء سماعها من ألا يفكرن بمريم، ويستعجلن فاطمة دونما توقف، وهنّ يصغين إليها أن تعيد هذه القصة التي كانت تؤثر بهن كثيراً.

وكمريم كانت تتأثر بها حليمة إلى أن تذرف الدموع، شيرين من أصل مسيحي وجميلة جمالاً خارقاً بحيث إن الورود تطأطئ رؤوسها حياءً وحسداً لدى مرورها في الحدائق والبراري. عندما تزوج منها الملك خسرو بارفيز، أعظم ملك في بلاد فارس العريقة، ثار الشعب بأسره، لم

يطقْ أن تتربع خائنة على العرش، لكن الملك قد أحبها كثيراً واستطاع أن يفرضها على أعدائها. لم يكن خسرو بارفيز سلطاناً كبيراً وحسب، وإنما رجل حكيم أيضاً. ويعلم أن الحسن البشري قصير. رغب أن يحتفظ بصورة خالدة لسحر وجه زوجته، ولجسدها الرائع، استدعى أشهر نحات في عصره، فرهاد، وطلب منه أن ينقش تلك الخلقة الرائعة على المرمر.

كانت الأيام تتوالى وهو يقابل سحر هذه الأميرة السّماوي، مما جعل الفتى يكنُّ لها حباً لا نهاية له، أينما كان، في كل شيء يفعله، في اليقظة أو الحلم لم يكن يرى إلاّ وجهها الإلهي. لم يكن بمقدوره أن يخفي هيامه بعد. كلما كان التمثال يقترب في تماثله مع النموذج الحي، كلما كان تتعاظم حماسته لهذا الإنجاز، نظراته، وحتى نبرة صوته، كل شيء عنده كان يفضح تلك العاطفة التي كانت تجيش في قلبه. الملك نفسه لاحظ ذلك، جُنّ من غيرته، استل سيفه لكنَّ شيرين وقفت دون ذلك وحمت الفنان بجسدها ولأن الملك افتتن بإتقان العمل الذي أنجزه هذا بنفسه كافأه بأن ترك له حقّه في الحياة، لكنه نفاه وبشكل مؤبد إلى جبال بيزوتوم المعزولة.

ضمن هذا الهاجس الذي لا عزاء له، لهذا الحب اليائس، فقد فرهاد عقله، جُنّ من العذاب، تناول المطرقة والإزميل، وأخذ ينحت في ضلع نتوء الجبل الصخري تمثالاً هائلاً لشيرين. لا يزال هذا التمثال ماثلاً حتى الآن.

يعتقد المرء عند رؤيته أنه يتأمل الصورة الحية للأميرة الإلهية عند خروجها من الحمّام. يحييها جواد الملك شبديس الأثير، ملكاً يفيض شباباً وحيوية.

يقال بأن الملك أرسل عندئذ إلى جبال بيزوتوم رسولاً كلّفه بإعلان خبر موت شيرين المزعوم، ما عاد فرهاد يرغب في العيش بعد ذلك، ومن خلال هذا العذاب الذي لا يحتمل انقضّ على بلطته وشقّ بها صدره إلى

شطرين. قيل أخيراً بأن حديد البلطة قد انزرع في الأرض أثناء سقوطه، وأن المقبض المخضب بالدم المنبثق من قلب الفنان اخضرّ، وأزهر، وأثمر. ثمرته كانت الرّمانة التي تنفلق أيضاً من لبها وتتفصّدُ بشرابها الأحمر عندما تنفتح ومن هنا جاءت تسميتها (تفاحة فرهاد)...

كانت الصبايا يصغين إلى تلك القصة وعيونهن مخضلة بالدموع، وحدها مريم كانت تحدّق في السقف، تتظاهر باللامبالاة، وقد تجمدت نظرتها بشكل غريب كمن مسّها سحر في أقاصٍ متعذرة البلوغ. طيلة الليل، كانت فاطمة وجادا اللتان تهجعان في غرفتها، ترهفان السمع إلى تقلبها وتخبطها في مرقدها.

كنّ يحبذن أن يسمعن أيضاً قصة العجوز الإيراني رستم، الذي قتل ابنه زهراب في مبارزة دون أن يعرفه، حكاية علي بابا والأربعين حرامي، أو قصة علاء الدين والمصباح السحري أيضاً.. دون إغفال القصص المستمدة من القرآن والتي كانت فاطمة تسردها بأسلوبها، لا سيمّا عندما كانت تتحدث عن حب PITIPHAR ليوسف، وكلهن ينظرن وبعفوية إلى صديقتهن زليخة ويبتسمن لها، لم تكن فاطمة ترى في المصرية امرأة هوى خاطئة، بل وبكل بساطة العاشقة الرقيقة، التي لم يكن يوسف يتجرأ أن يرفع عينيه نحوها.

في الحقيقة، كانت كل واحدة من الصبايا تستطيع أن تجد في هذه القصص القصة التي تنطبق عليها نموذجاً كان من الممكن أن تتشبه به.

ومن وقت إلى آخر، كانت قاطنات القلعة ينظمن المآدب الفخمة، فيما بينهن، يأكلن ويشربن بطريقة تليق بالملوك، وكانت أباما تلتئم كثيراً أثناء ذلك، أما مريم، فكانت تضحك خلسة، والصبايا كنّ يتهامسن، بأن سيدنا قد أذن لها بتنظيم هذه الطقوس كي تسلي الصبايا.

كانت أباما هائجة، لأنها هي من كانت مكلفة بإعداد تلك المآكل والمشارب، ولم يكن الخصيان يتخلفون في هذه المناسبات عن اصطياد

الكثير من السمك، وينطلق مصطفى المزوّد بقوس، منذ مطلع النهار، يرافقه صقر من أجل اقتناص الطيور، ولا بدّ له قبل كل شيء من القارب الذي كان يمخر النهر فيه بنفسه حتى الضفة الأخرى حيث تبدأ الغابات البرية، ومن هناك كان يلج الأدغال التي تمتد إلى أسفل ذرى الإيلبورز.

جنة حقيقية للاصطياد.

في إحدى مناسبات الإعداد لمثل هذه الاحتفالات، طلبت حليمة من مريم السماح لها بمرافقة الصيادين إلى الاصطياد لكنّ مريم رأت أن الطريق خطيرة جداً. فأوحت إليها أنها تفضل أن ترافق عدي الذي سيذهب لإحضار الدواجن والبيض من جزيرة الحيوانات. حليمة وجدت نفسها مستقرة في المركب الذي كان عدي يقوده في مجرى النهر، تبعا الصيادين أولاً، إنما في حوالى منتصف المسافة، انطلق الزورق المدفوع بتجديفات المجاديف البطيئة في قناة فرعية وأخذ يتهادى على ضفة الماء باتجاه الجزيرة التي كانت كحديقة عامة مأهولة بالحيوانات الداجنة والوحوش المروّضة.

كان الصباح مشرقاً، ولم تكن الشمس اقتربت من الوادي، لكنّ أشعتها كانت تنثر ذهبها على سفوح الجبل والقمم المكسوة بالثلج. آلاف الطيور كانت تزقزق وتصدح، وأخرى تجول على زبد الماء، تطير أو تغطس بحثاً عن الأسماك. كانت الضفاف محفوفة بركام القصب الكبيرة والتي أزهر فيها السوسن البري والنيلوفر الأبيض.

مالك الحزين المفضّض، تغمره المياه حتى بطنه، يجس الكلأ بمنقاره الحاد من أعمق مكان في المجرى. عندما لمح المركب القادم نحوه بصمت، انتصب كما يليق به وقد انتفشت قنزعة ريشه، وبعد أن رفع ساقه بتثاقل خارج الماء، ابتعد باتجاه الضفة.

ـ لم يخف ـ علّقت ـ إنه غاضب فقط لأنه أُزعج أثناء تناول الفطور.

ـ أي نعم، كل الحيوانات التي تقطن هذه الحدائق حيوانات أليفة، أكدّ

عدي لا شيء كان يزعجهما على الإطلاق. تجاوزا مالك الحزين، لكن الطائر المائي لم يعد يبالي بالزائرين بل تابع الصيد وباطمئنان على مسافة قريبة، وبطن سمكة كان يتلألأ وهي تخرج من الماء لتخطف ذبابة، وأولى العياسيب كانت تنهض من سباتها راسمة على الموج وجوهاً مترنحة.

ـ يا لجمال كل هذا! هتفت حليمة.

ـ نعم هذا جميل، قال عدي بصوت أصم، لكنه يكون أجمل عندما يكون المرء دون قيود. . . دهشت حليمة.

ـ قلت بلا قيود؟ أفلا نعيش هنا بحرية؟

ـ لا يمكنك أن تفهمي، لأنك امرأة. قلت لك ذلك: ابن آوى ساغب في الصحراء لأسعد من أسد شبع في قفص.

هزت حليمة برأسها مرتابة.

ـ هل نحن فعلاً في قفص؟

ـ قلت لك ذلك دون أن أفكر به ـ قال معتذراً، اسكتي الآن لقد وصلنا.

لامس المركب الضفة. ثم وطئا الأرض. ممر صغير كان يتلوى بشكل يكاد لا يرى، بين أدغال الصفصاف والحور المتشابكة. بلغا سفحاً صخرياً، تنمو عليه كل أنواع العشب الغريبة، والأزهار النادرة، ثم عبرا مرجاً فسيحاً تغلقه غابة صغيرة. سمعا أصواتاً متوحشة قادمة من هناك:

نقيق وحسيس، وزمجرات، تمسكت حليمة بذراع دليلها خائفة. وفي الحال لمحت عند تخم الأشجار أنواعاً من أقفاص كبيرة: في داخلها طيور ترفرف، أو حيوانات تعدو، عندما اقتربت، انقضت بعض الطيور المذعورة على الشبك مصفقة بأجنحتها، بينما وثب فهدان كبيران بدورهما وأخذا يزأران من الرعب.

جفلت حليمة فتراجعت إلى الخلف، ووضع عدي السلة التي كان قد

أحضرها على الارض وراح يطعم الحيوانات التي هدأت في الحال وانهمكت بالتهام رزقها.

ـ هذا العمل من شأن معاذ ومصطفى عادة علّق عدي، إنمّا وقد راحا إلى الصيد فعليَّ أن أحل محلّهما اليوم.

كانت الأحراج تخفي قفصاً منخفضاً ومستطيلاً، حيث وضعت فيه الدواجن. دخله عدي وأخذ يجمع البيض. والآن ـ انصرفي من هنا ـ فعلي أن أقوم بعمل لا ينبغي أن تشاهديه.

ركضت حليمة نحو أقفاص أخرى، كان عدي أثناء ذلك يلوي أعناق بضع فراخ وإوزات. صراخ الحيوانات المختنقة كان لا يطاق بالنسبة لحليمة التي آثرت أن تسدَّ أذنيها. غطى عدي الطيور الميتة بقماش، ثم خرج من الخمِّ. وراح يشرح لرفيقته طباع الحيوانات المختلفة التي جاءا على رؤيتها.

ـ لو كان هذا الفهد حراً كأهريمان لمزقني إرباً ـ علقت هذه ـ أليس كذلك؟

ـ أو ربما لولى هارباً. الفهود تخاف الإنسان.

ـ لماذا إذاً تحبسونها في قفص؟

ـ سيدنا بحاجة إليها. كي تتناسل. فهذان الاثنان اللذان رأيتهما هناك زوجان، يريد سيدنا أن نربي له بعض الشقر من الحيوانات المتوحشة، يسره كثيراً أن يقدمها كهدية لأصدقائه الأمراء. وهم كثر.

ـ هل صحيح أن الفهود الصغيرة تشابه القطط الصغيرة؟

ـ فعلاً. مع هذا الفرق. وهو أنها أظرف، وألطف أيضاً.

ـ كم أتمنى لو أقتني واحداً منها.

ـ إن صرت عاقلة. سأحضر لك واحداً، ستستطيعين الاحتفاظ به ما دام صغيراً.

ـ أوه هل تظن أن سيدنا يسمح بذلك؟

ابتسم عدي.

ـ لديك أصدقاء من أصحاب النفوذ.

خجلت حليمة. فهي تعلم أنه كان يلمح إلى مريم.

ـ لماذا تمقتك أباما؟ سألت.

ـ إنها تمقت كل الناس، ولا تخشى إلا سيدنا. خصوصاً أنا، إذ أنني ذات مرة... لكن ما الجدوى من التحدث بذلك!

ـ عدي تكلم! فقط.

ـ إنه شيء سخيف... لكنني أتوسل فقط ألا تتفوهي بكلمة إلى أحد... تعلمين أنه عندما جاءت أباما إلى هذه الرياض، لم تكن لتكف عن التلميح إلى الصداقة القديمة والعميقة التي كانت تربطها بسيدنا. إذ كان يتهيأ لها أنه قد عشقها في الماضي في كابول، كانت تريد أن تقنعنا بأن سيدنا الذي أصبح ذا نفوذ قد استدعاها إلى القلعة ليجعل منها محظيته. كانت تتصرّف بغطرسة، ترتدي الحرير، وتتنكر لعمرها بطريقة تلفت النظر، تبتسم بتكلف مكظوم، وتشتم كل الناس ـ حتى أنا أنا الذي أعرف سيدنا منذ كنّا في مصر، وأنا الذي ذدت عنه بجسدي ضد أعدائه، ذات يوم وبمحض الصدفة، حدث أن باغتّها في جماع إنساني رقيق جداً. كانت مضحكة ومنفّرة. انفجرت ضاحكاً. ومن حينها ـ ترين ـ صارت تنزل بلعناتها على رأسي، هي تظن أنني فضحت عارها أمام الآخرين، ولا يؤثر فيها أيضاً. لو رأتنا نفطس جميعاً الواحد تلو الآخر. ولولا سيدنا لما تورعت ومنذ زمن بعيد عن القضاء علينا حتى آخر واحد فينا.

ـ هل هي فعلاً شريرة إلى هذا الحد؟

ـ شريرة لأنها تتعذب. ولأنها عبدة لعجرفتها. لا تريد أن تشيخ مع أنها تعلم أنها شاخت.

أثناء توغلهما عبر نباتات الحراج، وصلا قفصي القردة. صرخت حليمة من الفرح عندما رأت الحيوانات الصغيرة تطارد بعضها بعضاً وهي تتعلق بشبك القفص، متأرجحة من أوله إلى آخره في حركات بهلوانية، وهي تقرص بعضها وتتشاجر.

ـ كان لدينا دبّ أيضاً ـ قال عدي ـ لكنّ سيدنا أعطانا أمراً بالقضاء عليه لأنه يأكل كثيراً. تستطيعين أن تري في الجزيرة قطيعاً من الحيوانات أيضاً، جملاً صغيراً، أربعة خيول، وبعض الحمير. يوجد كلاب وقطط حتى... لا بدّ من أن أقول لك بأنه من غير المسموح به لأحد غيرنا أن يطأ هذا المكان... وأباما هي التي تلقت من سيدنا أن يكون الأمر كذلك.

ـ هل يجيء سيدنا أحياناً إلى رياضنا؟

ـ ليس لي الحق بأن أقول لك ذلك، يا طفلتي العزيزة.

ـ أتمنى فعلاً لو أعرف كيف هو.

ـ من الصعب جداً أن أقول لك ذلك. له لحية كثة، وهو سيد ذو نفوذ عظيم...

ـ هل هو جميل؟

أخذ عدي يضحك. ـ لا أحسب ذلك، أيتها العصفورة الصغيرة. في الواقع هو ليس دميماً. بالحري هو مرعب...

ـ هل هو طويل القامة؟

ـ لا، هو ليس كذلك، فأنا أزيده طولاً بكل رأسي.

ـ لابد من أنه قوي جداً.

ـ لا أعتقد ذلك، فأنا أستطيع أن أرميه أرضاً بيد واحدة.

ـ إنما ماذا لديه مما يجعله يُرهبُ الآخرين؟ هل لأن لديه جيشاً كبيراً تحت تصرفه؟

ـ ليس لهذا السبب بالتحديد. ففي ما سبق، وحتى في مصر، حيث كان غريباً ودون سند، كان يوحي بخوف كهذا إلى كل من حوله، بحيث إن الخليفة أمر أخيراً بإلقائه في السجن. قضى فيه ليلة، وفي نهار الغد وضعوه على متن قارب وطلبوا منه مغادرة البلاد. كان بإمكان أعدائه أن ينتهزوا الفرصة ويقتلوه، لكنهم لم يتجرأوا.

ـ غريب غريب. قالت حليمة مندهشة. السلطان وهو صديقان إذاً؟

ـ أوه أبداً! السلطان هو عدوه اللدود.

ـ وإن هاجمنا فإلام سنصير؟

ـ لا تخافي، عندها سيعود من هجومه ورأسه مسربل بالدم. هذا إذا بقي رأسه معلقاً بين كتفيه.

ـ قل لي الآن، هل تعلم إن كان عند سيدنا كثير من النساء؟

ـ أنت فضولية جداً، أعلم أن له ولداً، وربما اثنتين أو ثلاثاً من الإناث مثلك.

خجلت حليمة.

ـ ماذا يظنني؟ دمدمت كما لو كانت تحدث نفسها.

لم يتمالك عدي نفسه عن الضحك لهذه الملاحظة. في رأسه هموم أخرى، في هذه الأثناء على الأقل.

ـ إنه بالتأكيد يلبس الأرجوان والحرير...

ـ يكون هذا بحسب الظروف. فمرة رأيته يرتدي معطفاً من النسيج المسح.

ـ إن ارتدى كذلك فليس هذا إلاّ كيلا يتعرف عليه أحد... أليس ملكاً في هذا العالم؟

ـ أكثر من ملك! إنه نبي.

ـ مثل محمد؟ سمعتُ أن محمداً كان جميلاً جداً. وكان لديه الكثير من النساء. البعض منهن كنَّ صغيرات جداً حتى.

انفجر عدي بضحك صارخٍ

ـ آه منك! أيها العصفور الفضولي، أرجو ألا يخطر هذا في بالك!

ـ وهل النساء يخشينه أيضاً؟

ـ هن أول من يخشاه. فأباما مثلاً تتراجع خوفاً أمامه كالخروف.

ـ وماذا يفعل من أجل هذا؟

ـ لا شيء. ولهذا بالضبط يخشاه الجميع.

ـ إذناً، لأنه شرير جداً، ومستبد جائر.

ـ هو ليس كذلك أيضاً. إنه يتمتع حتى بروح مرحة. ومع ذلك فهو لو نظر إليك لشعرت بنفسك كالمذبوحة.

ـ هل عيناه رهيبتان؟

ـ لا، لا أعلم، لكن لا تطرحي عليّ الكثير من الأسئلة، أمّا ما يجعله مرهوب الجانب أمام كل الناس، فهذا ما لا أعرفه لكنك لو رأيته ذات يوم، فلسوف تشعرين بأنه يعرف كل أفكارك، حتى تلك التي تظنين أنك أحكمت إخفاءها. سيبدو لك أنه يرى ما يقبع في أعماق نفسك. ومن غير المفيد ألا تكشفي أمامه إلاّ جانبك الحسن لأنه يرى كل شيء ويعلم كل شيء.

أحست حليمة بانقباض وعلت الحمرة وجهها.

ـ الآن أيقنت أني سأخافه إذا ما التقيته! إنك لعلى حق، فهذا الصنف من الناس لأكثرهم رهبة.

ـ حسن، دعي الاستفسارات! لنحمل السلة الآن ولنرجع إلى المنزل.

ومن جهتك أيتها الغزالة، فلتغلقي فمك الرائع، ولتحافظي على صمتك المطبق، بالنسبة لكل ما تعرضنا إليه بالحديث. . .

ـ هذا وعدٌ يا عدي. . . . وركضت خلفه حتى المركب.

التمت الصبايا عند المساء حول البركة، في الصالة الكبيرة، كانت الحجرة مزينة بشكل بديع، إذ ضاعفوا عدد المصابيح في المشاكي. وفي الزوايا، ألقٌ مضاعف الألوان يتذبذب من سراجات الزيت الصغيرة الموضوعة على الرفوف. كل شيء كان مزيناً بالزهور ومزخرفاً بأوراق خضرا.

كان مساعدو أباما الثلاثة، يقدمون الأكل والشراب إلى الصبايا، يحملون الطيور، والدجاج المشوي، والسمك المقلي المتبَّل بالليمون، والفاكهة، وأصناف الحلوى، على أطباق من البرونز.

كانت الخمر التي ملئت بها الجرار تسكب في الأقداح التي كانت الآنسات يفرغنها بحبور. وما لبثت همسات المحادثة الجدية أن استحالت إلى دردشة عامة يقطعها ضحك صاخب. كانت أباما التي ترصد المشهد، تبذل كل ما في وسعها لتغطي مرارتها، ثم انسحبت مسعورة بشكل بادٍ للعيان، إنما ليس من دون أن تنبه مريم في طريقها:

ـ لا تنسي أن مهمتك هي الحرص على النظام بالنسبة لكل ما يجري.

ـ لا تقلقي أباما، أجابتها مريم بأحلى ابتسامة.

ما زلن يسمعن تذمر العجوز وهي تمضي في الممر بمفردها:

ـ مُشين! هذا مُشين!. . .

لم يتأخر عدي وأسد في الانضمام إليهن يتبعهما محمد ومصطفى. ولا بد للمرء من أن يتنبأ، بأنهم لن يمتنعوا من الإقبال على الأكل وشرب الخمر، وما هي إلا لحظات حتى عم الابتهاج.

ـ حان الوقت الآن للمضي إلى الاستعراض ـ طرحت فاطمة ـ كان هذا ما اتفقن عليه جميعهن بكل سرور.

أخذن بإنشاد القصائد: بعضهن اخترن نبذات من القرآن، والأخريات مقاطع من شعر الأنصاري أو شعراء قدماء آخرين واستظهرت فاطمة مؤلفاتها الخاصة. ثم خاضت مع زينب بعد ذلك بمباراة شعرية. ضحك الخصيان الذين لم يكن لديهم أي براعة في هذه المعركة حتى فاضت عيونهم بالدموع. أما عدي فقد جاملهن بحماسة. كان وجهه يشع بالسعادة والاعتزاز.

عقب تلك الأناشيد، جاءت فترة الرقص. أمسكت فاطمة ورفيقاتها بآلاتهن الموسيقية، بينما استرسلت كل من مريم وحليمة وزليخة بشكل من أشكال رقص الباليه. وعندما انتهين من رقصهن الجماعي، تابعت زليخة بمفردها... إذ شوهد جسمها يتلوى ببطء على نغم الصنجات ثم أخذت تسرع، وتسرع... وثبت أخيراً على حافة الحوض، أخذت تدور حول نفسها بسرعة مدوِّخة. إلى أن استولى الذعر على المتفرجين الذين حبسوا أنفاسهم ثم اندفعت كالزوبعة لتحط مسترخية على الأرائك.

أطلق الجميع صرخات الإعجاب، هرولت حليمة نحوها وعانقتها بجنون. ومن جديد، ملأ الخصيان الأقداح وشرب الجميع نخب زليخه. كان فعل الخمرة يتصاعد إلى رؤوسهن فاسترسلن في غناء ونحيب، وعناق، مستسلمات لكل أنواع الغنج والدلال، والمشادات الرقيقة التي كان يتخللها ضحك مجنون. أما ملكة كل تلك الشقاوات فقد كانت دائماً حليمة. إذ أثرت فيها الخمرة منذ الأقداح الأولى. هيئ إليها أنها صارت خفيفة كالفراشة، وبدا لها أنها تستطيع أن تطير عن الأرض بأجنحة خفية. وما أن مرَّت بضع لحظات على انتهاء زليخة من الرقص، ومستسلمة للذة التفاخر، تطلبت بدورها موسيقيات كي يعزفن لها نغماً راقصاً، بدأت أولاً ببضع خطوات، ثم أخذت تدور محاولة تقليد الحركات التي رأتها عند

زليخة، وأخيراً وثبت أيضاً نحو حافة الحوض. صرخت رفيقاتها وهرعت مريم تسندها. لكنَّ ذلك جاء متأخراً. فقدت توازنها وسقطت في الماء من طولها.

اندفعن جميعهن نحوها مسرعات. مدّ عدي ذراعه القوية وانتشلها من البركة. نظرت إلى مريم بشكل يدعو إلى الشفقة وهي تضحك عبر الدموع التي تنهمر من عينيها. أنبتها مريم بلطف، ثم صحبتها إلى الغرفة. وهناك لفتها بمنشفة وساعدتها على تغيير ثيابها. عندما ظهرت من جديد أرغمت حليمة نفسها على البقاء ساكنة وصامتة، إنما ما لبثت بضع كؤوس من الخمر أن أعادت إليها ثقتها بنفسها، فسارت إلى الممر، وقرعت على الصنجة قرعة عبارة عن دعوة إلى الصمت.

ـ صديقاتي وأخواتي الجميلات، استهلت موجهة الكلام إلى عدي، أمامكن الآن، حليمة، البريئة والساحرة، والتي أخذت خمرة الاحتفال بها. . .استرسلت الصبايا والخصيان في ضحك صاخب.

ـ من غير المفيد الاستمرار يا حليمة ـ ردعتها مريم ـ هذا لا يسوّي شيئاً. . .

ـ كنت أودّ أن أعتذر فقط ـ قالت حليمة الكدرة بشكل واضح للجميع.

نهضت مريم، تقدمت نحوها، وجرّتها حتى أريكتها. وحليمة التي ذرفت الدموع مدراراً من شدة التأثر، ضمَّت يد مريم وقبلت أصابعها واحدة واحدة.

لم تفلح سارة طوال السهرة. فهي التي اعتادت في تلك الأثناء على تملك حليمة دون منازع في تلك الأوقات، كانت تتابع أدنى حركاتها بعين الغيور. أما حليمة فلم تكن تبدي للحظة أية مبالاة بها. كانت سارة المفتونة، تنظر إليها وهي مستلقية قرب مريم مقبلة أصابعها. صادرت حليمة ابتسامتها التي كانت تنطق بيأس غيور. وجهت إليها ابتسامة غنج،

وبقصد إثارتها أخذت تداعب وجه وشعر وعنق مريم، وهي تشد نفسها إليها، معانقة إياها، مقبّلة شفتيها بغرام.

اعتمل في سارة عذاب لا حدود له. وأخذت تفرغ الكؤوس الواحدة إثر الأخرى. أخيراً وحيث لم يعد بمقدورها أن تتمالك، انفجرت في نحيب، هربت باتجاه الباب، انتزعت حليمة نفسها من بين ذراعي مريم، وركضت خلفها، إذ استيقظ فيها فجأة عذاب الضمير، وألفت نفسها مستعدة لمواساتها.

نظرة واحدة، وفهمت مريم كل شيء شحب لونها ونهضت.

ـ سارة! حليمة! هنا! صرخت بصوت أجش.

اقتربت الفتاتان، وأطرقتا في الأرض وهما متخوفتان.

ـ ماذا يعني هذا؟

كانت اللهجة لهجة صارمة فخرّت حليمة عند أقدامها تقبلها، ثم أخذت بالنحيب.

ـ هكذا إذاً ـ قالت مريم ـ بصوت أصم.

ـ لا، لا، أنا لست بجانية ـ صرخت حليمة ـ إنما أغوتني سارة.

دفعت مريم حليمة، اقتربت من سارة وصفعتها، فانهارت هذه دون أن تنطق بكلمة أدارت لهما مريم ظهرها عندما رأت الوجوه مُتنازعة بين رعب ولهو. وابتسامة ارتسمت على شفتها.

ـ سارة! صرخت ـ اجمعي حاجاتك، وارحلي في الحال. ستقيمين في الغرفة عديمة النوافذ الواقعة آخر الممر. ستنامين فيها حتى تغيري ما بنفسك. انهضي، وانصرفي لن أراك ثانية في هذه الأمسية.

ندمت حليمة على تصرفها. وبكتها ضميرها على فضحها سارة التي نهضت، ورمقتها بنظرة حزينة، وغادرت الغرفة دون أن تنبس ببنت شفة.

زحفت حليمة التي كانت لا تزال جاثية على ركبتيها، حتى صارت قرب مريم، ورفعت إليها يدين متضرعتين، وعينين تنظران بنظرة شاكية.

ـ أما من جهتك أنت، أيتها الخاطئة ـ زجرتها مريم ـ فسوف تسكنين معي من الآن فصاعداً، هكذا ستكونين تحت رقابتي المباشرة. سنرى إن كان لا يزال هناك مجال لإصلاحك، وأنتما يا صفية ويا جادا ستأخذان مكانهما في غرفة زينب.

أحست حليمة بأن السماء قد انفتحت لها، لم تكن تتجرأ على تصديق ذلك أيضاً، تشجعت، ورفعت عينيها تنظر إلى صاحباتها. فرأت في وجوههن ابتسامة. وابتسمت هي أيضاً حينئذ وعيناها تدمعان، احتجب الخصيان دون أن يلحظ أحد انصرافهم.

ـ صار وقت النوم. أشارت مريم.

انسحبن الواحدة تلو الأخرى، بحركات تنطق بالإعياء. كانت حليمة تنتظر مترددة قرب الباب.

ـ ما لك أنت لا تزالين متسمرة؟ أعربت مريم عن نفاد صبرها. اذهبي وأحضري حاجاتك واتبعيني!

في هذه اللحظة فقط، صدّقت حليمة ذلك، أجل! كانت خاطئة، معذبة، لا سيّما وأنها خسرت مودّة مريم. لكنّ أجمل هدية نزلت عليها من السماء، مقابل كل هذا، هي بأنها سوف تنام في غرفة مريم. ستستنشق نفس الهواء الذي تتنفسه، وتستمتع بحضورها بالتأكيد! ستستطيع الدنو أخيراً، مما هو بالنسبة إليها سراً من بين أكبر الأسرار. بالكاد كانت تستطيع أن تنتبه إلى الابتسامات الموجهة إليها من رفيقاتها اللواتي وجدنها جميلة وظريفة، وقد أخذن يتهامسن في ما بينهن، ومن بعيد يرسلن إليها بالقبلات اللطيفة وخفية رمقتهن بنظرة سوداء، وراحت تحضر حاجاتها من غرفتها القديمة، وساعدتها في ذلك زينب وجادا وصفية. كانت خجلى بشكل لا يوصف، ومحبطة وعيناها مسبلتان إلى الأرض، وبمساعدتهن جهّزت

سريرها في غرفة مريم، خلعت ثيابها سريعاً، اندسّت تحت الغطاء، وتظاهرت بالنوم. لكنَّ أذنيها كانتا تلتقطان كل صوت يصدر في الغرفة. أخيراً وصلت مريم. أحسَّت بها حليمة تخلع ثيابها، وتفكُّ حذاءها، ثم أدركت وقد توقف قلبها عن الخفقان خطوات صامتة تقترب من سريرها. أحسَّت بنظرة مريم، لكنها لم تتجرأ على فتح عينيها، يا للرقة المطلقة! قبلة خفيفة لامست جبينها، درأت رعشتها ونامت في الحال.

بدت الأيام التالية رائعة، لم يعد ضميرها يعذبها كما كان يعذبها في السابق. فمنذ أن اعترفت بخطيئتها، وعوقبت نتيجة ذلك، ارتاح قلبها من ذلك العبء الذي كان يرزح تحته، ووجدت درباً إلى السعادة من جديد. كانت لا تزال متضايقة فعلاً أمام صديقاتها، اللواتي كنَّ لا يتورعن من أن يقابلنها بابتسامات مبطَّنة، معربات عمداً وبدافع الدّعابة، عن إرادتهن باجتذابها. أطبقت كفها، مهددة إياهن بقبضتها الصغيرة، مصوبة عليهن نظرة سوداء، على الرغم من ذلك كانت تتعالى بجرأة، ولم يكن يزعجها أبداً أنها صارت قبلة الأنظار حتى لو كان ذلك بصفتها خاطئة صغيرة.

كانت سارة تتحاشاها، وهي أيضاً كانت تُحرج عند لقائها. كانت عيناها دائمتي الإحمرار لكثرة ما تذرفان من الدموع، وتجول بهما أثناء الوجبات بنظرات مثقلة بالألم وباللوم. أخيراً استجمعت شجاعتها وبادرت إلى الاقتراب منها.

ـ سارة، لم أكن أريد فضحك ـ لتعلمي ذلك ـ أفلتت مني تلك الحركة المذعورة. . . طفح وجه سارة بالدموع، ارتجفت شفتاها، ربّما كانت تريد أن تقول شيئاً، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً، غطت وجهها بيديها، وولت هاربة.

لابدَّ لها أن تحسَّ بهكذا ضيق، باعتراف حليمة التي لا بد لها أيضاً من أن تعترف بذلك، قياساً إلى السعادة الكبرى التي كانت عليها: فقد كانت

تنام في غرفة مريم! تقف على خدمتها بنفسها. وندمت بعض الشيء فعلاً لأنه كان على كل من جادا وصفية أن تبعدا عن غرفة مريم نتيجة لخطيئتها.

كانتا أختين توأمين متشابهتين كتشابه قطرتي الماء، وبطباع من أودع وألطف ما يتصوره المرء هذا التماثل بالطبع وبالشكل كان يجعل حليمة لدى لقائهما تخطئ بتسمية كل منهما. مما كان يجعل جادا وصفية تلهوان بأن تقدم كل واحدة نفسها على أنها الأخرى. وكانت هذه هي الدعابة الوحيدة التي كانتا تجيزانها لنفسهما. وكان هذا يثير لديهن ضحكاً من الأعماق.

حزن عميق ظهر عليهما، عندما صارت مغادرة غرفة مريم واجبة وما هي إلاَّ بضعة أيام حتى توثقت علاقتهما بزينب ليصير من الثلاثة أفضل صديقات في الوجود... عندما كانت تنام بالقرب من زينب وسارة، كانت تتوجّس من الليل مخافة، أمّا الآن فقد صارت تنتظره بفارغ الصبر. منذ الأمسية الثانية قالت لها مريم:

ـ لا تتعرضي لي بأي سؤال مهمتي هي رعايتكن جميعاً. ولا يحق لك أن تعلمي أكثر من ذلك.

هذه الكلمات الغامضة أوحت إلى حليمة بكل ما يخطر في البال من أفكار إلاّ أنها اكتفت مذ ذاك بالمراقبة وهي صامتة. مريم هي آخر واحدة تأوي إلى النوم. حضّرت لها حليمة كل ما يمكن أن تكون بحاجة إليه، ثم خلعت ثيابها واستلقت على سريرها متظاهرة بالنوم ومن خلف أجفانها المطبقة رأت مريم عائدة إلى غرفتها. تخلع ثيابها بشرود، وتطفئ الشمعة... ثم أحسَّت بها تقترب، وشعرت بقبلتها تلامس جبينها.

ذات ليلة، وبينما كانت تغط في نوم عميق، أفاقت فجأة، وقد كدَّرها شعور غير مألوف. استولى عليها خوف شديد، أرادت أن تنادي مريم، لكنها عندما نظرت نحو سريرها وجدته خالياً، رعب غامض استحوذ عليها «أين ذهبت؟ لا بدَّ أنها قرب سرير واحدة أخرى ـ حدثت نفسها أولاً ـ

لكن لا! إنها عند سيدنا!...». شيء ما في داخلها يحدثها بأنها لم تخطئ...

عند سيدنا! لجج من الألغاز انفتحت في نفسها. وفجأة أحسّت بنفسها بائسة إلى أقصى الحدود. أصاخت السمع وهي متكوِّرة على نفسها، وقد حبست أنفاسها. لكنَّ مريم لمّا تعد. طار النوم من عينيها وراحت تفكر. خوف كبير وفضول مؤثر أخذا يتنازعانها مدركة بأنها قد أصابت لبَّ السرِّ أخيراً. غارت النجوم، وأخذت العصافير تعلن أولى زقزقاتها، انفرجت عندئذ الستارة التي كانت تنسدل على المدخل برفق وكشبح ليلي دخلت مريم وهي ترتدي معطفاً مزيّناً بفراء الزبلين. ألقت بنظرة مرتابة باتجاه حليمة، وبهيئة متعبة، فكَّت أزرار معطفها، انزلق عن كتفيها، ووقفت جامدة أمام سريرها. لم تكن ترتدي إلاَّ قميصاً رقيقاً، خلعت حذاءها، اندسَّت بهدوء تحت أغطيتها. لم تجد حليمة إلى النوم سبيلاً، إلاّ حين، تردَّد صدى قرعة الصنجة، تدعو النائمين إلى اليقظة. غطت عندئذٍ في غفوة عميقة خاطفة، كان لها أن تمنحها شيئاً من الراحة. عندما أفاقت كانت مريم كعادتها، تجلس قرب سريرها وتبتسم لها:

ـ لقد نمتِ اليوم إلى الضحى ـ قالت هذه ساخرة بنوع من التهذيب ـ لا شك أنك حلمتِ حلماً سيئاً.

لم تكن حليمة قادرة على التمييز بأن ما رأته لم يكن إلا مجرَّد حلم. نهضت شاحبة ومتعبة ولم تتجرأ طوال النهار أن تنظر إلى أحد عن قرب.

اعتباراً من هذه الليلة، منحتها مريم أكبر ثقة، وصارت تعلمها القراءة والكتابة في أوقات فراغها فوجدت كل من الاثنتين متعة بذلك. بذلت حليمة كل ما بوسعها كي تنال تقدير معلمتها، وأخذت تتقدم سريعاً، فلم تبخل عليها مريم بالثناء، وكي تشجعها لم تكن تتردد بأن تحكي لها عن ذكريات شبابها، وعن الحياة التي عاشتها طفلة في بيت أبيها في حلب، وعن المعارك بين المسيحيين واليهود، وعن البحر الواسع، والمراكب التي

كانت تمخره قادمة من البلاد البعيدة. وهكذا انشدّتا إلى بعضهما بعضاً أكثر من أي وقت مضى، حتى صارتا كأختين بعمرين مختلفين.

ذات مساء، وقد عادت مريم لتوها إلى غرفتها، وأخذت تخلع ثيابها، سمعتها حليمة تلفظ هذه الكلمات:

ـ هيا لا تتظاهري بالنوم، الأولى أن تأتي إلى قربي.

خوف لا يوصف قطن قلبها ـ مريم ستلامسها! جاءت إلى المرقد المجاور؛ إنما قلقة ومنفعلة، تمددت على حافة السرير. ومريم هي من بادرت إلى جذبها نحوها، عندئذ فقط تجرأت حليمة أن تتقارب من صديقتها.

ـ سأحدثك عن شقاء حياتي ـ استهلت مريم ـ أنت تعلمين أن أبي كان تاجراً في حلب. كان غنياً، وكانت مراكبه تبحر نحو أقصى الغرب، محمّلة بالقماش الثمين. عندما كنت طفلة كنت أحصل على كل ما يتمناه قلبي. كان يكسوني بثياب الحرير الفاخر، ويزينني بالذهب والأحجار الكريمة، وثلاثة خدم يقومون على تنفيذ أوامري. كنت معتادة على التطلّب، وكنت أرى في رضوخ الجميع لي حقاً طبيعياً.كم كنت سعيدة! قالت حليمة متنهدة.

ـ تأكدي ـ مع ذلك ـ بأنني لم أكن أكثر سعادة من أيّة واحدة أخرى ـ تابعت مريم ـ هذا على الأقل ما يبدو لي اليوم. إذ كانت رغباتي تنفّذ على الفور. إنما أية رغبات؟ لم تكن إلا تلك التي كان للمال أن يلبيها. أما تلك الأحلام المخبأة، المخفية، والغالية على قلب الصبايا، فقد بقيت مدفونة في أعماق ذاتي ومبكراً، وجدت نفسي أنقاد في تأمل صميم حدود القوى البشرية. لم أكن بلغت من العمر الأربعة عشر عاماً، عندما أخذت المصائب تنهال فوق رأس والدي، بعضها إثر بعضها الآخر. كان موت أمي فاتحتها، رأيت ذلك الرجل يغوص في حزن عميق. بدا وكأنه فقد الرغبة في كل شيء. زوجته الأولى أنجبت له ثلاثة أبناء، انخرطوا في

مزاولة التجارة لحسابهم. واحد منهم خسر كل ثروته فتكفل به الاثنان الآخران. أرسلا مراكبهما باتجاه الشواطئ الأفريقية، وانتظرا مغنمهما، ولكنهما سرعان ما أبلغا بأن المراكب تحطمت في العاصفة. فعاد الثلاثة إثر ذلك إلى أبيهم الذي أشركهم في ثروته ووجهوا مراكبهم هذه المرة نحو بلاد الفرنجة، لكن قراصنة استولوا عليها وبين عشية وضحاها وجدنا أنفسنا في فقر مدقع.

ـ ربما كان من الأفضل لو أنكم ولدتم فقراء! قالت حليمة وهي تفكر بصوت مسموع.

ابتسمت مريم لذلك. فضمت الطفلة الساذجة في عناق رقيق.

ـ كل هذه المصائب ـ أردفت ـ انهالت علينا في مدة لا تتجاوز السنتين. في هذه الأثناء جاء اليهودي موسى، الذي كان يعتبر كأغنى رجل في حلب. للقاء والدي وقال له: «إصغ يا سيمون ـ كان هذا اسم أبي ـ أنت بحاجة إلى المال، وأنا بحاجة إلى امرأة!...» وبهدوء قال أبي ساخراً: «قل هذا لغيري، قل هذا لغيري!... أنت لست في مقتبل عمرك، من الممكن لواحد بعمرك أن يكون أباً لواحدة بعمر ابنتي! الأولى بك أن تفكر بالموت الذي صار قريباً منك!...». لكن موسى لم ييأس.

إذ كان الكلام، في الواقع، قد شاع على أنني أجمل فتاة في حلب. «سأقرضك كل ما تريد من المال ـ قال بإلحاح ـ، وكفاك أن تزوجني ابنتك وحسب. أنت تعلم أنها لن تلقى ما يضيرها عندي».

في البداية لم يأخذ أبي طلب الزواج هذا على محمل الجد. لكن اخوتي من غير أبي علموا بالموضوع. فضايقوه، وضغطوا عليه بشدة لعقد الاتفاق مع موسى. كان أبي في وضع مادي بائس، وكان أيضاً مسيحياً حقيقياً، يستنكر فكرة تزويج ابنته من يهودي. أما وقد صار ضعيفاً، ومحطماً جراء تتالي المصائب عليه، استسلم لفكرة هذا الزواج، لكن أحداً لم يسألني

رأيي. وُقّع العقد ذات يوم، وكنت مرغمة على الذهاب للانضمام إلى عائلة مجهولة.

ـ مسكينة، مسكينة أنت يا مريم! همست حليمة والدموع تملأ عينيها.

ـ ترين، أحبني زوجي على طريقته... تابعت صديقتها، لكنني كنت أفضل لو كان يمقتني أو لم أكن أعني بالنسبة إليه شيئاً. كان يعذبني كثيراً بغيرته. سجنني في بيته مضيّقاً عليّ الخناق، لاحظ أنني باردة دائماً تجاه مبادراته التي لم تكن توحي إليّ إلا بالقرف، كان يصرّ بأسنانه، ويهددني بالقتل بخنجره. كنت أجده أحياناً مجنوناً وأخشاه بشكل فظيع. صمتت مريم، كما لو كان عليها أن تستجمع قواها كي تنطق بما بقي عليها أن تقوله، وحينئذ أيضاً خمنت حليمة التي كانت ترتجف بأنها ستفضي إليها بسرها. وضعت وجنتها المتقدة على صدر مريم وكتمت أنفاسها.

ـ لتعلمي أن زوجي ـ تابعت هذه بعد لحظة ـ اكتسب عادة كانت تسيء إلى حشمتي. فحبه لتملكي كان يؤدي به إلى حالة من الجنون. لم يكن يكف عن التحدث عني إلى معارفه الذين يعمل معهم في التجارة، وأن يصف محاسني بألوان زاهية وأن يمجد احتشامي، وكمال هيئتي، متباهياً بأنه يمتلك أجمل جميلات المنطقة. كان يرغب في إثارة شهوتهم جهاراً. ولطالما كان يحكي لي عند المساء بأن لون أصدقائه كان يتغير نتيجة الشهوة التي يثيرها لديهم وهو يصف سحري. ولم يكن ليتستر على المتعة التي كان يجنيها من ذلك.

تستطيعين بسهولة أن تتصوري الكره والاشمئزاز الذي كان يثيره عندي حينئذ. عندما كان عليّ أن أصلَه كنت أشعر بأنني أمضي إلى حتفي. كان يضحك ويسخر من هؤلاء الذين كان يسميهم أغراراً معوزين: «إيه يا عزيزتي، المال يشتري كل شيء. فقير معوز، لا يملك الحق بنظره إلى دجاجة هرمة، مهما كان جميلاً». كانت هذه اللغة تهينني، وتغيظني أكثر من كل شيء في العالم. أوه لو كان لي أن أقع على واحد من هؤلاء

الأغرار، لكنت برهنت لموسى بأنه كان يهدهد نفسه بأوهام كاذبة. إنما حدث ما كنت أتوقعه على أية حال... واحدة من خادماتي دسّت في يدي بطاقة صغيرة ذات يوم. فتحتها وأخذ قلبي يرتجف منذ قرأت أولى كلماتها. ما زلت أحفظها حتى آخر كلمة فيها عن ظهر قلب. أصغي...

حليمة التي كانت تصغي باهتمام أخذت ترتجف من اللهفة.

- إليك ما كتب فيها: «من الشيخ محمد إلى مريم زهرة حلب، القمر ذي الأشعة الفضية الذي يضيء الليل، والشمس التي تضرم النهار!... لتعلمي أني أحبك، نعم أحبك حباً لا حدود له، مذ سمعت موسى - سجّانك الملعون - يعري حسنك، وفضائلك، ومثلما تصعد الخمرة إلى رأس الكافر وتثمله، هكذا يثمل قلبي إحساسي بكمالك... يا أيها القمر الفضي! ليتك تعلمين كم قضيت من الليالي في الصحراء، أتخيل سحرك، وكم تبدو حيّة أمام عينيّ صورتك، أجمل من الفجر الذي يمنح السماء لونها الوردي. كنت أحسب بأن البعاد كفيل بأن ينسيني ولهي بك، لكنه لم يعمل إلا على إضرامه! وها أنا ذا الآن عدت أحمل إليك قلبي، لتعلمي يا زهرة حلب، بأن الشيخ محمد رجل لا يهاب الموت، وأنه جاء حتى عندك كي يستنشق الهواء الذي تشمين. والسلام!».

«تبادر لي في البداية، أن في هذه الرسالة شركاً نصب لي، ناديت الخادمة التي أحضرتها لي وضغطت عليها بقساوة كي تقول لي الحقيقة. أخذت تبكي، وأرتني قطعة المال التي أعطاها إياها بدوي، كي تأتي إلي بالبطاقة».

وكيف كانت هيئة الأعرابي هذا؟ ختمت. «جميل وشاب أيضاً» أجابتني. كنت مرتبكة للغاية، وفي الحال أحسست بنفسي أقع في أسر محمد هذا. حدثت نفسي كيف تجرأ على كتابة رسالة كهذه لو لم يكن شاباً وجميلاً. خفت أن يخيب أمله إن رآني. أعدت قراءة هذه الرسالة أكثر من مائة مرة، في النهار كنت أحملها في صدري وفي الليل كنت أقفل

عليها في صندوق. ثم وصلت منه رسالة أخرى، أكثر جمالاً وأكثر هياماً من الرسالة الأولى. كنت أحترق في لهيب هذا الحب الخفي. أخيراً حدد لي محمد موعداً على الشرفة تحت نافذتي تماماً. لأنه كان قد استطلع الأماكن التي تحيط بي. أوه! يا عزيزتي كيف أصف لك مشاعري آنذاك! عدلتُ عن رأيي أكثر من عشر مرات في اليوم، أأذهب؟ أم لا؟ وبعد كثير من التردد اتخذت قراراً بعدم الذهاب إليه تمسّكت بذلك بثبات حتى ساعة الموعد المحددة. لكنني في هذه اللحظة، وبناء على الترتيب السري، رحت إلى الشرفة، كانت ليلة رائعة، ليلة معتمة، لم يكن القمر قد طلع بعد، لكن السماء كانت مبذورة بالنجوم التي كانت تشع بنور خافت، متلهفة حيناً، ومرتعبة حيناً آخر. انتظرت بضع دقائق في ظل الشرفة. كنت أحدث نفسي آنذاك: «و لو كان في هذا مجرّد تغرير، مقلب من مازح شرير يريد أن يجعل من موسى سخرية؟». فجأة سمعت صوتاً يوشوش: «لا تخشي شيئاً، هذا أنا، الشيخ محمد» خفيف كما الريشة، عبر السياج رجل يرتدي جلباباً رمادياً، وقبل أن يسعفني الوقت في استعادة رشدي، أخذني بين يديه: شعرت أن العالم ينقلب، وأني أمضي إلى العدم، لم يسألني إن كنت أريد المضي معه، أخذني من طولي وأنزلني السلم الذي كان عبارة عن الحبل الذي صعد بواسطته الحديقة.

خيالة كانوا ينتظرون عند جدار المنتزه من الجهة الأخرى، أمسكوا بي كي ييسروا له اجتياز السور. أقرّني بعد ذلك على سرج مطيته عرضاً، خرجنا من المدينة نعدو عدواً سريعاً تحمينا عتمة الليل.

ـ وأنت عشت كل هذا، أنت! قالت حليمة متنهدة، سعيدة سعيدة أنت يا مريم!

ـ كيف تقدرين على قول شيء كهذا، أيتها الصغيرة حليمة؟ لتعلمي أن قلبي يتمزق عندما أتذكر ما جرى بعد عدونا على الفرس طيلة الليل. ظهر القمر أخيراً خلف الجبال يغمرنا بنوره، كان كل شيء يبدو لي مرعباً

وجميلاً، تماماً كأحداث الحكايات. ولم أتجرأ طيلة ذلك الوقت على النظر في وجه الفارس الذي كان يضمني بين ذراعيه. تشجعت أخيراً أن أرفع عيني نحوه. كانت عيناه مشدودتين نحو الدرب مباشرة إلى الأمام، ونظرته كانت نظرة نسر، عندما وقعت عليَّ رأيت عينيه الجميلتين الدافئتين كعيني غزال، وفي التو أحببته لدرجة، استعذب الموت فيها من أجله، لأن الشيخ محمد كان رائع الجمال بشاربيه السوداوين، ولحيته القصيرة الكثَّة، وشفتيه الحمراوين... آه يا حليمة صرت زوجته أثناء مسير الطريق... بعد ثلاثة أيام، كانوا في أثرنا: أخوتي من أبي، ابن زوجي وعصابة من الأثرياء المسلحين! علمت في ما بعد، أن بلبلة قد اعترت المنزل، حالما انكشف أمر هربي، وقد عثروا على رسائل محمد، ونتيجة للألم والعار الذي حلَّ بموسى، أصيب بأزمة قلبية، فتسلَّح رجال العائلتين فوراً. وامتطوا أجود خيولهم وانطلقوا يتتبعون أثرنا... كنا أوغلنا في الصحراء عندما لاحت لنا في الأفق كتيبة من الخيالة، لم يكن مع محمد إلاَّ سبعة رجال، صاحوا به كي يتركني، لكنه آثر أن يهمز حصانه في عدو سريع، مكتفياً بتحريك يديه، موجهاً إليهم إشارة احتقار. بعد قليل امتطينا حصاناً مستريحاً، ومع ذلك تقدم مطاردونا علينا، عند رؤيته ذلك، وضعني عشيقي على الأرض، سيفه بيده، مقتحماً على رأس رجاله السبعة. كان المعترك حامي الوطيس، إنّما غلبت الكثرة أخيراً، سقط واحد من أخوتي، ثم رأيت محمداً يسقط بدوره، صرخت من الألم، ووليت هاربة، أمسكوا بي، قيدوني، ووضعوني على أحد السروج، ثم ربطوا محمداً بذيل حصاني...

ـ هذا فظيع، فظيع، قالت حليمة متألمة وهي تغطي وجهها بيديها.

ـ لا أستطيع أن أعبر لك عما أحسست به آنذاك، صار قلبي قاسياً كالحجر، ولم ينفتح بعد إلاَّ على حب وحيد: حب الانتقام. صعب عليَّ

في ما بعد إحساسي بالضعة والعار، اللذين كتبا عليّ. عندما عدنا إلى حلب، وجدت زوجي يحتضر، وعندما لمحني آنذاك، تحركت عيناه.

صحبني ابنه إلى القرب من سرير احتضاره، وضربني بيده ضربات وقعت عليّ كلسع السوط. كززت على أسناني، ولم أفسح المجال لصرخة تفلت مني. مات موسى، وأحسست بذلك بعزاء كبير... بدا لي أن أول مرحلة من الانتقام تمت... سأحكي لك بشيء من الاختصار عمّا فعلوه بي. عندما اعتقدوا بأنهم نكّلوا بي ما فيه الكفاية، اصطحبوني إلى البصرة، وهناك باعوني كأمة. وهكذا وجدت نفسي في عهدة سيدنا الذي آلى على نفسه أن يثأر لي من اليهود ومن المسيحيين. احتفظت حليمة بصمت طويل. كبرت مريم في نظرها كثيراً، حتى أخذت ترى في قسماتها مسحة شبه إلهية. وأحسّت بأن صداقة صارت تربطها بها.

ـ هل من الحقيقي أن اليهود والمسيحيين يأكلون الأطفال الصغار؟

جازفت بسؤالها أخيراً.

مريم التي كانت لا تزال مستغرقة بذكرياتها المروّعة عادت فجأة إلى صحوتها.

ـ ليس من المستبعد. قالت بابتسامة حزينة. فهم لا يمتلكون المروءة التي تقف دون ذلك...

ـ أية سعادة بامتلاكنا الدين الصحيح! هتفت حليمة. لكن قولي لي هل من المحتمل أنك لا تزالين مسيحية؟

ـ لا، ما عدت كذلك.

ـ أم يهودية؟

ـ ولا يهودية أيضاً.

ـ إذاً أنت تعتنقين الدين الصحيح مثلي!

ـ كما ترين أيتها الطفلة العزيزة.

ـ هل يحبك سيدنا كثيراً؟

ـ قلت لك بألاّ تطرحي هذه الأسئلة. وبَّختها مريم، وتظاهرت بالحزن، أما الآن وقد عهدت إليك بكثير من الأمور، فلسوف أطلعك على أمر آخر... ربما يحبّني، إذ أنه على يقين بأن لا غنى له عني.

ـ كيف: لا غنى له؟ لم أفهم.

ـ إنه وحيد، وليس عنده من يتحدث إليه.

ـ وأنت هل تحبينه؟

ـ لن يكون بمقدورك أن تفهمي هذا: هو ليس الشيخ محمد. هذا صحيح. أمَّا موسى فهو دونه أيضاً... إنه نبي وأنا معجبة به جداً...

ـ هو بالتأكيد رائع الجمال؟

ـ أيتها القطة الصغيرة الساذجة! تطرحين عليَّ أسئلة كهذه كي تثيري غيرتي؟

ـ أوه! أنا أعلم أنك سعيدة على الرغم من كل شيء ـ هتفت حليمة.

ـ اصمتي أيتها الحشرة! تأخر الوقت ويجب أن ننام. عودي إلى سريرك. قَبَّلتْها، وراحت حليمة تأوي إلى مرقدها. بصمت.

لكنها استغرقت وقتاً طويلاً، طويلاً حتى نامت. استعرضت في ذهنها كل ما روته لها مريم، وببالغ التأثر أخذت تتخيل الاختطاف، المسير على الجواد وهي بين ذراعي محمد الذي أحسَّت بأنفاسه تلامس جسدها، وبشاربيه يداعبان وجهها. شعور غريب عذب جعلها ترتعش، فاغتبطت إذ كان الوقت ليلاً وأن أحداً لم يستطع أن يراها هكذا. عندما تخيلت محمداً ميتاً، مربوطاً بذيل الحصان الذي كان يجر جسده في التراب، طمرت وجهها المبتل بالدموع تحت الوسادة واستسلمت للنوم وهي ما زالت تذرف الدموع.

إثر ذلك بقليل شهدت مشهداً، ملأ قلبها بضيق غريب. كانت تتجول

في الرياض كعادتها. تأخرت قرب الأيكة، عندما تناهى إلى مسمعها همس غريب، كان هذا يأتي من الدغل. اقتربت دون أن تحدث أيَّ ضجيج. سارة ومصطفى كانا مستلقيين فوق العشب، منهمكين في تبادل المتع التي كانت أبّاما تتفنن في تعليمهن أسرارها. ارتعدت، أرادت أن تهرب، لكن قوة خفية سمَّرتها في مكانها. مكتومة الأنفاس لم تستطع أن تشيح بوجهها عن هذا الثنائي: بقيت هناك تنظرالى ما كانا يفعلان، إلى أن انتهيا واستعدًّا للذهاب.

تساءلت فيما إذا كان عليها أن تفضي بما رأته إلى مريم، تحاملت على نفسها سلفاً لأن لديها ما تخفيه عليها من جديد إنَّما ألم تفضح سارة ذات يوم؟ لا لا يجوز لها أن تدينها الآن! الأفضل أن تدعي بأنها لم ترَ شيئاً. لأن ما اكتشفته لم يكن إلاَّ بمحض الصدفة. . . كتمت ذلك، وما لبثت أن أحست بأنها تتخلص من عبء ثقيل.

الآن، صارت تستطيع أن تنظر إلى سارة باطمئنان، ظنَّت أنها كانت بصمتها تبرئ ذمتها أمام سارة من دين قديم.

الفصل الرابع

أثناء ذلك الوقت، كان ابن طاهر يشهد ضمن القلعة أكبر تحول في حياته، مضى على قدومه بضعة أيام، ونوع من الدوار كان ما يزال يشوش رؤيته للأشياء. تماماً كما لو كان قد تلقى ضربة هراوة على رأسه، لكنه سرعان ما اعتاد على هذا النظام الجديد، خمسة عشر يوماً ولم يعد في عداد التلاميذ الأوائل وحسب، إنما صار متحمساً، ومولعاً بالمذهب الاسماعيلي، تبدَّلت ملامحه تماماً، لم تعد له تلك الوجنتان المستديرتان الطريتان، وتعابير وجهه صارت مذ ذاك صارمة جادة... أجل، أصبح يبدو الآن أكبر من عمره بعشر سنوات، راح يزداد معرفة بزملائه، برؤسائه، ولم يعد نظام المدرسة يغصُّ بالأسرار الغامضة بالنسبة إليه،لم يكن القائد العسكري يدربهم على تقاليد القتال وحسب، بل كان يدرسهم الجغرافية أيضاً. يصحبهم باتجاه الجنوب، في نزهات طويلة على الخيل. ويدعوهم في نهايتها إلى الالتفاف كي يتأملوا في الأفق، قمة دومافاند، التي كانت تسمو على كل الجبال المحيطة بها. جاعلاً من هذا المشهد نقطة الانطلاق لشروحاته.

لقد طاف الإمبراطورية عدة مرات في العهد الذي كان يخدم فيه في جيش السلطان ورسم عندئذ، وعلى قضيم واسع موقع المرتفعات الأساسية، ومدنها، وأكثر أسواقها أهمية، والطرق التي تسلكها الجيوش والقوافل... كان يبسط هذه الخارطة على الأرض أمام التلاميذ. متخذاً من دومافاند نقطة ارتكاز للتوجه، ليأخذ في شرح وضعية المواقع المختلفة،

والمفارق الاستراتيجية الرئيسية، مورداً ضمن شروحاته بعض ذكريات حياته العسكرية، مما كان يجعل تعليمه نابضاً بالحياة، مؤججاً حماسة التلاميذ الذين كانوا ـ وكوظيفة ـ على كل واحد منهم أن يحدد بالضبط مسافة واتجاه موقع بلده، كانت هذه من بين الدروس التي كان يؤثرها الطلاب. أما الحكيم، فقد انتقل الآن إلى تدريس علم جديد، وبنمط جديد. إذ كان لهذا الرجل أن تردَّدَ كثيراً على بلاطات الغرب، وألمّ بكل شيء عن الحياة السائدة في قصور بغداد، والقاهرة وحتى بيزنطة. زار عدداً من أمراء العالم الأشدّاء، وعرف كثيراً عن حياة الشعوب الذين درس أعرافهم وتقاليدهم. فجعل من عصارة تلك التجارب مادة تدريسية من أكثر المواد تميزاً.

كان يصف لهم أشكال التحية المتنوعة عند اليونان، وعند اليهود، وعند الأرمن، والعرب، طباعهم، أساليبهم في المأكل والمشرب، والتسلية، وممارسة صناعتهم، علمهم كيف يقدمون أنفسهم لهذا الأمير أو ذاك، وأطلعهم على أسرار المراسم المتعامل بها لدى بعض السلاطين، وتفاصيل قواعد السلوك الاجتماعي في البلاطات المختلفة، كان يعطيهم أخيراً قواعد اللغة اليونانية والعبرية والأرمنية.

أثناء ذلك، كان يمثل على التناوب وبطريقة مسرحيي العهود القديمة، دور أمير مشهور، أو دور ملتمس متواضع، فخوراً متعالياً حيناً، خافض الجبين حيناً آخر، منحنياً أمام جمع من النبلاء، وقد قرن ابتسامته بمكر محبب. كان على التلاميذ أن يقلدوه، أن يمثلوا معه، وأن يتبادلوا التحية في كل اللغات، وضحك جذل، كان يقابله الإغريقي بالاستحسان، يقطع الدرس بين الفينة والأخرى. إضافة إلى العقيدة والنحو العربي، كان الداعية إبراهيم يدرسهم القرآن، والجبر. وبقية علوم الحساب. ما لبث ابن طاهر أن أحسّ تجاهه بتقديس حقيقي. كان إبراهيم يبدو له محيطاً عالماً بكل

شيء، يتعمق بالأبعاد الفلسفية وهو يفسر القرآن، ولم يكن ليتردد أيضاً عن تناول الأديان الأخرى.

كان يستعرض أمام التلاميذ أسس المسيحية واليهودية، ويصف لهم وجوه الوثنية المختلفة، وصولاً إلى أسرار المذهب المعتنق في الهند من قبل البوذا. كان يستند إلى هذه المعتقدات الخاطئة كي يبرهن على سمو تعاليم النبي التي كانت الإسماعيلية تجسدها خير تجسيد. كان يلّخص ما بسّطه في جمل واضحة، توجب على التلاميذ أن يسجلوها ويحفظوها بعد ذلك عن ظهر قلب.

ذات يوم، جاء الداعية أبو سراقة إلى حصّته، يتأبط مدرَجَةً من رُقٍّ بسطها بحذر، كما لو كانت تحتوي على شيء نفيس، وكما لو كانت تكتنف بسرٍّ، سحب منها كرّاساً امتلأت صفحاته بكتابة دقيقة. وضعها على السجادة أمامهم وبراحة كفه الثخينة أخذ يبسطها بعناية.

ـ في هذا اليوم ـ بدأ ـ سأستهل أول واحد من دروسي المخصصة لسيرة حياة سيدنا. ستطّلعون فيها على آلامه وعلى معاركه وعلى تضحياته التي اضطلع بها كي يحقق النصر للقضية الإسماعيلية. إضبارة الأوراق هذه هي ثمرة عمله الدؤوب. كل ما فيها كتب بخط يده، من أجلكم، كي تستطيعوا أن تقتدوا بالمثل الذي ضربه لكم في حياته، كيف تجدر التضحية بالنفس من أجل قضية حقيقية. عليكم أن تدونوا ثم أن تحفظوا جيداً ما ستسمعون. هذه هي ثمرة عنايته التي أحاطكم بها.

نهض التلاميذ، وجاؤوا يتفحصون المخطوطات التي وضعها الداعية أمامهم، يتأملون وهم مفعمون بإعجاب صامت، الصفحات التي ملئت بكتابة جميلة، والتي كانت تنساب بين أصابع المعلم مصدرة صوتاً ناعماً. مدّ سليمان يده نحو إحدى الأوراق، كما لو كان يريد أن يدرسها عن كثب، لكن الداعية أبا سراقة، وضع يده عليها في الحال. كما لو كان يريد أن يصون مربع القضيم من الدّنس.

ـ أنت مجنون! هذه مخطوطة نبي حي!

عاد التلاميذ على مهل إلى أماكنهم. وبصوت جهوري أخذ الداعية يطلعهم على حياة وعلى صنائع الزعيم الأعلى. أراد قبل كل شيء، أن يعطيهم نبذة عن الأحداث التي كانت تشكل إطار عمل سيدنا، إلى أن توصلوا بعد ذلك وبسهولة إلى التفاصيل المدونة على الأوراق التي كانت أمامهم. أُخبروا أيضاً أن سيدهم ولد منذ زهاء ستين عاماً في طوس، اسمه حسن وأبوه علي يتحدر من سلالة عربية مشهورة من آل صباح العموري. عاشر المعلمين والمبشرين الإسماعيليين منذ ريعان شبابه، لمس إثر ذلك عمق صحة مبدأهم، أبوه أيضاً كان يدرس مذهب علي سراً. إنما وكي لا يثير الشبهات، أرسل بالشاب حسن إلى نيسابور تحت إشراف الرفيق السني موفق الدين. وهناك تعرّف على نظام الملك الذي صار الصدر الأعظم، وأيضاً على الفلكي والرياضياتي عمر الخيام، كان الاثنان زميلي دراسته، وقد أبكروا باقتناعهم ببطلان السنة وعجز المتحمسين لها فقد عزم الثلاثة على تكريس حياتهم للقضية الإسماعيلية وقبل أن ينخرطوا في دروب الحياة، قطعوا على أنفسهم هذا العهد: أن يهبّ من ينجح منهم أولاً في حياتهم المشتركة لتقديم العون إلى الاثنين الآخرين، من أجل توحيد عملهم على الوجه الأمثل في سبيل خدمة المذهب الصحيح. نكث الصدر الأعظم بهذا العهد، بئس ما فعل! دعا سيدنا إلى بلاط السلطان وهناك نصب له شركاً جهنمياً. لكن الله أحاط مصطفاه بعنايته. غطّاه بأستار الليل، وذهب به إلى مصر، واقتاده حتى بلاط الخليفة. مع ذلك فقد قام الحاسدون ضده. أحبط كل خططهم، وبعد مسير طويل على غير هدى عاد إلى وطنه. فمنحه الله عندئذ قلعة آلموت. إلى أن تمكّن من مناهضة المذهب الخاطئ بفعالية، ولكي يطيح بمن استولوا على السلطة بوجه غير شرعي، وبالغاصبين من كل نوع.

ـ لم تكن حياته سوى سلسلة من المعجزات، أوضح أبو سراقة، أحد لا

يستطيع أن يحصي المخاطر القاتلة التي نجا منها بإذن الله. . . عندما ستفهمون كل القصص العجيبة التي تشكّل منها نسيج هذا الوجود، والتي تبدو أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، ستكونون قادرين على ألاّ تروا في سيدنا غير نبي قدير عظيم.

في الأيام التالية، أخذ يجتهد برواية تفاصيل الأحداث والمراحل - بعضها يكاد لا يصدَّق التي وسمت حياة الزعيم الأعلى، وشيئاً فشيئاً ارتسمت صورة النبي الكبير أمام التلاميذ الذين لم تعد لديهم أية رغبة سوى أن يُسمح لهم ذات يوم برؤيته، بقضه وقضيضه. وأن يتميزوا بنظره في مأثرة أو في تضحية كبيرة. لأن استحقاق تقديره، يأتي من ارتقائهم إلى ما يفوق إمكانية الناس الآخرين.

منذ يوم بعد غد، لم يعد لأي شيء أن يدهش ابن طاهر، كان تلميذاً نبيهاً، دقيق الملاحظة، ثاقب البصيرة، يركُز انتباهه حصراً بما يُنتظر منه في اللحظة الحالية، فاقتنع عندئذ وبارتياح، بأن العالم كان فعلاً هو ذاك الذي كانوا يسعون لإظهاره له. إنَّما عند المساء، وبينما كان مستلقياً، يسند رأسه إلى يديه، يحدِّق في لهيب المصباح المتوهج الموضوع هناك على الرَّف، في إحدى زوايا الغرفة، أدرك أنه يعيش في عالم غريب، عالم يسوده الغموض، ضيَّقت عليه الكآبة عندئذ، وحصل أن تساءل: «أنت أيها الراقد هنا، هل ما زلت أنت نفسك أفاني الذي كان يحرس قطعان أبيه في سافا؟». بدت له في الواقع هوّة بين العالم الذي يعيش فيه الآن، وبين عالمه القديم، هوَّة تضاهي تلك التي تفصل عالم الأحلام عن عالم اليقظة. وعندما كان في هذه الحالة الذهنية، عاد إلى صحوة الواقع، ليؤلف الأشعار. إذ إن أبا سراقة، ولكي يرسخ عند طلاّبه فن العروض، طلب منهم على سبيل التمرين أن يمجّدوا بقوافيهم، الشخصيات والأحداث البارزة في الإسماعيلية، وهكذا كان عليهم أن ينظموا القصائد في النبي وعلي وفي إسماعيل وفي مآثر الشهداء.

كان ابن طاهر يؤثر عليًا بشكل خاص، صهر النبي وحبيبه. فألف فيه قصيدة من مقاطع شعرية، افتتن بها أبو سراقة، الذي عزم ان يعرضها على سيدنا شخصياً، وشاع خبر الموضوع بين زملائه، فما لبث أن اشتُهِر في آلموت. . . . :

علي
الأول من عرف النبي
عرف النبي بعد خديجة
ملازماً إياه في كل المعارك
ويفديه بنفسه.
سيتزوج فاطمة
ابنة النبي
وسيلقى الخلافة
ثمناً لانتصاراته
وعندما مات النبي
خذل بالشورى
وسيقضي نحبه
بطعنات الزنادقة
في النجف يستريح جسده
تحيط به قُبَّةٌ من ذهب
والمؤمنون الذي يؤمون ضريحه
يأتون إليه ليبكوا شهامته.

واظب ابن طاهر على محاولاته، متشجعاً من نجاحه الأول، وقد بدا له أنهُ قد وجد وسيلة للتعبير، يفصح بها عن جزء من ذلك المجهول الذي

كان يرعبه كل مساء. تحرر فوراً من مخاوفه، كان يبذل كل ما بوسعه كي ينظم الشعر في كل ما يجده غريباً وأن يكوّن لنفسه عنه تصوراً واضحاً. وأوشكت هذه المحاولات أن تشكل ديواناً شعرياً عن آَلموت، وكثيرون منهم حفظوها عن ظهر قلب واستحسنوا على الأخص تلك التي راق للولد أن يخصَّ بها آَلموت وسيدنا:

آَلموت

في هذا المكان الذي تطاول فيه قمة الإيلبورز السماء

أنهار أزلية تنبع من هناك

تصقل الصخر في جريانها الطويل

ومياهها توصل إلى مسامعك صخبها الرخيم

على الصخرة تنتصب قلعة لغز

محاطة بالمتاريس وناهضة أبراجها

تلفها العاصفة، وتسبح أيّام

أمراء الديلم، وتحلم وحيدة

في الماضي، أقام النسر فيها عشَّه

خبأ فيها صغاره، كواسر طيره

يتقاسمون الفضاء والصخرة التي تحيطه

عش نسر حقيقي، آلموت هي فعلاً الطريق إلى السماء

أجل، تضمُّ هذه القلعة سراً كبيراً

أربعة أبراج ترقب عظيمة، متعذرة البلوغ

والتي لا أحد أبداً يخرق أوامرها

مسوَّرة بالمؤمنين جدرانها التي لا تقهر

سيدنا

مثلما يرجو نسر الجبال من أفراخ عشه
في قلعة آلموت يسود الزمان
حكيم وزعيم المؤمنين، يعرف مصيرهم
ولا يبالي بالسلطان
مقدَّس غير مرئي، ضمن ظل السرّ
وسع الكون نفوذه
مرهب الزنديق، أمل على الأرض
يعاقب ويثيب، لا سبيل لأحد أن يراه
مصطفى من الله، بُعث إلى هذا العالم
مضطهد من آله، لديه الكثير مما يعذبه
إذ يبلغ القداسة في عذابه العميق
الذي يعادل عذاب النبي، وعلي الشهيد
شخصه وحياته اكتنزا بالمعجزات
المحرَّمة أبداً على المسيحي وعلى اليهودي
من أجل إيمانه، من أجل عذاباته، ودم وسطاء وحيه
مفتاح الفردوس منح له.

قرئت تمارين البلاغة والعروض، فكان سليمان وابن طاهر يتباريان فيها أمام الجميع. كان سليمان يتكلم بمزيد من الحماسة، بينما يتكلم ابن طاهر بمزيد من الوضوح. التعيس من بينهم في هاتين المادتين هو يوسف، إذ طالما كان يردد أمام ابن طاهر بأنه يفضل لو يتمرّن في عز الشمس، وتحت إشراف مينوتشرشر الصارم، أو لو يجلد حتى تحت أمرة عبدالملك، لو يقفز على الصفيحة الحامية حتى الابيضاض، أن ينفذ عشرة تمارين تنفسية لو اقتضى الأمر، والتي تعتبر كنوع من التنكيل الحقيقي، والتي تعود عليها

شيئاً فشيئاً. . . كان هناك شيء واحد يخشاه بقدر ما يخشى العروض والبلاغة: إنه الصيام المفروض من قبل عبدالملك، كان يرى أن لا جدوى ولا معنى للحياة وكل ما يحدث في القلعة، وكانت تتملكه الرغبة في تلك اللحظات في الرقاد وفي النوم الذي لا تعقبه يقظة.

في ما عدا ذلك، لم تكن هناك أية مشكلة خاصة تعذب يوسف. بعض الأشياء كانت تدهشه، ولعل أقلها هي مهارة ابن طاهر في نظم قصائد لم يسبق له أن قرأها، أو لم يسبق لأحد أن أملاها عليه في مكان ما. كان يلقبه بالساحر، لكن حسّه العفوي، كان يهمس له سراً أن لا بد لابن طاهر هذا من أن يمتلك في داخله نبعاً خفياً ينهل فنه منه. في أن تكون القصائد التي يعرفها قد نظمت من قبل شعراء قدماء، فهذا شيء يستطيع استيعابه لأن هكذا نماذج، إنما تعود إلى عهود غامضة، كانت الأرض مأهولة بالأبطال الذين قضوا في مقارعة الشياطين والكائنات غير الطبيعية الأخرى. أما أن يستطيع واحد من رفاقه، ينام في سرير بجانب سريره، ويربو هو عليه طولاً بمقدار رأسه، أن يكون شاعراً ففي هذا ما يتجاوز حدود إدراكه. استطاع أيضاً أن يستوعب أن سيدنا الذي يعيش في القلعة، مثله تماماً، هو نبي عظيم: سيدنا غير المرئي، والذي لم يكن يتكرم ويكشف عن نفسه لأي واحد من بينهم. إنما ابن طاهر الذي يتشاد ويتمازح معهم كل يوم!. . . مع ذلك فإن هذه الشكوك لم تكن لتمنع يوسف من الإعجاب به من أعماق قلبه ومن الاعتزاز بالصداقة التي توجد بينهما.

على الرغم من أنه كان يسايف ويرمي الرمح بشكل لا يدانيه فيه أحد، وكان الأول في كل التدريبات الخطيرة، فإن سليمان كان غيوراً بشكل واضح من نجاحات الآخرين. فما أن يثني أحد على مآثر يوسف أو ابن طاهر أمامه، حتى يأخذ بإلقاء فكاهته الحاضرة دائماً على شفتيه:

ـ ما الأول إلا واحد غبي، وما الثاني إلا مغرور. . .

كان الثلاثة يشكلون ثالوثاً لا يفترق، وإذا ما جازف الآخرون وتعرضوا لصاحبيه، فكان سرعان ما يتخذ موقف الدفاع ويستشيط غضباً:

ـ عندما ستقذفون الرمح إلى أبعد مما يقذفونه، أو عندما سيكون لكم جلد يوسف عندئذ ستستطيعون أن تتكلموا. لكن ليس قبل ذلك.

وبما يخص ابن طاهر:

ـ لو كان في عقولكم ذرة من إدراك ابن طاهر لما كنتم اكتفيتم بأن تنفخوا رؤوسكم بالغرور، بل لكنتم تركتموها تنفجر كبراً.

أحد من بينهم لم يكن يتجرأ على أن يعاتبه على لذوعة لسانه.

كان لا بد ليوسف وابن طاهر من أن يعترفا بأنهما لم يكونا يحبانه فعلاً. ومن دون مهابة في الواقع، أحد في المدرسة لم يكن يحبه، بمن فيهم المعلمون.

كان من المحظر عليهم قطعياً، وأكثر من كل الأشياء التحدث عن النساء، وعن الجنس بشكل عام. حتى أنهم كانوا يقطعون أنفاسهم عندما كان الداعية إبراهيم يدنو في معرض درسه من هذا الموضوع الشائك.

كان في الواقع يتحدث عن نساء النبي. فجأة، وبعد أن يرقق صوته قليلاً، كان يرفع عينيه ويحدق بكل التلاميذ من دون أن يرف بهما. ثم يبدأ بصوت خافت:

ـ لم يحرم النبي على المؤمنين الزواج، ولا التمتع بمسرات حياة مشتركة مع الجنس الآخر، هو نفسه كان زوجاً مثالياً، وأباً كاملاً. لكنه لم يجعل منه بالنسبة للمؤمنين غاية مقدسة بحد ذاتها: فالشهادة في سبيل العقيدة أولاً، والمسرات الأبدية في رياض الفردوس هي التعويض السامي لهذه التضحية. فحسب مثله السامي فقد عرف المؤمنون الأوائل كيف يوفقون بين شكل الوجود الأول والآخر: حياة جميلة بصحبة نسائهم، التفاني الشجاع في سبيل المذهب. لكنكم تعلمون أن انشقاقات نشبت بين المؤمنين بعد وفاة النبي، ومذ ذاك لم يعد الرِّجال يقبلون إلاَّ على التمرغ

في بيوت الحريم والنضال من أجل السلطة ومن أجل مغانم الدنيا. نُسِيت عندها وصية النبي، والتي تقضي بأن قضية عظيمة تقتضي الكثير من التضحيات: الإقبال على القتال ومخاطره، بل على الشهادة المحتملة حتى الموت... أقام الآن سيدنا حداً واضحاً بين هذا السلوك الفاسد وذاك السلوك الذي حثَّ عليه.

قبالتنا، وفي المعسكر الآخر، توجد بغداد والسلاجقة الطغاة مع أتباعهم الفاسقين. وفي هذه الجهة نوجد نحن وأنتم... أنتم الذي ستنذرون فدائيين، أنتم الذين تشكلون النخبة والتي هدفها الأسمى هو التضحية والشهادة في سبيل القضية المقدسة فلا بدَّ لكم من أن تكونوا مغايرين للسائد في كل شيء، ولهذا فإن سيدنا سنَّ من أجلكم هذا المحظور: لا يحق لكم أن تتزوجوا، أو تقتربوا من أي شكل من أشكال الفجور. ولأنكم تسكنون سلفاً في رياض الفردوس، فإنه من المحظر عليكم أن تتحدثوا في الأمور الفاحشة. لا يجوز لكم أيضاً أن تفكروا بها، أو أن تستسلموا سراً إلى تصرُّفات منكرة مستعينين بخيالكم على القيام بها. لا يمكن لشيء أن يبقى مستوراً على الله! الذي اختار سيدنا وعينه كي يكون دليلكم! من تسول له نفسه أن يخرق هذا المحرَّم، بالنسبة لهذا الموضوع، فإنه سيجد نفسه وقد وقعت عليه أقسى أنواع العذاب. ذاك الذي يُباغتُ وهو يتداول أحاديث وقحة سيرفض في الحال. واحد من بينكم عرف هذا العقاب آنفاً. موت مرعب سيكون بانتظار من يباغت منكم مع امرأة أو حتى من يحاول الزواج. سيبدأ الجلاد باستئصال عينيه بواسطة قضيب حديد مجمّر، وسيذوق أفظع الآلام وهو يقطع حياً، تلك هي العقوبات التي يدَّخرها سيدنا لهؤلاء الذي سيجازفون بخرق المحظور.

لم يتجرأ التلاميذ الذين تجمدوا من الرعب أن ينظروا إلى بعضهم بعضاً، منهم من أفصح من خلال بعض الحركات عن تصور ينبض بفظاعة تلك العقوبات: كانوا يحكُّون رؤوسهم بقلق، وزفرات خانقة كانت تخرج من الصدور.

عندما لمس الداعية إبراهيم مدى التأثير الذي تركه خطابه، عبرت شفتيه المتجمدتين ابتسامة خفيفة، تابع بنبرة صوت رؤوف:

- لا تخافوا، فهذا المحظور الذي سنَّه سيدنا ليس قاسياً إلاَّ في ظاهره، مَنْ مِنْ بينكم سيفكر باستبدال المكافأة التي وُعِد بها، بلذة غير مؤكدة، ولا يمكن له أن يحصل عليها بخرق ما حرَّم سيدنا!

ان الذين سينفذون على الدوام ما يؤمرون به، سيلقون نصيباً من موارد الفردوس الخالدة!

وأنتم إذ ستستشهدون في سبيل القضية المقدسة، ستلجون الجنان، التي تصل بها الجداول العذبة الصافية، وستقطنون مساكن زجاج مفروشة بالكثير من الأرائك، ستتنزهون في الغيطان المنسقة بشكل بديع في ظل الأوراق الكثيفة؛ ستطأ أقدامكم المساكب المزروعة بالورود النادرة، والتي تصدر عبقاً مثملاً. صبايا ذوات عيون لوزية سوداء، سيقدمن لكم أشهى أنواع المآكل والخمور الفاخرة، سيكنّ تحت تصرفكم! لقد خلق الله هذه الظباء بطبيعة خاصة: فميزهن بالشباب الأبدي، والعذرية الأبدية، مهما تعرضت أجسادهن ونفوسهن لرغباتكم... تذكروا: ما أن تنذروا نفوسكم، حتى تقتربوا من استحقاق تلك المكاسب! لقد عهد الله إلى سيدنا بمفتاح الجنان المخصصة لكم. سيفتح سيدنا باب الفردوس لمن سينفذ أوامره بدقة. أي وهم خادع يمكن له أن يحرفكم عن الدرب التي يمضي بكم إلى مكافأة كهذه. عند المساء وحيث تجمع الجميع على الشرفة، كان ابن طاهر هو من انعطف بالمحادثة:

- أوصانا مؤدبونا، باغتنام أوقات فراغنا في المساء، كي نتناقش في ما بيننا بما علمونا طيلة النهار. في هذا اليوم أعتقد بأن الداعية إبراهيم قد وضح لنا لماذا حرَّم علينا سيدنا اقتراف الموبقات بالفعل، وبالقول وبالفكر أيضاً، وليس خرق هذا المحظور إلا بعدم تجاوز السائد... طريقة رائعة أليس

كذلك. لتحديد السلوك الذي علينا أن نتخذه كي نتحاشى الوساوس غير المجدية وأسباب الزلل. . .

أصابت هذه الكلمات البعض منهم بالهلع.

ـ أنا أعترض ـ احتج نعيم ـ الداعية إبراهيم منعنا بشكل قاطع من التعرض لهذه المواضيع الفاحشة. وقد سمعت بأذنيك عن العقوبات التي وعد الخاطئ بها. . .

ـ لا تعمل من الحبة قبة، يا نعيم ـ قال جعفر هازئاً. مع ذلك نحن لدينا كل الحق، بالتحدث بما أتى معلمونا على التحدث به إلينا بوضوح. من سيفكر بعقابنا إن حرصنا على معالجة الموضوع بحكمة ودقة؟

ـ ليكن، على ألا تكون المسألة بشأن النساء، أو الحماقات الأخرى، أصر نعيم.

ـ لنلق به من أعلى هذا الحاجز! انفجر يوسف.

تراجع نعيم مذعوراً.

ـ ابق هنا! أنذره سليمان. كي لا تقول بعد ذلك بأنك لم تفهم. وإذا ما استمريت في التنكيد علينا، . . حسن، لنقل، بأنك ستلقى ما لا يسرك عندما ستصير إلى غرفتك هذه الليلة! . . .

ـ سأتكلم بصراحة، قال ابن طاهر، وسأمضي مباشرة إلى الغرض.

يجب علينا أن نعلم تماماً بم نحن متشبثون. هل أنا مصيب بأن أحداً من بيننا لن يحلم اعتباراً من هذا اليوم أن يقترب بمخيلته من امرأة ينسى نفسه معها؟ . . . نعتقد في الواقع بأننا نستطيع أن نتحاشى من الآن فصاعداً، وبمنتهى الحذر، أية محادثة في هذا الموضوع، سيكون من السهل علينا الآن أن نتحكم بأفعالنا، وبألسنتنا. ولكن هل سنستطيع التحكم بأفكارنا، هذه الأفكار التي تقتحمنا في أسوأ اللحظات، وتصل حتى أحلامنا أيضاً؟

فعلاً ليس لإبليس سلطة على إرادتنا، إنما له هذا النفوذ على مخيلتنا

وعلى أحلامنا. من جهتي، حصل لي أكثر من مرة، أن دفعت ببعض الأفكار غير المحتشمة. كان يبدو لي في كل صراع جانح، بأنني سأكون أنا المنتصر أبداً. لكن الروح الشريرة تبرع وهي توحي إليك بالأفكار الشهوانية، التي تستعبد المخيلة طوال اليوم. وهكذا بالطريقة نفسها يجد المرء نفسه أعزل في نقطة السقوط التالية. والحال كذلك فإن التحريم يصبح ملزماً، ولا يعترف بمواطن ضعف الطبيعة. فما العمل يا أصدقائي؟

ـ ما جدوى الإفراط في التفكير بذلك! قال سليمان وقد ثارت أعصابه. الأحلام أحلام، من يمكن له أن يكون متهماً بمسؤوليته عنها؟ لا يمكن اعتبار أية فكرة تأتي بفعل لا إرادي على أنها خطيئة كبرى!

ـ أخيراً، هذه كلمة صحيحة! قال يوسف جازماً. كنت على وشك أن أقولها!

ـ لا، لا شيء يقول لنا بأنها صحيحة، ألح ابن طاهر ـ التحريم واضح وجلي؛ وعلينا منذ الآن أن نجد وسيلة للتغلب على ضعفنا.

ـ إنه مصيب ـ ارتأى جعفر ـ فإذا ما كان هذا هو الممنوع، يكون من المفروض أن نوهب القدرة على عدم اختراقه. لا يسع الواحد منّا إلاَّ أن يقاوم إيحاءات الروح الشريرة بكل قواه؛ فهل نحن نحتاج إلى الكثير من ـ تلك القوى كي نخلص أفكارنا وأحلامنا حتى من تأثيرها؟...

ـ لقد حاولت كثيراً ـ اعترف ابن طاهر ـ إنما الضعف الإنساني لا حدود له...

ـ ليس من الحكمة أن يستدعي المرء إلى المعركة خصماً أقوى منه ـ عقَّب يوسف بوقار.

ابتسم عبيدة الذي كان لا يزال مستمعاً حتى الآن من دون أن ينطق بأدنى كلمة ـ ابتسامة ماكرة..

ـ ما الجدوى من الإسهاب في الكلام، وفي المجادلات يا أصدقائي الأعزاء، إزاء شيء هو بمنتهى البساطة! أتحسبون أن من الممكن لسيدنا أن

يفرض علينا شيئاً يفوق طاقتنا؟ من جهتي لا أظن ذلك. والآن أصغوا! ألم يعدنا سيدنا بمكافأة مقابل مواظبتنا وتضحياتنا؟ وقوام هذه المكافأة ليس إلاّ المغانم التي تنتظرنا في جنان العالم الآخر! أسألكم: ألا يملك المؤمن الحق بالتنعم بمكافأة مستقبلية؟ ستقولون لي جميعاً: بالتأكيد! وبالتالي فإننا نحن أيضاً، سنستطيع وبكامل حقنا بأن نتذوق مسبقاً كل المسرات التي وعدنا بها سيدنا كنصيب يرجع إلينا بعد الموت. نستطيع إذاً أن نتلذَّذ ذهنياً بالرياض الجميلة، وبخرير المياه، بالمآكل والخمور المنتقاة والمحضّرة خصيصاً لنا، وأن نتذوق أخيراً ـ في خيالنا ـ عناق تلك الحسناوات ذوات العيون السود والمخصَّصات لخدمتنا حتى نهاية الأزمان، أين الفاحشة إذاً؟ فإذا ما سُوِّل للروح الشريرة أن تنقض علينا في المستقبل بوساوسها فلسوف نفلت منها بالاحتيال... بأن نفكر برياض الفردوس الرائعة التي سنفسق فيها كما يحلو لنا من دون أن يفسد متعنا تبكيت الضمير!وهكذا سنرضي الله الذي هيَّأ لنا هو نفسه هذه الجنان الرائعة، وسيدنا الذي يملك القدرة على فتح أبوابها لنا بحسب ما نستحق، وأنفسنا نحن الذي سنرخي العنان لخيالنا من دون أن نكون خاطئين...

ـ أنت رائع يا عبيدة! هتف يوسف كيف حصل إذاً ولم أفكر بذلك قبلك؟

ـ قدَّم لنا هنا عبيدة محاكمة عقلية محضة ـ قال ابن طاهر ـ ليس لدينا ما نعترض به عليه من حيث الشكل. لكنني أشك من جهتي بأن الرغبة الفاحشة تفقد فحشها حتى لو أطِّرت بجنان الفردوس.

ـ حجَّتك لا تفحمني أبداً، قال عبيدة مهتاجاً ـ لا سيما وأنك لم تتوصل إلى هذا بمفردك.

ـ لا، ابن طاهر مصيب ـ أكَّد جعفر ـ فالخطيئة خطيئة، أيما اقترفناها، وتحريم بهذا الجلاء الذي وضعه سيدنا لا يمكن لنا أن نلفّ عليها بالتحايل.

ـ تريد أن تفسد علينا كل شيء، وأنت تغالي في التدقيق ـ تنهَّد يوسف مغتاظاً ـ فأنا شخصياً مقتنع بأن عبيدة مصيب. لا أحد يستطيع أن يمنعنا من أن نتذوق سلفاً الجزاء الذي نريد استحقاقه بأمانة.

ـ ليفعل كل بحسب ما يستطيع ـ جزم جعفر ـ وهو يرفع كتفيه.

عندما اتقدت المشاعل لدى هبوط الليل، أمام سكن الزعيم الأعلى، وضمن الصمت القاطن في السريرة لا يقطعه إلا خرير مياه شاه رود الهادرة، وحيث أطلق البوق صرخته مذكراً بالصلاة ثم بالنوم، استولى على التلاميذ حزن موجع بعد أن خلَّفوا وراءهم يوماً دراسياً عسيراً، اختبارات مضنية وتوظيفاً للعقل. بعضهم اعتصم بالوحدة واستسلم للحنين إلى الوطن، وآخرون أخذوا يتذكرون فعاليات الحياة الكثيرة خارج القلعة، والمغايرة تماماً لحياتهم.

ـ لو كنت طائراً ـ قال سليمان بصوتٍ عالٍ ذات مساء وهو ساهٍ ـ لحلَّقت بالطيران، ولرحت أرى ماذا حلَّ بأختي، ماتت أمي، ولدى أبي الآن زوجتان آخريان، أنجبتا له أيضاً أولاداً... أختاي تحملان أعباءهم ولابد أن حياتهما شاقَّة. حتماً لا تحلم امرأتا البيت الأخريان إلاَّ بالتخلص منهما، وأنا لدي كل ما يدعوني إلى الخوف من أن تنجح بإقناع والدي ببيعهما إلى أول طالب زواج... آه! كم في ذلك ما يفعم قلبي هماً وعذاباً!... وضع يديه المشبوكتين على جبينه وغطى وجهه بهما. ـ قدر أمي العجوز ليس بأفضل من ذلك، إن كان في هذا ما يعزيك ـ قال يوسف ـ وهو يمرُّ بيده الثقيلة أمام عينيه بحركة مضناة. إنها تكدُّ بتربية البهائم، ويُسَرُّ الجيران باغتنام وحدتها لاختلاس مالها. لماذا تخليت عنها أنا إذاً؟...

ـ نعم لماذا؟ أراد أن يعرف ابن طاهر.

ـ كانت هذه هي رغبتها، كانت تقول لي باستمرار: «أنت فارس حقيقي يا بني، وأنت قوي والنبي نفسه سيسرُّ لرؤيتك عنده! لو كان والدك على

قيد الحياة، هو من كان يقدس النبي علياً كأفضل واحد في الوجود لأرسلك، وأنا متأكدة من ذلك إلى عند أحد الدعاة الذي يعملون في خدمة الخليفة الحقيقي، هناك ستتعلم المذهب الصحيح!»

كان ذلك في الوقت الذي كان فيه الداعية حسين القيني ينشط في منطقتنا لصالح سيدنا. ذهبت للقائه، فوجهني إلى آلموت. هكذا. . .

ـ وأنت يا نعيم، كيف وصلت إلى هذا المكان المغلق؟ استفهم أيضاً ابن طاهر.

ـ قريتي ليسب ببعيدة من هنا أجاب الغلام، سمعتهم يتحدثون عن داعية كبير يعمل على جمع جيش ليحشده في آلموت ضد السلطان الهرطقي، ونحن في البيت جميعنا مؤمنون، فرأى أبي أن الأمر الطبيعي هو أن أمضي لأخدم سيدنا. . .

ـ وصديقنا سليمان؟

ـ ما من شيء جديد في قصتي أنا أيضاً، كان يقال بأن حرباً ستقع، وأن داعي الدعاة الذي حدَّثونا عن معجزاته، استولى على آلموت باسم خليفة مصر، وكان يستعد لمهاجمة السلطان أمر مهم سيحصل في النواحي ـ حدَّثت نفسي. وعندئذ بالضبط أعلنوا عن زيارة الداعية عبدالملك، فانضممت إليه.

ـ كان الأمر أبسط أيضاً بالنسبة لي، أردف عبيدة فأسرتنا تقدس اسم عليٍّ منذ تاريخ طويل. كنَّا تسعة أخوة، وكان على واحد منا أن يغادر المنزل. توسَّلت لأبي أن يتركني أرحل. وقد منحني بركته.

ـ وأنت يا جعفر؟

ـ حسن، كان هذا عندما كنت أتعمق في دراسة القرآن والسُّنة، والتاريخ الإسلامي. انتابتني أولاً بعض الشكوك: كان من الواضح جداً، أن علياً قد أبعد ظلماً عن خلافة النبي، وطالما أن الحال كذلك، يكون من الأوضح أيضاً أن يتسلم خليفة بغداد العرش بشكل غير شرعي. . . سنحت لي

الفرصة أن أتحاور في كل هذا مع داعية مخلص للأفكار الاسماعيلية، الذي لم يكن ـ تصوروا ـ غير أبي سراقة! دار بيننا العديد من المحادثات المعقدة حول هذا الموضوع، وجدت نفسي منسجماً من كل أعماقي مع وجهة نظره. رجوت أبي عندئذ أن يدعني أتبع هذا المبشر، عندما علم أبي بأن هذا كان مسافراً باتجاه آلموت للقاء سيدنا، وافق دون أي اعتراض. كان الناس يردِّدون عندنا باستمرار، أن القداسة متجسدة في الزعيم الأعلى...

كان لهذه المحادثات أن تعينهم في التغلب على آلام الغربة، وعلى شعورهم بالوحدة والعزلة الذي كان يضيق عليهم الخناق أحياناً. وفي الغد عندما كان صوت البوق ينتزعهم من رقادهم، كان جُبْن الأمس يذهب أدراج الرياح، والماء البارد الذي يغتسلون به يذكرهم بأن أمامهم نهاراً طويلاً من الاختبارات والدراسات. فيعودون بكليتهم إلى آلموت، لا يشغلهم أبداً إلاَّ إجادة الإجابة على أسئلة معلميهم والظهور بالمستوى المرجوِّ منهم. وبشجاعة فائقة كانوا ينكبون على عملهم: لا شيء سوى خدمة القضية الاسماعيلية يستحق أن يقيموا له أي حساب بعد الآن.

ذات صباح، وقد عادوا من تدريبهم العسكري مع مينوتشرشر نبأهم أبو سراقة:

ـ لديكم عطلة خلال بقية النهار، لأن دعاة القلاع المجاورة جاؤوا ليتشاوروا مع الزعيم الأعلى بشأن الغزوة المقبلة، لن يفوتنا الحديث عنكم في هذه المناسبة: نجاحاتكم وإخفاقاتكم على شأن أيضاً بالنسبة للقضية، لتحاولوا أن تبقوا هادئين خلال هذا الوقت ولتغتنموه في الدراسة.

كان التلاميذ سعداء للغاية. هرعوا إلى مهاجعهم يحضرون ألواحهم ومدوَّناتهم. وهكذا وبعد أن تجهزوا، راح البعض منهم ليجلس عند أسفل الحواجز، أمَّا الآخرون، الأكثر فضولاً، فجلسوا في الباحة، في ظل المباني، يحدِّقون في قصر الزعيم الأعلى بانتباه. كانت الحراسة مشدَّدة

أمام المدخل، إذ اصطفَّ الخفراء العبيد باستعداد، ثابتين كالتماثيل، يمسكون بالصولجانات. وبين الفينة والفينة، يجتاز المدخل داعية يرتدي البياض تتجلى فيه العظمة، كان التلاميذ عندئذ يتبادلون همسات خاطفة مشيرين بأصابعهم إلى هؤلاء الذي تعرفوا عليهم، محاولين أن يخمنوا من يكون الآخرون.

فجأة، حدثت بلبلة على الشرفة السفلية، أمام برج الحراسة، وفرقة من الفرسان عبرت المدخل لتوها، ودخلت القلعة، وجنود أسرعوا في استقبالهم، أمسكوا بالخيول من أخطامها ليساعدوا الزائرين على الترجل. رجل قصير القامة، بهيئة لا تدل على علو الشأن، مرتدياً جلباباً أبيض، قفز عن حصان صغير أشقر، وتسلق السلم بخطوة رشيقة محاطاً برجال موكبه، وقد بدا عليهم ما يكنون له من اعتبار كبير. ـ أبو علي! كبير الدعاة! أنا أعرفه ـ صرخ سليمان ـ الذي نهض كما لو كان يتحرك على نابض...

ـ لنحتجب. اقترح يوسف.

ـ انتظر! قال ابن طاهر، بودي أن أراه عن كثب...

اقتربت المجموعة والجنود الذين كانوا متواجدين هناك، استداروا نحو القادم الجديد، وانحنوا باحترام.

ـ لكل هؤلاء الناس مكانة داعية!... همس سليمان بلهجة محمومة، أبو علي شخصياً قد جاء في استقبالهم...

ـ أنظر! الداعية ابراهيم، وعبدالملك في عداد المرافقة ـ صرخ يوسف ـ ملتفاً بجلبابه الفضفاض، اجتاز أبو علي الشرفة بوقار. ينبعث جسده في تمايل بطيء ينم عن وعيه لنبل ذاته تماماً: الابتسامة البشوش، التي كان يتعطّف بتوجيهها إلى رجال الجماعة كردٍّ على تحيتهم، كانت في الواقع امتيازاً موقوفاً كمكافأة لأتباعه المخلصين لشخصه، كان وجهه متغضناً بالتجاعيد، لحية خفيفة يخالطها الشيب، وشاربان بنفس اللون يتهدلان

ويحيطان بفمه الأدرد. عندما مرَّ أمام التلاميذ: انحنوا بإجلال، ولمعت عيناه الصغيرتان ببريق وهَّاج.

أخرج يده من تحت جلبابه ولوح بها بمودة كشكل من أشكال التحية. من يراه عن قرب يجده يشابه امرأة عجوزاً بشكل غير معقول.

ـ أرأيتم، كنا الوحيدين اللذين تكرَّم بالتلويح لهما بيده، هتف سليمان بصوت مرتجف من الفرح الذي لم يستطع أن يكبته، فأبو علي هو الأول بعد سيدنا!...

ـ من المؤسف ألا يكون على درجة كبيرة من الهيبة.

قال يوسف متأسفاً.

ـ هل ذكاء الإنسان في نظرك، يتعلق بالضرورة بطول قامته؟

قال نعيم بمكر:

ـ يُسوِّل إليَّ أن أقتنع بذلك عندما أراك.

ـ تعجبني بساطته ـ صرح ابن طاهر ـ ابتسم لنا كما لو كان يعرفنا جميعاً منذ زمن طويل.

ـ لا شيء ينتقص من وقاره. ـ قال نعيم.

إنه رجل معرفة وكفاءة ـ استطرد سليمان ـ لكنني لا أجد فيه هيئة الجندي. ـ قال نعيم بثورة أعصاب، معظم الدعاة الذي حصل والتقيتهم، كانوا شخصيات هزيلة، ومع ذلك، فقد كانوا هم الزعماء، والضخام الثقال الذين يحملون السلاح في صفوفهم، يكتفون بالامتثال إليهم.

ـ بودي لو أراك تتعارك مع عبدالملك ـ قال سليمان مستهزئًا، كنت سترى فيما إذا كان الدعاة هزيلين.

ـ كيف هو سيدنا؟ سأل ابن طاهر.

نظروا في بعضهم بعضاً. وأعطى نعيم هذا الجواب:

ـ لم يطلعني أحد على هذا.

كانت صالة الاجتماع تشغل جناحاً بأكمله في الطابق الأرضي من القصر، أولو الأمر، وأصحاب المقامات العالية، ومبشرو الاسماعيلية، كانوا يتباحثون فيها طيلة الفترة الصباحية، إذ جاؤوا من رودبار وقزوين، من دوماغان وشاهدور، وحتى من أقصى خوزستان حيث امتدت الحركة الاسماعيلية حتى هناك على يد الداعية الكبير حسين القيني. وبانتظار تعليمات الزعيم الأعلى، فإن القادمين الجدد كانوا يتحاورون مع مضيفيهم ويتبادلون الأخبار.

جُلِّلت النوافذ بستائر سميكة، ولم تكن الصالة مضاءة إلاً بالمصابيح المتدلية من بعض المشاكي، في الزوايا، وفوق أعمدة عالية، آنية تحتوي على الراتنج تتقد وهي تنشُ مصدرة في كل الأرجاء عطراً يبعث على النشوة بشكل لطيف. مجموعة صغيرة تحلَّقت حول الأغريقي ثيودورس، تدير محادثة تحت واحد من المشاعل.

كان من بين الموجودين القائد ابن اسماعيل، آمر حامية رودبار، والداعية الزهراوي، الرجل المرح، ذو الكرش، والشاب المصري عبيده الله الذي كان قد تعرَّف على الحكيم الإغريقي، أثناء إقامة هذا الأخير في القاهرة، كانوا جميعاً في مزاج مرح، وكان ضحكهم ينبعث بسرور.

ـ هكذا إذاً، جئت أنت أيضاً لتلتحق بابن صباح في قلعته أيها الطبيب؟ قال المصري مندهشاً. إشاعات لا تصدق تجري في كل المناطق بخصوص الاستيلاء على آلموت... يزعمون بأن ابن صباح، أرغم حاكم القلعة القديم بالاحتيال على ترك المكان له. يشيعون أيضاً بأنه ربما لجأ إلى الرشوة. فأنا نفسي ما أزال أجهل ما حصل بالضبط.

قهقه الإغريقي الذي كان صافي المزاج، لكنه لم يقل شيئاً. القائد ابن اسماعيل أشار إلى الآخرين وبصوت جهوري كي يقتربوا منه: ـ أنا لا أجد ضيراً بأن نوضح لهذا الشاب كيف عمل ابن صباح. كي تسقط هذه القلعة

بين أيدينا. لم أكن هنا فعلاً، لكنَّ واحداً من أعوان ضباطي، والذي قدّم المعونة العسكرية إلى سيدنا، حدثني عن الأمر.

أرهف عبيدالله والزهراوي البدين سمعهما، وتنحى الإغريقي وقد اختفت من شفتيه برطمة سخرية وتحد.

ـ كما تعلمون ـ حدَّث ابن اسماعيل ـ فإن ممثل السلطان في القلعة كان القائد الشجاع مهدي، لم ألتقه في حياتي قط. لكن دعوني أقول بأنه لم يكن موهوباً بعبقرية نادرة. كان ابن صباح قد نجا من كمين الصدر الأعظم، ونجح أخيراً في الوصول إلى الرَّي، والتي كان حاكمها موتسوفر واحداً من أعزِّ أصدقائه. ولقد ساعده على جمع سرية من عشرة رجال، كان في عدادها ضابط الصف الذي روى لي القصة. أفلن يخطر على بال سيدنا عندئذ الاستيلاء على آلموت. الموقع الأكثر تحصيناً في كل البلاد! اتفق مع موتسوفر وتصوَّرا الحيلة التالية...

لم يلاحظ المصري والداعية البدين ـ اللذان كانا كلهما آذاناً صاغية ـ مهاترة الإغريقي المتشككة، فبدرت من القائد المُشكّك بمصداقيته بادرة سخط:

ـ لِمَ لا تقوم أنت بسرد القصة مكاني، أنت الذي تبدو على اطلاع كبير بما كانت عليه الأمور؟

ـ أنت ترى جيداً أنني أصغي بشغف ـ سوغ الإغريقي لنفسه باستهزاء.

ـ دعه منزوياً في زاويته ـ قال المصري ـ فهو دائماً يدعي المعرفة أكثر من غيره.

ـ سيدنا ـ إذاً ـ تابع ابن اسماعيل تصور حيلة. قرَّر أن يذهب بنفسه لزيارة مهدي في قلعة آلموت. «أنا داعية ـ قال له ـ طفت كل أصقاع المعمورة الرحبة، وها أنذا الآن سئم من السفر، جئت أبحث عن ركن هادئ صغير. بعني من الأرض فقط ما يعادل المسافة التي تفصل جوف البيضة عن قشرها» ومقابل امتلاكي لهذه المساحة المتواضعة، أنا مستعد

لأن أعدَّ لك خمسة آلاف قطعة ذهبية». أوشك مهدي أن يختنق من الضحك: «إن كنت فعلاً ستدفع لي هذا السعر، فإني سأتنازل لك في الحال عن الأرض التي تختارها!».

كان يتهيأ له بأن من المستحيل لداعية بائس أن يمتلك هكذا ثروة. وضع ابن صباح يده في جلبابه، وسحب منه كيساً ثقيلاً من القطع الذهبية، وأخذ في عدِّها. لم يصدق مهدي عينيه.

لم يفكر ملياً بالمعنى الذي يمكن للمرء أن يتكهَّنه: «لن يلحق بالقلعة أي ضررٍ إن بعت لهذا الداعية العجوز قطعة صغيرة من الأرض الواقعة خلف أسوارها، ومن جهتي، فسوف أصير غنياً!». وعلى هذا تم الأمر. تناولا جلد الثور، أنزلا الجسر المتحرك فوق شاه زود وأخذ شريكانا ينزلان وسط الصخور حتى أقدام جبال الحصن، عندئذ أخرج ابن صباح من جيبه شفرة حادة، وأخذ يقطع جلد الدابة إلى خيوط رفيعة. دُهش الضابط والجنود الذين حضروا المشهد لرؤية هذا العجيب الغريب يتصرف بهذا الشكل. لكنَّ أحداً لم يشتبه بعد ما كانت عليه نيات الداعية.

قطع الجلد نهائياً، وأخذ ابن صباح يربط الخيوط الجلدية بعضها ببعضها الآخر، غرس وتداً في الأرض، ربط به واحداً من طرفي هذا الحبل المرتجل. ممسكاً بيده الطرف الآخر، وأخذ يقوم حينئذ بدورة حول القلعة. أخيراً فهم مهدي: «لصّ! غشاش!» زعق وهو يقبض بسيفه. سمع عندئذ وقع حوافر فوقهما، رفعا رأسيهما: زمرة من الخيالة، سيوفهم مشرعة، يتدفقون فوق الجسر، ويدلفون داخل القلعة.

ابتسم ابن صباح: «فات الأوان، القلعة لي، ولتعلموا أنكم لو مسستم واحدة من شعري، فإن أحداً منكم لن ينجو، لكنني أحترم العقود، يا مهدي! خذ الخمسة آلاف قطعة ذهبية وانصرف إلى حيث يطيب لك».

انطلق الإغريقي في مرح صاخب، أمسك بخاصرتيه وراح في ضحك أدمعت منه عيناه، ويداه تستندان على بطنه الصغير الممتلئ. لقد ضحك

حتى آلمه الضحك. لم يلبث المصري والداعية البدين أن حَذَوَا حذوه، وإنما بالرِّضى والقهر معاً.

حيرَّهم موقف الإغريقي في الواقع. وحده الحاكم ابن اسماعيل من نظر إليهم بنظرة حانقة.

ـ منتهى السَّذاجة! قهقه الإغريقي. إذاً أنت أيضاً صدَّقت هذه الخرافة الرائعة! لتعلم إذاً أن هذه القصة، ضمن الخطة التي صممناها حسن وأنا، والتي لم تكن موجهة إلاَّ إلى السلطان...

ـ ما حكاه لي الطالب الضابط لم يكن ـ إذاً ـ إلاَّ هراء! قال عندئذ القائد المهتاج وقد راح تقنت عيناه، واختلج الوريد في صدغيه من الغضب. آه! سأضربه ككلب!... سأخنقه!...

ـ ستكون بذلك قد ظلمته يا ابن اسماعيل، قال الإغريقي، ما قاله لك في الواقع هو الحقيقة المحضة من وجهة نظره، لكن إذا ما أخذنا مكانتك في الاعتبار لما كان لوجهة النظر هذه أن تكون وجهة نظرك... فعلاً! ألم تخمِّن أنت ما حصل؟

ـ كُفَّ عن الادعاء! الأجدر بك أن تتكلم! تذمَّر القائد غاضباً.

ـ قبل كل شيء، يجب أن تعلم أن مهدياً هذا، الذي كان يحكم الموقع، كان من سلالة علي. ولكي يكسبه السلطان إلى جانبه، جعل منه حاكماً، ولمَّا يكن له من العمر ثلاثين عاماً، ولكي يبعد الخطر الذي يمكن أن يجرَّه إليه، فقد أرسله إلى آخر الدنيا، يعني إلى هنا إلى آلموت، لم يلبث هذا الولد المولع بالشهوات أن ملَّ المكان، بشكل قاتل، كان يشرب، ويلعب النرد، ويتشاجر طوال الوقت مع ضباطه وضباطه الطلاب، ومن أجل لياليه فقد جهز لنفسه بيت حريم هائل من الراقصات والمغنيات، ومن المهرجين. وباختصار فإن قسماً كبيراً من أهالي مدينة الرَّيْ لم يكن يتجرأ على ذكر ما كان يحصل إلاَّ همساً، أضف إلى ذلك أن رجلنا قد أعدَّ لنفسه الصقور المدرَّبة، والفهود المدجَّنة التي كان يصطاد بها في

الجبال والضواحي، وبنفس الحميَّة كان يلعن الخليفة والسلطان، وآلى على نفسه أن ينتقم منهما بمحتده. أخبار عن مسلكيته تناهت إلى مسامع ملك شاه. لكنَّ السلطان تعامل مع المسألة بشيء من الحكمة: «شتمني كثيرا! ـ حدث نفسه ـ عندما سيهاجم البرابرة الحدود فلن يكون أمامه من شيء آخر يفعله سوى أن يستسلم. هذا إن بقي حياً».

لم يتورع موتسوفر، وعن حسن نية، من أن يذكر هذه القصة أمام ابن صباح عندما جاء هذا ليلتجئ في الرَّيْ، كنت أنا موجوداً هناك أيضاً. وبوساطة موتسوفر استعدينا للقاء مهدي الشهير هذا، متذرعين بنزهة صيد: كان حسن قد تلقى من خليفة القاهرة مبلغاً كبيراً من الليرات الذهب. عرض عليه خمسة آلاف قطعة منها ثمناً للقلعة. لا بدَّ لهذا المال من أن يمكنه من الرحيل إلى القاهرة، حيث لن يتورع ابن صباح بأن يوصي به عند خاصة أصدقائه. وحيث سيجد هذا الفتى العربيد تحت تصرفه كل التسالي التي تعجُّ بها مدينة كبيرة. كان مهدي على أتم الاستعداد، ولم يبقَ بعد إلاَّ أن يجد وسيلة يبرئ بها نفسه أمام جنده، خوفاً من أن يهاجم السلطان عائلته إثر ذلك. كان في جعبة ابن صباح أكثر من حيلة. إنَّما كان يريد أن يمارس على السلطان أول واحدة منها.

اتخذ لنفسه الحجة التالية: «أريد أن أستولي على القلعة بهجمة عظيمة فريدة من نوعها، وبالوقت نفسه يمكن لكل إيران أن تتحدث عنها في ما بعد. سيضحك السلطان لذلك وسوف يقول: ما زال ابن صباح مزَّاحاً عجوزاً، فمن أين جئته وجدته يفصح عن جانبه الدَّعب، لندعه على هواه هذه المرة». وغربلنا عندئذ الكثير من الحلول، فخطرت لي عندئذ قصة ديدون الذي استولى على قرطاجة. أخبرت حسناً بها، فقفزت حالاً إلى ذهنه. لا أزال أسمعه يصرخ من شدة الفرح: «يا للحيلة الرائعة، يا أخي العزيز! هذا هو بالفعل ما كان يلزمني!». وفي الحال أخذ ومهدي يدبران تفاصيل الخطة، وهكذا ضحكنا نحن الثلاثة حتى أوشك كل واحدٍ منَّا أن

يختنق. أخيراً يا عزيزي القائد، جرى كل شيء كما روى لك جنديك الشجاع...».

فاهتز كل الحاضرين ضحكاً.

ـ هل نستطيع أن نعرف إلى أين صار ذلك الظريف مهدي؟ سأل المصري عندما هدأ قليلاً من صخب الضحك.

ـ عندما جئت أنت من القاهرة، ذهب هو إليها ـ أجاب الإغريقي ـ ربَّما هو الآن في هذه اللحظة يضيع وقته بمغازلة النساء اللواتي كان لك معهن نصيب قبله.

ـ وأنا الذي كان من الممكن أن يراهن على مائة بالواحد ـ قال الداعية البدين ـ بأن ابن صباح صار جدِّياً منذ أن نفاه الصدر الأعظم من بلاط أصفهان! إذ إنك حيثما حللت، لا تسمعهم يتحدثون عنه، إلاَّ بمنتهى التبجيل... الكثيرون يعتبرونه قديساً حياً! لا بدَّ من أن نحكم عليه، بعدما رويت لنا عنه، بأنه ما زال الدَّعب الرائع الذي كان عليه دائماً.

ـ من المستحسن ألا نسهب في الحديث عن ذلك ـ لو سمحت ـ اقترح اليوناني خافضاً صوته، فزعيمنا تغير كثيراً منذ أن استقر في آَلموت. إنه يبقى منغلقاً على نفسه في برجه ليل نهار، لا يتقبل أحداً غير أبي علي، أوامره لا تأتينا إلا من خلاله، صار ينفر منا جميعاً، صدقني لئلا نقترب بعد من مقاصده الخفية... في هذه اللحظة، دخل أبو علي إلى القاعة مع مرافقته المتألقة: نهض الجميع عن أرائكهم وانحنوا. افترّ ثغر الداعية عن ابتسامة بشوش ووجه إليهم تحياته. وعلى هذا دعاهم إلى الجلوس بسعة حوله، وقبل أن يتناول الحديث.

ـ أيها المحفل الفاضل من دعاة ووجهاء الدعوة الإسماعيلية المقدسة! يبعث إليكم زعيمنا ابن صباح ببركته. ويرجوكم بالوقت نفسه بالتفضل بقبول خبر تغيبه. إن تنظيم جمعيتنا الأخوية العظيمة، وانشغاله بسن القوانين والمراسيم الجديدة، وتقدم عمره أخيراً يمنعه من حضور هذا

الاجتماع بجسده، إنما هو يحضره بروحه، وقد اعطاني كل الصلاحية لتسوية كل الأمور المهمة باسمه. سأطلعه من جهتي على موضوع مداولاتنا، وسأنقل إليه رغباتكم الخاصة.

خبر عدم مشاركة الزعيم الأكبر في حضور الاجتماع كدّر الدعاة الغرباء، إذ هيئ إليهم أن سيدهم يزدريهم، بحيث وضع حداً بينه وبينهم، بالمختصر، ينعزل عنهم في برج عاجي. همس الزهراوي، الداعية السمين إلى الإغريقي:

ـ أليس في هذا مظهر جديد من مظاهر كهولة روحه الفكهة؟

ـ هذا وارد، أجاب الآخر، لكنني أخشى ألا تكون الفكاهة قد لاقت استحساناً عند أصدقائنا الحاضرين هنا.

تمنى كبير الدعاة على المعلمين أن يطلعوه على نجاحات تلاميذهم، مدير المدرسة أبو سراقة، استهل الحديث. إذ أخذ يبين متوجهاً إلى الزعماء الغرباء، الهدف العام من الدراسات التي اضطلع بإدارتها. ثم تحدث عن التلاميذ الذين تقدموا تحت إشرافه:

ـ الأول بامتياز، شاب من مواليد سافا، حفيد طاهر، الذي جزّ رأسه الصدر الأعظم ـ تتذكرون ـ منذ عشرين عاماً، هو لا يمتلك حافظة رائعة وحسب، وإنما هو شاب موهوب بالشعر بشكل مذهل. أريد أن أنوّه بعد ذلك بالمدعو جعفر، شاب جدي بشكل غير عادي، شديد الاندفاع إلى تفسير القرآن. يأتي بعده عبيدة، كائن مرهف العقل للغاية، إنما يجب أن نعرف أننا لا نستطيع الوثوق به بشكل أعمى... نعيم مجدّ... كان أبو علي يسجل الأسماء ويذيلها بتعليقات مختصرة. إبراهيم الذي استلم الحديث بعده، صنّف ابن طاهر هو أيضاً في المقام الأول. أطرى القائد العسكري مينوتشرشر على يوسف وسليمان. وسليمان كان الأول دون منازع في نظر عبدالملك، يأتي ابن طاهر بعده مباشرة، أما الحكيم فقد كان راضياً عن الجميع: ولم يذكر أي شيء خاص عن أي اسم.

ذهل الدعاة الغرباء من صرامة واتساع هذا التعليم، ولم يمر عليهم ما سمعوه دون أن يوحي إليهم بشيء من الارتياب. لأن المعنى النهائي والغرض من هذه التربية قد أرتج عليهم قليلاً.

عندما كان المعلمون يقدمون تقريرهم، كان أبو علي يفرك بيديه تعبيراً عن الرضى.

ـ كما سمعتم لتوّكم، فإننا لا ننام في آلموت. كل تدابير سيدنا منذ أن استولى على هذه القلعة منذ سنتين بُينت بدقة. ومثلما صرّح منذ سنتين، فإن السلطان غير ملح كثيراً على منازعتنا في هذه القلعة. وبالنسبة للبربر الموجودين في الجهة الأخرى من التخوم، فلا أهمية كبرى لديهم، كائناً من كان يحكمها. وإذا ما أرادوا اختراق البلاد فسوف يتحتم عليهم مهاجمتنا، كما سيتحتم عليهم مهاجمة السلطان. وفي مثل هذه الحالات سيتوجب علينا، بالمثل أن ندافع عن أنفسنا، بالانتظار، نحن نستفيد من الوقت الذي تكارم به السلطان علينا بالشكل الأمثل. قلب سيدنا تنظيم الإسماعيلية رأساً على عقب، كل مؤمن هو جندي قوي كالفولاذ وكل جندي هو في نفس الوقت أكبر متحمس بين المؤمنين إذ يعتبر سيدنا أن تأسيس مدرسة الفدائيين هو الأكثر أهمية من بين كل التدابير التي اتخذت.

تُعدُّ هذه المدرسة نخبة مستعدة لتقديم كل التضحيات. لم يحن الوقت كي تكونوا قادرين على استشفاف العمق الحقيقي لهذه المشروعات وصحة هذا التأسيس. وباسم زعيمنا لا يسعني إلا أن أقول لكم شيئاً واحداً: الفأس التي ستقطع شجرة السلالة السلجوقية ستشحذ قريباً. اللحظة التي ستوجه فيها الضربة الأولى ليست بعيدة على الأرجح. كل المنطقة وحتى الرّي ستؤيد قضيتنا. وإن كان صحيحاً ما نقله رسل خوزستان بأن الداعية حسين القيني يفكر بإشعال تمرد عام في كل البلاد ضد السلطان فإننا سنعرف عندئذ تماماً اللحظة التي سيكون علينا نحن أيضاً أن نضع قوتنا فيها على المحك. ودون شك لم يؤن الأوان بعد. بانتظار ذلك أيها الدعاة

والزعماء الموقرون، لا يسعني إلا أن أدعوكم للعمل كما كنتم تعملون حتى الآن، بوضوح، لتنشطوا في إيجاد الأتباع لقضيتنا، من رجل إلى رجل، هذا هو ما يلزمنا.

أبو علي الذي كان يتكلم بلهجة محايدة، وبنبرة رتيبة، اهتاج نوعاً ما، أخذ يحرك يديه ويلقي على المحفل بغمزات وابتسامات ماكرة. نهض أخيراً عن الأريكة التي كان يجلس عليها، وجاء لينزرع وسط الحضور مباشرة.

ـ أصدقائي! تابع ـ لدي أيضاً ما أنقله إليكم، وصية خاصة من سيدنا، لا تدعوا النجاح يعمي أبصاركم عن التبشير، في هذه الأثناء بالذات، يكون كل فرد مفيداً. بالنسبة لنا. لا تخدعنكم كثرة عدد مريدينا، ولا تستسلموا لهذه المقولة: ما الجدوى من كسب هذا أو ذاك في قضيتنا؟ بحجة أنه لا يمتلك الجاه أو الثروة، ربَّما يكون هذا بالتحديد من سيرجح كفة الميزان لصالحنا. لا تألوا جهداً! اذهبوا من الواحد إلى الآخر، حاولوا إقناعه، لأن كسب الثقة هو ما يلزم في المقام الأول، من أجل هذا لا تدَّخروا براعتكم. احرصوا على الأخص على تكييف تقربكم مع كل حالة خاصة، لتحاوروا في حضور من يجاهر بإيمانه الشديد وثقته المطلقة في القرآن نافسوا بسخط شجاع. لترثوا لحال الدِّين الذي سقط منذ أن سنَّ السلاطين السلاّجقة القانون في بلاط خليفة بغداد، ولحال الخليفة الذي تصاغر بذلك إلى مرتبة أجير لهؤلاء الغرباء، وإذا ما صادفتم في الحالة المغايرة محاوراً جيداً يتذمر من أن إمام القاهرة ليس إلا أجنبياً وغاصباً، فأبدوا تقبلاً لذلك، ثم ادخلوا بحنكة، ومستندين إلى الحجج القوية بأن إمام بغداد ليس خالياً من العيوب هو أيضاً. وإذا ما واجهتم متشيّعاً إلى علي، أو متعاطفاً مع مذهبه، ستكون مهمتكم أكثر سهولةً، إن كان رجلكم معتزاً بأسلافه الإيرانيين، فأكدوا أن حركتنا في الواقع قد تجاوزت النظام المصري. إن كان يعاني من الظلم أو الإذلال عند ذويه، فواسوه بقولكم

إن عدالة تامة ستوفِّر له حالما يمدُّ فاطميو مصر سلطتهم حتى هنا. إذا صادفتم واحداً من أصحاب العقول الفطنة، يستخف سرّاً أو جهاراً بالقرآن وبالتعاليم الدينية، فاهمسوا له بأن الإسماعيلية تتماثل بشكل أساسي مع التفكير الحرِّ، وأن قصَّة الأئمة السبعة ما هي إلا تمويه... لا بدَّ من طُعم مخصص لجذب كل واحد من الجماهير الجاهلة... أتقنوا التعامل مع كل فرد بحسب طبعه، وبحسب طريقته في التفكير، وجرُّوه من دون أن يشعر إلى اتهام شرعية النظام القائم. حاذروا من إشاعة الرعب: لتعرفوا كيف تظهرون تواضعكم ورضاكم، ولتخضعوا إلى عادات وأعراف بلاد المجتمع الذي تعيشون فيه، ولتقدموا التنازلات الحسَّاسة، مهما قلَّت أهميتها كي ترضوا هؤلاء الذين تواجهون.

يجب على محاوركم أن يشعر بأنكم مثقفون، وأصحاب خبرة، وأنكم مع ذلك تكنُّون له تقديراً عالياً... باختصار، احرصوا قبل كل شيء أن تضعوه، هو بشكل خاص، على الطريق القويم. وهكذا وعندما ستكتسبون ثقته، ستنتقلون إلى المرحلة الثانية من خطتكم. ستقرون له بأنكم تنتسبون إلى جمعية أخوية دينية تهدف إلى إقامة العدالة، وإعلاء الحقيقة على الأرض بأسرها، وعلى تصفية حسابها مع الغاصبين الأجانب، جرُّوه إلى مناقشات حامية، أثيروا فضوله أظهروا أنفسكم على أنكم غامضون، قدِّموا التلميحات والوعود، إلى أن تضعوه في حيرة تامة، طالبوا عندئذ بأن يقطع عهدًا على الصمت، اشرحوا له قصة الأنبياء السبعة، اعملوا على تحريك إيمانه إن كان يؤمن بالقرآن، وأوحوا إليه بالإيماء عن تدابيرنا، اذكروا جيش النخبة الذي لا ينتظر إلاَّ تلقي الأمر كي يهاجم السلطان... أرغموه عندئذ على عهود جديدة، أفضوا إليه عن وجود نبي عظيم في آلموت. يخضع إليه آلاف وآلاف من المؤمنين. وهيئوه إلى التزام رسمي. إن كان غنياً. أو يعيش على الأقل بنوع من الرَّخاء، اسلبوه أكبر مبلغ كي يشعر بنفسه مرتبطاً. إن التجربة أثبتت أن الإنسان يبقى متعلقاً بما من أجله قدم ماله، اقتطعوا من هذه المبالغ كميات قليلة لتوزعوها على الأتباع الفقراء،

إنمَّا ليكن هذا على مراحل متباعدة بشكل يمكنكم من الإمساك بزمام أمرهم جيداً. واغرسوا في أذهانهم أن هذا ليس إلاَّ عربوناً من الحساب الذي يتلقونه من سيدنا، مكافأة على إخلاصهم للقضية. وهكذا، وعندما يصبح الفرد بكليته بين أيديكم، ضيِّقوا عليه الشِّباك. صفوا له العقوبات المرعبة التي وعد بها من يحنث بيمينه، حياة زعيمنا البسيطة والمعجزات التي تنجز حوله، لا تنسوا أخيراً أن تعودوا وبشكل نظامي إلى الأعيان الذي ستعاينونهم، ولا تحلوا أية واحدة من الروابط التي ستقيمونها معهم. لأنه وكما قال سيدنا ليسوا من الحثالة من يستطيعون أن يخدعوا قضيتنا.

كان الدعاة يرهفون السمع إلى هذا الخطاب، ومن وقت إلى آخر كان أبو علي يركِّز نظره في واحد أو في آخر، ويمدُّ ذراعه باتجاهه كما لو كان يعنيه وحده بالخطاب.

ـ الآن وإلى الأبد، ـ هتف في الختام ـ ليكن هذا شعارنا. أنتم قنَّاصو وصيادو نفوس. جمعكم سيدنا لهذا الغرض، ويرجعكم إلى الناس كي تنفذوا تعليماته. لا تخافوا شيئاً، لأن خلف كل واحد منكم، كل قوتنا، كل مؤمنينا. كل جنودنا.

على هذا، قام بإحضار صندوق مليء بالمال، وأخذ يتهيأ لتوزيعه. أعطى إلى عبدالملك الذي كان يجلس بجانبه كتاباً كبيراً، سُجِّلت فيه الميزانيات المرصودة لكل واحد، وقائمة المنح التي خصَّهم بها الزعيم الأعلى.

من الآن فصاعداً، سيتلقى كل واحد منكم ـ أبلغهم أبو علي ـ مرتباً محدداً. لكن لتعلموا جيداً أن قائمة الأجر ستُحدد تبعاً لإخلاصكم، لعملكم، لنتائجكم، ولكفاءاتكم أفصح. الزعماء بعد ذلك عن أمنياتهم الخاصة، هذا مسؤول عن إعالة قطيع من النساء والأطفال، وذاك أمامه طريق طويلة سيقطعها، ثالث أراد أن يُفوَّض بالمال المخصّص إلى صديق لم يتمكن من المجيء، والرابع يعيش في منطقة بائسة للغاية. . .

وحده مبعوث حاكم خوزستان الكبير الداعية حسين القيني والذي كان قد أحضر معه ثلاث صُرر مزخرفة مليئة بالذهب لم يطالب بشيء لا من أجله ولا من أجل سيده.

ـ يجب أن يكون لكم قدوة في هذا! ـ صرَّح أبو علي ـ وهو يعانق المبعوث الكريم بفيض من الحنان.

القرصنة تدرُّ مالاً وفيراً ـ همس الحكيم إلى الداعية الزهراوي وغمزه بعينيه غمزة ذات معانٍ. لقد حُكي في الواقع، أن الداعية حسين القيني، ينصب كمائن إلى القوافل القادمة من تركستان، ويجردها من كل شيء بعلم الزعيم الأعلى الحسن بن الصباح شخصياً، أو برضاه على الأقل كما يدَّعي. كان هذا الواقع واحداً من المصادر التي تمكن ابن الصباح من تمويل جمعيته المهمة. . . بعد أن ختموا الاجتماع بتوزيع الميزانية، قدم الزعماء المقيمون في القلعة إلى ضيوفهم. الشواء، والخمر الفاخر، واسترسلوا معهم في محادثات ودية، وأفضوا لبعضهم بعضاً عن منغصاتهم وعن همومهم. بعضهم لم يكن يثق بظفر الإسماعيلية النهائي.

لجأوا إلى الاقتراب من الشؤون التي تخصُّ الأسرة، هذا كانت له بنت في آلموت، والآخر له ولد في مكان آخر، فكان من الواجب أن يعملوا على تهيئة الظروف التي يتمكنون بها من الاقتران ومن إقامة مؤسسة الزواج: كل واحد كان يريد امتلاك أبنائه تحت جناحه، وتجادلوا مطوَّلاً كي يعلموا إن كان هناك من يوافق على هذا الفراق الموجع. . . عندما استأنسوا بأصدقائهم القدامى، اخذوا ينقبون في سلوك الزعيم الأعلى وفي المبالغ التي جرت في حسابه وفي أعماله، كان لحسن ابنتان في حضانة أبي سراقة، في حرمه الخاص، هما خديجة وفاطمة: كان عمر الأولى ثلاثة عشر عاماً، والثانية ما كادت تبلغ عامها الحادي عشر. لم يحصل لحسن أن دعاهما إلى بيته على الإطلاق، ولم يكن ليسأل عن أخبارهما. منذ أن تخلَّى عنهما لأبي سراقة روى الداعية إلى مبعوث خوزستان، إنه

عندما حلَّ عليه ضيفاً. رآهما ترتجفان خوفاً من مجرَّد ذكر اسمه، لم يستحسن أبو سراقة هذا التعامل، فهو كان أباً حنوناً، مع ذلك، فلا أحد يعرف شيئاً عن نساء حسن. كان يشاع فقط بأنهن لم يكنَّ يسكنَّ ضمن أسوار القصر. أفضى رسول خوزستان من جهته، لمن كان يريد أن يستمع إليه، أن حسيناً، ابن زعيمهم، كان يعيش في زور غامباداان، القلعة التي استولى حسين القيني عليها... نعم، كان في الحقيقة على خصومة مع أبيه الذي عاقبه بأن أرسله إلى عند كبير دعاة خوزستان، كي يخدم عنده كجندي بسيط!

ـ فعلاً إن هذا الولد متوحش كصحر الغابات ـ أضاف ـ لكنني مع ذلك، لو كنت أباه لحافظت عليه بالقرب مني لأن صدقوني، لو أن حسناً تركه تحت يده، لوجد بسهولة الفرصة لتغييره، أو على الأقل لإصلاحه، بدلاً من تركه يتحمل الخضوع لحسين الذي لا يعمل إلاَّ على ترسيخ شراسته وسوء طبعه...

مكث الضيوف ثلاثة أيام كاملة في آلموت. في اليوم الرابع ومنذ طلوع الفجر، غذ كل واحد المسير في طريقه إلى بلده، وعادت الحياة في آلموت إلى سياقها المعتاد، إلى أن وصلها زائر غير متوقع.



الفصل الخامس

كان ذلك في عزِّ الصيف، وفي نهار اشتدَّ قيظه، عندما مثل أمام باب المكان شيخ يمكن لمن يراه أن يقدِّر عمره بستين عاماً، يرافقه موكب من خمسة عشر فارساً. أوقفهم الخفير المتمركز في مدخل الشعب، وسألهم من يكونون، وما الذي دفع بهم إلى المجيء إلى القلعة. قدَّم الشيخ نفسه: لقد كان القائد السابق لموقع أصفهان، أبا فاضل اللومباني، كان قادماً من الرَّيْ، إذ كلفه ريِّس هذه المدينة بأن ينقل إلى الزعيم الأعلى خبراً على أقصى درجة من الأهمية. انطلق ضابط الخدمة، يعدو على الفرس، باتجاه القلعة، كي يخبر رئيسه بقدوم الغرباء.

كان هذا في الساعة التالية لصلاة العصر، إذ كان التلاميذ في قيلولتهم، عندما نادتهم صرخة البوق إلى التجمع. انتعلوا أحذيتهم بسرعة خاطفة، زنَّروا جلابيبهم، وأمسكوا بتروسهم وأسلحتهم، وهرعوا إلى الباحة. كان القائد العسكري مينوتشرشر، والدعاة أبو سراقة، وإبراهيم، وعبدالملك ينتظرون وهم يمتطون خيولهم.

تلقى الشباب الأمر بامتطاء خيولهم.

ـ شيء ما يحضَّر له ـ همسَ سليمان لمجاوره ـ كان منخاراه يهتزان، والانتظار قد جعل عينيه تقدحان شرراً متوهجاً، أبو علي الهارع من وقت إلى آخر، ركب بدوره حماره الأبيض الصغير، ساقاه المقوستان تلتصقان بحركة ناشطة بخاصرتي الحيوان، وعدا نحو التلاميذ الذين حثَّهم باختصار.

ـ لقد استبقيت لكم شرف استقبال رجل ذي اعتبار، إنه أحد كبار أصدقاء سيدنا. هذا الرجل هو الرَّيِّس السابق أبو الفاضل الذي أخذ على عاتقه المجازفة بالتستر على سيدنا الأعلى، وبهذا يكون قد نجَّاه من ملاحقات الصدر الأعظم. يجدر بنا أن نستقبله استقبالاً يليق بمنزلته الرفيعة وبخدماته التي قدمها لقضيتنا.

همز جواده، وعبر عدواً الجسر المنصوب فوق الهاوية.

تململ أبو الفاضل قليلاً، اضطرب، وألقى بنظرات حائرة باتجاه الشعب، أخذ حصانه يكدف تحته، كما لو أنه حدس حالة صاحبه الذهنية أخيراً، فوج من الخيالة خرج من المضيق. تعرف الزائر فوراً على من كان يتقدمهم إنه صديقه القديم أبو علي. اقترب على وقع عَدْوٍ سريع، ولم ينتظر هذا حتى ينزل عن حصانه كي يعانقه.

ـ يسعدني أن أكون الأول في استقبالك في قلعة آلموت! ـ قال.

ـ شكراً، هذا يسرني أنا أيضاً ـ أجاب أبو الفاضل.

كان صوت أبي الفاضل يكشف عن شيء من الاستياء. إنَّما صبراً!

في الماضي كان الآخرون هم من ينتظرون أن أستقبلهم. صدقت الحكمة: «اليوم لي وغداً لك»...

أراد أبو علي أن يضحك فعلاً لهذه الملاحظة.

ـ لقد تغيرت الظروف ـ قال ـ لكن لا تغضب يا صديقي العزيز. كنت أريد فقط أن أحضِّر لك استقبالاً يليق بمزاياك.

كفى أبا فاضل هذا الاعتذار ـ وأخذ يمسِّد ذقنه البيضاء. شدَّ على أيدي الدعاة الآخرين. وحيا مينوتشرشر.

ألقى القائد العسكري أمراً. ومفرزة التلاميذ انقضَّت برتل واحد نحو الهضبة التي تمتد ناهدة قليلاً، على مرأىً من الزائرين. هناك انقسمت بسرعة البرق إلى فيلقين، سار كل منهما في اتجاه معين كي يتفرقوا بعد

ذلك بشكل فوضوي. صفرة قوية وتجمع الفرسان في صف متراً. ثم أعلن رئيسا المفرزتين أمراء، وتشكلت زمرتان من جديد واندفعتا في الحال، برماح مسدلة في انقضاض هائج، يخيل لمن يراهم أنهم سيلقون بأنفسهم إلى الأسفل. وأنهم سيطعنون أنفسهم من الطرف إلى الطرف الآخر بأسنة رماحهم، لكنهم وبحركة منظَّمة تماماً انساب بعضهم إثر بعضهم الآخر، إلى الجهة المقابلة لنظرهم، تجمعوا مرة أخيرة، وعادوا وهم مصطفون في رتل مثالي إلى النقطة التي انطلقوا منها.

ـ بواسل رائعون! يجيدون امتطاء خيولهم بشكل مثالي! هتف أبو فاضل بإعجاب خرج من القلب اعترف بأن عرقاً بارداً كان يتصبب مني، عندما رأيتهم وكأنهم معبأون إلى معركة... تهانيَّ!

ـ لم تصل إلى آخر ما هناك من مفاجآت يا عزيزي الرَّيِّس ـ قال ـ انتظر حتى تأتي إلى القلعة...

ألقى أمراً، والمفرزة تحركت باتجاه الشعب الذي يؤدي إلى القلعة.

عندما صاروا في آلموت ترك القائد مينوتشرشر تلاميذه. أعطى أوامر كي يصار إلى الاعتناء بمرافقة الرَّيِّس، وبخيولهم، ثم صحب ضيفه والدعاة إلى قاعة الاجتماع. في الطريق، تفحص أبو فاضل القلعة والمباني، وقد أذهله عدد الجنود، والبهائم التي شوهدت هناك!

ـ إنه لمعسكر معقل حقيقي يا عزيزي! كنت أظنُّ أنني أزور نبياً، وإذا بي أجد نفسي أمام قائد جيش حقيقي! لكن أكثر ما يشقُّ عليَّ، هو أنني لا أستطيع أن أصدق أن يكون كل ما أرى حولي هنا هو من صنيع صديقي العزيز ابن الصباح...

ـ ألم أقل لك بأنك لم تصل بعد إلى آخر المفاجآت؟ قال داعي الدعاة ضاحكاً. نحن لسنا أبداً أكثر من ثلاثمائة وخمسين رجلاً نشغل هذا المكان. لكن كما ترى، فإنهم جنود مدرَّبون بشكل رائع. ونحن هنا أيضاً ممؤَّنون بالقوات والعتاد. ويمكن أيضاً أن نحصي زهاء مائتي محارب في

كل واحدة من القلاع المجاورة، لا ينتظرون إلاَّ إشارة كي يأتوا لتقديم الدَّعم إلى قضيتنا. كل المنطقة مؤيدة لنا، وفي حال الخطر نستطيع أن نجمع في آلموت وفي أقصر مدة زهاء ألف وخمسمائة رجل.

ـ على الرَّغم من كل شيء، هذا قليل، قليل جداً. . .

دمدم أبو الفاضل.

رمقه أبو علي بنظرة دَهِشَة.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أفلا تعتمدون على هذه الحفنة من الشجعان، كي تقفوا في وجه جيش السلطان بأسره؟

ـ نحسب ذلك. كيف إذاً! إنَّما هل المحتمل وجود خطر الآن؟

هزَّ أبو فاضل رأسه.

ـ سأتحدث عن ذلك إلى ابن الصباح. اقتصرت إجابته على ذلك.

نظر الدعاة إلى بعضهم بعضاً. ووصلوا أخيراً إلى الشرفة العليا. ودخلوا قصر الزعيم الأعلى، مارين بين الخفراء الذين كانوا يشرعون أسلحتهم، أصحاب المقام كانوا بانتظارهم في قاعة المقابلة. وعبثاً بحث أبو فاضل بينهم عن صديقه القديم.

ـ أين ابن الصباح؟ سأل.

حكَّ أبو علي ذقنه:

ـ سأذهب فوراً لأخبره بمجيئك. بانتظار ذلك. سيقوم الدعاة على رعايتك، ويبقون إلى جانبك.

ابتعد، بينما هتف أبو فاضل:

ـ قل له بأنني لم أعبر هذه المسافة عن طيب خاطر. أرسلني الحاكم موتسوفر لأنقل له رسالة على درجة من الأهمية، سيندم على كل لحظة جعلني أقضيها بانتظاره!

تمدَّد على الأرائك بهيئة السَّاخط. أخذ الدُّعاة أماكنهم بالقرب منه، بينما كان الخدم يتسارعون حول الزائر مقدمين إليه المشاريب والحلوى.

ـ أشعر وكأني أنا الممنون أيضاً! همس في سره.

ـ لا تغضب، أيها الشيخ الوقور ـ تدخل أبو سراقة.

تلك هي الأعراف الآن في آلموت.

ـ لم يغادر الزعيم مساكنه مرة واحدة، منذ أن استولى على القلعة ـ وضح إبراهيم ـ إنه لا يتحدث إلى أحد، ما خلا كبار الدعاة خلال أيام أو أسابيع.

ـ إننا نعرف هذه الأساليب ـ قاطعهم أبو الفاضل ـ عندما كنت ريّس أصفهان، كنت أترك من أريد أن أعدّله ينتظر أمام بابي، إنما كان يبقى ذلك الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام أصدقائي! لدي في هذا الموضوع كلمة سأقولها لابن الصباح:

ـ سمعنا أيها الشيخ الموقر، بأنك خبأته أربعة أشهر في بيتك، في الوقت الذي كان فيه عرضة لاضطهاد الصدر الأعظم، سرَّب الإغريقي نظرة ماكرة.

ـ ضحك الرَّيِّس ملء شدقيه.

ـ هل حدَّثوك أيضاً بأني حسبته مجنوناً؟ بالإضافة إلى أنني أريد فعلاً أن أعرف من كان سيحسبه غير ذلك لو كان في مكاني!

ـ سمعتهم يتحدثون بهذا الموضوع ـ إذ وجد من المفيد أن يضيف ذلك أبو سراقة. لكنني أعترف بعدم معرفتي كيف جرت الأمور تماماً.

ـ آه! أنت لا تعرف كيف جرت الأمور ـ حسن ـ فإذا كان في هذا ما يهمك، فلسوف أرويه لك قال الرَّيِّس السابق.

تسارع الدعاة لوضع بعض الوسائد أيضاً تحت رأسه، كي يستطيع أن يتمدد بارتياح، ثم تهافت الجميع بمزيد من الاحترام.

بدأ إنما ليس من دون أن يأخذ الوقت كي يرقق صوته.

ـ مضت سنوات طويلة، من دون أن نرى بعضنا بعضاً فيها، ابن صباح وأنا، كل شيء يحمل على الاعتقاد بأنه تغير منذ ذلك الوقت بشكل لا بأس به. في الوقت الذي عرفته فيه كان مستهتراً بشكل لا مثيل له.

كل البلاط كان يضحك لفكاهاته واحدة من أضحوكاته كانت كافية لتبديد تعكر مزاج السلطان والكل كان يعلم بأن الأمر قد بلغ بالصَّدر الأعظم لأن يغار منه، فلم يتردَّدْ في البحث عن مكيدة أوقعه فيها.

أفلح حسن أخيراً بالهرب إلى مصر، وبعد عام لم يعد أحد يتذكر اسمه في البلاط ـ باستثناء الصدر الأعظم طبعاً، الذي كانت له بواعثه الحقيقة في الخوف من انتقامه. عندما بلغه أن ابن الصباح غادر مصر، كلف كل مخبريه في البلاد كي يكشفوا مكان إقامته الجديدة، من أجل تصفيته إذا ما وجدوه. لكنهم كانوا يقولون بأنه قد اختفى تحت الأرض... وها هي ستارة بابي تنفرج ذات يوم مفسحة إلى شيخ وقور بالدُّخول إلى غرفتي مدثَّراً في معطف سفر واسع. أرعبني بحيث أوشكت أن أصاب بسكتة جراء ذلك.

عندما استعدت رشدي، صرخت في خدمي: «ويحكم أيها المغفلون! من ترك هذا الرجل يدخل بيتي؟». أزاح الرجل عن وجهه ياقة معطفة، فتعرَّفت أمامي على وجه حسن، صديقي الجذل، سليماً ومعافى بشكل أعجوبي... عندئذ فقط أخذت أرتجف، وبسرعة سحبت الستارتين على بابي. «هل جننت؟ قلت متحاملاً: مائة واحد من شرطة الصدر الأعظم يقتفون أثرك، وأنت جئت كي تتجول في أصفهان. وتأخذ مقتحماً دون سابق إنذار في عناق مسلم شريف!».

ضحك حسن، وحسب عادته القديمة. ربَّت على كتفي. «هيَّا أيها الرَّيِّس، أيها الرَّيِّس العزيز ـ قال ـ عندما كنت مهيمناً على البلاط كان

عندي وفرة من الأصدقاء أمّا وقد زالت حظوتي، فقد أوصدتم جميعكم أبوابكم في وجهي». ماذا بقي عليَّ أن أفعل؟

كنت أحبه فعلاً، فدعوته أخيراً إلى الإقامة عندي. لكنني حرصت على ألاَّ يعرف أحد عن ذلك شيئاً. كان عليه فعلاً أن يقضي جلَّ نهاره محبوساً في غرفته، كان صبوراً، ويقضي أياماً بكاملها يكتب بريشته أو يستغرق بالتفكير، ولم يكن يتورع أبداً من أن يسليني بومضات بديهته، وبفكاهاته في كل مرة كنت أزوره فيها. لكنه أطلعني ذات مرة على تصريح أدهشني. الغريب في هذه القصة أنه لجأ إلى تلك اللهجة الغامضة والفكهة التي يعتمدها عندما كان يعرض بعض الدعابات، بحيث أنني في هذه المرة أيضاً. وجدت خيراً بألاَّ آخذ ما قاله على محمل الجدّ، وأن أضحك من ذلك. لكنه قال لي هذا: «أيها الصديق العزيز، لو أمنح ثلاثة رجال ممن يعتمد عليهم بشكل قاطع، لأقلبنَّ بعد ذلك السلطان ومملكته في أقل من شهر»، ضحكت حتى آلمني بطني. إنما ها هو ذا فجأة يصبح خطيراً. أمسك بي من كتفيَّ ونظر في أمِّ عيني، نظرة نافذة شعرت نتيجتها بقشعريرة تسري في ظهري. نطق أخيراً. «ليس هناك شيء أكثر جدية مما أقول يا ريِّس أبو الفاضل اللومباني...».

تراجعت واثباً. كما لو ورأيت في ذلك، المعجزة التاسعة تهبط وسط الغرفة رأساً. ومن له إلاَّ أن يقف فاغراً فاهه لسماعه أحدهم، وليس أيَّ أحد كان، يخبره بأن اثنين أو ثلاثة رجال يكفونه كي يهدم إمبراطورية تمتد من أنطاكية حتى الهند وبغداد وصولاً إلى البحر الأسود! وفي الحال راودتني هذه الفكرة، إنه لفرط ما عاش وحيداً ومطارداً صار مجنوناً. خاطبته بضع كلمات مهدئة، وانسحبت بحذر إلى مسكني، استدعيت الطبيب حالاً ورجوته أن يدلني على علاج لهذا الجنون. قدمت هذا الدواء عدة مرات إلى ضيفي التعس، لكنه رفضه، وفهمت منذ ذلك اليوم بأنه لم يعد يثق بي.

راقت هذه القصة للدعاة كثيراً.

ـ يا لها من مغامرة عظيمة! صاح الإغريقي. إنهًا تلبسه تماماً.

ـ وما رأيك اليوم بكلمات حسن، أيها الشيخ الوقور. تمنى أن يعرف أبو سراقة.

ـ أخاف كثيراً من أن يكون ما تكلم به جدياً تماماً. قال الآخر، وقد استولت عليه الكآبة.

ثم جال بنظراته، من واحد إلى آخر، وهو يهزُ برأسه مفكٌراً.

ما أن ظهر أبو علي ثانية! حتى هرع نحو ضيفه.

ـ هيا! ابن الصباح بانتظارك.

وعلى مهل انتزع الرَّيِّس نفسه من بين الأرائك، حيًّانا منحنياً قليلاً وتبع داعي الدعاة!

سارا بمحاذاة ممر طويل جداً. وعند كل منعطف يحرس عبد عملاق وهو يقبض جيداً بسلاحه. وصلا بعد ذلك سلَّماً ملتفًّا صعب الصعود، يبدو أنه كان يؤدي إلى قمة البرج. فأخذا يصعدان.

ـ لعل ابن صباح يسكن في قمة هذا البرج! قال الرَّيِّس مستاءً. وهو يمسح العرق الذي كان يتصبب من جبينه.

ـ لقد حزرت أيها الشيخ الوقور.

صار السلم يضيق شيئاً فشيئاً، ويتعرج أكثر فأكثر.

كان الداعية يتسلق كما لو كان ابن عشرين عاماً. بينما كان الرَّيِّس يلهث من ذلك.

ـ لنتوقف قليلاً ـ قال أخيراً ضاق نفسي، فأنا لم أعد فتياً.

قاما باستراحة قصيرة. تنفس الرَّيِّس قليلاً، ثم أخذا يتسلقان وما هي إلاَ لحظات حتى أخذ أبو فاضل يدمدم:

ـ ناشدتك بلحية والدي! أليس لهذا السلم الملعون من نهاية؟ هل جعل هذا الثعلب مأواه في هذا العلو كي يستمر بإرهاقنا في مهازله؟

أخفى أبو علي ضحكته، اقتربا من نهاية السلم، وقد صار الرَّيِّس السابق على آخر نفس. أحنى رأسه بشكل لم يرَ الخفير الذي كان يحرس في الطرف الأعلى ويرتج مدخل المسكن: رفع رأسه مبهوتاً: انتابه خوف شديد بحيث تراجع بوثبة، عبد أسود عار لكأنه تمثال من البرونز، طويل وقوي ينتصب واقفاً أمامه كالجلمود، يقبض بهراوة رصاصية رائعة، لو حملها الريِّس لتكسَّرت يداه. سند أبو علي الشيخ العجوز كي لا يتدهور عن السلم، التفت أبو الفاضل بحذر نحو الخفير الصامت الذي يقف دون حراك، ومرة أخرى، ولجَ الممر، التفت أيضاً ليصادر النظرة التي كانت تتابعه، كان العبد يلتفت إليه بعينين واسعتين بيضاوين: لا تبعثان على الطمأنينة كثيراً.

ـ لم يسبق لي أبداً، أن رأيت سلطاناً، أو شاهاً، وفَّر لنفسه حراسة كهذه أمام الضيف. هذا الأفريقي المسلَّح بهذه الهراوة لا يوحي في الحقيقة باستقبال بشوش...

ـ أرسل خليفة القاهرة مفرزة من هؤلاء الخصيان كهدية إلى حسن ـ علَّق أبو علي ـ إنهم خفراء على درجة من الثقة لا يمكن تصورها.

ـ ترى، إن آلموت بكل ما فيها لم تعد تروق لي، قال الرَّيِّس متذمراً، لا يمكن للمرء ان يجد الراحة هنا أيضاً ـ رجل بعمري...

وصلا أمام باب يحرسه خفير مماثل للخفير الأول في كل شيء. همس أبو علي بضع كلمات فرفع الخفير الستارة.

دخلا إلى غرفة استقبال مفروشة بشكل بسيط. تنحنح الداعية، وخلف واحدة من السجَّادات الموضوعة على شكل ستار. تحرَّك شيء ما. ويد غير مرئية رفعت الستارة الثقيلة. من خلال الفرجة ظهر زعيم الإسماعيليين

الأعلى: الحسن بن الصباح، عيناه تشعان تعبيراً عن إحساس بالسعادة مشى بخطو سريع نحو صديقة القديم وشدَّ على يده بقوة.

ـ عجباً! عجباً! صديقي في أصفهان. أرجو ألاَّ تكون قد أحضرت لي الدَّواء لعلاج الجنون؟

أدخل العجوزين إلى غرفته وهو يبتسم بحبور.

وجد الرَّيِّس نفسه في غرفة مفروشة بشكل مريح. كل ما هناك كان يجعلك تخال نفسك في غرفة العالم. رفوف متدرجة على طول الجدران، محملة بالكتب والأوراق، التي سوَّدتها الكتابة. الأرض مغطَّاة بالسجاد، أجهزة فلك مختلفة، حدِّث ولا حرج عن الألواح الصغيرة، وريش الكتابة، ودواة حبر تمدُّ الناسخ بما يحتاج إليه. كل شيء يلفت النظر، فتكتنف عين الزائر كل هذا بانذهال، لم يستطع أن يجمع في ذهنه كل ما رآه من حياة القلعة الصَّارمة في الأسفل وما يقع تحت عينيه الآن.

ـ ليس دواء لعلاج الجنون إذاً ما تحضره لي الآن! هذر حسن الذي كان يداعب لحيته الطويلة مبتسماً والتي كان لا يزال فيها سواد جميل. هل لي أن أعرف ما هي الرياح الكريمة التي دفعت بك إلى هنا من آخر الدنيا؟

ـ لا بالتأكيد، ليس الوقت الآن وقت إحضار دواء لعلاج الجنون، أعلن الريس أخيراً، إنَّما موتسوفر قد عهد إلي بخبر وأوكلني بنقله إليك. بأمر من السلطان خرج الأمير أرسلان تاش من همدان وسار في طريقه إلى آلموت على رأس جيش من ثلاثين ألف رجل، من المحتمل أن تصل مقدمة جيش الفرسان التركية اليوم أو غدًا إلى رودبار وأن تعسكر بعد أيام قليلة بجوار القلعة.

نظر حسن وأبو علي إلى بعضهما البعض.

ـ الآن؟ سأل حسن بهيئة المفكر.

لم أكن أتوقع اتخاذ قرار بهذه السرعة. كل هذا يشير إلى أن هناك بعض المستجدات في البلاط...

أجلس صديقه على سرير من الأرائك، هدأت نفسه وأخذ بالتفكير وهو يهز رأسه.

ـ قلت لك كل ما أعرف ـ تابع أبو الفاضل ـ من جهتك، رتِّب أمورك من أجل إخلاء المكان بأسرع ما يمكن.

احتفظ حسن بصمته. وأخذ الريِّس يراقبه خلسة.

لم تكن تبدو عليه الستون سنة. فحركات جسمه الرشيقة لا تزال هي نفسها حركات الشباب، بشرته الطرية، تضيئها عينان واسعتان تنطقان بالذكاء وتخترقك نظرتهما الثاقبة. فيما عدا ذلك ليس هناك من شيء مهم يقال.

قامة متوسطة، أو لنقل ليست طويلة، رجل ذو بدانة معتدلة لا هزيلاً ولا سميناً، أما وجهه: أنف رفيع مستقيم، شفتان مكتنزتان مستديرتان، وقد حافظ على صوته القوي، وعلى نهجه المباشر، وعلى تلك اللهجة الإرادية الساخرة التي تنم عن خلفية تهكمية. أمَّا ذلك الوجه فقد كان يتبدل تماماً، عندما كان يفكر. أمّا ابتسامته فكانت تغور، وقسماته تأخذ تعبيراً كئيباً وصارماً أو يبدو ساهماً وكأنه يسترسل في تأمل وجه لا نراه. هكذا يبدو دائماً الرِّجال الموهوبون في خيال خصيب، وتجده في هذا المظهر يوحي بذعر غير متعمد إلى أتباعه.

بشكل عام، يمكن أن يقال عنه: وسيم وكثير من الناس كانوا يتأسفون بأنه كان يفصح في كثير من المناسبات عن نقاء طبعه.

ـ أعطني بعض التفاصيل ـ هاأنذا أصغي ـ قال في الختام مخاطباً ضيفه الطيب وهو يمسِّد جبينه.

ـ إن كنت لا تعرف ذلك ـ أكّد الرَّيّس متمهلاً فإني أخبرك بأن صديقك القديم نظام الملك لم يعد صدراً أعظم.

انتصب حسن ورعشة سرت في جسده.

ـ ماذا تقول؟ صاح كما لو أنه لم يصدق أذنيه.

ـ خلع السلطان نظام الملك وعين مكانه أمين سره تاج الملك بشكل موقت.

ـ تاج الملك، قال أبو علي مندهشاً. وبهيئة مبتهجة. إنه حليفنا.

ـ لم يعد كذلك، منذ ان صارت زوجة السلطان تأمل بأن يُسمَّى ابنها خليفة العرش بشكل شرعي. وضَّح الرَّيِّس.

ـ خيانة خسيسة، دمدم الداعية متذمراً.

كان حسن يفكر بصمت، منحنياً إلى الأمام. وقد أخذ يرسم بإصبعه دوائر على السجادة. صمت العجوزان الآخران أيضاً، واكتفيا بتتبع حركاته بأنظارهما، يتلهَّفان لأن يبدأ مضيفهما الحديث.

ـ إن استعيض عن نظام الملك، بأمين سر السلطانة، يكون من الواضح أن يتغير وضعنا كلياً في البلاط. وهذا ما يفسد تقديراتي. كنت أفكر باستمرار السلم حتى الربيع. عندئذ فقط ستكتمل استعداداتي... لا بدَّ لي من الإسراع فيها بشكل جدي.

ـ نعم، كدْت أنسى الأمر الأكثر أهمية. ـ تابع الريس ـ لقد حافظ نظام الملك على دوره كوزير... إنمَّا كي يجد نفسه يتولى مهمة جديدة: إبادة الإسماعيليين في أقرب وقت ممكن.

ـ هذا يعني أن المعركة معركة موت أو حياة. علَّق أبو علي بلهجة قاسية. الصدر الأعظم السابق. في الوقت الحاضر في موقف الذئب الذي طلب منه إبادة القطيع.

ـ لم نصِرْ بعد إلى قطيع من النعاج. قال حسن مازحاً: وقد جاء على اتخاذ قرار بينه وبين نفسه، وبدا وقد استعاد كل صفائه. علينا أن نتخذ تدابير طارئة ـ عقّب ـ ما هو رأي موتسوفر؟ هل هو مستعد لمساعدتنا؟

ـ لقد تأملنا بدقة في كل الاحتمالات ـ أجاب أبو الفاضل ـ أنا أحبك،

ومستعد لتغطية انسحابك أمام جيش الخيالة التركي. بالإضافة إلى أنك لا تستطيع أن تنسحب وحدك وأنت تجابه ضخامة جيش الأمير.

ـ فهمت جيداً، فهمت جيداً، همس حسن، بينما كانت الابتسامة المعهودة الساخرة. تهيم على شفتيه. وبريق يشع من عينيه. وإلى أين تنصحني جلالته المستنيرة بالانسحاب؟

ـ هذا بالضبط، من الاحتمالات التي ناقشناها باهتمام اكبر. قال الرَّيِّس ـ متظاهراً بعدم رؤيته موقف حسن الماكر، ليس لديك سوى مخرجين: الأقصر، باتجاه الغرب، فتعبر بلاد الأكراد المهجورة: ستمكنك هذه الطريق من الوصول إلى بيزنطة ثم مصر. الأطول: نحو الشرق، وبهذه ينصحك موتسوفر، إلى مرو أو حتى نيسابور، حيث سيستطيع حسين القيني أن ينضم إليك بقواته. ولكن سيكون عليكما إثر ذلك أن تنسحبا نحو كابول حيث ستمر بأمير من أمراء الشرق كي يعطيك لجوءًا.

ـ مشروع عظيم، عقَّب حسن مستهتراً. وإذا ما أخبرتك بأن جيوشي لن تمكث طويلاً في مجابهة فرسان الأتراك؟

ـ خطر ببالنا أيضاً هذا الاحتمال ـ أردف الرَّيِّس مقترباً أكثر من مُضيفه، وإذا ما بدا لك الانسحاب مع كل أناسك، خطيراً، فإن موتسوفر يعطيك لجوءاً عنده، لك ولكل ذويك، ومن أجل هذا بالضبط أرسلني إليك.

ـ موتسوفر مفكر لبيب، ولن أنسى له هذا التعاطف. لكنه لا يعرف ما يدور في خاطري، ولا يقرأ ما بسريرتي. اتخذ صوت حسن نبرة قاسية وجازمة، وهو يلفظ هذه الكلمات. آلموت منيعة، سنبقى في القلعة. سنسحق فرقة خيالة الأتراك وعندما سيصل جيش السلطان بأكمله أمام القلعة، سنكون مستعدين.

كان أبو علي ينظر إلى حسن بعينين مشعتين، بعينين مفعمتين بالثقة. أبو الفاضل كان منذهلاً.

ـ طالما اعتبرتك يا حسن، يا صديقي العزيز، رجلاً حاذقاً يحسن

التصرف ـ قال ـ إن شهرتك في هذه الأيام ذاعت بشكل مرموق، والكل يتحدث عنك في إيران بأسرها. لقد أثبت من خلال أحابيلك في البلاط، أنك تستطيع أن تكون رجل دولة، على كفاءة تفوق كفاءة الكثيرين من الآخرين. لكنَّ ما تقوله الآن يفعم قلبي بالقلق والرعب صدقاً.

ـ لقد أتيت بالكاد على إنجاز نصف عملي، وفي الواقع، فإن الشك يساورني في كفاءاتي كرجل دولة. سأحاول الآن أن أجرِّب ما يستطيعه الإيمان. ركّز على الكلمة الأخيرة. والتفت نحو داعي الدعاة:

ـ اذهب، واجمع مجلس الشيوخ ـ أمر ـ فعلى الجيش أن يتأهب للحرب في الحال.

التلاميذ سيخضعون اعتباراً من الغد للامتحان الذي يقرِّهم فدائيين، عليهم جميعاً أن يعرفوا كل شيء... ستدير المجلس نيابة عني. ستقول لهم بأن زائرين يقتربون في طريقهم إلينا، ونحن قررنا أن ننتظرهم في مكاننا. ليدل كل واحد منهم برأيه إليك. وعندما ستستمع إليهم جميعاً، ستأتي لتقدم لي تقريرك، ليأمر القائد العسكري باتخاذ كل التدابير كي نؤمن الدفاع عن القلعة.

ـ كل شيء سيتم كما أمرت ـ أكَّد داعي الدعاة ـ وغادر الحجرة.

كان قرع الطبول، وعجيج البوق، يدعو الجيش المسلح والزعماء إلى التجمع. وكان أبو علي بوجهه الوقور ينتظر في قاعة الاجتماعات. والتي صار إليها الزعماء والضباط مباشرة عندما تجمع الجميع، نظر إليهم الداعية الواحد تلو الآخر.

ـ لقد عزل السلطان الصدر الأعظم ـ بدأ من دون أية ديباجة ـ وقلَّده مهمة عاجلة: إبادة الإسماعيلية. أمير همدان يسير نحو آلموت بثلاثين ألف رجل.

مقدمة الجيش من الخيالة التركية ستصل اليوم أو غداً أمام رودبار. وبعد بضعة أيام سترفرف الأعلام السود أمام باب قلعتنا. حاكم موقع الرَّيْ

موتسوفر وعدنا بمساعدته. لكنَّ أفضل حليف لنا هو إرادتنا بالنصر. أرسلني سيدنا لأستفتي أراءكم حول الطريقة الأكثر ضماناً للتصدي. عندما سيسمع استشاراتكم، سيصدر نصًا بالإجراءات اللازمة.

أخذ الزعماء، وهم يجلسون على آرائكهم، يتبادلون النظرات الحائرة، واحد من بينهم همس في أذن مجاوره، ثم مكث صامتاً لمدة طويلة...

- أيها القائد، أنت أيها الجندي الخبير - قال أبو علي أخيراً مخاطباً مينوتشرشر ما هو برأيك الأمر الأكثر أهمية كي تتخذه؟

- ليس لدينا ما نخشاه من هجوم كتائب الفرسان التركية، فالقلعة تستطيع أن تقاوم هجوماً من هذا النوع: ومن يفكر بانتزاعها يكون قد مضى مباشرة إلى إخفاق مبرح.

أمَّا كم من الوقت سنستطيع أن نصمد أمام قوة جيش مؤلف من ثلاثين ألف رجل سيحملون معهم معدات وأسلحة حصار. فهنا تكمن المشكلة.

- كم من الوقت نستطيع أن نصمد مع المؤن الموجودة تحت تصرفنا؟ استخبر الإغريقي.

- لنقل ستة أشهر على الأقل - أجاب القائد الحربي - أمَّا إذا ما كان لدينا الوقت لإرسال قافلة إلى الرَّيْ، فإن موتسوفر يستطيع أن يزوِّدنا بما يدعمنا ستة أشهر أخرى.

- إيضاح مهم - قال أبو علي - الذي سجل بضع كلمات على لوحه.

تناول الحديث عبدالملك:

- برأيي إنه من الغباء، أن نترك أنفسنا متقوقعين في القلعة، فما زلنا نستطيع أن نشتبك مع مقدمة الجيش التركي، في بلد منبسط، لا سيَّما إذا ما مدَّنا موتسوفر فعلاً بالمدد، فالكثرة من الجيش التركي لا تزال بعيدة.

هذه الخطة، كما نتصورها، سيكون لها تأثير كبير على الضباط الفتيان.

ـ حذار من أن نتسرَّع كثيراً نبههم أبو سراقة ـ علينا أن نفكِّر أن لنا في القلعة نساء وأطفالاً . . . سنقلق عليهم إذا ما تعرضنا لهجوم معاكس.

ـ آه، ألم أقل لكم دائماً: «ما كان ينبغي للنساء وللأطفال أن يحيوا كمحاربين! قال إبراهيم منفعلاً.

ـ لتتذكر، بأنني لست الوحيد من لديه ذويه في القلعة ـ أجابه أبو سراقة ملمحاً إلى بنتي حسن.

ـ حسناً، دعوني أقدم لكم مشورتي النصوح ـ قال الحكيم ضاحكاً. لنضع النساء والأطفال على ظهور الجمال والبغال، ولنرسلهم إلى موتسوفر، ولن يكون على القافلة إلاَّ أن تحمل لنا في عودتها المؤن الضرورية. وهكذا نكون قد ضربنا ثلاثة عصافير بحجر، نخفض عدد الأفواه المفتوحة للطعام في القلعة، ونخلص ذويهم من القلق الرهيب، ولا تكون القافلة قطعت نصف المسافة سدىً.

ـ الفكرة ذكية ـ اعترف أبو علي ـ وهو يسجل هذا الاقتراح على لوحه.

ثم انخرطوا في الحال في محادثة حامية، يتجادلون فيما تفتقر القلعة إليه، وتماحكوا في رأب الأعمال المناطة بكل واحد، لم يكن هناك من لم يعبر عن رأيه بشكل مفصَّل جداً.

أخيراً، رفع أبو علي الجلسة، وأمر رئيس الموقع بانتظار اتخاذ الإجراءات الحاسمة، وأسرع للقاء حسن في البرج.

أخذ حسن وقته في الاستعلام من الرَّيِّس السابق عن المتغيرات التي كان لها أن تتدخل في البلاط وتسوغ قراراً اتخذه السلطان بهذه السرعة. إذ كان قد بقي في الواقع حتى ذلك الحين على صلة محدودة بدوائر الحكومة. تاج الملك، وزير السلطانة، لعب بالنسبة له دور المخبر المهم في هذا المسألة. كان السلطان ملك شاه قد نصَّب شرعياً ابنه البكر بارقياروق لولاية العرش، المستولد على فراش زوجته السابقة.

أتى الشاب الذي كان يبلغ من العمر العشرين عاماً على قمع طائفة من

الأمراء المتمردين في معركة على طول الجبهة الهندية، اغتنمت السلطانة الشابة غيابه، كي تحاول أن تضمن لابنها محمد الذي لم يتجاوز الرابعة، خلافة العرش في إيران. فكان نظام الملك أول الثائرين على هذا المشروع، والسلطان كان يخضع طوراً لتأثير صدر أعظمه القديم، وطوراً لسحر زوجته الشابة الجميلة، فظن الصدر الأعظم أنه وجد سنداً قوياً عند الخليفة، وعند رجال الدين السنة، والسلطانة من جهتها وأنها دُعمت من قبل أعداء نظام الكثر، أي بصورة عامة من قبل هؤلاء الذين كانوا يحلمون برؤيته مجرَّداً من نفوذه. إلى أن صار حزب السلطانة يشكل وزناً معادلاً لرجال الدين السنة. فبحث وزيرها الخاص عن عقد اتصالات مع المشايعين لعلي والذين كان حسن على رأسهم. فجرت رياح سيد آلموت نتيجة لتلك الشقاقات، كما لو كان يشتهيها. إذ كان قد قدَّم وعداً قاطعاً للسلطانة بأن يدعم أتباعُه قضيتها في إيران، وتعهد تاج الملك بإقناع السلطانة الجميلة توركانا خاتونا بأن تقوم بكل الضغوط اللازمة لتهدئة السلطان والذي كان لنجاحاته الحربية المجددة في شمال البلاد أن تؤدي فعلياً إلى اشتباك مفاجئ.

ظلَّت السلطانة وأمين سرِّها أمينين لوعدهما طيلة سنتين عندما ضغط نظام الملك على السلطان للتدخل ضد الإسماعيليين، كانا يبذلان جهدهما من أجل تقليص الخطر الذي يمثله هؤلاء الأخيرين، متذرعَيْن بأن كل مخاوف الصدر الأعظم ما هي إلاَّ ثمرة كرهه الشخصي لحسن بن صباح. لم يكن السلطان يرغب بسماع تلك الترَّهه. ومثلما كان يميل إلى رأي نظام بما يخصُّ ولاية العرش، فقد كان ينزع أيضاً إلى خفض جناحه للسلطانة ولوزيرها بمسألة الإسماعيليين والحال كذلك، فقد أتى الرَّيِّس أبو الفاضل على تقديم أخباره لحسن من الواضح أنها ستضع كل شيء ثانية على بساط البحث. معلومات أخذها من فم مبعوث موتسوفر في بلاط أصفهان بالذات. . . علم نظام الملك أن حسين القيني بعد أن ألَّب باسم حسن كل خوزستان ضد السلطان قد عزم على حشد قواته حول قلعة زور

غامبادان ضد السلطان، فكان هناك ما يدعو إلى الخوف. فهو يعلم أن له مع حسن حساباً عسيراً. وهذا ما دفعه لأن يلعب بآخر أوراقه عند السلطان. فقبل زمن لا بأس به، عمل على تجريد حسن من حظوته عند السلطان، مستخدماً التحايل، مصوِّراً إياه كمستخف لا يمتلك أدنى الكفاءات، معتمداً استعباده. هو وزير البلاط بطريقة خسيسة. غضب السلطان وتوجَّب على حسن مغادرة أصفهان في الليلة نفسها. منذ ذلك اليوم والسلطان قد كوَّن لنفسه تصوراً خاطئاً، بأن لا يمكن لنجاحات حسين أن تؤخذ على محمل الجد. لا بدَّ إذاً من أن يعترف الصدر الأعظم بأنه هو من عمل على تجريد حسن من اعتباره عنده مستخدماً لذلك أدلة عارية من الصحة. بل وأن زعيم الإسماعيلية كان في الواقع رجلاً كفؤاً وخطيراً.

اندفع السلطان الممتقع من الغضب والغيظ الرَّاكعُ والنادمُ، وانسحب إلى مساكنه دون أن ينطق بكلمة. وأعلن بعد ذلك بقليل عن خلعه نظام الملك من منصبه كصدر أعظم، على أن يتولى مركزه أمين سر السلطانة بشكل موقت.

وفي الوقت نفسه تلقى نظام الأمر الذي يقضي بهزم حسن وإبادة الإسماعيليين في أقصر وقت. ومن حينها فهم الجميع بأن السلطانة وأمين سرها قد تخليًا عن حليفهما للأمس. بما أن خصمهما اللدود قد استبعد، فلا حاجة إليهما بعد الآن إلى أية مساعدة من أجل تحقيق تأثيرهما على السلطان.

وبعد ساعات من الاضطراب الشديد، سافر السلطان مع كل أعيانه إلى بغداد، ليزور أخته وصهره الخليفة في بغداد. في الواقع، كان في رأسه خطة بالغة الأهمية: إقناع هذا الأخير بتعيين الابن الذي أنجبته أخته لأمير المؤمنين، كوريث للخلافة، وسلطان من أصل تركي.

عندما جاء أبو علي يحمل تقريره من هناك، كان حسن قد ألَمَّ بكل

تفاصيل آخر مكائد بلاط أصفهان فنوى أن يولي من الآن فصاعداً انتباهه إلى آراء زعمائه.

ما أن انتهى الداعية، حتى نهض، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، مفكِّراً بالموقف، مستعرضاً الحلول التي كانت ترد في ذهنه. التفت أخيراً نحو أبي علي:

ـ تناول لوحك واكتب!

أخذ الداعية وضعية الكاتب، مثبتاً لوحه على ركبته اليسرى، رفع قلمه.

ـ أنا مستعد يا ابن الصباح.

تمركز حسن قربه كي يستطيع أن يقرأ من على كتفه، وأخذ يملي تعليماته الغنيَّة بكل الإيضاحات اللازمة.

ـ فيما يخصُّ لقاء مقدمة جيش الأتراك من الخيالة ـ استهل ـ فإن عبدالملك مصيب: يجب ألاَّ نفسح المجال لأن نحاصر في القلعة سريعاً. سنباغتها على المكشوف في مكان نختاره ثم نفرقها. من أجل هذا علينا أن نحرص على أن يرسل موتسوفر دعم جيوشه في الموعد المضروب. أنت يا أبا علي ستستلم إمرة الجيش الذي سيستقبل مقدمة جيوش السلطان، سيضطلع مينوتشرشر بحماية القلعة. سيتلقى ذلك ببرود، لأنه يحب ساحات القتال التي تسيح فيها الدماء. لكننا بحاجة إلى إمكانياته كي تكون القلعة مستعدة لأي احتمال... ثم من المهم جداً أن نتخلَّص من الأفواه غير المفيدة. ومن تلك الأعباء الثقيلة الأخرى. سيتوجب على عبدالملك أن يضع الحريم والأطفال على ظهور الجمال والبغال قبل هبوط الليل: أريد أن تنطلق القافلة بعد صلاة العشاء. موتسوفر رجل شهم عليه أن يتحمل شاء أم أبى هذا العبء من الناس بالإضافة إلى ذلك يجب أن ينطلق رسول وفي الحال إلى الرَّي لإعلامه بكل ما ينتظره:

عليه أن يُعِدَّ بالسرعة القصوى المؤن التي ستحملها القافلة في عودتها، وأن يرسل إلينا على الفور، بكل الجيش الذي يستطيع أن يضعه تحت

تصرُّفنا، ليُباشَرْ بشدِّ رحال النساء والأطفال، كي نكسب الوقت وأنت ما الذي تنوي أن تفعله أيها الصديق أبو الفاضل اللولمباني؟

نظر إلى الرَّيِّس وابتسم ابتسامة خفية.

ـ سأهرب في نفس اليوم الذي تهرب فيه قافلة عبدالملك أجاب الحاكم السابق ـ لا أريد أن أقع من أجل أي شيء في العالم في هذا الفخ، عندما سينقض عليكم جيش السلطان. نصائحي ونصائح موتسوفر لم تأتِ بشيء. لقد قمت بواجبي، لم يبقَ عليَّ إلاَّ أن أفرَّ سريعاً، حيث لا يزال أمامي متسع من الوقت من أجل ذلك.

ـ قرارك راقَ لي بشكل مذهل ـ قال حسن ضاحكاً ـ مرافقتك ستكفي لحماية القافلة، كما أن عبدالملك سيكتفي باصطحاب حفنة من الرجال. وليمدَّنا موتسوفر من أجل العودة ببعض من رجاله. هذا كاف. اعتمد عليه أيضاً بأنه سيولي هذا الحشد اللطيف من حريمنا عنايته.

ـ ثم خاطب أبا علي من جديد:

ـ لينطلق رسول فوراً إلى رودبار ينقل إلى بوزروق أوميد أمراً بالمجيء كي يبلغنا بكل الأمور المنقطعة عن آلموت.

أتأسف أن تكون خوزستان بعيدة بحيث إن حسين القيني لن يتمكن من قطع مسافة الطريق خلال الوقت الذي تبقى لنا. إنَّما لا بدَّ من إعلامه هو أيضاً. أموراً في الواقع ستجري هنا وستدهش أجيال المستقبل...

تائهٌ في أفكاره، كان يوحي بأن نوعاً من الضحك، يسري داخله. بعد صمت قصير خاطب الريِّس:

ـ يبدو لي أنك ما زلت تحسبني مُغَفَّلاً أيام أصفهان الغابرة. لأنك ترى جيشاً من ثلاثين ألف رجل، يسير إلينا، نحن الذين لسنا إلاَّ قلَّة قليلة، لكنك لا ترى الملائكة المتأهبة لتهب إلى نصرتنا، تحيطنا بعنايتها كما أحاطت قديماً النبي وآله في موقعة بدر.

ـ أنت تمزح، ما زلت تمزح! أجاب أبو الفاضل بابتسامة غليظة. كان يحس بالإهانة قليلاً، إذ إن حسناً ما زال يسعى إلى السخرية حتى في مثل هذه الظروف.

ـ لا، إني لا أمزح أبداً يا صديقي العزيز، قال حسن بحبور، لنقل إنني أعبر بأسلوب مجازي ـ قلت لك ذلك ـ سأحضر لك مفاجأة، لن تجعلك تصدق عينيك ولا أذنيك. سأريك أية معجزة يمكن أن يخلقها الإيمان!

ثم تابع إملاء تعليماته على أبي علي. وختم من أجل أبي علي:

ـ أخبر كل واحد بالأعمال التي كلفته بها. واختر أنت بنفسك الرُسُل، وحرِّر نصوص القرارات بسرعة. عليهم أن ينطلقوا حالاً. ليصطحب عبدالملك بنتيَّ قبل أن يمضي في الطريق، عندما ستنتهي، ستجمع الجيش، وستبلغ الرِّجال أن السلطان يعلن الحرب علينا. ستوعز إلى التلاميذ بأن امتحانهم سيبدأ غداً ومنذ الصباح الباكر.

أظن انهم سيتلقون ذلك بوجه بشوش: هدِّدهم عند الحاجة، برفض رسامتهم، إن هم استسلموا لفتور العزيمة. ستجمعهم في نفس قاعة الصلاة وستنذرهم فدائيين: لتكن هذه اللحظة، اللحظة الأندر والأبهى التي يمكن أن يعيشوها في هذا الوجود... كل هذا حسب النمط الذي أتيح لنا أن نعرفه في القاهرة... هل أوضحت؟

ـ كل شيء واضح تماماً بالنسبة لي يا ابن الصباح.

صرف حسن العجوزين، وتمدَّد على أرائكه إثر ذلك، مفكراً بالقرارات التي اتخذها لتوه. عندما أيقن بأنه لم يكن قد نسي شيئاً مهماً غفا على أكبر ارتياح في الوجود.

كان الجيش لا يزال ينتظر تحت الشمس الحارقة في الفناء، استطاع الرجال أن يلمحوا رؤساءهم يدخلون إلى مسكن الزعيم الأعلى، لم

يخرجوا من هناك إلا بعد وقت طويل. وقد صعب على الجنود أن يسيطروا على تلهفهم.

كان التلاميذ ـ من جهتهم ـ وقوفاً في رتلين أمام ثكنتهم، منتصبين كأشجار الحور، يحدِّقون أمامهم. وشرف اختيارهم لاستقبال واحد من أصحاب المكانة العالية، أكسبهم الاعتزاز أيضاً. إنمّا كان يشقُّ كثيراً عليهم كبح نفاد صبرهم.

كان سليمان أول من قطع الصمت.

ـ بودي أن أعرف فعلاً، ماذا يطبخون على مهل. ليتنا ننتهي إلى حل مع هذا التعليم الملعون...

ـ يبدو لي أنك تريد للحيتك أن تطوْلَ قبل أن ينبت في وجهك الزغب ـ قال يوسف ساخراً ـ.

ضحكٌ تخلَّل الصفوف.

ـ أشعر من جهتي، أردف سليمان، بأنك تخشى أن يسيل الشحم من بطنك، أليس هذا ما تخشاه عندما ستسمع قرع الطبل وعجيج البوق؟

ـ لديَّ فضول فقط لأن أعرف من سيكون الأول في مواجهة العدو.

ـ تستطيع على كل حال العَدْوَ على ساقيك الطويلتين، إنَّما سيكون عليك أن تكتفي بتأمل ظهورنا في اللحظة الحاسمة...

ـ توقَّفا عن الشِّجار ـ تدخل ابن طاهر ـ إذ إنكما لم تحضرا الدُّب من ذيله بعد...

ـ ليتني أتحول إلى ذبابة، لأستطيع أن أصغي إلى ما يرويه الزعماء ـ فكَّر عبيدة ـ.

ـ ستتمنى أيضاً أن تتحول إلى ذبابة، عندما سيكشف العدو عن نفسه. قال سليمان ساخراً.

ـ لو كان لسان لاذع يكفي لدحر العدو لكنت في الواقع أول الأبطال. قال عبيدة هازئاً ـ ولتزعزع عرش إيران من جذره.

ـ وأنا أعرف واحداً يدعى عبيدة، سيتزعزع أمام قبضتي في يوم قريب. هدَّده سليمان.

مرَّ أبونا العريف راكضاً. وألقى عليهم أثناء مروره بصوت خافت:

ـ يبدو أن الأمر سيُصْلَى، يا صغاري الغلمان. جيوش السلطان تسير نحونا.

صمتوا. وقد أحسُّوا من أعماقهم بكآبة مبهمة سرعان ما استحالت تدريجياً إلى حماسة وإلى فرح همجي.

ـ أخيراً! في نهاية المطاف!... هتف سليمان وقد شعروا فعلاً بأنها صرخة حماسة.

ـ نظروا إلى بعضهم بعضاً، عيونهم ووجناتهم كانت ملتهبة. ثغر الواحد أو الآخر كان يفترُّ عن ابتسامة بين الحين والحين، حلق بهم الخيال: وأخذت تتراءى لهم آفاق الأعمال البطولية... قاموا بالأفعال المستحيلة... زُيِّنوا بالغار... بلغوا الخلود.

ـ تباً، انتهى هذا الانتظار أخيراً! انفجر سليمان الذي لم يكن يقرُّ له قرار، على الأقل ليوجهوا إلينا الأمر بامتطاء خيولنا لمقاتلة الهراطقة!...

اجتاز أبونا الفناء مصحوباً برجُلَيْن، وهم يمسكون بثلاث دواب من أرسانها:

فرسان سوداوان، وحصان أبي علي الصغير، همس أحدهم.

ـ سيتكلم سيدنا.

همسٌ تخلَّل الصفوف.

ـ ماذا؟ من سيتكلم؟

ـ سيدنا.

ـ من قال هذا؟ الحصان الأبيض هو حصان أبي علي، واحد من ذينك الحصانين للقائد العسكري.

ـ لمن الثالث؟

أمام مدخل القصر، تسمر الخفير في مكانه وهو يحمل سلاحه. الداعية الكبير وباقي الزعماء خرجوا من المبنى. وأبو علي، والقائد العسكري، والداعية إبراهيم يمتطون الخيول التي أعِدَّتْ لهم. وراح باقي الزعماء يلتحقون بسريّاتهم. كل واحد منهم تمركز أمام رجاله، وطُلِبَ منهم عندئذ الالتفات نحو قصر الزعيم.

تقدم أبو علي ومرافقاه على مطاياهم حتى حافة الشرفة العليا، ثم رفع داعي الدُّعاة يده مشيراً إلى أنه يطلب الصمت... وصمت مطبق خيَّم في الحال على الباحتين السفليتين، نهز قليلاً على مهمازيه، وصرخ بصوت قوي:

ـ أيها المؤمنون الإسماعيليون! باسم سيدنا وزعيمنا الأعلى! ساعة القرار والامتحان قد أزفت. بسلاحكم الذي تحملون بأيديكم، ستثبتون تفانيكم، والحب الذي تكنونه إلى الشهداء والمقدسين وعليٌّ دليلنا. جلاده ابن الكلب أرسلان تاش، يسير وبأمر من السلطان ضدنا نحن المؤمنين المستقيمين، على رأس جيش كبير ينوي إبادتنا. بعد بضعة أيام ستعج أبواق فرقة فرسانه أمام آلموت، وعلم الكلب العباسي سيرفرف قبالة قلعتنا. لذا فإني آمر باسم سيدنا، بألاَّ يفارق أي واحد منكم سلاحه لا في الليل ولا في النهار.

من سيخرق الأمر بعد ذلك، سيعتبر متمرداً وسيحكم عليه بالموت، عندما سيناديكم صوت البوق، سيكون عليكم أن تتواجدوا في الوقت المحدد، في ساحة تجمعكم... رؤساؤكم سيقدمون إليكم أوامر مفصلة... رجع إلى الخلف ونظر باتجاه التلاميذ وإليهم توجه الآن بالخطاب:

ـ يا من أنتم جاهزون للتضحية بالنفس، أصغوا إلى أمر سيدكم! أنتم مدعوون من الغد إلى الامتحان، من سيقدمه بنجاح، ستنذر روحه عند المساء، أقدم لكم هذا النداء: استعدوا روحياً، لأن لحظة النذر ستكون بالنسبة لكل واحد منكم تتويجاً للحياة.

ثم التفت من جديد نحو سواد الجيش، وصدى صوته يجوب المكان بأسره.

ـ أيها المجاهدون في سبيل القضية الإسماعيلية!

تذكروا كلمات النبي. قاتلوا كالآساد، لأن الحذر لا ينجي من القدر!

لا إله إلاّ الله، محمد نبيه! أدركنا أيها المهدي!...

زوبعة من الاضطراب سرت بين التلاميذ، كما لو أن صاعقة نزلت عليهم. يوم الامتحان صار أمامهم... واحد لم يتهيأ فعلاً. شاحبين، عادوا إلى غرفهم، وكل واحد يرقب الآخر بطرف عينه.

ـ الآن، هتف سليمان ـ نحن لا نعلم شيئاً، فإن أفضل ما يمكن لنا أن نقوم به، هو أن نعلن أنفسنا جنوداً بسطاء.

ـ نعم، هذا ما سنسمي به أنفسنا، وليفعلوا بعد ذلك ما يريدون، قال عبيدة مؤيداً.

كان يوسف أجبنهم جميعاً، ينتظر وهو يمسح العرق الذي تصبب من جبينه دون توقف، يأمل منتظراً بأن تلمع بارقة أمل في الهدنة.

ـ هل سيكون هذا شديد الرهبة؟ سأل بهيئة مرتبكة؟

ستهوي من طولك. قال سليمان وهو يضحك بتهكم.

تنهد يوسف بأسى وغطى وجهه بيديه.

ـ ليكن ماذا علينا أن نعمل الآن؟ سأل نعيم.

ـ ألق بنفسك في شاه رود ـ هذا أفضل شيء تقوم به ـ قال سليمان ساخراً.

أخذ ابن طاهر الحديث عندئذ:

ـ هيَّا، هيَّا يا أصدقائي! هل تظنون بأن سيدنا قد اختارنا، كتلاميذ كي ينحدر بنا بعد ذلك إلى طبقة الجنود البسطاء؟ ها نحن قد تعلمنا مع ذلك شيئين أو ثلاثة من الأمور البسيطة. . . سأنصرف أنا لأنكبَّ على مدوَّناتي، محاولاً أن أراجع قليلاً في هذه النصوص. . . واقترح عليكم أن تحذوا حذوي.

ـ حسن، وجهنا إذاً، أقرئنا قليلاً! قالوا وهم يعربون عن موافقتهم.

دعاهم ابن طاهر ليلتحقوا به على الشرفة. جلسوا على الأرض، ألواحهم ومدوناتهم في أيديهم، وابن طاهر يطرح عليهم الأسئلة، محاولاً أن يبذل كل جهده، ليوضح لهم ما لم يفهموه جيداً. وبذلك، أخذ قلقهم يهدأ شيئاً فشيئاً. ورعشة كانت تنتاب الواحد تلو الثاني من وقت إلى آخر، وهو يفكِّر باليوم الذي ينتظره، كلهم كانوا يشعرون، وبشكل مسبق بشعور من الكآبة الصمَّاء، فجأة لم يعد أحد يفكر بالعدو الذي كان يقترب في الجهة الأخرى من الشرفة السفلية، صف من أشجار الحور والسرو الكثيف يخفي على يسار البناء، مبنى الحريم المجاور لبرج الحمام. انقض عبدالملك كالنسر وسط الأطفال والنساء، وأمرهم أن يستعدوا إلى رحيل فوري.

صراخ وعويل ونحيب، وحركات مضطربة تلت أمره. كان الحراس الخصيان يشهدون كل ذلك دون اكتراث، حتى اللحظة التي استعجلهم فيها الداعية كي يقوموا بترحيل النساء. أثناء ذلك. كان عشرات الجمالة امتطوا البغال والجمال وأمام المبنى، جاء الضباط والدُّعاة أخيراً كي يودعوا زوجاتهم وأطفالهم. كان لأبي سراقة زوجتان في القلعة الأولى امرأة لها نفس عمره، عجوز ودرداء، أنجبت له بنتين زوَّجَهما في نيسابور، وكان الداعية متعلقاً بها منذ شبابه: كان بحاجة إليها حاجة الطفل إلى أمه، والثانية أصغر سناً، وله منها بنت وولد يربيهما في حرمه مع بنتي حسن.

أحبَّ هذه المرأة أيضاً حباً عطوفاً، الآن وهي ترحل، أحسَّ فجأة إلى أية درجة ستترك عنده فراغاً. شقَّ عليه كثيراً أن يتغلب على عاطفته... إنما لم يجد من اللائق أن يترك مجالاً لمشاعره تبدو للعيان...

أمّا الحكيم، فقد اتخذ لنفسه زوجة من امرأة مصرية، اصطحبها معه من القاهرة. لم تنجب له أولاداً، وأشيع بين الحريم، بأنها كانت بغياً قبل زواجها. كان الحكيم يتلذذ بأن يذكر أمام الغرباء الحسن العجيب الذي ما زالت زوجته تحافظ عليه. كان يتأفف أيضاً من استعبادها له ومن السلطة التي تمارسها عليه. إذ لم يكن يفتْهُ في كل مرة كانت تمر قافلة فيها بالقلعة من أن يهرع ليشتري لها هدية آملاً أن يوفر لها شيئاً من السعادة. حبشية عجوز كانت تقوم على خدمة هذه السيدة الجميلة في كل أعمال منزلها. فلم يكن لديها ما تفعله، سوى أن تتمرغ على أرائكها، أن تتبرَّج، وأن ترتدي الحرير، وتستغرق في أحلامها طوال النهار...

أمّا القائد العسكري مينوتشرشر الذي لم يكن لديه في القلعة، إلاَّ زوجة واحدة، عهد إليها برعاية أطفاله الثلاثة من زوجتيه السابقتين، قد اكتفى بأن ودَّع آله وداعاً سريعاً. إذ خشي أن يبدو عليه التأثر إن تأخر أكثر مما ينبغي.

وهكذا. استأذن الرجال أسرهم المتجمعة في الساحة، وعادوا إلى واجباتهم كرجال. اغتنم أبو سراقة والحكيم الفرصة كي يتبادلا بضع كلمات.

ـ تبدو لنا القلعة الآن خاوية ـ قال الأول متنهداً.

ـ عليَّ أن أمتدح الفلسفات التي أكَّدت أن المتعة التي تحصل عليها من المرأة، والمأكل والمشرب، لا تزال هي الخير الوحيد الذي يستحق الجدَّ في طلبه في هذه الحياة. أضاف الإغريقي.

ـ مع ذلك فزعماؤنا الأعلون يستغنون عنها.

بدرت من الإغريقي برطمة ساخرة.

ـ أنت تتحدث عن ذلك وكأنك تلميذ غرٌ.

ماذا تحسب أسيادنا يخبئون هناك خلف رياض هذه القلعة؟ قطيع من القطط الصغيرة ربَّما؟ قل لغيري، قل لغيري! أضف إلى أنهم سيكونون أغبياء جداً لو لم يتعاطوا ذلك بإفراط. أما نحن، فلم نعرف بالتأكيد طعم تلك الإوزات السمينة التي يربونها هناك بعيداً عن الأنظار.

ـ كلا أنا لا أشاطرك الرأي في هذا ـ ختم قوله ـ أنا أشتبه بأن أشياء جمَّة تحضَّر، خلف ذاك الجدار. . . وعلى الرغم من كل شيء، أبقى مقتنعاً أن كل هذا ليس من أجل تسليتهم، إنمَّا من أجل خيرنا جميعاً. . .

ـ لك الخيار بألا تشاطرني الرأي ـ أجاب الحكيم ـ وقد بانت عليه لذعة الإخفاق لكنني سأريك أن السيد يستبقي لنفسه دائماً النصيب الطيب.

ـ آه! كدتُ أنسى شيئاً ـ قال الرَّيس أبو الفاضل ـ عند المساء، في الوقت الذي كان يستأذن فيه حَسَناً من أجل الانصراف. وتابع بعد أن قام بغمزة عين خبيثة. . . نعم! أحضرت لك في الحقيقة هدية على طريقتي، لكن اطمئن، هي ليست هذه المرة دواء ضد الجنون، ربَّما في هذا ما يسعدك حتى. ألم تحزر؟

علت ثغر حسن ابتسامة حائرة. ألقى بنظرة نحو الرَّيِّس، ثم نحو أبي علي الذي كان ينتصب واقفاً على انفراد.

ـ فعلاً لم أحزر.

ـ حسنٌ لنقل إنك ربَّما تفكر بهذه الهدية قبل أن تعرفها. أعلن الرَّيسُ المشاكس. أنت واسع الثراء، تحتقر المجوهرات، أمَّا من جهة ما يجذبك، فأنت قليل التطلب إلاَّ لشيء. . . هل حزرت الآن؟

ـ ربمَّا تكون أحضرت لي كتاباً ما؟

ـ أصبت، يا صديقي حسن، هو فعلاً مؤلف. لكن لمن؟

ـ كيف أستطيع أن أحزر ذلك؟ لكاتب قديم ربَّما؟ لابن سينا؟ لا؟

ـ إذاً لواحد من المعاصرين الجدد؟ أليس كذلك يا أبا فاضل؟

ـ لا فعلاً، لم أحبِّذ أن أحضر لك هذا ـ قال الرَّيِّس مازحاً. إذاً لا بد من أنه شائك بعض الشيء بالنسبة إليك... ما اخترته لك هو طبعاً الأكثر قرباً منك.

ـ بالله، لم أعرف من تقصد.

ابتسم أبو علي وجازف بسؤال:

ـ أستطيع أن أجرب أنا بدوري؟

ـ أنا فضولي: هيا جرِّب حظك ـ أَذَنَ له حسن الذي تنحَّى ـ.

ـ أراهن على أن الريِّس قد أحضر لك شيئاً من مؤلفات صديقك القديم عمر الخيام!

ـ انفجر الحاكم السابق في ضحك رنَّان، لكأنه على ذلك توكيد.

ـ كيف لم أفكِّر بذلك! صرخ حسن وهو يضع يده على جبينه.

ـ اخترت لك أربع قصائد، نسخها واحد من أصدقائي في نيسابور. لقد أخذها من فم الخيام مباشرة... أظنك ستسعد بها.

ـ لا يمكن لك أن تتخيل هدية في العالم أفضل منها! شكره حسن ـ أنا ممنون لكَ جداً على هذه اللفتة.

أخرج أبو الفاضل من تحت جلبابه مغلَّفاً، ناوله إلى صديقه.

فتحه حسن وقرأ. عندما رفع عينيه، استرسل في شرود مذهول...

ـ كم هذا غريب! قال بعد لحظة، هاأنذا أتلقى في نفس اليوم بالضبط أخباراً عن زميليَّ القديمين: نظام وخيام...

أعلن الخصيُّ عن قدوم عبد الملك وابنتي حسن إلى غرفة الانتظار.

ـ إمضِ الآن أيها الصديق العزيز، قال حسن في الختام ـ وهو يحتضن

بذراعه كتفي الرَّيِّس، لتُحِطْ نساءنا وأطفالنا برعايتك. ربما احتجتَ يوماً إلى شيء. تذكرني، وأعلم أنني مدين إليك بالفضل.

على ذلك، أومأ لأبي علي، فغادره العجوزان.

سحب عبدالملك الستارة، فتقدمت ابنتا حسن، خديجة وفاطمة، متخوفتين جداً. وقفتا خلف الجدار. بالقرب من الباب تماماً، بينما تقدم الداعية بسير مطمئن باتجاه الزعيم الأعلى.

ـ جئت إليك بابنتيك، يا سيدنا.

أحاطِ حسن البنتين بنظرة عميقة.

ـ ما لكما تمكثان مسمرتين هنا كدجاجتين مذعورتين! اقتربا! خاطبهما معنِّفاً. أرسلتكما أمكما لتثيرا لواعجي حتى أتذكرها، هي تعلم أنني لا أستطيع أن أكظم ألمي عندما أراكما!... ليكن!

هاأنذا أستقبلكما إذاً بما يمليه عليَّ واجبي كأب.

الآن. يكفي، ستذهبان للَّحاق بباقي الحريم في الرَّي حيث سيعهد بكنَّ إلى رعاية موتسوفر.

ثم التفت نحو عبدالملك.

ستقول لموتسوفر فعلاً، بألاً يعطيهما حصة من الطعام، إلاَّ بما يتناسب مع ما تعملان... وألاَّ يأخذ باعتباره انهما ابنتاي! وإذا لم تكونا طيعتين فإنه يستطيع أن يبيعهما كأمتين ليأخذ لقاء نفقاته نصف السعر الذي يمكن أن يحصل عليه. وليرسل لي الباقي. هيا لنسرع: إلى الصلاة ومن ثم إلى المسير.

فرَّت البنتان كفأرتين. بينما تمسك حسن لحظة أخرى بعبدالملك.

سيعرف موتسوفر كيف يعاملهما. إنه رجل حكيم ولديه الكثير من الأطفال.

كانت الصغيرتان تنتظران عودة الداعية عند باب المدخل وهما تجهشان بالبكاء.

ـ مع ذلك فإن له وجهاً جميلاً جداً... قالت الصغرى مندهشة.

ـ إنما لماذا لا يحبنا؟ قالت الكبرى متنهدة وهي تذرف الدموع.

أخذهما عبدالملك خارج البرج.

ـ لا تخافا شيئاً، أيتها السمانيتان الصغيرتان، قال لهما ليواسيهما ـ إن موتسوفر رجل طيب القلب، بناته لن يبتغين إلاَّ اللعب والتسلية معكما... هيا، ليس لديكما ما يدعوكما إلى التذمر.

الفصل السادس

أحضر الطبَّاخ العشاء، لكن حسناً لم يكن قد انتبه إلى ذلك. مستغرقاً في أفكاره سحب المشعل عن حاملة المثبت بالجدار، وقرَّبه من لهيب مصباحه وبحركة اعتيادية وحذرة، أزاح الستارة التي كانت بمثابة باب، والتي كان من الممكن لها أن تضطرم بالنار، ومضى في الممر الضيق، حيث يصعد سُلَّم في نهايته حتى شرفة البرج. أمسك بالشعلة ورفعها قليلاً إلى الأعلى، كي يستطيع أن يستضيء جيداً، نفذ إلى المصطبة تنشَّق الهواء النقي البارد، اقترب من الحواجز، رفع الشعلة المضطرمة، ولوَّح بها ثلاث مرات فوق رأسه.

إشارة مماثلة اشتعلت قريباً في ظلمات الأسفل. لوَّح مرة أخرى بشعلته كإشارة إلى الاتفاق. ثم عاد إلى غرفته أطفأ الشعلة وهو يغرسها في مطفأة واسعة، صنعت خصيصاً من أجل هذا، وعلى ذلك، تدثر بحذر في معطف فضفاض، أزاح سجادة أخرى عن الحائط المقابل هذه المرة، ومن خلال باب ضيق، دخل غرفة ضيقة تشابه كهفاً، لا بد لهم من أن يكونوا قد اعتنوا كثيراً بسد شقوقها باللباد الطري. تناول من الأرض مطرقة ثقيلة، وضرب بها على صنجة معدنية برَّاقة: الصوت الحاد الذي أدى إلى اهتزاز حبل سرِّيٍّ، نُقل مباشرة إلى أسفل البرج. أخذت الزنزانة تتحرك، وتهبط حاملة حسناً فيها. كرافعة أُعِدت بحذاقة، تديرها من الأسفل أيد خفية. طريق الهبوط كان طويلاً، وغمٌّ كان يضيّق على حسن أثناء كل واحد من هذه الأسفار الجوية.

ـ ماذا يحصل، لو قطعة من تلك الآلة انقطعت، أو لو انفصم الحبل دافعاً إياه والمسطحة الضيقة على الصخور التي يرتكز عليها البرج؟ ماذا كان يحصل لو أن زنجياً ممن يثق بهم كثيراً، راودته الرغبة بأن يعطل الجهاز عمداً كي يودي به إلى الموت؟ من الممكن جداً لواحد من هؤلاء الرجال الذين انتزعت رجولتهم اصطناعياً وبعنف أن يسعى وهو في ثورة غضب متوحشة إلى الثأر لكرامته المجروحة، من أن يوقع برأس سيده ضربة قاضية بسلاحه. أجل كان يمكن لهؤلاء الخفراء المهيبين الذين روَّضهم كما لو كانوا بهائم متوحشة، وسحرهم كأفاعٍ يعزفون لها بالمزمار، أن تثور ثائرتهم. لقد عمل كل شيء كي يمتلك ثقتهم. فهم لا يمتثلون لأحد آخر في العالم سواه، كان لا بدَّ لمن يمرَّ أمامهم من أن يرتجف. حتى أبي علي، لم يكن يستطيع أن يدرأ رعشة مبهمة قلقة، عندما كان يلتقيهم في طريقه. كانوا السلاح الأعمى الذي بفضله كان يوهم أشرس الدعاة والزعماء، وبوساطتهم يمارس من علٍ ضغطه الرهيب على تابعيه. ولكي يخضعهم من ناحية أخرى، من الأسفل هذه المرة، كي يضعهم بين فكّي كمَّاشة، سيكون عنده قريباً فدائيوه! . لم يكن يَجدُّ لأن ينخدع بشيء: الدعاة والزعماء لا يؤمنون بشيء. ومعظمهم لا يسعون إلا وراء مصلحتهم الشخصية. . . ولم يكن يتورع عن مقارنة هذه الآلة البشرية بالرافعة التي كانت تساعده على التحرك من أعلى برجه إلى أسفله، كما لو كان في بئر، لو أن فرضية واحدة كانت مغلوطة لكان في هذا تحطم الحمَّالة، غلطة واحدة في الحساب، كافية لأن تمحو من الوجود صنيع حياته.

توقفت الآلة لتوها: أعيدت المسطحة إلى قاعدة البرج، والزنجي الذي كان يدير الرَّافعة أزاح الستارة، دلف حسن في ممر بارد، وحيث نفثات ريح لا يمكن إدراكها كانت تجعل لهيب المشاعل تهتز، كعصافير مجفلة. عندما التفت نحو الخصي، الذي كان يتبعه حدَّق فيه بنظرة عميقة، وأحسَّ بنفسه هادئاً من جديد، هادئاً تماماً.

ـ أخفض الجسر. أمر بخشونة.

ـ أمرك، يا سيدنا.

قبض الخصي بالرَّافعة الضخمة، واستند عليها بقوة. بدأ أحد الجدران يتحرك، وسمع خرير مياه. بعد ذلك بقليل بدا لمعان النجوم من خلال فتحة ضيقة، ثم استبانت فسحة واسعة من السماء. كان الجسر يهتز ببطء فوق النهر. رجل مزوَّدٌ بمشعل كان ينتظره في الجهة الأخرى هرع حسنٌ إليه ورفع الجسر خلفهما، مرتجاً المنفذ الضيق وعادت القلعة إلى حالتها، كمكان مغلق بإحكام.

ـ هل من جديد يا عدي؟

ـ كل شيء على ما يرام يا سيدنا.

ـ ستأتي مريم إلى السرادق الموجود على اليسار، سأنتظرها هناك، ثم ستذهب لتحضر أبَّاما، وتأخذها إلى السرادق الأيمن، إنَّما سكوت من الواحدة عن الأخرى!

ـ تحت أمرك يا سيدنا.

تبادل الرجلان ابتسامة خاطفة. ومشيا حتى وصلا ما يشبه قطاع شلالين، حيث كان يرسو أحد المراكب. أخذا مكانهما فيه، ومكث عدي خلف مجدافيه، سلكا مجرىً مائياً، واقتربا بعد قليل من ضفة رملية. ممر منحدر كان يرقى السفح المنتصب. في هذا المكان ذي الأشجار الجميلة والأدغال المزهرة: في الأعلى: سرادق زجاجي كان يلمع في الليل. مثلما تلمع قلعة صنعت من الزجاج.

فتح عدي الباب، وأسرع لإشعال الراتنج في المصابيح المنسقة في زوايا الحجرة الأربع، والكثير من الانعكاسات كانت تشع على سطح الحوض الدائري الذي يشغل وسط السرادق. فتح حسن الصنبور، ونافورة قوية رشقت بحزمتها السائلة حتى السقف.

لا أريد تبذير وقتي بالانتظار ـ قال سيد المكان ـ وهو يتخذ مكانه على الأرائك المرتبة خلف الجدار. اركض بسرعة، وأحضر مريم، على هذا، ترك أفكاره تسترسل في خرير المياه الجميل، مما زاد وجده بحيث لم يلحظ دخول الشابة.

ـ السلام عليك يا حفيد صباح، حيَّته.

ـ ارتعش، وهو بالغ السرور، مشيراً إليها أن تقترب.

وضعت على الأرض سلَّة كبيرة مليئة بالمآكل والمشاريب، فكَّت أزرار معطفها، فانزلق عن كتفيها. وجلست أمامه جاثية على ركبتيها. بادرت إلى تقبيل يده، لكنه سحبها بلذعة من الارتباك.

ـ كيف يسير تقدم الصبايا؟

ـ بحسب توجيهاتك يا ابن الصباح.

ـ حسن لكن وقت المدرسة انتهى... فالسلطان أرسل بجيشه إلينا، بضعة أيام وسيخيم عند أسوار قلعتنا.

فتحت مريم عينيها، ولكنها استطاعت أن ترى ثغر حسن يفترُّ عن ابتسامة خفية.

ـ وأنت هادئ جداً؟

ـ ماذا بإمكاننا أن نفعل غير ذلك؟

سيحصل ما له أن يحصل، لا أجد أيضاً أي سبب يمنعك من أن تقدمي لي شيئاً من هذا الخمر الذي أحضرته.

نهضت، وأحضرت كوبين، لم تكن ترتدي إلاَّ قميصاً من الحرير الوردي كانت تنام به. تأملها حسن. شابة صغيرة، ويدان بيضاوان شفافتان ضمن الضوء سكبت الخمرة من الجرة في الكأسين. إنها الكمال بذاته.

كظم حسن زفراته المتألمة، التي أحسَّ بها فجأة تجوش في صدره، كان يعلم أنه صار عجوزاً. وكل ما على هذه الأرض جاء متأخراً جداً.

قدمت له كأساً، وشرب كل منهما نخب الآخر.

وللحظة لمحت نظرة ندية في عيني هذا الرجل القاسي. خمَّنت معناها الخفي. ثم عادت الإبتسامة الساخرة المعتادة لترتسم على شفتي حسن...

ـ آن الأوان لك، كي تتساءلي ـ قال لها ـ عمَّا يمكن لهذه الحدائق الرائعة أن تمنحني، ولهذه السرداقات المصنوعة من الزجاج، وعمَّ أنوي القيام به تماماً، بشأن تلك الصبايا اللواتي أمرت بتثقيفهن بطريقة... احم! خاصة للغاية. لم تسأليني شيئاً على الإطلاق بهذا الخصوص، وصدقي أنني أقدر فعلاً تحفظك هذا.

وبيديها، أمسكت مريم بيد الرجل اليمنى، كان يفيض بالرقة بقدر ما يمتلك من قوة، وراحت نظرتها تبحث عن عينيه ثم قالت له:

ـ إن كنت لم أسألك يا حفيد الصباح، فهذا في الواقع لأنني كنت أتوقع نياتك.

ـ إن كنتِ حزرتِ، فلسوف أعطيك مملكتي، قال ابن الصباح هذه الجملة، وقد بطّنها بابتسامة ساخرة وعطوف.

ـ وإن كان حذري في محله؟

ـ قولي فقط.

ـ أما وقفت هذه الرياض لمؤمنيك، كأكبر مكافأة لهم على إخلاصهم وغيريَّتهم؟

ـ لم تصيبي تماماً.

ـ كنت أحدث نفسي بذلك. لكنني لم أكن أعلم شيئاً آخر.

كانت مريم قلقة مما فوّت على حسن أن يلهو معها سرّاً.

ـ لقد تذمّرت مرة ـ تذكرين؟ من ضجرك الرهيب تحت الشمس. من أنك لم تعودي تبالين بشيء. من أنك لم تعودي تجدين متعتك بشيء. أخذتُ حينئذ أوضح لك الفلسفات الإغريقية، وفلسفاتنا الخاصة، وأطلعك

على علوم الطبيعة، عن رغبات الإنسان المتقلبة، عن النوابض المخبأة وراء أفعاله، بذلت ما بوسعي لأشرح لك عن أجزاء الكون، حدثتك عن أسفاري، عن مآثري الفائتة، حدَّثتك عن الأمراء، عن شاهات الأزمنة الغابرة، عن السلاطين والخلفاء، وكنت أضيف دائماً بأنه لا يزال لدي الكثير مما سأقوله لك.

إنمَّا لم يكن الأوان قد آن من أجل هذا. ذات مرة سألتك، فيما إذا كنت مستعدة للإطاحة بالسلطان ملك شاه!

ابتسمت وأجبتني: «لم لا؟»، مددت لك يدي إشارة إلى استحساني موافقتك ربَّما كنت تحسبينني أمزح. أنا آتٍ هذا المساء لأذكرك بالاقتراح.

رمقته مريم بنظرة مستفهمه، لم تكن تعلم ما كان ينبغي عليها أن تفهمه من تلك الكلمات الغريبة.

ـ كنت أريد لفت انتباهك إلى الوجه الآخر للأشياء يا عزيزتي. طالما صرَّحت لي، بأنه لم يكن من الممكن بعد كل ما عشته في شبابك، أن تعتقدي بعد بشيء. وأنا أجبتك بأن وجوداً شاسعاً مكرَّساً للبحث عن المعرفة قد أدى بي إلى نفس النتيجة. وبناء عليه سألتك: ما المسموح بفعله بالنسبة لإنسان اكتشف بأن الحقيقة شيء متعذر البلوغ، من حيث مبدأها، هي ممَّا لا يمكن له أن يكون موجوداً بالنسبة له؟ هل تتذكرين ما أجبتني به؟

ـ تماماً يا ابن الصباح. أجبتك بهذا على وجه التقريب: ذاك الذي اكتشف أن ما يسميه الإنسان سعادة، حبًّا، متعة، ليس إلاَّ مجموعة من الحسابات الخاطئة، مبنية على فرضيات مغلوطة، لن يجد في قلبه إلاّ خواء رهيباً. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يوقظه من هذا الذهول هو المجازفة بمصيره ومصير الآخرين، ولذاك الذي يكون قادراً على هذا، يكون كل شيء مباحاً.

ـ حسن يا عزيزتي، إني أشاطرك الرأي هذه الليلة. إمكانية المجازفة بمصيركِ ـ صفّر حسن بجذل ـ وبمصائر الآخرين. . . هل أنت راضية؟

حدَّقت مريم في أعماق عينيه، وبعد لحظة خاطفة من الذهول:

ـ هل تحاول أن تطرح عليَّ لغزاً؟

ـ لا، أحضرت لك فقط بعض قصائد لعمر الخيام، أردت أن تقرأيها، شاء القدر أن يذكرني هذا الصديق القديم هذا المساء بهذا التذكار تحديداً، كما لو كان الأمر متعمَّداً، ريِّس أصفهان ـ هذا الذي حدثتك بأنه كان يحسبنني مجنوناً، أهداني اليوم شيئاً من أشعاره، وهو نفسه المبعوث الذي أخبرني بأننا سنستقبل زيارة العدو.

فتح المغلف وناول الأوراق إلى مريم.

ـ أنت تفكِّر دائماً بإسعادي قالت له شاكرة ـ

ـ لا، لا، أريد فقط أن أوفر لنفسي المتعة في سماع صوتكِ، أنت تعلمين بأن فطرتي لم تجبل على هذا النوع من المهارات.

ـ عليَّ أن أقرأ إذاً؟

أسندت رأسها على ركبة الرجل العجوز وقرأت:

أنت ثمل، أنت عاشق؟ متِّع نفسك.

المداعبات والخمرة تودي بك؟ لا تندم على ذلك.

ماذا سيحصل لنا بعد؟ لا تبالِ أبداً بذلك.

ما تكون؟ شيء لن تعرفه إطلاقاً. . . إذاً بصحتك!

ـ كم في هذا من الحكمة ـ قال حسن متنهداً عندما انتهت.

طالما نحن نحيا، فإننا جميعاً نولي كل تفكيرنا إلى المستقبل، ولذا يهرب الحاضر منا دائماً. في أربعة أبياتٍ ألقى نظرة إجمالية على العالم. استمري لا أريد أن أقاطعك بعد. تابعت مريم:

جيوش النهار تطرد الليل.

انهض، فالوقت وقت الخمرة والقبل.

حان وقت نشر نراجس حلم آخر.

كفاك كسلاً، وعند أشعاري وقوفاً! أقول لك: حان الأجل.

ضحك حسن بسرور، لكنَّ عينيه كانتا مبللتين.

ـ صديقي القديم يعرف طيبات الأرض ـ هتف ـ جرعة خفيفة من الخمر منذ ساعات الصباح الأولى، حسناء عند أقدامه: أي رجل بل أي ملك حتى له أن يحلم بالمزيد!

استظهرت مريم أيضاً:

القلب يتجه نحو وجه نضر.

واليد تمتد نحو القدح...

وفي كل ذرة من الغبار، أكون أنا أيضاً.

وكل الذرات معاً تشكل كلاً واحداً.

ـ الكون فيك، وأنت في الكون... هذا تماماً ما كان يروق لعمر أن يجاهر به...

بدا حسن يتهاوى ضمن أفكاره...

ـ هذا ما أحب... أجل، كل ما أحب!... همس في سره.

قرأت مريم أربعة أبيات أخرى:

في الربيع عندما تصب لي حورية من السماء.

هذا الخمر الذي يدندن في الأقداح.

تبّاً لهؤلاء الذين يلومونني!

سأكون ألعن من كلب، إن كنت سأبالي بالفردوس!

ـ أية حقيقة بسيطة! هتف حسن. ربيع مزهر، صبية تسكب الخمر في

الكأس... أي فردوس آخر نبتغي! لكن قدرنا هو الحرب مع السلطان... والتفكير بالمكائد السود...

مكث الاثنان صامتين لبرهة من الوقت.

ـ كنتَ لتوكَ تريد أن تفضي لي بشيء ما. ذكَّرته مريم.

ابتسم حسن.

ـ نعم، أود ذلك فعلاً. إنني لا أعرف كيف أبدأ بذلك كي تفهميني تماماً. حملت في داخلي هذا السرَّ طيلة عشرين عاماً، أخفيته عن العالم، وفجأة، وعندما حان الوقت للبوح به الآن تعييني الكلمات...

ـ أَفهمُكَ شيئاً فشيئاً. قلت منذ عشرين عاماً وأنت تكتم في داخلك سرًّا؟ وهل هذا السرُّ يخص الرياض؟... تهديم مملكة إيران؟ كل هذا يبدو في الواقع غامضاً بالنسبة لتفكيري البسيط...

ـ أعلم، طالما أنني لم أشرح لك شيئاً، فإنك لن تستطيعي أن تفهمي. هذه الرياض، رياض الصبايا، أباما وتعليمها، أنت وأنا أخيراً... باختصار قلعة آلموت، وما يختبئ خلفها... كل هذا يدخل في صلب خطة كبيرة نقلتها من التصور في خيالي إلى الوجود بالفعل. ولا بدَّ لصحة مقدِّماتي المنطقية من أن تتكشف الآن.

أنا بحاجة إليك. نحن في ساعة الامتحان العسير. بالنسبة لي لا مجال عندي إلى التراجع بعد: أجد بعض الصعوبة في التعبير عن نفسي...

ـ أنت تفاجئني دائماً يا حسن، تكلم، أنا أصغي إليك بكل جوارحي.

ـ كي تفهمي جيداً، عليَّ أن أرجع إلى أيام شبابي البعيد... كما تعلمين، فقد ولدت في طوس، وأبي كان يدعى علي، وكان خصماً لبغداد وللسنة، وغالباً ما كانت تُذكر هذه الأمور في البيت. كل هذه المجادلات في مسألة النبي ووارثيه كانت تبدو لي مكتنفة بالألغاز وكان لها عليَّ سحر غريب. من كان له أبلغ التأثر في قلبي من بين المنافحين الكثر عن الدين

الإسلامي، كان الشهيد علي. كل ما يخصه هو، وأسرته كان يبدو إلى ناظري محاطاً بهالة من الغموض المحير. لكنَّ ما كان يؤثر بي أكثر، هو التبشير بأن الله سوف يرسل على الأرض بعده واحداً من ذريته باسم المهدي، والذي سيصبح آخر وأعظم الأنبياء. كنت أسأل والدي وأهله وأصدقاءه، وأتلظى لأعرف بأي العلامات سنستدل على المهدي، بدا لي أن من الصعب عليهم أن يقولوا لي شيئاً بدقة. اتَّقد خيالي: كنت أرى المهدي أحياناً، في قسمات تقيٍّ مشهور، وأحياناً في وجه هذا أو ذاك من المعاصرين، وفي وحدة لياليَّ كنت أمضي حتى التساؤل فيما إذا كنت أنا نفسي المخلِّص المنتظر! كنت أستعر، وأستعر إلى أقصى الحدود، لأن أعرف وبالتفصيل كل شيء عن هذا المذهب العظيم...

سمعتهم يروون يوماً أن داعية ما كان يتخفى في مدينتنا باسم أميريه زهراب. كان يعتبر مطَّلعاً على كل الأسرار التي لها علاقة بمجيء المهدي. استخبرت عن ذلك، وابن عمي الذي يكبرني سناً والذي لم يكن من مؤيدي علي، أعلمني بأن الداعية الذي يجري الحديث عنه ينتمي إلى المذهب الإسماعيلي، وأن متبني هذا المذهب يعملون بشكل سرِّي كصوفيين، كإباحيين، كملحدين... عندئذ فقط أخذت أتوق إلى ذلك جدياً. لم أكن قد بلغت العشرين عاماً، عندما عزمت على زيارة هذه الشخصية التي نحن بصددها. فانهَلْتُ عليه وبشكل أدبي بالأسئلة. أردت أن أعرف من فمه مباشرة، فيما إذا لم يكن الفكر الإسماعيلي إلاَّ فكراً إباحياً قطعاً... وكل شيء بخصوص مجيء المهدي.

أخذ أميريه زأهرب، يشرح لي بكثير من التمحك ظاهر المذهب الإسماعيلي. أكَّد أن عليًا هو وريث النبي الشرعي الوحيد، وأن ابن اسماعيل، محمد، الثامن من ذرية علي؟سيأتي ذات يوم إلى الأرض باسم مهدي. ثم شرح لي بمنتهى الدقَّة حجج الفرق الأخرى التي تنتسب لعلي لاعناً بدربه هؤلاء الذين يؤكدون بأن المهدي سيظهر على المؤمنين

بشخص الإمام الثاني عشر. . . الذي لن يكون من فرع إسماعيل! كل هذه المنازعات حول أشخاص، بدت لي ساذجة وسطحية لا أثر فيها لأي سرٍّ. عدت إلى البيت ساخطاً عازماً على ألاً أشغل بالي بمجادلات الدين، بل على العكس قررت أن أبحث عن سعادتي عبر الطريق الأسهل منالاً على غرار غالبية معاصريَّ.

كان لي أن أفلح في ذلك أيضاً دون شك، لو أن داعية إسماعيلياً آخر أبا نجم سراج، لم يأت ذات سنة إلى منطقتنا: ذهبت ألتقيه، وأنا ما أزال غاضباً من سابقه، الذي لم يكن قادراً أن يكشف لي عن ظل اللغز. سخرت منه، ومن مذهبه المماحك، أكثر من مذهب الموالين للسنة. فلا هو ولا حاشيته من المخلصين وكنت مستعداً على الرهان ـ لم يكونوا يعلمون أي شيء موثوق يذكر من ناحية قدوم المهدي. . . ولم يكونوا يعملون إلاً على خداع المؤمنين المتلهفين إلى الحقيقة. . . طوال الوقت الذي كنت أهيل عليه بذلك الوابل، كنت أتوقع أني سأراه يثب ويطردني بنفسه. لكنَّ الرَّفيق أصغى إلي بهدوء. بل إني لاحظت ابتسامة تهيم على شفتيه عندما صرت أخيراً لا أعرف ماذا أقول صرَّح بـ «لقد اجتزت الامتحان بشكل ممتاز، يا صديقي الفتى، دعني أتنبأ لك بهذا: ستصبح ذات يوم داعية عظيماً من كبار الدعاة، أجل؛ أنت مهيّأ لتلقي المذهب الإسماعيلي الحقيقي. إنَّما عليك ان تعدني مسبقاً بألاَّ تفضي إلى أحد بشيء مما سأعلمك إياه، طالما أنك لم توقف بعد». أصابتني هذه الكلمات في الصميم. هكذا إذاً كان لي الحق بأن أشك بأن لغزاً ما هناك. قطعت أمامه وبصوت مرتجف العهد الذي طالبني به، وعلى هذا انطلق في محاضرته: «قصة علي ومهدي ليست إلاً سراباً مخصَّصاً إلى عامة المؤمنين الذين يبجلون اسم علي صهر النبي ويمقتون بغداد. لكننا نشرح إلى من يستطيع أن يستوعب، على غرار الخليفة الحاكم بأمر الله، أن القرآن هو ثمرة العقول المختلة، لتعلم أن أحداً لا يعلم الحقيقة، إذاً نحن لا نؤمن بشيء. . . وبإمكاننا أن نفعل أي شيء».

كنت كمن أصيب بصاعقة.

النبي... رجل ذو عقل مختل! صهره علي، مغفَّل! بما أنه كان يؤمن! وما كانوا قد علموني إياه عن بعث المهدي المقدس هذا المذهب الرائع والمفعم بالأسرار المخترع، الذي يخص مجيء مخلِّص، ليس إلاَّ خرافة مختلقة من أجل عامة البسطاء! أعترف بعدم تمكني من كتم صرخة استنكار على الفور: «لكن لماذا تخادعون الناس هكذا؟».

رمقني بنظرة صارمة.

«ألم ترَ أننا صرنا عبيداً للأتراك؟ وأن بغداد قد وقفت في صفهم؟ وأن الجماهير ساخطة. وفي هذا ما جعل اسم عليٍّ مقدساً. نحن استخدمنا ذلك كي نؤلب الشعب على السلطان والخليفة. لا شيء أكثر». التصق لساني في حنكي.

ركضت إلى البيت كمجنون. رميت بنفسي على سريري وأخذت بالنحيب. عالم فاتن انهار أمامي. وقعت مريضاً. وبقيت بين الحياة والموت طيلة أربعين يوماً بلياليها. غادرتني الحمى أخيراً، وعاودتني قواي. إنَّما كان هذا رجلاً جديداً أُعيدتْ إليه صحوة الحياة...

صمت حسن بعد أن استرسل مع أفكاره. عندئذ سألته مريم التي كانت تتابعه بعينين مشدودتين إلى شفتيه ـ هذا السؤال:

ـ كيف حصل يا ابن الصباح أن انتميت بهذه السرعة إلى المذهب الملحد في حين أن المعلم السابق قد أوقعك في خيبة؟...

ـ سأحاول أن أبين لك. بذل الداعية الأول كل ما بوسعه، كي يقدم لي بعض الحقائق الواضحة تماماً. كي ألمح وراءها ظلاً يجعلها تبدو لي مشبوهة. لم يكن لها أن تروي عطشي إلى المعرفة، تطلعي إلى حقيقة لا يمكن للمرء أن يدركها إلاَّ وهو يقترب من نوع من معرفة عليا ـ كنت أعتقد.

بذلت ما بوسعي كي أفهم هذه المبادئ الجميلة كحقائق مصدَّقة. لكن

العقل لم يفهمها. لا بد من القول بأنني لم أستوعب في الحال أيضاً إلى أين أراد المعلم الثاني أن يصل. لكن التعليم الذي تلقيته هذه المرة، مكث في نفسي كظل بعيد بعض الشيء قاتم ومرعب، سيبلغ يوماً شعوري الشفاف. أراد عقلي أن يرميها، لكنَّ قلبي، التحم هذه المرة معها بحماسة. عندما قهرت المرض، قررت أن أرتب حياتي بحيث أبلغ النضج والارتقاء لبلوغ معرفة تجعل إثباتات الرفيق قابلة للفهم، وتكشف لي الصواب أو تجعلني أتعرف من خلالها على اللامعقولية (العبثية).

«يجب أن نتناول الحياة بشكل جدي، وأن نتحقق بالخبرة ـ كنت أفكر ـ فيما إذا كانت إثباتات الرفيق ستصمد».

قرَّرْتُ أن أدرس كل شيء، وألاَّ أسقط أمراً مما يعرفه الناس. ولم تتأخر الفرصة أن أتيحت لي.

سمة خاصة كنت أتسم بها في الشباب، لم أكن أستطيع الصمت مع من كان يريد أن يسمعني، كنت أبدأ النقاش بما يرهق عقلي، أبي الذي كان يعتبر كمشايع مستتر لعلي، خاف، ولكي يخلِّص نفسه من شبهته بالهرطقة، أرسلني إلى نيسابور كي أدرس عند موفق الدين، وهناك تعرفت على الشهير عمر الخيام، وبعده على ذاك الذي لم يكن قد صار بعد صدراً أعظم نظام الملك...

«ليس هناك من شيء مهم يجدر ذكره عن المعلم الذي كان يدرسنا، إذ كان يذكر عدداً من الكُتّاب، ويحفظ القرآن من أول إلى آخر سورة فيه عن ظهر قلب إنما لم يكن في تعليمه قطرة يمكن أن تروي عطشي إلى المعرفة... كان لهذا اللقاء مع زميليَّ أكبر الأثر عليَّ. صدر أعظم المستقبل هو قبلي من مواليد طوس ويحمل نفس اسمي حسن بن علي، لكنه يكبرني بسبعة أو ثمانية أعوام. ومعارفه كانت واسعة جداً، لا سيَّما في الرياضيات والفلك لكنَّ مسائل الدين والبحث عن الحقيقة لم تكن تهمه في شيء. عندئذ استشفيت للمرة الأولى الهوَّة التي تفصل فرداً عن

فردٍ آخر. لم يكن قد سمع إطلاقاً عن معلمين إسماعيليين عاشوا في طوس، ومن البديهي جداً بالا يكون قد مرَّ بأزمة فكرية جعلته عرضة للموت، مع ذلك فقد تميز بذكاء شديد يفوق ذكاء التلاميذ.

«عمر كان مختلفاً تماماً، كان من مواليد نيسابور، ويعتبرونه كولد متواضع هادئ. أمَّا إذا ما أتيح للمرء أن يتحدث إليه على انفراد، فإنه سرعان ما يكتشف اتجاهه الفكري الحقيقي.

كان يسخر من الكل ولا يؤمن بشيء، من الممكن أن يكشف عن نفسه بين حين وآخر كنَزويّ بشكل خارق، كصاحب عقل مرهف، إلى حدٍّ يمنح الرغبة بتجرع كلماته على مرِّ الأيام والليالي، ثم كحالم أو كعبوس، كنَّا نأتنس به نظام وأنا، ونجتمع نحن الثلاثة في حديقة أبيه، ونعدُّ معاً مؤامرات كبيرة من أجل المستقبل. وكان الياسمين ينثر عبيره، والفراشات الليلية تمتص رحيق الأزهار... عندما كنَّا نجلس خلف الأدغال... نحيك مصيرنا... ذات يوم، ما أزال أذكر كما لو كان هذا حصل مساء البارحة، وقد استولت عليَّ الرغبة بالتباهي أمامهما: اعترفت لهما بأنني متنظم في جمعية أخوية إسماعيلية سرية. حدثتهما عن لقائي مع المعلمين، وأطلعتهما على ما عرفت عن المذهب. قدمته كصراع موجه إلى السلاطين السلاجقة، وإلى خليفة بغداد، أجيرهم، عندما اكتشفت اندهاشهما فكرت أن من المفيد أن أمضي في فكرتي: «هل تريدون أن ننضوي نحن ـ أحفاد خسرو إيران العريقة، وآل رستم والفردوسي تحت لواء مطايا توركستان؟ خاصة وأن علمهم أسود، وعلمنا أبيض. فليس هناك من شيء مشين: «سوى الاستكانة للغريب والركوع للبرابره»

أصبتهما في الصميم «وماذا علينا أن نفعل برأيك؟ سأل عمر. «أن نحاول ارتقاء سلَّم الشرف بأسرع ما يمكن. ومن يصل أولاً سيلتزم بمساعدة الاثنين الآخرين». سرَّهما طرحي، وعقدنا اتفاقنا بعهدٍ رسمي قاطع.

صمت. ومريم اقتربت منه بحنان

- في الواقع إن الحياة أشبه ما تكون بحكاية - همست وهي تفكر.

- أنا أيضاً - عقَّب حسن - خبأت في أعماق قلبي حنيناً إلى حكايات طفولتي، وهذا الاعتقاد المقدَّس بقدوم المهدي، بكل الأسرار المتعلقة بخلافة النبي. وما زال الجرح دامياً من هذه الخيبة الفظيعة الأولى.

لكن الحجج المنافحة لصالح اللاأدرية قد بدأت تتكاثر. ومثلما كان مشايعو علي يدافعون عن مراكزهم، فإن السنَّة كانوا بالمثل يدافعون عن مراكزهم أيضاً. وكان بوسع المرء أن يجد نفس الحماسة لتسويغ مذهب ما عند المسيحيين من كل الطوائف، عند اليهودية، وعند البراهمة، والبوذيين وعبدة النار وأخيراً الوثنيين: فلسفات كل الاتجاهات كانت أيضاً تقول بعدم وجود الله، وأن كل شيء لم يوجد إلاَّ بمحض الصدفة. وشيئاً فشيئاً أخذت أفهم حكمة الدعاة الإسماعيليين السامية، كانت الحقيقة متعذرة البلوغ بالنسبة إلي، الحقيقة بالنسبة إلينا جميعاً غير موجودة، أي نهج إذاً يجب أن نتبنى. بالنسبة لذاك الذي استوعب أن ليس بوسع المرء أن يعرف شيئاً، يكون كل شيء مباحاً، ويستطيع أن يتبع أهواءه دون خوف، هل المعرفة القصوى ممكنة فعلاً؟ كان شغفي الأول منصباً على الدراسة عن الاستفسار عن كل شيء، رحت إلى بغداد، وإلى البصرة، إلى الإسكندرية، إلى القاهرة، درست المعرفة وكل مجالات العلوم: الرياضيات، الفلك، الفلسفة، الكيمياء، الفيزياء، التاريخ الطبيعي تعمقت في اللغات الأجنبية راقبت كل طبائع الشعوب وكل العقليات الأجنبية. شيئاً فشيئاً، صار المذهب الإسماعيلي هو الأكثر قرباً مني... لكنني كنت ما أزال فتيًا وبدأت أتعذب من فكرة أن أكبر قسم من البشر يرضى بالغلط، ويخلد إلى هذيانات بلهاء، ويعبد الأباطيل، تراءى لي أن واجبي في هذا العالم، كان بالبدء في بذر الحقيقة، وتفتيح عيون الناس، وتحرير الإنسانية من أوهامها، وتخليصها من الدجَّالين الذين حكموا عليهما بالجهالة.

صارت الإسماعيلية بالنسبة إلي رمز النضال ضد الكذب والضلال فأحسست بنفسي حامل المشعل الذي يضيء للإنسانية مسيرها الأعمى.

«كانت خيبتي مُرَّة أيضاً! كل أخوتنا في الجمعية استقبلوني استقبالاً حسناً كمتحمس كبير للإسماعيلية. لكن عندما كنت أعرض خطتي على الزعماء، بتنوير العامة، كانوا يهزون برؤوسهم. ويحذرونني (يستبعدونني عن كل مكان)، بعد قليل تبين لي أن إداريي الحركة، كانوا يبذلون كل جهدهم لإخفاء الحقيقة عن الشعب، بحيث يبقونه في الغيِّ مدفوعين إلى ذلك بدوافع أنانية أيضاً، وبحكم أسفاري، بدأت أخاطب العامة بشكل مباشر، في الأسواق، في الخانات، في البيوت المقدسة حيث يجتمع الحجيج، كنت أتوجه إليهم كي أوضح لهم بأن كل ما يؤمنون به خاطئ، وإذا لم يتحرروا من تلك الخرافات والبدع، فلسوف يموتون متعطشين ومغيَّبين عن الحقيقة. نتيجة ذلك توجب علي الهرب قبل أن آتي على نهاية هذا الخطاب الجميل، تحت وابل من الحصى والشتائم... فوجدت أن من الأفطن أن أحاول توعية الخاصة من الأفراد، كثيرون منهم كانوا يصغون إليَّ بانتباه، إنَّما عندما كنت أنتهي كانوا يجيبونني بأنه قد حصل لهم ـ لهم أنفسهم ـ وشكّوا، إنما بدا لهم أن من الحكمة ان يتمسكوا بشيء راسخ على أن يتسكعوا في ارتياب أبدي أو يدخلوا في رفض عقيم. ليس فقط حثالة الشعب، إنما العقول المستنيرة، كانت تفضل البدعة الملموسة على الحقيقة المتعذرة اللمس أو الإدراك. كل محاولاتي للأخذ بيد الخاصة والعامة على حد سواء إلى بلوغ المعرفة قد باءت بالفشل. ومن البديهي، فإن الحقيقة التي كانت تمثل بالنسبة لي قيمة القيم، كانت بالنسبة لبقية الإنسانية شيئاً تافهاً، عدلت إذن عن مهمتي المزعومة وألقيت السلاح.

«هذه المساعي جعلتني أضيع وقتاً ثميناً، لا سيَّما وقد رأيت النتائج التي حصل عليها زميلاي واللذان يبدو أنهما قد بزّاني.

مجانسي من طوس باشر خدمته عند أمير سلجوقي، وسلطان تلك الفترة، قلب أرسلان شاه عينيه لتوه في البلاط بصفة صدر أعظم. أمَّا عمر، فاشتهر كرياضياتي، وفلكي، ومخلص لوعد الشباب، وقد وهبه نظام الملك دخلاً سنوياً قدره ألف ومائتا قطعة ذهب من صندوق مال الدولة.

«عزمت على زيارة عمر في مقره في نيسابور. غذَّيت المسير ـ لقد مضى على ذلك الآن عشرون عاماً!ـ وباغتُّ زميلي القديم بين الخمرة والنساء والكتب. لا بدَّ أن وجهي لم يكن يوحي بالاطمئنان، إذ ارتعش هذا الرجل اللامبالي عندما لمحني: «كم تغيرت! ـ صاح عندما تعرف عليَّ أخيراً. من يراك بهذا الضمور، وهذا الاسمرار يظن أنك قادم من جهنم مباشرة...»، عانقني ودعاني إلى البقاء عنده. وغرقت في رغد العيش في كنفه بعد سنوات من التشرد. ذقت طعم الراحة أخيراً، وحلاوة تلك المحادثات الحرة المرهفة والفكرية الحكيمة التي أنعمت بها الخمرة. روى كل واحد منا إلى الآخر كل ما حصل معه، وأفضينا لبعضنا بعضاً بأبحاثنا الفكرية وتجاربنا الحياتية، وكان هذا ليؤكد، في مفاجأتنا المتبادلة أننا قد وصلنا، كل واحد منا بسبله المختلفة إلى نتائج متقاربة للغاية علماً بأنه هو، لم يكن يخرج من بيته على الإطلاق بينما طفت أنا نصف العالم تقريباً. كم كنت بحاجة إلى إشارة تؤكد لي أنني كنت أسير ببحثي في الطريق الصحيح، يا حسن! هاأنذا أحصل على ذلك من فمك!» أراد أن يقول لي.

وأنا لم أتورع من أن أجيبه:

«وأنا أتحدث إليك وأجد أننا متفاهمان إلى أبعد الحدود، أشعر بنفسي الآن كفيثاغورات الذي سمع النجوم تدنُّ في الكون، علامة أكيدة على توافق الأفلاك».

«لا سيما في موضوع كان يهمنا جداً، اختبار إمكانات المعرفة. «معرفة

كلية محددة شيء مستحيل ـ أكَّد ـ لأن حواسنا تكذب. لكنها هي الوسائط الوحيدة بيننا وبين الأشياء التي تحيط بنا وبين ما يعرفه عقلنا عنها» ـ «هذا هو بالضبط ما أكده ديمقريطس وفيثاغوراث. عقَّبْتُ. فقد حكم الناس عليهم بالإلحاد، بينما أثنوا كثيراً على أفلاطون الذي علَّل نفوسهم بالخرافات» ـ «هي ذي العامة دائماً، أردف عمر يخافون من الشك، ولهذا فهم يفضلون أكذوبة مغلَّفةَ بكل المعرفة، فتصبح سامية لأنها لا تقدم إليهم نقطة ارتكاز متينة. ليس هناك ما يمكن أن نفعله حيال ذلك. ذاك الذي يريد أن يصبح نبياً، بالنسبة للعوام، عليه أن يتصرف معهم كما يتصرف الآباء مع أبنائهم. لا بدَّ من إرضائهم بالأساطير والترَّهات لذلك فإن الحكيم سيقف دائماً بعيداً عنها». ومع ذلك فقد كان محمد يريد خير العامة» ـ أجل، أجل كان يريد خيرهم، لكنه كان يعرف أيضاً بلاهتهم العضال. فالشفقة وحدها دفعته لأن يعدهم بالفردوس كتوفية أجرٍ مقابل كل عذاباتهم في هذا العالم والعالم الآخر».

ـ «لماذا إذاً برأيك أباح محمد أن يموت آلاف الرجال من أجل مذهبه الذي كان يعتمد على خرافة؟». «أظن هذا لأنه كان يعلم على أي حال بأنهم سيقتتلون من أجل أغراض أكثر دونية أيضاً، أراد أن يوفر لهم بطريقة ما نوعاً من السعادة على الأرض، ولكي يتوصل إلى ذلك، فقد اخترع لهم محادثاته مع الملاك جبريل... وإلاَّ لما كانوا صدقوه... وفي وعده إياهم بكل مباهج الفردوس ما جعلهم شجعان أشداء لا يقهرون».

ـ «يبدو لي ـ تابعت عندئذ بعد لحظة من التفكير. أن لا أحد يركض اليوم بطيب خاطر نحو الموت بناء على وعد بإدخاله الفردوس بعد ذلك». «تهرم الشعوب أيضاً، أجاب وفكرة الفردوس تضعف أيضاً في أذهان الناس ولا توقظ بعد حماسة الماضي. لا تؤمن الناس بها إلاَّ بسبب التقاعس، بسبب الخوف من واجب يتعلق بشيء جديد».

ـ أنت تحسب إذاً، ـ أن النبي الذي يبشر العامة بالجنة في أيامنا كي يكسبهم في قضية سيسقط؟

«تماماً، سيسقط لأن شمعة واحدة لا تحترق مرتين، مثلما لا تتفتح ثانية زنبقة ذابلة. الشعب مسرور بحرياته البسيطة، وإن أنت لم تمتلك المفتاح الذي تفتح له به باب الفردوس في حياته، يكون من الأفضل أن تعدل عن أية فكرة بأن تصبح نبيه».

عندما سمعته ينطق بهذه الجملة، أخذت رأسي بين يديَّ كمن أصابته صاعقة. لقد عبَّر عمر على سبيل المزاح بالفكرة التي كانت تحرق نفسي. اجل، العامة يريدون خرافات وترَّهات، ويحبون الضلال الذي يتسكعون بين أرجائه. تناول عمر لتوه كأساً من الخمر. وفي اللحظة تولَّدت لدي خطة، وجدتها جبارة، هائلة تلك هي التي لم يعرف العالم لها مثيلاً: اختبار الغباء البشري حتى آخر حدوده! استخدمه من أجل الصعود إلى ذروة التأثير والمضي مستقلاً عن سائر العالم!

تجسيد الخرافة! تحويل الأسطورة إلى حقيقة، بحيث يتحدث عنها التاريخ زمناً طويلاً من الآن! القيام بتجربة كبرى مع الإنسان!

دفع حسن مريم ونهض بوثبة واحدة. مهتاجاً بحالة لم يسبق لها أن رأته فيها إطلاقاً. أخذ يركض حول الحوض كالمسعور. ففي داخله الآن شيء مخيف يعطيك انطباعاً بأنه قد تحول إلى مجنون، اشتبهت حينئذ بمعنى كلماته. وبصوت متخوف سألت:

ـ وماذا فعلت بعد ذلك؟

توقف حسن بحذر. تمالك نفسه. وهامت على شفتيه ابتسامة ساخرة ولعوب.

ـ ماذا فعلت إثر ذلك؟ ـ ردَّد ـ بحثت عن إمكانية تحقيق هذه الخرافة. أخيراً جئت إلى آلموت. دبَّت الحياة في الخرافة، واخترعت الجنة التي لا تنتظر بعد إلا زائريها.

نظرت إليه مريم كالمسحورة. وقالت له برفق:

ـ أنت إذن ذاك الذي تصورته....

ابتسم حسن ابتسامة فرحة.

ـ من أكون إذاً؟ اسمحي لي أن أعبر عن نفسي بطريقة مجازية قليلاً:

حالم مرعب، بجهنم!

على هذا انفجر بضحكة غريبة

مخادع جداً، دون شك، صحيح أخيراً... هيا أنت تعرفين الآن نياتي. آن الأوان لأن أعطيك تعليمات محددة، أياً كان من بين قاطني هذه الجنان يكشف نفسه أمام هؤلاء الزائرين سيحكم عليه بالموت. لن تبوحي بشيء. ولن أستثني أحداً. آمل أن تكوني فهمتيني. يجب أن يُعْمَلَ على إفهام الصبايا أنه ومن أجل بواعث سامية، سيكون عليهنَّ أن يتصرَّفن كما لو كنَّ هنَّ فعلاً في الجنة. هذا هو دورك الآن. أعدي نفسك، وتعالي انتظريني من جديد غداً مساءً.

الآن، تصبحين على خير!

قبلها برفق، ثم انصرف بخطىً سريعة.

كان عدي متأهباً على الضفة. بالقرب من المركب، جلس حسن في الزورق وأمر بصوت منخفض:

ـ إلى أباما.

كانت صديقته العجوز تنتظره في سرادق يشابه السُّرداق السابق في كل شيء. لم تكن لتستقر في مكان. تتمدد حيناً على أرائكها بأبهة، تلوذ بالصبر حيناً، كانت تنهض وتركض عبر الحجرة. تنظر دون توقف باتجاه الباب، تحدث نفسها بنفسها، غضبت، وشتمت بصوت خافت، أقسمت مائة يمين عظيم، مع حركات متوافقة بيديها متخيلة أمامها شخصاً وهميًّا.

فجأة، أصاخت سمعها: كان الزائر يقترب، تدثرت في عزَّة نفسها

وتقدَّمت بضع خطوات نحو المدخل. عندما لمحها حسن، عمل كل جهده كي يكتم ابتسامته الساخرة.

كانت في كامل زينتها الاحتفالية. وقد وضعت كل مجوهراتها:

حول عنقها، في أذنيها، في معصميها، في ساقيها، لا شيء ينقصها. وعلى رأسها يلتمع إكليل ذهبي، غُرِست فيه الأحجار الثمينة. هكذا كانت تتبرج قبل الآن بثلاثين عاماً، عندما تعرفت على حسن في كابول، في مهرجانات أمير من الشرق الأقصى، إنَّما أيُّ بون شاسع بين أباما تلك الأيام وأباما اليوم. لا يزال يحتفظ لها بذكرى صبية ذات أطراف رائعة، مكتنزة وقوية، بينما هي اليوم هيكل عظمي يبرز تحت الجلد... جلد مترهل، ضارب إلى السواد متغضن. طلَتْ وجنتيها المتهدلتين، وكذلك شفتيها، بأحمر فاقع، كان شعرها وحاجباها ورموشها مصطنعين بالأسود القاتم. تظهر لحسن الصورة الحية لَتَزعْزُعِ ما خُلق من لحم وعظم.

قبَّلت بسرعة يد سيدها اليمنى ودعته لأن يأخذ مكانه على الأرائك بالقرب منها، ثم قالت بلهجة عتاب:

- جئت من عندها. في الماضي لم تكن تدع لي الوقت كي أجلس.

- هراء! قال حسن وهو يغمز بعينيه بدعابة.

استدعيتك من أجل أشياء مهمة. لندع الماضي، إضافة إلى ذلك فإن أحداً لا يستطيع اختطافه منا.

- ربَّما تكون نادماً على ذلك؟

- هل قلتُ شيئاً من هذا القبيل؟

- لا ولكن...

- بلا لكن! أسألك إن كان كل شيء جاهزاً؟

- كل شيء مثلما أمرت.

- ستستقبل الرياض ضيوفاً. بودي لو أستطيع الوثوق بك في كل شيء.

ـ من هذه الناحية. كن مطمئناً. لن أنسى بؤسي قط في تلك السنوات الأخيرة...

هذا البؤس الذي انتشلتني منه.

ـ كيف تقدم حال المدرسة؟

ـ جيد.

بشكل يلائم تلك الإوزات الصغيرات.

ـ جيد.

ـ أقدِّر أن من واجبي أن ألفت انتباهك إلى هذه النقطة.

خصيانك لا يبدون لي موثوقين.

ضحك حسن.

ـ كلام فارغ، ألا تعلمين شيئاً غير ذلك؟

ـ لا أقصد بذلك أننا لا نستطيع الوثوق بهم، من هذه الجهة إنهم يهابونك كثيراً. لكنني أشتبه بأن البعض منهم ما زال لديه أثر للرجولة...

ـ هل جربتهم؟

تراجعت إلى الوراء بحركة من أُهين.

ـ ماذا تحسبني؟ مع هكذا كلاب!

ـ ما الذي جعل فكرة مضحكة كهذه تتبادر إلى ذهنكِ إذاً؟

ـ إنهم يداورون الصبايا. بشكل لم أكتشف به ذلك بوضوح. لكنهم لن يخفوا ذلك عنّي! بالإضافة...

ـ في المرة الماضية أراني مصطفى شيئاً من بعيد...

تلوى حسن بابتسامة صامتة...

ـ لا تجنّي. أنت عجوز ورمصاء، خدعك متعمداً كي يسخر منك. هل تحسبين أن بصرك لا يزال يثير فيك قشعريرات.

ـ أنت تهينني. ليُفسدن لك تلك الفتيات إذاً.

ـ هل هم قادرون على شيء آخر؟

ـ هناك واحدة ستجعلك تتحسر...

ـ هيا، هيا، ألا ترين أنني عجوز؟

ـ ليس للحد الذي لا تستطيع فيه أن تعشق من أعماق قلبك!...

ضحك حسن ضحكة طويلة.

ـ لو كان هذا صحيحاً. فلن يكون عليك إلاَّ أن تهنئيني. للأسف، أحس بأني لست إلا بركاناً خامداً.

ـ لا تنخدع بذلك. لكنَّ من في عمرك في الواقع يلزمه على الأرجح شيئاً أكثر نضجاً.

ـ أباما دون شك؟ آه! آه! يا صديقتي العجوز، موقف المرء من الحب كحالته بالنسبة للحم المشوي كلما كانت الأسنان هرمة كلما كانت بحاجة إلى لحم أكثر طراوة.

اغرورقت عينا أباما بالدموع ثم تابعت حديثها من جديد وهي تبتلع غلَّها بشجاعة.

ـ لماذا إذاً تقف نفسك على واحدة؟ ألا تعرف ما تعلم الحكمة؟

التبديلات المتواترة تحافظ على الإنسان غضاً ومغازلاً للنساء! النبي نفسه ضرب مثلاً على ذلك. في المرة الماضية، رحت أتمعن في تفاصيل إحدى تلك السَّمانيات وهي في الحوض، كل ما فيها مرن وقوي. خطرت ببالي في الحال.

لا أظنها بلغت الرابعة عشر عاماً... اسمها حليمة.

ـ أعلم. أعلم. لقد أخذتها بذراعي قبل أن تريها تخيلي أنني أنا من سلمها إلى عدي يوم مجيئها! لكنني سأقول لك رأياً سديداً، إن واحدة صارت أكثر مما ينبغي.

ـ ولكن لماذا دائماً هي نفسها بالتحديد! ألم تملها بعد!

ضحك حسن بشكل خفي.

ـ كان حكيماً من قال: كن قنوعاً، ورغيف من الشعير، يفتح شهيتك اليومية أكثر من كل مآكل الفردوس.

ـ ستنتهي إلى إرهاق نفسك بتلك الجاهلة المتعجرفة!

ـ بشرة بلون الحليب، وشفاه بلون الورد، تعادل تلك المعرفة المحققة.

ـ قلت لي ذات مرة ـ ما زلت أتذكر ذلك جيداً ـ أنك تعلمت خلال الأشهر الثلاثة التي عشناها معاً أكثر ما تعلمته خلال السنوات العشر التي تفرَّغت فيها لدراستك الثمينة.

ـ الدراسة في الشباب توفر متعة العلم في الكبر...

ـ قل لي ما الذي جذبك نحوها كثيراً آنذاك!

ـ لست أدري، ربَّما قرابة عاطفية بعيدة.

ـ تقول هذا كي تهينني.

ـ لم يخطر ببالي هذا حتى.

ـ إنك الآن تهينني إذاً!

ـ هيا! هيا! إنكِ مع تقدّم السِّن تغرقين في الغيرة!...

ـ ماذا تقول؟ أنا؟ غيورة؟ اباما كاهنة الحب، والتي ركع أمامها ثلاثة أمراء، وأبناء الملك السبعة، ومشروع خليفة، ومائتا فارس نبيل... أباما صارت اليوم غيورة وممن؟ من غليظة، ومن كراكي هزيل!

كان صوتها يرتجف استعاراً. قال لها حسن عندئذ هذه الكلمات:

ـ عزيزتي، هذه الأزمنة انصرمت! ثلاثون عاماً مرت صار فمك أدرد، وعظامك مجرَّدة من اللحم، وبشرتك فقدت حيويتها...

ـ قالت لاهثة:

ـ هل تظن أن حالك أفضل من حالي؟

ـ ليحمني الله من هكذا أوهام! لا يوجد بيننا نحن الاثنين إلا هذا الفرق: أنا عجوز وراضٍ بهذه الحالة، أنت عجوز أيضاً لكنك تكابرين وتتنكرين لذلك.

ـ أنت لم تأتِ إلى هنا إلاً لتستهزء بي!

ودموع مدرارة انهمرت فوق خديها.

ـ قطعاً يا صديقتي القديمة. لنتعقّل. أتيت بك لأنني بحاجة إلى خبرتك ومعرفتك. أنت قلت للتو، إنني قد انتزعتك من البؤس، يوم جئت بك إلى القلعة، أقدِّر عالياً معارفك في أمور الحب، وأودعك أيضاً ثقتي الكلية.

ماذا تريدين أكثر؟

متأثرة استمرت بالبكاء. وضحك حسن عندئذ بصمت. مال نحو أذنها وسألها:

هل مازلت ترغبين؟...

رمقته بنظرة سريعة.

لا غنى لي عن ذلك ـ اعترفت وهي تعانقه أنا مخلوقة هكذا.

ـ إذاً دعيني أرسل لك أحد الزنوج لعله...

تراجعت بحركة تدل على أنها أهينت.

ـ أنت على حق، فأنا قبيحة جداً، عجوز جداً. لكنني لا أستطيع أن أقول لك كم أتعذب لإنني عرفت كثيراً من الأشياء الجميلة الماضية...

أردف بلهجة جادة.

ـ ستجهزين السرادقات التي خصصتها لاستقبال الضيوف. لتحرصي على أن يصار إلى تنظيف كل شيء. كنس كل شيء. وراقبي ثرثرة الصبايا:

لا أريد أن يعلمن ما سيصير. غداً مساءً. ستأتين للقائي هنا. سأعطيك تعليمات مفصلة، هل لديك رغبة ما تريدين التعبير عنها؟

ـ أبداً يا سيدي. أشكرك. أفلا تريد أن تجرب واحدة أخرى منهن...

ـ لا شكراً. تصبحين على خير.

عادت مريم إلى غرفتها مثخنة القلب. ـ إذ إن حسناً قد حدّثها كثيراً هذه الليلة كي تستطيع أن تجعل من ذلك امتحاناً سريعاً جداً. لكنها اشتمّت في المهمة عقلاً مرعباً، لم يكن العالم برمته، حيوانات وأناساً، وطبيعة صامتة، في نظرها إلاً وسيلة للعبة كبيرة:

لتثبيت شبح قاتم.

أحبَّت تلك الروح، خافتها، والتي كانت تمتعها بعض الشيء. فجأة أحسَّت برغبة كبيرة لتكشف عمَّا في قلبها لتتبادل شيئاً لم يكن سوى بضع كلمات مع كائن لا يعرف الخبث.

اقتربت من سرير حليمة. تطلَّعت إليها من خلال نصف العتمة. هُيِّىء لها أن الصبية تتظاهر بالنوم فقط.

ـ حليمة! همست وهي تجلس على حافة سريرها. هيَّا... أنا أعلم أنك تتظاهرين بالنوم انظري إلي. فتحت حليمة عينيها. دفعت الغطاء كاشفة عن صدرها الصغير.

ـ ماذا هناك؟ سألت خائفة.

ـ ألا تقدرين على الصمت؟

ـ أجل يا مريم.

ـ كصمت القبور؟

ـ كصمت القبور.

ـ إن علم أنني حدثتك، فلسوف يقطع رأسينا نحن الاثنتين. جيوش السلطان تحاصر القلعة...

ـ أطلقت حليمة صرخة.

ـ ماذا سيحل بنا!

ـ اسكتي! سيدنا يحذرنا. كل عصيان في المستقبل ستكون عقوبته الموت. امتحانات عسيرة تنتظرنا: يجب أن تعرفيها. إن سألك أحدهم شيئاً، فلن يكون عليك أن تقولي له لا أين نحن ولا من نكون.

قبلتها على وجنتيها، وراحت إلى مرقدها.

في تلك الليلة لم تغمض الأولى، ولا الثانية عينيها، أحست مريم بأن جبالاً خسفت فوق رأسها. وأن الكون يرزح على حد سكين. لصالح أية جهة سترجح الأيام القادمة؟...

رعب لذيذ اجتاح حليمة آنذاك كل هذه الحياة كانت عبارة عن مغامرة رائعة! الأتراك يحاصرون القلعة، وسيدنا يصدهم من دون أن يكون أحد قد رأى أو سمع شيئاً! مع ذلك، خطر رهيب يتربَّص بهم. كم كان كل هذا غريباً. غريباً وجميلاً!...

الفصل السابع

منذ الساعة الأولى من صباح الغد، امتطى الشبان خيولهم، وغادروا القلعة بصحبة معلميهم. عبروا الجسر اثنين اثنين في نظام تام، ودلفوا إلى الشعب يتقدمون على الرغم من سرعتهم في توافق تام. هؤلاء الذين كانوا على حافة النهر، ساروا وكأنهم على شفا هاوية، لكنَّ أياً من بينهم، ممن صاروا هؤلاء الفرسان الأشداء، لم يخف لحظة من السقوط.

عندما صاروا في الوادي، أوقفهم مينوتشرشر عند أسفل سفح حفيف الانحدار، كان الشبان يرتجفون بشكل ملموس من توتر ظهر عليهم، وعدوى ضيقهم انتقلت إلى البهائم التي كانت تصهل بنفاد صبر. بعد قليل انضم إليهم أبو علي ممتطياً حصانه، يرافقه الداعية إبراهيم، تبادل بضع كلمات مع القائد العسكري، ثم ارتقى حتى قمة الهضبة.

ألقى مينوتشرشر أمراً. فافترق الرتلان في عدو سريع. نفذوا حركات صعبة ومعقدة. وهم يتهاجمون ويتسللون، كل هذا في صفوف متراصة، وفي أكمل نظام.

في أعلى الهضبة جثم أبو علي على حصانه الأبيض الصغير والأشقر، يرصد هذه التطورات ويطلع الدعاة على هذه الملاحظات:

ـ درَّبهم مينوتشرشر جيداً، إني لا أنكر ذلك. لكنني أتساءل إن كان هذا الأسلوب التركي يتناسب مع مناطقنا الجبلية، كنا في الماضي نهاجم على

انفراد وندمِّر كل ما يقع تحت سيوفنا، ثم نتفرق في لمحة عين بعد غارتين أو ثلاث كان العدو يختفي.

عندما غير الشبان طريقة الهجوم في التمرين الثاني، موزعين الصفوف، وقاذفين بأنفسهم الواحد مقابل الآخر في قتال متميز، كانت عيناه تلمعان من الرِّضى. داعب لحيته الخفيفة وهزَّ رأسه بهيئة مستحسنة، ترجل عندئذ وهو يجرُّ حصانه من لجامه، ثم وضع سجادة في الظلِّ، جلس عليها بارتياح. بعد قليل حذا حذوه دعاة موكبه.

ألقى القائد العسكري بأمر آخر، قفز التلاميذ عن خيولهم، رفعوا جلابيبهم ومكثوا في دروعهم الخفيفة. ألقوا برماحهم، وتناولوا تروسهم وحرابهم.

برعوا كجنود مشاة كما برعوا كفرسان. كان القائد يسترق النظر إلى الداعية. فاكتشف ابتسامته الصامتة.

عقب ذلك اختبار الكفاءة في القتال. ركز الشبان دريئاتهم وأخذوا يتدربون على رماية القوس. لم يخطئ ابن طاهر وسليمان إلاَّ هدفاً من عشرة أهداف، وتلاهم الآخرون بنتائج مقاربة، انتقلوا إثر ذلك إلى رمي الحراب، وبينما كانوا في البداية يتلهفون لإعطاء الداعية انطباعاً حسناً، فقد صاروا على أحرٍّ من الجمر، لتنفيذ الأوامر دون أن ينطقوا كلمة. لدى رؤيتهم حركات الرؤوس المعبرة عن الاستحسان، أحسوا بعزاء كبير، ثم ما لبثوا أن اتقدوا حماسة. لم يترددوا إثر ذلك عن تراشق الحراب. وحتى عن التدافع إلى التنافس. كل واحد أراد أن يتميز. يوسف تفوق على الآخرين جميعاً في هذا التمرين، أمَّا سليمان المحتقن من الجهد، فلم يكن يريد أن يقرَّ بنفسه منهزماً.

ـ لا بدَّ لك من أن تكثر من الأكل قليلاً. قال يوسف ساخراً.

ـ كزَّ سليمان على شفتيه، مدَّ رمحه وقذف به. أزَّ السلاح في الجوِّ،

لكنَّ الرمية لم تكن طويلة بشكل يجعل يوسف يبالي بها، وفي الرمية الثانية حقَّق رقمه القياسي.

ـ رائع! أطرى أبو علي.

أمَّا في المسايفة فلم يكن أحد يتغلب على سليمان. كانوا يتسابقون اثنين اثنين، والخاسر يصفى من المباراة التالية. تغلب ابن طاهر على عبيدة، ثم على ابن فاكاس، لكنه لم يصمد أمام هجوم يوسف. صفَّى سليمان كل منافسيه، الواحد تلو الآخر. في النهاية وجد نفسه في مواجهة يوسف. حمل الترس عالياً، لكن عينيه المترصدتين، كانتا تضحكان وهو يتوجه إلى خصمه.

ـ أرنا الآن، أي بطل أنت! قال كي يستدعيه.

ـ لا تفرح كثيراً قبل الأوان، أيها الفرس العدَّاءة. ـ أجابه يوسف ـ لا تنسَ أنك لم تتميز كثيراً في رمي الرمح منذ قليل. . .

ـ بدأ الصراع. كان يوسف يدرك تفوقه المفحم. راغباً أيضاً أن يستغل في الحال الامتياز الذي منحته إياه قوته. اندفع بحماسة نحو خصمه. لكن سليمان أفرج ساقيه الطويلتين، ودون أن يتحرك تقريباً، تفادى الهجوم بحركات ذكية. تصنَّع وثبة محسوبة تماماً، مكنته من خدعة انقضاض جعلته يتحصن برأسه. لم يعد بحاجة إلى أكثر من ذلك: بحركة رشيقة ضرب الدرع الذي يحمي صدر يوسف.

ضحك الزعماء والتلاميذ من ملامح الغضب التي ارتسمت على وجه هذا الأخير.

ـ مرة أخرى، إذا كانت لك رغبة في ذلك اقترح في الختام.

هذه المرة تربحني.

أراد موتسوفر أن يتدخل لكنَّ أبا علي أشار إليه أن يدعهما. ومن جديد تقاطع سيفاهما. وانخرط يوسف كثور هائج، مخلصاً لنهجه القتالي، أخذ

يوسع ترس سليمان الفطن بضربات قوية. أرغم نفسه هذا الأخير على الضحك من ذلك: ما زال يرقص على ساقيه المنفرجتين، يتنقل بوثبات رشيقة. ثم شوهد فجأة يتسلل بعيداً إلى الأمام، وشفرة سيفه علت ترس يوسف التعس، ولامست أعلى صدره. هتاف صاخب حيَّا المنتصر. نهض أبو علي عندئذ: مستعيراً من أحد الشباب سيفه وترسه. دعا سليمان لأن يتبارى معه وكل الأنظار اتجهت إليهما.

كان أبو علي رجلاً عجوزاً وقد ظنُّوا أن من الصعب عليه أن يصمد في المسايفة.

التفت سليمان نحو القائد العسكري.

ـ نفذ الأمر ـ قال هذا.

عاد سليمان إلى مكانه وهو لا يزال متحيراً.

ـ أرجو ألا يربكك انعدام لأمتي يا بني.

قال الداعية بطيبة. أريد فقط أن أعرف إن كنت ما أزال أحتفظ بلياقتي ربَّما أكون ما أزال كذلك.

وعلى ذلك، هزَّ سيفه نحو ترس سليمان إيذاناً ببدء القتال. لم يكن سليمان يعرف ماذا يفعل.

ـ ما الذي يدعوك إلى التردد؟ اضرب إذاً حثه الداعية الكبير بلذعة من الغضب.

استعدا للهجوم. لكن وقبل أن يؤتي حتى بأقل حركة، سقط سيفه من يديه... ومن تحت جلبابه مدَّ خصمه ذراعاً كانت قبضتها بحجم رأس الوليد.

همسة إعجاب تسللت إلى الصفوف. ابتسم أبو علي الماكر:

ـ هل تريد أن تجرِّب مرة أخرى؟

استعد سليمان هذه المرَّة جيداً. رفع ترسه حتى عينيه. حدَّق وهو يكمن

لخصمه الخطير. بدأ الاشتباك بقوة كان أبو علي يتمايل وهو يردُّ هجمات الشاب المتحمس. ثم وجه بعض الضربات الثقيلة.

بدأ سليمان بالتربص قبل أن يجازف بسلسلة من الحركات الجَريئة. لكن العجوز كان يتفادى كل الطعنات. أخيراً ضرب بغته، وللمرة الثانية سقط السلاح من يدي الولد. أعاد أبو علي الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضى، السيف والترس إلى صاحبه وهتف:

ـ سيكون منك محارب رائع، يا عزيزي سليمان، سيلزمك فقط أن تتريَّث حتى تقوم مثلي بخمسين غزوة وموقعة. . .

لوَّح بيده إلى موتسوفر، معرباً عن السعادة التي وفَّرها له نجاحه، ثم التفت نحو التلاميذ الذين كانوا لا يزالون متماسكين في صفوفهم المتراصّة.

ـ الآن، ستجعلونني أرى التطورات التي وصلتم إليها من خلال تربية إرادتكم. معلمكم عبدالملك مسافر، وأنا من سينوب عنه.

تمركز أمامهم، وأخذ يتملاهم بنظرة باردة ثم أمرهم:

ـ لا تتنفسوا بعد!

نقَّل نظره من وجه إلى آخر. وما هي إلاً برهة من الوقت حتى ظهرت أولى علامات الاحتقان: تودج في عروق الرقبة والصدغين. جحوظ في العينين. وقع أحد الفتيان على عقبِه، كانوا يتهاوون. نظر أبو علي نحو الدعاة والزعيم الحربي وقال بلهجة ساخرة:

ـ كإجاص في الخريف! . . .

أخيراً ثلاثة ظلُّوا واقفين: يوسف، وسليمان وابن طاهر. اقترب منهم الداعية الكبير. نظر بانتباه إلى خياشيمهم وشفاههم.

ـ ما من أدنى نفس. . . تماماً! قال بصوت منخفض.

ترنَّح يوسف في هذه اللحظة. أخذت ركبتاه تنثنيان ثم انهار كله. بعد لحظات فتح عينيه وأخذ يجول حوله بنظرات بلهاء.

فجأة، انهار سليمان أيضاً كشجرة نشر جذعها.

لا يزال ابن طاهر متماسكاً. تبادل أبو علي ومينو تشرشر بصمت إشارات الاستحسان. أخيراً ترنح الفتى الباسل بدوره.

كان أبو علي يستعد للانتقال إلى التمرين التالي، عندما جاء رسول يعدو مسرعاً من القلعة. كلفه بالذهاب حالاً إلى الزعيم الأعلى.

سيتابعون التمرين بعد الظهر في الثكنة.

أمرهم الداعية الكبير بامتطاء خيولهم وبالتقدم عدواً في طريق الشِّعب.

غادر التلاميذ القلعة في الصباح الباكر، لاحظ الخفير المتمركز في قمة برج الحراسة طائر حمام غريب يطير حول التّمراد، فأبلغ حارس مكتب المراسلة الذي هرع إلى المصطبة، فردُّوا بسهم موجه لكنَّ الطائر هدأ في الحال وتركهم يمسكون به بشكل أليف. مغلّف من الحرير كان ملفوفاً على إحدى قائمتيه. رئيس الاتصالات أسرع حتى قصر الزعيم الأعلى، ورمى بطائر الحمام لواحد من حرس مركز حراسة حسن.

فضَّ هذا الأخير المغلَّف وقرأ:

«إلى الحسن بن الصباح. زعيم الإسماعيليين، السلام عليكم! هاجمنا أمير همدان أرسلان تاش، على رأس جيش كبير وقلاع رودبار قد آلت إليه. أسعفنا الوقت بما يكفي كي نحضِّر أنفسنا وندفع هجوم جيشه من الفرسان الذي يتابع طريقه نحو آلموت. والآن فإن جيشاً بأسره يتوجه نحونا بهدف محاصرة القلعة. أنتظر أوامر سريعة التوقيع. بوزروق أوميد»

إمَّا أن يكون طائر الحمامُ طيِّر قبل أن يصل رسولي إلى رودبار، وإمَّا أن يكون الأتراك اعترضوا الرُّسل في الطريق. لقد بدأت المعركة!

ابتسم، وهو مطمئن بشكل واضح لما أحسَّ به.

ـ فقط ليت الشبّان نذروا. . . قال متنهداً. تناول من الصندوق ظرفاً من الحرير مشابهاً لذاك الذي كان ملفوفاً حول قائمة الطائر. وكتب عليه رسالة موجهة إلى بوزروق أوميد يأمره فيها بالسير حالاً إلى آلموت. كان يستعد لأن يعهد بالرسالة إلى أحد طيور حمام رودلار، عندما أحضر الخفير واحداً من الطيور الزاجلة، والذي كان سهم الحارس لا يزال في حنجرته. فضَّ حسن البطاقة المثبتة في قائمته، والتي كانت مملوءة بكتابة ناعمة. «إلى حسن بن صباح زعيم الإسماعيليين سلاماً! يسير إلينا الأمير قيزيل سريق مع كل قواته في خراسان وفي خوزستان. القلاع الصغيرة استرجعت، كان على المؤمنين أن يلتجئوا عندنا في زور غامباذان. العدو يطوقنا، القيظ شديد والماء سيشح. والمؤن أيضاً ليست كافية. أصدرت أمراً بالمقاومة، لكنَّ ابنك حسين يقنع جماعتنا بتسليم القلعة إلى قوات السلطان، كي يحصلوا بالمقابل على الخروج الآمن. أنتظر أوامر حاسمة. موقعة من قبل حسين القيني. . .».

امتقع وجه حسن، غضب مجنون شنَّج شفتيه: كل جسمه كان يرتجف. . . أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، ويصيح كمن أصابه مسٌّ:

ـ ولد مجرم! سأكبله بالقيود! سأخنقه بيدي!

عندما جاء الداعية الكبير إلى عنده، أعطاه الرسالتين من دون أن ينطق بكلمة. قرأهما أبو علي بانتباه.

ـ لا يحدثني قلبي بأية سلامة من جهة هاتين القلعتين. قال أبو علي كتعقيب وحيد. لكنك تؤكد أنك رتبت حيلة ناجعة وأنا أثق بك.

ـ تمام! أجاب حسن. سأرسل إلى رودبار وزور غامباذان رسائل أضمنها تعليماتي. . . سآمر بأن يرمى الخائن ابني وكل الساخطين في السجن. وليتركوا يقاسون آلام الجوع والعطش، وعلى الآخرين أن يصمدوا حتى آخر واحد.

دوَّن تعليماته، حمام زاجل سوف ينقلها إلى القلعتين، قام هو وأبو علي

بتثبيت المغلفات الحرير الرقيقة في قوائم الطير، ثم صعد حسن إلى قمة برجه، وطيَّر الحمامتين.

عند عودته إلى مساكنه قال لكبار الدعاة:

ـ يجب أن يُنذر التلاميذ الآن. إنهم الصخرة التي أريد أن أبني عليها قلعة سيادتنا.

كيف قدموا اختبارهم؟

ـ أنا مسرور منهم، أجاب أبو علي. لقد جهَّز مينوتشرشر وعبدالملك جنوداً لم يشهد أحد مثيلاً لهم...

ـ آه، فقط ليت بوزروق أوميد كان هنا...

دمدم حسن بينه وبين نفسه. سترون المفاجأة التي حضرتها لكم!...

ـ في الواقع راح الكثير ولم يبق إلاّ القليل من الوقت اللازم لكبح فضولي ـ علَّق أبو علي ضاحكاً ـ.

كان لا بد للامتحانات من أن تبدأ بعد صلاة الظهر مباشرة تجمَّع الجميع، تلاميذ ومعلمون في المطعم. ما إن عاد أبو علي حتى انتقلوا إلى الاختبارات الاستجوابية. استطاع كل واحد أن يلاحظ التبدل الذي تمَّ، منذ الصباح، في موقف داعي الدعاة المستقر على الأرائك المتوضعة على امتداد الجدار، كان يحدق في الأرض بنظرة كئيبة، بدا وكأنه لا يعير إلاّ أذناً ساهية إلى أجوبة التلاميذ، وكأن ذهنه مشغول تماماً بشيء آخر. بدأ أبو سراقة بأن طرح على التلاميذ أسئلة متعلقة بتاريخ الإسماعيلية. أجاب أربعة تلاميذ، فبدا أن الموضوع كان يأخذ مجراه دون أي عائق مثلما كانت الحال عليه في الصباح. إنّما عند الخامس وقف الداعية الكبير وأخذ يطرح الأسئلة بنفسه.

ـ رديء! ـ قال ـ عندما لم يحصل على الأجوبة التي كان يأمل بها.

تمهَّل أبو سراقة قليلاً مع ابن طاهر الذي كان يجيب بشكل صحيح على كل شيء.

ـ ليتابع ـ قال داعي الدعاة متلهفاً، أريد أن أسمع أيضاً من هم أقلُّ تمكناً من صديقنا...

كان جعفر وعبيده يتحاشيان تقريباً الأفخاخ التي كانت تنصب لهما. التفت أبو سراقة أخيراً نحو سليمان، وشوهد أبو علي يضحك خفية.

قدَّم سليمان أجوبة سريعة ومبتورة. كما لو كان معصوماً عن الخطأ في كل شيء. لكنَّ تلك الأجوبة على الغالب لم تكن خالية من الثغرات هذا إن لم تكن كلها مغلوطة.

ـ أنت لا تجيد المسايفة مع الحقيقة. أيها المقدام. علَّق أبو علي وهو يهز رأسه إذ لا بد للفدائي أيضاً من أن يمتلك ذهناً لا يعرف الهزيمة.

تراجع سليمان مضطرباً للغاية.

جاء دور يوسف أخيراً: والذي ضحك التلاميذ منه وهم يتخفون على الرُّغم من أنهم يهابونه. حضَّر له أبو سراقة أسهل سؤال: قائمة الأئمة ابتداء من علي وحتى اسماعيل. لكنَّ يوسف كان مشوشاً للغاية، لدرجة أنه تلعثم في نطق اسم الإمام الثالث. ـ بلحية الشهيد علي. صرخ داعي الدعاة. إني بريء من جهل كهذا!...

نظر أبو سراقة باهتياج إلى يوسف الذي خرَّ في زاوية أقرب إلى الميت منه إلى الحي.

جاء أخيراً دور الحكيم في استجوابهم. تخلَّص الطبيب من المسألة بشكل لبق، كان يعلم أن أبا علي لا يقتنع بفلسفته، ولا بآرائه بالنسبة لماهية الإنسان. ولم يفت داعي الدعاة في الواقع من أن يستحسن كل الإجابات مهما بلغت في تحررها أحياناً. في المقابل فقد كان التلاميذ يعرفون جغرافيتهم جيداً، بحيث إن الداعية هنأهم عبر ابتسامة رضى خاطفة. وانتقل أبو علي سريعاً من هذه المادة.

فرغوا سريعاً أيضاً من القواعد والحساب والبلاغة. لم يتوقف الداعية مطوَّلاً إلاَّ عند العقيدة إذ علَّق أهمية كبرى على هذه المادة، طرح إبراهيم أسئلة واضحة وبسيطة، ومعظم التلاميذ أجابوا بشكل صحيح.

ـ لنختبر الآن ذكاء مرشحينا الفطري. ـ تدخل أبو علي ـ يوسف أنت أيها البطل في الرماية ستقول لنا من هو الأقرب إلى الله: النبي أم الملاك جبريل؟

وقف يوسف. ولم يستطع أن يقدم غير نظرة يائسة. سأل أبو علي مجاورَيْه: الأول كان ميالاً إلى النبي، والآخر إلى الملاك، لكنَّ أيًّا منهما لم يكن قادراً على تقديم دليل قوي كي يبرهن على ما يؤكده.

ضحك أبو علي هازئاً بخبث.

ـ صديقنا ابن طاهر سيفصل.

وقف ابن طاهر وأجاب بصوت هادئ.

ـ أرسل الله ملاكه جبريل بالذات لينبئ محمداً برسالته النبوية، فلو لم يكن الله يتقصد تمييز محمد تحديداً أمام الجميع لكان اكتفى بأن يعهد بهذه الرسالة النبوية إلى ملاكه مباشرة. وإذ هو لم يفعل ذلك يكون إذاً قد ادَّخر لمحمد دوراً فريداً متميزاً. حتماً فإن هذا الأخير يشغل في الفردوس أيضاً مكانة أسمى من تلك التي يشغلها جبريل.

ـ هذا هو الجواب الصحيح! قال أبو علي مستحسناً. والآن وضِّح لنا هذا أيضاً. ما هي الروابط المتبادلة التي من خلالها يتخذ كل من النبي وسيدنا مكانته بالضبط؟

ـ الرابطة القائمة بين سيدنا والنبي هي نفس الرابطة الموجودة بين الابن الأول والأخير.

ـ ليكن. إنَّما من يمارس الآن السلطة الكبرى على المؤمنين؟

ـ سيدنا، لأنه هو من يحتفظ بالمفتاح الذي يفتح باب الفردوس!

نهض أبو علي، ونهض معه الجميع، تفرَّس التلاميذ الواحد بعد الآخر. ثم خاطبهم بلهجة رسمية:

ـ بإمكانكم أن تذهبوا إلى الحمامات وترتدوا ثياب الاحتفالات، لتستعدوا، فاللحظة الكبرى في حياتكم تقترب. عندما يحين وقت صلاة العشاء ستنذرون جميعاً فدائيين. انحنى، ابتسم ابتسامة لطيفة. وغادر الحجرة بخطىً سريعة.

وصل رسول من الرَّيْ يعدو على حصانه. أَبلغ حسناً أن قافلة الإمداد المرسلة من قبل موتسوفر قد صارت على الطريق: ستصل القلعة في هذه الليلة نفسها. وفي الحال جاء جاسوس يعلم حسناً بأن مقدمة الجيش التركي قد برزت إنها تتقدم بسير سريع ويمكن لها أن ترى من القلعة قبل نهاية هذه الليلة. أو في الصباح الباكر على أية حال.

استدعى حسن أبا علي ومينو تشرشر في الحال، بسط خارطة على الأرض، وأخذوا ثلاثتهم يقدرون أفضل الاحتمالات التي تمكنهم من الاشتباك مع قوات السلطان.

ـ أولاً، إرسال رسول في لقاء رجال موتسوفر، قرَّر حسن.

من الأفضل ألاَّ يأخذوا سريعاً وجهة القلعة، إنما ليوجههم عبدالملك نحو الطريق القادمة من رودبار. هناك سيكمنون بانتظار مرور القافلة التركية. ثم يتبعونها عبر مسافة مناسبة. نحن سننتظر العدو أمام آلموت وعند ذلك سيلقون بكل قواتهم على مؤخرة جيش الأتراك. وهكذا سنسحقهم كما لو كانوا بين رحى طاحون.

وافق أبو علي ومينوتشرشر. عينوا ضابطاً كي يسير على جواده مع بضعة رجال إلى لقاء رجال موتسوفر، أعطى مينو تشرشر الأوامر اللازمة. وسأل حسن داعي الدعاة عن أوضاع التلاميذ.

ـ هم ليسوا أنبياء، اعترف أبو علي ضاحكاً. لكنهم جميعاً يطفحون بالحماسة وإيمانهم لا يتزعزع.

ـ عظيم! هذا هو المهم. استحسن حسن وهو يفرك يديه.

إحساسهم بأن أحداثاً حاسمة تقترب، أفعمهم بلهفة متهيِّجة.

ـ إذهب إنها الآن لحظة القيام برسامة التلاميذ. هذا هو نصُّ القسم الذي عليهم أن ينطقوا به، ستركز على طقوسية هذه اللحظة.

ستتكلم بحمية وحماسة عن بطولة الشهداء، ستهزّ نفوسهم الفتية. ستضرم حميتهم، يجب أن تجعل من تسميتهم فدائيين شيئاً مدوياً. ستهددهم بكل أنواع القصاص المرعبة. ستهددهم بالهلاك إن لم يكونوا خاضعين لنا خضوعاً تاماً! منذ كم من السنين وأنا أحلم بتنشئة هكذا تلاميذ بحسب تصوراتي. بأن أعيد جبلتهم، وأغير مقاصدهم. إلى أن أبني عليهم سيادة أنظمتي! أخيراً! أخيراً. بلغت ذلك.

ـ أنت تعلم أنني كنت دائماً واثقاً بحكمتك، تدخل أبو علي، ومقتنع بأن لسلوكك الحالي أسبابه. لكنني لا أستطيع أن أكفَّ عن التفكير بأن من الحكمة أكثر أن ترأس أنت بنفسك هذه الرِّسامة. انظر! إنهم يتحرقون لرؤيتك مرة واحدة فقط، لأن تظهر عليهم، ليشعروا بأنك رجل حي ولست فقط قوة خفية يدينون لها بالطاعة. وبذلك ستكون لحظة تقليدهم لحظة ماجدة بشكل لا مثيل له.

ـ هذا صحيح. لكنني مع ذلك لن أتصرف بشيء.

سرح حسن في أفكاره، وبقي نظره مشدوداً إلى الأرض.

ـ أنا أعرف ما أفعل ـ أضاف في النهاية ـ عندما يريد أحد أن يسحر أناساً، أن يستخدمهم كأدوات بسيطة، يكون من الأفضل أن يبقى خارج اهتماماتهم. ما يهمنا الآن في هذه اللحظات الحاسمة، أن يكون المرء متحرراً ومنفصلاً عن قلبه. عندما سيحضر بوزروق أوميد سأبين لك كل شيء. العلم الذي ستسلمه إلى الفدائيين جاهز. اذهب ونفذ ما أمرتك به. إن هذه الرِّسامة في نظري لأهم بكثير من الانتصار على الأتراك.

تحولت قاعة المجلس الكبيرة، في قصر الزعيم الأعلى إلى قاعة صلاة

هذا المساء. كانت هذه المرة الأولى التي أذن فيها للتلاميذ أن يدخلوا هذا القسم من القلعة. حراسة الخصيان حملة السلاح، عُزِّزت هذه الليلة. وكان الزنوج هذه المرة في كامل لباسهم، من الحذاء حتى البرنس، مع شكتهم، من خوذ وتروس. غمٌّ تغلغل في قلوب الشبان عندما وجدوا أنفسهم في القاعة الخالية والمفروشة بأبهة بالبياض. هم أنفسهم ارتدوا جلابيب بيضاً، وعمامات بيضاً، كانوا حفاة بحسب الأمر الذي وجهه إليهم الدعاة الذين كانوا يرتدون البياض أيضاً. نسقوا التلاميذ في مجموعات، وأخذوا يعيدون عليهم بصوت منخفض التعليمات المتعلقة بالأسلوب الذي سيتوجب عليهم اتباعه خلال الاحتفال، شوهد الشبان شاحبين ومنهكين. وأوشك البعض منهم أن يصل إلى منتهى الضعف.

رُدِّد صدى البوق الذي ذكر بصلاة العشاء أخيراً. دخل أبو علي في الحال. يرتدي هو نفسه جلباباً أبيض، ويعتمر عمامة بيضاء مرتفعة من اللون نفسه. اجتاز الحجرة كلها وجاء ليأخذ مكانه أمام التلاميذ، وقد اصطف الرؤساء حوله في نسقين. بدأ الاحتفال. تلا أبو علي صلاة العشاء بنفس اللهجة الرتيبة التي يؤثرها في مناسبة كهذه. ثم التفت نحو التلاميذ، وأخذ يبين لهم معنى النذر الذي سيعيشونه هذا المساء. الفرح الذي بإمكانهم أن يحرزوه حلالاً. الولاء الذي عليهم أن يدينوا به لسيدنا ولممثليه. حكى لهم عن سعادة الشهداء، وقيمة مَثَلهم الذي لا بدَّ له من أن يكون مَثَلَهم الأعلى.

أعظم لحظة في حياتكم تقترب ـ أوضح لهم ـ أنتم مدعوون كي تكون منكم جماعة النخبة. فدائيون مستعدون للتضحية بالنفس، من أجل القضية المقدسة. أنتم اثنا عشر واحداً: الوحيدون من بين مئات آلاف المؤمنين الذين حظوا بهذه السعادة. ساعة الامتحان صارت قريبة. حيث سيكون عليكم أن تثبتوا ولاءكم لسيدنا، وأنتم تحملون السلاح بأيديكم.

العدو يزحف نحو آلموت هل هناك واحد من بينكم يستطيع أن يتردَّد في

اللحظة الحاسمة؟ هل من بينكم واحد يريد أن يستحق نتيجة لخيانته القصاص بميتة غير مشرّفة؟ أنا أعلم أنه لا يوجد منكم أمثال هؤلاء أبداً التمست لكم جميعاً الرّسامة عند سيدنا. ورجوته أن يقلّدكم جميعاً، وقد تكرم بالإصغاء إليَّ. فهل تريدون أن تظهروا غير جديرين ببركته وبثقتي؟ وهاأنذا باسمه أنذركم جميعاً فدائيين! سأتلو عليكم نصَّ القسم الذي يمهر التزامكم. ستدعون، سترددون هذا النص جميعكم بعدي: عندما ستنتهون من القسم تبدل كبير سيحدث داخلكم. مرحلة التلمذة ستتوقف بالنسبة لكم. ستصبحون المدافعين بامتياز عن سيدنا. والآن أصغوا والفظوا كل كلمة بعدي!

فتح يديه الضخمتين، رفع بنظره نحو السقف. نطق أخيراً بلهجة انجذاب:

ـ أنا... أقسم بالله، بمحمد نبيه، بعلي وكل الشهداء، أعاهد رسمياً بأن أنفذ دون تردد، كل أمر يصدر عن سيدي أو عن ممثليه، وأن انذر نفسي للدفاع عن علم الإسماعيلية الأبيض ما حييت، وحتى نزعي الأخير. بهذا العهد أتلقى رسامتي كفدائي. ولا أحد غير سيدنا يستطيع أن يعفيني منها. أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً نبيه. أدركنا إيها المهدي.

كان التلاميذ متأثرين بشكل واضح بقدسية اللحظة. وجوههم بلون الشمع، وعيونهم تشع بشكل محموم. وابتسامة غبطة على شفاههم. عذوبة يعجز عنها الوصف كانت تخترق قلوبهم. فالغاية من تلك المثابرة والجهد الطويل قد بلغتْ!

حصلوا على رسامتهم التي طالما إليها كانوا يتوقون...

أشار أبو علي إلى ابراهيم الذي ناوله العلم.

فضه الداعية الكبير، فلمعت على سطحه هذه الكلمات المستمدة من الآية الخامسة من سورة القصص والمطرّزة بخيوط من ذهب:

﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم الأئمَّة ونجعلهم الوارثين﴾

ـ يا ابن طاهر! اقترب ـ أعلن ـ أنت الأول بين النخبة المصطفاة، أضع العلم بين يديك. ليكن من هذه الراية رمز شرفكم وعزتكم. فإذا ما تركتم العدو يطأها بأقدامه، ستكونون قد جعلتموه أيضاً يمرِّغ عزّتكم وشرفكم. ستحيطونها أيضاً بعناية تفوق عنايتكم ببؤبؤ عيونكم. لا يجوز للعدو أن يستولي عليها طالما أن فدائياً موجوداً على قيد الحياة، لن يستطيع بلوغها، إلاَّ وهو يمشي على جثثكم جميعاً. اختاروا خمسة من بينكم وسيعين بالقرعة من سيكون حامل رايتكم.

أخذ ابن طاهر الراية من يديه كما لو كان في حلم، ثم عاد ليتمركز على رأس الفدائيين وابتعدت اللحظة التي كانت تمثل ذروة حياته، وإحساس العذوبة الخارق الذي ضيق خناقه، قد أخلى مكانه شيئاً فشيئاً لألم مبرح: الإحساس بفقد كل شيء رائع فجأة أيقن أن تلك اللحظة التي عاشها، والتي كانت سريعة بشكل يدعو إلى اليأس لن تعود إطلاقاً.

رُسلٌ كانوا يتوافدون إلى القلعة، وآخرون يخرجون منها، أُعْلِمَ عبد الملك على الفور. فتوجه مع موتسوفر نحو الطريق التي كانت تُنْتَظر فيها القافلة التركية. جواسيس أرسلوا نحو العدو، كانوا يشكلون سلسلة لا يمكن فصمها. حيث كان لحلقاتها أن تتصل سرِّياً بواسطة إشارات متفق عليها. وكالة الاستخبارات كانت تدار بإتقان.

عندما عاد أبو علي. هتف حسن، وقد بدا عليه العزاء:

ـ أخيراً. انتهينا.

ثم أمر داعي الدعاة بحشد الجيش اللازم، وبالتمركز في الوادي الذي يتقدم الشعب، بانتظار مقدمة جيوش السلطان بثبات.

ـ ماذا سنفعل بالفدائيين؟ سأل أبو علي.

ـ ستوائمهم هذه المعركة، ـ أجاب حسن ـ ستأخذهم معك، وليبق أبو

سراقة على رأسهم. ولتحرص بشكل خاص على ألاَّ يهلكوا في مجزرة! أريد الاحتفاظ بهم من أجل المقاصد الجُلّى.

لا تعرضهم إلى مخاطر جسيمة. حتى لو أوصيتك بأن تعهد إليهم بأعمال فائقة. ليرموا مثلاً أوائل السهام، أمَّا الجنود القدماء وهم يشتبكون وجهاً لوجه، لا ترسل بهم إلى صميم المعترك إلاَّ إذا بدا لك أن النصر محقق، أو بالطبع في حالة الخطر القصوى. وإذا ما سمحت الفرصة فاعهد إليهم بانتزاع علم العدو.

أوكلك بالأمر. أنت الركيزة التي أبني عليها مستقبلنا المشترك.

ما أن صرف حسن أبا علي، حتى أخذ دربه إلى الرياض القائمة خلف القلعة.

ـ خذني إلى سرادق مريم. ثم اصطحب أباما إلى هناك. ـ أوعز إلى عدي ـ ليس الوقت الآن وقت شقاقات.

جاءت مريم لتمثل أمامه. فأخبرها بأنه بعث في طلب أباما.

ـ منذ الليلة الماضية، وهذه العجوز تتصرف بطريقة غريبة. قالت الشابة بلذعة من الحقد. هُيِّيء إليَّ بأنك أعطيتها تعليمات محددة...

ـ ليس الوقت الآن وقت لهو، قال حسن جازماً ـ نحن الآن موكلون بمسؤولية كبرى: نحن بحاجة إلى كل إمكاناتنا إن كنا نريد لخطتنا النجاح، ولعدونا الإبادة.

أحضر عدي أباما لتوه. فتفحصت تجهيز السرادق بعين غيورة.

ـ لقد رتبتما هنا عشاً صغيراً ـ قالت ساخرة ـ طائري حمام حقيقيين...

انطلق أبو علي مع كل رجال الموقع ليأخذوا مواقعهم أمام أسوارنا. مشوا للقاء جيش السلطان الذي لا بدَّ أنه آتٍ لمحاصرتنا من جهة أو من أخرى ـ استهلَّ حسن كما لو أنه لم يسمع كلمات أباما ـ ودعا المرأتين لأن تأخذا مكانهما على الأرائك، قبل أن يجلس هو بدوره.

بدا الخبر وكأنه قد روَّع السيدة العجوز، فكانت تنقل نظرها بين حسن ومريم.

ـ ماذا سيحل بنا؟ سألت بصوت غير مطمئن.

ـ كل شيء يسير على ما يرام. إن طُبِّقت أوامري حرفياً. أخبرها حسن، أمّا في عكس ذلك، فسوف نصبح ضحايا مجزرة لم يسبق للعالم أن شهد لها مثيلاً.

ـ سأفعل كل ما توصي به أيها السيد. أجابت أباما وهي تصب الخمر في الكأس.

ـ هذا ما أبتغيه منك. مثلما أبتغيه من مريم. لتصغيا جيداً، الشرط الأكثر أهمية لنجاح مشروعي هو التالي: يجب أن تعدا أنفسكما كي تضفيا على هذه الرياض مشهداً فوق طبيعي. بعبارة أخرى، أن يعطى إلى هذه القلوب البسيطة والغرَّة انطباعاً بأنها فردوس حقيقي. لن يكون ذلك بالطبع في ساعات النهار، إنما في الليل لأن المشهد المحيط سيكشف الخدعة فوراً، لذلك ستلزمنا بالدرجة الأولى إضاءة قوية جداً، كي تظهر منه كل جزئية تستلفت الانتباه، يجب أن تظهر فيه ضمن نوع من الضوء، ولا بدَّ لكل ما تبقى أن يبقى غارقاً في عتمة لا يبددها شيء. هل تتذكرين يا أباما، بعض الليالي التي أعدَّها على شرفك أمير شرقي في كابول؟

ـ آه! يا سيدي! كيف لي أن أنسى ذلك، كنا حينئذ في شرخ شبابنا.

ـ لا يتعلق الأمر إلاّ بتوظيف بعض الجزئيات المختارة جيداً. أتذكرين كم أعجبت بتلك المصابيح المبرقشة المستوردة من الصين التي كانت تحول ليالي الرياض إلى نهار سحري؟ عندما كان كل شيء نيِّرًا بل ومتبدلاً تماماً... كما لو كنا قد اكتشفنا فجأة عالماً آخر...

ـ نعم!... وجوهنا كانت تأخذ أحياناً لون الذهب، وأحياناً لون الأرجوان، خضراء وطوراً زرقاء... أو مبرقشة بشكل خيالي! آه يا للمشهد الإلهي... ووسط كل هذا كان هيامنا المضطرم...

ـ مشهد رائع في الواقع، لكنني أود أن أعرف فعلاً، إذا كنت لا تزالين تحتفظين بذكرى واضحة عن هذه المصابيح بشكل يكفي كي نصنع منها أشياء مماثلة؟

ـ أصبت، فالماضي مضى. . . إنه لا يستحق عناء التحدث عنه. الآن جاء دور الآخرين. تسألني إذا ما كنت أتذكر تلك المصابيح؟ بالطبع أستطيع أن أصنع مثيلاتها، إن كان لديَّ الورق والألوان.

ـ ستحصلين على ذلك. ستعرفين أيضاً أن تزخرفيها برسوم مناسبة؟

ـ لدينا صبية بارعة في هذا الفن.

ـ إنها فاطمة ـ أردفت مريم ـ التي كانت تصغي إلى هذا الحوار بابتسامة صامتة. الجميع يستطعن أن يساعدن أباما في هذا العمل.

ـ بالإضافة إلى أن هذا سيكون سريعاً، ويجب، أن يكون جاهزاً من أجل مساء غد. ليحضِّر الخصيان المآكل والخمور. أظن أنه لا يزال يوجد ما يكفي من الخمر في الأقبية!

ـ يوجد منه ما يزيد على الكفاية.

ـ حسن، غداً سأزور الرياض فيما بين صلاتي الظهر والعصر. أريد أن أظهر على الصبايا، كي ألهب حماستهن. بل كي أعطيهن بنفسي أيضاً توجيهات على الطريقة التي سيكون عليهن تبينها حيال الزائرين. لن أقبل بالهزل. تلك التي ستسول لها نفسها بالاعتراف بأنها ليست حورية، وبأن الجنان ليست هي الفردوس الحقيقي سيحكم عليها بالموت من دون رحمة. لا أظن أنهن سيجدن أية صعوبة في تمثيل هذه الملهاة.

ـ كل واحدة ستتخيل نفسها أميرة. تدخلت أباما. عندئذ. . .

ـ سيتوجب مع ذلك أن نعدَّهن لتقمص هذه الشخصيات قالت مريم مهتمة.

ـ التهديد بأقصى العقاب سيساعدهن على ذلك، صدقيني ـ طمأنها حسن

ـ من البديهي جداً أن تعد السرادقات الثلاثة بشكل أخاذ من أجل الاستقبال، وأن تتأهب الصبايا في تنظيم منسجم بارتدائهن الجديد من رأسهن حتى أقدامهن. سيكتسين بالحرير، وبالذهب، وبأنفس الأحجار الكريمة. متجملات بحيث لن يكون من الصعب عليهن أن يحسبن أنفسهن بأنهن فعلاً من قاطني الفردوس. آمل من هذه الجهة أن تكون المدرسة قد أدَّت مهمتها.

ـ بالنسبة لهذا، لا تخشَ شيئاً يا سيدي، سنحرص على كل شيء مريم وأنا.

ـ أنتما الماهرتان في هذا الموضوع، قولا لي كيف عليَّ أن أقدِّم نفسي إلى تلك الصغيرات كي أوثر فيهن أكبر تأثير؟

ـ عليك أن تقدِّم نفسك كملك ـ أجابت مريم ـ فكذلك هنَّ يتخيلنك ويشتهينك.

ـ لا بد من أن تأتي بصحبة موكب. أضافت أباما يجب أن يكون قدومك محاطاً بأبهى المراسم.

ليس لأحد ما عدا الحراس ومأموريَّ أن يكون على اطلاع بسرٍّ هذه الجنان. سيكون عليَّ إذً أن أكتفي بهم. إنَّما كيف يمكن لتلك المقطوشات أن يتصورن ملكاً؟

المشية المهيبة، التعابير الأنوف... هكذا يجب أن يكون الملك، صرَّحت مريم بابتسامة ـ ولا تنسَ أيضاً المعطف الأرجواني، وتاج الذهب الذي يغطي رأسك.

ـ في الحقيقة، على الحكيم أن يتنكر. كي يحرز عند الشعب الاعتبار والسلطة...

ـ لقد فطر العالم على ذلك. قالت أباما متنهدة.

ـ لا تفتقر القلعة إلى هذه الأقمشة وهذه الحلي، لقد جهزنا أنفسنا بكل هذا في الوقت المحدد.

أخذ حسن يضحك. انحنى على أُذن أباما:

ـ هل الحمامات جاهزة. . . مع كل ما يلزم؟

ـ كل شيء جاهز يا سيدي.

ـ حسن، غداً ومنذ الصباح الباكر ستبدآن العمل جدياً. تنتظرانني مع الصبايا. تصبحان على خير.

قاده عدي ثانية ودون ضجيج إلى باب الرياض.

عند عودته إلى مساكنه، استعرض الموقف مرة أخرى. عشرون عاماً وهو يعدُّ نفسه إلى هذه اللحظة دون توقف أو كلل. طيلة عشرين عاماً، دون تردد. دون تراجع أمام أي شيء. كان صلباً وعنيداً أمام نفسه، كل هذا من أجل غاية وحيدة بأن يجعل من رغبته المقدسة حقيقة. كي يجسد حلمه.

أية خرافة هي الحياة! كان الشباب مفعماً بالأحلام، سعي مضطرب يملأ الكهولة. والآن في هذه السنّ المتأخرة بدأت أحلامه القديمة تتحول إلى واقع. صار زعيم آلاف المؤمنين. شيء واحد لا يزال نفوذه يفتقر إليه: أن يصبح رعب السلاطين والطغاة الأجانب، أياً كانوا. الخطة التي صارت الآن على وشك التنفيذ كانت السبيل إلى ذلك. خطة مبنية على المعرفة الدقيقة لطبيعة ومواطن الضعف الإنساني. خطة همجية مجنونة، خطة محسوبة، مرقمة مقيسة! تساءل فجأة في ما إذا كان قد نسي أدنى جزئية قابلة لأن تهدم تدابيره البارعة.

اقتحمه توجس غريب. وإن كان قد أخطأ في حساباته في جهة ما؟

حاول دون جدوى أن يجد الراحة في النوم. ارتياب دائم كان يعذبه.

في الحقيقة لم يكن يفكر جدياً في نتائج إخفاق محتمل. هل لأنه لم يتصور أخيراً كل الاحتمالات؟ لأول وهلة كانت هذه الفكرة ترعبه.

«هيّا، لا بدَّ من تحمل أرزاء هذه الليلة. ـ قال متعقلاً ـ بعد ذلك سيكون كل شيء بخير».

خُيّلِ إليه أنه بحاجة إلى الهواء. وقف، ثم صعد إلى قمة البرج. فوقه كانت قبّة السماء المزدانة بالنجوم. تحته، هدير النهر، حوله الحدائق بنمط حياتها الغريب، أول تجسيد لأحلامه غير العادية! هناك، في الخارج، أمام القلعة جيشه الذي ينتظر قدوم مقدمة جيش السلطان. والجميع وضعوا فيه ثقة دون حدود. الجميع كانوا خاضعين لسلطته دون تحفظ. هل واحد من بينهم يقدر على الشك بالمصير الذي يقودهم إليه!

وفكرة عبرت خاطره. ليته يستطيع أن يتملّص من كل شيء.

لو يستطيع امتطاء الحاجز. والاختفاء مدفوعاً بمياه شاه رود. لو تتوقف مسؤوليته إلى الأبد، لو يهرب من كل شيء.

إنمّا ماذا كان سيحصل لرجاله بعد ذلك؟ لكان لأبي علي أن يؤكد بأن الزعيم

«أمبيدوقليس Empedocle» قد صعد إلى السماء. مبجلاً كنبي أو كقديس عظيم.

كان كَمَنْ فتنه إغراء الأعماق، تمسك بالجدار. أحسَّ فجأة بأنه يتجشم كل عناءات العالم كي يقاوم نداء الخواء. لم تسكن كآبته إلاَّ عندما عاد إلى غرفته.

فاستسلم للنوم أخيراً...

حلم أنه في بلاد أصفهان... تماماً كما منذ ثمانية عشر عاماً. قاعة انتظار كبيرة. لا شيء حوله من كل جهة سوى أصحاب المقامات العالية والشخصيات العظيمة. والسلطان ملك شاه نصف مستلق، نصف جالس

على منصته يصغي إلى تقريره. يفتل بشاربيه الطويلين الخفيفين ويرتشف الخمر. الصدر الأعظم، زميل حسن القديم يقف بالقرب منه. ويوجه إليه بغمزات متواطئة. وهو، حسن، يقرأ التقرير ويقلب الصفحات.

فجأة لاحظ أن الأوراق المتكلم عنها بيض. لم يستطيع أن يستمر. زلَّ لسانه. أخذ يتلعثم بكلمات غير منسجمة. حدَّق فيه السلطان بعينيه القاسيتين الباردتين.

«يكفي!» صرخ ـ مشيراً إلى الباب. انثنت ركبتاه. ارتجت القاعة من ضحك الصدر الأعظم الأصم... استيقظ مذعوراً، يبلله العرق، فارتعدت كل أوصاله.

ـ حمداً لله ـ همس ـ ما هذا إلاَّ مجرَّد حلم. وبعد أن هدأ غطَّ في نوم عميق.



الفصل الثامن

كانت ليلة تضيئها النجوم. واحدة من تلك الليالي التي تمنحك الإحساس بأنك تسمع خفقات قلب الوجود. النسمة الباردة القادمة من دومافاند وباقي قمم الإيلبورز المكسوة بالثلوج، تمتزج بالحرارة المنبعثة من الأرض التي أحرقتها شمس النهار.

كان المقاتلون يسيرون في الشِعْب على التتابع. يتقدمهم أبو علي. لكل مجموعة من خمسة فرسان حامل مشعل مكلف بإنارة الطريق. كانت الفراشات تحوم حول اللهب وتحترق فيه. أوامر الضباط والعرفاء، صراخ الجمَّالة، صهيل الخيل، كانت تنتشر مرجعةً أصداء الوادي، طاغية تقريباً على هدير المسيل.

عسكر الفدائيون في مخيمهم عند أسفل المنحدر الذي كان يرتج مدخل الشعب، في وضعية مستترة بمنتهى المهارة.

نصبوا خيامهم، أشعلوا النيران، وركزوا خفيراً على بعد حوالى مائتي خطوة من هناك، يحميهم نجد مغطًى بالأحراش. أقام المقاتلون الآخرون من الخيالة، رمَّاحون ونبالون معسكراً ارتجالياً محميين بنتوء جبلي تكسوه الأدغال. شوهدوا هم أيضاً يشعلون النار في حفرة كي يتدفأوا ويحضروا طعامهم الجماعي إذ أخذوا يشوون عجلاً بكامله. كانوا يتحدثون بصوت خافت ويضحكون بجذل، وعلى الرغم من كل شيء، كانوا يلقون بين الحين والآخر بنظرات ترقب في اتجاه نقطة محدَّدة من الأفق:

على مسافة ليست بعيدة كان يمكن للمرء في الواقع أن يميز مقابل السماء، وفي أعلى الشعب، جانباً من برج الحراسة، حيث يسهر شبح ذلك المتربص المنتصب كما التمثال.

هؤلاء الذين عينوا كرجال دوريات، التفوا بمعاطفهم واستلقوا كي يأخذوا سنة من النوم. شعر الفدائيون في تلك الأثناء بالتعب يعاودهم بعد تقديم الامتحانات المهيجة للأعصاب، والانفعال الذي عقب الاحتفال الذي حضروه لتوهم.

وبحسب مشورة أبي سراقة، فقد تلفلفوا بأغطيتهم في وقت مبكر وحاولوا أن يناموا. اليومان الأخيران، كانا مشبعين بالمفاجآت بحيث إن انتظار المعركة لم يكن ليحرك اضطرابهما أكثر من ذلك. لم يتأخر البعض منهم في الاستسلام إلى النوم، في حين خرج الآخرون من تحت أغطيتهم وتراصوا حول النيران التي أوشكت أن تنطفئ.

ـ الحمد لله لم يعد لدينا تعلم! قال سليمان وهو يتنفس الصعداء. فالترصد للعدو أثناء الليل هو شيء آخر مختلف تماماً عن وضعك المؤخرة على الكعب وأنت تجر القلم على اللوح الصغير.

ـ المشكلة هي بأن نعرف إذا ما كان العدو يريد الزحف ـ استفسر ابن فاكاس ـ الذي كان في عداد الأكثر هدوءًا، وأكثر انطوائية في المدرسة، إنما في حالة الخطر فقد صار وكأن حمى قتالية تقلقه.

ـ تلك أفضل بكثير ـ قال يوسف ـ كل هذه الاستعدادات، كل هذا الاضطراب من أجل لا شيء. وكي لا يأتي التركي ولو ليجرب سيوفنا!...

ـ سيكون أحلى، لو وقعت أنت تحت سيوفهم بعد كل هذه الجهود المضنية، وهذا العمل الذي جعلك تلهث وأنت تمد لسانك ـ قال سليمان مازحاً.

ـ أجلنا مكتوب في كتاب الله ـ قال جعفر ـ الذي اختاره القدر لأن يكون

حامل الراية بلا مبالاة. فكان يفضل أن يرجع الأمر للقدر، ربما كي يطرد الزُهُوَّ الخفيَّ الذي أحسه يتغلغل في رأسه.

ـ مع ذلك، سيكون من الغباء بعد مكابدة هكذا تدريب، أن يأتي أول متوحش ويودي بك إلى الموت، ضحك عبيدة هازئاً.

ـ يموت الجبان ألف مرة، بينما لا يموت الشجاع إلاَّ ميتة واحدة. قال جعفر بلهجة حكيمة.

ـ ربَّما تحسبني جباناً لأنني لا أرغب بالموت هذه الليلة بالذات؟ قال عبيدة مهتاجاً.

ـ توقفا عن الشجار ـ تدخل يوسف ـ من الأفضل أن تنظرا إلى ابن طاهر الذي يتسلى بإحصاء النجوم. ربَّما يفكر أنه يراها للمرة الأخيرة.

ـ بشرفي! إن صديقنا يوسف صار حكيماً قال سليمان متهكماً.

كان ابن طاهر ينظر إلى السماء وهو يتدثر بغطائه على بعد بضع خطوات من رفاقه.

«أيَّة حياة غريبة هي حياتي ـ فكَّر ـ رجل أحلام طفولية تفنَّن الواقع في تشجيعها من خلال نزوة عجيبة». أخذ يتذكر السنين الأولى في البيت الذي ولد فيه. يسترجع محادثات الرجال الذين كانوا يلتمون حول والده يتجادلون في شرعية الخليفة، يستشهدون بالقرآن، يعلنون عن احتقارهم للسُّنة ويتناقلون بالرواية أسرار المهدي سرًّا. . . إنه من سلالة علي وسيأتي ليخلِّص العالم من الجور والباطل.

«أوه حبذا لو يأتي وأنا ما أزال على قيد الحياة». تنهد عندئذ. وحماسة خفية جعلته ينتفض، وجد نفسه منه بمنزلة علي من النبي، كان يشبه نفسه ورغماً عنه إلى صهر محمد. . . إلى النصير المتحمس الأول: علي أيضاً، عزم منذ شبابه المبكر، وأهرق دمه من أجل القضية. . . مع ذلك، فقد استُبعد بالافتراء عن خلافة النبي بعد وفاته. لكنَّ الشَّعب هو من فرضه إثر ذلك في النهاية، لنجده في نهاية الحساب مغتالاً بيد جبانة. هذه هي

الأحداث المحددة التي تلهب حماسه في الحقيقة. كان علي قدوته. ومثله الأعلى.

اختلج قلبه عندما أرسله أبوه إلى آلموت كي ينضوي تحت خدمة سيدنا! سمعهم يتحدثون عن شخصيته، يقولون إن الرجل قديس، وكثيرون ينظرون إليه كنبي. وفي الحال تقريباً، انطلق صوت في داخله يهيب به:

هذا من سيكون المهدي بالنسبة لك، هذا من تنتظره، من تتحرق لتقوم على خدمته! إنما لماذا لا يظهر على أحد. لماذا لم يكن هو من نصَّبهم فدائيين؟ لماذا عيَّن من أجل هذه المهمة عجوزاً أدرد أشبه ما يكون إلى امرأة عجوز منه إلى محارب جدير بهذا اللقب؟ لم يتبادر إلى ذهنه حتى الآن الشك بوجود سيدنا في القلعة. إنَّما في لحظة الإشراق هذه، فقد أخذ يرتاع لمجرد التفكير بأنه ربَّما يوجد في الوهم وربَّما لا وجود للحسن ابن الصباح في آلموت، وأن من المحتمل جداً أن يكون سيدنا قد اختفى. مخلفاً خلفه العرش خلياً ليستولي عليه أبو علي مع شركائه من الدعاة والشيوخ الآخرين!...

أبو علي نبي؟ لا يستطيع نبي ولا يجوز ولا يمكن لنبي أن يكون على هذه الهيئة! لكن ربَّما كان لهذا السبب كي لا يحبط المؤمنين الذين اخترعوا سيدنا صامتاً غير مرئي. إذ من يستطيع أن يعترف بأبي علي زعيماً أعلى للإسماعيلية؟

سرٌ كبير على سائر الأحوال تُرِك في القلعة. إنه يدرك ذلك وفي تلك الليلة بالذات كان الفضول يثير لواعجه اكثر من أي وقت مضى. ألن يتاح له أبداً أن يكشف ذلك الحجاب؟ أن يواجه الحقيقة قبلاً؟ دون خوف أن يرى الحق الباقي سيدنا؟ سمع وقع حوافر خيول، وبحركة لا إرادية امسك بسلاحه، وقف ونظر حوله، كان رفاقه ينامون، متدثرين بأغطيتهم. رسول وصل. رآه يتحادث مع أبي علي بصوت منخفض. أعطي أمر سريع. فأطفأ الخفراء ما تبقى من النيران المشتعلة. دون شك كان العدو يقترب.

استقر في قلبه آنذاك إحساس غريب من الطمأنينة. نظر فوقه بريق النجوم المتقد الجميل، فاعترف بضآلته، هو نفسه لم يكن إلا نقطة هائمة في الكون، فكان هذا الشعور بالنسبة له جميلاً.

ـ ربَّما أصل يوماً إلى الفردوس، همس في سره، أوه ليتني أصله فعلاً. . .

حلم بالصبايا اللواتي ينتظرنه هناك. . . بتلك الحوريات الجميلات ذوات العيون السود، والأطراف البيض، استعرض في ذاكرته النساء اللواتي عرفهن، أمه، أخواته، بعض القريبات. «لا بدَّ للحوريات من أن يكنَّ مختلفات ـ حلم ـ هؤلاء اللاتي يجدر بالمرء أن يهرق دماءه في هذا العالم من أجلهن».

وتخيَّل أنه يدخل فعلاً تلك الرياض الرائعة، عبر باب مشبَّك، تتسلقه أشجار اللبلاب، جال بأنظاره حوله، باحثاً بعينيه عن تلك الأشياء التي وعد القرآنُ الأخيارَ بها.

عاد إلى تحت غطائه. أجل، لقد صار في الفردوس فعلاً. . . صبية حسناء جاءت إلى لقائه، كان واعياً أكثر منه نائماً، لكنَّ هذه الحالة كانت جميلة بالنسبة له، فخاف أن يقطع تلك الروابط الرقيقة التي تربطه بها. وبهذا خلُص إلى أن استغرق في نوم عميق.

قطع البوق صمت الليل بنداء حربي طويل. أخذت الطبول تقرع، هبَّ الجيش واقفاً في الحال. أسرع الفدائيون إلى تقلد سيوفهم، وإلى وضع خوذ القتال، والتمسك بالرماح والتروس. . . اصطفوا في نسق مستقيم، ولا يزال بهم شيء من النعاس. يتراشقون النظرات خلسة.

ـ أعلن رسول لتوه بأن جيوش السلطان تقترب. أنبأهم ابن فاكاس. الذي كان آخر من التحق بالحراسة.

جاء أبو سراقة يتفقدهم بنظره، كي يجهزوا السهام والكنائن، ثم جعلهم يأخذون موقعهم في قمة الهضبة، قرب مركز الحراسة. أخذوا ينتظرون،

منبطحين على الأرض، كاتمين أنفاسهم. لكن العدو لم يكن مستعجلاً على ما يبدو، قليل من الوقت، وتناولوا من جعبتهم شيئاً من التين المجفف والبلح والكعك وراحوا يجرشون كي يقطعوا الوقت.

أبقيت الخيول عند أسفل الهضبة، وجنود مكثوا في مراقبتها، من وقت إلى آخر كان يسمع صهيل مضطرب. طلعت خيوط الفجر الأولى أخيراً. فاستطاع الفدائيون أن يلمحوا الأكمة التي عسكر فيها معظم الجيش. كان أبو علي قد نسق فرسانه خلف صف من الأدغال. وقوفاً بالقرب من مطياتهم. الرمح أو السيف بأيديهم على أهبة الاستعداد.

أما النبالون، فقد انتشروا على قمة الهضبة، سهامهم جاهزة للرماية.

كان كبير الدعاة يقوم بجولة في المفرزة للتأكد من وجود كل واحد في مركزه. جندي يمشي خلفه وهو يمسك حصانه من لجامه اقتربا أخيراً من الفدائيين.

لحظات قليلة، وبقعة بيضاء استبانت عند أفق الوادي. غادر أبو علي مركز الأرصاد الذي تمركز فيه لتوه. وجرى بأقصى سرعته يلتقي أبا سراقة لاهثاً. دلَّه إلى نقطة أمامه مباشرة.

ـ جهزوا سهامكم! أمر الداعية.

سرعان ما اتسعت السحابة البيضاء، وبعد قليل برز فارس منها.

شوهد يهمز حصانه بحنق شديد.

كان أبو علي يراقبه من بعيد وهو يرفُّ بعينيه.

ـ لا ترموا! إنه واحد من رجالنا ـ صرخ أخيراً.

امتطى جواده وانحدر نحو الهضبة. مومئًا إلى بعض الفرسان أن ينضموا إليه. انتزع من بين يدي واحد منهم الراية، وعاد لاستقبال الزائر.

شدَّ هذا اللجام متفاجئاً بهذه الإشارة الغريبة.

لكنه ما أن لمح الراية البيضاء، حتى دفع بمطيته عازماً في اتجاهها.

لقد تعرف عليه أخيراً. إنه أبو علي

ـ بوزروق أوميد

ـ أبو علي! وقد دلَّ الفارس بيده إلى شيء ما.

كل الأنظار اتجهت إلى الأفق. قطر أسود ارتسم فيه الآن متموجاً على وقع سير سريع.

استطاعوا بعد قليل أن يميزوا شبح الخيالة، كانت أعلام الخليفة السود ترفرف فوق رؤوسهم.

ـ تأهبوا! أمر أبو سراقة.

سارع أبو علي وبوزروق أوميد للقاء الرجال المنتشرين فوق الهضبة.

كلهم يرتجفون بهياج قتالي، جاهزين للانقضاض.

أمر جديد ألقي على النبالين:

ـ ليبحث كل منكم عن خصمه!

من الممكن الآن رؤية الفرسان الأعداء. واحد منهم كان يتقدمهم على جواده، مفسحاً لهم الطريق. حيث كانت مقدمة الجند تعرِّج نحو الشرق، مستعدة لولوج الوادي.

ـ ارموا!

طارت السهام باتجاه الأتراك. خرَّت بعض الخيول على الأرض تجرُّ خيّالتها، فبدا سير المهاجمين متردداً. ثم سمع قائدهم ـ الذي كان من السهل التعرف عليه من خلال القنزعة التي كان يضعها على خوذته ـ يصرخ:

ـ عليهم إلى الشعب.

كان أبو علي ينتظر هذه اللحظة كي يوجه إشارة. نزل الهضبة يتقدم كل خيالته ساداً المجال إلى التقدم، قاطعاً بحركة حذرة مدخل المضيق. بحيث إن الأتراك لم يعد لديهم الوقت لبلوغه. في الحال حصل الاشتباك.

انطلقت الأسلحة، تقاطعت الرماح مع الرماح، لمعت السيوف فوق الرؤوس، بينما اختلطت الرايات البيض والسود.

من أعلى قمة الهضبة كان الفدائيون يرقبون القتال، وقد ضاقت قلوبهم على حماسة يعجز الوصف عنه.

ـ هيا! امتطوا الخيول! إلى المعركة!...

هتف سليمان متأهباً للعدو على الحصان.

كان على أبي سراقة أن يندفع بنفسه ليوقفه.

ـ هل جننت؟ هل سمعت الأمر؟

أزبد سليمان من غضب جامح، ورمى بنشابه وخوذته أرضاً بحركة ساخطةٍ. واستلقى مثلما أمروه، باكياً يعضُّ قبضته كالمسعور.

أخذ الأتراك يتشرذمون بعدما تبددوا بفعل مفاجأة الصدمة الأولى محاولين القيام بخرق جديد باتجاه الشُّعب يسعون حانقين إلى النفاذ من مدخله عنوة. كان من الواضح جداً على زعيمهم، بأنه قد احتمل كثيراً وأن معظم القوات الإسماعيلية قد وضعت في الوادي، ولا بدَّ لاستحكامات القلعة من أن تكون مخلاةً: فرصة رائعة بالنسبة له، بأن يحتل أفضل المواقع من دون مقاومة.

شاهد الفدائيون الآن سقوط أولى الضحايا من صفوف آلموت، كانوا جميعهم يرتعدون غضباً. لم يكونوا يطيقون، وجوب مشاهدة هذا دون أن يبدوا حراكاً.

لم يكفَّ أبو سراقة عن مراقبة الأفق. أخيراً، أخيراً خط أسود قاتم ارتسم عليه! لم يلحظه الفدائيون في البداية! لكنَّ قلب أبي سراقة أخذ يخفق فرحاً عندما رأى بيارق الشهيد علي البيضاء تخفق فوق رؤوس القادمين. حان الوقت الآن لإرسال الشبان إلى القتال، بحث بعينيه عن راية فيلق العدو وأراهم إياها.

ـ امتطوا خيولكم، صرخ بهم، انقضوا على رايتهم! جميعاً إلى الأمام كرجل واحد!

أطلق الشبان صرخات الفرح، نزلوا السفح، صاروا على مطياتهم في رفّة عين، دوّمت السيوف المجرَّدة، ورفع جعفر الراية البيضاء، وانقضوا جميعاً على قسم كبير من الأتراك واقتحموا على حين غرة. مرغميهم على الانسحاب حتى المسيل، مغتنمين من اضطرابهم. صرع سليمان أول عدو وهو يكزُّ على شفتيه، جعفر الذي أزمع على الانتصار، سحب أصدقاءه إليه وقام بخرق حقيقي للجيش المعادي كان يوسف يصرخ ويضرب حوله بضراوة مجبراً هؤلاء الذين يحيطون به على التقهقر. أمّا ابن طاهر فقد شطر دون توانٍ الترس الصغير المستدير الذي كان يحتمي به ذلك التتري ذو الساقين المقوستين إلى نصفين. ألقى هذا برمحه الذي لم يعد مجدياً، باذلاً كل جهده وهو يتململ، ليستل قبل أن يفوت الأوان سيفه الضلع من غمده. تراخت أخيراً اليد التي تمسك بالترس وأخذ الرجل يبحث عن مكان آمن. طرح سليمان ومن كانوا يلتفون حوله بعض الأعداء أرضاً. أخذ العلم الأبيض يقترب أكثر فأكثر من العلم الأسود.

اكتشف الزعيم التركي نيّة المنقضين الجدد.

ـ صونوا العلم! صرخ بصوت يمكن لرجاله ولأعدائه أن يسمعوه.

ـ هيا على قائدهم! قال ابن طاهر.

تجمع الأتراك حول رايتهم وزعيمهم، وفي اللحظة التالية انقض عبد الملك ورجال موتسوفر عليهم، كانت الصدمة رهيبة. وتبعثر الأتراك حينئذ كقشور الحب المقشور في مهب الريح.

لم يفلت حامل الراية من عيون سليمان ولا الزعيم من عيني ابن طاهر.

ـ تراجعوا! هتف هذا الأخير. أنقذوا العلم.

لكن ابن طاهر كان قريباً منه. تقاطع سيفاهما. ورجال موتسوفر هاجموا في هذه اللحظة بالذات. حاول بعض الأتراك أن يوقفوهم، حصل اشتباك

مروِّع، إذ كان لا بدَّ للقائد ولجواده من أن يبادا فيه، انطلق ابن طاهر بحمية، بحث بأنظاره عن حامل راية العدو، رآه يعدو على حصانه بمحاذاة النهر، يتعقبه سليمان. فانطلق في إثره متلهفاً لنصرة صديقة. تبعه بعض الشبان. تعقب سليمان حامل الراية الذي كان يهمز حصانه كمجنون، والرمح منتصب على خاصرته كي يمنع مطارده من الوصول إليه. عندما تمكَّن منه هذا، قام التركي بتغيير مفاجئ والولد المتهور تلقى الرمح مباشرة، سقط عن جواده تحت هذه الطعنة غير المتوقعة، أطلق ابن طاهر زمجرة، ضرب خاصرتي حصانه، وبلحظة صار قرب حامل الراية. امتقع عندما رأى سليمان على الأرض ربمًا - ميتاً - شيء واحد كانت له أهميته حينذاك هو تنفيذ المهمة الموكلة إليه. انتزع العلم من العدو. جدَّ في مطاردة التركي حتى ضفة النهر. فأحس هذا بتلعة النهر تتقوض تحت حوافر حصانه فجأة. تدهور ومطيته فجأة في الماء الجارف، تردَّد ابن طاهر جزءاً من الثانية، ثم هبط الحافة الوعرة بدوره دافعاً فرسه في النهر. زوبعة خطفتهما لكنها عجزت عن ابتلاعهما. بل ظهر بعد قليل على السطح، سبح التركي الذي كان يمسك بالراية خارج الماء. أدركه ثانية، قليل من الوقت ووجه له ابن طاهر طعنة سيف صائبة في رأسه. ارتخت اليد اليمنى التي كانت تمسك بالعلم، واختفى وجه التركي مدفوعاً بالماء. وما هي إلا هنيهة وصار علم الخلفاء الأسود يخفق بين يدي ابن طاهر. صرخات انتصار حيته من الضفة، لكن التيار حمله نحو سافلة النهر وأخذ حصانه يختنق تحته، بينما كان يبذل كل ما بوسعه لدفع مطيته نحو الضفة. جاء رفاقه بعدو سريع دون أن تضلَّه عيونهم، يشجعونه على التماسك ووجد أحدهم سبيلاً للقفز إلى أسفل، ولأن يرمي بنفسه منبطحاً عند مقدَّم النهر، وأن يمدَّ برمحه. فك الآخرون الحبال المربوطة بقرابيس سروجهم وقذفوا بها إلى صديقهم! لم يكن عند هذا متسع من الوقت يكفي إلاَّ بما يسمح له أن يختطف واحداً منها وأن يربط بها مطيته. وهكذا استطاعوا أن يسحبوهما كلاهما من الماء.

ـ كيف حال سليمان؟ سأل عندما تمكن من تسلق الضفة. وهو لا يزال نصف فاقد وعيه، ألقى بعلم العدو بين يدي ابن فاكاس.

نظر الفدائيون إلى بعضهم بعضاً.

ـ كيف حاله؟

التفتوا. كان سليمان يسير متثاقلاً، متوعكاً يجر حصانه خلفه فهرع ابن طاهر للقائه:

ـ إليك وحدك يعود الفضل بانتزاع هذا العلم من العدو، هتف له.

بدرت من الآخر حركة ضيق.

ـ لماذا إذاً! في المرة التي أحصل فيها على فرصة إنجاز عمل عظيم أتصرف بحماقة. إني اعرف جيداً أن القدر يعاكسني.

أمسك بساقه وشتم. ساعده رفاقه بامتطاء جواده ثانية. إنما نودي إلى التجمع. حان وقت العودة إلى المعسكر.

كان النصر على الأتراك مؤزراً. سقط قائد سرية العدو مع مائتين واثني عشر رجلاً يضاف إليهم ست وثلاثون جريحاً استسلموا للعدالة. وتفرق الآخرون في كل الجهات. عاد المطاردون بعضهم إثر بعضهم الآخر، حاملين معهم ضحاياهم الذين يحصون ستة وعشرين قتيلاً من صفوفهم، ونفس القدر من الجرحى.

أمر أبو علي بحفر خندق كبير عند أسفل الهضبة وأن ترمى فيه جثث الأعداء. ثم طلب أخيراً بأن يقطع راس القائد التركي وإن يُشكَّ على وتدٍ: سيوضع في مكان مكشوف في قمة برج الحراسة. جاء مينو تشرشر للقائهم على رأس من ظلُّوا في القلعة ورجاله الذين كانوا يصغون بتأثر لسماعهم قصة المنتصرين الحية، وهم يروون مغامرات المعركة. قام الحكيم ومساعدوه بتضميد الجرحى بضمادات موقتة، ثم نقل هؤلاء الآخرون على محامل حتى القلعة كان الطبيب يعلم أن مهمة شاقة تنتظره ذاك المساء.

عندما فرغوا من نقل الجرحى ومن مواراة الأموات من الأعداء، أصدر أبو علي النداء. حمل الجنود رفاقهم الأموات والغنائم التي غنموها من المندحرين على ظهور الجمال والبغال، ركبوا مطياتهم وعادوا إلى القلعة يطلقون صراخاً صاخباً...

من أعلى برجه، كان حسن يرقب سير المعركة. رأى كيف تدخل الفدائيون في المعركة، كيف اتخذ عبد الملك وفرسان موتسوفر القرار الأخير. كان في منتهى الرِّضى.

قرعة من الصنجة أخطرته بأن أخباراً أخرى مخصصة إليه على وجه الاحتمال قد وصلت. لا أحد، ولا حتى خصيانه، له الحق، وتحت طائلة الموت، بالصعود إلى أعلى برجه دون أن يستدعيه إلى هناك. عاد إلى غرفته حيث كان بوزروق أوميد ينتظره.

هرع حسن إليه وضمَّه إلى صدره.

- هاأنذا سعيد - صرخ.

على عكس أبي علي، بوزروق أوميد كان رجلاً مهيباً:

طويل، قوي، وجه طرف تحيط به لحية سوداء رائعة ومجعدة تخللتها بعض خيوط الشيب. ذو عين ثاقبة، ونظرة تفصح عن إرادة وحزم. شفتاه مكتنزتان وجميلتان كأنهما رسمتا بإتقان، والابتسامة التي تفتران عنها كانت تنم عن شيء إرادي بل ظالم، وكبقية الزعماء فإن القادم الجديد كان يرتدي جلباباً عربياً أبيض، ويعتمر عمامة بيضاء، تتهدل منها كوفية واسعة على كتفيه. لكن ثوبه كان مفصلاً من قماش فاخر محكماً جيداً على قامته، وعلى الرغم من هذا المسير الطويل، كان يبدو وكأنه قد اغتسل ولبس لتوه. وكأنه ينتظر في استقبال ما.

- أوشكت أن أقع تحت سيوف الأتراك - قال ضاحكاً - البارحة وبعد صلاة العصر، حمل لي أمرك طائرك الزاجل. ما كدت أنتهي من إعطاء تعليماتي من أجل فترة غيابي حتى وصل رسولك. الذي عبر الشاه رود

سباحة، ترك الأتراك في الواقع مفرزة قوية حول أسواري. فاختار رسولك طريق المياه خشية من أن يحاصر ثم روى كيف أخذ أيضاً أقصر الطرق من الضفة الأخرى وكيف عبر النهر عبر العبَّارة. أمَّا الآخرون، فتعقبوه، بحيث لم يعد عنده ما يخشاه سوى ألاَّ يتسنى لرجال آلموت الوقت، لكي ينزلوا الجسر المتحرك عند رؤيته، أو أن يغتنم الأتراك هذا ويندفعوا في إثره داخل الموقع.

كان حسن يفرك بيديه من الفرح.

ـ كل شيء تم بأعجوبة ـ قال كتعليق وحيد. سترى ما حضرت لك مع أبي علي. ستنقل على ذلك عينين وسعتهما الدهشة. في نفس اللحظة، دخل أبو علي الحجرة. واستقبله حسن بابتسامة عريضة قبل أن يعانقه.

ـ حقاً. إني لم أخطئك. قال له.

وأخذ يشرح سير المعركة بالتفصيل. سلوك الفدائيين هو أكثر ما أثار اهتمامه.

ـ هكذا إذاً، انتزع شاعرنا، حفيد طاهر العلم! رائع! رائع!

ـ المدعو سليمان، الذي قذف بنفسه في إثر حامل البيرق، وقع عن مطيته، فأخذ ابن طاهر على عاتقه إتمام المهمة. أوضح أبو علي. وقع التركي في المسيل فتبعه شاعرنا إلى هناك، لم يكن هناك من وسيلة أخرى لإحضار العلم!

ثم قدَّم قائمة ضحايا المعركة، وحدَّد الغنيمة ببضع كلمات.

ـ هيا إلى قاعة المجلس، اقترح حسن، أريد أنا شخصياً أن أهنئ رجالنا على هذا النصر المؤزَّر.

عين الحكيم بعض الفدائيين كي يساعدوه في عمله. أراد أن يعلمهم بالمثل الحي كيف ينبغي أن يخدم ويعتنى بالجرحى. ساعده الشبان في تمديد الأطراف المكسورة وفي تجبيرها، وقد توجب في الحالات الخطيرة

معالجة بعض الحروق بالكي، وسرعان ما كانت رائحة اللحم المحترق تنتشر في غرفة التمريض. كان الجرحى يصيحون وصراخهم يجوب كل أنحاء القلعة. ومن كان لا بدَّ من بتر أحد أعضائهم، كانوا ينتقلون من إغماء إلى إغماء، ولم يكونوا ليستعيدوا رشدهم إلاً ليزمجروا تعبيراً عن يأسهم الشديد.

ـ مرعب! همس ابن طاهر في سرِّه.

ـ أي حظ لنا نحن الفدائيين الأغرار، بأن نخرج سالمين معافين.

ـ الحرب شيء مرعب فعلاً. قال نعيم متنهداً.

ـ على أية حال، هي لم توجد من أجل الزغاليل أمثالك. تهكمه سليمان.

ـ دع نعيماً وشأنه. قال يوسف متحاملاً. كان بجانبي طوال الوقت، ولم أكن أنا في عداد الأذيال على ما أعلم!

ـ بدلاً من أن تقاتل أطلقت تلك الصرخات التي صمَّت آذان الأتراك، قال سليمان مازحاً فما المدهش بأن يحتمي هذا الجدجد تحت جناحيك.

ـ لكنك لم تبلغ العلم التركي، على الرغم من أنك كنت مهتاجاً للغاية. ذكَّره عبيدة.

امتقع سليمان من دون أن ينطق بكلمة، وتبع الحكيم الذي اقترب من أحد الجرحى.

كان الإغريقي طبيباً موضوعياً، لم يؤثر فيه لا بكاء ولا أنين الجرحى. ومن وقت إلى آخر كان يشجع المريض ويقوم بمهمته بفراهة وثقة. مثلما يفعل محترف بارع. وفي وقت نفسه كان يشرح إلى الفدائيين مادة الجروح مُبهّراً كلماته ببهار فلسفته الخاصة.

أحد الأتراك كسر ذراع أبينا العريف. جلس الحكيم عند رأس سريره

ينزع عنه الضماد ويأخذ الصفيحة الصغيرة التي ناوله إياها أحد الفدائيين وشرع في تجبير الكسر.

بينما كان الجريح يئن من الوجع.

شرح الإغريقي:

ينزع الجسم كثيراً إلى حالة الانسجام بحيث إن الأجزاء المنفصلة لعضو مكسور تسعى غريزياً إلى أن تمتد ثم تلتحم مع بعضها بعضاً. وهذه الإرادة بإعادة الإنشاء تتم بشكل تصل به الأجزاء المنفصلة إلى الالتحام في ما بينها.

مهارة الطبيب البارع تكمن تماماً، وبفضل معرفته لميكانيكية الجسم الإنساني، بتلافي هكذا أخطاء وبتجميع ما خلع متبعاً قوانين الطبيعة.

لمَّا انتهى من معالجة المرضى الإسماعيليين كان قد توصل إلى مرحلة الإعياء. ليجد بانتظاره الكثير من الجرحى الأتراك. أرسل ابن طاهر يسأل أبا علي عما كان عليهم أن يفعلوه بالنسبة للأسرى. تمنى في سره لو كان يستطيع أن يعالجهم بشكل مقتضب جداً. أو أن يتخلَّصوا من المرضى الميؤوس منهم بواسطة نوع من السم القاتل.

ذهب ابن طاهر يستعلم رأي أبي سراقة الذي انطلق يسأل داعي الدعاة رأيه.

صدر الأمر التالي: «علينا أن نعالج الأتراك كما لو كانوا أصدقاءنا، يخشى أن نحتاج إليهم كرهائن».

استاء الحكيم، باشر مهمته، لم تعد المسألة هنا مسألة تشجيع الذين يئنون بكلمات ترفع معنوياتهم، ولا مسألة تعليم الفدائيين من خلال النموذج. اكتفى بأن عهد إليهم بمهمات دقيقة، ولاحظ أن عبيدة من بينهم يكشف عن مهارة فائقة. كان الوقت قد تأخر ليلاً عندما فرغ من ضماده الأخير.

أعطى أوامره الضرورية إلى مساعديه حيث أراد أن يلتقي نظيريه.

كان الزعماء المجتمعون في قاعة المجلس منشغلين، بمأكلهم ومشربهم، وهم يتبادلون المزيد من التعليمات عن الوقائع والأفعال التي سجلوها في هذا اليوم المشهود. يتوقعون قرارات الزعيم الأعلى الممكنة، وتبعات الانتصار المحتملة، كلهم يمتدحون عبد الملك على تنفيذه المهمة التي أوكلت إليه على نحو بارع، مجيء حسن وكبار دعاته حمل إليهم كل الابتهاج. كان وجه سيدهم يشع بالرضى، ووجنتاه تهتزان نتيجة لابتسامة سعيدة عندما كان يحيي كل واحد منهم.

ـ لي من بينكم مساعدان معتبران، خلص إلى القول بعد أن عاد إلى الجلوس حول الأطباق والجرار. وهنأ أبا علي، الذي أدار العملية كلها بشكل خاص. ثم توجه إلى عبد الملك بغية أن يعرف كيف سوّى مشكلة الحريم مع موتسوفر. مطرياً على فعالية تدخله في المعركة وشكره على ذلك. شكر أبا سراقة أيضاً الذي قاد الفدائيين، ونفذ أوامره بشكل دقيق. ثم نظر خلسة إلى القائد مينو تشرشر، وابتسامة خبيثة ارتسمت على وجهه.

ـ لم يكن مينو تشرشر يشارك في المحادثة، كان مغتاظاً إذ توجب عليه أن يبقى مكتوف اليدين تاركاً لغيره أن يكسب مجد المعركة. كانت نظرته كئيبة، يقل من الأكل، ويكثر من الشراب، وجسمه الهرقلي يكشف عن انتفاضة كلما وقع نظره على حسن المسرور.

ـ كان هناك اثنان من بيننا ـ تابع هذا بصوت عالٍ يرتجف من المكر الذي لم يستطع كتمانه ـ من تستحق تضحيتهما تقديرنا الكبير، أكبر شرف لجندي حقيقي هو أن يتحارب مع العدو، ليس في هذا أكبر شرف وحسب وإنما أكبر فرح أيضاً. ذاك الذي يجد نفسه مجبراً لأن يزهد في هذا الشرف وفي هذا الفرح ممتثلاً إلى دوافع أكثر سموّا، هو رجل كامل يستحق احتراماً مزيداً.

نظر حوله إلى الوجوه التي تملكتها الدهشة. ثم لفظ بصوت جهوري.

ـ هناك اثنان من بيننا ـ كما أسلفت ـ كان عليهما أن يزهدا في هذا الشرف، وهذه السعادة على الرغم من أنهما جنديان من الصميم، إنهما مينو تشرشر وأنا نفسي. إن بواعث مسلكنا واضحة. إني اشعر برضىً غامر لمشاركتكم في المعركة وإبلائكم فيها بلاءً متميزاً. أمَّا من جهة مينو تشرشر فقد حصل اليوم على شرف تلقيبي إياه أميراً وقائداً أعلى لكل حاميات القلاع الإسماعيلية.

انتصب، اقترب من القائد العسكري الذي وقف محمر الوجه من المفاجأة والارتباك.

ـ تريد أن تمزح يا سيدنا، تمتم.

ـ قطعاً يا عزيزي ـ أجاب حسن وهو يعانقه. وُقِّع القرار، وسيعطيك إياه أبو علي.

جلبة مستصوبة عمت القاعة.

ـ ستتلقى إضافة إلى ذلك، نفس النصيب الذي سيتلقاه الآخرون من الغنيمة ـ أضاف ـ لأننا سنسوي الآن مسألة القسمة. قدم لهم سريعاً عدد الدواب والأسلحة التي سقطت بين أيديهم. والتي لا بدَّ أن يضاف إليها مبلغ معتبر من المال وبعض الحاجات القيمة.

ـ يتلقى مينو تشرشر وكل واحد من الزعماء الذين شاركوا في المعركة، حصاناً وجهاز معركة لائقاً بمرتبتهم ـ رسم ـ كل واحد علاوة على ذلك الحق بعشر ليرات ذهبًا. يضاف إليها جهاز بالنسبة للضباط والعرفاء. وسيتلقى كل واحد من رجال موتسوفر بالمثل عشر ليرات ذهبًا. وسنرسل إلى موتسوفر نفسه عشرة جمال ومائة ليرة ذهبًا عربون شكر على وقفته في عوننا وسيعوض على أسر الجنود الذين قضوا، بهبة من عشر ليرات ذهبًا. سنقسم الباقي بين رجال الجيش. أخيراً لن يتلقى الفدائيون شيئاً. لأن امتيازهم هو بمشاركتهم في الجهاد.

عندما اختار كل النصيب الذي يوافقه. عاد حسن إلى حديثه:

ـ لندُقَّ الحديد وهو حامٍ. خبر هزيمة مقدمة جيش الأتراك سينتشر في إيران كالريح.

سيرفع من شجاعة أتباعنا وأصدقائنا. وسيقوي من عزيمة المترددين، كثير من هؤلاء الذين يستحسنون مشروعنا وبشكل سري سيجاهرون بأنهم إلى جانبنا. وسينتعش لذلك رجالنا المحاصرون في القلاع. أمَّا أعداؤنا، فسيرغمون على أن يصفوا جدياً معنا. سيعرف بعض الخونة آلام الخوف.

قصد بهذه الكلمات الصدر الأعظم، فهز الزعماء رؤوسهم إشارة إلى أنهم فهموا.

ـ الآن، وبعد النصر، نستطيع أن نأمل في تدفق عدد كبير من المؤمنين الجدد ـ تابع ـ كل المنطقة حول رودبار ستؤيدنا، ولن يتردد الآباء بإرسال أبنائهم إلى قلاعنا ليجاهدوا معنا في سبيل القضية الإسماعيلية. ستستقبلهم أنت يا أبا سراقة، وستضعهم على المحك، تماماً كما فعلت مع من سبقوهم ليصبح من أكثرهم فتوة وقوة، وأفضلهم موهبة فدائيين، والشرط الذي وضعته في ذلك ثابت هو نفسه: ألاَّ يكونوا متزوجين، وألاَّ يكونوا قد عاشوا حياة ماجنة. باختصار ألا يكونوا قد عرفوا النساء أو أي شيء من لذَّات الحياة. أمَّا الآخرون فلسوف يأخذون دورهم بين جنودنا بمجرد أن يصبحوا قادرين على حمل السلاح سوف نسمو بالأنظمة القديمة، ونسنُّ الجديدة. سيفيد ببعض المكاسب من بقي في القلعة قبل المعركة، أما هؤلاء الذين تميزوا اليوم فلسوف يحصلون على ترقية وستوضح بدقة رتبة وفصيلة وحقوق وواجبات الجميع.

سنصدر قوانين أشد صرامة. لا بدَّ لكل واحد من أن يكون جندياً ومؤمناً في الوقت نفسه. سنستأصل من القلوب كل رغبة دنيوية. وليكن اعتباراً من اليوم آخر مرة يسمح فيها إلى الجنود بشرب الخمر.

أسمح بذلك هذه المرة إكراماً لرجال موتسوفر الموجودين في القلعة هذا

المساء. ليعلم الجميع أننا سادة ما هو مباح وما هو محرم، وهكذا سيعملون هم أيضاً لصالحنا دون أن يعلموا. نعم ليكن كسب المعتنقين الجدد من الآن فصاعداً واحداً من أهم همومنا! سنرسل الفدائيين يطوفون البلاد كالنحل كي يتحدثوا ويشهدوا لصالحنا، كما سنمذهب كل السجناء. لنحطهم إذاً بالرعاية. جيش السلطان يقترب وربّما لن يمرَّ كثير من الوقت قبل أن يحاصرنا. لذلك فإن رجالاً يعرفونه جيداً سيكونون ضروريين بالنسبة لنا. سيمضون يحملون عقيدتنا وحماسنا إلى قلب صفوفهم. وهكذا علينا أن نحاول تلغيم قواعدهم وكل ما تبقى سينجم تلقائياً. أوعز إلى عبد الملك، بحشد عدد كاف من الرجال، وبالسير بهم اعتباراً من بعد غد باتجاه قلعة رودبار بغية طرد مقدمة الجيش التركي هذا إذا كانت لا تزال هناك، وبأن يجوبوا إثر ذلك كل المنطقة حتى قزوين والرَّي معتمدين إبادة آخر مفارز العدو فوراً، أخيراً وعلى الأخص، يجب إرسال جواسيس في مواجهة جيش السلطان.

على هذا استأذن الزعماء، أومأ إلى داعي الدعاة وعاد معه إلى مساكنه.

رجال آلموت وموتسوفر كانوا يحتفلون بمنتهى الضحك والصراخ بانتصار اليوم. وقد سارعوا إلى الشرفتين السفليتين لإشعال النيران، التي وضعت عليها عجول بأكملها وخراف سمينة كي تشوى بحسب الأصول. جالسون أو مقرفصون حولها، كان الرجال ينتظرون بفارغ الصبر أن يصبح اللحم جاهزاً للأكل. رائحة جميلة كانت تدغدغ خياشيمهم. ولكي يحاولوا أن يهدئوا قليلاً من تهيج شهيتهم، كانوا يقطعون الخبز إلى قطع صغيرة يمدونها تحت الأسياخ كي تتشرب بالدهن الذي يتساقط قطرة قطرة. كانوا يسترجعون بصوت عال أحداث اليوم العظيم، وكل واحد يحاول أن يُغْني ما ذكر الآخر وأن يربو عليه بالفخار. كانوا جميعاً يباهون بالأعمال البطولية، الحقيقية أو الخيالية. لا يترددون بالمبالغة في عدد الأعداء الذين وقعوا صرعى بأيديهم. ثم عادوا إلى الملامات والمشادات.

وعندما كان يبدو أن عجلاً أو خروفاً صار جاهزاً للأكل، كانوا ينقضون عليه والسكين مشرعًا إلى الأمام. كل يريد أن يحظى بأفضل قطعة. يهددون بعضهم بعضاً بقبضة اليد، بل بسحب السلاح كي تصل أصواتهم. واجه العرفاء كثيراً من العناء كي يعقلوهم، أخيراً، اتضح لكل واحد أن هناك من الشواء ما يكفي لإشباع الجميع. وأن الأمر لا يستحق أن يسلخوا بعضهم بعضاً من أجل هذا.

قرب كثيرة حملت بعد ذلك على ظهر حمار، باشروا في ملء الجرار والدوارق لكل مجموعة تتألف من عشرة خابية كبيرة، واستلم العرفاء مهمة سكب السائل الفاخر.

ـ من سمح لنا بشرب الخمر. تساءلوا مندهشين.

ـ سيدنا، أجاب العرفاء. زعيم الإسماعيليين والنبي الجديد.

ـ هل له الحق أن يبيح ما حرَّمه النبي؟

ـ من الطبيعي أن يكون له الحق بذلك. الله من أعطاه الحق بأن يدفع ويمنع. أعطاه أيضاً المفتاح الذي يفتح باب الفردوس.

وبما أنهم لم يكونوا معتادين على شرب الخمرة، فإن الرجال لم يتأخروا بالوقوع تحت تأثيرها. هلَّلوا لزعيم الإسماعيليين الأعلى، وافاضوا في محادثات ومجادلات عما كان لهم أن عرفوه عن مذهبه، أمَّا الجنود الغرباء، الذين بانت عليهم الحيرة فقد انهالوا بالأسئلة على أناس آلموت. وبدا على عدد كبير منهم العزم بإصرار على الدخول في خدمة حسن حالما ينتهون من خدمتهم ضمن صفوف موتسوفر.

كان الفدائيون يرقبون ويتفرجون على تلك الفوضى التي تدور حولهم وهم يتجمعون على سطح مبنى المدرسة. هم أيضاً طهوا الخراف وأكلوا حتى الشبع. عادوا بعد ذلك إلى مناقشاتهم واستعرضوا مرة أخرى أيضاً أحداث اليوم.

لِمَ تصنيعهم الخمرة؟ كانوا يعرفون أنفسهم جماعة نخبة. ولم يكونوا

ليتورعوا، دون أن يدركوا ذلك تماماً، أن يحتقروا هؤلاء الجنود المرتزقة على رقصهم البوهيمي حول النار. واستفاد هؤلاء الذين ساعدوا الطبيب في تضميد الجرحى، من تلك التجربة المربكة، لا سيما وأن التمكن من أخذ العلم كان أكثر ما حرك أحاديثهم وجعل قلوبهم تخفق.

الفصل التاسع

بينما كان جيش آلموت يقارع جيش السلطان، كانت حدائق خلف القلعة تعج بحركة أشبه ما تكون بحركة مستعمرة من النحل.

منذ طلوع الفجر، اصطحب عدي أباما إلى عند الصبايا. استعرت العجوز عندما رأتهن وما يزلن نائمات. أمسكت بالمطرقة وضربت الصنجة باهتياج. فخرجت الحسناوات النائمات اللواتي خطف النعاس منهن بطريقة همجية. راكضات، بهيئة مروَّعة، وقد تلقَّاهن وابل من الشتائم.

ـ قردات كسولات! لا بدَّ لسيدنا من أن يصل بين دقيقة وأخرى. انتن تتمرغن في أسرتكن كما لو كان اليوم يوم استراحة! سيقطع رؤوسكن ورأسي معكن إن باغتكنَّ هكذا. لبسن ثيابهن سريعاً. الإعلان عن زيارة سيدهنَّ إلى الرياض ملأ قلوبهن رعباً. عينت لهن مريم أعمالاً سينجزنها فانكببن عليها بحماسة. كانت أباما تنتقل بينهن كمن أصابه مسٌّ من الشيطان.

ـ ليتني أتجرأ أن أقول لهنَّ عما ينتظرهن!. . .

همست بصوت شبه عالٍ كي يسمعنه.

فكرة كهذه كانت كفيلة بزيادة بلبلتهن، فكان على مريم أن تركِّز كل جهودها كي تداري الموضوع.

كان حسن قد أرسل لهن الورق، والألوان، والشموع، وكل ما يلزم من أجل تصنيع المصابيح. شرحت أباما لفاطمة كيف يتوجب استخدامها.

جرَّبت فاطمة ذلك تواً المصباح الأول صار جاهزاً في الحال، عتمت غرفتها، ووضعت شمعة مشتعلة في قعر المصباح.

صرخت الفتيات فرحاً.

ـ إوزات غبيات! لا تضعن وقتكن بفتح أفواهكن كالبلهاوات، الأجدر أن تعملن ـ برطمت البعنقة العجوز ـ .

وزعت فاطمة الأدوار حالاً. بعضهن يكززن بنماذجهن على المخطط المرسوم على الرَّقّ، الأخريات يمزجن الألوان، وأخريات أيضاً يقصصن ويجمعن ويلصقن الأجزاء المنفصلة. وهكذا وضعت الفوانيس التي صنِعت كي تجف في الشمس. والتي كان عددها يتزايد بسرعة كبيرة. لم تكف الفتيات عن التحدث في ما بينهن طيلة ذلك الوقت عن قدوم سيدنا.

ـ أتخيل أن زيارته ستكون كزيارة ملك، ـ قالت جادا ـ وهي تهذي بصوت عالٍ ـ سيكون متقلداً الذهب مرتدياً الجوخ الأرجواني . . .

ـ لا ، سيأتي نحونا كنبي ـ قالت حليمة محتجة.

ـ وإليك أباح بذلك. عاكستها الأخرى.

كانت حليمة تتحرق لأن تروي ما كان عدي ومريم قد أفضيا لها به. لكنها تمكنت من ردع نفسها. لم تكن أباما بعيدة عنها. وليس من المستحسن أن تفضح أسئلتها . . .

ـ كان محمد ملكاً ونبياً بالوقت نفسه. قالت فاطمة موفقة بينهما.

ـ أنت تتحدثين عن سيدنا؟ سألت أباما التي مرت حينئذ بالقرب منهن وقد بدر منها استهزاء مزعج.

حسن، لتعلمن أن رؤوس البعض منكنَّ ستقطع هذا المساء! أجل ليس بعد هذا المساء، ستتلقين في هذا المكان زيارة أخرى . . . لتحفظن هذا جيداً: الواحدة من بينكنَّ التي ستكشف إلى الزائرين من تكون، وأين هي

سيقطع رأسها في الحال، سنرى إذن مَنْ مِنْ بينكن ستكون على قدر من الطيش كي تفضح نفسها بهذه الثرثرات!

التفتن نحو مريم مذعورات.

ـ أباما على حق ـ وضحت لهن ـ فقد أعطى سيدنا أمراً بترتيب الرياض لتكون كنموذج لفردوس حقيقي. عليكن الآن أن تسلكن كما لو كنتن تسكنَّ فعلاً هذا المكان السَّماوي. لستُنَّ بعد مجرد صبايا عاديات! إنما حوريات! عليكنَّ أن تتقمَّصْن هذا الدور. لن يكون هذا صعباً إن بذلتنَّ شيئاً من الجهد. سأضيف أنا بدوري: تلك التي ستفضح نفسها في حضور الزائرين لا بدَّ لها من أن تموت حالاً.

ـ على هذا الأساس، سأتجنب فتح فمي! قالت ساره.

ـ حاولي فقط! صرخت أباما ـ سأبتهج لرؤيتك مصلوبة على منصَّة التعذيب.

استولى الخوف على البنات، اخفضن رؤوسهن وانهمكن في عملهن بصمت.

ـ هيا، هيا، خلصت إلى القول فاطمة ـ ليحصل ما سيحصل... أنا، لقد ألفت حياة الحريم، ومهرت في تمثيل هذه الملهاة. أنا اعرف الرجال. ليس من الصعب تضليلهم ـ لا سيما الفتيان الذين لا يتمتعون بالذكاء. وأنا متأكدة بأن تمثيل دور الحوريات في هذه الرياض لا يمكن أن يكون شيئاً معقداً في الواقع.

ـ الآن فهمت ـ هتفت زليخة. فهمت الآن لماذا أجبرونا أن نحفظ عن ظهر قلب تلك الآيات من القرآن والتي تتناول الفردوس والحياة التي يعيشها المرء هناك، ما رأيكن بذلك؟

ابتسمت مريم. إذ لم يكن لهذه الجزئية أن خطرت في بالها. في الحقيقة إن حسناً فكَّر بكل شيء! «حالم جهنمي رهيب!».

ـ أنت مصيبة يا زليخة ـ زادت زينب ـ الأسلم أيضاً أن نراجع هذه الدروس الرائعة. . .

ـ هيا أيتها الصبايا! أليس لديكن شيء من الخيال! مازحتهن فاطمة برفق. لتتصرَّفن كما لو كنتنَّ في الفردوس، الباقي سيأتي تلقائياً. . .

ـ كلما كنتن طبيعيات، كلما نجحتنَّ بشكل أفضل في هذه اللعبة، ـ لخَّصت مريم بحكمة ـ لا تبالغن بأي شيء، لتتصرفن كما لو كان من المسلم به أنكنَّ حوريات. ومن أجل هذا لا تتحدثن إلاَّ كي تجبن على الأسئلة التي سيُراد طرحها عليكنَّ.

أحسَّت حليمة بمخاوفها تتلاشى. وفضولية كعادتها جازفت:

ـ لكن لماذا إذن يريد سيدنا أن نتظاهر بأننا نقيم في الجنة!

ـ كي تتعلم القردة الصغيرات أمثالكن شحذ ألسنتهن، عنفتها أباما.

جاء معاذ ومصطفى لتوهما بقفف مليئة بالطيور الشهية، معظمها من سمانيات وحجل، صيد مائي، وأسماك رائعة.

أفرغتها أباما وراحت تعدها في المطبخ مع مساعديها.

لكنَّ حليمة لم تكن أشبعت فضولها.

ـ من سيكونون إذن هؤلاء الزائرون الذين سيتوجب علينا أن نقول لهم بأننا حوريات؟

ضحك لاقى سؤالها.

ـ أولاً، لن يتوجب عليكن أن تعلنَّ لهم ذلك. ـ صححت لها مريم ـ إذ سيكون هذا أمراً مسلماً به، ثانياً سيأتي سيدنا يزورنا بغرض إعطائنا تعليمات محددة عن هذا الموضوع وكي لا تطرحي كثيراً من الأسئلة، سأقول لك فكرتي. . . ربمَّا سيكونون شباناً جميلين. . . هذا كل شيء ببساطة.

احمرَّت حليمة حتى صارت بلون الخشخاش المنثور، فنظرت جميعهن إليها. أسبلت عينيها وأخذت تطرق الارض بقدميها.

ـ حسن، أنا أنوي ألاَّ ألعب هذه اللعبة.

ـ سيكون ذلك واجباً. قالت مريم بهجة حازمة.

ـ لا أريد.

ـ حليمة.

وهكذا أخذ الغضب يورِّد وجنتي مريم.

ـ تريدين إذن أن تعصي أمر سيدنا؟

صمتت حليمة، وأخذت تقرض شفتيها، إنما لم تلبث ـ كما هو متوقع ـ أن خرجت عن تحفظاتها.

ـ وماذا سيحصل إثر ذلك؟ سألت أخيراً. كمن رُوِّضت.

ابتسمت مريم.

ـ سترين ذلك جيداً.

أخذت الصبايا يعاكسنها.

ـ سيتوجب عليك تقبيلهم. قالت فاطمة.

ـ وأن تفعلي معهم ما تعلمته من أباما. أضافت سارة بمكر.

ـ سأرميكن بشيء على رؤوسكن إن لم تدعنني وشأني. هدَّدَتْهنَّ.

دعتهن مريم إلى العودة إلى النظام:

ـ هيا اعملن! هدرتنَّ الكثير من الوقت في الثرثرة!

كانت سارة تلصق وتخيط الفوانيس الورقية الملونة في إحدى الزوايا. وحليمة لاذت بها. أصلحت الفتيات عندئذ ما بينهن. وإنَّما على أساس آخر. مثلما قالت حليمة أعدَّت لهنَّ فاطمة أزهار نرد من الخشب الصلب وأخذت حليمة تلعب بها بشغف. صار لها من سارة صاحبة مخلصة في

هذه اللعبة. كانتا تقامران بكثير من الأشياء المتنوعة: بالجوز، بالموز، بالبرتقال، بالسكاكر، أو بالقبل، كانتا تسألان أزهار النرد بأن يقلْنَ لهما من كانتا تحبان. وعندما كانت واحدة أو أخرى تدعو حليمة إلى قيلولة معها كانت هذه لا تتردَّد بأن تسأل زهر النرد التي كانت معها، مدسوسة في زنَّارها كي تعرف الردَّ المناسب نفياً كان أم إيجاباً على هذا الاقتراح. كانت تخرج عندئذ المكعبات الخشب من مخبأها وتدعو ساره إلى اللعب. كانتا تحرصان على الاختفاء خلف دريئة من قطعة ورق مقوى كبيرة، كان مع ساره بعض حبات جوز وضعتها كرهان، إن ربحت توجب على حليمة أن تعطيها من القبل بعدد ما كان يوجد من حبات الجوز. خسرت سارة جوزاتها، كان من المتفق عليه أيضاً أن تُشَدَّها من أذنيها فيما إذا خسرت.

كانت حليمة هي الرابحة دائماً.

ـ لي الحق إذن بأن أشدَّك أربع مرات من أذنيك ـ ألحَّت وهي في غمرة فرحها الماكر ـ أخذت سارة تراقبها عن قرب.

ـ لماذا تنظرين في أزهار النرد قبل رميها؟ أرادت أن تعرف.

ـ هكذا أفعل دائماً. ... هذا كل شيء.

اقترحت ساره أن تسأل أزهار النرد من هي التي سيكون من نصيبها أجمل واحد من الشُّبان.

سحبت حليمة عدداً كبيراً.

ـ أنت تغشين، رأيتك تنضدين أزهار النرد في كفك بحيث تخرجين أكبر عدد... وترمينها بحركة جافلة... العبي مثلي وإلاَّ سأتوقف.

حاولت حليمة فخسرت.

ـ أرأيت؟ ابتسمت الأخرى. عندما لا تغشين فإنك تخسرين.

ـ إن كان الامر كذلك. فلن ألعب بعد. حردت حليمة. متعتي أن أربح.

ـ ماذا تقولين؟ وإن غششت أنا أيضاً؟

ـ لا، أنت ليس لك الحق بذلك؟

ـ شيء جميل، ما تقولين، هكذا إذن أنت لك الحق بالغش، وأنا عليَّ أن أكون البلهاء التابعة لك؟

جاءت مريم نحوهما.

ـ ماذا لديكما أيضاً، أنتما الاثنتين؟

سارعت ساره لتخبئ أزهار النرد بين ركبتيها.

ـ إننا نتجادل في أفضل طريقة للصق هذه الفوانيس. . .

باعدت لها مريم ركبتها بقدمها. لمحت أزهار النرد فغضبت.

ـ هكذا إذن! من الممكن لسيدنا أن يصل بين لحظة وأخرى. وأنتما تلهوان بأزهار النرد بهدوء، حسن، تابعا اللعب، تابعا! إنكما تجازفان برأسيكما! حدَّقت بحليمة بعين قاسية.

ـ هذه أزهار نردك يا حليمة. أنت غير قابلة للإصلاح! في الحقيقة لا أمل يرجى منك.

ـ جمعت أزهار النرد وأخذتها.

ـ لنبق هنا الآن ـ قالت وهي تدور على عقبيها.

امتلأت عينا حليمة بالدموع. لكنها لم ترد أن تظهر شيئاً من هذا، فعادت إلى محادثتها المعرقلة بابتسامتها العنيدة:

قلت لك إن أزهار النرد لا تهمني إذا لم يترك لي مجال للربح. ومن ثم فهي غلطتك إذ حصل كل هذا: أنت من تحداني.

انهمكتا في العمل.

ـ إصغِ! . . . لكن هذا رائعاً. فكَّرت سارة. إذا ما اعتقد هؤلاء الزائرون بأننا حوريات فعلاً، فلسوف يقعون في حبنا حالاً! أليس كذلك؟

انتهزت حليمة الفرصة.

ـ للأسف أننا لم نعد نملك أزهار نرد. وإلاَّ لكنَّا سنستطيع في الحال أن نسألها ايًا منا نحن الاثنتين سيختارون حبيبة.

ـ لكنت عدتِ إلى الغش. لحسن الحظ أن مريم أخذتها... بالإضافة إلى أنني أعرف جيداً من سيختارون منا نحن الاثنتين...

ـ تخالين أنك أنت! لتعلمي أن هذا لن يخطر لهم على بال!

ـ هل تعلمين فقط كيف يفتن رجل، أيتها القردة الجاهلة! ستختبئين في زاوية، وأحد لن يلمحك. هذا هو ما ينتظرك.

أحسَّت حليمة بالدموع تنبثق من عينيها.

ـ سأقول لهم من تكونين هدَّدتها.

ـ حاولي فقط. سينفجرون ضحكاً!

ـ انتظري قليلاً! سأقول لهم إنك عاشقتي....أجل هذا ما سأعلمهم إياه إن لم تتركيني وشأني!

لمعت عينا ساره.

ـ هل يمكن أن تفعلي هذا؟

وقفت حليمة.

ـ لن أقوم إلاَّ بقول الحقيقة...

ـ على هذا، علت ثغرها ابتسامة غريبة. مسحت دموعها، وراحت تنضم إلى المجموعة الأخرى. كان يبدو أن الصبايا قد استطعن أن يتغلبن على الخوف الذي أوحته إليهن مهمتهن الحساسة. ضحك فرح امتزج بصياح الدواجن التي تذبح وصوت السكاكين التي تُشحذ.

ـ عند المساء، وعندما سيضاء كل شيء، سنشعر فعلاً أننا في الفردوس. ـ أقنعت نفسها زليخة ـ لم أعد خائفة. سنكون جميعنا مستترات سنغني ونرقص كحوريات حقيقيات...

ـ سيكون هذا سهلاً عليك، أنت الجميلة جداً، والتي تجيدين الرقص ـ تنهدت صفيه.

ـ كلكن جميلات، وكلكن تجدن الرقص، شجعتهن مريم.

ـ سيكون هناك على الأقل بعض التبدل في حياتنا الرتيبة ـ منَّت نفسها فاطمة ـ سيكون منا شيئ نافع. وإلاً فأية خسارة ستكون من تلك الدراسات التي قمنا بها. وتلك الجهود الجمَّة هل ستذهب سدىً! . . .

ـ هل سيدنا سيعمل فعلاً على قطع رؤوسنا. إن كُشف أمرنا؟

استفسرت جادا القلقة دائماً.

ـ ما من شك في ذلك. أنذرتهن مريم، سينفذ ما قاله أيضاً، لا تكنَّ طائشات فكِّرن كثيراً قبل أن تتكلمن.

ـ لست أدري لماذا أنا لست خائفة على الإطلاق. قالت فاطمة الفرحة.

ـ ولو واحدة من بيننا نسيت نفسها؟

سألت صفية بإلحاح.

ـ لا بدَّ لواحدة أخرى من أن ترتق ذلك حالاً. أوضحت فاطمة.

ـ كيف ترتق؟

ـ بأن تقلب الأمر على أنه مزاح. أو بأن تعطيه معنى آخر مثلاً.

ـ بودي لو أكون بجانبك، قالت جادا.

ـ أنا أيضاً. قالت واحدة أخرى. وقد تسارعن جميعهن للإعراب عن نفس الرغبة.

ضحكت فاطمة بكثير من الثقة.

ـ هيَّا، لا تكُنَّ متخوفات أيتها الصبايا. عندما يتوجب على الإنسان أن يفعل شيئاً فإنه يفعله. .

كل الفوانيس أُنجزت تقريباً.

ـ أنت أترين، أن كل شيء يتيسر عندما تردْنَ ذلك. جاملتهن مريم ـ والآن اتبعنني سأريكنَّ شيئاً ما.

صحبتهن إلى غرفة، كانت حتى ذلك الوقت لا تزال مقفلة بإحكام. فتحتها. ما كان للفتيات من شيء آخر يفعلنه سوى أن يحملقن بعيونهن. كان هناك مخزن ألبسة بأكمله.

أثواب من الحرير ومن البروكار، معاطف مطرَّزة من قماش الزيبلين، براقع، صنادل موشاة بشكل بديع. كل ما علت جودته مما عرض في أسواق سمرقند وبخارى، وكابول، وأصفهان، وبغداد، والبصرة كان مكدَّساً في هذه الحجرة الصغيرة، أكاليل من الذهب والفضة مطعَّمه بالماس، عقود من اللؤلؤ، أساور ومشابك من الذهب مزنرة بالأحجار الكريمة، حليٌّ فيروزية، أقراط يتلألأ فيها الماس والياقوت الأزرق... روائع وافرة بدت وكأنها لن تنضب... مكثت الصبايا لذلك فاغرات أفواههن.

ـ ملك من كل هذا؟ جازفت حليمة بسؤالها خجلة.

ـ كل هذا من أملاك سيدنا... قالت مريم.

ـ في الواقع إن سيدنا غني!

ـ أكثر من السلطان ومن الخليفة.

ـ كل هذا مخصص لاستخدامنا، بينت مريم.

لتجرب كل واحدة منكنَّ الحلي التي تليق بها، لها الحق بنقلها إلى غرفتها.

أوعزت إلى البنات بقياس الجلابيب والبراقع. وألقت على أكتافهن بمعاطف من البروكار الثمين، وأدخلت لهن الخواتم في أصابعهن، وجعلتهن يجربن الأساور، والمشابك والعقود، وعلقت لهن الأقراط في آذانهن. وناولتهن الصدّارات والصنادل... وتحت تصرف كل واحدة مرآة

معدنية مصنوعة بشكل فائق الجمال، وأيضاً صندوقة مليئة بالعنبر وبالعطور. جرَّبت لهن الأكاليل والشرائط، عمامات صغيرة، وقلنسوات متنوعة الأشكال... أية واحدة منهن لم تكن تحلم بهذا البذخ... هُيِّىء لهن فعلاً أنهن أميرات فريدات.

ـ لن يكون كثيراً علينا لو حسبنا أنفسنا حوريات! هتفت حليمة وهي متوردة الوجه من الحماسة.

ـ ألم أقلْ لَكُنَّ ذلك؟ قالت فاطمة منتصرة. فالمصيبة في النهاية بأننا لن نستطيع أن نصدق بعد بأننا صبايا عاديات!

لفَّت حليمة نفسها بستار خفيف. وارتدت معطفاً تركته يتهدل على كتفيها. تماماً مثلما رأت مريم في الليلة التي رجعت فيها من عند سيدنا.

ـ يا إلهي! ما أجملها! صرخت ساره.

احمرَّت حليمة خجلاً. كانت تريد أن تكون الأجمل. وتركت هذه الكلمات تخرج منها بسذاجة.

ـ لكننا لن نكون جميعاً مرتديات هكذا عندما سيأتي الزائرون!

ـ لماذا الإصرار على هذه المنافسات؟ مازحتها مريم.

ـ سأخجل...

ـ لتأخذ كل واحدة ما لها ولتحمله إلى غرفتها.

ـ دوَّى البوق أخيراً. وأسرعت أباما إلى المطبخ.

ـ بسرعة، بسرعة، ابذلن كل ما بوسعكن كي تكنَّ مستعدات.

سيدنا وصل.

استدعى حسن الدعاة من أجل محادثة كان يعرفها قطعية. أشعل المصابيح بنفسه وتأكد من أن السجاد يخفي النوافذ جيداً. حمل خصيٌّ جرة كبيرة من الخمر. وتمدَّد الرِّجال على الأرائك.

انتقلت الجرة من يد إلى يد.

ـ جئت بك من رودبار لأطلعك على وصيتي. مثلما سأطلع أبا علي. لقد تمنيت حضور حسين القيني. لكنَّ الأحداث حالت دون ذلك، خوزستان بعيدة جداً بحيث إن الوقت لم يسعفني كي أستدعيه. الأمر يتعلق بتحديد مبدأ الخلافة في تأسيسنا...

ابتسم أبو علي ابتسامة رقيقة:

ـ أنت تتكلم كما لو كنت ستغادر هذه الدنيا غداً. إنك تبدو مستعجلاً لتطلعنا على نزواتك! وإن سبقناك بوزروق أوميد وأنا إلى الموت؟

ـ أنت ذكرت حسين القيني ـ أضاف بوزروق أوميد ـ لكنَّك نسيت ابنك حسين؟

هو مع ذلك وريثك الطبيعي.

وبوثبة انتصب حسن، كما لو أن أفعى لدغته وأخذ يذرع القاعة صارخاً:

ـ لا تذكِّرني بذكر هذا العجل المتوحش! تأسيسي يرتكز على العقل وليس على تعصب أبله! ابني! ابني! أي ابن؟ سأودي إلى الجحيم بهذا الفكر الرائع والذي هو فكري عندما سأتنازل عنه لأحمق منحني إياه قدر ساخر كسليل مني؟ في هذا أفضل أن أحذو حذو الكنيسة الرومانية التي لا تتبنى إلاَّ الأكثر كفاءة. فالأنظمة التي ارتكزت على روابط القرابة والدم مصيرها أن سارت في طريقها إلى زوال...

بينما يستمر تأسيس الكنيسة الرومانية ألف عام!

أبنائي؟ أخوتي؟ أنتم أبنائي وأخوتي بمقتضى العقل وفكري لا يستند إلاَّ إلى العقل.

كان الدعاة في حالة من القلق والخوف.

ـ لو كنت أعرف أن ملاحظتي ستثيرك إلى هذه الدرجة لكنت صمت ـ كن واثقاً قال بوزروق أوميد. إنَّما كيف كان لي أن أتخيل أن أمثالك، بما يخص رابطة الدم والوراثة... لنقل استثناءين.

ـ ابتسم حسن، وخجل لما بدر منه من هذا الغضب.

ـ أنا أيضاً حلمت في البداية بوضع آمالي في روابط الدَّم... كان هذا لدى عودتي من مصر ـ روى ـ كما لو كان يريد أن يسوغ لنفسه ما بدر منه. أحضروا لي ابني الذي كان جميلاً وقوياً وبهجة للناظرين. ستجد فيه شبابك ـ قلت لنفسي ـ جئت به إلى مدرستي و... كيف سأوضح لكم مدى خيبتي؟ أين ذلك الشغف بمعرفة الحقيقة، أين ذلك الطموح نحو الذرى الذي كان يجتاح كياني عندما كان لي عمره؟ لم أرَ منه حتى الظِّل.

كيف الدخول في الموضوع. قلت له: «القرآن كتاب مختوم بسبعة أختام» لكي يثيرني كان هذا جوابه: «لا يهمني كثيراً فضُّها...». لكن ألا تملك الرغبة في اكتشاف الأسرار التي لم تكشف إلى عامة الناس؟ «لا ليس لديَّ أي رغبة في ذلك». لم أكن أفهم هذه الوقاحة. ولكي أحمسه حكيت له عن نضالات شبابي. «وماذا جنيت منها سوى أن هذّك الإعياء بهذا الشكل؟». تلك كانت كل النتيجة التي وصلت إليه مناجاتي كأب مع ابنه. وكي أثير دهشته، كي أخرجه من هذا السكون، عزمت أن أفضي إليه بسرِّنا النهائي. «هل تعلم ما يرشدنا إليه مذهبنا للوصول إلى قمة المعرفة؟ صرخت لا شيء صحيح، كل شيء مباح!». أومأ بيده: «لقد اهتممت أنا بهذه الأمور مذ كان عمري أربعة عشر عاماً». هذه إذن، المعرفة التي حاولت أن أكرِّس لها كل حياتي، هذه المعرفة التي مكنتني بديهيتها النهائية من مجابهة كل الأخطار، من ارتياد كل المدارس، من دراسة كل الفلسفات.

لقد حصَّلها مذ كان ذا أربعة عشر عاماً!

اغتظت: هكذا إذن، ولد ابني بالحكمة الفطرية!... أية مهزلة! هو الذي لا يفقه أدنى هدف للعلم! بلاهة كهذه كانت تثير سخطي. عهدت به إلى حسين القيني كي يخدم تحت إمرته كجندي بسيط. والباقي تعرفونه...

نظر الداعيان إلى بعضهما بعضاً. فكّر بوزروق أوميد بابنه محمد الذي أحبه بحنو. ألم يكن قد فكّر بإرساله إلى مدرسة حسن ليجعل منه فدائياً؟ أحسَّ وكأن هذه الفكرة سبّبت له قشعريرة في ظهره. طرح أبو علي السؤال الذي كان حاضراً في ذهنه:

ـ شيء يحيرني يا ابن الصباح... طالما سمعتك تتحدث بأن تأسيسنا مبني على العقل، إلام ترمي إذن بهذا؟

وضع حسن يديه خلف ظهره... وأخذ يذرع القاعة بخطىً بطيئة.

ـ إن فكرة حكومتي، استهل ـ ليست جديدة تماماً. فمنذ ثمانين عاماً قبل الآن قام الحاكم في القاهرة بتجربة مشابهة. عندما سمى نفسه إلهاً مجسداً. لكنَّ هذا الامتياز الاعتباطي تملك بعقله بشكل واضح فتشوش عقله لدرجة حسب نفسه فيها أنه فعلاً من أصل إلهي. فنقل لنا عندئذ دعاية هذا التقليد العظيم، أقصد بذلك حقيقتنا المقرَّرة العليا، التي طبقها الحاكم فأدت به إلى الهلاك.

ـ ألا يبدو لك يا ابن الصباح أن مبدأنا فقد شيئاً من قيمته منذ أن عرف به كثير من الناس؟

هذه الحكمة القائلة بأن لا شيء حقيقيًا، كل شيء مباح، هي على الأخص حكمة ذات حدَّين. إني اعترف بذلك: ولعل في ابني المثال التعس على ذلك. فذاك الذي لم يؤهل لها منذ الولادة لن يرى فيها إلاّ جمعاً اعتباطياً لكلمات خالية من المعنى. أمّا من كان مؤهلاً لها، فلسوف يجد فيها النجم الدال الذي يوجه كل حياته.

كان القرامطة والدروز الذين انحدر منهم الحاكم يعرفون أن على الحكيم أن يجتاز درجات المعرفة التسعة قبل أن يصل إلى الهدف. كان دعاتهم يوجدون اتباعاً من خلال روايتهم قصصاً ساذجة عن نسب علي وعن قدوم المهدي. فأكثر التلاميذ كانوا يكتفون بهذه الحكايات البدائية، أمّا الأكثر تطلباً فكانوا يريدون معرفة المزيد عن ذلك. فكانوا يفسّرون لهم القرآن

كتصور خارق محصور بشكل سري بالمعنى الباطن. فإن وجد واحد من بينهم لم تتوفر لديه القناعة بعد، فإن معلمه لم يكن ليتردَّد من أن يبرهن عن عظمة دينه ضمن القرآن وضمن الإسلام بشكل عام. ومن كان يريد أن يغوص في المعرفة أكثر كان يتوصل إلى أن كل الأديان ـ ولأنها تتضمن الصحَّ والخطأ ـ كانت ذات مدلول واحد إلى أن كان بعض النخبة القلائل جداً يتوصلون إلى النضج بحيث يقفون على أسرار المبدأ الأسمى الذي يعتمد على نفي كل مذهب وكل تقليد.

وولوج هذه الدرجة يتطلب من المعتنق أكبر شجاعة، وأكبر قوة. إذ يستوجب عليه أن يخطَّ طريقه في الحياة، دون أرض صلبة يضع عليها خطواته. ودون عكاز يستدل بها في مسيره. إنما لا تخافا: لن يُقدَّر لهذا المبدأ أن يفقد فعاليته إذا ما أبيح به: فالناس خلقوا هكذا، بحيث إن الغالبية ممن يوحى إليهم بسر هذا المبدأ لن تفهمه بسهولة.

ـ بدأت أبصر بوضوح أكثر ـ قاطعه أبو علي ـ لكنك قلت بأنك أتيت بنا بشأن مسألة وصية الخلافة.

ما الذي قادك إلى التفكير بهذه الأمور؟ وأنت لا تزال قوياً ومعافى.

ضحك حسن، وهو لا يزال يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ولم يفارقه الداعيان بأنظارهما.

ـ لا أحد يعلم ما يخبئ له الغد. الوصية التي أنوي أن اتركها تتطلب من منفذها معرفة صحيحة أولية لبعض الجزيئات وبشيء من الخصوصية. . . وبما أنني اخترتكما مع حسين القيني كي تكونوا ورثتي، فإنني أريد أن أبوح إليكما، أنتما الاثنين على الأقل، بخطتي: هذه الخطة التي يستنند إليها مستقبل بنياننا. معترفاً بأنني حصَّلت بعض عناصر هذه الفكرة الثمينة جداً بالنسبة لي من الحاكم التعس وحتى من داخل كنيسة روما!

هذه الخطة التي هي أصلاً من اختراعي.

أصغيا إذن.

تمدد بالقرب منهما، وابتسامة طفولية تقريباً هامت على شفتيه. ابتسامة من يعرف أن ما سيقوله سيثير الضحك. بل سيجعله يُحسب على أنه ممسوس.

ـ ألا تعلمان بأن محمداً وعد هؤلاء الذين يحملون سيوفهم في سبيل قضية الإسلام بمباهج الفردوس؟

هؤلاء الذين سينعمون بمتعة السير على حشائش البراري والبساتين، الذين سوف يستلقون على ضفاف الجداول الهامسة. ستتفتح الزهور حولهم، وسيتنشقون عبيرها المثمل. وسيأكلون من مآكلها اللذيذة، وفاكهتها المنتقاة، وصبايا حسان، ذوات عيون سود، وأطراف جميلة سيقمن على خدمتهم في سرادقات صنعت من الزجاج.

وعلى الرغم من النعم التي سيحاطون بها، فإنهنَّ سيحافظن على طهارتهن وعلى عذريتهن الأبدية!

سيقدمن لهم الخمر الذي لن يودي بعقولهم في دوارق من ذهب. أيام الخلود ستجري بالنسبة لهم في بحبوحة من العيش وفي لذة لا حدود لها!

تبادل الداعيان، وهما يراقبانه، نظرات حائرة.

ـ نحن نعرف كل هذا ـ قال أبو علي مبتسماً ـ تستطيع أن تصدقنا.

ـ حسنٌ! إذاً فتعلمون أيضاً أن المؤمنين الأوائل المنجرفين بهذه الدعوة قد ناضلوا كالآساد، يقودهم إلى ذلك زعيم دينهم. يحكى أن بعضهم ماتوا والابتسامة تعلو شفاههم، يتأملون هكذا بأذهانهم هذه النعم التي كانت تنتظرهم في العالم الآخر للأسف، فإن هذا الأمل وهذا الإيمان بهذه الوعود الخلبية قد ضعفا جداً بعد وفاة النبي. انطفأت حماسة المؤمنين إذ اختاروا أن يتعلقوا بحقائق أكثر حسية: عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة. لأن أحداً لم يرجع بعد من العالم الآخر ليخبر عن مصداقية ما أنبأ به النبي هناك. إيه، أجل، إن كنّا نريد أن نقارن أنفسنا بالنبي، إن كنّا نريد أن نقابل فكرنا بفكر الإسلام لكان لزاماً علينا أن نتأكد كم تفوق النبي

بمقارنته بنا. لأن إيمان هؤلاء المعتنقين هذا مكَّن في الحقيقة من إنجاز المعجزات. مما يؤكد أن تشييد تصوراته على أساس من العقل وحده يفتقر إلى هكذا معجزات هي غير قابلة للتحقيق، كان هدفي الأول إذن هو بتوحيد المعتنقين من خلال التربية، الذين أنعشوا من جديد بإيمان كهذا.

ـ تستطيع أن تهنئ نفسك يا ابن الصباح أطرى عليه أبو علي، إنَّ ما أبلاه الفدائيون هذا اليوم يدل على أنك قد نجحت.

ـ هيا، هيا يا عزيزي هل تظن أني لم أرَ مدى امتقاع وجوه الفدائيين بالنسبة لمعتنقي محمد الأوائل؟

لكنني سأخبرك هذا: عليّ وعلى الرغم من ذلك أن أجد الوسيلة لأحصل على المزيد، على أكثر مما حصل عليه هو نفسه!

ـ أنت تحاصرنا مثلما يحاصر فهد الصيد طريدته! علَّق بوزروق أوميد، كم هناك من الأسرار المخبأة خلف ابتسامتك!... وهذه المناورات التي تقوم بها عمداً كي تثير فضولنا. هيا! إلامَ ترمي بالضبط؟

ـ خطتي هائلة، أردف حسن، أنا بحاجة إلى مؤمنين يتوقون إلى الموت بشكل لا مجال فيه لشيء يجعلهم يهابونه، عليهم بالمعنى الحرفي أن يعشقوا الموت! أريدهم أن يهرعوا للقائه، أن يجدُّوا في طلبه، أن يستجدوا عطفه، كما يفعل أحدهم حيال عذراء عنيدة منيعة.

ـ انفجر أبو علي وبوزروق أوميد ضاحكين مقتنعين دون شك بأن حسناً، وبحسب عادته القديمة يسخر منهما... من الأفضل لهما أن يكشفا له جلياً بأنهما لم يصدقاه.

لكنَّ حسناً لم يحجم أبداً.

ـ أصغيا!... لا بدَّ لتأسيسنا من أن يصبح قوياً بحيث يستطيع أن يواجه كل عدو، وعند اللزوم، أن نواجه العالم بأسره ليصبح نوعاً من مجلس أعلى لشؤون هذه الدنيا. ولكي نساعد أنفسنا لبلوغ هذا الهدف، يجب أن يكون فدائيونا عشاق موت! وبهذا سنكون فضّلنا عليهم عندما سنرسلهم

إلى حتفهم. وبالطبع فإنهم لن يختاروا بأنفسهم طريقة الخلوص إلى ذلك. ولا بد لكل ميتة نحن مسؤولون عنها من أن تعود علينا بانتصارات حاسمة. هذا هو جوهر خطتي وبالوقت نفسه الوصية التي نويت أن أبوح لكما بها اليوم.

ـ ومهما أظهر من ابتسام وهو يتكلم فإن صوته كان يكشف عن إثارة غريبة. لم يستطيع الداعيان أن يحكما كثيرًا على ذلك.

ـ إني أتساءل في ما إذا كان قد أغرَّك انتصارنا اليوم على الأتراك، باختصار، إن كنت تمزح أم....

لم يستطع أبو علي أن يكمل.

ـ ما لَكَ..؟ تابع! تابع هازئاً. أنت تحسبني دون شك مثلما حسبني الريِّس اللومباني عندما أقمت عنده في أصفهان. إني اقرأ سرائركما. أنتما تحدثان نفسكما: لقد جنَّ! مع ذلك فأية مفاجأة أخبئها لكما!...

ـ مهما يكن من أمر، صرح أبو علي، بلهجة حانقة تفضح هيجاناً مكتوماً. ومهما بلغنا فإننا نبقى بشراً، لتعلم أن لا أحد سيكون عاشقاً للموت، أو على الأقل فإنه لن يهرع مبتغياً إياه، إلاَّ إذا كنت قادراً على خلق إنسان جديد، الأمر الذي ليس هو من شأن هازل أو مجنون.

ـ إنَّما هذا هو بالضبط ما أبتغيه! صرح حسن بحبور، أن أدخل شخصياً إلى ورشة الله، ولأن الإنسان عاجز ومريض، أن أعيد صنعه وأتبارى معه ببراعة. أن أجبل وأُعدَّ الصلصال، ومن ثم أخلق فعلاً إنساناً جديداً.

ـ التفت أبو علي ساخطاً نحو بوزروق أوميد.

ـ وستقول بعد ذلك أن الحاكم كان مجنوناً.

وجه بوزروق أوميد غمزة نحو حسن. دون أن يكفَّ عن إرهاف سمعه إلى حوارهما. كان يحدس بالتباس أنَّ الفكرة التي تدور في رأس الزعيم الأعلى تخصه هو بالذات.

ـ بدأت بالتكلم عن الوصية، ثم عن مسرّات السماء التي وعد بها النبي هؤلاء الذين سقطوا من أجل قضيته، ثم عن قدرة ستُبسط على العالم قاطبة والآن تفصح عن إرادتك في خلق إنسان كامل يتوق إلى الموت! أريد الآن فعلاً أن أعرف ما هو الرباط الذي يوحد كل هذه الأشياء الرائعة. . .

ـ الرباط الموجود بين كل هذه الأشياء بسيط للغاية. قال حسن ضاحكاً ـ وصيتي لا ترمي إلاً لأن تجعل منكم الموصى إليهم بتأسيسي الذي سيكون من ابتكاري. قوة هذا البنيان الذي سيرتكز على رجال من صنف جديد كلياً، سيتميزون برغبة شديدة إلى الموت وبولاء أعمى للزعيم الأعلى. ولن نحصل منهم على الفضائل النادرة إلاً باستنهاض إيمانهم الكلي. أقول إيمانهم! المعرفة الكلية باللذات التي تنتظرهم في الفردوس بعد الموت!

ـ يا له من برنامج رائع! سلمت لتوك بأن الإيمان بالحياة الآخرة قد ضعف كثيراً بعد وفاة النبي. وها أنت ذا تريد أن تبني عليه قوة أخوتنا الدينية! ليفهمك الشيطان. أنا لم أفهمك أبداً.

ضحك حسن ضحكاً غامراً. وبدا واضحاً أن غضب تابعيه أفعمه بالارتياح.

ـ هيا يا صديقي أبا علي، أنت تجهل ما يجب فعله من أجل تنبيه إيمان مشايعينا إلى مغانم الفردوس، وتحريض رغباتهم للموت في آن واحد بهدف معرفتها بأسرع وقت ممكن!

ـ افتح لهم باب الفردوس بقدر ما تستطيع، وأرهم إياه! انفجر أبو علي. . . دعهم إذن يتلذذون هناك أخيراً بما أنك تريد أن تؤكد انك تملك مفتاحه! عندئذ سأموت أنا أيضاً بكل سرور. . .

ـ لقد وصلت بك إلى حيثما أريد! قال حسن منتصراً وقد هبَّ واقفاً. تعالا يا طفليَّ، اتبعاني، سأريكما هذا المفتاح الذي يفتح باب الفردوس. . .

قفز إلى طرف الغرفة. كما لو كان عمره عشرين عاماً، أزاح الستارة التي تستر سلماً يؤدي إلى قمة البرج.

ـ هيا! قال لهما ـ تقدمًا حتى الشرفة.

نظر الداعيان إلى بعضهما بعضاً من خلف ظهره. لمس أبو علي جبينه بطرف سبَّابته ونمَّت شفتاه عن برطمة استفهام. أشار له بوزروق أوميد بيده أن يتصبر.

دلفوا إلى الشرفة، لا الأول ولا الآخر كان حتى هذا اليوم قد استطاع اكتشاف هذا المكان. كان مرصداً حقيقياً. تكشف الأرض عن مشهد مزولة حقيقية، حيث ارتسمت عليها مدارات الأرض، والكواكب التي تدور حول الشمس، مدار القمر وكل جزئيات الأبراج. جداول حساب مغطاة بالأرقام، وهي أيضاً منحوتة بالحجارة، تمكنك من أن ترى هنا وهناك أشكالاً هندسية: دوائر قطوع إهليلجية، ورموز، ... وقطوع زائدة، وناقصة وفي كل مكان تقريباً، نُضِّدت أدوات للقياس وللرسم: كان منها من كل الأنواع وكل الأحجام: أسطرلابات، فرجارات، أدوات تقويم مثلثاتية، وأدوات أخرى عجيبة تقريباً. في وسط الشرفة، ساعة شمسية تشير بدقة إلى تقسيمات الزمن، عنبر صغير احتيط به من أجل حماية هذه الآلات الدقيقة أثناء الطقس الرديء. خلف هذا أُعِدَّ أصيص زجاجي مرتفع السقف. لم يكن ينبت فيه إلا نوع من عشب ذي سوق طويلة، كانت تلك النبتات تشابه إلى حد الالتباس مكانس مقلوبة. تفحَّص الداعيان بسرعة كل هذا. ثم تسمَّر نظرهما في طرف الحاجز الأعلى فوق طريق المدوَّرة التي كانت تحاذي المسطحة: عبد عملاق، وسلاح هائل ضخم بين يديه يحرس وهو جامد كالتمثال.

كانت الشمس تحرق الشرفة، بينما رياح رطبة كانت تهب من الجبال وترطب الجو، لكأنها أنفاس الثلوج البعيدة.

ـ يظن المرء نفسه على قمة جبل ما، قال بوزروق أوميد وهو يستنشق هذه النسمة.

ـ إنما هل ربما بنيت عشَّك في هذه الأعالي كي ترى الفردوس بشكل أفضل؟

قال أبو علي مازحاً.

ربما هناك يوجد مفتاحك الشهير...

ـ هيه نعم! من هذا المرقب أشاهد الفردوس! أجاب حسن بابتسامة تخفي وراءها لغزاً. لكنَّ مفتاح بابه موجود في هذه الدفيئة...

اقترب من البيت الزجاجي وأشار إلى النباتات التي بذروها هناك.

تبعه الداعيان، وهما لا يزالان يتفرسان وجهي بعضهما بعضاً. ويهزان رأسيهما.

ـ يا حسن، يا حسن، احتج أبو علي برفق، متى ستكف عن مزاحاتك؟ إننا نحن الثلاثة في سنٍّ وقورة، يليق بنا المنطق الجدي. أقرَّ بأن هذا اليوم هو يوم ابتهاج.

ـ أمَّا أنا فما زلت أتلذذ بدعاباتك غير الجارحة... لأنه لا بدَّ من أن أقول إنك لن تبخل علينا بأية واحدة منها منذ هذا الصباح.

ونظرة ثاقبة جمدت في عيني حسن:

ـ هذا هو المفتاح الذي يعطي مدخلاً إلى متع الفردوس! لفظ هذا بأناة.

ـ هذا العشب الضار؟

ـ نعم، وهنا انتهى المزاح!

أشار إليهما بإصبعه إلى بعض الأرائك المصفوفة في ظل مستودع ودعاهما إلى الجلوس.

ـ العشب الذي أريتكما إياه هو ليس شيئاً آخر غير القنب الهندي، لتعلما أن خلاصته تحتوي على خواص خاصة سأشرح لكما الآن طبيعة هذه

الخواص. في كابول، وقد مضى على ذلك زمن طويل، كنت مع آخرين ضيفاً عند أمير غني من مواليد الهند، استمرت الوليمة التي أولم لنا بها طيلة الليل، وعندما افترق الضيوف، حوالى الصباح، فإن الأمير استبقى البعض منا واصطحبنا إلى غرفة محجوبة مفروشة بالسجاد من الأرض وحتى السقف. بعض مصابيح كانت تتلألأ هنا تغرق المكان في نور خفيف.

«لقد أعددت على شرفكم، أعلن مضيفنا، تسلية من نوع خاص نوعاً ما. . .

هل يسركم أن تزوروا مناطق ومدناً لم يسبق لأحد منكم أن رآها قطعاً؟ إني أنوي أن أصطحبكم إليها الآن. انظروا! فأنا أقتني في هذه الصندوقة السحر العجيب، الذي لا يضاهيه شيء من عجائب الحكايات». على هذا فتح الصندوقة الذهب وقدم لنا أقراصاً صغيرة يحسبها المرء لأول وهلة مجرَّد حبات سكاكر عادية». «أدعوكم لتذوقها» قال لنا، ونحن امتثلنا له دون تمنع، عندما صارت واحدة من تلك الكرات الصغيرة في فمي ظننتها عبارة عن نوع من أنواع الحلوى، قدَّمها لنا الأمير هكذا على سبيل الدعابة. إنَّما عندما ذابت حبة السكاكر، أذهلني طعمها المر. «حسب هذا ألا يكون نوعاً من السم». فكرت في البداية. ثمَّ ألَمَّ بي نوع من الدوار. في اللحظة التالية لاحظت شيئاً خارقاً تماماً. بدت لي ألوان السجَّاد المنسدل على الجدران زاهية بشكل عجيب. فلم أعد أفكِّر عندئذ بالسم. وتركز انتباهي على ذلك التلون الذي لم أكن أعهده على الجدران، لاحظت إثر ذلك أن الأشكال المرسومة على السجاد تغيرت بشكل عجيب. على البساط المقابل لي طُرِّزت صورة رجل ذي لحية سوداء يجلس وسط جارياته المتحلقات حوله. لاحظت فجأة أن صورة الرجل اختفت، بينما وقفت الجاريات وأخذن بالرقص. أنا أعلم أنني من كونت لنفسي هذا التأمل المبهوت:

«لكنَّ هذا غير ممكن، فليس هذا سوى لوحة!».

تفحَّصْتُ بانتباه تفاصيل المشهد الذي كان أمامي:

كانت الجاريات، وبتباين غريب، جامدات ويخيل إليك أنهن يرقصن فعلاً! قليل من الوقت وصرت أفكر بأن من المستحيل أن ما يتحركـ أمامي هو أطراف في مجرِّد لوحة.

بانت لي الأجساد حيوية ولون لحمها الوردي كان تماماً كلون من به حياة:

من حينها حرَّمت على نفسي أن أومن بوهم!

«وهكذا توصلت إلى تجاهل حضور أصحابي دون أن أشعر بذلك، مشغوفاً بكليتي بالظاهرة التي كانت تتخطى إطار الجدار. الألوان التي تشع، الشخصيات التي تتقدم لتصل حتى وسط الحجرة نحوي، الفتيات اللواتي كنَّ يسترسلن في تلك الحركات البهلوانية. أمَّا أنا فانتقلت إلى آخر درجات الغبطة... «ربَّما كنت أنا الساحر الذي بعث على كل تلك التبدلات»، حدثت نفسي فجأة. وعلى سبيل الاختبار أمرت ذهنياً تلك الكائنات التي كانت تتراقص أمامي أن يغيرن وضعية أجسامهن. فنفذ أمري برمشة عين. هكذا كنت السيد بقدرة خفية! وجدت نفسي أتقلد سلطة ملك، يحكم المكان والأشياء التي تتحركـ فيه، وهو مستقل عن الزمن وعن نواميس الوجود. دهشت إذ إنني لم آتِ قط على أن أكتشف بنفسي هذه القدرة الخفية. «بأي شيء أنا أدنى من الله؟».

حدَّثت نفسي عن هذه اللذة التي أثبتتها لي هذه القدرة الأسطورية، أجسام مضاءة بحدة، وبألوان مشعة طبيعية حيوية بشكل غريب أخذت تتحركـ أمام ناظري.

أوشكت أنفاسي أن تتوقف عندما رأيتها تتجمع في مدينة أكثر كبراً ومهابة من القاهرة، أكثر بهاءً من بغداد، أعظم من الإسكندرية، منارات عملاقة تشرئب إلى السماء، مسنَّمات ذهبية ومفضضة، وأخرى مغطاة

بالسيراميك مضاعف الألوان تحيط بقبابها فوق السطوح. كانت نفسي تندفع في بهاء رحب من غبطة لا حدود لها!

«نعم الآن أنت الله فعلاً! همس لي صوت، أجل ها أنت ذا قد صرت إلهاً! سيد الوجود!».

ثم أخذتِ الصور تتبدد أمامي. أحسست وبشكل مضطرب بأني بلغت قمة كان عليَّ بعدها أن أعود إلى الابتذال اليومي. والخوف من فقد هذه المباهج الكثيرة استولى على نفسي. بذلت كل جهودي محاولاً ان أحافظ على نفسي في هذا العلو السامي. لم يكن لديَّ ما أفعله: ضعف غريب، فترت أطرافي، وأخذت الألوان شيئاً فشيئاً تفقد بريقها، فصارت باهتة في نظري، فجأة فقدت وعيي... أفقت على الدُّوار وقد اكتسحني شعور عميق مقزز. لم أستطع أن أكفَّ عن استحضار ذكرى الصور التي رأيتها والأحاسيس التي اعتملتها. هل مكثت طيلة ذلك الوقت ساهراً؟ هل حلمت؟ لا أستطيع أن أقول ذلك.

كل ما تبادر إلى ذهني كان موشوماً بحالة الأمس. إنما من أين لي أن أكون رأيت تلك الأشياء التي لا وجود لها لو لم أكن قد حلمت؟ كان رأسي كالمهشم، خادم قدَّم لي كأساً من الحليب البارد. وعندها فقط تذكرت أني لم أكن وحيداً في الحجرة: مدعوون آخرون كانوا نائمين حولي. كانوا يتنفسون بصعوبة، وشحوب غريب كان يشع من وجوههم...

سارعت في ترتيب الثياب التي كنت أرتديها، وغادرت الدار خلسة. لم تبارح عيون الداعين شفتيه طوال الوقت الذي استغرقته حكايته.

عندما صمت سأله أبو علي:

ـ وماذا فعلت حتى عرفت ماذا كان يوجد في هذه الكرات الصغيرة التي وهبتك هذه القوة المعجزة؟

ـ أصغيا إلى التتمة ـ تابع حسن ـ في مساء ذلك اليوم نفسه، استحوذ

عليَّ قلق غريب، لم اكن قادراً على الاستقرار في مكاني، تساءلت عمًّا كان ينقصني، وفجأة، ألفيت نفسي ودون إرادتي في بيت أميرنا. استقبلني السيد بالابتسام، كما لو كان ينتظرني. «الزائرون الآخرون كانوا هناك أيضاً. قال لي في الواقع إنَّ من يذوق هذه الأقراص الأعجوبية المحلاة سيصبح شرهاً للتمتع بهذه المتع التي أحسَّ بها ذات لحظة. ستعنُّ على باله دائماً العودة إليها. وشيئاً فشيئاً يصبح عبداً لهذا المخدِّر، حتى أنه سيفضل الموت على أن يحرم منه، أحذركم من ذلك: لا أرغب بعدم تقديم هذه الحلوى الخطيرة لكم وحسب، وإنَّما أحظِّر على نفسي أن أعطيكم سر تركيبها». بعد عدة أيام سكن اضطرابي.

لكنَّ فضولي كان محرَّضاً، وآليت على نفسي أن أخرق هذا السر.

واتاني القدر. امرأة تدعى اباما اشتهرت على أنها أجمل محظية في كابول. أظن أنه سبق وحدثتكم عنها... لم تصلوا بهذا الصدد إلى آخر مفاجآتكم.

عادت إلى حسن ابتسامته الغامضة.

ـ كنت متحمساً. جريئاً في مغازلة النساء، ولم أكن قادراً على كبح هواي الذي كان يضطرم بي، كان الأمير قد اتخذ من أبّاما عشيقة، لكنني أنا، ضيفه، قد أسرت قلبها، كنا نلتقي ليلاً في حدائق سيدها، نرتشف الفردوس في عناقات محرَّمة. كانت تمارس على عشيقها الأمير سلطة مدهشة، عندما أفضيت لها عن الفضول الذي كان يعذبني، فإنها لم تجد كثيراً من العناء في ابتزازه سره بالاحتيال، هكذا علمت أن المادة تتركب منها الأقراص المحلاة الشهيرة تسمى الحشاش أو الحشيش. وتستخرج من القنب الهندي الذي رأيتماه هنا، في هذه الدفيئة.

انحدرت الشمس، وانزووا في آخر مربع الظل عندما انتهى حسن من رواية قصته مكثوا ثلاثتهم صامتين عيونهم مشدودة إلى الأرض وقد قطَّب

أبو علي حاجبيه بينما كان بوزق أوميد يرمي بنظرة على سلسلة الجبال، وهو من عاد أخيراً إلى فتح الحديث:

ـ بدأت أستكشف نياتك بوضوح، فربَّما تريد أن تضرم حمية المؤمنين بعصارة هذا النبات وأن تحرِّض شهوتهم لتكرار الجرم. فتستعبد إرادتهم بذلك.

ـ وتأمل أن تحصل منها على نتائج متميزة؟

ـ برطم أبو علي ـ ، وأنت تحرمهم من هذا الحشيش، أو سمِّه ما تشاء، تريد أن تتلاعب برغباتهم وأن تدفعهم إلى لقاء الموت؟ اعذرني، إذ تبدو لي حساباتك خاطئة فحتى إذا لم يستطيعوا أن يعيشوا دون هذا المخدر فهذا لم ينزل في أي كتاب، عليهم أن يصحوا بأنفسهم بعد ذلك مثلما تتمنى. كان عليك أن تدَّخر لنفسك هذه التجربة وأنت في هذا العمر. هل تتصور بأنهم سيعتقدون فعلاً بأن قرصاً مخدراً كافيًا كي يقودهم إلى الفردوس!

هيا إذن! لنحاول أن نكون متعقلين قليلاً... فالأجدر أن نتحدث عن الترتيبات الملحة التي يجدر بنا أن نتخذها عند اقتراب جيش السلطان العارم.

ـ أنا موافق على كل ما قلته. قال حسن بلهجة ماكرة، فأمام قوات العدو التي تقترب لم يبقَ سوى مخرجين: إمَّا أن نجهِّز سريعاً قافلة ونحاول الهرب حتى أفريقية، كما نصحنا بذلك الحكيم موتسوفر وإمَّا أن نأمل بمعجزة.

وكما ترون، فأنا قد اخترت الطريق الثاني. إنما ما زال لدينا الوقت لتغيير رأينا.

ـ أناشدك بلحية النبي! قال أبو علي متحاملاً فرجل صادق لا يستطيع أن يأخذ منك لا حقاً ولا باطلاً، بودي فعلاً لو أسمعك مرة تتكلم بوضوح!

ـ حسن، سأحاول، من هذا المكان، الذي نوجد فيه الآن ـ قلت لكما ـ

امتلكت المفتاح الذي يقود إلى الجنة. . . إنما ليس في هذا المكان كل شيء. من نفس هذا المكان أستطيع أن أرقب ما يجري فيه! لن تجهلا شيئاً من سلوك هؤلاء الذين يعيشون من جهة القصر، في الجزء الذي يمكن الوصول إليه من القلعة. . . . . . أفلم تفكرا قبلاً فقط عمَّا من الممكن له أن يكون موجوداً في الجهة الأخرى من هذا البرج؟ تفضلا إذن واصعدا هذا الحاجز. . . وانظرا أمامكما مباشرة!

سارع الداعيان نحو فتحات درب المدوَّرة وانحنيا من أعلى الجدار الضخم. مكثا صامتين من الانذهال. تحتهما تمتد، وكأنها مرسومة على خارطة كبيرة، حدائق رائعة محرجة بمروج خضر، تنتشر فيها الأزهار. فرع من النهر يحصرها كما لو كان يشكل حلقة كبيرة حولها، كان في هذا متاهة حقيقية من الأجمات والشرفات تقطعها جداول الماء المتدفقة التي ترسم حدودها فتبدو لك وكأنها نوع من الجزر. وفي كل مكان تمتد الممرات المفروشة بالحصى البيض، سرادقات استراحة، يظن من يشاهدها أنها صنعت من الزجاج. تلمع في الشمس مسوَّرة بالسرو الأسود، وتنعكس صورتها في الأحواض الدائرية التي توسطتها نوافير الماء، أخيراً وعلى طول الممرات، وعلى الفناءات، كان يتحرك شعب من الكائنات الرشيقة، أثيرية، تقريباً وكأنها فراشات ترقص الباليه.

ـ أعجوبة، أعجوبة حقيقية، همس بوزروق أوميد بعد صمت طويل.

ـ في هذا ما يحلم به كل شعراء وقصاصو الشرق. . . أضاف أبو علي.

ـ افترضا أنكما كنتما معي في كابول عند هذا الأمير، قال لهما، وابتلعتما أنتما أيضاً هذه الحبة المحلاَّة من الحشيش، وقد اعتملتما معي تجليات الروح هذه التي تحدَّثت لكما عنها. عدتما إلى وعيكما بعد ذلك، ليس في هذه الحجرة القاتمة التي نمتما فيها، وإنما في هذه الرياض الموجودة تحتكما، وسط صبايا رائعات يقدمن لكما كل ما جاء وصفه في القرآن. فأي أفكار سوف تتبادر إلى ذهنيكما؟

ـ أنت فكرت في كل شيء. قال أبو علي منذهلاً. فتى وعديم خبرة. سأظن فعلاً أنني في جنان الله!

ـ إنَّما متى وكيف استطعت ان تخلق كل هذا؟ قال بوزروق أوميد مندهشاً.

ـ كان أمراء الديلم، الذين شيدوا آلموت. قد أعدوا الأرض من أجل إنشاء هذه الحدائق المستقبلية وزرعوها.

الزعماء الذين تعاقبوا أيضاً على القلعة تركوا المكان مهملاً. فاكتسحته الأعشاب والأدغال البرية، سأبقي مهدي ربَّما لم يكن يعرف مدخلها. لكنني سمعتهم يتحدثون بشيء ما بشأنها. ربَّما كان مشروعي الفردوسي قد اختمر في رأسي. وضعت كل جهدي كي استولي على هذه القلعة. بذلت كل ما كنت قادراً عليه من أجل وضع مخطط دقيق للأرض، وعندما جاء الخصيان من مصر أخذنا في العمل. هكذا أنشأت هذا الفردوس قطعة بعد قطعة. وإنتما الوحيدان معي ومع الخصيان من يعلم بوجودها.

ـ ألا تخشى من أن يفضح خصيانك يوماً ما؟ استفسر بوزروق أوميد.

ـ هم يعرفون ما لا تعرفه أنت! أجاب حسن. هم لا يتحدثون في حياتهم إلى أي أحد غيري. رئيسهم وآمرهم علي مخلص لي بشكل أعمى.

فضلاً عن ذلك فإن كل واحد منهم يعرف بأنه لو جاء على ذكر أي شيء، فإن الموت سيعقب ذلك فوراً. وأنا لي ثقة بهم.

ـ ولا تفكِّر أن تتعرض الضحايا التي خصَّص لها هذا الفردوس لكشف حيلتك؟ اعترض الحاذق أبو علي.

ـ لهذا تراني قد اخترت شباباً عديمي الخبرة أحد من بينهم لم يعرف الحب الذي توفره المرأة. ما من شاب أكثر سذاجة من شاب لم يعرف المرأة، هي وحدها المرأة من تستطيع أن تجعل من الرجل رجلاً كاملاً. هي التي تنقل له المعرفة فينضج بجوارها. إنه إذ يفقد براءة الجسد، يفقد

أيضاً براءة النفس، لهذا فإن كل شيء يدفع الشاب إلى هذا الحدث المشؤوم وهو معمى بهوى يتخطاه، يكون مستعداً لتصديق كل شيء، علَّه يبلغ هدفه فقط.

- ومن هم هؤلاء الشبان؟

أجاب حسن بابتسامة.

- الفدائيون؟

- أنت قلت ذلك.

صمتٌ متجمد استقبل ذلك الخبر. ما زال الداعيان يتأملان تلك الحدائق تحتهما، حسن يرقبهما بشيء من الاستهزاء الرؤوف.

- يخال إليَّ أنكما فقدتما لسانكما؟ في هذا الصباح، سقط ست وعشرون من رجالنا في المعركة مع مقدمة جيش السلطان، فإذا ما بدأنا المعركة ضد جيشه فلسوف نهلك جميعاً. لهذا فأنا بحاجة إلى بعض الأبطال الذين سترتعد فرائص أمراء هذا العالم أمامهم، استدعيتكما لأريكما - كيف سيربى هؤلاء الرجال. ستحضرون معي هذا المساء تجربة حقيقية في تحويل الطبيعة الإنسانية. يا أبا علي، أنت من يعرف فدائيينا، عين ثلاثة منهم ممن يتميزون بكفاءتهم ومواهبهم، يجسد كل واحد منهم شخصية محدَّدة: يجب أن نعرف في الواقع أي نوع من الرجال يتلاءم ومشاريعنا، ثلاث حدائق تنتظر هؤلاء الزائرين...

رمق أبو علي حسناً بنظرة وشحب لونه.

- ماذا تقصد يا ابن الصباح؟

- اذكر لي ثلاثة فدائيين تتمايز مواصفاتهم، بعضها عن بعضها الآخر بطريقة مغايرة تماماً.

تفرَّسه أبو علي كالأبله دون أن يقدر على النطق بكلمة.

ـ سأساعدك، من هو ذلك المتهور بشجاعته، والذي أراد أن ينقض على الأتراك. دون أن ينتظر الأوامر؟

ـ سليمان.

ـ ومن هو الأقوى بين الجماعة؟

ـ يوسف.

ـ حسنٌ. الثالث سيكون ابن طاهر، لديَّ فضول لان أعرف رد فعله... فإذا هو لن يكتشف شيئاً، فإن أحداً غيره لن يكتشف شيئاً على الإطلاق.

تلألأت جبهة بورزوق أوميد بعرق بارد.

اعتراضٌ على أنه كان يفكر بإرسال ابنه محمد إلى مدرسة حسن للفدائيين، كي يقدم إلى حسن عربوناً على الثقة المطلقة التي كان يضعها فيه! الآن لم يعد يرغب إلاَّ في شيء واحد، أن يراه في أبعد ما يمكن عن هذا المكان. سيرسله إلى سورية، إلى مصر، إلى أي مكان كان...! أمَّا أبو علي فما زال لا يعرف ما يجدر التفكير به بالنسبة لكل هذا.

كان حسن يراقبهما بابتسامة خفيفة.

ـ هل وقفت حسكة في حلقيكما؟ لا تأخذا الأشياء على محمل مأسوي. سأمضي إلى إقناعكما، إلى أن اظهر لكما السلوك الصحيح الذي سآخذ به... إلى أن تستطيعا أن تثيرا حسد غاوٍ في الحكمة التقليدية.

هيا، لنقم الآن في جولة في الصيوان! سوف نتنكر ونزور فردوسنا كملوك حقيقيين.

سبقهما إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفته. وخصيان أعدا لهم بدلاتهم. استبقى حسن واحداً من خادميه عنده، وأرسل الآخر لينبئ قاطني الفردوس بقدوم سيدنا. غيَّر الثلاثة ملابسهم من دون أن يتفوهوا بكلمة يساعدهم في ذلك الخصي. ارتدوا جلابيب من البروكار السميك الأبيض. والتف حسن

بعد ذلك ببرنس من الأرجوان، بينما ارتدى كل من الداعيين معطفاً أزرق مطرَّز بنوع من الفراء الثمين. وضع حسن على رأسه تاجاً ذهبياً مطعماً بالجواهر، واعتمر كل داعية عمامة يعلوها مخروط ذهبي. انتعل حسن صندلاً من ذهب، وانتعل صديقاه صنادل من فضة وتقلد كل واحد سيفاً ضلعاً زخرف مقبضه بإتقان.

عادوا من هناك إلى غرفة سيدهم.

بلحية الشهيد علي! هتف أبو علي عندما صاروا وحيدين ـ وهو متنكر هكذا ـ لن ألبث أن أحسب نفسي ملكاً.

ـ سأجعلك أقوى من كل الملوك ـ ذكَّره حسن.

دعاهما الآن لأن يأخذا مكانهما في الزنزانة المتحركة التي اعتاد أن ينزل بواسطتها حتى أسفل البرج دون أن يُرى. وبإشارة من الصنجة، أخذت الحجيرة تهبط... اضطربت يدا أبا علي. وأوشك أن يقلب صديقه في اضطرابه.

ـ سحر ملعون! شتم ـ عندما فهم أخيراً ما كان يحصل.

هل تريد أن تأخذنا إلى الجحيم أولاً.

ـ صديقنا حسن يحب أن يحيط نفسه بأشياء مثله... غريبة... علَّق بوزروق أوميد.

ـ ليس في هذا السحر شيئ خارق ـ أوضح حسن ـ هذا الأمر يتعلق باكتشاف أرخميدس، يقوم بشكل أساسي على جهاز من بكرات مشابهة تماماً لتلك التي تستخدم على آبارنا في الصحراء.

حرس جيش حسن أنفسهم كانوا ينتظرونه في الرُّواق، مصفحين بالدروع، يضعون الخوذ على رؤوسهم، مسلحين من أقدامهم حتى هاماتهم. بالإضافة إلى السيف الذي تقلدوه في أحزمة وسطهم، كانوا ينتصبون، مقمعة على الكتف، وحربة طعان في اليد. أبواق وطبول كانت

تتقدم المسير.

أنزلوا الجسر، ثم ساروا بمحاذاة الضفة باتجاه الرياض.

كان من الواجب أيضاً أن يتكلوا على الخصيان الذين كانوا ينتظرون في المراكب والذين أقلُّوا الزائرين وهم يعتلون النهر الواقع بين شلالين حتى أسفل الحديقة التي كانت تشغل مركز المتنزه.

الفصل العاشر

هرعت الصبايا إلى غرفهن، يحضِّرن أنفسهن سريعاً للاستقبال، كان يتوجب عليهن أن يغيرن ملابسهن وأن يتجمَّلْنَ، تجمَّعن أخيراً في القسم الرئيسي من منزلهن، كنَّ مبتهجاتٍ جميعهن، والبعض منهن لم يكنَّ يستطعن أن يتوقفنَ عن الارتجاف. رتبتهن مريم على شكل نصف حلقة واسعة وحاولت أن تهدئهن. أبّاما الساخطة كانت تركض في كل الاتجاهات، بمنتهى اليأس ممسكة رأسها بين يديها.

ـ أوه! كم هنَّ مسوَّيات ـ تنهدت ـ سوف يجهزن عليَّ ـ ماذا سيقول سيدنا؟

إنه سيد صارم ومنه لا يفلت أي شيء.

توقفت أمام حليمة.

ـ بحقِّ كل الأنبياء والشهداء! انظرن إليها! كم هي متبرجة! إحدى ساقيها مستورة حتى الكعب والأخرى بالكاد حتى الركبة!

حليمة، المذعورة للغاية، عادت إلى وضع زينتها. جاراتها كنَّ يقهقهن رغماً عنهنَّ وهن يتفرسن أباما التي أخطأت في ربط حزام سروالها وكشف عن نصف بطنها عاريًا. اقتربت منها مريم ونبهتها بصوت خافت.

ـ كنت أعلم ذلك! سيزعجنني!

جرت إلى المبنى، ورتَّبت هيئتها على عجل. عندما ظهرت، كانت صورة لعزة النفس نفسها. كانت المراكب ترسو. نزل حسن من المركب

مع تبعته، واصطف الخصيان في أربعة أنساق، قرعت الطبول، وعزفت الأبواق.

ـ لتنخَّ تلك التي سيوجه إليها سيدنا الكلام، ولتقبل يده، قالت أباما وهي مهتاجة.

ـ هل سيتوجب علينا أن نخرَّ على ركبنا عندما سيظهر؟ استفهمت فاطمة بقلق.

ـ لا، أجابت مريم، لتكتفين بانحناء شديد، إلى أن يوعز إليكنَّ برفع رؤوسكن.

ـ سألتف نحوه بالتأكيد ـ همست حليمة إلى جادا.

لم تنبس هذه ببنت شفة، كانت شاحبة، وتجد صعوبة في بلع رضابها.

في طريقه، كان حسن يتفقد الرياض متكرّماً على أصدقائه بذلك.

ـ لا آل خسرو، ولا آل بهزم جور حلموا برؤية ما يماثلها. قال بوزروق أوميد مذهولاً.

ـ تستطيع أن تلقِّن أنو شروان بها درساً!

أضاف أبو علي.

ابتسم حسن.

ـ ما يوجد هنا، ليس إلاَّ عبارة عن استعدادات، لا يَغْربَنْ عن بالكما ذلك: بوسائل بسيطة على سبيل التجربة التي سنجريها هذا المساء.

وصلوا إلى مركز الرياض، فتيات كنَّ ينتظرن هناك، وقد اصطففن بهدوء على شكل نصف حلقة أمام مركز مبنى صغير. حيث كانت أباما ومريم تقفان أمامهن. وبإشارة واحدة انحنين حتى خصورهن.

ـ هذه العجوز التي تريان هنا، هي الشهيرة أباما، قال حسن لصديقه ضاحكاً:

ـ هكذا يرتقي مجد هذا العالم. تنهَّد أبو علي بصوت خافت لا يخلو من شيء من التهكم.

ـ كفى! صرخ حسن وهو يردَّ لهنَّ على بادرتهن بلطف.

تقدمت أباما ومريم نحوه وقبَّلتا له يده.

حث حسن صديقيه لكي يبديا استحسانهما بتلك الفتيات.

ـ هل مشهد الجنة يبدو لكما مقنعاً؟

ـ لو أنهم قد أرسلوا بي أثناء صباي إلى بين تلك الحوريات لما كانت بي حاجة إلى حشيشك كي أعتقد بالفردوس ـ تمتم أبو علي ـ .

ـ إنهن لأجمل من بعضهن بعضاً في الحقيقة، علَّق بوزروق أوميد برصانة.

توقف الموسيقيون عن العزف. وأشار حسن إلى أنه سيتكلم.

ـ يا صبايا يا رياضنا ـ استهل قوله ـ لقد لقَّنتكنَّ رئيساتكن ما نتطلبه منكنَّ. لتعلمن بادئ ذي بدء، أن لا رحمة لهؤلاء اللاتي سينكثن بوصايانا. إنما سنكون متسامحين وكرماء مع اللاتي ينفذنها بإخلاص. لقد صرع جيشنا هذا الصباح كتائب السلطان التي هاجمتنا باسم الخليفة الغاصب. كل القلعة تحتفل بهذا النصر. وقد جئنا لنحمل إليكن الفرح أيضاً. الخمر والمزيد من الأشياء الطيبة ستكون تحت تصرفكن. لقد قررنا أن نرسل إليكنَّ هذا المساء الأبطال الثلاثة الشبان الذين برزوا بشكل متميز في معركة هذا الصباح. استقبلنهم كأزواج أو كعشاق لكنَّ. لتكنَّ رقيقات تجاههن، ولا تدَّخرن عليهم شيئاً من دماثتكن، نحن نقدم لهم هذه الرعاية بقرار من الله، فذات ليلة، في الواقع، قدم رسول من عند الله إلينا، وأخذنا حتى السماء السابعة، أمام العرش المطلق. «ابن صباح، نبينا وممثلنا! عهد إليَّ الربُّ آنذاك. أنظر جيداً إلى جناتنا، ثم عد إلى الأرض واصنع صورة حقيقية عنها عند أسفل قلعتك، ستجمع فيها الصبايا الجميلات وتأمرهن باسمي، بأن يتصرَّفنّ فيها كحوريات، ثم ستفتح باب

هذه الجنان إلى الأبطال الذين سيناضلون ببسالة من أجل القضية الصحيحة: ليؤمنوا بالمقابل، بأننا استقبلناهم في مساكننا. من غير المسموح به ـ في الحقيقة لأحد، ما خلا النبي وأنت أن يتخطى حدود مملكتنا حيًا، إنَّما كي تكون رياضك صورة حقيقية عن رياضنا فإن زائريها لن يغبنوا بشيء إن كانوا يؤمنون، وسوف يجدون فيها في ما بعد، وبقدرتنا الاستمرار الأبدي لهذه المسرات». هكذا تكلم الرَّبُّ وها نحن ننفذ أوامره. إننا نطالبكن أيضاً بأن تتصرَّفن حيال هؤلاء الزائرين كحوريات حقيقيات. لأن مكافأتهم لن تكتمل إلا بهذا الشرط الوحيد. إنهم هنا أبطال حقيقيون: يوسف مرعب العدو، والشهم مع الصديق، سليمان جميل كسوهراد، شجاع كالأسد، ابن طاهر كدود كفرهاد، صلب كما البرونز وهو شاعر فضلاً عن ذلك. إنهم الثلاثة الذين انتزعوا من العدو رايته يوسف أفسح الطريق، سليمان اقتحم، وابن طاهر استولى على راية الحرب. فاستحقوا أيمَّا استحقاق هذا الاقتراب من مسرات الفردوس فإن كشفتن عن أنفسكن، أو بدوا خائبين، فإن رؤوسكنَّ ستكون ثمناً لذلك هذه الليلة. تلكم هي إرادتي الحديدة.

كانت الصبايا يرتجفن من الخوف. جادا التي ألمَّ بها الدُّوار، خرَّت على ركبتيها، نصف فاقدة وعيها. أشار إليها حسن فهرعت مريم تحضر جرة الماء كي تنعشها. وسحب مريم وأباما بعد ذلك خلسة.

ـ هل الرياض الثلاث جاهزة؟ ـ استفهم ـ وماذا عن تلك الصبايا؟

ـ إنهنَّ ينتظرن أمرك ـ أجابت أباما.

ـ سيتوجب أن تأخذ كل واحدة منهن في كل روض دور التحكم بالعمليات، وأن تشعر بنفسها مسؤولة عن نجاح الأمر. من هن الأكثر شجاعة والأكثر نباهة؟

ـ لو سمحت، فإني سأعين فاطمة في المرتبة الأولى، فهي ضليعة وتعرف كل الفنون.

ـ حسن، ومن بعدها؟

ـ أقول زليخة. فهي الأولى في الرقص، وبالنسبة لما تبقى فهي غير قاصرة أيضاً.

ـ جيد جداً، هذا هو بالضبط ما يلزم بالنسبة ليوسف. لتستقبل فاطمة سليمان، وأنت ستكونين الثالثة، أنت يا مريم...

شحب لون مريم.

ـ هل تمزح يا ابن الصباح؟

ـ ليس الوقت الآن وقت مزاح. سيكون الأمر كما آمر، فابن طاهر لبيب كما الهر، ولو عهدت به إلى أية واحدة أخرى، فلسوف يكشف الخدعة ويفسدها.

ـ حسن.

اغرورقت عينا مريم بالدموع... مما لم يفت على أباما ملاحظته قبل أن تنسحب برصانة، طفح قلبها غمًّا، وألفت نفسها متنازعة بين الرضى والاحتقار.

علَّق حسن هذا التعليق الساخر:

ـ من كان يقول لي منذ عهد قريب، أن لا شيء يسبب له الفرح في هذا العالم، وأن لعبة خطيرة فقط، ربَّما ما زالت تستطيع أن تطرد مِلله المرعب؟

ـ هكذا، إذاً أنت ما أحببتني قط... ـ دمدمت مريم.

ـ أحببتك كل الحب. كانت وما زالت بي حاجة إليك! هيا!... كل هذا هو نتيجة لاقتراحي عليك؟

ـ ما يصعب عليَّ، هو تلك اللعبة التي تلعبها معي.

ـ مع ذلك، فيا لها من فرصة فريدة تلك التي أوفرها لك هذا المساء ـ

أردف حسن بنفس لهجته الساحرة لن تحتاجي لكل ذكائك، لكل خبراتك، لكل سحرك، إن كنت تريدين الوصول به إلى أن يؤمن بالفردوس.

ـ لقد جرحتني حتى الموت.

ـ لم اكن أحسب أنك تعبئين كثيراً بمشاعري.

إنما قضي الأمر. لقد قضيت بأن تنفذي هذه المهمة في الحالة المغايرة... أعلمي بأني لن أستثنيك أبداً... وقع ذلك على مريم كلسعة سوط، «عليَّ أن أبقى قوية ـ أرغمت نفسها على التفكير، لا سيما وأن أخفي عنه نقاط ضعفي».

ـ أنا مستعدة. قالت أخيراً.

ـ أشكرك.

ـ التفت نحو الصبايا، وخاطبهن بشكل مباشر:

ـ زليخة! اختاري سبعاً من صديقاتك، ستستقبلين يوسف معهن، وأنت من ستكفل نجاحهن.

ـ إني أمتثل إليك، يا سيدنا. نادت صاحباتها بشجاعة وهي تلتف نحوهن:

ـ حنيفة! أسماء! حبيبة! الصغيرة فاطمة، رقيه! زوفانا!... هيًّا...

ـ وهذه الصغيرة التي أغمي عليها خذيها أيضاً. ـ أوحى حسن ـ هكذا يكتمل العدد.

ثم كان على فاطمة أن تعين مجموعتها الصغيرة.

ـ زينب! خانم! توركانا! شهيرة! ليلى! عايشة!

رمقت حليمة فاطمة بعينين متضرعتين، عندما رأت أن الأخرى لم تخترها، فتوسلت:

ـ خذيني أنا أيضاً.

ـ يكفي، جزم حسن.

لكنه عندما رأى الصبايا يضحكن من خيبة أمل حليمة، ألقى بابتسامة عطوف:

ـ حسن، خذيها هي أيضاً.

ماذا ستخشى بعد، مع فاطمة، وعلى جانبيها ساره وزينب. فركضت ترتمي على ركبتي حسن وتقبل يده.

ـ فقط كوني حذرة، أيها الضفدع الصغير، ـ قال ـ ربَّت لها على وجهها بمودة وأرسلها مع الأخريات خجلة للغاية ومرتبكة من فرط سعادتها، عادت إلى نسقها. نظرت مريم في هؤلاء اللواتي بقين لديها... صفية، خديجة، ست، جوفيرا، روخانا، وتافيبا... توصلت أخيراً إلى ضبط نفسها.

كان حسن آنذاك ينادي المسؤولات كي يعهد إليهن بتعليماته النهائية.

ـ سينقل الخصيان أبطالنا النائمين حتى هنا. أيقظنهم برفق، وبكثير من الحيطة. ابدأن بتقديم الحليب والفواكه لهم. قبل أن تحلُلْن أمام الزائرين، سيكون بإمكان كل واحدة منكنَّ أن تشرب كأساً من الخمر لا أكثر، كي يمدَّها بالشجاعة. وعندما سيثمل الشبان فقط ستستطعن البدء بالشرب، إنَّما ليكن هذا بحذر! ستقدمن لي بعد ذلك تقريراً مفصلاً عن كل شيء... أخيراً لتكنَّ متيقظات جيداً لسماع إشارة الوداع. سيرنُّ البوق ثلاث مرات. في تلك اللحظة سيتوجب عليكن أن تسكبن القرص الذي ستعطيكنَّ إياه أباما في الكأس، والذي سيفعل فعله في تنويم الشبان حالاً: عليهم أن يفرغوا الكأس فوراً! حالما سيناموِن، سيأتي الخصيون للبحث عنهم ومن ثم سيعيدونهم.

عندما انتهى من ذلك، تفرَّس في الصبايا مرة أخرى، ثم انحنى قليلاً كناية عن الوداع. كانت أباما وعدي ينتظرانه في المركب. قدم لهما توصياته الأخيرة ودسَّ في يد أباما علبة صغيرة:

ـ ستعطي هذه إلى المسؤولات الثلاث. لا تظهري أمام الزائرين... إنمَّا راقبي مريم: يجب ألا تبقى بمفردها مع فتاها البطل... ثم أشار إلى رجاله واستلم طريقه إلى القصر معهم. صرف حسن صديقيه، وصعد إلى قمة برج قصره الآخر محتفظاً بالخصيين تحت حراسته. أعلن رنين البوق عن قدومه. هرع الزعيم أبو علي إليه وأخبره بأن كل شيء جاهز.

حوالى خمسين واحداً من العمالقة الزنوج كانوا مصطفين على طول الممر، مدججين بالسلاح. متصلبين وثابتين ينظرون أمامهم. تملاَّهم حسن دون أن ينطق بكلمة. في كل مرة كان يتواجد فيها بينهم كان ينتابه الإحساس بالخطر. لا سيَّما وأن هذا الشعور لم يكن مقيتاً بالنسبة له بل كان يمده بنوع من المتعة. كان يعلم بأنه سيكون من الهالكين لو أن واحدة من تلك الأذرع المائة المسلَّحة امتدت ضده. لكنَّ تلك الفكرة البسيطة لم تكن لتراود أياً منهم آنذاك. ولماذا كانوا يمتثلون لأوامره بشكل أعمى للغاية. هل كان يمتلك. ذلك السلطان على الناس؟ «قوة النفس! كان يحدث نفسه باستمرار. ذلك هو السلاح الماضي الوحيد الذي جعل تلك الحيوانات المخصية تقف باحترام... الذين ما خلاه لا يخافون شيئاً في العالم».

عندما انتهى من استعراض الرجال، أخذ الداعية أبا علي جانباً وأعطاه أوامره:

ـ بعد صلاة العشاء، ستأتي لتلقاني في قبو الصومعة مع عشرة رجال. أنا بدوري سأجعلهم يحملون معي ثلاثة شبان نائمين، سوف تأخذونهم على محامل وتقلوهم حتى الحدائق. عدي سيكون بانتظاركم هناك. ستبوحون له بأسماء هؤلاء الأبطال النائمين وهو سيدلكم إلى أماكن حلولهم. إن رأيتموهم مصادفة أثناء المسير يتقلبون فوق مراقدهم ويئنون، لا تقلقوا أبداً، أمَّا إذا ما أقدم الواحد على نزع غطائه وأظهر أنه يقظ، فليبادر من يرافق نقالته إلى خنقه دون أي ضجيج وليفعل ذلك في درب

العودة. وإذا ما كانت هناك جثة فإنك ستعهد بها إليَّ. هل فهمت كل شيء؟

ـ فهمت كل شيء يا سيدنا.

حيًا القائد بإشارة، مرَّ أمام الخفراء المتجمدين وعاد إلى برجه عبر الطريق السريَّة التي أنشأها. كان أبو علي يسكن في شقة داخل القصر نفسه. كان قد أخلى واحدة من غرفها إلى بوزروق أوميد، عندما جاء هذا ليستقر في القلعة. عند عودتهم من الرياض. وحالما غيَّرا ملابسهما. تواجد الصاحبان برفقة بعضهما بعضاً. بعد لحظة من الصمت، حيث مكثا يراقبان بعضهما بدقة وكل واحد كان يحاول أن يخمِّن ما يجول في ذهن الآخر قرَّر أبو علي أن يسبر صاحبه:

ـ بودي أن أعرف جيداً ما هو حكمك على كل هذا.

ـ ابن الصباح رجل عظيم بلا ريب.

ـ نعم إنه رجل عظيم...

ـ لكن يبدو لي أحياناً... ما سنقوله هنا يجب أن يبقى في ما بيننا ـ أتصور أني أستطيع أن أثق بك...

ـ أعدك بذلك.

ـ يبدو لي أحياناً أن عقله فريسة وساوس غريبة... كما لو أن كل شيء غير منظم في دماغه...

ـ هذا صحيح... يمكن لأفكاره أن تبدو هوجاء... على الأقل تلك التي هي غريبة بالنسبة لنا، لنا نحن البسطاء، وإنها لتفعمني أحياناً بالذعر... إنما ما رأيك بمشروعه... بهذه المهمة التي يفكر أن يعهد إلينا بها باسم الإرث؟

ـ حسن، إن كنت تريد أن تعرف ذلك ـ كل هذا يجعلني أفكر بشكل لا يُقاوم بقصة الملك نعمان الذي كلف سونامار بأن يبني له قصر هاربرناك

الشهير. . . الذي كلف المهندس المعماري الجزاء المعروف: أن وجد نفسه يرمى من أعلى الحاجز بأمر من ولي نعمته فور انتهائه من العمل.

ـ هذا على أية حال ـ الأجر الذي سيتلقاه الفدائيون كجائزة على إخلاصهم. . .

ـ وماذا ستفعل أنت؟ أراد أن يعلم بدوره بوزروق أوميد.

ـ أنا؟

بقي أبو علي مستغرقاً في أفكاره لوقت طويل. حياته صارت خاوية منذ أن فقد زوجته وطفليه لقد مضى على ذلك خمسة عشر عاماً، إذ كان عليه أن يغادر قزوين إلى سورية بمنتهى السرعة حيث ناداه عمله كمبشِّر. كان قد ترك في بيته زوجته حبيبته الأكبر عمراً، والتي أنجبت له ولدين، وعائشة الأصغر عمراً والتي أحبها من قلبه. لم يعد إلاً بعد انقضاء ثلاثة أعوام. . . لتبلغه حبيبة بأن عائشة اغتنمت غيابه كي تُغازَلَ من قبل متغندر ثري من الجوار. وعلى هذا الأساس، فقد قتل وهو في سورة غيرته رجل الغواية ثم زوجته الخائنة. ومن جهة التي أباحت له عن بؤسه، فقد أرسلها في اللحظة مع ولديها كي يهدئ من غضبه ـ مع أول قافلة إلى البصرة. . . حيث عمل على بيعهم كعبيد، بعد ذلك بزمن لا بأس به استولى عليه الندم، عمل على البحث عنهم في كل مكان، لكنه لم يقع على أثر لهم. في ذلك العهد دعاه حسن إلى الانضمام إلى مجموعة اتباعه. والآن فإن النضال من أجل الإسماعيلية ملأ كل حياته كان هذا هو قدره.

سمع يجيب:

ـ ليس لي الخيار. لقد قلت: ويجب عليَّ الآن أن أقول.

ـ نظر بوزروق أميد إلى الأرض بهيئة كئيبة. إنه جندي في روحه. لقد قطع ذات يوم رأس خمسة عشر رجلاً في رودبار، لأنهم لم يصونوا عهدهم، وأرادوا الخروج عن صفوف الإسماعيلية. كان يبدو له أن من

المسموح إزاء العدو استخدام كل حيلة وكل عنف، على ألاَّ يستخدم ذلك إزاء مشايعيه الأكثر إخلاصاً!

ـ ماذا ينوي أن يفعل بالفدائيين، بعد أن يغادروا هذه الرياض؟ سأل.

ـ لست أدري. إن نجحت تجربته، فلسوف يصبح من هؤلاء (الحشاشين) دون شك سلاحاً مهيباً ضد العدو.

ـ وهل تظن أنها ستنجح؟

ـ هذا في علم الغيب. تبدو لي فكرته مجنونة، إنما سبق وبدت لي خطته من أجل الاستيلاء على آلموت مجنونة أيضاً. مع ذلك فقد نجحت.

ـ طريقته في محاكمة الأمور تبدو غريبة... يصعب عليَّ في الحقيقة أن اتبعه.

ـ جنون الرجال العظماء يصنع المعجزات...

ـ أنظر... لدي ابن يعزُّ عليَّ كثيراً. كنت أريد أنا أيضاً أن أجعل منه فدائياً في خدمة حسن. لكنَّ حسناً نفسه منعني من ذلك. أمَّا الآن فسأرسله إلى طرف المعمورة الآخر!

سأستعجل إليه بالإضافة إلى ذلك رسولاً في هذا المساء بالذات.

كان بوزروق أوميد يحب النساء والحياة. زوجته الأولى أم الشاب محمد توفيت في الولادة.

لا شيء كان يعزيه خلال سنوات طويلة، فعزم على أن يتخذ لنفسه خليلة جديدة، ثم ثانية، ثم واحدة أخرى أيضاً، الآن صار لديه حريم في رودبار. حنانهن جميعاً لم يواسيه في فقد زوجته الأولى. لقد كان من سلالة إسماعيل، فلم يستطع إذن أن يتقدم إلى خدمة السلطان. ارتحل إلى مصر، وخليفتها قدمه إلى حسن وإليه كان مديناً بكل شيء: ثروته، مركزه، سلطته، لقد كان زعيماً مرموقاً، لكنَّ قدره شاء له أن ينطلق ثانية

في طرق ملتوية، كان يحب أيضاً أن يشعر بنفسه موجَّهاً وقوي العزم في خياراته بثبات.

ـ إني ألحظ ـ قال أخيراً ـ أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً آخر سوى اتباع حسن. إن سقط نسقط معه، وإن نجح، فإن النجاح سيغطي قساوة سبله.

ـ ربما لا يوجد في النتيجة خيار آخر بالنسبة لنا ـ وافق صاحبه ـ إنَّما بما يخصني، فإن المهمة ستكون أكثر سهولة: فطالما أعجبت بحسن ووجدت نفسي مستعداً لأن أتبعه رغم كل شيء.

في الحال وبعد هذه المحادثة، أسرع بوزروق أوميد نحو غرفته وكتب إلى ابنه:

«محمد ولدي، سعادة حياتي! أناشدك، احترس من المضي في طريق آلموت! انطلق إلى سورية، أو إن تستطع إلى مصر. هناك، إبحث عن أصدقائي وقل لهم إني أنا من أرسلك. سيستقبلونك. أصغ إلى ما يقوله لك حب والدك. لن يجد قلبي الراحة حتى أعلم أنك وصلت إلى هناك فعلاً»

استدعى رسولاً، وأرسله إلى الرَّيْ إلى عند موتسوفر.

ـ سر باتجاه الشرق ـ نصحه ـ بحيث إن حرس السلطان لن يمسكوا بك. موتسوفر سيقول لك أين ستجد ابني محمداً. ستبدأ البحث عنه حالاً. وستلقي إليه بهذه الرسالة إن تنجز مهمتك بالشكل الأمثل فإن مكافأة جميلة ستكون بانتظارك عند عودتك إلى هنا. أعطاه المال من أجل السفر. وأطلق زفرة عزاء عندما رآه يغادر القلعة.

في نفس المساء، كان الحكيم وأبو سراقة يركنان على سطوح الحريم الخاوية. وضعا أمامهما قطع الشواء الوفيرة، وأيضاً جرة خمر كبيرة. يتناولان بكثرة من هذا ومن ذاك. يتأملان عبر أوراق الأشجار المجاورة ذلك التداخل الذي يسود في الأسفل أمام القلعة. كان الوقت يلهم بالفلسفة.

ـ تلك هي حياة متقلبة، قال الإغريقي بحبور. لم أكن قد حلمت في الماضي، وأنا في بيزنطة، قبل ردح لا بأس به من الزمن، أنني سأحتفل في كِبرَي بانتصار إسماعيلي في إحدى قلاع شمال إيران البعيدة! كان يبدو لي عندئذ أنَّ مآدب سدوم Sodome الصاخبة ستستمر إلى الأبد! إنما بعد ذلك صرت مستعداً لأن أقامر بحياتي من أجل حفنة من الذهب. كبِّلت بالأصفاد، ووضعت في السجن، وبدلاً من أن أفي ديوني، فإن الأصدقاء قد تواروا، وهكذا آل بي الأمر لأن أرمى في سجن الأعمال الشاقة، ثم باعوني كما يباع العبد، وانتهيت بأن وجدت نفسي في القاهرة بصفة طبيب الخليفة: كان ابن الصباح يتمتع بكل هبات البلاط وقد حالفني الحظ بأن أمنح إليه على سبيل الهدية، لا بد من الظن بأنه وجد فيَّ شيئاً غير عادي، لأنه اصطحبني معه كرجل حرٍّ. انظر، ليس لدي الكثير مما يدعوني للتذمر منه. سوى أنه أرغمني الآن على الافتراق عن حريمي!

ـ ابتسم أبو سراقة.

ـ عزاؤنا الوحيد هو أننا نرى أصدقاءنا الموجودين هنا مكبوتين مثلنا تماماً.

ـ حقاً؟ وماذا تعتقد بأنه يوجد هناك خلف القلعة؟ ربما نوع من مُصَلًّى مقصور على حسن وداعي دعاته؟

تفرَّسه أبو سراقه:

ـ أنت تظن حقاً أن حسناً قد أقام هناك حريمه السري؟

ـ وإلاً ماذا يمكن لهذا أن يكون؟ أسمح لنفسي أن أقول بأن القوافل قد جاءت إلى القلعة بعدد كبير من الجميلات المختارات بإتقان. مَنْ مِنْ بيننا رآهن؟

ـ إني لا أصدق تلك الإشاعات. أنا أعلم فعلاً أن تلك الاستعدادات قد حصلت هناك، إنما لم أشك إطلاقاً بقصديتها المثبتة: أن توفر لنا مخرجاً في حالة الطوارئ في ما إذا طال أمد حصار المكان فرضاً.

ـ ها أنت ذا معتوه حقيقي! أنا أعرف حسناً إنه فيلسوف، ومثله، يعلم أن الجري وراء اللذة يشكل أول وآخر معنى للحياة. أضف إلى ذلك، بأنه سيكون في منتهى الغباء إن كان كل شيء تحت تصرفه ولم يتمتع به، هيا! ماذا يوجد في العالم غير ما نستطيع معرفته عن طريق الحواس! هي وحدها من يلج الحقيقة، لطالما فكّرت أيضاً بأنه كان حكيماً بإشباع رغباته. أجل الشرُّ الأكبر هو بعدم استطاعتها بلوغ الهدف الذي تدفعنا إليه غرائزنا. وعلى هذا الأساس، لا بدَّ لي من أن أمتدح ابن الصباح، هذا الرجل الفطن. لقد عرف كيف يزوّد نفسه بكل شيء. حسين القيني ابتزَّ القوافل على امتداد الطريق العام في خرسان وخوزستان. . . والآخر يجد على الرغم من ذلك وسيلة لإخضاعه بانقياد إلى الضريبة كرِكازٍ عن المؤمنين الذين يفترض خضوعهم له. موفَّقٌ جداً في الحقيقة!

ـ إنه سيد عظيم، اعترف أبو سراقة ـ كانوا يخشون أن يسمعهم أحد غير مرئي يتحدثون بقليل من الاحترام عن الزعيم الأعلى.

قهقه الإغريقي بابتهاج.

ـ إنه أعظم وأشدُّ مما تظن! تذكر إذاً عندما كنا في مصر، لقد تنازع حتى التفاني مع بدر الجمالي، هذا الرئيس الرهيب لحرس الخليفة الشخصي. كان الجميع يرتجفون خوفاً على حياته، أمَّا هو فكأن شيئاً لم يكن، راح يلتقي الخليفة ويطرح عليه صفقة المغبون.

كان يعلم في الواقع أنهم كانوا يفكرون بأن يحملوه على متن قارب في الليلة نفسها. وعد الخليفة عندئذ بأن يلمَّ له أنصاراً من إيران وأن يساعده على تحطيم سلطة بغداد. . .

ممَّا جعله، يُقصى بشكل مذهل مزوداً بثلاثة أكياس ثقيلة من الذهب في جيبه. وها هو ذا وقد عاد إلى بلاده لا يفوّت فرصة في تغريم الخليفة البائس: فإذا ما تأخرت قافلة مصر المنتظرة بالمجيء فإنه سرعان ما يستعجل مبعوثاً إلى هناك ينذر بأنه مستعد من حينها فصاعداً لان يعمل

لحسابه الشخصي، فيسارع الخليفة في الحال إلى استنزاف شعبه وبرفع ضريبة جديدة، بحيث إن رعيَّة مصر تدفع بانتظام كي يستطيع سيدنا من أن يتفانى كي يقدم إلى آلموت الله يعلم أيَّ رخاء جديد! أفلست مصيباً بأن أصنفه في عداد الفلاسفة الحقيقيين؟ بينما لا نستطيع نحن الإثنان ان نتقشف بما يتعلق في نسائنا...

دون سابق إنذار جاء أبو علي يلتقيهما على الشرفة مما أسفر عن إرباك الصاحبين، كثيراً.

ـ السلام عليكما يا صديقيَّ، قال القادم الجديد بمودة، والذي كان يبتسم نتيجة للارتباك البادي عليهما. جئت أبحث عنك يا ابا سراقة كي تخطر يوسف وسليمان وابن طاهر دونما إبطاء، بأنني انتظرهم في ما بين صلاتي المغرب والعشاء في ملحقات الزعيم الأعلى. أجل سيمثلون أمام سيدنا! عليهم أيضاً أن يعدوا أنفسهم كما يجب. على هذا أتمنى لكما أمسية سعيدة.

جلبة قوية حدثت عند الفدائيين عندما علموا بأن على ثلاثة منهم أن يذهبوا إلى عند سيدنا هذا المساء، كانوا جميعاً يتساءلون ويخمنون الغرض من هذه الدعوة.

ـ إنه يريد مكافأة هؤلاء الذين أبدوا أكبر بسالة في القتال ـ أوضح ابن فاكاس.

ـ أية بسالة؟ ثار عبيدة بجلافة، لن أتحدث عن ابن طاهر، فهو فعلاً قد انتزع الراية من الأتراك. إنما ماذا كان دور سليمان الذي ترك نفسه ينطرح أرضاً. ويوسف الذي كان يستتر بالصراخ من خوفه؟

ـ إنه سليمان من صرع أكبر عدد من الأعداء. يوسف وهو أفسحا الطريق إلى الآخرين ـ ذكَّر جعفر.

ـ نعم هذا صحيح ـ أكَّد نعيم ـ لقد كنت بجانبهما.

ـ أنت؟ سخر عبيدة ـ كنت تختبئ خلف ظهر يوسف كي لا يلمحك التركي!

ـ عبد كريه! بصق الولد الغاضب.

أثناء هذا الوقت، كان المختارون الثلاثة يستحمون ويستعدون لاستقبال هذا المساء. ثلاثتهم كانوا مهتاجين بل كانوا يرتجفون بكل معنى الكلمة.

ـ كيف يستوجب علينا أن نتصرف ـ تساءل يوسف قلقاً ـ وهو يرمق الآخرين بنظرة طفولية.

ـ مثلما سيأمر الداعية الكبير هذا المساء. طمأنه ابن طاهر.

بلحية النبي علي! ـ تعجب سليمان الذي أصابه الانتظار بحمى جعلته يرتجف من البرد في الوقت نفسه، ما كنت احلم أبداً بأنني سأحصل على شرف المثول أمام سيدنا بهذه السرعة. لا بدَّ أننا سنُوفَّى حقنا هذا الصباح بمكرمة نادرة...

ـ أنت متأكد بأنه يدعونا من أجل هذا؟ أصرَّ يوسف.

ـ هل لديك إحساس بالخطأ؟ قال سليمان ساخراً. ربمَّا نكون ابن طاهر وأنا دعينا لنفس السبب الذي ذكرته، وأنت كي يدينك على اكتفائك بالصراخ بدلاً من سحب السهام...

ـ أنا لا أهاب شيئاً. ليس أنا من طرحه التركي أرضاً!

صمت قصير

ـ انتظر حتى تصبح أمام سيدنا قال سليمان ـ سنرى عندئذ كيف ستخرج من هناك.

ـ هل تظن أن سيدنا هو أبو سراقة إذاً ـ تحمَّس الآخر، وسيسألني عن الأئمة السبعة!

ـ لتتكرَّموا إذاً بعدم التفوه بهذه الحماقات المعتادة، قال ابن طاهر موفقاً بينهما.

ارتدى كل واحد من الثلاثة جلباباً أبيض، وسروالاً أبيض ضيقاً، وغطى كل منهما رأسه بعمامة بيضاء. في هذه الهيئة الأنيقة سيلتقون رفاقهم.

لم يستطيعوا أن يأكلوا شيئاً ذاك المساء. وبدوا غير مبالين بنظرات الإعجاب المشوبة بالحسد التي كان يرمقهم بها الآخرون.

ـ هل ستقولون لنا عندما ستعودون عمَّا جرى، وكيف هو سيدنا؟ سأل نعيم ابن طاهر بعد الوجبة.

ـ كل ما ستبتغي ـ أجاب هذا وقد صعب عليه إخفاء لهفته.

كان أبو علي ينتظر أمام باب الزعيم الأعلى، لاحظ القلق الذي يقرأ على وجوههم وفكر:

«ليتهم يعلمون إلى أين هم ماضون!».

ـ هيَّا! قال كي يشجعهم. لكم الحق في أن تظهروا في هيئة عرفية! عندما ستدخلون ستنحنون مطولاً، وستبقون هكذا حتى يعطيكم سيدنا الإذن بالوقوف، وليقبل يده باحترام ذاك الذي يوجه إليه الكلام. كونوا حاضري البديهة وصادقين في أجوبتكم. ولتتذكروا بأن سيدنا يعلم خفايا النفوس!

تسلقوا سلم البرج. أوشك سليمان أن يصطدم بالعبد الذي يعتلي آخر درجة في الأعلى. وثب إلى الوراء، ولكي يموِّه ذعره، تظاهر بأنه يتفقَّد قدميه مما جعله يتعثر.

حتى أنا لو كنت في مكانه لاعتراني الخوف!

همس يوسف لابن طاهر.

اخترقوا غرفة الانتظار وقلبهم منقبض من الغم.

رفعت الستارة ودوَّى صوت قوي:

ـ ادخلوا!

تقدمهم أبو عليّ احتذى به سليمان بشجاعة، كان حنكا يوسف

يصطكّان، فانتظر إلى أن يعبر ابن طاهر المدخل. . . ولم يبق لديه من منجى آخر سوى أن يتبعهما أخيراً.

إلى جانب بوزروق أوميد الذي كانوا يعرفونه من قبل، وقف رجل يرتدي برنساً رماديًا بسيطاً، تستر رأسه عمامة بيضاء. لم يكن طويلاً، ولم يكن يبدو مرعباً أو حتى صارماً. ذاك كان إذاً سيدنا زعيم الإسماعيليين المحجوب!

تحركوا الواحد تلو الآخر، وانحنوا.

ـ هذا حسنٌ يا أصدقائي، هذا حسنٌ، قال سيدنا وهو يدعوهم للنهوض ـ اقترب منهم وقابلهم بابتسامة قرأوا فيها في الوقت نفسه المكر والرغبة في إراحتهم. حدّثوني عن مكرماتكم، لقد أبليتم بلاء رائعاً أمام جيش السلطان، وقد جئت بكم كي أكافئكم على إخلاصكم.

«أنت يا ابن طاهر، والتفت نحو الولد ـ أقنعتني من خلال قصائدك، وإنما أقنعتني اكثر باستيلائك على الراية.

«أنت يا سليمان، لقد برزت من جهتك كمقاتل لا يخاف شيئاً. أنت تبدو لي سيّافاً ممتازاً! سنكون بحاجة إليك أيضاً.

وأنت يا يوسفي ـ تابع ابتسامة ثاقبة، مهرت في التسارع إلى الهجوم وأنت تزأر كالأسد! مما جعلك تستحق ثنائي أيضاً!

مدَّ يده لكل منهم إنّما بسرعة كبيرة بحيث إن الوقت سمح لهم بالكاد في تقبيلها. كانت عيونهم تلمع اعتزازاً كيف استطاع أن يتعرف إليهم دون أن يكون قد سبق ورآهم؟ هل وصفهم أبو علي بكثير من الدقة؟ كان لا بدَّ من الاقتناع بأن لمآثرهم ثمناً ما! وقف الداعيان الكبيران قليلاً في الخفية، لم تكن تعابيرهما تنم عن أي شعور آخر، غير شعور الفضول المستمر.

ـ أمس هذا اليوم العظيم ـ تابع سيدنا ـ اختبرنا معارفكم، وبعد بضع ساعات وجدنا شجاعتكم توضع على المحك. بقي الامتحان الأكثر أهمية في نظري: ادخرناه من أجل هذا المساء. . .

أريد أن أعرف قوة إيمانكم!

رفع ذقنه وتمركز أمام يوسف.

ـ هل أنت تثق بكل ما علمك إياه رؤساؤك؟... هل تؤمن بذلك حقاً؟

ـ أؤمن بذلك يا سيدي.

كان الصوت خجولاً. إنما كان ينم عن اعتقاد حقيقي.

ـ وأنتما يا ابن طاهر ويا سليمان؟

ـ نعتقد بذلك يا سيدنا.

ـ هل تؤمن بشكل حازم، يا يوسف، بأن الشهيد علي هو وريث النبي الشرعي الوحيد؟

ـ أؤمن بذلك بصلابة يا سيدنا.

دهش يوسف لسماعه يطرح هكذا أسئلة.

ـ وأنت يا سليمان، هل تؤمن بأن ولديه الحسن والحسين قد أبعدا ظلماً عن خلافته؟

ـ أعتقد بذلك، دون أدنى أثر للشك، يا سيدنا.

ـ وهل تعتقد بأن المهدي سيعود إلى الأرض بصفته خاتم الأنبياء وسيحمل الحقيقة والعدالة؟

ـ أومن بذلك أيضاً يا سيدنا.

ـ وأنت يا ابن طاهر، هل تؤمن بأن إسماعيل هو سابع وآخر إمام؟

ـ بلى، أؤمن بذلك يا سيدنا.

ـ يوسف! هل تؤمن بأن قدرة قد وهبتْ إليَّ أنا سيدكم، بمشيئة الله؟

ـ أومن بذلك يا سيدنا.

ـ سليمان! هل تؤمن بأن كل ما أنجز إنما أنجزه باسمه؟

ـ أؤمن بذلك يا سيدنا.

اقترب حسن من ابن طاهر وأخذ يتفرسه.

ـ هل تؤمن يا ابن طاهر بأن القدرة التي وُهبتْ إليّ تجعلني أُدخل إلى الفردوس من أريد؟

ـ أؤمن بذلك يا سيدنا.

أصاخ حسن السمع. صوت ابن طاهر كان يعبر أيضاً عن إيمان راسخ.

ـ والآن يا يوسف! هل إيمانك راسخ بما يكفي لأن يقودك لأن تجد المتعة بسماعي أقول لك: اصعد إلى قمة البرج وألق بنفسك في الفضاء، لأنك ستصل في اللحظة إلى الفردوس؟

شحب لون يوسف، ابتسم حسن ابتسامة خفية. التفت نحو الداعيين الكبيرين. فابتسما هما أيضاً.

بعد تردد خاطف انتهى يوسف إلى النطق:

ـ سأتلذذ بذلك يا سيدنا.

ـ جيد جداً. وإن أمرتك الآن إذاً، في هذه اللحظة بالذات: اصعد إلى البرج وارم بنفسك هناك!... يوسف، يا يوسفي الحسن!... إني أقرأ ما بقلبك، كم إيمانك ضعيف!...

ـ وأنت يا سليمان... هل كنت ستجد المتعة في ذلك لو كنت مكانه؟

ـ أجاب سليمان بصوت حازم:

ـ سأتلذّذ بذلك حقاً يا سيدنا.

ـ آه صحيح؟ وإن آمرك في هذه اللحظة بالذات؟ هيا! لقد شحبتَ، لسانك عازم، لكن ثقتك متزعزعة. من السهل أن نؤمن بالأشياء التي لا تتطلب منا أية تضحية. إنما عندما يتعلق الأمر ببذل حياتنا، كشاهد على إيماننا، فإننا نتردد...

التفت نحو ابن طاهر.

ـ الآن، لننظر أيضاً في ذاتك، أيها الشاعر هل تؤمن إيماناً وطيداً بأنه قد عهد إلينا بمفتاح الفردوس؟

ـ أومن بذلك بصلابة، يا سيدنا، أنت تملك قدرة قيادة من تحكم عليه بأنه جدير بالفردوس.

ـ إنّما ما رأيك بالمفتاح؟ عن هذا المفتاح سأسألك!

استجمع ابن طاهر شجاعته.

ـ إني أرغم نفسي على الاقتناع، لكنني أعترف بعدم معرفتي من أية ماهية يمكن أن يكون هذا المفتاح.

ـ كي نجمل القول، تريدون فعلاً أن تصدقوا بما يخص علياً والأئمة... عليكم أن تؤمنوا فعلاً بما يخص علي والأئمة السبعة... نقطة أساسية، هي كل شيء! صاح حسن، والحال كذلك، فنحن بحاجة إلى مؤمنين يعتنقون بكل ما ستعلمهم إياه دور تربيتنا.

بدا الصمت الذي تلا ذلك، غير محتمل بالنسبة للفدائيين. كانت ركبهم ترتجف، وعرق بارد أخذ يغمر جباههم.

أردف حسن بصوت مبهم:

ـ بطريقة أخرى، انتم تحسبونني كاذباً؟

امتقع الثلاثة.

ـ لا، يا سيدنا، إننا نؤمن بك جميعاً!

ـ وإن أؤكد لكم فعلاً أنني أمتلك مفتاح الفردوس!

ـ لكننا نصدقك يا سيدنا!

ـ كلا، إني أقرأ ذلك في خفايا نفوسكم. أنتم تريدون أن تؤمنوا، لكنكم لا تستطيعون أبداً. لماذا هذا يا ابن طاهر؟

ـ أنت تعلم كل شيء، ترى كل شيء يا سيدنا. من الصعب أن يعتقد الإنسان بشيء متعذر على العقل... الإرادة تريد، أمّا العقل فمتمرد...

ـ أنت صادق. وهذا ما يسرني. إنَّما ماذا ستقول بعد. لو اصطحبتك جدياً إلى الفردوس. . . ولو استطعت أن تلمسه بيديك، وتدركه بأم عينيك وأذنيك وشفتيك؟ . . . ستؤمن بذلك أخيراً!

ـ كيف سأستطيع أن أشك بذلك عندئذ يا سيدنا؟

ـ هذا هو ما يسرني! أنتم متميزون في القتال. لكنني كنت أعلم أين كان يكمن ضعفكم. . . وقد ناديتكم كي أساعدكم على قهره: كي أجعلكم أقوياء وذوي إيمان قاطع! قرَّرت أيضاً أن أفتح لكم في هذه الليلة بالذات باب الفردوس.

انذهال لا يمكن وصفه ارتسم في عيون الشبان، وقد امتزجت به سذاجة مذعورة: لم يعودوا قادرين على تصديق آذانهم!

ـ ما لكم تنظرون إليَّ هكذا؟ أليس من المفروض بكم أن تسعدوا إذ أريد أن أكافئكم هكذا؟

ـ لقد قلت إن. . .

تلعثم ابن طاهر وكان عاجزاً عن أن يمضي إلى أبعد من ذلك.

ـ لقد قلت بأني سأفتح باب الفردوس وسأفعل ذلك هل أنتم مستعدون؟

قوة خفية مجهولة جعلت الثلاثة يرتمون على ركبهم. لامسوا الأرض عند أقدامه بجباههم ومكثوا هكذا.

ألقى حسن بنظرة على صديقيه. كان وجهاهما يفصحان عن توتر غامض.

ـ انهضوا: قال آمراً الشبان:

امتثلوا له. خلع عندئذٍ مصباحاً من المشكاة وتقدمهم إلى الغرفة الصغيرة حيث كانت توجد المسطحة المتحركة المخفية.

ثلاثة أسرة منخفضة وضعت عليها، مغطاة بسجاد يتهدل حتى الأرض.

ـ استلقوا على هذه الأسرة: ! قال آمراً.

ناول المصباح لأبي علي، وعهد إلى بورزوق أوميد بجرة الخمر، وتناول بنفسه عن الرَّف صندوقه مذهبة وفتحها. اقترب أخيراً من الفدائيين الذين كانوا يرتجفون، شاحبين، وبائسين فوق أسرتهم.

ـ الطريق التي تؤدي إلى الفردوس طويلة وشاقة. إليكم ما يمدكم بالقوة، من الغذاء والخمر. خذوها من يدي. مضى من الواحد إلى الآخر، ووضع بين شفتي كل واحد منهم قرصاً صغيراً كان قد سحبه من الصندوقة المذهبة.

كان يوسف مشوشاً جداً، حيث بدا وكأنه لا يقدر على حل فكَّيْه، أجهد سليمان وابن طاهر نفسيهما على ابتلاع القرص بالتي هي أحسن. كان له طعم حلو ومقبول، عقبته بعد قليل مرارة فظيعة، وكي يتخلصوا من هذا الطعم البشع، فإن حسناً أمرهم بشرب الخمر، أثناء ذلك كان يراقبهم بانتباه.

أصابهم الخمر الثقيل الذي لم يكونوا معتادين عليه بشيء من الدوار. ثم كانت هناك نشوة استولت عليهم: أخذت الآن أجسادهم الممتدة على ظهورها تسترخي شيئاً فشيئاً... أخذ يوسف يحشرج كعجل مذبوح، ثم استسلم إلى نوع من الخدر المبهر. رفيقاه كانا متنازعين بين ثمالة وفضول رهيب. «وإن كان هذا سُمَّا؟...» فكَّر لبرهة ابن طاهر، لكن المزيد من صور الخيال المحلق انهالت عليه تترابط فيما بينها بتلاحق مجنون. كمفتون أخذ يكدُّ لمتابعتها بأنظاره.

راقب حسن عينيه المذعورتين المفتوحتين ملء اتساعهما.

ـ ماذا ترى يا ابن طاهر؟

لكن الولد لم يكن يسمع شيئاً بعد، كان يتأمل بثبات الصور التي كانت تتوالى أمامه، وانتهى بأن خضع كلياً لسلطانها...

كان سليمان أيضاً يثور ضد الاشباح التي كانت تتفنن في تشويه الواقع

من حوله: كان يلمح الزعماء الثلاثة الذين كانوا ينظرون إليه بوجوه مستطيلة، ومن ثم فإن إحدى التجليات أنهكت نظره.

هو أيضاً خشي في البداية من أن يكون حسنٌ قد جرَّعهم نوعاً من السُّمِّ. لكنه سرعان ما نسي هذه الفكرة. الصراع الداخلي الذي كان يكابده استنزف قواه. والخيالات التي كانت تراوده شدَّته بقوة لا تقاوم:

استسلم إليها أخيراً مع زفرة من السكون.

يوسف أيضاً، وبعد لحظات من الاضطراب استسلم وهو يئن لسبات عميق، تبعه إلى ذلك بعد قليل سليمان وابن طاهر.

حسن بنفسه كان يقوم بتغطية أجساد الفتيان الثلاثة بأغطية ناعمة سود، أخيراً وبإشارة منه، فإن المسطحة المتنقلة أخذت بالهبوط إلى أسفل البرج.

استقبلوا في الأسفل من قبل الحراس، إذ كان حسن قد أعطى إلى القائد بعض التعليمات السرية. تقدم العبيد اثنين اثنين، رفعوا النقَّالات، واتخذوا وجهة الرياض يواكب كل واحد من الشبان الثلاثة النائمين فضلاً عن ذلك، رقيب مكلف خصيصاً لرعايته.

لم ينبس الداعيان الكبيران ببنت شفة، وتأهبا للتصبر حتى عودة الفتيان. سألهم حسن بصوت منخفض:

ـ كل شيء قد جرى كما يجب؟

ـ كل شيء يبدو مرتَّباً يا سيدنا.

زفر حسن زفرة عميقة.

ـ لنصعد إلى الأعلى ـ قال أخيراً: لعل في هذا ما يشابه مسرحيات الإغريق التي كانوا يمثلونها قديماً على مسارحهم. وبفضل الله فقد تمَّ الآن المشهد الأول.

الفصل الحادي عشر

كانت الترتيبات قد أعدت في الحدائق، والصبايا قد تقاسمن الأعمال طبقاً لتعليمات الرئيس الأعلى، وجه الخصيان فاطمة وزليخه مع صاحباتهما نحو الحدائق المخصصة لهن، فألفت فاطمة نفسها موكلة بالعناية بحراج المملكة الموجودة على يسار مساكنهن وزليخه تسود تلك التي يمكن رؤيتها من الجهة الأخرى. كان لكل واحدة متنزهها المستقل والمنفصل عن رياض المركز بجداول متدفقة. كان من الواضح أن مخططات هذا المكان الفسيح الذي يشكل شاه رود حدوده الصاخبة بشكل لا يمكن للأصوات أن تسمع فيه من مكان إلى آخر.

مدَّ الخصيون بمساعدة الفتيات أشرطة زخرفية وسط الأشجار والأدغال التي علقوا عليها الفوانيس الزجاجية التي بإمكانها أن تجعل الوقت صباحاً. كانت هذه المصابيح تعرض أشكالاً في غاية التنوع، وقد استخدم في طلائها وتزيينها كل إبداع. بحيث إنه لدى هبوط الليل، وانتهاء مضيفات المكان من إشعالها. فإن أشكالاً وظلالاً غارقة في ضوء عالم مغاير أخذت تتحرك حولها فجأة مشكلة بحضورها المباغت مشهداً متبدلاً. كانت الفتيات يطفن في ذلك المكان، يتفرسن بانذهال متأملات بإعجاب أطيافهن ذوات الألوان المتبدلة تتراقص عليها ظلال خفيفة شفافة: أجل، كان يضفي على المنظر الأسطوري الخيالي ما يجعله وكأنه حلم. حيث تترك العتمة المحيطة بمناطق النور بصماتها على الشعور، وتحجب بتباينها بقية المشهد تماماً، موارية خلفها الجبال والقلعة وحتى النجوم.

في مركز السرادقات المفروشة بالزهور، خرير مياه نافورة تنثر في الهواء لآلئها المتلونة بألوان قوس قزح، أطباق من الذهب والفضة توفر للزائر كل أصناف المآكل، وضعت على طاولات منخفضة قدت من خشب مذهب. طيور مشوية، سمك مقلي، حلويات رتبت ببراعة وكل ما تنوع من الفاكهة. تين وبطيخ أصفر، برتقال، تفاح، دراق، وعناقيد عنب مكتنزة، وأخيراً على كل طاولة ست جرار كبيرة من النبيذ نسقت وأحاطت بها جفنات من نبيذ العسل.

في موعد صلاة العشاء، اصطحبتْ أبّاما عديًا في جولة أخيرة في الحديقة. لا شيء يفلت من عين السيدة العجوز اليقظة، وقد اغتنمت الفرصة في توزيع تعليماتها الأخيرة. فألقت لكل من فاطمة ومريم وزليخه بحبتين منومتين مخصصتين لضيوفهن كما شرحت لهن: تعطى الثانية في الحالة التي لا تأخذ الأولى مفعولها بالسرعة الكافية. قبل أن تنسحب تركت لهن أيضاً هذه التوصية.

ـ لا تمنحن هؤلاء الشبان فرصة لطرح الكثير من الأسئلة، اشغلنهم بل أثملنهم... لا تنسين أبداً: سيدنا عادل لكنه صارم!... على هذا غادرتهن. شعرت المسؤولات عن كل مجموعة باقتراب الوقت فلم يتورعن عن دعوة رفيقاتهن كي تصب كل واحدة لنفسها كأساً من الخمر التماساً لشيء من الشجاعة. المجموعة الأكثر حيوية هي مجموعة فاطمة التي كان ينبعث من حولها صراخ وضحك عله يفعل شيئاً في التغلب على حمى الانتظار. فيما تكفلت الإنارة السحرية ودفء الخمرة بفعل ما تبقى. ومن ثم فإن الشعور بكونهن معاً بدد كل خوف بل وأثار في مخيلاتهن فضولاً وثاباً.

ـ إنه يدعى سليمان وقال سيدنا بأنه جميل! هذّت ليلى.

ـ هل لك به مطامح؟ استفزتها سارة.

ـ أتقولين هذا لي؟ انظري إلى نفسك أولاً. نفاد الصبر يهلكك.

ـ وماذا لو تركنا حليمة تفتتح الحفلة؟ اقترحت خانم.

ـ لا تحلمن بذلك أبداً. ثارت هذه وقد بدا عليها الذعر.

ـ لا تخشي شيئاً. طمأنتها فاطمة. أنا أكفل نجاح الجميع: كل واحدة سيكون لها دورها.

ـ وبحب من سيقع مولهاً؟ قالت الماكرة عائشة.

ـ لن يجديك مكرك نفعاً. حذَّرتها ساره.

ـ هل بشرتك السوداء ستكون بالنسبة لك شيئاً نافعاً؟

ـ لا داعي لهذه المشادات! تدخلت فاطمة. ماذا يهم لو افتتن بهذه أو بتلك. فنحن في خدمة سيدنا. وواجبنا الوحيد في هذه الليلة، هو تنفيذ أوامره.

ـ أظن أنه سيهيم بزينب ـ قالت حليمة.

ـ لماذا زينب تحديداً؟ هاجت سارة.

ـ لأن لها شعراً أشقر وعينين زرقاوين جمليتين.

أخذت زينب بالضحك.

ـ هل تتصورن أن له هيئة بهية كسيدنا؟ أردفت حليمة.

ـ انظرن إلى هذه القردة الصغيرة، قالت فاطمة هازئة ـ ها هي تحلم بسيدنا.

ـ وجدتُه جميلاً.

ـ هيا يا حليمة، فالوقت هذا المساء ليس وقت نزواتك... بالإضافة إلى أن سيدنا ليس لنا. إني لا أنصحك بالتحدث عنه كما تفعلين. لكنه مع ذلك يحب مريم.

ـ أنت لست مريم. قالت سارة بخبث.

ـ علّني لا أسمع منك بعدُ هذا الهراء. أنذرتها فاطمة.

ـ أيّ زي سيكون مرتدياً؟

قهقهت سارة لسؤال عائشة البريئة.

ـ مرتدياً؟ لكنه سيأتي عارياً.

وارت حليمة وجهها خلف ذراعيها الجميلتين. ـ لن أنظر إليه أبداً.

ـ هل تعلمن ما علينا أن نفعله كي نهدّئ أنفسنا؟: أن نؤلف قصيدة، اقترحت شهيرة.

ـ فكرة جديدة! أعطنا البيت الأول يا فاطمة!

ـ لكننا لم نرَهُ بعد!

ـ ربما تخشى فاطمة الخيبة إثر ذلك، قالت ساخرة سارة الفاسدة.

ـ لا تغيظيني بعد يا سارة. حسن سأحاول فعلاً... لنرَ...

سليمان، صديقنا، قادم إلى الفردوس.

ـ مضحك! صرخت سارة، سليمان بطل. إنه قادم من مقارعة الأتراك ستفعلين خيراً لو قلت: سليمان الثائر قادم إلى الفردوس.....

ـ لأنك تجدين ذلك شاعرياً! قالت فاطمة غاضبة ـ غريب أن لسانك لم يتعثر..... الآن أصغين: سليمان، النسر الرمادي يدخل الفردوس.

عندما رأى حليمة أحبها في الحال.

ـ لا، لا أريد أن أكون ضمن القصيدة! احتجت صديقتهن المتخوفة.

ـ أيتها الطفلة البلهاء! افهمي إذاً! لم يكن في هذا إلا محاولة على سبيل المزاح.

لم تُبدِ المجموعة الملتفة حول زليخة نفس اللامبالاة، فقد كان من الصعب جداً على جادا أن تنهض واقفة، وتلك التي كانت تدعى الصغيرة، فاطمة طمرت نفسها في إحدى الزوايا وبدت كمن تملكه البرد، حليمة كانت تطرح أسئلة غبية حول كل شيء ولا شيء، حنيفه وزوفا كانتا

تتشاجران إذ لم يكن لديهما شيء آخر تفعلانه وحدهما رقية وحبيبة بدت عليهما البشاشة.

كانت زليخة تتلظى من نفاد صبرها، فشرف تبوئها إدارة العمليات أثار الحمية في رأسها ويوسف الجميل الذي تخيلته كما لو كان موجوداً، كأنه لم يكن ليمتلك عينين إلاّ كي يراها وحدها، ويتجاهل الأخريات، نعم ربما ستكون المصطفاة وهي تستحق ذلك.

أفلا تملك علاوة عن الحسن هذا النزق الذي يهزم كل من صاحباتها بشكل يدعوهنّ للأسى؟

في الحال أخذت الخمرة ترقق قلبها: لم يعد لكل ما يحيط بها أي حساب، تناولت قيثارتها وأخذت تضرب على أوتارها دون انتظام. طار بها الخيال ووجدت نفسها محبوبة، مرغوبة، وألفت نفسها فاتنة، منتصرة... هي أيضاً ودون أن يساورها أي ارتياب قد أضحت مسبقاً عاشقة لهذا المجهول.

حول مريم، كان كل شيء مظلماً خاوياً... على الرغم من ذلك الإطار الباذخ الذي يلف المكان. والبنات اللواتي اتخذتهن تحت جناحها كنّ الأقل استقلالية الأكثر خجلاً بين البنات، لقد كنّ يحببن التزاحم حولها، التماس دفئها، تشجيعها، لكن مريم كانت تسرح بعيداً...

لم تكن تعلم أن إعراض حسن عن حبها سيكون له هذا الوقع المؤثر في نفسها ربما ليس في هذا السبب الحقيقي لألمها، إذ ان ما صدمها أكثر هو شعورها بأنه كان يعتبرها مجرد أداة وسلاح يستخدمه من أجل بلوغ هدف ليس له أيّة صلة مع الحب.

بكل راحة بال، ودون تروٍّ أو حياء تركها لغيره لهذه الليلة.

كانت تعرف الرجال حق المعرفة، فزوجها موسى كان رجلاً كريهاً، ولكنها دون أي شك كانت تعلم علم اليقين أنه كان يفضل الموت على أن يسمح لأحد بأن يلمسها.

عشيقها محمد، جازف وخسر حياته من أجل تملكها والحفاظ عليها. وعندما بيعت في البصرة كانت متأكدة أن من سيشتريها لن يفرط بها إلى مجهول، حتى لو لم تكن غير أمته واحتفظت بهذه الثقة في داخلها عندما أضحت في حيازة حسن.

فالقرار الذي كشف لها عنه والذي كان يهينها في الوقت نفسه، كان يشوّش تلك الطمأنينة التي كانت تشعر بها في أعماق نفسها.

لو كانت تستطيع لانفجرت في نحيب صاخب، لكن عينيها ما عادتا قادرتين على ذرف الدموع. هل كانت تكره حسناً؟ مشاعرها كانت مضطربة بحيث لم تكن تستطيع الإجابة على هذا السؤال. كانت قد فكرت في بادئ الأمر بأنه لم يبق لديها من شيء تفعله أفضل من أن ترمي نفسها في نهر شاه رود، ثم حزمت أمرها على الانتقام لنفسها. لكن هذه الرغبة امحت وأخلت مكانها لحزن عميق.

كلما كانت تفكر في ذلك، كلما كانت تدرك بشكل أفضل المنطق الذي كان يوتر سلوك حسن. تصوره عن الأشياء، مفعم بالاحتقار بالنسبة لكل ما يراه الناس مقدساً ولزامياً، بحثه المتجدد في صحة كل معرفة، حريته المطلقة في القول والفعل، أفليس في كل هذا ما يضاعف آلاف المرات افتتانها وولهها به؟

لكن الأمر هنا ليس إلا مجرد كلمات، طالما حدثت نفسها بذلك، هي نفسها كانت أضعف من أن تتجرأ على تحويل هذه الكلمات إلى أفعال، ولم تكن تحسب أيضاً بأنه هو قادر على ذلك.

بدأت الآن تستشف الوجه الآخر لهذا الكائن المتعذر فهمه. على الرغم من كل شيء فقد أحست بأنها لا تزال تحتفظ برعايته.

ربما حتى يكون قد أحبها على طريقته، ألا تملك بعض الأسباب التي تحملها على احترامه؟ لم يكن العقل والفكر بالنسبة له مجرد دعابات محببة كما هو الأمر بالنسبة لها، بل لا بد للمعرفة الفكرية أو الروحية من أن

تدخل إلزاماً في الفعل، فكم من مرة أثبتت له فيها أنها لم تعد قادرة على أن تحب فعلاً. وأنها لم تعد هي أيضاً تعترف بصلاح أي مبدأ كانت تتصنع بأنها حررت نفسها منذ زمن طويل من آرائها المسبقة. على نحو ما، أفليس في قرار حسن الأخير برهان على التقدير وعلى الثقة اللذين يكنهما لها؟

لم تكن ترى شيئاً بوضوح، ومهما فكرت ومهما بذلت من جهد كي تتفهم، فإنها كانت تحتفظ في أعماقها بألم دفين وشعور بالمذلة. لا. إنها لم تكن في الحقيقة بالنسبة لحسن إلا سلعة، يلهو بها في أوقات فراغه في سبيل منفعته الخاصة.

كانت تفرغ الكأس إثر الكأس، تثمل. دون أن تترك مجالاً لأن يبدو عليها شيء، أحست بنفسها تصحو شيئاً فشيئاً. وعت ما كان يجري في داخلها: كانت تنتظر شيئا... «أحداً»... شيئاً غريباً، فخلال كل ذلك الوقت لم تكن قد فكّرت لحظة بابن طاهر. لقد حدثها عنه حسن كفتى يقظ وذكي... وكشاعر. شعور غريب أخذ ينتابها. وتكون لديها انطباع بأن حناناً غير مرئي يلامسها. اهتزت. تكهنت حضور شخص هيأه القدر. لامست أوتار القيثارة بأصابعها التي أخذت بترجيع سجع من الحنين.

ـ كم هي جميلة هذا المساء ـ همست صفيَّة مشيرة إليها بنظرها.

ـ ما أن يلمحها ابن طاهر حتى يقع مجنوناً ومتيماً بها! أردفت خديجة بنفس اللهجة.

ـ كم سيكون هذا جميلاً! هُيِّيء للساذجة صفية ـ سنهدي إليهم أجمل قصائدنا.

ـ أنت متلهفة إذاً لرؤيته ماثلاً أمامها.

ـ أوه، نعم أنت لا تتصورين إلى أية درجة.

بصمت رافق الداعيان الكبيران حسناً إلى قمة البرج. ما أن حطوا بأقدامهم على الشرفة حتى لفت نظرهم ذلك البريق القادم من الرياض

والذي غشى بريق النجوم. تبعا حسناً حتى حافة الحاجز وهناك انحنوا ثلاثتهم.

السرادقات الثلاثة كانت تغرق في بحر من الضوء، مُنارة من الداخل والخارج كانت جدرانها الزجاجية تكشف بشكل مصغر ببيان عن كل ما يجري في ذلك المكان، حركات هؤلاء الذين يتحركون فيه.

- إنك في الحقيقة معلم لا مثيل له، قال أبو علي مذهولاً - يبدو بأنك أقسمت على أن تقودنا من مفاجأة إلى مفاجأة أخرى!...

- نعم. فتنة من أسطورة تصبح حقيقة!... دمدم بوزروق أوميد وقد عاد إلى جحوده. إن سلطة قدراتك ترغمنا على إخراس كل فكرة مسبقة، على الرغم من أننا نملكها...

- انتظروا ولا تمتدحاني مبكراً، ابتسم حسن بتواضع، لا يزال شبابنا نائمين، لم ترفع الستارة بعد، من الحريّ بنا أن نتجلد ونرقب ما سيجري، فهذا وحده، ما يسمح لنا بتقويم العمل المنجز حتى اليوم. عرض عليهما تنظيم الحدائق، ودلهما واحداً واحداً على السرادقات المخصصة لاستقبال كل من الفدائيين الثلاثة.

- لم أستطع أبداً أن أفهم كيف يمكن لمشروع كهذا أن يخطر في بالك! قال أبو علي مندهشاً.

- لا أستطيع أن أتخيل هذا إلا كثمرة لتدخل خارق حي؛ عبقرية نعرفها، لكن لا يمكن على أي حال أن تكون وحياً من عند الله!

- بالتأكيد، لم يأت هذا من عند الله. أجاب حسن ضاحكاً بل على الأرجح من عند صديقنا العجوز القديم الرائع عمر الخيام.

روى إلى شريكه عن الزيارة التي قام بها إلى نيسابور قبل عشرين عاماً. وكيف أن الشاعر المحبب قد أعطاه دونما قصد فكرة تجربة هذا المساء. بدا الأمر لأبي علي غريباً.

ـ هل تعني أنك طوال ذلك الوقت تحمل هذا المخطط في سرك ولم تغدُ مجنوناً من ذلك؟

ـ بذقن الشهيد علي! قال صديقه وقد علته الدهشة نفسها ـ لو أن مشروعاً كهذا خطر لي على بال لما وجدت الصبر للانتظار شهراً واحداً. لكنت وضعت كل طاقاتي في تنفيذه فوراً. ولما وجدت إلي الراحة سبيلاً إلى أن ينجح أو يخفق.

ـ من ناحيتي فقد عزمت على أن أبذل أقصى طاقة يمتلكها الإنسان كي لا أخفق قال حسن ـ ففكرة كهذه تنمو وتكبر في عقل الإنسان كما ينمو الجنين في بطن أمه.

في البداية تكون تافهة جداً، ليس لها شكل، ولا تعمل إلا على إيقاظ رغبة عارمة، تحض على المواظبة وعلى عدم الإحجام. إنها قوة عظيمة، وشيئاً فشيئاً تؤثر بمن يحملها وتلازمه لدرجة يصبح معها لا يرى شيئاً، ولا يفكر بشيءٍ سواها إلى أن يجدها ويخرج بها إلى النور صنيعاً خارقاً.

فعلاً إن الإنسان الذي يذكي في نفسه هكذا وهم هو أشبه ما يكون بالمجانين، فهو يتساءل حتى في ما إذا كان مجرد إرادة ذلك صواباً أو لا، إن كان هذا خيراً أم شراً، إنه يتصرف كما لو كان تحت إمرة جماعة خفية. فهو يعلم فقط أنه ليس إلا وسيلة في خدمة شيء أقوى منه. لا يهم سواء أتت تلك السلطة التي تؤثر فيه من السماء أو من جهنم!

ـ ولم تحاول طيلة هذه العشرين سنة من وضع مخططك في حيِّز التنفيذ؟! لم تبح بسر هذا المخطط إلى أحد؟ لقد أخذ هذا السر الخفي بأبي علي، وحسن كان يضحك من حيرته.

ـ لو كنت بحت إلى أحد بمشروعي، إليك أو لأي كان من أصدقائي لحسبتموني مهرجاً أو مجنوناً، لكني لن أنفي أنني حاولت تحقيقه بفارغ الصبر.

إنجاز سابق لأوانه بالطبع، إذ إنني قد تأكدت بعد فوات الأوان أن

العقبات التي كانت تعترض طريقي لم تكن لتدَّخر لي عشرة قدم لا يمكن تلافيها. لقد نويت جدياً وقبل كل شيء على تنفيذ مشروعي إثر ما زودني به عمر الخيام بتصوره الأول بوقت قليل. نصحني أن أذهب إلى الصدر الأعظم وأن أطلب منه أن يقف على عهد صباه بأن يمدني بالعون. قدم لي نظام الملك معونة كانت أفضل مما كنت أتوقع منه. ذكاني عند السلطان كصديق. وهكذا استقبلت في البلاط.

«يمكنكم أن تعتقدوا بأنني كنت فعلاً أكثر تملقاً وفكاهة من الصدر الأعظم» وما لبست أن كسبت ود السلطان الذي أخذ يؤثرني على الآخرين. وبشكل طبيعي سارت رياحي كما أشتهي. كان هذا نتيجة حذاقتي بالطبع. وجدت نفسي عندئذ قادراً على الانتقال إلى الفعل لم أكن أنتظر إلا فرصة أن حصولي على أمر من السلطان بانفكاكي إلى إحدى القرى. لكنني كنت ما أزال على درجة من السذاجة بحيث لم أُقِمْ أيَّ اعتبار للغيرة الفظيعة التي تملكت قلب صاحبي السابق إثر نجاحي. كان التنافس معه يبدو لي شيئاً طبيعياً للغاية. لم أكن أحسب أن من الممكن لذلك أن يشكل له إهانة. بدا هذا واضحاً عندما أراد السلطان أن ينظم بياناً لعائدات ونفقات مملكته، إذ سأل نظام الملك عن الوقت الذي يلزمه لترتيب كل المعلومات اللازمة لذلك «سنتان على الأقل» كان هذا جواب الوزير. ماذا؟ عامان! صرخت عندئذ «امنحني مهلة أربعين يوماً وستحصل على أدق بيان عن البلاد بأسرها. يكفي لهذا أن تضع مكاتبك تحت تصرفي». امتقع وجه صاحبي وغادر الحجرة دون أن ينبس ببنت شفه. رحب السلطان باقتراحي. وكنت سعيداً لأنني سأستطيع بذلك أن أكشف له عن قدراتي. ألزمت بالعمل كل الرجال الأكفاء وبعون مكاتبهم، ومكاتب السلطان، رتبت فعلاً وخلال أربعين يوماً كل المعلومات المتعلقة بعائدات ونفقات البلاد. وفي الوقت المحدد، مثلت أمام السلطان مع مدوناتي. شرعت بالقراءة، قلبت بعض الصفحات بارتباك، عندما أيقنت بهلع أن أحداً ما قد أدرج وبغدر كشوفات خاطئة، أخذت أتلعثم، حاولت أن أسد

ثغرات النص بأن أشحذ ذاكرتي، لكن السلطان لاحظ ارتباكي، فاستشاط غضباً، وأخذت شفتاه ترتجفان من الحنق، لم يتورع الصدر الأعظم عندئذ من أن يلقي هذه الكلمات: «رجال حكماء قدَّروا أن تنفيذ هذا العمل يتطلب عامين على الأقل، كيف إذاً لقاصر مجنون أن يتبجح أن بمقدوره أن ينجزه في تمام الأربعين يوماً. هل له أن يجيب عن الأسئلة بشكل آخر غير التلعثم والاضطراب»

أحسست به يخفي ضحكته الشريرة. وتأكدت من أنه هو من قام بلعب هذا الدور الدنيء.

إنما من غير الحكمة أن أهذر مع السلطان. ولم يكن لي بدٌّ من مغادرة البلاط المربك وغذُ المسير من أجل الوصول إلى مصر. منذ ذلك الوقت صرت في نظر السلطان مستخفاً وقحاً ومنذ ذلك الحين والصدر الأعظم يهلوس بالانتقام مني بمسحي عن الوجود. وهكذا صارت إلى هباء أول فرصة في سبيل تنفيذ مخططي. لكنني لا أتأسف على ذلك أبداً لأنني خفت أن يكون في ذلك الأمر آنذاك ولادة في غير أوانها.

ـ طالما سمعتهم يتحدثون عن خلافك مع الصدر الأعظم، لكن الأمر اتخذ شكلاً آخر تماماً لدى إلمامنا بواقع التفاصيل التي بحت بها لتوك. إني الآن قد فهمت سبب الكره القاتل الذي يكنه نظام الملك للإسماعيلية.

ـ إصغ إذاً إلى التتمة... في مصر، حظيت بفرص أكثر مؤاتاة، فالخليفة المستنصر بالله أرسل للقائي عند الحدود رئيس حرسه الشخصي الشهير بدر الجمالي، استقبلت في القاهرة بحسب الأصول، كواحد من شهداء الدعوة الإسماعيلية. وبعد قليل بدا لي الموقف واضحاً: حول وَلَدَيّ الخليفة تألف فريقان، الغاية من هذا كان بالطبع الرهان على ولاية العرش. نزار ابنه البكر كان أخرق، نحيل البنية كالخليفة نفسه. وكان حق ولاية العهد من جانبه. أبوه وهو وقعا على الفور تحت تأثيري، لكنني أخطأت في تقدير ما يعزم عليه بدر الجمالي، فهو من كان وصياً على أصغر

الولدين، المستعلي، ولدى رؤيته وجدت في الحال أن الأمر لم يعد يحتمل الهزار وعدلت عن كل الطموحات الكبيرة التي كنت أعلل نفسي وأعلل مصر بها. أبحرت على قارب إفرنجي، وعلى متن ذلك القارب قُدَّ قدري.

«كنا في عرض البحر»، عندما أيقنت بأننا لا نيمم شطر سوريا، كما كان قد صرح بدر الجمالي وإنما باتجاه الغرب إلى شواطئ أفريقيا على وجه الاحتمال. هل سيتخلصون مني في أحد الموانئ القريبة من القيروان؟ كان سيكون في ذلك هلاكي. هبتْ عندئذ عاصفة من العواصف السائدة في ذلك الجزء من البحر. هل أخبرتكم بأن الخليفة كان قد أعطاني سراً وقبل سفري بعض أكياس من القطع الذهب؟ أعطيت القبطان واحداً منها كي يقوم بنصف دورة ويوافق على إنزالي على شواطئ سوريا. افتعل لنفسه عذراً مناسباً بأن العاصفة باغتته من الجهة الأخرى. لقد أغراه الذهب. كانت العاصفة تتقدم بعنف وأخذ المسافرون الذين تملكهم الرعب، وحتى الإفرنج منهم يبتهلون بصوت عال وقد أوكلوا أمرهم إلى الله. كنت أجلس في إحدى الزوايا ألتهم بضع حبات من البلح الجاف. هدوئي كان مدهشاً. منهم من لم يدركوا بأننا غيرنا وجهتنا. عندما كانوا يسألونني كنت أجيبهم بأن الله قد نبأني بأننا سنرسو في مكان من شواطئ سوريا وإن مكروهاً لن يحصل خلال الإبحار. وقد تحقق هذا الوحي الإلهي في ظرف ليلة. فصاروا ينظرون إلي كنبي عظيم.

رغبوا جميعاً في تبني مذهبي، كنت مذعوراً من هذا النجاح الطارئ كنت أعاين قدرة الإيمان، وألاحظ كم أن إيقاظه أمر يسير. فيكفي أن تحيط علماً بما يفوق علم المؤمنين، ليكون من السهل عليك أن تفعل المعجزات. أولئك أشبه ما يكونون بالأرض المسمّدة، والتي فيها تنتشي بذرة الإيمان النبيلة. بان لي كلّ شيءٍ بجلاء، وكي أضع خطتي في حيّز التنفيذ كأرخميدس تماماً، لم أكن بحاجة إلى أكثر من نقطة ارتكاز

متواضعة كي أقلب العالم... علها تكون فتنة. ما من مجد، ما من نفوذ قرب عظماء هذه الأرض، كان بالنسبة لي مجدياً. لا شيء سوى قلعة محصّنة ووسائل لتجميلها بحسب مشاريعي إذاً ليأخذ الصدر الأعظم وكل أصحاب النفوذ في كلّ البلاد حذرهم منها.

شرارة تهديد غريبة لمعت في عينيه. وقد أبصر أبو علي أمامه وحشاً كاسراً، وحشاً، يمكن له أن يكشف عن نواجذه بين لحظة وأخرى.

ـ لديك الآن هذه النقطة الصلبة. قال له بلهجة مهدئة... تفضح نوعاً من التخوّف على الرغم من كلّ شيء.

ـ فعلاً. شدّد حسن.

ـ ابتعد عن الحاجز تمدّد على أرائك منضدة على الأرض، ودعا صديقيه أن يحذُوَا حذوه.

قطع من الشواء البارد وبضع جرار من الخمر كانت بانتظارهم على أطباق فأكلوا.

ـ إني لا أتردد أبداً في خداع العدو، قال فجأة بوزروق أوميد الذي مكث طيلة ذلك الوقت صامتاً، مفكراً في سره، وقد أفلتت منه هذه الكلمات بفظاظة.

ـ إن كنت قد فهمتك جيداً يا ابن صباح، ـ تابع ـ فلا بد لقوة تأسيسنا من أن تكون مبنية على انجراف فدائيينا ومشايعينا الأكثر عزماً وتفانياً. ونحن من كان له أن يزجّهم في الانجراف. وهذا سيكون بدراية وتروٍ هادئ، حيلٍ خارقة ستمكننا من الحصول على هذه النتيجة، مشاريعك عظيمة حقاً لكن الوسائل التي ستسخرها في التنفيذ ليست آلات أو أدوات: إنهم الرجال الحيويون وهم أصدقاؤنا..!

أجاب حسن بكل هدوء كما لو كان يتوقع هذا الاعتراض.

ـ إنما قوة كل تأسيس تقوم بشكل أساسي على انجراف أتباعه! فمكانة

الناس في العالم تكون وفقاً لاستعدادهم إلى المعرفة، ومن يريد أن يكون دليلهم عليه أن يأخذ باعتباره تنوع قدراتهم، فالأتباع كانت تطالب الأنبياء قديماً بمعجزات، وكان عليهم أن يقوموا بها إذا ما أرادوا المحافظة على نفوذهم. كلما انخفض وعي الجماعة كلما عظم حماسة من يحركها. لهذا فإني أقسّم البشرية إلى معسكرين متمايزين فعلاً، القلّة من هؤلاء الذين يعلمون ما يحدث من جهة، والعدد الغفير من هؤلاء الذين لا يفقهون شيئاً من جهة أخرى.

الأوائل مدعوّون لأن يَحْكِموا، والآخرون لأن يُحْكَموا، الأوائل يقومون بدور الآباء، والآخرون يماثلون الأطفال، الأوائل يعلمون أن الحقيقة متعذرة البلوغ، والآخرون يمدون أياديهم نحوها، من هنا، أي سبيل يقي لهؤلاء إلاّ أن يغذوا أولئك بالخرافات والأباطيل؟ كذب وتضليل؟ ليكن، لا سيما وأن الشفقة وحدها تدفعهم إلى ذلك. لا يهم كثيراً ما تبقى من النية، بما أن المخاتلة والاحتيال ضروريان لمن يريد إيصال الجماهير إلى هدف واضح أمام أنظارهم. لكن تلك الجماهير ستكون دائماً عاجزة عن الفهم. لماذا إذاً لا نجعل من هذه المخاتلة ومن هذا الغشّ تنظيماً وتدبيراً؟ أريد أن أذكر لكما أيضاً مثالاً: الفيلسوف الإغريقي إمبدوقليس الذي بجّله تلامذته وهو على قيد الحياة كإله، والذي عندما أحس بدنو أجله ودون أن يهمس بكلمة تسلق فوهة بركان وألقى بنفسه إلى الهاوية الحارقة، كان قد تكهن لأتباعه بأنه سيقتلع بمعجزة ذات يوم من هذه الدنيا الفانية، وسيُحمل حياً حتى العالم الآخر. لكنه بالصدفة أضاع أحد خُفّيه قرب الفوهة... كان هذا ما كشفه، ولو أنهم لم يعثروا على فردة هذا الخف الشهير لبقي الناس يؤمنون دون شك بالإله إمبدوقليس الذي صعد حياً إلى السماء...

زد على ذلك، أنه لو فكرنا ملياً بكل هذا، لرأينا أن من البدهي أن فيلسوفنا لم يكن ليستطيع أن يقدم على هذه البادرة بدافع مصلحة، أي نفع

يكون جنى من تلاميذه بعد موته غير اعتقادهم بصعوده إلى السماء؟ فمن جهته إني لا أرى غير مظهر من مظاهر المهارة. فهو لم يبتغ أن يخلّص أتباعه الذين آمنوا إيماناً عميقاً بخلوده. كان يعلم أنهم يريدون خرافات وهو لم يرد أن يخيبهم.

ـ كذبة كهذه، كذبة بريئة تماماً في حقيقتها، سلّم بوزروق أوميد بعد لحظة من التفكير. إنما في الحقيقة في هذه البدعة التي تعدها رهاناً أخيراً على حياتهم أو موتهم. ـ إصغيا ـ أصرَّ حسن، لقد وعدتكما بتعليل فلسفي مفصل لمشروعي. لنحاول أولاً أن نتفاهم عمّا هو في سياق الحدوث ضمن هذه الرياض الكائنة في الأسفل ولنجد في تحليل الحدث من خلال مكوناته.

لدينا هنا ثلاثة شبان، من الممكن لهم أن يعتقدوا بأننا فتحنا لهم أبواب الفردوس. إن كانوا مقتنعين فعلاً بذلك فماذا سيبقى لديهم للاختبار؟ هل أدركتما أيها الصديقان؟ غبطة لم يتذوقها أي إنسان. سينعمون بهذا الصنيع الفريد بكل ثقة.

ـ إلى أي مدى سينغمسون في ضلالهم. علّق أبو علي ضاحكاً. فوضعنا نحن الثلاثة أفضل من وضع أيّ كان من أجل معرفة ذلك..

ـ ما الطّائل في أن نعرف ذلك! ـ اغتاظ حسن ـ فهل تعرف ماذا سيحصل لك غداً؟ هل أعرف أنا ماذا يخبئ لي القدر؟ هل يعلم بوزروق أوميد متى سيموت؟ مع ذلك فلا بد لهذا من أن يكون مكتوباً منذ دهور ودهور في تكوين الكون. بروتاغوراس أكد أن الإنسان هو مقياس كل الأشياء. ما يلمس موجود، ما لا يلمس غير موجود أبداً. فهؤلاء الثلاثة الموجودون في الأسفل سيعرفون الجنة، وسيتنعمون فيها بالنفس والجسد والحواس. فالجنة موجودة إذاً بالنسبة إليهم. أنت يا بوزروق أوميد سترتعب من هذه الخدعة التي أدرب الفدائيين عليها. أنت تنسى أننا نقع كل يوم ضحية لخداع حواسنا وبذلك لن أكون أدنى بشيء من ذلك الكائن

المشكوك به والقابع في الأعلى فوقنا والذي هو مماثل لنا كما أكّدت ذلك سائر الأديان المختلفة. أن نكون منذورين لحواسنا فهذا أمر أكده ديموقريطس. بالنسبة له لا وجود للألوان، ولا للحلاوة، ولا للمرارة، ولا للبرد ولا للدفء، لا وجود إلا للذرات والمكان. أمبدوقليس تكهن بدوره أن كل معارفنا لم تأت إلا بواسطة حواسنا. وبكل بساطة فإن ما يصلنا عن طريقها لن يكون مدركاً. فما جدوى معارفنا المستقاة من الحواس في ما إذا كانت تلك الحواس كاذبة إذاً؟ انظروا إلى هؤلاء الخصيان هناك في الرياض، لقد عهدنا إليهم برعاية أجمل فتيات إقليمنا إن لهم نفس عيوننا وآذاننا، وحواسنا، ومع ذلك! فإن بتر عضو من أجسادهم كان كافياً لتغيير دورهم الذي يؤدونه في مسرحية الكون. ماذا يعني بالنسبة لهم العطر الثمل أو بشرة فتاة؟ أو ملامسة صدر بتول كعب؟ لا شيء سوى شعور مقزز بأن في متناولهم كتلة لحمية لا طائل منها بشيء؟ تلك هي إذاً ـ تأملوا ـ نسبية الحواس. ما الفائدة من الألوان الجميلة لحديقة مزهرة بالنسبة لكفيف وما الفائدة من غناء العندليب بالنسبة لأصم لا يسمع مثلما أن سحر الفتاة البكر لا يؤثر في الخصيّ بشيء والأبله يسخر من كل كلمة في الكون.

لم يستطع كل من أبي علي ومزروق أوميد أن يتمالك نفسه: سحبهما حسن من أيديهما، وقادهما عبر بعض السلالم القاسية والمتعرجة خلف جرف مظلم، حيث لم يتجرأ أن ينظرا إليه. لقد شعرا بأنه قد أسهب في تعميق براهينه. تلك هي برأيي وجهة النظر الممكنة الوحيدة بالنسبة لهؤلاء الذين بلغوا مستوىً عالياً من المعرفة. تأملا! ـ أردف ـ عندما يعترف المرء فعلاً ـ مثلما فعلت أنا ـ بأنه لا يستطيع أن يثق بشيء مما يراه حوله، بما يحس به، بما يلاحظه عندما ينبهه وعيه إلى أنه محاط بالشكوك والغموض من كل جهة، وأنه على الدوام ضحية الأوهام، فإنه عندئذ لا يعود يعتبر هذه الأوهام على أنها شر بالنسبة له، بل على أنها ضرورة للحياة، ضرورة ستوجب على المرء الاقتناع بها عاجلاً أم آجلاً.

الوهم هو كنه كل من يحيا، صانع الرضى، وواحد من ألف باعث آخر لكل فعل وكل تقدم. هيروقليطس كان يرى في العالم عماء مطلقاً نظمه الزمن: كان الزمن في نظره شبيهاً بطفل يلعب بحصى متعددة الألوان يجمعها ويفرقها على هواه. أية مقارنة رفيعة! أفلا يختلط هذا الانفعال البنائي والخلاق مع الإرادة العبثية التي تدير الأكوان؟ تدعوهم إلى الحياة، ثم تحيلهم إلى العدم الذي يوجدون فيه ينفردون ويفنون ويهلكون بحسب قوانين خاصة بهم، ونحن موجودون، نحن أيضاً في عالم كهذا. نحن خاضعون للقوانين السائدة، نحن جزء منها ولا نستطيع الخروج عليها، أقصى ما نستطيع أن نؤكده عن هذا العالم أن الخطيئة والوهم هما المحركان الأساسيان. . . .

ـ يا الله يا رحيم! صرخ أبو علي ألم تبن أنت يا حسن عالماً تسوسه قوانين خاصة جداً؟ لقد بنيت عالمك المزيّن، الغريب. . . . وإيماني المذعر. الموت هي من خلقك، يا ابن الصباح!

انتزعت الملاحظة ابتسامة من حسن، أما بورزوق أوميد فقد اكتفى من جهته بالنظر والاصغاء، متأملاً وحائراً، أحس بنفسه ينزلق في مجال غريب ومجهول بالنسبة إليه.

ـ يوجد في دعابتك يا عزيزي أبا علي جزء لا بأس به من الحقيقة قال حسن بهيئة المفكر، مثلما قلت لكما في الأسفل، فقد دخلت إلى ورشة الخالق ورأيت ما كان يصنع بأصابعه. ربما أخفى علينا بدافع الشفقة مستقبلنا ويوم مماتنا. لكنني لم أسمع أنه فعل شيئاً آخر. بئس ما كتب بأن تكون كل حياتنا على هذا الكوكب أفضل من مجرد وهم! وعينا وحده من يميز ما هو حقيقي وما هو ليس إلا حلم وإذا ما اقتنع فدائيونا لدى صحوتهم بأنهم ذهبوا فعلاً إلى الفردوس، فسوف يكونون قد ذهبوا فعلاً لأنه لا يوجد أي فرق بين الجنة الحقيقية والجنة المزيفة فحيثما نكون واعين لوجودنا، نكون قد وجدنا.

ألن تكون ملذاتهم، متعهم، بكل بساطة، هي نفسها تماماً كما لو أنهم ارتادوا جنان الله؟ إبيقوروس علّم بحكمة أن الهدف الفريد للحياة هو طرد الألم والعذاب، باحثاً قدر المستطاع عن اللذة والرفاه الشخصي، من سيكون له نصيب في سعادة كبرى غير هؤلاء الفدائيين الذين أسكنّاهم الجنة! في الواقع ليتني أنا نفسي أكون مكانهم! آه ليتني أستطيع أن أقتنع بحقيقة نِعَم هذه الرياض الفخمة. . . . والتمتع بها.

ـ اي صوفي أنت؟ قال أبو علي متحمساً، ضعني إذاً على منصة التعذيب واقنعني بأني مرتاح عليها أكثر مما أنا عليه عل هذه الأرائك الطرية بما أن هذا يرضيك. . . . قسماً بذقن إسماعيل، سأهتف من الغبطة. مرح أبي عليّ الصاخب قد تملك هذه المرة بوزروق أوميد الجفول نفسه.

ـ ربما حان الوقت لأن نلقي نظرة باتجاه أبطالنا. ذكَّرهما حسن.

نهضوا واتجهوا نحو الحاجز

ـ لا يزال كل شيء هادئاً صرَّح بوزروق أوميد، لنعد إذن إلى محادثتنا. . . قلت لنا يا ابن الصباح أنك تتمنى فعلاً أنت أيضاً أن تشعر بأنك في الجنة ولو لمرة واحدة، أما فدائيوك، فلو كان لديهم هذا الشعور، فأي شيء خاص كانوا سيختبرون؟ سيتذوقون المآكل التي يمكن لهم أن يتذوقوها في مكان آخر، وسيعرفون الصبايا اللواتي يوجد منهن الكثير الآن تحت هذه الشمس. . .

ـ صهٍ! قاطعه حسن! ليس سواء بالنسبة لإنسان عادي أن يستضاف في قصر ملك أو في سراي عادي، حتى لو قدمت له الأطباق نفسها هنا وهناك إنه يعرف أيضاً أن يقيم المفارقة بين أميرة وراعية بقر حتى لو كانتا متشابهتين كتوأمين حقيقيين، لأن متعنا لا تتعلق فقط بأحاسيسنا الجسدية، التلذذ ليس أمراً بسيطاً. . . . إنه فعالية خاضعة لأكثر من مؤثر، إذ تمده الشابة التي يجد فيها حورية متجددة العذرية بأنواع من الملذات تختلف عن تلك التي تمده بها من تستسلم كأمة مشتراة.

ـ لقد أتيت فعلاً إلى اكتشاف النقطة التي أوشكنا أن ننساها، نبهه أبو علي إلى بيت القصيد، لقد كتب في القرآن أن صبايا الجنة لا يفقدن أبداً طهارتهن هل فكرت بذلك؟ احترس من هفوة من هذا القبيل يمكن لها أن تخطِّئ خطة رائعة للغاية.

قهقه حسن.

ـ لا يوجد أبداً في هذه الرياض التي نراها في الأسفل عذراوات بكر. ليس عبثاً أيضاً أني اشتريت أباما من مأواها البعيد، فهل تحسبان بأنها لم تكن تستحق الشهرة التي نالتها بكونها العشيقة الممارسة الأولى من كابول وحتى سمرقند؟ سبق وقلت لكم إنها وبعد عشر عشاق كانت نضرة نضارة شابة في السادسة عشرة من عمرها. كانت في الواقع تعرف سر الحب الذي يبدو بسيطاً جداً أما عندما لا يكون المرء على اطلاع بذلك، فإنه يظن أن بين ذراعيه عذراء طاهرة طهارة عذراوات الفردوس: مفتاح هذه المعجزة، هو خليط من مواد معدنية، بعض من محلول له خاصية في تقليص المخاطيات عند استعماله بمهارة يحمل الفرد على الاقتناع بأنه يصل فتاة بكراً حتى ولو كان هذا غير صحيح.

ـ إن كنت قد فكرت بذلك أيضاً فأنت الشيطان المجسد أكد أبو علي.

ـ انظرا أفاق واحد من الفدائيين! أنذرهما بوزروق أوميد حينئذ. استرسل الثلاثة في تفحص الليل وقد حبسوا أنفاسهم، عبر سطح سرادق زجاجي لمحوا شابات كنَّ يتسارعن حول فتى كان يبدو منهمكاً برواية شيء لهن.

ـ سليمان... قال حسن خافضاً صوته بشكل عفوي، كما لو كان يخشى أن يكون أحد قد سمعه، هذا أول ميت يفيق في الجنة منذ الأزل!

عندما وصل الخصيون حاملين جسم سليمان النائم أمام فاطمة ورفيقاتها، خيم على السرادق صمت الأموات. حمل الحارسان الولد من قدميه وكتفيه دون أن يلفظا كلمة. أراحاه على سرير مفروش، ثم انسحبا بصمت وعادا بالمحمل فارغاً.

تأملت الفتيات هذا الشكل المدَّد تحت الغطاء الأسود. وبمشقَّة تَجَرَّأْنَ على التنفس. كانت زينب من همست في أذن فاطمة بأن الوقت قد حان ربما لرفع الغطاء عن وجه ضيفهم النائم. انتزعت الغطاء، ثم بدت مأخوذة بذهول. كانت قد اختلقت لنفسها ألف حكاية بخصوص هذه اللحظة التي طالما انتظرتها، كانت مندهشة بحسن ما كان يتجلى أمام عينيها: وجنتان ورديتان، كأنهما وجنتا فتاة صبية، شفتان أرجوانيتان تنفرجان عن بعضهما نصف انفراج، مكتنزتان كحبة كرز، أسنان كاللآلئ التي يتحدث عنها الشعراء وأخيراً أهداب طويلة وكثيفة ترخي على كل وجنه ظلاً لطيفاً. كان الفتى اليافع يستلقي على جنبه، إحدى يديه مثنية تحته، والأخرى تحضن الوسادة التي وضعت تحت رأسه.

ـ أتصور أنه لم يثر اشمئزازك؟ استخبرت خانم بخبث.

ـ لن أحبه أبداً.

اقتربت الصبايا الأخريات بدورهن.

ـ حذار! أوشكتن على افتراسه بعيونكن. دمدمت سارة.

ـ نِعْمَ ما قلت.

تناولت فاطمة القيثارة، ولامست أوتارها برفق.

بما أن الصبي كان نائماً، فقد تجاسرت وأخذت تدندن بأغنية بشكل غير مفهوم. هذا ما حصل فوق النائم لا أكثر.

ـ بما أننا وحدنا، فما لنا إلا أن نتابع الثرثرة، اقترحت أخيراً.

انقطعت المحادثة إلى لحظات، ثم عادت إلى مجراها. ضحك ونكات من جديد.

بعد لحظة، أخذ الولد يتحرك فأومأت لهن زينب:

ـ انظرن! إنه يفيق.

ـ رفعت فاطمة يديها عن عينيها.

ـ لا، إنه يحلم، قالت سارة.

ـ كانت حليمة ترقب الوجه النائم بهيام!

ـ إني أعتمد عليك، أخبرتها فاطمة. ما من نزوات!

قام سليمان بحركة كي ينتصب. فتح عيناً ثم أغمضها في الحال.

عندما قرر أخيراً أن ينظر حوله فعلاً، كان هذا كي يلقي بنظرة باردة على وجوه الفتيات التي كانت تفصح عن فضول أكثر مما تفصح عن خجل. هز رأسه، همس ببضع كلمات مبهمة ثم عاد لنومه من جديد.

ـ لا بد من أنه يظن نفسه في حلم.

ـ ربما تكفي مداعبة بسيطة. اقترحت زينب، ألا تريدين أن تحاولي؟

جلست فاطمة على الأرائك الموضوعة على جانبي الولد، ترددت يدها للحظة، ثم أخذت تلمس وجهه بأطراف أصابعها. ارتعش سليمان، التفت بتؤدة، وتواً وضع يده على فخذ فاطمة. أحست بها كالكي. ضاق نفسها، وأخذت ترتجف، نهض سليمان، وقد بذل جهداً ملموساً كي يفتح عينيه تماماً، وقعت نظراته أولاً على شكل صبية، لا بد أنه لاحظ بأنها كانت ترتعش. ودون أن ينطق بكلمة، وكالإنسان الآلي أخذ يقبلها ثم جذبها بقوة إليه. لم يكن لتلك المداعبات التي تبادلاها إثر ذلك أن تبدد البلادة التي ظل غارقاً فيها. في حالة نصف الوعي هذه تملّكها.

فاطمة نفسها لم يكن لديها الوقت لتفهم ما كان يعتريها، عندما عاد الولد إلى وعيه وسمعها تقول له بصوت ساه:

ـ سليمان. . . . هل تحبني؟

تفرّست في الوجه المنحني فوقها. همس:

ـ هيا بنا. . . أنا أعرف أن كل هذا مجرد حلم. . . مع ذلك فأنت جميلة جداً.

إنما لعنة ما تَبرع في إفساد أحلامنا الجميلة.

استجمعت فاطمة شجاعتها، مقاومة النشوة التي شعرت بنفسها تستسلم لها. رمقت صديقاتها بنظرة، جفلت، إنما عليها أن تتصرف، واجبها كان يملي ذلك عليها.

رجعت تتخيل العقاب الرهيب الذي يعدهن به سيّدهن إن أخفقن في مهمتهن. دفعت الفتى برفق.

ـ هل أنت مستحٍ يا سليمان؟ أنت في الجنة، ولك أن تفسق.

ـ في الجنة؟

فرك عينيه وجال بنظره حائراً في كل الجهات.

ـ ما هذا. . . لكن أين نحن؟

امتدت يداه تتلمسان. جس الوسادة، ومتخوفاً لمس بأطراف يده جسم فاطمة العاري.

أمامهم نافورة يخر ماؤها. نهض كمسرنم، اقترب من حوض الماء وأخذ يبلل يده فيه.

ـ أيها الفردوس المقدس ـ همس ـ هل ذلك صحيح. . . هل أنا فعلاً في الفردوس؟

لمح الفتيات الأخريات، اللواتي كن يراقبنه دون أن يتجرأن على الإعتراض.

ولو استعاد رشده ورمى بهذا الوهم؟ سيخلصن إلى أن تقطع أعناقهن لكن هل سيكن قادرات على مجاراته في غيّه حتى آخر الليل؟

بادرت فاطمة إلى المجازفة.

ـ طريق طويلة أمامك. هل أنت عطشان؟

ـ بلى! أنا عطشان.

قدمت له ساره قصعة من الحليب الطازج. تناولها بين يديه وشرب بنهم.

ـ إني كمن ينبعث من جديد. . . .

ارتسمت على وجهه ابتسامة

ـ تعال نحمّمْك دعته فاطمة.

ـ لو سمحتِ. . . أفضل أن ينظرن من الجهة الأخرى. أذعنت الفتيات. ووحدها سارة وزينب أبدتا ابتسامة مكتومة.

ـ ما الذي يثير ضحككن، سألهن بلهجة مستنكرة عندما أنهى خلع ملابسه.

ـ إنك لم تتعود بعد على نمط حياتنا هنا. أجبن.

غطس في الماء.

ـ كم هو ممتع. قال وقد بدا عليه تلذّذ مفاجئ.

تلاشى عنه الدّوار من دون أن يتضاءل الذهول الذي يحس به من أعماقه لا سيما وأن حضور الشابات صار يبدو له مألوفاً تقريباً. طلب منشفة فأحضرنها له على الفور.

ـ أود لو أراكنّ تستحممن أنتنّ أيضاً.

أومأت لهنّ فاطمة بحركة آمرة. فخلعن ثيابهن ونزلن في الماء. بدا على حليمة بأنها تحاول الاختباء، لكنّ ساره جذبتها إلى الحوض بقوة.

وبمرح أخذن يتراشقن بالماء، وصدى ضحك وصراخ أخذ يجوب السرادق، وتمدّد سليمان الملتفّ بجلبابه على الأرائك كي يتأملهنّ بارتياح.

ـ يا لبهجة هذا المكان ـ قال ـ كانت عيناه تلمعان، وفجأة أحسّ بنفسه منهكاً وجائعاً. سرّح نظرة اشتهاء باتجاه الأشياء اللذيذة التي تنتظرهم على الموائد الموضوعة في زوايا الحجرة. ارتدت فاطمة ثيابها بسرعة. استشفّت رغبة صاحبها، اقتربت منه وقابلته بابتسامة ملائكية.

ـ هل أنت جائع يا سليمان؟

ـ أنت لا تتصورين إلى أي درجة.

تسارعن جميعاً إلى خدمته، منذهلات لرؤيته يتهافت على الأطباق كذئب ساغب. وبلمح البصر أخذت قواه تعاوده.

ـ ليسكب له الخمر. همست فاطمة ـ وهي تتوجه إلى صاحباتها. شرب حتى الإشباع وهو يتأمّل الحسناوات الفتيات اللواتي يغدقنه بخدماتهن. وبلطف كانت جلودهنّ تشعّ تحت غلالاتهنّ الرقيقة التي تتموّج حول أجسادهنّ. دوار آخر ألمّ به.

ثمّ جاءت ليلى لتنضمّ إليهنّ طواعية، ولتجثم بدورها قبالته.

أثملنه! سحرنه! همست فاطمة ـ وهي تراه مستسلماً تماماً لمداعباتهنّ. أحسّ الآن بدفء الخمرة اللذيذ يصعد إلى دماغه.

ـ أقسم بلحية الشهيد عليّ! صرخ فجأةً ـ كما لو كان قد اكتشف سرّ لغز ما، لقد قال سيدنا الحقيقة! أعطاني مفتاح الفردوس فعلاً.

مذ ذاك، صار كل شيء من أجل متعته، وقد استسلمت يداه وشفتاه لكل أشكال العناق والقبل، وبعد قليل رأينه يرفع رأسه بحركة قلقة.

ـ هل أنا لم أمت، على الأقل؟

ـ لا تخشَ شيئاً، طمأنته فاطمة، غداً ستكون مجدداً في الموت في خدمة سيدنا.

ـ أنتن تعرفن سيدنا!

ـ لا تَنسَ أبداً أننا في الفردوس.

ـ هل اطّلعتنّ إذاً على هذا الخبر. لقد خرجنا لتونا من معركة مع الهراطقة صرعناهم!

ـ نحن لا نجهل شيئاً من هذا. وأنت أوّل من هاجم الأتراك، وصديقك ابن طاهر هو من انتزع الراية من العدو.

ـ الله أكبر! . . . عندما سأعود سأروي كلّ هذا لنعيم وعبيدة، لكنهما سيهزأان مني.

ـ هل إيمانهم ضعيف إلى هذا الحدّ؟

ـ أقسم بذقن النبي! إني لن أصدّق ذلك. لو هما عرضا عليّ نفس الحكاية! إنما أين ابن طاهر ويوسف؟

ـ إنهما في الفردوس مثلك. وعندما ستعودون إلى العالم الآخر ستستطيعون أن توازنوا الانطباعات التي أكسبتكم إياها هذه المغامرة.

ـ فعلاً! أقسم بالله كم من أشياء غريبة يخبئها القدر لمسلم صادق؟

بجذل وسرور، راح يحدثهن عن آلموت، عن رفاقه في المعركة، التي نشبت بينهم وبين الأتراك. . . وهن جالسات حوله، كانت الشابات يصغين إليه يتحدث وهنّ مفتونات بشكل واضح.

كان هو أول من منحهم في هذه الرياض فيض رجولته وكان فضلاً عن ذلك فتىً بهياً، أحسسن جميعهن بأنه استولى على قلوبهن.

نهضت فاطمة، وراحت تجلس خفيةً خلف قيثارتها، تلتقط أوتارها برفق وتغني بصوت شبه مسموع، ومن وقت إلى آخر، كانت تداعب الفتى بنظرة كان يجد فيها حب العالم بأسره.

كانت حليمه تختبئ خلفها وقد وضعت يديها فوق كتفيها، لا تخاطر بمراقبة سليمان طويلاً وإنما خلال فترات متباعدة لا سيما وقد راق لها كثيراً: طريقته الصادقة في التعبير، ضحكته الفرحة والصافية، جسارته، كل ما فيه كان يسحرها انفعلت في سرها كثيراً وشعرت بأنها قد هامت به أكثر مما ينبغي.

فطالما كان الفتى يتكلم، كان يسحر بذلك البريق المتألق في عينيها، لم يكن يلمح من تلك الطفلة الجفول سوى هاتين الخوختين وأطراف أصابعها

الوردية المتوضعة على كتفي خانم، هل أثرت فيه في الحال؟ إنه ليس بنادم على ذلك.

لقد عرف فاطمة وزينب وعائشة وليلى بأسمائهن...

ـ من تكون إذاً هذه الطفلة التي تمعن في التخفي خلف ظهرك؟ وجه سؤاله إلى خانم.

ـ إنها تدعى حليمة.

أثار هذا ضحك الأخريات كثيراً. مما أدى إلى ظهور الارتباك على سليمان. عيناها الكبيرتان الجميلتان، وأصابعها الوردية توارت خلف ظهر تلك اللطيفة خانم.

ـ اقتربي يا حليمة فأنت فقط لم أرك بعد!

أخذت خانم وشهيرة تسحبانها من يدها كي توافق على مغادرة المخبأ الذي اتخذته لنفسها بين الأرائك لكن قدميها كانتا تتشبثان بالسجادة بدلاً من أن تخطُوَا.

ـ هل هذه العفريتة هي دائماً خجولة هكذا؟

ـ دائماً وهي تخاف أيضاً من الزواحف والأفاعي.

ـ ليس لديك ما يدعوك إلى الخوف فأنت لست تركية ولا هرطقية على ما أعلم؟ هؤلاء وحدهم من لهم أسبابهم كي يرهبوني.

بادر لعناقها، لكنها تملصت خافضة رأسها بعناد، كم دهش من ناحيتها. ومن الزاوية التي قبعت فيها، وجهت فاطمة إيماءة رصينة إلى الطفلة العاصية.

رمت يديها بحيوية حول عنق الفتى، وجثت أمام صدره العريض.

ـ إني لا أتحمل وجودهن حولنا. أفشت إليه.

التفت نحو الأخريات.

ـ تفضلن إلى الانضمام إلى فاطمة واتركننا.

«أية طفلة رائعة! قال متأملاً، وقد بدا عليه نهم شديد لافتراسها، أحد على الإطلاق لم يرَ واحدة بظرفها. . . ».

أسرعت إلى قبالته بطريقة همجية مقربةً من شفاهه وجهها المستعر.

ـ والله إنك لعذبة! وقد أحس بها تستسلم لعناقه.

بعد مضي وقت طويل، وعندما رجعن إليهما اقتربت ساره قدمت للولد كأساً من الخمر، بينما كان يشربها اقتربت زينب من سريرهما لتعيد ترتيب الأرائك فهذى إليها بصوت عالٍ:

ـ لا أظن أني ذقت في حياتي شيئاً ألذ أو أشهى من هذا.

كانت حليمة آنذاك جاثية في الزاوية الأكثر طراوة من مخدعهما. وجهها الصغير متوارٍ خلف ارتفاع الأرائك، فاستسلمت للنوم سريعاً.

سعلت فاطمة سعالاً خفيفاً كي ترخم صوتها.

ـ سأرتجل أغنية من أجل هذه السهرة. قالت فاطمة بابتسامة ساحرة وقد تعمقت تلك الغمازتان تحت وجنتيها الفاتنتين، بينما أخذ أول وتر من أوتار قيثارتها يرجع صدى.

ـ إصغين. . .

النسر الأسود سليمان

قدم إلى الفردوس

لمح لتوه

الجميلة فاطمة

اقترب بوداعة

كذكر إوز ضمها

وجد كل ما فيها جديراً

بقبة السماء الإلهية

باتت ليلى غيورة

إنه جميل كإله

وبدورها تعلقت

بسيد هذا المكان...

لمح تورخانا

بثغرها القرمزي

ذهل في الحال

وبجسدها هام

انقلب قلبه عندئذ

نحو الجميلة ساره

وعند عطر الفجر العذب

أتى يهديها الولاء

متعب من العيون السود

ومضنىً من البشرات القاتمة

نظر إلى زينب

ذات العينين الزرقاوين يحيط بهما الظل

لكنه اضطرم إثر ذلك بقليل

لأجل الطفلة حليمة

الظريفة جداً، العذبة جداً

الجديرة فعلاً بسلطان!

خانم وشهيرة

مدتا إليه بأذرعهما

قبلة على شفتيهما

وها هو ذا يستعر

المسكينة فاطمة

تحبس هناك دموعها

مرتجلة دون حماسة

من أجل العاشق الخائن

خلاب وجذل

يقترب نحوها

ويطبع على عينيها

قبلة مشرقة

الصبايا عندئذ

مضين يرقصن

هناك في الأعلى، ضاحكات، مغنيات

على المرتفع الذي يهتز

حقاً فإن الجنة

دون هذا الفارس المقدام

لا تكون جنة

سلاماً!

يا سليمان!

بفرط من الصراخ والضحك، احتفلن بالشاعرة المحببة، وقد اقتيد المقدام سليمان، وسط موكب راقص صاخب، بينما كانت الأقداح ترتفع عالياً على شرفه. لم يفلت من الراقصات إلا كي يندفع إلى قدّام فاطمة والتي عانقها من كل قلبه.

ـ أحببت قصيدتك الجميلة كثيرًا. إني أعتمد عليك بأن تنسخي مخلصة كلماتها فعندما سيراها نعيم وعبيده سيفغران فاههما.

ـ لتعلم أن أحداً لا يستطيع أخذ أي شيء من الفردوس ـ أخبرته ـ يتوجب عليك أن تحفظ هذه الأبيات الجميلة عن ظهر قلب.

انتهت الجلبة الفرحة بإيقاظ حليمة التي ألقت حولها بنظرات حائرة:

ـ ماذا يجري؟

ـ نظمت فاطمة قصيدة، بينت لها ساره ـ لك فيها نصيب كبير. . .

ـ لا بد وأنها ليست رائعة إذاً، واندست داخل أرائكها.

ـ كيف تستطيعين النوم مع وجود ضيف كهذا في المنزل!

تهكم بها سليمان بلطف، وهو قادم للقائها، هزَّها بحركة رقيقة، وجاءت تتكور من جديد قرب ذقنه، تهدهدها أنفاسه اللطيفة. استلقت في نوم سعيد ولم يلبث هو نفسه أن هجع إلى النوم.

ـ أنظرن كم هما ظريفان!

ـ لنتركهما نائمين.

أشارت فاطمة إلى زينب كي تأتي إلى الجلوس بجانبها.

ـ لديّ فكرة أخرى سنؤلف قصيدة عن هذين الزوجين الفتيين العاشقين.

كانت المبادرة مشجّعة نتيجة كمية الأكواب التي أترعت وأفرغت بسرور، مما لم يفقد عفرتة تلك الصبايا ظرفها. عندما أنجزت القصيدة، دعتهنّ فاطمة إلى إيقاظ هذين العاشقين الغزالين. . . الذين فتحا عيونهما معاً بشجوٍ وتبادلا ابتسامة المغرمين.

ـ آه، ليت ليوسف أن يراني!

كان هذا اعتراف أكيد للتعبير عن سعادة غامرة.

اغتنمت الفتيات الفرصة، كي يسكبن لضيفهن كأساً دهاقاً جديدة من شراب لذيذ ثمين. دفع الكأس وشرب من الجرة مباشرة.

ـ ما من سلطان من السلاطين عاش لحظات كهذه!

صرَّح بعد ذلك وسط المحفل.

إلاّ أن تلك الطفلات الساحرات قد دعونه إلى مسرّة أخرى:

ـ إصغ لقد حضّرت فاطمة وزينب أغنية جديدة...

استقر في قعر الأرائك بارتياح، جذب إليه حليمة وأصاخ السمع إلى المغنيتين:

حليمة المغفلة

في فردوس الله

قابلت بتكشيرة بشعة

دعوة الحب الرقيقة...

مستسلمة لخوفها الغريب

من الأفاعي والزاحفات

والتي تظنها بارعة

في افتراس البنات

إلى المخصيين السذج

يروح نظرها الخفي

لكنها تتأسف في حاصل الكلام

أنهم لم يكونوا رجالاً

سليمان البارع

اكتشف براءتها

مسلحاً بثغثغته العذبة

اختطف قلبها
عندما بحركة رجولية
احتضنها العاشق
قامتها العذراوية
أصبحت من ذلك شاحبة للغاية
وعندما أوشكت أن تخفق
من الخوف والارتجاف
ـ أم من الرغبة الخجولة؟
بين ذراعي عاشقها
ومرتجفة من سوء فعلها
في روحها المتخوفة
نسيت الألحان
التي كنّا علمناها إياها
مع ذلك عرفت
هذه السعادة العابرة
التي لم يستطع أحد نيلها
والتي يسمونها المتعة.

الضحك الذي قوبل به هذه المرة أيضاً، هذا النموذج من الشعر أخجل حليمة كثيراً. لكن هل كان فعلاً من الحنق أم من الخجل؟

كان في هذا ما أمتع سليمان السعيد، إذ أخذ يقهقه وهو في غاية الثمالة بحيث إن النهوض تعذّر عليه بعض الشيء.

ـ سألقي بهذه الأرائك عليكن، لو واصلتن على هذه الحال،

هددت الطفلة المتوحشة وهي تجمع قبضتها الصغيرة.

لكنَّ الصوت المحزون دوّى من بعيد، الصوت القادم من البوق، مرة، مرتين، ثلاثًا. . . صمتت الصبايا، توارت فاطمة وقد شحب لونها فجأة بشكل غريب. وانصرفت بعيداً عن الأنظار تحضر القرص المنوم. أرهف السمع سليمان:

ـ ماذا يعني هذا النداء؟

نهض بشيء من الصعوبة، وبالحري فقد ألفى نفسه لا يستطيع الارتكاز على ساقيه، خرج يستنشق شيئاً من الهواء عندما سمع صوت فاطمة:

ـ كأساً أخرى يا سليمان؟

كان من العسير أن تخفي اضطرابها، لكن صاحباتها لم يتوانين عن سحب الفتى نحو الأرائك.

ـ ماذا ستروي غداً لصديقيك نعيم وعبيدة عن إقامتك هذه في الفردوس؟ قالت هذه وهي تحسب أنها تداري احتراسها.

ـ لنعيم ولعبيدة؟ هذان التركيان لا يريدان أن يصدقاني، بل سيرميان فقط إلى معاملتي ككاذب، وسأعرف كيف ألقي بقبضتي هذه تحت أنفيهما. . .

رفع قبضته الصلبة على مرأى من المحفل، ناولته فاطمة الكأس التي أعدتها له، فأفرغها بحبور.

تملكه خدر غريب في الحال.

لا بدّ أنه فهم ما يحصل له؛ مستجمعاً ما تبقى من قواه استطاع أن يلفظ بوضوح:

ـ ذكرى. . . اتركن لي شيئاً على سبيل الذكرى.

ـ ليس لك أن تحمل معك شيئاً.

لقد خمّن تصلب فاطمة، وباضطراب أخذت يده المحترزة تبحث عن معصم حليمة وسوار من الذهب انزلق في راحة كفه. خبأه تحت جلبابه وغطّ على الفور في سبات عميق.

لم ترد حليمة أن تفضحه، كيف تستطيع أن تفعل ذلك؟ قلبها صار ملكه، وحولها صمت عميق عمَّ السرادق من جديد، دون أن تنطق بكلمة بحثت عن الغطاء الأسود، وغطت به الفتى النائم. لم يبق لديهن بعد سوى الانتظار...

ـ ليست الأشياء بذاتها من يجعلنا سعداء أو تعساء، وإنما الفكرة التي نكونها لأنفسنا عنها، والاعتقاد الخاطئ الذي نغترّ به، قال حسن بصوت عال بينما كان هذان الصديقان يراقبانه وهما ممدّدان على أرائكهما... البخيل يخفي ثروته في مكان يجهله الجميع، يتظاهر بالفقر أمام الناس، لكنه يتلذذ في سره إذ يعرف نفسه ثرياً، يكتشف أحد الجيران مخبأه ويأخذ ثروته... فهل هذا يحول دون تلذذ البخيل بثرائه طالما أنه لم يكتشف السرقة؟

وإذا ما داهمه الموت قبل أن يدري بنكبته، فلسوف يلفظ النفس الأخير وهو يمتلك الشعور السعيد بأنه يمتلك العالم! والحال كذلك بالنسبة للرجل الذي لا يعلم بأن عشيقته تخونه، إن لم يكتشف ذلك فلسوف يستمر في ارتشاف اللحظات الشهية وهو بصحبتها، لنفترض أن زوجته الحبيبة تمثل الإخلاص نفسه، لكن شفاهاً كاذبة تدخلت لتقنعه بالعكس... إنه سيكابد آلاماً كآلام الجحيم. فليست هي الأشياء، وليست هي الأفعال الواقعية التي تقيم الفصل بين سعادتنا وشقائنا، إنما فقط التصورات التي يمليها علينا وعينا المتذبذب.

كل يوم يكشف لنا إلى أية درجة تكون هذه التصورات كاذبة وخادعة، وأن سعادتنا ترتكز على شيء صلب. نحن نبالغ في تسويغ ظلاماتنا! فالمدهش في أن يكون الحكيم حيادياً بالنسبة للواحد كما بالنسبة للآخرين... وأن يستطيع الجلفاء والبلهاء التمتع بالسعادة وحدهم!

ـ فلسفتك لا تلائم ذوقي تماماً. قال أبو علي متذمراً، صحيح أننا نسيء فهم الحياة على الدوام، ونكون بطيبة خاطر ضحايا الاعتقادات الراسخة

الخاطئة، لكن هل علينا أن نعكف عن كل مسرّة بذريعة أن كل مسرّة تقوم على قضايا كاذبة؟ فلو تصرف الإنسان بحسب حكمتك، لكان لزاماً عليه أن يقضي كل وقته بالشك والارتياب.

ـ ولكن لماذا كنت ساخطاً إذ أرسلت الفدائيين إلى الفردوس؟

أليسوا سعداء؟ أي فرق بين سعادتهم والسعادة المفترض أنها صحيحة لذاك الذي يسعد بتجاهل مقدمات الكون المنطقية؟ أنا أعلم ما يضايقك، ما يضايقك أننا نحن الثلاثة نعلم ما لا يعلمون.

مع ذلك فإن لهم من ذلك النصيب الأكبر... وهم يتفوقون عليّ مثلاً. تخيل، إن لذتهم ستتحول فجأة إلى مرارة لو أخذ الشك ينتابهم بأنني أنا من جرهم عمداً إلى هذه المغامرة التي لم يكونوا يملكون زمامها، على الرغم من كل ما يحصل لهم، فإني أجد نفسي ملماً بالأشياء أكثر منهم بكثير. أو لو أنهم اشتبهوا بأنهم ليسوا إلا ألعوبة أو بيادق دون إرادة بين أيدينا، لو أنهم ليسوا إلا أدوات تحرك بإرادة عليا، بعقل أعلى يتبع نهجاً غامضاً. بما يخصني يا صديقي، فإن اشتباهاً كهذا، شكاً كهذا سيسمم حياتي كل يوم. الشك الذي يمكن له أن يهزمنا، هو وجود أحد يمتلك في ذهنه رؤية واضحة عن العالم وعن الموقع الذي نشغله فيه، والذي يمكن له أن يعرف عنا ألف شيء وشيء من الأشياء التي أفلتت منا، ساعة موتنا حتى بكلمة مختصرة: معرفة كل ما هو عصي حتماً على إدراكنا. ربما من له بنا مقاصد خاصة ربما من سيستخدمنا بقصد التجربة، من يجازف بنا، بمستقبلنا، بحياتنا. بينما نحن الدمى في أيديهم، نلهوا على هذه الأرض بهذه التسليات الغبية متصورين أننا نحن الذين نصنع قدرنا، لماذا هي العقول العليا من تبحث يائسة لاكتشاف سر الظواهر الطبيعية، لماذا هم العلماء تحديداً من ينذرون أنفسهم بولع للعلم ويندفعون لاكتشاف الكون؟

نِعْمَ ما قال أبيقوروس بأن الحكيم يتذوق سعادة تامة إن لم يكن ممزقاً بخوفه من الظواهر السماوية المجهولة، لغز الموت: لكن معرفة هذا لا

تفيد بشيء: من المستحيل أن يتجاهل هذا الخوف، نستطيع بأقصى ما يمكن، في أفضل الحالات محاولة شرحها ـ يعني التغلب عليها كيفما اتفق مكرسين أنفسنا للعلم ولدراسة الطبيعة.

ـ معقد جداً كل هذا علّق أبو علي، ومع ذلك يمكن لفلسفتك إن كنت قد فهمتك أن تتلخص في هذا الإثبات: أنت تتعذب في سرك لأنك تعرف بأنك لست الله.

أضحكت هذه البديهية بوزروق أوميد... وأضحكت حسناً نفسه.

ـ لم تخطئ السبر، اعترف هذا الأخير وهو يتكئ على الحاجز، وقد دل بيده صوب ناحية عاتمة من السماء، تبرقعها آلاف الأشعة الراجفة، تأملا هذه القبة الفسيحة من السماء، من يستطيع أن يحصي تلك النجوم المتفرقة منها؟

أرسطوطاليس أكد أنها هي نفسها كانت شموساً، أي عقل إنساني يستطيع أن يفهم هذا؟ ومع ذلك فإن كل شيء في هذا الكون مرتب بحسب غاية وكأن إرادة تديره لا يهم كثيراً سواء كانت إرادة الله أم فعل الطبيعة الأعمى.

فإننا بالمقارنة مع الشاسع المستحيل القياس نكون مضحكين وبائسين.

كان عمري عشر سنوات عندما أدركت للمرة الأولى ضآلتي، مقابل هذا العالم الواسع كم من عذابات كابدتها منذ ذلك الحين وكم من أشياء قد زالت. إيماني بالله وثقتي بنبيه قد حالا، حال سحر الحب الأول، لم تعد زهرة الياسمين تبعث في أنفي ذلك العطر الليلي الذي كان يشملني ولم تعد أزهار الزنبق تكتسي بتلك الألوان الفاقعة. وحدهما، الانذهال أمام رحابة الكون والخوف اللذان توقظهما الظواهر السماوية المجهولة يسكنانني غير حائلين.

إحساسنا بأن أرضنا ليست إلا ذرة غبار في الفضاء، وأننا نحن أنفسنا لسنا إلا مجرد نوع من القمل التافهة يفعمنا دائما باليأس.

وثب أبو علي على ساقيه المعوجتين، وتظاهر برفع يديه حوله بخوف كمن يفعل ذلك لحماية نفسه من عدو مرئي.

ـ إني أحمد الله أن خلقني بهذا الخلق المتواضع، ووفّر عليَّ الانغماس بهذه الاهتمامات.

صرخ بلهجة لم تعد بعد لهجة مزاح.

ـ إني أسامح بها آل باطوي، آل المأمون، وآل أبي ماشار[١].

ـ هل يخطر ببالك أني أحار في الاختيار؟ أجاب حسن بنوع من السخرية الغضوب، أجل! لقد كنت عظيماً يا بروتاغوراس. عندما عبرت عن هذه الحكمة، بأن الإنسان هو مقياس كل شيء. ماذا علينا من شيء آخر نفعله سوى أن نقتنع بهذه الحكمة ذات الحدين المتعاكسين؟ أن ننظم في تصورنا الضعيف هذه الكرة المكونة من ماء وتراب، التي نعيش عليها، وأن نترك إلى العقول النظرية أجزاء الكون المجهولة؟ فهذا الكوكب الفقير، هو ميدان فعاليتنا في هذه الدنيا، هو المكان الذي يوافق إدراكنا وإرادتنا.

«الإنسان هو مقياس كل الأشياء» هذه هي قملتنا المرّقاة فجأة إلى صف مبدع جدير بالاحترام. كان يكفيه أن ينحدَّ. أن يستبعد الكون الفسيح عن مدى نظره، وأن يكتفي بالأرض اليابسة، والتي نصب عليها خيمته الأولى عندما تفهمت هذا ـ لاحظا يا صديقيَّ ـ ارتميت بكل قواي في تنظيم ذاتي وكل ما يحيط بي.

بدا لي الكون كخارطة كبيرة أبقيت باللون الأبيض. في وسطها بقعة

---

(١) سلاطين من هذا العالم. المأمون كان خليفة بغداد.

رمادية صغيرة، هي كوكبنا. على هذه البقعة الصغيرة، وعلى هذه البقعة الرمادية نقطة سوداء متناهية في الصغر، هي أنا، شعوري: الشيء الوحيد الذي عرفته بيقين.

صرفت النظر عن الأبيض ـ يجب أن نعرف كي نتمالك أنفسنا ـ كي أركز كل انتباهي على البقعة الصغيرة الرمادية، كان علينا أن نحدد قياساتها، أن نقدر سعتها وبعد ذلك... نفرض هيمنتنا عليها ونديرها بحسب إدراكنا وبحسب إرادتنا، لا شيء أبشع من البقاء على الأرض بالنسبة لذاك الذي يحاول أن يقارن نفسه مع الله القابع في الأعلى!

ـ الآن فقط فهمتك يا ابن الصباح! صرخ أبو علي بلهجة لا تخلو من الخبث. تريد أن تبقى على الأرض ما دام الله في السماء.

ـ الحمد لله! لقد استنار عقلك ـ هنأه حسن ـ آن الأوان وإلاّ لما كنت علمت لمن سأورث إمبراطوريتي.

ـ لكن قل لي ـ دمدم أبو علي ـ هذه الخارطة الواسعة البيضاء، لو لم تحشر نفسك بها. أين كنت ستجد مكاناً لتقيم فردوسك؟

ـ انتبه، إن الفرق الموجود بيننا، نحن الذين رأينا بوضوح، وبين الجماهير العريضة التي تتسكع في الظلمة هو التالي: نحن قيدنا أنفسنا بينما هم لا يستطيعون، أولاً يريدون ضبط أنفسهم، إنهم يطالبوننا بأن نقودهم إلى اقتحام مجاهل يتعذر على الإنسان بلوغها، لأنهم لا يستطيعون احتمال الشك. وبما أننا كنا منذورين كي نعرف أن الحقيقة الأكيدة غير موجودة أبداً، ترانا مجبرين على أن نخترع أسطورة مخصَّصةً لهم علها تستطيع أن تواسيهم.

ـ الخرافة التي أخرجتها في طريقها لأن تأخذ منعطفاً حسناً ـ أخبرهما بوزروق أوميد، وهو يلقي بنظره على المتراس. بطلنا الثاني بطلنا المقدام أفاق وصبايا أنيسات يرقصن حوله أيضاً.

ـ لنرَ هذا، قال حسن وقد دعا أبا علي إلى المجيء حتى الحاجز للتأكد من الأمر بصحبته.

عندما رفعت زليخة الستار الأسود الذي كان يغطي الشبح النائم، حبسن أنفاسهن جميعاً، كان الخصيان قبل ذلك بقليل قد وضعوا المحمل وسط السرادق، تملكتها الدهشة إذ رأت قدمين كبيرتين تخرجان من تحت الغطاء. لقد بدا لهنّ أخيراً جسد يوسف في بهائه المرعب.

ـ أي عملاق! إنه يستطيع أن يخبئ جادا تحت ذراعيه! همست زوفانا متصنعة الشجاعة.

ـ أتظنين أنك تظهرين بمظهر أكثر بشاشة منها؟ قالت رقية.

كانت زليخة تجثو راكعة بجانب الفتى وترقبه بشيء من الافتتان.

ـ ماذا تحسبينه سيفعل لحظة استيقاظه؟ تساءلت هذه التي يدعونها الصغيرة فاطمة. الصبية الخجولة للغاية.

ـ سيلتهمك! حبيبة لا تفوّت فرصة في مضايقتها.

ـ كفّي عن إخافتها. ألا ترين بأي حال هي؟

ضحكت رقية إثر ذلك ضحكة غريبة، فيوسف من ناحيته كان لا يزال نائماً ولم يقم حتى ذلك الحين إلا بحركة واحدة: استدار على مخدعه كي يتحاشى إزعاج الضوء الذي كان أمام عينيه.

نهضت زليخة وراحت تستشير صديقاتها.

إنه ينام كعضادة حتى أنني حسبتُه، للحظة فقد وعيه، لكن يا له من فتى بهي! ألا يستحق حفلة موسيقية، بل فرقة رقص رشيقة كتحية لصحوته؟

جلست كل واحدة أمام آلتها، وأخذن يغنين بصوت منخفض أغنية عذبة جداً. سحبت كل من زليخة ورقية مزهريهما، وأخذتا تخطيان بضع خطوات راقصة، جادا والصغيرة فاطمة كانتا تشاهدان ما تفعلانه متخوفتين جداً من تقليدهما.

ـ أجبرا نفسيكما على الغناء على الأقل. قالت لهما غاضبة، ولا تكتفيا بفتح فمكما لتخطيئي، لن أدعكما تخدعاني.

كانت أسماء قد أفادت من المشادة كي تعود إلى موضوع افتتانها:

لا يمكن لسوهراب سليل رستم المقدام أن يكون بهذه الهيئة المزهوة.

ـ أعتقد بأنك تتشبهين بالجميلة غوتغريد.

زليخة نفسها أرادت أن تضحك وقد سببت لنفسها هذه الملاحظة اللاذعة.

ـ هل الآنسة التي تتجرأ على الضحك تحسب نفسها جديرة بهذا التشبيه؟

وكجواب وحيد أخذت زليخة التي اتخذت من الرقص سلاحاً فائقاً تموِّج وركيها مستخدمة مفاتنها بطريقة وقحة جداً.

ـ الآنسة تمارس الغوايات ـ أشارت الشابة أسماء بينما كان بطلها يشخر تماماً كما يوسف المصري[1]، غير آبه بزليخة بوطيفار تمتمت رقية.

لقد أسرت الصورة جادا التي اقترحت قصيدة في هذا الموضوع.

رتبن الآلات، وأخذن معاً يضرمن نار الإلهام. لكن مشادة نشبت بعد قليل بين الباحثات عن القوافي... تمطى يوسف من نومه. اتكأ أولاً على مرفقه، نظر حوله وانفجر بضحك وثبت منه الفتيات.

ـ تُبًا لنا! لقد انكشفنا. إنه سمع كل شيء. أخذت زليخة رأسها بين يديها، وبيأس تفحصت صديقاتها بنظرها.

يوسف الذي كان يبذل كل ما بوسعه كي يستطيع فتح عينيه، لم يكف عن الانذهال، والاندهاش من المشهد الذي حبته إياه الحسناوات النضرات.

---

(١) يوسف التوراة.

ـ الله أكبر! ما أشاهده ليس حلماً.

عندما سمعته زليخة يتحدث بهذه الطريقة، عادت إلى رشدها واقتربت منه تتبختر في مشيتها بعذوبة فائقة وأتت تجلس على الأرائك بجانبه.

ـ في الحقيقة، أنت لا تحلم يا يوسف: أنت دخلت الفردوس، ونحن الحوريات الموقوفات لك.

ـ لمسها يوسف بحذر.

نهض، قام بجولة حول البركة، حدَّق في الصبايا بنظرة مرعبة وهن كنّ يلاحقنه بأبصارهن. دون أن ينطق بكلمة عاد نحو زليخة.

ـ اقسم بحياة الشهداء! ـ صرخ ـ لقد كان سيدنا محقاً، أنا الذي لم أكن أصدق ذلك! استلقى على السرير، شعر بنفسه خائر القوى، فمه لا يزال يحتفظ بطعم مرّ.

ـ أين يمكن أن يكون سليمان، وابن طاهر؟

ـ في الفردوس، مثلك تماماً.

ـ إني عطشان.

لتأتينه بالحليب. أمرتهنّ زليخة.

شرب منه قصعة بأكملها.

ـ هل تحس بحالك تتحسن أيها المسافر؟

ـ إني أشعر بتحسن.

ـ هل نستطيع أن نعلم ما الذي أضحكك عندما استيقظت؟

حاول يوسف أن يتذكر. . . . ثم استولت عليه نوبة من الضحك.

ـ لا شيء! قال بعد لحظة. لا شيء سوى أحلام لا بداية لها ولا نهاية.

ـ هل بإمكانك أن ترويها لنا؟

ـ أنتنّ تسخرن مني. . . أصغين إذن، لقد جعلني سيدي أبتلع نوعاً من

حبات السكاكر، وتولد لديّ فجأة شعور بأنني أطير، لكنني إن لم أخدع، قد ألفيت نفسي ممدداً على هذا السرير. . . بحق الأنبياء السبعة! كيف أتيت بعد ذلك إلى هنا؟ ألم أكن قد طرت في الحقيقة؟

ـ بالتأكيد طرت. أيها الطيب يوسف! لقد رأيناك بأمهات أعيننا تطير في الجو حتى وصلت إلى عندنا!

ـ يا الله يا رؤوف! هذه هي إذاً الحقيقة. . . ! ـ أصغين إذاً إلى ما حلمت به بعد ذلك ـ كثير جداً هو ما حلمت به. . . حلقت هكذا فوق صقع فسيح، وصلت فوق صحراء واسعة، فجأة رأيت تحتي ظل نسر يتنقل على الرمل وفي نفس الوجهة التي اتجهتها. قلت في نفسي: طائر كاسر قُذف به لمطاردتي، نظرت إلى الأعلى، إلى الأسفل، ثم إلى اليمين والشمال. ما من أثر للطائر. حركت يدي اليمنى، حركت يدي اليسرى والظل تحتي يقوم بالحركات نفسها مصفقاً بجناحيه «لا بد من أن أقول لكم، بأني كنت أرى دائماً، عندما كنت أنظر إلى قطيع والدي وأنا طفل، ظلالاً تزحف على الأرض، عندما كانت الحيوانات تراها، كانت تخاف وتهرب أمامها. فأنا أعرف جيداً هذه الأشياء»، ربما تكون قد تحولت إلى نسر؟ ـ فكرت ـ فجأة وجدت نفسي فوق مدينة هائلة. لم أكن رأيت لها مثيلاً في حياتي، قصور كجبال، مساجد بقباب مبرقشة، مآذن وأبراج كجيش نصب السهام «ألست فوق بغداد أو فوق القاهرة حتى يا يوسف؟»، حدثت نفسي ثم حلقت فوق بيت فسيح، وقد وصلتني نداءات وصرخات من الأسفل، وصلت أخيراً أمام منارة ارتفاعها يفوق الخيال، ورأسها صقيل كشفرة. في أعلى شرفة من هذا البرج، شخص كان واقفاً عرفت فيه خليفة في الحال. كان يصرخ كمن أصابه مس، يسترسل بكثير من الإيماءات. لقد تهيأ لي بعد ذلك أنه يجيب على تحية أحدهم: انحنى باحترام كتلك المئذنة التي كانت مقوسة أيضاً. التفتُّ لكي أعرف لمن كانت تلك التحية، لكني لم ألحظ أحداً. «إيه يا يوسف ـ حدثت نفسي ـ ها أنت قد سموت إلى

محاذاة الخلفاء، والمآذن تنحني أمامك الآن!» فجأة رأيت في هذا الخليفة ظل سيدنا! انتابتني قشعريرة من ذلك. نظرت حولي وأنا أبحث عن وسيلة للهرب، قفز سيدنا من المنارة في هذه اللحظة كهجرس وأخذ يرقص على ساق واحدة بطريقة غريبة. يحيط به عازفو ناي، إنهم لأشبه بما نسمعه عن الهنود الذين يسحرون الثعابين. أخذ سيدنا يجول على أنغام موسيقاهم. ماذا كنت أستطيع أن أفعل إزاء ذلك؟ انفجرت ضاحكاً، عندئذٍ لمحتكنَ حولي. شيء معجز! لقد تجاوزت الحقيقة خرافات أحلامي!...

ضحكت الفتيات.

ـ حلم غريب في الواقع! ـ قالت زليخة ـ أفليس هذا الحلم نفسه هو من حملك إلينا على جوانح خفية؟

لم يفت على يوسف الذي كان ممعناً في التأمل أن يلاحظ وجود بضع من الطاولات المفروشة بالأطعمة بشكل جميل. أحس بجوع ساغب، ورائحة شهية داعبت أنفه. وعينه اتقدت.

ـ أستطيع أن أخمِّن بأنك ترغب كثيراً في الجلوس إلى المائدة، عاكسته زليخة إنما عليك وبحسب التعليمات أن تستحم لكنك لن تندم على ذلك.

فهذا الماء الذي ترى ـ فاتر بشكل يبعث على النشوة.

جثت عند قدميه وأخذت تفكّ نعليه. واحدة أخرى اقتربت لتخلع عنه جلبابه. أما هو فقد أومأ بحركة ليمنعها عن ذلك.

ـ لا تتمنع يا يوسف الطيب، احتجت زليخة بلطف ـ أنت في الفردوس، كل شيء هنا مسموح، ولا شيء ينتقص الرزانة.

مع ذلك أخذته من يده وسحبته إلى حافة البركة. هناك نزع القماش الكتاني الذي كان يزنر صلبه، وغطس في الماء. الصبية من جهتها رمت بأستارها وأسرعت للحاق به، ضحكت إذ كان قد ترك العمامة على رأسه. انتزعتها منه وعهدت بها إلى صديقاتها. وبدأت تقوم بواجبها في تغسيله بحب، مستخدمة في ذلك كل فراهتها، منهالة عليه بالكثير من الرشقات.

ما أن خرج من البركة وتنشف، حتى أولمن له بالأطباق، انقضَّ عليها بسرور بالغ أراد أن يتذوقها كلها.

ـ الله أكبر! الآن عرفت أنني في الجنة!

قدمن له الخمرة.

ـ ألم يحرمها النبي؟

ـ ألست ملمًا بالقرآن، حتى لا تعلم أن الله قد سمح بها للقاطنين في الجنة؟ لا تخف إنها لن تنال رأسك بأذية.

بما أن زليخة ألحت كثيراً، وبما أنه كان شديد العطش، فقد أفرغ الجرة الأولى بجرعة واحدة تقريباً. جثا إثر ذلك على الأرائك وراح فريسة لنشوة محببة.

شدت زليخة نفسها إليه، وطوقت عنقه بذراعيها.

ـ آه! حبذا لو استطاع سليمان وابن طاهر رؤيتي!

أحس بنفسه كإله، ولم يتورع من أن يروي لهم مآثره الحديثة في مواجهة الأتراك. لم يفت رقية وهي في غمرة إصغائها أن تحرص على ألاّ تقصّر بشيء فقدمت له ما يأكل ويشرب. وعندما انتهى وقت هذه الخطب الجميلة، استحوذت الصبايا على آلاتهن وشرعن في أغنية كنَّ قد ألفنها عمداً.

وقد رق قلبه، وذهل...

جسد زليخة

ممدد كالقوس

بين أيدي الصيّاد

الذي صوّب مباشرة إلى القلب!

من أجل مجد الله

من أجل غاية جدّك

أنت الذي هزمت التركيّ

أفلن تقوم بفتح بلاده؟

يوسف! هي من أجلك!

إنما وعلى الأخص لا تكن أبداً

متحجر العاطفة وبارداً

كذلك المصري

أنظر هي ليست أسيرة أبداً

إليك وحدك، انتصارك

يقدم هذه العيون الجميلة السوداء

وهذه الشفاه الشديدة الاتقاد...

تعلّقت زليخة من جديد برقبته، وأراحت رأسها مقابل رأسه، وأخذت تقبل شفتيه برفق، في حين استرسلت يداها في مداعبات رقيقة. شبق شهواني استولى على الفتى السعيد. عندما هبت صاحبته واثبة، وقد وجهت إشارة إلى الفتيات الأخريات، اندفعن حالاً أمام إلهتهن، وانطلقت هي في رقص عجيب، ذراعاها ترتفعان إلى الأعلى، صدرها منتصب بشدة، أخذت تحرك وركيها بسرعة خاطفة، ثم شيئاً فشيئاً، وبشكل مهيب ظل ما تبقى من جسمها ثابتاً تماماً. كان يوسف يتأملها بعيون مشتعلة. حركات هذه اللحم المرن كانت تثمله كما الخمرة.

ـ الله أكبر! همس منبهراً.

اضطربت زليخة اضطراباً يشوبه نوع من الجنون، بدا جسمها وكأن شلالات من القشعريرة تسري فيه، كل واحد من أعضاء جسمها التي بدت وكأنها ليست منها، كان يعج بالحياة ويتموج على نغم خاص. ثم أخذت تدور حول نفسها عشر مرات، عشرين مرة... بجنون. وطارت كبلبل

بين ذراعي يوسف. كان هو من انهال عليها هذه المرة بالقبل، ضمها إلى صدره أوشك أن يسحقها، لقد نسي وجود الناس ولم يلاحظ حتى أن رقية كانت تقترب على رؤوس أصابعها من هذين الزوجين المتحاضنين وتضع غطاء عليهما. رفع أيضاً بنظره حائراً ومن فتور أنفاسه الذي تلا متعته، كان هلعاً من أن يصحو فجأة في آلموت وأن يكتشف أن كل هذه الاشراقات ليست إلا ثمرة لحلم. لكن عينيه لم تخدعاه: فالصبايا السبع اللواتي كنّ يحطن بزليخة الرشيقة كنّ حقيقيات فعلاً، وهذا الفردوس الذي يشكل مرتعاً لمرحهن، هل هنالك من مكان مكتنز بالأسرار أكثر منه؟ ألم يعد يشعر بألفة رقيقة مع تلك الحوريات؟ ألم تكن الغبطة أكثر بساطة، وأكثر طبيعية مع الاستسلام لمداعباتهن؟ فالأستار الخفيفة التي من المفترض أن تسترهم، قد تركت ذلك الداعر يعجب بأعضائهن الجميلة. التفت عندئذ نحو زليخة وقد كان هذا كي يكشف عن صدرها البارز بخيلاء، ونفحة جديدة من الرغبة تغلبت عليه في الحال... مع ذلك، فإنه لم يكفّ في قرار نفسه عن هذا، وكانت هذه الفكرة تلازمه:

«من سيصدقني عندما سأروي له عند عودتي إلى سجني في قلعتي عن كل ما رأيت؟».

المستبصر مستغرق في هواجسه والصبايا أخذن يهمسن حوله دون أن ينتبه إلى ذلك.

ـ دعينا نلهو قليلاً معه ـ همست رقية ـ متجهة إلى المحظوظة زليخة.

ـ لا حاجة لكُنَّ في التدخل في عملي ـ زجرتهن هذه ـ أنا الآمرة هنا وعندما سأحتاج إليكنّ، سأخبركنّ بذلك.

ـ لاحظن هذه المتعجرفة! هل تظنين أن سيدنا لم يرسلنا إلى هنا إلا كي نتفرج على بعضنا بعضاً؟

كانت رقية محمرة من الغضب.

ـ دعي زليخة تقرر بنفسها ـ قالت جادا بشيء من التسامح.

ـ أصمتي أيتها الصرصار. إنها تريد أن تستأثر به وحدها. وهذا كل شيء...

ـ لكن ألا ترين أن عينيه لا تقعان إلا عليها؟

ـ لم تتركه ينظر حوله.

أمسكت به زليخة هذه المرة من أعلى:

ـ كوني رضية بأنه لم يلحظك. وإلا لكان شك بأنه فعلاً إلى الفردوس.

أوشكت رقية على الانفجار، أما يوسف الذي صحا تماماً فقد كان ينظر إليهنّ. غمزتهنّ زليخة، وتسارعن دون أن ينبسن ببنت شفة إلى الجرار والأطباق. أما هي فقد جثت على ركبتيها عند أقدام الولد ورشقته بابتسامة محببة:

ـ هل الطفل، حبيب قلوبنا، استراح جيداً؟

كان جوابه بأن مرر بيده الثقيلة حول خصرها وجذبها نحوه. وقع نظره، ومن أعلى كتف الطفلة الصغيرة، على جادا والصغيرة فاطمة اللتين كانتا تتأملانه بعيون خجولة وفضولية. وقد مكثتا عاقلتين خلف الجدار في عش من الأرائك. «هاتان الترغلتان ليستا دميتين أيضاً» ـ فكَّر الولد ـ لكن زليخة كانت داهية: ماذا تعاين إذاً؟ أيها الصديق العزيز.

ـ أنا متعجب لرؤيتي كل المصابيح متوهجة في الخارج، قال يوسف المقدام متلعثماً. ما رأيك بأن نقوم بجوله حول الفردوس؟

ـ كما ترغب. سأصحبك للقيام بذلك.

ـ لتنضم هاتان الصغيرتان إلينا أيضاً... وأشار إلى جادا والصغيرة فاطمة.

ـ إن كنت تفضل صحبتهما، فاذهب معهما، أما أنا فأستطيع الانتظار هنا.

قساوة التعنيف الذي أثارته هذه الكلمات أرعبته قليلاً.

ـ أنا لا أضمر الشرَّ ـ قال ـ كل ما في الأمر أني أشفق عليهما لتركهما وحيدتين في ركنيهما.

ـ أصمت لقد فضحت نفسك. ها أنت ذا قد سئمتني.

ـ ليشهد الأنبياء والشهداء أني لا أكذب!

ـ أنت في الفردوس وتجدف؟

ـ إن كنت لا تريدين أن تفهميني يا زليخة فأنت حرة. من العسير جداً أن يبرئ الإنسان نفسه، لكن وبما أنك تحملين الأمر كثيراً، فسأتبعك، وهما ستفعلان ما يحلو لهما.

ابتسامة نصر تخللت الدموع التي كانت تقطر من عيني هذه الغيورة الصغيرة وقد التفتت نحو هاتين المنعزلتين قائلة لهما:

ـ بإمكانكما أن تتبعانا، لتكونا تحت تصرفنا في ما إذا احتجنا إليكما.

عندما صارا في الخارج، رفع يوسف عينيه نحو المصابيح الغريبة التي كانت تضيء الحديقة.

ـ أحد لن يصدقني في آلموت عندما سأحدثهم عما سترى عيناي ـ قال ـ وهو يهز رأسه.

ـ أليس لهم فيك أقل درجة من الثقة؟

ـ لا تقلقي لهذا، من سيتعرض لحديثي بالتشكيك، سيجد رأسه طائراً في الهواء.

ضمّا بعضهما بعضاً برقة، وسارا بمحاذاة الممرات التي كانت تتضوع برائحة الزهور الليلية.

ثلةٌ من الفتيات الأخريات كانت خلفهما بمسافة لا بأس بها نهبة للانتظار والحنين.

ـ يا له من ليل ساحر ـ زفرت جادا ـ ألسنا في الفردوس فعلاً؟

ـ تخيلي إذاً، ما الذي يمكن أن يخطر في بال يوسف الذي يعتقد فعلاً بأنه قد التقانا فيه.

ـ أفلا كنت ستستغربين مثله، لو أنك رأيت نفسك قد نقلت بالطريقة نفسها دون أن تفهمي ما كان يحدث لك وسط هذه الحدائق؟ أرادت أن تعرف أسماء..

ـ لست أدري... ربما لو أنني لم أكن قد رأيت العالم بعد.

ـ سيدنا في الواقع يتمتع بسلطة غريبة. هل تظنين بأن الله هو من ساعده على إعداد هذه الرياض؟

ـ لو كنت مكانك، لما طرحت هذا النوع من الأسئلة يا صغيرتي أسماء. سيدنا قوي قدير، ربما ساحر، ويستطيع أن يسمع أحاديثنا في هذه اللحظة.

ـ أنت تخيفينني يا رقية، تكورت هذه الطفلة الهلعة بتشنج بين ذراعي صديقتها.

على بعد خطوات منهما، كان يوسف يفضي إلى زليخة بالفكرة التي كانت تعذبه:

ـ أراد سيدنا أن يفتح لي حقاً أبواب الجنة لهذه الليلة، أوَتظنين أنه سيمنحني هذا الإذن مرة أخرى؟

اختلجت زليخة، بم تجيب؟

ـ لا أعرف، لكن ما أنا أعلمه علم اليقين، هو أنك عندما ستغادر إلى العالم الآخر، ستصبح سيدنا، وسندين لك بالولاء إلى الأبد.

لم تكن هذه الكلمات لتخفف من كربه. فضم الصبية إليه بنزق الضواري.

ـ أحزين أنت على فراقنا إلى هذا الحد؟

ـ بشكل رهيب.

ـ هل ستفكر بي؟

ـ لن أنساك أبداً.

تبادلا قبلة طويلة، إلا أن رطوبة الليل جعلتهما يرتعشان فصمَّما على العودة.

قد أعاد البرد الصحوة إلى يوسف، فعاد إلى الشرب دون أن يحصي عدد الكؤوس، شعر بأن الخمرة تمده بالشجاعة. بينما كانت زليخة منشغلة بسكب السائل الأحمر، جذب إليه جادا وراح يقبلها.

ـ هل ستكونين لي أيضاً ـ سألها ـ عندما سآتي للإقامة عندكم إلى الأبد؟

وعوضاً عن أن تجيب، طوقت عنقه بذراعيها الصغيرتين، الخمر أعطاها الشجاعة هي أيضاً. لكن زليخة رجعت نحو صاحبها وشرارة من الغضب تلمع في عينيها. توارت جادا في الحال ومضى يوسف يضحك مرتبكاً:

ـ حصل هذا على سبيل المزاح.. حاول أن يبرر سلوكه.

ـ من غير المجدي أن تكذب، لقد كشفتُكَ للتو.

أبدى مبادرة إلى تقبيلها.

ـ دعني وامضِ حيث يدفعك قلبك.

فجأة أدارت له ظهرها... وفي هذه اللحظة بأن وجه أباما من خلف الزجاج، والتي كانت تنظرها بعين مستنكرة. انحسرت الرؤية في الحال، لكن المدة القصيرة التي استغرقنها كانت كافية لتعيد إلى زليخة صحوتها. التفتت وصارت من جديد بين ذراعي عشيقها.

ـ أوه يوسف، أنت تعلم جيداً يا يوسف أنك سيدنا... سيد الجميع بأسرهنّ، أردت فقط أن أستفزك.

أخذته من يده وسحبته برفق نحو صاحباتها.

ـ سُدْ هذا المكان واخترْ من تشاء.

تسارعن كلهنّ نحوه وقد اجتهدن لإثماله بالخمر والمداعبات. فاض

قلبه بالخيلاء والمتعة معاً، نعم لقد كان سيد ورب هذه الجميلات الثماني. فهن قد تملكنه قلباً وقالباً مثلما احتوت هذا السرادق الأسطوري، هذه الحدائق كما في الأحلام... تعاوده أحياناً هذه الفكرة المعذبة، حول الساعة التي كانت تدور، وحول الوداع الذي صار قريباً، لكن جرّة جديدة من الخمر كانت كفيلة بإزالة هذا الخوف.

صدرت الإشارة أخيراً. هرعت زليخة تحضر شراب النسيان. كانت يدها ترتجف عندما رمت القرص المشؤوم في الكأس، عندما رأتها جادا تقوم بذلك كتمت زفرتها، وغطت فاطمة عينيها بيدها.

وبسلامة نية، شرب يوسف الكأس مثلما شرب الكؤوس الأخرى، غطّته الشابات وهن ترتجفن، ونفثة باردة مرت فوقهنّ، بدا لهنّ أن النور قد خبا فجأة.

في أعلى البرج كان أبو علي ما زال يعرب عن حيرته...

ـ على أية حال إني لا أجد في الواقع ـ ختم قوله متجهاً إلى حسن ـ النتائج التي تأمل بلوغها على يد حشاشيك حتى ولو نجحت تجربتك هذا المساء.

هل ترجو فعلاً أن تبني عليهم منعة ونفوذ تأسيسك؟

ـ دون أي شك ـ لقد درست عن كثب الأمور السياسية المختلفة التي قدم لنا التاريخ عبرة منها. وازنت بين محاسنها ومساوئها. ما من سلطان مطلق كان حراً، العائقان الأساسيان في نابض الإمبراطوريات كانا الزمان والمكان.

لقد اجتاح الاسكندر المقدوني نصف العالم بجيوشه، أخضعه، لكنه لم يكن بعد قد وصل إلى أوجه عندما باغته الموت. مدَّ حكام روما هيمنتهم جيلاً بعد جيل، ولم يتركوا موضع إصبع في الأرض إلا وفتحوه بحد السيف. فلو أن المسافات لم تكن تكبحهم، لكان للزمن أن يقصّ أجنحتهم. محمد وخلفاؤه أوجدوا وسيلة أفضل، فقد أرسلوا بمبشرين في

مواجهة العدو، كانت مهمتهم تقوم على إخضاع العقول. والعقبة التي كان عليهم تذليلها انتهت كذلك. فسقطت البلاد بين أيديهم، كما تسقط الثمار الناضجة، إنما هناك وحيث الفكر كان قوياً عند المسيحيين مثلاً فإن غاراتهم قد تحطمت. فاستعملت كنيسة روما منهجاً أكثر صلاحية، الخلافة فيه، لا تقوم على رابطة المنبت ولا الدم ـ كما هو عليه الحال للأسف عند الخلفاء المسلمين ـ وتتعلق بسمو المسألة الروحي.

وحده العقل من يستطيع أن يرتقي حتى الذروة، بالإضافة إلى أن هذا الإيمان بقيم العقل هو من يلاحم جماعة التابعين إلى الصليب في كُلٍّ واحد قادر متماسك. وهكذا يبدو أن الكنيسة[1] عملت على التخلص من عبودية الزمن، فحيث لم تبلغ تأثيرها، تكون دون سلطة. عليها أن تدرك هذا الأمر، وأن تتناقش وتتآلف مع أخصامها، وأن تبحث عن حلفاء أقوياء. . . أمّا أنا فقد ابتكرت تأسيساً سيكون قوياً ـ بذاته ـ بما يكفي كي لا يكون بحاجة إلى أي حليف. حتى الآن فإن السلاطين تحاربوا بجيوش، بهذه الجيوش فتحوا أقاليم جديدة، وقهروا خصوماً أشداء، ومئات من الجنود سقطوا في سبيل فدّان من الأرض. . . نادراً ما كان لدى السلاطين، ما يدعوهم للخوف على حياتهم، والحال كذلك، فإنما إليهم حصراً نحن نوجه طعناتنا. فعندما تضرب الرأس يتهاوى الجذع، الملك الذي يعرف أنه يجازف برأسه، يقدم ببساطه المزيد من التساهلات. السيادة إذاً تكون لذاك الذي يكبل كل ملوك العالم بأغلال الخوف، وكي يكون الخوف فعّالاً فيجب أن يصنع بوسائل شجاعة.

ذوو السلطان يكونون محميين ومؤمنين جداً، وحدهم فقط من لا يخشون الموت، بل من يبحثون عنه، في مثل هكذا ظروف من يستطيعون تهديدهم. تربية هكذا كائنات هو ما تتبناه تجربتنا في الوقت الحاضر. نريد أن نجعل منهم خناجر حية، والذين بإشارة واحدة يخضعون لنا وللزمان

(١) نحن في عام ١٠٩٢ بعد ثلاث سنوات سيبشر البابا أوربان الثاني بالحروب الصليبية.

وللمكان. ليبذروا الرعب والارتجاف في كل مكان: ليس بين العامة، وإنما بين الملوك والكهنة. ليأخذ خوف قاتل بهؤلاء الأقوياء الذين يريدون الوقوف في وجهنا.. لقد تلا هذه الكلمات ضمن صمت مطبق، لم يتجرأ الداعيان لا على أن ينظرا إلى حسن، ولا على أن ينظرا إلى بعضهما البعض. في الختام كان بوزروق أوميد من قرر أن يتكلم:

ـ كل ما قلته لنا حتى الآن يا ابن الصباح هو من أبسط وأوضح ما يكون، لكنه في الوقت نفسه خارق ومرعب، بشكل يبدو لي فيه أنه لا يمكن لخطتك أن تكون ثمرة لدماغ بشري. أقصد دماغاً مكوناً بحسب القوانين الوضعية لهذا العالم المألوف بالنسبة لنا. من الأجدر أن أعزوها إلى واحد من هؤلاء الحالمين الغامضين الذين يقيمون الحلم مقام الحقيقة.

ابتسم حسن.

ـ إني أحس بأنك أيضاً تحسبني مجنوناً، مثلما فعل أبو الفاضل في الماضي وهذا لأنك لم تبحث عن الحقيقة أبداً إلا عبر الدروب الممهدة، كم يجب أن يبدو لنا بعكس ذلك، أكثر معقولية ذلك الذي وضع لنفسه مخططاً لم يسبق له أن جُرب من قبل، ونفذه حينئذ. وهكذا بالنسبة إلى محمد ـ كي لا نذكر غيره ـ فقد كان في بداياته سخرية لكل من كانوا حوله: لم يجدوا فيه عندما كان يحدثهم عن مشروعاته إلا حالماً نصف مجنون. النجاح النهائي لمشروعه أظهر أن حساباته ـ وحساباته وحدها ـ كانت مع ذلك معقولة.. لا اعتراضات الشكوكيين. حسنٌ، أنا أيضاً أريد أن أضع خطتي في التجربة الفعلية!

ـ لن يكون هناك ما نعترض به على استنتاجك، لو كنا متأكدين من أن فدائييك سيخضعون إلى التحول الذي تحلم به. ـ قال أبو علي ـ لكن كيف ستحملني على الاقتناع بأن في مقدور الحي أن يصبو إلى الموت. أهو الإيمان الراسخ الصلب كالحديد بأن الجنة تنتظره في العالم الآخر؟

ـ لا تستند فرضيتي إلى معرفة النفس الإنسانية فقط. وإنما أيضاً على دراسة الأواليات «mecanismes» التي تحكم الجسد، لقد طفت نصف

العالم على الحصان، على ظهر بغلة، أو على سنام جمل، سافرت مشياً على الأقدام أيضاً وعبر البحار. عرفت عدداً لا يحصى من الناس، من عاداتهم وتقاليدهم. أستطيع أن أقول إنني حتى الآن اكتسبت خبرة في كل الفعاليات التي ترضي الإنسان. أستطيع حتى أن أؤكد أن الميكانيكية الإنسانية، الروحانية كما الجسدية هي ككتاب مفتوح أمامي. عندما سيستيقظ الفدائيون في آلموت سيأخذون يتأسفون أنهم لم يعودوا بعد في الفردوس، سيخففون من أحزانهم هذه عندما سيروون لرفاقهم ما رأوا. في غضون ذلك سيفعل الحشيش فعله في أجسادهم، وسيوقظ فيهم رغبة لا تقهر بتعاطيه من جديد. وسترتبط بهذه الرغبة في تفكيرهم دائماً بصورة النعم التي سيتذوقونها في فردوسي. سيستعرضون في مخيلاتهم محبوباتهم الصبايا، وسوف تضنيهم هذه الرغبة، سيتجدد في عروقهم نسغ الحب مولعة فيهم هوىً يجاوز الجنون ـ شيئاً فشيئاً ستصبح هذه الحالة بالنسبة لهم غير محتملة، حكاياتهم وأشباح خيالاتهم، ستسري إلى كل من يعاشرهم، وفوران دمائهم سيغشي عقولهم. لن يفكروا أبداً، لن يتبصروا إنما فقط سيحترقون بالرغبة. سنخفف من آلامهم، عندما يؤون الأوان: سنوكل إليهم بمهمة وسنعدهم بأن الجنة ستكون إثر ذلك مفتوحة لهم. سينجزونها، ويفارقون من أجلها الحياة. وهكذا سينشدون الموت وسيهلكون وهم يبتسمون من الغبطة. . .

ظهر على الشرفة خصي في تلك اللحظة، وجاء ليمثل أمامه:

ـ سيدنا، أباما ترجوك بالمجيء مباشرة إلى حديقة الوسط.

ـ انسحب حسن للحظة ـ عندما عاد بعد قليل ـ أفضى إليهما بصوت مضطرب.

ـ يبدو أن عند أبن طاهر شيئاً ليس على ما يرام.

شد معطفه عليه، والتمس الممر الذي كان يفضي إلى أسفل البرج.

الفصل الثاني عشر

كان صمت الخصيان كصمت القبور، وهم يحملون جسد ابن طاهر، أراحوه دون أن ينطقوا بكلمة، وبنفس الوقار، كأشباح شريرة قادمة من عالم آخر تواروا وهم يحملون المحمل الخفيف.

انشدت صفية نحو خديجة محدقة، مذعورة، في الشكل الثابت الذي كان الغطاء الأسود يرسم حدوده. أما الصبايا الأخريات، فقد كنّ يجلسن حول بركة الماء وكأنهن قد تحجرن. كانت مريم جاثية عند منصة صغيرة تستند إلى قيثارتها، تحدق أمامها ساهمة العينين، أخذ ألمها الآن بالاضطرام. هكذا إذاً لمَّح حسن بأنه أرسل لها عشيقاً! لقد اعترف بذلك، فقد خانته عن دون قصد، كرهت الآن من أحبته كثيراً، أجل، كان عليها أن تكرهه، وكرهت في نفس الوقت ذلك الفتى المجهول، ذلك الكائن النائم، الميقان، والذي عهدوا إليها برعايته هذه الليلة. ليخدعه حسنها ومكائدها إذ ستحمله بذلك على الاقتناع بأنه في الفردوس! كم كانت تحتقر نفسها!

تحرك الجسد تحت الغطاء، والصبايا حبسن أنفاسهن.

ـ روخانا! ارفعي الغطاء عنه.

امتثلت روخانا، لكن حركاتها كانت مترددة. لا بد لوجه ابن طاهر أن يذهلهن، بوجنتيه الملساوين، يظللهما بشكل خفيف زغب ناعم، كان

يبدو كطفل. انزلقت عمامته البيضاء عن رأسه، وقد كشفت عن شعر كثيف حلق للتو، أهداب طويلة تحيط بأجفانه، وشفاه زاهية تبدو متقلصة قليلاً.

ـ كذا يكون ابن طاهر الشاعر؟ همست خديجة.

ـ . . . إنه هو من انتزع الراية من الأتراك، أضافت سيت.

ـ إنه جميل، أكدت صفية.

أتت مريم بدورها لتتأمل النائم، وابتسامة هامت على وجهها.

لم تتصور ضحيتها بهذا الشكل. إذاً هذا هو البطل الشاعر؟ وجدت ذلك غريباً:

«إنه فعلاً لا يزال طفلاً»، قالت متأملة وقد أحست بشيء من العزاء. هل ستستطيع أن تقنعه على الرغم من ذلك بأنه كان في الجنة فعلاً؟ هذه المسألة جعلت قلبها يخفق. وللحقيقة، فإن المهمة التي كلفها بها حسن قد حيرتها، هل كان سيدهم يريد في الحقيقة أن يكشف عن نفسه في جو سحرّي! ما من أحد يشك بوجود بعض صفات الساحر فيه. من الممكن لمشروعاته أن تكون إما طائشة أو مفعمة بعظمة غامضة. لقد حرك الآلة، وكانت هي واحد من دواليبها الأساسية. ألم يكن في هذا علامة ثقة؟ ألم يكن طيشها وحده هو من منعها من الدخول في مشروعات هذا الرجل المتميز؟ لأن الأمر المهم في النهاية كان شهوتها! ولا بد أن تأخذ في الاعتبار أن حسناً قد منحها ـ ربما ـ فرصة وحيدة كي تولد إلى الحياة من جديد، أما هذه فهل تستطيع أن تمنحه غير المغامرات الساخرة. . . والتي لم تكن في النهاية إلاّ مجازفة؟

كانت صديقاتها أيضاً يظهرن وقد تخلصن من عبء كبير. حتى الخجولة صفية، التي صرخت:

ـ من غير الجائز أن تتعذر قيادته إلى جنان الله!

أخذت مريم تدندن بقيثارتها.

ـ هيا بنا، آن الأوان كي نعود إلى الرقص والغناء!

اتسع لهن الجو حالاً، رحن يبحثن عن المزامير والمزاهر، سقطت الملابس، وكشفت عن أجسام غضة بأعضاء رشيقة. كم كن يرقن للنظر وهن كذلك! قالت مريم متأملة، وقد ابتسمت لهن عندما رأتهن يحاولن القيام بحركات ومظاهر الإغواء، كما لو كان ذلك الضيف الغريب يراهنَّ بعينيه.

ـ لن يفيق أبداً خلال وقت قريب. قالت الوادعة سيت خائبة وهي تضع المزهر والصنبخ.

ـ لنرش عليه الماء ـ اقترحت روخانا.

ـ أنت مجنونة! وبختها خديجة. سيكون في هذا مدخل جميل إلى الفردوس.

ـ تابعن إذاً الرقص والغناء ـ نصحتهن مريم ـ سأحاول مساعدته كي يعود إلى رشده.

جثت قربه، وأخذت تنظر في تفاصيل وجهه، كانت قسماته صافية، تعلوها مسحة من النبالة. وبيدها هزته من كتفه، فأحست بأنه يختلج. تمتم بضع كلمات لم يستطعن فهمها. كان التخوف والفضول يتنازعان قلبها. ماذا كان سيقول، ماذا كان سيفعل وهو يكتشف هذا المكان المجهول؟

نادته باسمه بصوت خافت، نصب رأسه في الحال وجلس على مخدعه، وهو يفرك عينيه. ألقى بنظرة مضطربة حوله.

ـ ماذا يكون كل هذا؟

صوته كان مذعوراً مرتجفاً.

توقفت الصبايا عن غنائهنّ وعن رقصهنّ، وأخذت وجوهنّ تعبر من جديد عن توتر حاد.

عادت مريم توّاً إلى رشدها.

ـ أنت في الفردوس يا ابن طاهر.

فتح عينيه الواسعتين ثم ألقى برأسه على الأرائك.

ـ كنت أحلم ـ همس.

ـ لقد سمعتن ـ همست خديجة مذعورة ـ إنه يرفض الاقتناع بذلك.

فكّرت مريم على خلاف ذلك، فبداية كهذه كانت مشجعة. لمسته أيضاً من كتفه ونادته باسمه.

كان نظر الفتى معلقاً في وجه مريم. شفتاه ترتجفان، واندهاش لا يستبعد أن يكون نتيجة للخوف الذي كان يرتسم في عينيها. تأمل جسده، تفحص نفسه بهيئة مشككة، وأخذ يراقب الحجرة حوله. ثم مرّ بيده فوق عينيه. كان وجهه شاحباً كالشمع.

ـ لا يمكن لهذا أن يكون حقيقياً ـ تمتم ـ هذا شيء من الجنون... أو من الخداع!...

ـ جاحد يا ابن طاهر! أهكذا تكافئ ثقة سيدنا؟

وبهدوء غمرته مريم بابتسامة عاتبة، هبّ واقفاً وشرع يتفحص الأشياء التي كانت تحيط به بطريقة حائرة. اقترب من السرير لامسه، سار حتى حوض الماء غطّ فيه إصبعه، ثم رمق الصبايا بنظرة مذعورة، والتفت نحو مريم.

ـ إني لم أفهم أبداً ـ قال بصوت مرتجف ـ فقد نادانا سيدنا ودعانا لنتناول أنواعاً من الحبات الملبّسة، إن لها طعماً خاصاً، فهي حلوة ومرة في الوقت نفسه. نمت، رأيت حلماً غريباً، وها أنذا أصحو في هذا المكان... ماذا يوجد هناك في الخارج؟

ـ إنها الجنان: أنت تعرفها بما أنك قد قرأت القرآن.

ـ أتشوق لزيارتها....

ـ سأصطحبك إليها. لكن ألا تريد أولاً أن تستحم وتأكل شيئاً؟

ـ سيكون لدينا الوقت لذلك في ما بعد ـ يجب أولاً أن أعلم أين أنا.

مضى باتجاه الباب، ورفع الستارة. أخذته مريم من يده، وتقدمته في الممر، ولدى وصولهما إلى أعلى السلم الذي يفضي إلى الشرفة، توقف، ولم يستطع أن يكتم صرخته وهو يكتشف آفاق تلك الجنان المضاءة.

ـ أي مشهد رائع. ها نحن بعيدين فعلاً عن آلموت... لم أسمع في حياتي أن شيئاً كهذا يمكن له أن يكون موجوداً في مناطقنا. لا بد لي فعلاً من أنني قد نمت كثيراً كي أجد نفسي وقد نقلت بعيداً جداً عن كل شيء!

ـ ألا يرهبك بأنك نطقت بهذه الزندقة يا ابن طاهر؟ ألا تريد أن تصدق أنك فعلاً في الجنة؟ ستة آلاف من الأميال تفصلك عن عالمك. ومع ذلك فإنك عندما ستصحو من جديد في آلموت فسوف يكون ذلك خلال ليلة واحدة.

ـ حدق فيها بإمعان. ومن جديد أخذ يتحسس جسمه.

ـ أنا أحلم إذاً؟ على آية حال ليست هي المرة الأولى التي تحصل لي في الحلم، بأن أتصور الخرافة على أنها حقيقة... لقد رأيت نفسي أسكن دار أبي ثانية، أفتح وعاءً مليئاً بالقطع الذهب. أذكر كيف تكونت هذه الفكرة عندي: فطالما حدث لي أن حلمت بأني أكتشف كنزاً. إنما هذه المرة، فلا مجال للشك، لقد أضحت هذه السعادة حقيقية! قلبت الإناء فسقطت منه القطع الذهب فانكببت أحصيها، ضاحكاً في سريرتي: «والله العظيم! هذا ليس حلماً» ـ صرخت ـ وفي هذه اللحظة بالذات، مغامرتي لم تكن في الحقيقة إلا حلماً. تستطيعين بكل سهولة أن تتخيلي مدى خيبتي، يجب إذاً ألا أختلق لنفسي الكثير من الأوهام. هذا الحلم غير معقول. حقاً إن هذا الحلم لعجيب بالنسبة لإدراك ولحياة، غير معقولين. إنما من الممكن جداً أن يكون نتيجة لحبة دواء سيدنا. فأنا لا أريد أن تكون صدمتي قوية جداً عند صحوتي.

ـ هل تعتقد إذن يابن طاهر، أني لست إلا صورة عن أحلامك؟ إصح إذاً، أنظر إليّ، ألمسني!

تناولت يده وأخذت تمررها على أطراف جسمها الأخاذ.

ـ ألا تشعر بأنني كائن حي مثلك؟

ثم، وهي تأخذ رأس الفتى بين يديها، نظرت في بؤبؤي عينيه. لقد كانا يختلجان.

ـ من أنتِ؟ سأل بصوت ما زال الشك يتخلله.

ـ أنا مريم فتاة من الفردوس.

هزَّ رأسه، ثم قرر أن يهبط السلم أخيراً. شرد لهنيهة تحت الفوانيس المبرقشة بالألوان، والتي كانت الخفافيش وفراشات الليل تحوم حولها. نباتات غريبة كانت تنمو على جانبي الدرب الضيقة.. زهور وثمار ما سبق له أن رأى مثلها قط.

ـ كل هذه الأشياء خلاّبة ـ همس ـ أجل، في الحقيقة، وطن حقيقي للحلم..

كانت مريم تسير بجانبه.

ـ أفلم تعد إلى وعيك بعد؟ حاول أن تستوعب أنك لست على الأرض، وإنما في الفردوس.

أصوات موسيقى وأغانٍ تعالت خلال الليل: يبدو أن هذا يصدر من السرادق. توقف وأصاخ السمع.

ـ هذه الأصوات هي على الأرجح أصوات أرضية، وأنت أيضاً تملكين صفات بشرية، بحتة، كيف يسعني أن أتصور أننا في الفردوس؟

ـ هل أنت جاهل في القرآن إلى هذا الحد؟ ألم ينزل في الكتاب أن عجائب الفردوس، هي صورة عن محاسن الأرض، بحيث يشعر المؤمنون

كما لو أنهم عادوا فعلاً إلى مساكنهم؟ ما الداعي إلى الاستغراب لو كان إيمانك صادقاً؟

ـ كيف لا أستغرب؟ هل يستطيع كائن حي من لحم ودم أن يدخل الفردوس؟

ـ هل بمفهومك أن النبي قد كذب؟

ـ ليحفظني الله من هذه الأفكار!

ـ أفلم يأتِ، هو نفسه إلى هذا المكان بعد إقامته على الأرض ألم يمتثل بلحمه ودمه أمام الله! ألم يقل بأن اللحم والعظم سينشآن من جديد يوم الحساب؟ كيف تتصور أنك ستستهلك الأطعمة والخمر التي ستقدم إليك هنا وكيف ستستمتع بالحوريات لو لم تكن شفاهك شفاهاً حقيقية وجسدك جسداً حقيقياً؟

ـ يجب ألا تكون لنا قسمة في هذه المكافأة إلا بعد الموت.

ـ هل تحسب أن الله سيأخذك بشكل أسهل إلى الفردوس عندما ستفارق الحياة؟

ـ أبداً. إنما هكذا قد كتب.

ـ لقد كتب أيضاً بأن الله قد أعطى لسيدنا المفتاح الذي يستطيع به أن يفتح لمن يريد باب هذه الرياض، فهل تشك بذلك؟

ـ إنني أبله! كان عليّ أن أكف عن إقناع نفسي بأن وجودي هنا هو مجرد حلم... إنما كل هذا، هذه المحادثة معك، ظهورك، هذا المحيط، كل هذا يعج بالحياة بحيث أشعر أني مستعد لأن أرزح تحت الوهم... ولأن آمل حتى، لعلَّ هذا لا يكون واحداً من أوهامي.

«أية لعبة شيطانية حرجة» فكرت مريم.

ـ هكذا أنت تكتفي بالأمل... مما يعني أنك لا تزال لا تؤمن. يا ابن طاهر! عنادك يدهشني. انظر إلي مرة أخرى جيداً.

ـ كانا قد توقفا تحت مصباح، رسم فوقه رأس نمر. بوزه فاغر، وعيناه لامعتان، كان ابن طاهر يتأمل ملياً الشكل المبرقش حيناً، ووجه الصبية حيناً آخر. فجأة شمّ رائحة عطر جسمها تصعد إليه. فكرة جديدة وطائشة اجتاحته. لا بد أن أحداً كان يهزأ منه.

ـ إنها لعبة شيطانية!

شرارة قرار متوحش أشعت في عينيه.

ـ أين سيفي؟

وبغضب، قبض مريم من كتفها.

ـ اعترفي أيتها المرأة أن كل هذا ليس إلا خدعة وقحة!

على بعد خطوتين، سمع صرير رمل الممر، وشكل مبهم انقض عليه، وجره بتثاقل على الأرض. أخرسه الخوف وقد لمح فوقه عينين خضراوين شرستين.

ـ أهريمان!

أمسكت مريم بالفهد وخلّصت الفتى البائس.

ـ هل تصدقني الآن؟ أوشكت أن تخسر حياتك.

لبد الحيوان المدجن عند أقدام الفتاة، ونهض ابن طاهر. كان لا بد لخوف كهذا من أن يوقظه بأن ما حصل معه لم يكن حلماً. كانت مغامراته واقعية إذاً؟

إنما أين هو بالضبط؟ نظر إلى مرافقته التي انحنت على السنور الرشيق، ذي القوائم الطويلة، أدار الحيوان ظهره العريض واستسلم لمداعبتها وهرَّ بطريقة ودية.

ـ ليس العنف شريعة الأمة في الفردوس يا ابن طاهر.

ضحكت بلطف ضحكة أصابت الفتى في الصميم. ما المشكلة؟ مذ ذاك، فيما لو كان ضحية وهم! ما المشكلة في أن يكون قد حلم، لا بد

أن يصحو يوماً من هذا الحلم! ما كان يعيشه كان غير عادي، معجزاً رائعاً. هل من المهم أن يكون واقعياً؟ مشاعره كانت كذلك، وهذا ما كان بالنسبة له الشيء الأساسي.

من الممكن أن يكون قد انخدع بحقيقة الأشياء، لكن ليس من الممكن أبداً أن يكون قد انخدع بحقيقة مشاعره وأفكاره.

نظر حوله، هناك في البعيد في أشد عتمات الليل هُيِّىء إليه أنه لمح كتلة قاتمة تنتصب نحو السماء. لا بد أنها نوع من قلعة هائله. وضع يديه كواقية فوق عينيه كي يحميهما من الضوء وأخذ نظره محاولاً اختراق العتمة.

ـ ما هو ذلك الشكل الأسود الذي ينتصب هناك كجدار يتطاول نحو السماء؟

إنه سور الأعراف الذي يفصل الجنة عن النار.

ـ أعجوبة خارقة! لقد هُيِّئ لي أني أرى ظلاً يتحرك إلى الأعلى.

ـ هذا دون شك ظل أحد هؤلاء الأبطال الذين سقطوا وأسلحتهم في أيديهم في سبيل الإيمان الصحيح. أما الذين كانوا على حظٍّ عاثر، إذ اندفعوا إلى القتال رغماً عن إرادة أهليهم، فهم الآن ينظرون إلى رياضنا بحسد، لا يستطيعون المجيء إلى هنا لأنهم خالفوا وصية الله الرابعة. والنار ليست لهم لأنهم ماتوا شهداء، لذا فقد سمح لهم بتأمل ما يجري في كلتا الجهتين عبر هذا الحد المتعذر العبور فنحن نتمتع وهم يتفرجون.

ـ أين إذاً هو عرش الله؟ أين دليل رحمته الأبدية؟ أين هم الأنبياء والشهداء؟

ـ لا تتخيل الفردوس على هيئة بعض الضواحي الأرضية يا ابن طاهر. إذ إن أبعادها تفوق كل حد. تبدأ من هنا عند أسفل (الأعراف) وتمتد عبر سبع طباق سرمدية حتى الحلقة النهائية الأكثر سمواً وحدهما من بين كل الأحياء النبي وسيدنا من تبوآها. أما من أجلكم، فقد أعد هذا القسم البدئي.

ـ أين يوسف وسليمان؟

ـ هما أيضاً تحت الأعراف لكن رياضهما بعيدة من هنا غداً في آلموت سيكون لديكم الوقت لأن ترووا مغامراتكم وتتناقلوا انطباعاتكم إلى بعضكم بعضاً.

ـ نعم، إن ترك لي نفاد الصبر مجالاً لذلك.

ـ إن كان الفضول يعذبك، فما عليك إلا أن تسألني.

ـ قولي لي إذاً! من أين أخذت هذه المعرفة؟

ـ لقد خلقت كل واحدة من الحوريات بطريقة خاصة، لأغراض خاصة، فالله هو من أعطاني علمه، وهو من منحني القدرة على تسكين المؤمن الصالح الذي يؤرقه ولعه بالبحث عن الحقيقة.

ـ إني أحلم، أحلم... همس ابن طاهر ومع ذلك فما من حقيقة تبدو لي أكثر وضوحاً من هذا الحلم، كل ما أراه، كل ما يظهر لي في هذا التجلي يتجانس ليشكل أعجوبة، على خلاف ما يحدث في الأحلام العادية التي ما هي على الأرجح إلا عبارة عن أشياء مفككة وغامضة. إلاَّ إذا كان هذا ثمرة لقدرة سيدنا الفائقة.

كانت مريم ترهف السمع لهذه الأفكار.

ـ إنك غير قابل للتقويم يا ابن طاهر، هل تظن فعلاً أنك وبقواك العقلية الزهيدة تستطيع أن تحيط علماً بكل أسرار الكون؟ كم هناك من الأشياء التي لا بد لها أن تبقى خفية محجوبة عن عينيك!... لكن دعنا من هذه المباحثة، فقد حان الوقت كي نعود إلى عند الحوريات اللاتي يتلهفن بكل جوارحهنّ للقاء ضيفهن العزيز...

أفلتت أهريمان، وطردته إلى الأدغال. ثم أخذت ابن طاهر من يده وسحبته راكضة حتى السرادق.

عند وصولهما إلى أسفل السلم، وليس ببعيد عنهما سمعت صفيراً

خفيفاً، لا شك أن أباما كانت تصغي، وهي تريد الآن أن تتكلم إليها. قادت ابن طاهر إلى القاعة الزجاجية الكبيرة ودفعته برفق نحو الصبايا.

ـ ها هو ذا! أعلنت، واحتجبت إثر ذلك برشاقة.

أباما كانت تنتظرها عند أسفل الدهليز.

ـ يسرك أن تجازفي برأسك علناً! هكذا إذاً تنفذين أوامر سيدنا! فبدلاً من أن تسكريه، وتجعليه يفقد رشده، تفلتين لنفسك العنان بالتحدث معه عن الله، عن الفردوس، ولست أدري عن ماذا أيضاً، في الوقت الذي يمتلك فيه كامل قواه.

ـ لي تفكيري، وأنا من تقدر ما يجدر فعله.

ـ هكذا إذاً؟ هل تحسبين أنك تستطيعين إغراء رجل وأنت تجتمعين به بهذه الطريقة؟ ألم تتعلمي شيئاً مني إذاً؟ ما الفائدة إذاً من أنك تملكين شفتين حمراوين، وذراعين جميلتين بيضاوين؟

ـ من المستحسن أن تبتعدي يا أباما، ربما تمكن من رؤيتك، وعندها سيفقد أوهى اعتقاد في إيمانه بفردوسنا.

كانت أباما تود أن تمزقها بنظرتها.

ـ أيتها العاهرة. قامري بحياتك إن كان ذلك يناسبك. لكن واجبي أنا أن أعلم سيدنا بذلك، انتظري فقط.

توارت في عتمة الأدغال، ومريم أتت بمنتهى سرعتها لتلتقي الأخريات في داخل السرادق، كانت الصبايا قد اجترعن قليلاً من العصير الذي امتلأت به الجرار مغتنمات فرصة غيابها وغياب ابن طاهر، كن يرقصن ويغنين، وبمزاج صاف للغاية اجتذبن ابن طاهر إلى حلقتهن ودعونه كي يتناول ما أعددنه من أجله من المآكل اللذيذة والخمر.

عندما عادت مريم صمتن للحظة. لاحظن الضيق الذي كان يقرأ على وجهها، وخشين من أن يكنّ هن من سببن لها ذلك.

فأسرعت لتطمئنهن.

ـ يجب أن يستريح ضيفنا من عنائه الأرضي. لتكنّ تحت تصرفه، ولتساعدنه في الاستحمام.

رفض ابن طاهر بشكل جازم.

ـ لن أستحم بحضور تلك النسوة.

ـ أنت سيدنا وسنفعل ما تأمرنا به.

دعت مريم الصبايا إلى اللحاق بها خارج الصالة. عندما اقتنع ابن طاهر أن أحداً لن يراه، وثب خارج مخدعه، أمسك بالأرائك، تفحصها، فتش تحتها، ثم اقترب من الطاولة المفروشة بما لذ وطاب، التهم حبة، ثم واحدة أخرى من الفاكهة التي لا يعرف أكثرها، بحث في ذاكرته علّه يسترجع ذكرى شيء يعرِّفه بها. ثم اقترب من السجاد الذي كان يغطي الجدران، نظر وراءه، لم يجد شيئاً يرشده إلى المكان الذي يتواجد فيه. توجّس خفي استولى عليه. هل من الممكن فعلاً أن يكون في الفردوس؟ كل ما يحيط به يسلط الضوء على اللغز، على المجهول. لا، إنه وادٍ غني جداً بحدائقه المليئة بالأزاهير الغريبة، وهذه الفواكه لا بد أن تكون مجلوبة من أقاليم بعيدة، من المستحيل لشيء من هذا أن يوجد في الإقليم الجبلي والقاحل الذي يحيط بآلموت. هل من الحقيقي أن يكون قد امتثل أمام الرئيس الأعلى في هذه الليلة؟ إن كان الأمر كذلك فليس هناك إلا احتمالان:

فإما أن يكون هذا الحلم الكاذب الذي كان أمام عينيه نتيجة مذهلة للشراب الذي قدمه له سيدنا، وإما أن تكون الدعوة الإسماعيلية حقيقية، وسيدنا كان حقاً يملك القدرة على إرسال من يريد إلى الفردوس. وهو في ذروة حيرته وإرهاقه، خلع جلبابه، وغطس في البركة... كان الماء عذباً ودافئاً، تمدد على ظهره وراح في استرخاء لذيذ، لم يكن يرغب في الخروج من حوض الماء، على الرغم من أنه كان يعلم أن من الممكن

للصبايا أن يعدن بين لحظة وأخرى. انفرجت الستارة وبدا وجه إحدى المضيفات تحيط به الفرجة كالإطار. ولمّا ابتسم لها دون أن يجفل، أزمعت على الدخول وتبعتها بعد قليل مرافقاتها الصغيرات.

انتهى الأمر بابن طاهر لأن يستوعب بأنه كان السيد هنا! هيأت رقية نفسها.

ـ عندما تخرج من حمامك، فما عليك إلا أن تومئ بذلك. ونحن سنحمل إليك الثياب.. كن يتنافسن في التعبير عن الحفاوة، لكنه أحس بقلبه ينقبض لدى مجيء مريم للانضمام إليهن. طلب منشفة وشيئاً يرتديه. وبدلاً من الجلباب قدمت له ثوباً زاهياً من البروكار. عندما ارتداه وركّز عليه الحزام، استدار نحو المرآة. هكذا كان الأمراء الهنود الذين كنا نراهم في اللوحات القديمة. ابتسم، وتغير غريب طرأ عليه.

جثا على الأرائك وهو مستعد لأن يأكل بشراهة من هذه المائدة، فبدأ جو من هرج ومرج مفرح. كانت الصبايا تطعمنه كل بدورها. شربت مريم نخبه وانغمست رغماً عنها في هذا الابتهاج الغريب والمألوف في الوقت نفسه.

بينما لم يكن للكؤوس التي أفرغتها قبل قدوم ابن طاهر إلا أن تثير صحوتها، أحست الآن بأن الخمر يوقظ فيها شعوراً سعيداً باللامبالاة، كانت ترغب في التكلم والضحك.

ـ أنت شاعر يا ابن طاهر ـ قالت بابتسامة فاتنة.

ـ لا تنكر فنحن نعرف ذلك، إننا نريد فعلاً أن تلقي على مسامعنا شيئاً من أشعارك وعلى طريقتك.

ـ من أخبركن بذلك؟ وقد علته حمرة الخجل. أنا لست شاعراً... ليس لدي ما يهدى إليكن.

ـ أتريد أن تتكتم؟ أليس في هذا تواضع في غير محله؟ اعلم أننا نترقب رغبتك.

ـ في الحقيقة، هذا شيء لا يستحق الذكر، فأنا لم أقمْ إلا ببعض المحاولات في المدرسة.

ـ هل تخاف منا؟ نحن مستمعات صاغيات ولطيفات.

ـ هل قصائدك تمجد الحب؟ أرادت أن تعلم خديجة.

ـ كيف لك أن تطرحي سؤالاً كهذا يا خديجة! ـ قالت مريم ـ فابن طاهر في خدمة النبي الجديد، وهو منافح عن الإيمان الصحيح.

ـ مريم على حق! ـ قال ـ ومن ثم كيف نمجد شيئاً لا نعرفه؟

ابتسمت الصبايا. إذ لم يفسد متعتهن أنهن في مواجهة عشيق يعترف بأنه غرّ.

نظر ابن طاهر إلى مريم، وهاجس لذيذ أشرق فيه، تذكر عراك المساء الفائت، ورأى نفسه ثانية يغفو في العراء، تحت جدران آلموت متأملاً السماء. كان يتطلع عندئذ إلى شيء مجهول. شعر بنفسه يذوب حناناً وهو يتذكر رفاقه الذين أحبهم، لا سيما سليمان الذي كان يبدو نموذجاً لكل الملاحة الإنسانية. أفلم يعطه حلم اليقظة هذا المفعم بالرغبة ظناً بعيداً بلقاء آخر وشيك الوقوع. لقاء وجه آخر يفوق حسنه كل حسن عرفه؟ في كل مرة كان نظره يغوص في عيون مريم، كان يشعر بأنها هي وليس سواها من تلقَّتْ مهمة تجسيد هذا البهاء الخفي. كل ما فيها كان مطبوعاً ببصمة ليست من هذا العالم: جبينها الشاحب، المقبب بشكل خفيف، أنفها المستقيم، شفتاها الحمراوان المكتنزتان اللتان لا يمكن لرسم أن يحيط بهما، عيناها الواسعتان اللتان تذكران بغزال شارد، لله كم تنمان عن اتقاد ذهن مضطرب. . . أجل! ألم تكن هذه الصورة هي التجسيد المحض للفكرة المجردة التي كان يحملها في ذاته؟

أية قوة سحرية كان يحتويها شراب سيدنا، كي يستطيع أن يعطي الحياة إلى صورة حلم، ثم يقذفها فجأة خارج ذاته على شكل كائن أسطوري إلى هذه الدرجة. فلئن كان حلماً، لئن كان في الجنة أو في الجحيم، فهو

يشعر بأنه في الطريق إلى ضرب من السعادة الغامرة والتي يجهل عنها كل شيء.

ـ إننا بانتظار الشاعر ابن طاهر...

ـ حسن، أريد فعلاً أن أحاول تذكر بعض الأبيات...

تحلقت الصبايا، وجلسن بارتياح، كما لو كن يتهيأن للتمتع بمشهد نادر.

تمددت مريم على جانبها قبالته تماماً، وقد استطاع أن يشعر بثديها ينضغط على جلده بشكل رقيق. لذة غريبة مؤلمة تملكته، وسرّبت إليه الترنح، أسبل عينيه وبصوت ضعيف تنقصه الجرأة، أخذ يستظهر قصيدته في آلموت... لكن حماسة محمومة استحوذت حالاً على فؤاده، أجل، كانت كلمات قصائده تبدو له باهتة وفارغة، لكن صوته أعطاها فجأة معنىً جديداً، معنى يرجع صداه في النفس التي يهيجها.

إثر تذكار آلموت، ألقى قصيدته التي كان قد ألّفها عن علي وسيدنا، ولم يفت الصبايا استشفاف الإحساس الخفي الذي كان يكشف عنه صوته. لكن مريم أحست بأنه يتحدث عنها! ومن أجلها! فاستسلمت دون مقاومة إلى التلذذ بأن أحداً قد أحبها، وكأنه لم يسبق لها إطلاقاً أن كانت كذلك. ابتسامة ملغزة هامت على شفتيها، كانت تصغي كمتوحدة مع ذاتها، لكأن الكلمات التي أجاد ابن طاهر في لفظها كانت تأتيها من البعيد البعيد. لم تكن تتمالك نفسها إلا عندما كان يتحدث عن سيدنا وتدمدم: لو كان يعلم! هذا لا يساوي شيئاً! صرخ عندما انتهى. ليس في هذا إلا مجرد كلمات بسيطة خالية من المعنى. تجدنني يائساً منها صدقاً. الأولى أن نشرب من هذه الخمرة اللذيذة. لقد واسينه من فرط ما قدَّمن له من مجاملات لطيفة.

ـ لا، لا، أنا أعرف جيداً أن هذه القصائد، ليست قصائد، القصائد الحقيقية لها نغمات مختلفة، مختلفة تماماً.

نظر إلى مريم، ابتسمت له، إنما بقيت هذه الابتسامة عصية على الفهم بطريقة عجيبة.

في الحال، تجلى له الإلهام المفاجئ، لما يجب أن تدور القصيدة في فلكه. نعم لا بد لهذه القصيدة أن تكون على شكل هذه الابتسامة! كل ما أعجبه وتملك قلبه حتى الآن ليس إلا عقبى لما كان اكتشفه هذا المساء. وبهيام أدرك أنه قد أحب للمرة الأولى، أحب بعمق وبكل جوارحه.

تذكر فجأة أنهما ليسا وحيدين، وحضور الصبايا الأخريات ضايقه، آه لو تسنى له أن يكون ومريم منفردين، تماماً مثلما كانت عليه الحال قبل قليل، عندما تحدث وإياها عن الجوهري! ليته أخذها من يدها، ليته نظر في أعماق عينيها، ليته حدثها عن نفسه، عن مشاعره، عن حبه، ما الطائل بالنسبة إليه بعد ذلك لو عرف طبيعة هذه الرياض! سواء أكانت نتاج الحلم، أم نتاج الحقيقة المحضة! هذا بالنسبة له سيان.

حسبه فقط أن يكون قد صان الحقيقة الحية لشعور كان يعتمل داخله حيال هذه الصورة الإلهية.

أفلم يقل النبي إن الحياة الدنيا ليست أبداً إلا الظل الباهت للعالم الآخر؟ لكن ما يهوسه الآن وما يولد فيه شعوراً كهذا لا يمكن له أن يكون ظلاً باهتاً للحقيقة المتعذرة البلوغ، السامية جداً بحيث يمكن لها أن تكون الصورة الفياضة بالبهاء، التي يراها ماثلة أمام ناظريه أقرب ما تكون إلى الكمال.

لربما لا يزال جسده ممدداً طيلة هذه المدة في تلك الحجرة المظلمة القابعة في أعلى برج سيدنا؟ وربما جزء صغير فقط من أناه قد انفصل عن ذاته، ويحيا هذا الكمال؟ ما يهمه من ذلك! فحسن مريم حقيقي، وحقيقية أيضاً مشاعره التي شدّت وثاقه.

أمسك بيدها، هذه اليد الندية، الوردية، المسواة بمنتهى الروعة، ضغط بها جبينه.

- كم جبينك ساخن يا ابن طاهر!

- إني أتلظى. همس.

نظر إليها بعينين متلألئتين.

- إني ولهان!

- «يا للهوى» قالت مريم ساهمة. لقد تُيِّمَ... هل سأحترق أنا أيضاً بالنار نفسها؟ إنهال على يدها يقبلها، بولع، بجنون، أمسك بيدها الأخرى وسلمها إلى سعير شفتيه. دهشة كبيرة أصابته لدى رؤية عينيها مسترسلتين في تأمل عميق.

«هكذا أحبني محمد عندما خطفني من موسى، قالت شاردة، كان أكثر نضجاً وهمجية» كان الحزن يعقد صوتها. «لماذا يأتي الشيء الجميل متأخراً دائماً».

كانت صاحباتها مغتاظات، لعدم اكتراث ابن طاهر بهن، فأخفضن من أصواتهن وهن يتحادثن، دون أن يتسترن على الضيق الذي لفهن نتيجة لحضور هذين الزوجين المستغرقين في لهوهما.

سرب ابن طاهر أخيراً إلى مسمع مريم:

- ليتهن يتركننا وحيدين.

اتجهت نحو الصبايا ورجتهن أن ينسحبن إلى غرفتهن، فهناك سيلهين كما يشأن.

امتثلن لها ولو أن البعض منهن كن حانقات.

- تريدين أن تستأثري بكل شيء لنفسك! احتجت روخانا بصوت منخفض. ماذا سيقول سيدنا حالما سيعلم أن قلبك هام بأحد آخر؟

اكتفت مريم بابتسامة خبيثة.

وحدها «تافيبا» من تتحمل المكروه بصبر:

- أيتها الصبايا، لنحضر الخمر معنا، سنلهو بمفردنا، بما أننا لا نستطيع

أن نفعل شيئاً آخر. أحست مريم بنفسها متماسكة، وهي أيضاً لم تحقد عليهن لما أبدين من غيظهن بل نظرت إلى كل واحدة منهن نظرة ودية، وعانقت صفية بحنان.

ـ سنؤلف قصيدة عن الطريقة التي وقع قلبك فيها صريع الهوى! هددتها سيت... وعندما نعود سنغنيها كي نطرب ضيفك...

ـ ليكن! لتنظمن الشعر ولتغنين كما يحلو لكن.

على ذلك صرفتهن وعادت إلى ابن طاهر. ولكي تخلص صاحبها من الورطة التي وقع فيها، والتي تهدد بالنيل منها فقد ملأت كأسين، رفعت نخبه، شرب كلاهما وعيونهما تلتقيان.

ـ هل تريد أن تقول لي شيئاً يا ابن طاهر؟

ـ ليس باستطاعة الكلمات أن تعبِّر عما أحس به. أحس بأني أولد من جديد، ما أكثر الأشياء التي تعلمتها في هذا الوقت الوجيز. هل سمعت بقصة (فرهاد) والأميرة (شيرين)، فمنذ لمحتك تولد لدي إحساس بأني قد التقيتك من قبل. لقد اهتديت، أنت من تجسدين الصورة التي كنت أرسمها لشيرين مع هذا الفارق بأن الصورة التي أملكها الآن، الماثلة أمامي هي على قدر لا يقدَّرُ من الجلاء.. هي الأكثر كمالاً...

لا تبتسمي يا مريم، فكما أدرك حقيقة وجود الله في السماء، ألمس شقاء ذلك البائس فرهاد، الذي كان يرى دائماً تلك المرأة الرائعة الجمال، وتفصله عنها مسافة أبدية، أليس في هذا عذاب لا يطاق، أدى به إلى أن يفقد صَوابه، توجب عليه أن ينحت في الصخر الصورة التي لم تكن تفارق عينيه. بالله العظيم! كم كان مدى عذابه! لأنه من المستحيل له أن يكون قد مر بعذاب أفظع من معاناته يوماً بعد يوم بأن سعادة كهذه تتوارى وأنها مؤكداً لن تعود.

أسبلت عينيها، وقد بدا جسدها من تحت الملابس الشفافة متألقاً ألقاً رقيقاً يستدعي إلى الذاكرة صورة تمثال منحوت في مرمر ثمين. استدارة

وجهها الدقيقة، التفاف ساعديها، ساقيها، إنها متناسقة كتناسق الأنغام. تأملها مسحوراً، كمتعبد يجلس أمام صنمه، وخلوها من العيوب كان يفقده صوابه. أما الحنان الذي كان يحمله لها، فقد كان ينتزع من صدره الأنين. لاحظ فجأة أن قطرات من الدمع تسقط على يديها.

ذعرت مريم.

ـ حاول أن تفضي بما يجول في خاطرك يا ابن طاهر.

ـ أنت رائعة الجمال، أنا لا أستطيع تحمل حسنك، إني ضعيف أمامه كثيراً.

ـ أوه؛ أيها الفتى الأخرق!

ـ نعم، إني طائش، إني مجنون، تماماً كإمبراطور الصين. سأقلب الله عن عرشه وأضعك مكانه.

ـ في الحقيقة إنك مجنون! هذه كلمات مرجَّسة، أنت في الفردوس! لا تنسَ ذلك.

ـ سيان عندي سواء أكنت في الفردوس أو في النار! حسبك فقط أن تكوني معي، شيرين إلهتي!...

ابتسمت.

ـ أنت تخلط. أنا لست شيرين، بل مريم، إحدى فتيات الجنة البسيطات.

ـ أنت شيرين، شيرين! أنا فرهاد، الملعون الذي لو حرم منك لصار مجنوناً من العذاب.

يا لها من حكمة جهنمية، تلك التي أرسلت إليها بالذات هذا الفتى الشبق إلى أبعد الحدود. ابن الصباح كان في الحقيقة حالماً جهنمياً مرعباً...

صمتت أخيراً. إذ أخذت قذال الفتى بين يديها، قربت وجهها من وجهه

وتاهت في أعماق عينيه، أحست به يرتجف، كما لو أن جسمه السقيم قد صار عاجزاً عن تحمل هذا الهوى المفرط الذي كان يندفع جواه. وضعت شفتيها على شفتيه. استرخى دون أي مبادرة للعناق، لقد فهمت أنه قد أغمي عليه بين ذراعيها.

تجمعت الصبايا في الغرفة نفسها، وقد رتبن بعض الأرائك على الأرض، كن بوضع مريح، يرتشفن بشهية أقداح الخمر، التي كانت تدور أكثر من أي وقت مضى. كن في أوج حيويتهن، يغنين، يتجادلن، يصلحن ما بينهن، يتبادلن القبل وجدتهن أباما على هذه الحالة، فأخذت ترفع الستارة بتأنٍ، واطمأنت إلى أنها لم تتعرض إلى فضح نفسها بحضور الضيف. هجمت على الغرفة.

ـ أين ضيفكن؟ أين مريم؟ كانت ترتجف من الغضب السخط.

ـ بقيا وحيدين في السرادق.

ـ لكن، هكذا إذاً أنتنّ تنفذن أوامر سيدنا! ستقطع رؤوسكن! ربما تمضي هذه الفتاة الطائشة إلى إفشاء سرنا إلى هذا الشاب بينما أنتن تصهلن كالخيل.

أما بعضهن فقد ذرفن الدمع.

ـ مريم هي التي أمرتنا بأن نتركهما وحيدين.

ـ اذهبن في الحال وأحضرنها. كرسن كل وقتكن وبسرعة لهذا العاشق، وحاولن أن تأخذن منه كل الأسرار التي ربما قد تكون أفضت له بها هذه العاهرة، ولتأت لي واحدة منكن بالرد. سأنتظركن وراء جنبة الأزهار البيض شمال البركة. . .

عندما اقتحمن الغرفة الزجاجية، كان مشهد غريب بانتظارهن. كان ابن طاهر ممدداً على الأرائك دون حراك، شاحباً كالميت، ابتسامة من الغبطة ترتسم على شفتيه، ومريم المنحنية فوقه تتفحص وجهه بولع، جالت بعينيها ثم رأت رفيقاتها. ومن الذعر الذي كان بادياً عليها فقد أدركت أن شيئاً ما قد حصل، نهضت وسارت باتجاهها.

ـ أباما؟ قالت مستفهمة.

ومثلما أن الأخرى ردت عليها بالإيجاب عبر حركة من رأسها، فقد هزت كتفيها بوقاحة.

ـ هل ألفتن قصيدتكن؟

ـ إنها جاهزة.

أفاق ابن طاهر، فرك عينيه ونظر حوله بصفاء.

ـ إن سمحتما، فسوف نغنيها على مسامعكما. أخبرت هذه المبعوثة.

ـ قصيدة؟ بكل ـ سرور ـ يبدو أن هذه الأفاقة قد متعت الشاب أيما إمتاع. كانت عازفات الموسيقى الأخريات قد انضممن إليها وقد تناولن قيثاراتهن، والمزاهر، وفجأة تشجعن وأخذن بالغناء:

كان يا ما كان

في جنة الله

حورية جميلة

اسمها مريم

كانت لطيفة جداً

وشعرها بلون الليل

يرسم حول وجنتيها

ظلاً جميلاً

عيون سوداء، شفاه مكتنزة

أعضاؤها ممشوقة

وهيئتها المتبخترة

تذكر بملكة

الله قد اصطفاها

لتسود الحسناوات

بروحها وحسنها

جعلاها فريدة من نوعها

كانت تعرف الأسرار

أسرار الأرض والسماء

تنهل من كل العلوم

دون أن تنسى الحكمة.

نحن الذين نتابع الابتهاج

نعرف قلبها المغرم

بمقدام قد عزم

على أن يسلب لبها.

هذه هي إذاً ملكتنا

عاشقة بجسمها وروحها

مستعدة لأن تكتم حبها

على البطل الذي يجذبها...

جاءت أباما يرعاها عدي، عبر الترعة إلى المأوى السري حيث كان حسن ينتظرها.

ـ لماذا استدعيتني سأل بتبرم.

ـ لا تغضب أيها السيد كل شيء يسير على ما يرام، ما عدا في هذه الحديقة مريم لا تعرف أو لا تريد أن تعرف كيف تروّض غرًا.

روت له ما رأته وما سمعته.

ـ يبدو لي أن مريم اختارت الطريق الصحيح ـ قال ـ ألم تلاحظي أنه لا

يمكن لابن طاهر أن يُعامَلَ بنفس الطريقة التي يعامل بها الآخرون؟ ألهذا أتيت بي؟

ـ اختارت الطريق الصحيح! تقول هذا لي أنا مع أنك تعلم انّ ما من رجل استطاع أن يقاومني إذاً أنا لست إلاّ مجرد مشعوذة بالنسبة لك. أمّا مريم فعالمة فنانة ماهرة؟

درأ حسن ابتسامته.

ـ أنت تريدين الشجار؟ مريم لديها بالنسبة لهذه الأمور وجهات نظر تختلف عن وجهات نظرك. وهذا كل شيء.

ـ وجهات نظر أخرى؟ عدلك أيتها السماء! ومن أين تعلمتها؟ من حبيبها اليهودي؟ أم من البدوي الهمجي؟

ـ وإذا كانت أخذتها مني؟

ـ أنت تريد أن تهينني حقاً. . . لكن ليكن بعلمك، لديّ إحساسٌ بأنها تخونك، هي مولهة به!

لم تلاحظ في العتمة الحمرة التي علت جبين الرجل العجوز فجأة، مع ذلك، أحست بأنها بلغت منه.

ـ إنهما متحابان يهدلان كزوج من الحمام، هل تعلم أنه شاعر؟ وهذا ما يؤثر على قلب المرأة لا محال في المستقبل، ستهتز من أجله، صرفت باقي الصبايا، كي تبقى في صحبته، إنها تنبهه صدقني، وعلى أية حال فهي ترتب أمورها كي توقظ شبهاته.

ـ تناهى إلى مسامعهما وقع أقدام، فعدي جاء لهم برُقيّة ـ وهي اطمأنت قليلاً عندما لمحت حسن.

ـ لا تخشي شيئاً ـ قال لها ـ كيف حال الاثنين؟

ـ ابن طاهر يبدو محبّاً.

ـ ومريم؟

اخفضت عينيها.

ـ لست أدري

ـ أريد أن أتحدث إليها ـ أفصح حسن.

ألقت على أبّاما نظرة مرتبكة.

ـ ما الذي يدعوك إلى التردد؟ قال مندهشاً.

ـ كيف سأنقل لها رسالتك؟ وإذا ما تبعها ابن طاهر؟

ـ يجب أن تأتي. ستستطيع أن تجد حجّة.

عندما عادت إلى السرادق سألتها مريم بصوت خافت:

ـ هل رأيت أبّاما؟

ـ نعم، سيدنا على حافة الترعة. إنه بانتظارك اخترعي ذريعة واذهبي إلى هناك.

استدارت مريم نحو ابن طاهر.

ـ هل تحبني فعلاً؟

ـ هل تشُكين، بذلك؟

ـ برهن على ذلك. أنظم قصيدة من أجلي.

ـ كيف سأستطيع أنا البائس أن أؤلف شيئاً يليق بك؟ قال جزعاً، مريم تشاء أن تخزيني!

ـ إن كنت تحبني فافعل ذلك.

ـ لكن كيف سأقدر على هذا... بحضورك؟

ـ لا يهمك، لن أزعجك أبداً، سأذهب لأقطف لك الورود من الرياض، وأثناء هذا الوقت، لن يكون عليك إلاّ أن تنسخ ما يمليه عليك الحب..

التفتت نحو الصبايا.

ـ أنتن، ابقين قربه ومتعنه بموسيقاكن. وعند خروجها همست إلى روخانا:

ـ يجب ألاّ يخرج من الحجرة. أنتن مسؤولات عن ذلك.

ـ التفت بمعطفها وركضت عبر الجنائن.

لمحت حسناً قرب التخشيبات. سحبها من يدها بقساوة.

ـ هل يظن على الأقل أنه في الفردوس؟

ـ إنه مفتون. فهو يحسب نفسه في الجنة.

ـ هذا ليس جواباً إني أراك قد تغيرت فجأة كلياً. لتعلمي أني لن أرحمك إن كان لا يؤمن.

ـ أضمن لك أن هذا سيكون. لتأمر إلى أباما فقط بألا تتجسس كشبح وألا تفسد عليَّ عملي.

ـ من الأفضل أن تحتفظي برباطة جأشك، احرصي على ألاَّ يفلت زمام الأمور من يديك.

هل فهمت جيداً؟ هل تأثر حسن؟ هل لا تزال تكنُّ له شيئاً؟

ـ لا تجزع أبداً يا ابن الصباح.. إني أمسك زمام الأمور بثبات.

ـ هذا ما انتظره منك... بأية حجة تذرعت قبل الخروج؟

ـ أعطيته واجباً ليؤديه: أمرته أن يؤلف قصيدة.

ـ أمسكها من ذراعها، وسحبها عبر الدرب الضيقة التي تحاذي الحافة.

ـ هل تعتقدين بأنه وله من كل أعماقه؟

ـ دون أي شك.

ـ وأنتِ؟

ـ هل هذا يهمك؟

ـ من المحتمل، وإلا لما كنت سألتك.

ـ ابن طاهر شاب موهوب، لكن لا يزال عليه أن يقطع أشواطاً كي يصبح رجلاً.

ـ عودي إليه الآن، وأنيميه بأسرع ما يمكن.

ولم تكن تستطيع أن تتمالك نفسها:

أخذت تضحك بصمت. قبّلها من جبينها. ثم التفتَ نحو أبَاما.

ـ يبدو أن السيد غيور؟ ألحّت هذه بمكر.

ـ ربما... لكن في كل الحالات، غيرتي هي أقل بكثير من غيرة واحدة تدعى ابّاما.

أشار إليها مودعاً، ثم أمر عدي بأن يعود في الطريق المؤدية إلى القصر. فعلى امتداد الطريق التي سلكها بمحاذاة النهر كان يفكر. «حالما سأصل إلى البرج، سأوعز إلى نافخ البوق. حسبهن رقصاً هذا المساء!».

كان كمن يحمل عبئاً على قلبه. لاحت في ذاكرته صورة صديقه القديم عمر الخيام... كان مستلقياً على الأرائك يشرب الخمر، وشابة حسناء تقوم على خدمته، ينظم الأشعار ويسخر من العالم بأسره، كان يتأمل ويستطيع أن يدعي الكمال لأنه لامس المعرفة.. كل هذا بأمان وسلام. لقد حسده في هذه اللحظة من بيننا نحن الثلاثة ـ قال هاذياً ـ فإنه وحده من اختار لنفسه الجانب الأفضل».

رأت الصبايا مريم قادمة، كان وجهها باسماً مما أدخل السكينة إلى قلوبهن حالاً، يداها محملتان بالورود التي تركتها تتساقط فوق ابن طاهر الذي كان منكباً على كرّاسه.

ـ هل نجحت في نظم قصيدة جميلة لنا؟

ـ حاولتُ على الأقل.

قرأ علينا بعضاً منها ـ قالت سيت ـ إنها ستبعث فيك الدّوار.

ـ إني أموت لهفة لسماعها.

جثت قربه على ركبتيها، وقد خبأت في قبضتها الحبة المنومة.

استندت بهدوء خلفه نظرت من أعلى كتفه. قرأت:

فرهاد آخر للأسف: هل كنت أستطيع أن استشعر

أن الحب يضطرم سريعاً
كيف أستطيع أن أعرف
من أوار نيرانه المستعرة؟
فاترة تبدو حينئذ المشاعر
التي وقفتها للنبي، لعلي، لسيدنا
وهم الأعزاء جداً حتى ذلك الحين على قلبي!
يارب! أنت يا من تعرف خفايا النفوس
وخلقت حسن مريم
التي تفوق شيرين جمالاً
يا من ترى كل شيء، تعلم كل شيء، تفهم كل شيء
ماذا عليّ أن أفعل؟
استحوذ الحب بكل كياني.
لم أعد أرى شيئاً أو أسمع شيئاً أو أحس بشيء
من هو ليس هي
آه! مريم العزيزة، روح روحي.
بهذا البلاء أرشدني يا رب
إلى دواء القلب الخاوي
هل سأصير أنا أيضاً كأبينا آدم
المطرود من الجنة؟
أم أنك أردت أن تكشف لي الجزاء
الذي ينتظرني في نهاية المعركة؟
ماذا علي أن أفعل أيضاً، نَزَلا على هذه الأرض

كي استحق العفو؟

آه يا مريم، حتى البارحة كنت أعمى

وكان قلبي يجهل محط رغباته

ولم يكن عقلي يعرف كيف يفكر

أمّا الآن، فكل شيء واضح

لقد عرف قلبي الهدوء، وعقلي التحليق

سعادة لا حدود لها. ارتقت بكياني.

عندما أشاء، فإنك يا مريم بنظرة تسببين لي الهلاك.

دموع لمعت في عيني مريم. أسرعت إلى عناقه كي تخفيها، كانت حزينة حتى الموت. «مسكين هذا الفتى ـ فكّرت ـ يضيع في الأوهام شبابه، إنه مخلص جداً، طيب جداً، لا يوجد في قلبه أي موضع للكذب أو للغدر. وعلى يدي سيقع ضحية لحسن!».

ـ ما بك يا مريم؟

ـ أنت فتي جداً وطيب جداً.

ـ علت ثغره ابتسامة. ورأته يحمر خجلاً. ثم طلب أن يشرب، أفرغ الكأس، وذهل إذ أحسّ بنفسه يضعف. أخذ رأسه يدور. وتتالى أمام ناظريه المشهد المجهول. فجأة أخذ رأسه بين يديه ووقع على قفاه.

ـ لم أعد أرى شيئاً، والله العظيم سأعمى، أين أنت يا مريم؟ إني أغوص، أضمحل في الفراغ.

ـ خافت الصبايا. أما مريم فعانقته.

ـ أنا هنا يا ابن طاهر، بالقرب منك.

ـ أحسُّ بك يا مريم قال بابتسامة متعبة.

ـ يا الله! كل شيء يتبدل بسرعة فائقة... إني أحلم.. والله العظيم!

إني في هذه المرة أطير بالخلف، أصغي إلى هذا الحلم الغريب الذي حلمت به لتوي: وصلت إلى مدينة القاهرة المقدسة... أنت تسمعين يا مريم! دخلتُ قصر الخليفة، العتمة تلفني، أوه! العتمة نفسها تحيط بي، عندما رجعت إلى الوراء، نحو الباب، كان الوقت لا يزال في رأد الضحى، أما عندما نظرت في العرش فقد كنت كأعمى. سمعت صوت الخليفة: كان هذا صوت سيدنا! نظرت في باتجاهه من المستحيل على المرء أن يلمح شيئاً. رجعت إلى المخرج: كانت الصالة مضاءة بشكل رائع. يا الله يا رحيم! إني أضعف، لم أعد أحسُّ بك يا مريم، أعطني إشارة، ألمسيني... لا عضيني! هنا تحت قلبي بقوة، بقوة، لأحس بك، لأعرف أنك لا تزالين موجودة هنا!...

ـ رفعت ثوبه وعضت الجلد الظاهر تحت قلبه تماماً. كانت حزينة بشكل لا يوصف.

ـ أحسُّ بك الآن من جديد يا مريم. أوه أي بلد! انظري هذا البلد تحتي، انظري هذه القبة من الذهب، هذه السطوح الخضر، الحمر! هل ترين هذا البرج اللازوردي! ألف علم يخفق حوله، ألف راية حرب مبرقشة تصفق في الهواء، المباني القصور تتقاطر في سرعة مجنونة!.. أمسكوا بي! أتوسل إليكم أمسكوا بي!

ألقى برأسه إلى الخلف، وحشرجة مؤلمة أفلتت منه.

كانت الصبايا كلهن متوترات.

ـ ستقع المصيبة علينا ـ صرخت سيت بهيئة كئيبة.

من الأفضل أن نسرع حالاً إلى خلف المسيل، قالت مريم.

ـ سيكون من الافضل أن نندفع حالاً إلى الحمالة: قالت مريم.

غاب ابن طاهر في اللاوعي.

ـ ألبسنه جلبابه.

امتثلن لها، تمددت مريم على أحد أسرة الاستراحة. تتأمل السقف بإمعان. كانت عيناها جامدتين.

عندما تواجد أبو علي وبوزروق أوميد وحدهما في قمة البرج، تبادلا نظرة، حائرة مكثا متكئين على مرفقيهما، يتأملان الليل من أعلى الحاجز، دون أن ينطقا بأية كلمة.

ـ ما رأيك بكل هذا؟ قال بوزروق أوميد أخيراً هذه الكلمات.

ـ إننا في شبكة، ولن يكون من السهل أبداً التخلص منها.

ـ وأنا أقول: مثلما من المؤكد أن الله هو الله، فإن ابن الصباح مجنون!

ـ على أية حال. إنه صاحب خطير.

ـ هل تظن بأن علينا أن نبقى مكتوفي الأيدي؟ نتفرج عليه يكمل عمله بارتياح؟

ماذا يفعل الأرنب الذي وقع في شرك ذئب؟

ضحك أبو علي هازئاً بينما تابع الآخر فكرته:

ـ فَتحُ ثقب بأسنانه.

ـ وبعد ذلك؟

ـ عليه أن يهرب.

ـ ألا تخشى أن يودي بنا ذات يوم إلى واحد من فراديسه؟

ـ إن نوى الخير، فإننا لن نقاوم أبداً،

ـ وإن نوى الشر، فإننا لن نقاوم ذلك أيضاً.

ـ إصغ يا أبا علي ـ وقد قرّب شفتيه من أذن صاحبه عندما لفظ هذه الكلمات: . . . لا يزال لدينا متسع من الوقت هذا المساء.

لا يوجد إلاّ نحن الثلاثة في قمة هذا البرج. . .

ـ ماذا تقصد؟

ـ هل يمكن أن أثق بك؟

ـ الغراب لا يقتلع عين غراب آخر. من الأولى به أن يقتلع عين النسر.

ـ عندما سيعود، ننتظره عند المدخل. ومن الخلف أضربه على رأسه بمقبض سيفي، دون ضجيج، ثم نرمي به في نهر شاه رود.

ـ والمؤمنون؟

ـ سنقنعهم بأنه لم يرجع من الرياض.

ـ لكن الخصيين سيعلمون أنه عاد، ونحن لن نخرج من بينهم أحياء.

ـ سنكون ابتعدنا، قبل أن ينكشف الأمر.

ـ ليس هناك من مؤمن إلاً ويجازف بحياته كي يثأر له، الشبكة موثقة بإحكام في الواقع.

ـ لكل فعل مخاطره

ـ انتظار العاقبة أقل خطراً.

ـ لكنَّ حسناً مجنون!

ـ ليس لدرجة يستطيع فيها تخمين أفكارنا.

ـ هل أنت خائف؟

ـ وأنت ربما لست خائفاً أنت.

ـ من أجل هذا بالضبط، افضل أن أنتهي من هذا الخوف نهائياً.

ـ إني مقتنع من أنه اشتبه بأفكارنا من قبل. لنكن صامتين من الآن فصاعداً صمت القبور، فالخصيون سلاح رهيب..

ـ الفدائيون سيكونون أكثر وبالاً أيضاً.

ـ لنصمت أيضاً. . سيكونون سلاحاً رهيباً في يديه وحسب، بل في أيدينا نحن أيضاً.

ـ ربما تكون مصيباً، حسن سيد رهيب، وساعة التفكير في التراجع قد

صارت خلفنا، على وجه الاحتمال، كناّ مُطّلعين على سره، وكل تراجع الآن يكلف حكماً بالموت.

ـ سنمشي خلفه إذاً.

ـ إصغ لقد عاد. . . إحم! إحم! الواقع، عليّ أن أعرف إن كانت تجربته لهذا المساء من أكثر التجارب ابتكارًا. . .

ـ أتوقع! . . . إنها مليئة بالوعود الكبرى.

ـ كان حسن منبهراً للغاية، ألقى نحوهما نظرة سريعة، وطفق يضحك.

ـ آمل ألا تكونا قد ضجرتما كثيراً، لا بأس بأن لديكما أشياء تتبادلان الحديث فيها، أظن أنكما لم تهدرا وقتكما سدى.

ـ كيف دارت الأمور في الأسفل. هذا هو ما يقلقنا. لماذا استدعتك أبّاما؟

ـ غيرة المرأة، نظريات قديمة وحديثة في الحب، تجاذبتا هذه الليلة، كان من اللازم أن نحسم المسألة الشائكة بأن نعرف كيف يستسلم الرجال للإغواء بأسهل الطرق.

انفجر كبير الدعاة ضاحكين. فاللحظة الحرجة مرَّتْ

ـ يبدو لي أنك تفضل النظرية الحديثة على القديمة. قال أبو علي مازحاً.

ـ ماذا بوسعنا أن نفعل حيال ذلك؟ العالم يتطور باستمرار: لزاماً علينا أن نعدل عن القديم من أجل الحديث.

ـ ألم يقع ابن طاهر في شرك النظرية الحديثة؟

ـ انظروا إلى أبي علي هذا سنجعل منه قناصاً للقلوب!

ـ في كل الحالات، إنك تمثل عاشقاً من نوع فريد، أقسم بذقن النبي أني لو شغفت بامرأة، فلن أكون كقميص بالٍ يستبدل بغيره، إني سأفضل أن أقتلها. على أن أتركها لواحد غيري.

ـ لقد برهنت على ذلك آنفاً يا صديقي أبا علي. إذاً أنت لا تملك الآن أية نظرية لا قديمة، ولا جديدة لتطرحها. ولكن بالنسبة لما يتعلق بحالتي، فعليك ألاَ تنسى أني فيلسوف وأنني أقدر قبل كل شيء ما استطيع أن أدركه. ليلة واحدة لا تكفي لأن نحوِّل فيها شيئاً عظيماً.

ـ ربما فهمت وجهة النظر ـ عقّب أبو علي ـ لكني أظن بأنك لا تلتزم بهذا المبدأ إلا في أمور الحب، أفلم يقل واحد هذا الصباح أنه يريد تأسيس بنائه على خبرة العقل المحض؟

ـ أنت تلاحقني كما يلاحق الكلب طريدته ـ قال حسن مقهقهاً ـ هل تظن أن هذين النقيضين غير قابلين للتوافق معاً؟ وإلا لماذا كان الجسد والروح يمشيان معاً يداً بيد؟

ـ إن كانت جهنم تحتوي على قديسين، فأنت إذاً واحد منهم.

ـ أقسم بكل الشهداء! إن أميرتي جاهرت بنفس الرأي في يوم مضى.

ـ هذا اتفاق مفرح على أية حال.

وجه أبو علي غمزة إلى بوزروق أوميد، بينما كان حسن يشعل الشعلة لنافخ البوق المقيم في الرياض على سبيل الإشارة.

ـ حَسْبنا لذَّاتٍ فردوسية لهذا المساء!الآن ستتضح العواقب. تلقى الجواب الصادر من الحدائق ثم أطفأ الشعلة وأعادها إلى مكانها.

ـ نعم، نعم، إنهم يملكون النصيب الجميل في الأسفل، تابع وكأنه يتحدث مع نفسه خلفهم من يفكِّر ويقرِّر عنهم، لكن من سينتزع منّا الإحساس بمسؤوليتنا وبحزننا؟ من سيأخذ منَا الليالي الساهرة والتي كل لحظة تمر وتدنو بنا من الصباح هي أشبه ما تكون بضربة على القلب؟

من سيسلمنا إلى هول الموت، والذي نعرف ألاَّ يعقبه إلا العدم؟

فالآن ما تزال قبة السماء تنعكس في عيوننا بنجومها المتألقة.

نحن لا نزال نحس، ولا نزال نفكر إنما عندما ستأتي اللحظة العظيمة،

من سيمد لنا يده بالبلسم لقادر على تسكين الألم الذي يسببه لنا شعورنا بأننا ندخل ليل العدم الأبدي. لقد نالوا النصيب الحسن في الأسفل إذ اخترعنا لهم فردوساً، وأقنعناهم بأن متعاً أبدية تنتظرهم هناك بعد الموت، هل تعرفون من يمكن له أن يكون أولى منهم بالرغبة من بين كل الكائنات؟

ـ هل فهمت يا بوزروق أوميد. يمكن لحسن أن يكون مصيباً تماماً. . .

ـ بدأتما تفهمان إذاً؟ نحن نعلم أننا لسنا أسيادًا إلاّ نقطة هي أصغر ما تكون بالنسبة للواقع الملوس، وعبيداً بالنسبة لجرم فسيح من المجهول. أستطيع أن أشبه أنفسنا بحشرة رأت السماء فوقها «سوف أتسلق هذه القصبة ـ حدثت نفسها ـ فهي عالية بما يكفي لأن أصل إلى الهدف». بدأت عند الصباح وتسلقت حتى المساء، وعند وصولها إلى القمة أدركت أن جهدها ضاع سدىً، فلم يكن يفصلها عن الأرض إلا بضع خطوات تحتها، أمّا السماء المرصعة بالنجوم فما زالت تعلوها وما زالت بعيدة أيضاً الفرق الوحيد هو بأنها لا ترى بعد أي درب يوصل إلى الأعلى. فقدت الثقة: أدركت أنها لم تكن شيئاً بالمقارنة مع عظمة هذا الكون الشاسع بشكل لا يقدر. فحُرمت وإلى الأبد من السعادة ومن الأمل.

أشار إلى الداعيين الكبيرين.

ـ لنذهب! علينا أن نستقبل أوائل المؤمنين القادمين إلى الأرض من الفردوس.

كانت الصبايا يتحلقن حول فاطمة، لمحن من خلف الزجاج الخصيين، كانوا يقتربون، يحملون محاملَ.

ـ كأنهم ثلاثة لحّادين ـ علقت سارا وهي تتأمل ـ

ـ فاطمة! ارفعي الغطاء عن سليمان. كي نراه مرة أخرى ـ توسلت زينب.

كشفت فاطمة عن وجه النائم. كان يستلقي مطمئناً، ويتنفس بأنفاس تكاد لا تلحظ، ومسحة طفولية ترتسم على وجهه.

حدقت به الصبايا بعيون واسعة، كانت زينب تعض أربعاً من أصابعها، وتفترسه بنظرة جريحة. أسرعت فاطمة وغطته.

دخل الخصيون، وبصمت حملوا جسم الفتى على النقالة. خرجوا صامتين أيضاً وما أن أنزلت الستارة خلفهم حتى انفجرت الصبايا في نحيب. حليمة التي كانت تكتم صرخة ألم، انهارت على الأرض كما لو أن ساقيها بُترتا.

كان العبيد الزنوج منهمكين في يوسف، خديجة والصغيرة فاطمة هما وحدهما من بكتا هذه المرة، وزليخة الصامتة كانت تتابع قدومهما ومغادرتهما بعينيها كان على درجة من الكبرياء منعتها من الاستسلام لمشاعرها.

ـ هذه هي إذاً نهاية مجدك. قالت لها حنيفة عندما صارتا لوحدهما من جديد. حصلت على زوج لليلة واحدة. خسرته الآن إلى الأبد. فنحن أقل أسىً منك، نحن اللواتي لم نعرف زوجاً على الإطلاق. حاولت زليخة أن ترد عليها بجواب وقح، لكنَّ ألمها كان فظيعاً، عضت شفتيها وطمرت رأسها بين الأرائك.

ـ أنت ما عندك قلب يا حنيفة. قالت أسماء برفق.

ـ ليس لي أيٌّ قصد سيئ من كلماتي.

اقتربت من زليخة وراحت تداعب شعرها، تقلدتها الأخريات وكل واحدة تبذل جهدها لتواسي هذه التعسة بإسلوبها... والتي وبعد أن انصرم وقت طويل، كان بمقدور النوم وحده أن يوقف دموعها. عندما حمل الخصيون جسد ابن طاهر النائم، طلبت مريم من الصبايا أن ينسحبن إلى غرفة نومهن. كنّ أقل عدداً هذا المساء هؤلاء اللواتي تبعن سليقة بقين في سرادقهن، نامت مريم وحدها إذاً. لكن وجود حليمة وذلاقة لسانها الطفولية في تلك الليلة قد مدَّاها بعون كبير، كيف تحملت تلك الليلة المشؤومة؟ أية شماتة ستصدر منهن؟ لم تستطع أن تحجم عن التفكير بهن

بقلق: إنما كان عليها أن تنتظر حتى الصباح!.. الانتظار! كانت هذه قسمتهن جميعاً ـ وإعلان الحرب على الأفكار الكئيبة التي كانت ترهقهن عسى أن يبددها ضوء النهار.

التفت حسن نحو الخصيين الذين أتوا على وضع الحمل الحيّ في القبو.

ـ هل يسير كل شيء على ما يرام؟

ـ كل شيء على ما يرام يا سيدنا؟

دعا صاحبيه الاثنين ليأخذا مكانهما معه على المسطحة المتحركة التي رتبت المحامل عليها، وانتظروا أن ترفعها أيادي الخدم السود حتى قمة البرج.

عندما صاروا في الأعلى، رفع حسن الأغطية عن الأجساد النائمة.

ـ يبدون متعبين، علق بوزروق أوميد بصوت شبه مسموع.

ابتسم حسن.

ـ سينامون نوم الضحى، ثم ستأتي الصحوة: سنرى عندئذ إلى أي مدى نجحنا..

أفرج الستارة التي تغلق باب الزنزانة كي يصل الهواء إلى الشبان. بالقرب من الباب وضع حارساً، ثم صرف صديقيه.

ـ أوشك الفصل الثاني للمسرحية على النهاية ـ ختم من أجلهم ـ سنتواجد هنا غداً تصبحون على خير.

في الأسفل ضمن الحدائق، كان الخصيون منهمكين في إطفاء ونزع الفوانيس السريعة العطب، بعضها انطفأ وبعضها الآخر كان لا يزال يحافظ على بعض البصيص، كان الليل حولهم يلفّ الحديقة، وفراشات الليل تواصل تحويمها المحير، والخفافيش تصطاد آخر الحشرات. سمع نعيب

بومة قادم من أحد الأدغال. . . تبعته في الحال زمجرة فهد. أطفئ المصباح الأخير.

كانت ليلة صيف رائعة، تعج بالأسرار.

النجوم في السماء، تشع بالأنوار المكتنفة بالألغاز، بعيدة لا يمكن إدراكها. كان مصطفى يلوّح بالمشعل كي يؤجج الشعلة. والخصيون الذين يستضيئون بلهيب هذا الضوء الخافت يتبعونه نحو «التخشيبة».

ـ هيا لنلقِ أثناء مرورنا نظرة من جهة الصبايا، اقترح أسد معلم الرقص لا بدّ لهذه الأمسية من أنها كانت بالنسبة لهنَّ بلاءً عسيراً.

عُدن إلى السرادق، حيث كانت فاطمة وصديقاتها قد نمن لتوهن. رفع أسد الستارة التي كانت تخفي الباب خلفها. تقدمهم مصطفى إلى الغرفة التي أضاءها بمشعله المتأرجح. كانت الصبايا متمرغات في حالة فوضوية جميلة، بعضهن عاريات كلياً، وذيل ثوب أو غطاء يستر بعضهن الآخر، الأكثرية منهن لم يكلفن أنفسهن خلع حُليِّهنَّ، حيث كان بإمكان المرء أن ينظر على مهل بإعجاب إلى أذرعهن وسيقانهن الرقيقة التي كانت تسترخي بطراوة على الحرير والبروكار، وصدورهن الرقيقة ترتفع بانتظام هادئ.

ـ إن في هذا ما يهوس! علّق أسد وهو يحيي حميَّه ذلك الفائر سليمان إنهن يرقدن كصرعى في ساحة قتال بعد الاشتباك.

شوشت الرؤية مصطفى، الذي لم يستطع من ذلك أن يتحاشى سقوط المشعل. وحيث إنه لم يقدر على المزيد، فقد غادر الغرفة مندفعاً وركض نحو النهر كمجنون يصرخ وسط الليل:

ـ الإنسان وحش مفترس. . يا الله! ماذا جعلوا منا!. .

الفصل الثالث عشر

في النهار، ومثلما كان ينبغي، مثل الداعيان الكبيران عند حسن.

ـ أتيت لتوي من إلقاء نظرة على نائمينا ـ قال لهما وهو يستقبلهما ـ أظنُّ أن الوقت حان لإيقاظهم.

تبعاه إلى غرفته، رفع الستائر المنسدلة أمام النوافذ وضوء حادٌ أضاء الغرفة، توجه ثلاثتهم نحو الغرفة عبر المدخل السري: كان الشُّبَّان لا يزالون مستلقين على محاملهم، وبدوا نائمين بارتياح.

اقتربوا فتفحص حسن بلهفة وجوه النائمين.

ـ إن كنت سأحكم بحسب الظاهر، فإن هيئتهم لا تدل على أنهم تغيروا بقي أن نعرف ما حصل في داخلهم، ما صارت إليه نفوسهم ـ سنعرف بعد لحظة.

ـ هز يوسف من كتفه.

ـ أتدرك، يا صديقي يوسف، أضحى النهار، وأنت لا تزال نائماً؟

فتح يوسف عينيه المذعورتين، نهض على مرفقيه حرك رأسه البادي الاضطراب. حدّق بالزعماء بهيئة المخبول الساهي، واستغرق فترة طويلة قبل أن يسترجع رشده، أفصح وجهه حينئذ عن إنذهال لا حدود له.

ـ ماذا فعلت إذاً هذه الليلة، كي تفيق في مثل هذه الساعة! قال حسن وقد منَّ عليه بابتسامة خبيثة.

ـ كنت في الفردوس بفضل رحمتك، يا سيدنا، أجاب الآخر وهو يرفع عينيه بذعر.

ـ إنه حلم جميل دون شك يا ولدي.

ـ لا، لا، رحت فعلاً إلى الفردوس.

ـ قل هذا لغيري، قل هذا لغيري هل تعلم أن رفاقك سيهزؤون منك، لو رويت لهم هذه الخرافة.

ـ ليس لدي المزيد مما أقول، يا سيدنا، كنت فعلاً في الفردوس.

ـ ها أنت ذا مقتنع بأني قد سلمتك المفتاح الذي يفتح أبواب الجنان العلوية!

ـ الآن دون أدنى شك، يا سيدنا.

جلبة الأصوات أيقظت سليمان. جلس على سريره، حاجباه المقطبان يكشفان عن حيرة قصوى، نظراته تنتقل من وجه حسن إلى وجه يوسف.

فجأة تذكر كل شيء، أخذ يتحسس كامل جسمه باضطراب، اهتدت أصابعه إلى سوار حليمة المخبأ تحت جلبابه وقد ارتسمت الدهشة على وجهه.

ـ عجباً! ها هو ذا سليماننا يستيقظ. ماذا يمكن له أن يكون فعل في ليلته هو أيضاً كي ينام حتى هذه الساعة!

ـ ذهبت إلى الفردوس، بفضل سيدنا..

ـ تأملوا! تأملوا! هل تأمل منا أن نصدق حلمك اعتباطياً؟

ـ ليت أحداً يتجرأ على التشكيك بذلك فقط.. كنت أقصد بأني أملك الدليل الذي يثبت أني ذهبت إلى هناك فعلاً.

ـ تملك الدليل؟ أرني إياه إذاً.

أدرك سليمان متأخراً بأنه أتى على قول ما لا يجب قوله. أخذ يسوغ لنفسه.

ـ لست أدري كيف لهذا أن بقي بين يدي. شعرت بنفسي خائر القوى، فبحثت حولي عن نقطة استناد وفجأة أحسست بهذا السوار في قعر راحتي، بعد ذلك لم أعد أتذكر شيئاً.

ـ أثبت.

ـ أعطاه سليمان الغنيمة على مضض، تملّى السيد الحاجة بعين فاحصة، ناولها بعد ذلك إلى كبير الدعاة.

ـ شيء لا يصدق في الحقيقة لكأنه فعلاً سوار من الفردوس.

ـ زليخة كانت تملك مثله، لكنها منعتني من أن أحمله إلى هذا العالم.

سليمان، سليمان: قال حسن وهو يهز رأسه إني لأجد شيئاً غريباً في أنك استطعت أن تستحوذ على هذه الحلية هل اقترفت سرقة في الفردوس؟

أحسَّ الشاب المسكين بالخوف يتغلغل فيه.

ـ ربما لن يصدقني نعيم وعبيدة!.. لذا احتفظت به لأثبت لهما...

ـ هل أصدقاؤك يحسبونك كاذباً كبيراً إذاً؟

ـ ربما لن أصدقهما. أنا أيضاً لو راحا يحكيان لي ما سأحكيه لهما عن ذلك!

ـ جيد جداً. بالنسبة للحظة، فإني سوف احتفظ أنا بالسوار وعندما سأرسلك إلى الفردوس من جديد فسوف أعطيك إياه، لتحمله إلى هناك، لكن احترس ممّا ستقوله هناك كي تبرئ نفسك!

ابن طاهر الذي استيقظ منذ هنيهة، دون أن يكون قد صحا تماماً من ثمالته كان يتابع المحادثة باندهاش. وبثوانٍ عاودته ذكريات الليل، وضع يده على صدره وكبح رعشة خاطفة: فتحت قلبه بالضبط كان لا يزال مكان أسنان مريم يوجعه. التفت حسن نحوه.

ـ إني اسمع أشياء لا تصدق من فم صديقيك. تركتهما البارحة، مثلما تركتك، في هذه الغرفة الصغيرة، والآن يريدان أن يقنعاني بأنهما لم يقضيا

الليل في هذا المكان وإنما رحلا مباشرة إلى العالم الآخر. أنت من تحافظ دائماً على هدوئك ومن تعرف كيف تفكر. وفّر عليَّ مسألة تصديقهما، وإلا سأخاف السكن في جوار هذا المكان حيث تستطيع الأرواح الليلية أن تأتي في أية لحظة وتأخذكم من أيديكم وتمضي بكم حيث لا يعلم إلاّ الله.

ـ إني أعرف أنك تمزح يا سيدنا. فأنت تعرف حقاً من وراء رحيلنا الليلي... لكنك تريد الآن أن تضعني على المحك.

ـ أنت أيضاً يا ابن طاهر، أنت إذً تؤكد بأنك لم تقضِ الليلة في المكان الذي نحن فيه الآن؟ بعبارة أخرى، ليس التعبير بالمجاز إلاّ لتثبت.. أني أملك في الحقيقة مفتاح الفردوس بين يدي؟

ـ عفوك يا سيدنا لن يكون للشك بعد أبداً أن ينفذ إلى صدري.

ـ حسن. لكن بودي إذاً أن أعرف ـ يا أصدقائي ـ ما ستستطيعون قوله إلى رفاقكم. عندما سيسألونكم أين قضيتم الليلة؟

ـ سنقول الحقيقة: كنا في الفردوس بفضل سيدنا هذا كل شيء.

ـ ليكن ليبقَ إيمانكم راسخاً لا يتزعزع، لأن إيمانكم هو ما أنا بحاجة إليه من الآن فصاعداً. ليكن ضرباً مما يقال عنه أنه يزعزع الجبال! اذهبوا الآن وانضموا إلى صفوفكم.

نادى الخفير، وأمره أن يقودهم إلى أسفل البرج. عند بقائه وحيداً بصحبة داعيي دعاته، تمكّن أخيراً من أن يعرب عن عزائه.

ـ كل شيء إذاً جرى مثلما توقعت.

اندفع أبو علي نحوه باسطاً يديه.

ـ بروحي! ـ صرخ ـ إنك قد وجدت قانون أرخميدس.

عانقه الاثنان.

ـ حتى اللحظة الأخيرة، كنت أشك بالنجاح، اعترف بوزروق أوميد. أما الآن فأظن أنك نجحت فعلاً في تغيير الطبيعة الإنسانية، لقد صنعت لنفسك سلاحاً رهيباً من هؤلاء الحشاشين!

انتهى الفصل الثالث. . . . قال حسن متنهداً الفصل الذي يمكن أن نضع له هذا العنوان:

الصحوة. . . أو العودة من رياض الوهم. . . .

دعوة أصدقائهم الثلاثة للقاء الرئيس الأعلى، إضافة إلى غيابهم حتى ساعة متقدمة من الليل، هيَّجت عند الفدائيين حُمَّى الظنون والمجادلات.

عندما اجتمعوا في مهجعهم، لم يكن بإمكانهم أن يجدوا للنوم سبيلاً بل غرقوا في تصوراتهم المجنونة، ينتظرون عودة المصطفين السعداء، ويتحرقون لسماع حكاياتهم.

ـ سنعرف أخيراً شيئاً عن سيدنا.

منَّى نفسه عبيدة مقدَّماً.

ـ لماذا استدعاهم برأيكم؟ قال نعيم مضطرباً.

ـ لماذا؟ من المحتمل، كي يعنِّفهم، لأنهم انتزعوا من الأتراك رايتهم. . . .

ـ ليس عليك طرحت سؤالي، إني التمس الرأي من عقل مفكّر.

ـ ألا تحسبنَّ بعد كل حساب، إنه سيقودهم إلى الفردوس؟ قال عبدالله متهكماً.

من الواضح أنه دعاهم ليكافئهم. . ثم دون شك كي يدعوهم إلى وليمة الزعماء.

ـ ربما تكون مصيباً ـ قال جعفر متأملاً ـ

ـ إنما لماذا إذاً استغرقوا وقتاً طويلاً كي يعودوا؟ قال عبيدة مستغرباً ـ ليس من المستحيل أن يكون قد عهد إليهم بمهمة مشهودة. . هل من الممكن أن يكونوا غادروا القلعة؟

ـ ما جدوى النقاش في أمور لا ترتكز على شيء؟ جزم عبدالرحمن.

إننا لن نستطيع أن نتكهن بشيء، ما لم يعودوا ويخبرونا هم بأنفسهم أين كانوا وماذا رأوا.

من الأفضل أن ننام لا شيء يعادل في نظري ملذات راحة أفتقر إليها...

في صباح اليوم التالي. كان قد مضى وقت طويل على استيقاظهم، عندما ظهر الغائبون الثلاثة من جديد فجأة. هبوا جميعاً للقائهم. أحاطوا بهم، وانهالوا عليهم بالأسئلة.

ـ لنذهب أولاً إلى المهجع ـ اقترح سليمان ـ هناك سنستطيع التحدث. فأنا جائع وأطرافي محطمة كما لو كنت قد هرست بمدقة ولا أقوى على الوقوف وفور عودتهم إلى المهجع استرخى الأصدقاء الثلاثة على أسرتهم، وراح الآخرون يحضرون إليهم الحليب والخبز.

ـ من يبدأ الكلام؟ استخبر سليمان.

ـ إبدأ أنت أجاب يوسف. فإنني مضنىً لا أستطيع الاستمرار حتى النهاية... ثم إنني لو وجدت أحداً يسول لنفسه أن يتجرأ ولا يصدقني فإنني سأثور غضباً... وسيصبح من ذلك مسألة أخرى. تحلقوا حول الأسرّة الثلاثة.

ـ هل تؤمنون بالمعجزات؟ بدأ سليمان.

ـ نظر الفدائيون إلى بعضهم بعضاً، في معجزات الأزمان الماضية. بلى، قال نعيم فالنبي حرّم علينا الاعتقاد بغيرها.

ـ أصغوا إليّ. وماذا قال سيدنا؟

ـ أجهل ما قال بشأن المعجزات.

لهجة سليمان جعلت نعيماً محترساً.

ـ ألم تُبَلَّغ بأن الله قد أعطى إلى سيدنا المفتاح الذي يفتح فيه الفردوس؟

مكثوا في صمت طويل. وسليمان كان ينقل نظره الظافر من وجه إلى وجه آخر.

وبعد أن ابتهج بفضولهم ألقى بهذه الكلمات:

ـ أيها الفدائيون، أنعم علينا سيدنا في الليلة الفائتة بأن فتح لنا هذا الباب!

تلاحظوا دون أية كلمة، ثم انفجر عبيدة في ضحك صاخب، قلّده به الآخرون حالاً، ووحدهم مسافرو الليل من حافظوا على جديتهم.

ـ تواطؤوا كي يخدعونا... ! قال عبدالرحمن متهكماً.

ـ سليمان يسخر منا، كعادته القديمة ـ أردف نعيم

بدت من ابن فاكاس برطمة ازدراء.

ـ لندعهم. لقد سكروا. ناموا في حظيرة بعدما أُترعوا بالخمر. هذا واضح على وجوههم، فلا شك بأنهم يأملون أن يعتموا على فضيحتهم بهذا المزاج الذكي.

ـ كنت أعلم أن الأمر سيكون هكذا. استعر سليمان. قل لهم أنت يا ابن طاهر! سيصدقونك.

ـ حسبنا مزاحاً. قال عبيدة غاضباً. لو سمحتم أريد أن أعرف إن كنتم رأيتم سيدنا.

تناول الحديث ابن طاهر.

ـ أصغوا يا أصدقائي.... إني أعترف بأن من الصعب جداً التحدث عن الأشياء العجيبة التي عشناها طوال تلك الليلة. أنا أدرك تماماً أنكم ستسخرون منّا. مع ذلك فإن كل ما أتى سليمان على قوله هو من الحقيقة المحضة، أرجوكم أيضاً أن تتريثوا، أصغوا إليه، ودعوه يكمل...

كانت الجدية تبدو على وجهه، ولم يكن في لهجته أي شيء من المزاح، لكن، أفلم يكن في كل هذا على الرغم من كل شيء نوع من ملهاة أخرجت بمهارة؟

ـ إني لن أتورع أن أواجه والدي بأنه يكذب، لو خطر على باله أن يحدثني عن خرافة كبيرة مماثلة ـ صرَّح جعفر ـ أي غريب أجدك يا ابن طاهر، تترك لنفسك العنان كي تتلاعب علينا بهذا النوع من التهريج؟ لكن ليروِ سليمان. . . فإننا على أية حال، سنستمع إلى تلك الخرافة الجميلة التي أعددتموها من أجلنا.

نصب سليمان رأسه، ينقل بنظره حوله، وأخذ يسرد عليهم منذ البداية: كيف ارتقوا سلّم البرج بصعوبة. . . . لقاؤهم مع العملاق الذي كان يحرس. . . كيف كان أبو علي يقودهم أمام سيدنا. . . وعندما كان ينسى بعض التفاصيل كان يوسف يقاطعه في حديثه.

شوهد الفتيان ينقلون المحادثة الغريبة التي دارت بين الأصدقاء الثلاثة ورئيسهم الأعلى بدقة. أصغوا إلى التتمة وقد كشفوا عن فضول متزايد. مداخلات يوسف جاءت لتؤكد عن غير عمد صحة هذه القصة اللامعقولة. عندما صار سليمان في المرحلة التي أمر فيها سيدنا الفتيان الثلاثة بالدخول إلى الزنزانة ذات الأسرة الثلاثة، قطع المستمعون أنفاسهم، وانشدت عيونهم إلى شفتي ابن طاهر فهو أيضاً كان يصغي بانتباه. وباللاشعور، وضع يده من جديد على صدره، فاستطاع أن يتحسس الأثر الباقي لأسنان مريم على جلده، لقد عاد إلى تفاهة الوجود، وذكرى مغامرته الليلية المؤكدة بهذا الشاهد الذي لا ريب فيه جعلت قلبه يخفق باضطراب شديد. استيقظ فيه إيمان جديد كل الجدة هذا الإيمان الذي لا يتجاهل براهين الخبرة والعقل.

شرح سليمان بعد ذلك، كيف وزع عليهم سيدنا الحبوب المنومة العجيبة التي منحتهم الاحساس بالتحليق فوق بلاد مجهولة. روى ما كان حلم به عندئذ، قبل أن يفقد وعيه تماماً ثم عاد إلى اليقظة في الفردوس. كانت عيون الفدائيين تبرق، والحرارة تلون وجوههم، شوهدوا يضطربون

من التلهف... تابع الفتى قصته: ما رآه لحظة اليقظة... وصف أعاجيب السرادق الزجاجي الدقيق. وصف الصبايا أخيراً...

ـ ما فتئت تحلم ربَّما...

كان عبيدة قد أفلت هذه الملاحظة من بين شفتيه المتقلصتين فمن النظرات التي كانوا يتبادلونها باستمرار، كان يمكن للمرء أن يتنبأ كم كانت تعذبهم تلك الصور التي كانت تتزاحم في رؤوسهم. الصغير نعيم الذي كان يجلس القرفصاء بالقرب من وسادة ابن طاهر، وساقاه المثنيتان ترتجفان تحته، ووجهه ممتقع كوجه طفل روعته قصة الأشباح. كل ما كنت أراه في تلك الحجرة ـ تابع سليمان ـ كان دون ريب حقيقياً، مثلما هو حقيقي حضوركم أمامي. من المستحيل أن نتخيل زخرفاً بمثل تلك الروعة: كل شيء في ذلك المكان كان من الذهب والفضة، أسرة مغطاة بسجاد أكثر طراوة من طحلب الخشب..... أرائك يحسب المرء نفسه يغوص فيها، مآكل بنكهة إلهية تقدم بسخاء. خمر لذيذ يمنحك الصفاء دون أن يجردك من وعيك.

بالمختصر: كل ما نزل وصفه في القرآن الكريم وحوريات، يا أطفالي! بشرة مخملية بلون الحليب، عيون شفافة وصافية، نهود... يا الله! إن دمي يحترق لهذه الذكرى وحسب... لم يضنَّ عليهم بشيء من تفاصيل تجاربه الغرامية.

ـ آه! ليتني كنت أستطيع أن أكون هناك! صرخ عبيدة عاجزاً عن احتواء هذه الصرخة الخارجة من القلب.

ـ لو لمست واحدة منهن لانتزعت أحشاءك بيدي.

أشعَّت عينا سليمان كما تشع عينا مجنون. صدرت من عبيده حركة تراجع، كان يعرف صديقه: من الأفضل ألاّ يمزح معه إذ لم يسبق لهم قط أن شاهدوه بحالة كهذه، تبدلٌ لا حدوده له ـ أحس به كنوع من التهديد ـ حدث داخله خلال تلك الليلة.

ـ تلك الحوريات لي! هل تفهمون؟ إنهن لي الآن.. وإلى الأبد! لن أتخلى عن أية واحدة منهن، كان هذا ثمناً لحياتي. آه، يا غزالاتي الصغيرات!

نبع من الفرح، من السعادة التي لن تعرفوها قط، لا يحق لأحد أن يشتهي واحدة منهن. الله هيأهن لي!... إني أحترق لهفة وأحلم بأن يصرن حلالي... وإلى الأبد.

في الحقيقة، صار سليمان إنساناً آخر، كان الجميع ينظرون إليه بدهشة يشوبها الحذر وبدأوا يخشونه حتى.

ربما كان يوسف الوحيد الذي لم يلاحظ الإثارة البلهاء التي تملكت صاحبه، أو على الأصح تلك الإثارة كانت تبدو له تسير بشكل تلقائي. أو كان يتقاسمها معه بإبهام، لأن المحادثة نفسها قد تمت في داخله مع ذلك فإنه لدى سماعه سليمان يسرد تفاصيل تلك المآثر الغرامية خلص إلى الانفجار:

ـ ربما تريد أن تقنعنا بأنك في تلك الليلة الوحيدة والفريدة جعلت من تلك الحوريات التسع زوجات لك!

ـ ولماذا أكذب؟ ألم تفعل أنت منهن الشيء نفسه؟

ـ حتى في الأشياء الجدية للغاية، لا يستطيع سليمان أن يكفّ عن المبالغة.

كشر الآخر معرباً عن غضبه. خرقه سليمان بنظرته.

ـ ألجم لسانك. إني لا أبالغ أكثر مما يبالغ القرآن!

ـ الآن، القرآن يبالغ؟

حصل انفجار من الضحك وسليمان عضّ على شفتيه.

ـ على أي حال فإن نسائي لم يتوانين في تأليف الأشعار ليمجدن مآثري. لا يستبعد بأنك ستذهب إلى التأكيد بأن لسان الحوريات كاذب...

ـ حسنٌ. اقرأها علينا.

حاول أن يستجمع ذاكرته، لكن لسانه تعثر.

ورغماً عنه انفجر يوسف ضاحكاً مؤدياً بضع صفعات على ركبتيه، وقد جرّ الآخرين إلى هذا المرج الصاخب. قذف سليمان بنفسه عندئذ سليمان من على سرير ابن طاهر كالسهم، وسدّد لكمة في وسط وجهه. وبشكل غريزي رفع الآخر يده، ونهض بتؤدة، وقد استشاط غضباً.

ـ كيف! هل سأحتمل أن يضربني هذا البغل على وجهي.

وسريعاً كالبرق حشر سليمان خلف الحائط المقابل فصلّت السيوف التي كانت معلقة عليه، انتزع سليمان واحداً منها ونظر في خصمه بعينين مخيفتين.

ـ يا ابن الكلب سأجهز الآن على حياتك.

امتقع يوسف وقد عاوده الغضب في اللحظة لكن قبل أن يستطيع القيام بأية حركة فإن ابن طاهر قد ارتمى فوق سليمان، وأمسك بذراعه.

جعفر، وابن فاكاس والآخرون هبوا إلى نصرته، وجرّدوا المسعور من سلاحه...

ـ هل غدوت مجنوناً؟ ليلة في الفردوس بفضل سيدنا... والآن مجزرة بين الأصدقاء... وأنت يا يوسف لماذا غضبت؟ لماذا قاطعت قصته؟ دعه يروي كما يحلو له، إننا لسنا جميعاً من طينة واحدة وكل واحد يوجه نفسه كما يشاء.

ـ ابن طاهر على حق. أرتأى جعفر، لنترك سليمان حتى ينتهي ثم يكون دور يوسف، ثم دوره.

صار الجميع يرجون سليمان بأن يتابع سرد حكايته، كان يوسف يشبك يديه فوق صدره، بتشبث وهو ينظر في السقف، رمقه سليمان بنظرة ساخرة. ثم أكمل رواية قصته.

شيء غريب، فأي من هؤلاء لم يعد يشك الآن برحلتهم الحقيقية إلى الفردوس لقد طرحوا ألف سؤال عن خصوصيات المكان. لم يغفلوا أي شيء عن تنظيم الحدائق السماوية... أو الصبايا اللواتي يسكنّها. كلهم كانوا يحلمون بالحوريات الحسناوات، وقد وقع قلب كل منهم على اختيار من راقت له من هذه الجميلات، اللواتي أغرق الثلاثة في وصفهن.

ـ وأفقت في نفس الحجرة التي نمت فيها البارحة مساءً؟

مهر نعيم في طرح الأسئلة الطفولية.

ـ تماماً كل شيء كان كمّا في المساء الفائت. باستثناء ما أحسست به تحت جلبابي، السوار الذي عهدت إلي به حليمة.

ـ لماذا استرجعه منك سيدنا؟

ـ دون شك، لأنه يخشى أن أضيعه. لكنه وعدني بأن سيعيده إليّ عندما سيرسلني في المرة القادمة إلى الأعلى.

ـ ومتى سترحل إلى هناك؟

ـ لا أعلم ذلك، إن شاء الله يكون ذلك في القريب العاجل.

جاء الآن دور يوسف كي يروي مغامرته.

كانوا يعرفون بدايتها ونهايتها، وعليه أن يتقيد بسرد ما يخص إقامته في السرادق العجيب من هذه القصة. خاصة وأن الرقص والغناء قد بهراه، لقد تضرّم وهو يتذكر محاسن سليقة... جمالها، حركات رقصها الشهوانية ولم يكن ينتهي من تعداد فضائلها. صرّح بوضوح عن أكثر ما جعل قلبه يقع أسيراً. لكنه يتأسف الآن لحظة الشهوة التي حملها في لحظة خاطفة نحو جادا ولم يتردد في المبالغة في إظهار إخلاصه لتلك الوحيدة التي اختارها قلبه ـ هي وحدها زوجتي ـ جزم ـ كل الأخريات لسن إلا تابعات خُصِّصن لخدمتي لأنه على الرغم من أن رقّة كانت تميزهن جميعاً لكن أية واحدة لم تكن تعادلها في الحُسن.

كان سليمان راوية بارعاً، من المحسوس، أن حكاية يوسف لم تأخذ بلب الحضور تماماً. إذ لم يتوصل إلاّ في مرة واحدة إلى إثارة الفدائيين.

كان هذا عندما تذكر نزهته في الجنائن المضاءة بطريقة تدعو إلى الغرابة، فهذا لم يره سليمان.. الأمر الذي أثار أسفه فانغماسه بإغراء عجائب السرادق الخلاّبة، ألهاه عن فكرة استكشاف الخارج.

حكاية ابن طاهر كانت أكثر إيجازاً من كل الحكايات فقد روى كيف استقبل من قبل مريم التي صحبته إلى الجنائن وأرته جدار الأعراف وعن الظل الذي كان يهيم على قمته، ظل ذلك البطل الذي سقط شهيداً في الماضي، وهو يدافع عن الإسلام متمرداً على إرادة ذويه،... وعن مريم روى ابن طاهر بأنها كانت أفطن من الداعية إبراهيم، كيف اعتراه الشك للحظة، وكيف مرّغه عندئذ في التراب كائنٌ شبيه بالقط وقد استجاب عندما نُودي باسم أهريمان.

هذا الحيوان، والأعراف وظل أبطال الماضي... ما كان منه الأمر العظيم لإثارة فضول الفدائيين. وللأمانة فإن ابن طاهر لم يكن ثرثاراً في ذلك اليوم بالذات ـ دعونا نسترح، ـ ختم قوله ـ بعد قليل ستملون من سماعنا وستعرفون عن ذلك ما نعرفه. التفتوا عندئذ نحو يوسف وسليمان اللذين كانا أكثر سخاءً بالمعلومات.. وما هي إلاّ برهة حتى صار أبطالنا الثلاثة في نظر رفاقهم كهؤلاء الملوك من الفرس الذين لم يكونوا يترددون بأن يضعوا أنفسهم في مقام الآلهة.

لم تغمض أباما عينيها طوال الليل. كانت الظلمة تبعث أشباح ماضيها، أيام صباها المشهودة وليالي شبابها الرائعة. تذكرت كل شيء بدقة مرعبة، كانت تعاني آلاماً كآلام الجحيم، وما لم يكن يحتمل بالنسبة لها هي التي احتلت مكان الصدارة، ذات يوم تواجه إثر ذلك مشهد انحطاط مقامها اللامتناهي الرفيع، وأخريات غيرها صرن يسدن مملكة الحب الآن.

عندما بدأت أشعة الشمس الأولى تذهّب قمم (الإيبليورز) نهضت

متوعكة الصحة، رمادية البشرة، شعثة الشعر، تتأمل الأفق، وعبر تشابك الأغصان الممتدة عند أعلى مدخل بيتها الصغير. هناك أمام ناظريها، كانت تنتصب آلموت التي أوصدت الباب إلى الأبد أمام عودتها إلى الدنيا، ولكن ماذا تفعل الآن في هذا العالم، وقد صارت هرمة وذاوية؟ الحمد لله، على أن حسناً أنقذها من البؤس، وأخرجها من النسيان! هنا كانت لها مملكتها، حقاً إنها لهيمنة محزنة، لأنها تذكرها بالتأكيد بأيام الماضي.

عظمة شيطان ممضة أو على الأصح عظمة ديك يسير بطيئاً على مزبلة ما.

في لياليها المنذورة للحزن، كانت تتساءل حول الدور الذي لعبه حسن في حياتها. في الماضي وقبل الآن بسنوات طوال، كان شاباً عاشقاً، نصف مفكر، نصف نبي، وحيث إن الزمن ورجالاً آخرين أكثر ألقاً منه قد امحوا تقريباً من ذاكرتها.

ربما أوشكت أن تنسى اسمه، كان منهمكاً ودون توقف باضطرابات عصره ومن محاولاته الدينية. كان ذلك منذ عامين بالكاد وبينما كانت غارقة في قعر البؤس، عندما قدم مجهول فجأة، يحمل إليها رسالة منه كتب لها فيها أنه سيد قلعة عظيمة، ويتمنى أن تجيئها، وأنه بحاجة إليها. لم تفوت الفرصة، وأزمعت في الحال. آمال مبهمة وشاحبة تسللت إلى قلبها رغماً عنها، صارت ترى حسناً عندئذ في أوج قوته... في الماضي كانت الغلبة لها، أما اليوم فهل انقلبت الأدوار؟ هل كانت تحبه؟ لم تكن تعلم، لكنها أدركت أخيراً مدى العذاب الذي تعانيه امرأة كانت تعيش في جوار رجل أحبها في الماضي بكل جوارحه، وهو قلّما يفكّر بها الآن ولا يسعى حتى لأن يخفي أمامها هيامه بامرأة أخرى.

خرجت من بيتها، آلاف العصافير كانت تغرد في الأدغال، والندى يلمع على العشب، وضمن الأوراق، يرصع تويجات الأزهار. كان صباحاً صيفياً مشرقاً، ليس له إلاّ أن يؤجج عذابها.

نفضت أفكارها الحزينة، وراحت تغسل وجهها من دلو الماء، رتبت شعرها الحرون كيفما كان، حانقة لعدم استطاعتها أن تزيل بشكل أفضل علامات تلك الليلة التعيسة، ثم توجهت نحو المبنى القريب جداً من مكان منامة الخصيين. كان صوت شخيرهم الصاخب يسمع من خلال الباب نصف المفتوح، هذا النوم المطمئن، المستريح قد أثار حنقها. فأهابت بهم بأن النهار قد أضحى، وحان وقت العمل.

كان مصطفى مستعراً وعدي يضحك.

ـ ساحرة ملعونة.

ـ عجوز حقيرة، لا بد أنهم وجدوها بين النفايات!

فتحت الباب على مصراعيه وهي غاضبة، نعلها الخفيف طار في الهواء ولامس رأسها.

وبقفزة ارتدَّت إلى الوراء.

ـ انتظروا أيها الكلاب! سيقطع سيدنا سيوراً على ظهوركم.

ضحك قوي دوَّى له البيت.

ـ إلى تخشيباتكم أيتها الحيوانات! لا تنسوا أن عليكم أن تعيدوا الصبايا إلى بيوتهن. . . وبسرعة، لئلا يباغتهن سيدنا هكذا.

نهضوا وهم يتثاءبون، لبسوا جلابيبهم الملونة بتوان، وخرجوا متثاقلين. . . حريصين على ألاّ يوجهوا اية نظرة إلى تلك العجوز المحتقرة، لا هي، ولا هم في النهاية كانوا يعرفون من أين جاءهم ذلك الكره المتبادل. مضوا إلى ضفة الترعة حيث اغتسلوا قليلاً ثم صعدوا جميعاً إلى المراكب التي ستصل قريباً إلى وسط المجرى.

أخذت أباما مكانها قرب عدي. والآخرون فعلوا كل ما بوسعهم للتعاظم عليها.

ـ انتظروا قليلاً: أيها الأنذال! سيضحك طويلاً من يضحك أخيراً!

إن الله يعلم لماذا، وسمح بأن تنتزع منكم رجولتكم... «حذار من أسفل بطنك، وإلاً سأقطع القليل الذي بقي لك، وها أنت تصبح بيننا».

كان عدي يسيّر المركب بطريقة خطيرة، وأصحابه «يتلذذون» كثيراً برؤيتهم العجوز تتشبث بحافة المركب كي لا تسقط في الماء. وصلوا أخيراً الجزيرة التي تنام فيها فاطمة وثلتها الصغيرة.

قفزت أبّاما إلى الأرض، واستلمت الممر الذي يفضي إلى السرادق. كانت الطبيعة في أول يقظتها، وكانت الشمس تداعب أعالي المنحدرات.

نظرت من خلال زجاج القاعة، والصبايا المسترخيات دون حياء بين فوضى الأرائك يستسلِمْنَ لنوم عميق. يا لها من امرأة همجية هجمت على المدخل وتناولت مطرقة الصَّنجة، طرقت الأسطوانة المعدنية بغيظ شديد والصبايا المروّعات، هببن واقفات على الفور.

ـ أيتها الفاسقات! فسقتن طوال الليل، وتنمن الآن في حين أن النهار صار ضحى، بسرعة إلى المركب، وإلى البيت! حسب سيدنا ألا يباغتكتن وأنتن على هذه الحال! تدثّرن في معاطفهن،وجرين نحو القناة، لا زلن غير صاحيات تماماً، ودوار أخذ برؤوسهن من الموسيقا الصاخبة، التي أيقظتهن بهذه الطريقة، هيئة شاحبة، شعر أشعث، تكدسن في المراكب، ومريم جاءت إلى لقائهن على ضفة الجزيرة المجاورة. كان لديها متسع من الوقت كي تتجمّل ولتضع أحمر الشفاه. إنما كان من الواضح تماماً أنها قضت ليلة سيئة. تقاطع نظرها مع نظر أبّاما، التي اعتقدت للمرة الأولى أنها كشفت عن تواطؤ سري.

اصطحبت المرأة العجوز الخصيين أثناء زيارتهم إلى السرادقات المجاورة، حيث هناك أيضاً، انسلت النائمات من أسرتهن برشاقة، لمحت عندئذ مريم التي كانت تنتظرها عند الجرف.

ـ ألم تنامي؟

ـ لا، وأنت؟

ـ ولا أنا.

ـ في الحقيقة إن حياتنا لغريبة فعلاً. . .

كانت تقصد: مرعبة، لكن أباما قد فهمت ذلك. كانت زليخة وصاحباتها يكددن ليخلّصن أنفسهن من نكبات الليل، أسرعن في العودة، وفي موعد صلاة العصر كان كل شيء قد عاد إلى النظام. عادت الحياة من جديد.

قبل بدء المساء اقتحم حَسَنٌ بيتهن يرافقه أربعة من حرّاسه. كان يريد أن يعرف منهن مباشرة كيف جرت الليلة الماضية، أمَّا هنّ، فأجبن على أسئلته بصوت مرتجف.

وفجأة سحب من جيب جلبابه سواراً من الذهب واراهنَّ إياه سائلاً:

ـ أية واحدة منكنّ كانت تضع هذه الحلية؟

تعرفت عليها حليمة في الحال، فهي لها، وأوشك أن يغمى عليها من الرعب. عجزت أن تنطق بأدنى كلمة. أما الأخريات فلم يكنَّ أكثر ارتياحاً.

كانت مريم تجول بنظرها من وجه إلى وجه، وما أن توضعت عيناها على حليمة حتى فهمت. نظرت إلى حسن مسترحمة إياه بصمت. واطمأنت قليلاً فقد هيئ لها أنها ترى بريقاً من الخبث تنم عنه شفتاه.

ـ هذا السوار إذاً ليس لأية واحدة منكنَّ في هذه الحالة يكون الفدائي كذب عليَّ. .

رمق حليمة بنظرة ثاقبة. ودموع غزيرة سالت على وجنتي الشابة التي كان منديلها يهتز. وتبادر إلى ذهنها أن رأسها سيصير إلى النَّطع وبرودة الشفرة ستنزل على قذالها.

ـ شيء جميل يا عزيزتي حليمة، هل تعلمين ما كان عليَّ أن أفعله برأسك الطائش؟ كنت سأقدم على ذلك دون شفقة، لو أن الولد اكتشف سرنا نتيجة غلطتك.

يسرني هذه المرة أن أهدي إليك الحياة. لكنك لن تفلتي من الفأس في المرة القادمة.

أعاد السوار إلى تحت جلبابه.

أشارت مريم إلى حليمة التي اندفعت سعيدة لتجثو عند أقدام حسن. تمنت أن تشكره، لكنَّ الكلمات استعصت عليها، فاكتفت بتقبيل يده.

ـ أتمنى أن تبذلن ما بوسعكن في المستقبل. ـ قال ـ وهو ينصرف، فقد اكتسبتن في هذه الليلة خبرة يتوجب عليكنَّ استخدامها في سائر الحالات. كنّ متأهبات ليلاً ونهاراً. انحنى أمامهن وطلب من مريم أن تتبعه.

ـ انتظريني هذا المساء. لديَّ أمور عدة لا بد من أن أقولها لك.

ـ أمرك، أجابت، ولأول مرة تشعر بأن لقاءها به لم يمدَّها بأي فرح.

عند قدوم المساء. تجمعت الصبايا حول بركة الماء. والمحادثة دارت حول أحداث الليلة الفائتة. وعن مقارنات بين مزايا الحدائق المختلفة. كانت حليمة جالسة، وهي تتوارى، تصغي دون أن تنطق بكلمة، وفجأة أحسَّت برغبة حقيقية بالبقاء وحدها. كانت تخبئ في قلبها سراً كبيراً. أحد لم يكن يعرفه. ولم تكن تجازف بالبوح به إلى أي أحد كائناً من كان.

لقد أحبت سليمان، أحبته بجنون. ولا سيما أن سؤالاً واحداً كان يعذب روحها، لكنها لم تتجرأ على طرحه، توجهت أخيراً إلى فاطمة.

ـ هناك شيء لم أفهمه جيداً. هل الزائرون أنفسهم من سيأتون في المرة القادمة؟

ـ نظرت إليها فاطمة، وفهمت كل شيء على الفور وقد هصر قلبها شفقة. أجابتها:

ـ هذا ما لا يعرفه أحد. يا طفلتي الغالية.

رمقتها حليمة بنظرة قلقة. اشتبهت بها أنها تنبأت بالمقصود هل من المعقول ألاّ ترى سليمان ثانية؟ شكوك عذبتها، وأرقتها طوال الليل. افلم

يكن العبء الذي كانت تحمله ثقيلاً جداً بالنسبة لها؟ إنما بالوقت نفسه أفلم تتوقف عندها مرحلة الطفولة؟. . .

في اليوم نفسه انتشر الخبر في القلعة كلها: فتح حسن باب الجنة لفدائيين ثلاثة، لليلة واحدة من الزمن. أراد أبو سراقة أن يستفهم ممن يعنيهم الأمر أنفسهم عن هذا الموضوع. وجدهم نائمين لكن أصحابهم نقلوا إليه ما كانوا سمعوه منهم بالذات. نضح جبين الرجل الطيب عرقاً لذلك. وراح في الحال يلتقي أبا علي ويطلعه عما يرويه الفدائيون لمن كان يريد أن يسمعه.

ضحك الآخر ضحكة متعاظمة وقدم هذه الملاحظة الوحيدة.

قالوا ذلك، فهذا يعني أنهم يؤمنون به. وإذا هم به يؤمنون، فهذا يعني أنه صحيح، فأي حاجة سيحصلون عليها في كشف الحقيقة؟

أذعن أبو سراقة وهو مروّع وراح ليلتقي الطبيب كي ينقل إليه الخبر ويطلع على رأيه.

ـ يبدو أن حسناً اخترع هذه البدعة كي يروِّضنا ـ قال له ـ إنما كيف استطاع أن يحث كل هؤلاء الشبان المغرمين بالحقيقة والمخلصين جداً لها، حتى ذلك الحين كيف استطاع أن يحثهم على الكذب بطريقة فاحشة؟

ـ أخشى ألاّ يكون وراء هذا الأمر شيء أخطر من ذلك ـ أنذره الإغريقي
ـ هل تتذكر محادثتنا حول الحريم القائمة وراء القصر؟ هل يمكن أن يكون قد أعدّها من أجل هؤلاء الفتيان تحديداً؟

ـ إنما لماذا إذاً لم يطلعنا نحن أيضاً على السر؟ لأنه يعلم جيداً. إنه كلما كنّا أقلّ دراية، كلما أكثرنا من التخمينات.

ـ هل تريد نصيحتي ايها الداعية الماجد؟ الق عنك كل الظنون، تماماً، وانسَ ما سمعته. وإلا لست أدري إن كنت سأجعلك تدفع الثمن غالياً فالمسألة ليست مسألة هزار لا مع الزعيم ولا مع هؤلاء الشبان المتحمسين

أيضاً. كثيرة هي الأشياء التي رأيتها في حياتي لكنني وجدت في ابن الصباح لغزاً يتجاوز إدراكي وخبرتي.

وبنفس مضطربة التفت أبو سراقة ليتفرغ إلى أعماله: فقد كانت مغامرة الفدائيين الثلاثة الليلية تشغل باله بوسواس لا يقهر.

أمّا الداعية ابراهيم، فقد تلقى الخبر بشكل مختلف. اندهش في البداية كما هي الحال عند الآخرين، ثم استبان حقيقة الأمور في عقله. . . «سيدنا يفهم ما يفعل ـ استخلص ـ نحن أدوات في يده، وإن هو لا يطلعنا على الأمور، فذلك لأن له أسبابه المقنعة».

لقد علّق على الموضوع في الثكنات بحماسة كبيرة. فبعض العرفاء وبعض رجال الجيش المعينين لخدمة موائد الفدائيين، كانوا يرهفون السمع لمحادثتهم وينقلون خبر هذه المعجزة الخارقة، لأنها شيء مذهل، فغالبية هؤلاء الذين كانوا مطلعين بهذه القصة المأخوذة عن الفتيان بشكل مباشر، كانوا مقتنعين بأن زيارتهم إلى تلك الرياض العجيبة ما هي إلا معجزة لا أكثر ولا أقل. . . وكل الثلة شاركتهم وجهة النظر هذه.

ـ لا يمكن لسيدنا إلاً ان يكون نبياً عظيماً، كي يعطيه الله هذه القدرة! همسوا كتعقيب نهائي.

ـ وإذا كان ما قاله الفدائيون من اختراعهم؟ قال واحد مرتاب.

ـ هذا غير وارد! كان يجزم في كل مرة واحد من هؤلاء الذين سمعوا أبطال هذه المغامرة المستحيلة يتحدث.

لا يزال الجميع مفتونين بقصة الفتيان الثلاثة.

ـ في هذا على أي حال البرهان الأمثل على أن الإسماعيلية هي الدين الوحيد الصحيح. وما هو إلاً كافر ومجدف من يمكن له أن يستمر في شكه في رسالة سيدنا بعد كل هذه المعجزات!

وقد سارت الآراء الأخرى حتماً في نفس الاتجاه. . .

ـ لن أوفر من الآن فصاعداً هرطقياً واحداً أمّا ذاك الذي لن يعترف جهاراً بأن سيدنا نبيٌ كبير فلسوف أشطره إلى نصفين.

ـ نعم، سيكون لنا ابتهاج حقيقي في مواجهة هؤلاء الكفرة الفَجَرةِ! لا بد من إبادتهم جميعاً تحت سيوفنا: افتتن الأمير مينو تشرتشر بصدى إحدى هذه المحادثات. وللحظة أصغى بصمت. ثم جعلهم يروون له كل شيء من بدايته حتى نهايته. كان الجنود يرقبونه بفضول. لكنَّ أصغر عضلة في وجهه لم تتحرك. عندما أدرك أنهم ينتظرون منه تصريحاً، أوجز حديثه:

ـ إن أثبت الفدائيون بأنهم حلّوا فعلاً في الفردوس بفضل الرئيس الأعلى، وإن لم يكن يكذب هذا الزعيم، فسوف يكون لزاماً علينا أن نصدقه وأن نتصرف بحسب المقتضى.

مع ذلك، عاد إلى بيته مقطّب الجبين هو أيضاً، كان متحيراً لأن الزعيم لم يضعه على بينة من سرّ خطته. لكن الحماسة الضارية التي لحظها عند جيشه أثار اهتمامه أكثر أيضاً. لم يكن يشك أبداً بوجود بدعة ما في أصل هذه القضية، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتصور على أي شيء بالضبط ترتكز. كان يشعر فقط بأن جنوده المحنكين القدماء لا ينتظرون إلاّ إشارة كي يتحولوا إلى مجموعة من المتعصبين المستعدين لكل أعمال العنف والتي لن يعود هو سيدها الحقيقي وإنما سيتلقون أوامرهم مباشرة من سلطة محجوبة: سلطة الزعيم الديني بالذات ماذا عليه أن يفعل بعد سوى أن يتأقلم بدوره مع هذا التيار الذي لا يقاوم؟

لقد عينه حسن أميراً، ولهذا الامتياز ميزة دينية ليست أقل من ميزتها العسكرية من الأفضل له أن يصبر وينتظر حتى تتضح الأمور من تلقاء نفسها. إنما أليس هو ومهما يكن من أمر واحد من أجزاء تلك الآلة التي ركّبها حسن؟

لم يكف الفدائيون طوال النهار، وطوال المساء، وحتى ساعة متأخرة

من الليل، عن الاسترسال في مزيد من الاستفسارات حول مغامرة رفاقهم الثلاثة، يمحّصون كل جزء من قصصهم، ولم يتوانوا لحظة عن كشف المزيد من القضايا والمتناقضات.

ـ الحيوان الذي وثب عليك يدعى فعلاً أهريمان؟ سأل نعيم ابن طاهر. من الواضح أننا بصدد واحد من تلك الأرواح المدجنة التي طردها النبي من دمافاند وعليه أن يقوم على خدمة حورياته كعقوبة له.

ـ هذا ممكن للغاية. كل ما أندم عليه هو عدم نجاحي في أن استفيض بما يخص هذا الموضوع.

لكنَّ ذلك المكان كان يعج بالأشياء التي تفوق الفهم، والأوان قد فات الآن.

في تلك الليلة. تعذر النوم على الجميع، كان الطقس حاراً ثقيلاً، كانوا يتقلبون في مراقدهم، وكل أفكارهم قد تعلقت بتلك التصورات الفردوسية، التي رُسمت أمام عيونهم بألوان فاقعة: صبايا نصف عاريات يغنين، يرقصن من أجلهم كانوا يتحسسون أنفاسهم الفاترة تداعب أجسادهم، نعم كنّ هنا غافيات إلى جانبهم على أرائك طرية، يشبعن رغباتهم الظمأى.. من مرقد إلى مرقد كانت تتناثر جلبة لهفتهم الرهيبة: تنهدات، صرير أسنان، أنات مخنوقة...

بعد منتصف الليل، كان القمر مؤطراً بالنافذة المفتوحة، عند سرير ابن طاهر... وفي نظرة خاطفة على يساره. وعلى يمينه. كان يوسف وسليمان ينامان بارتياح كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لهما ـ فكّر ـ أما من جهته هو فقد أحسَّ بنفسه قلقاً بشكل غريب. شكوك قاسية كانت تعذبه، لقد كان يتصور أن الأمر انتهى به إلى اعتبار مغامرته مجرد ثمرة لحلم... لكن هل كان يستطيع أن يشك بمريم هذه التي أحبها بكل جوارحه منذ ذلك الحين؟

حوالى الصباح، حزم أمره، نهض، وزحف باحتراس حتى سرير نعيم.

ـ هل أنت نائم يا نعيم؟ سأل بصوت خافت.

ـ لم أستطع ذلك. ماذا تريد.

نصب رأسه ونظر إلى ابن طاهر بحذر.

ـ هل لك أن تسكت؟

تملك الخوف نعيماً.

ـ لا تخشَ شيئاً. لن يمسَّك أي أذى. أريد فقط أن أفضي إليك بشيء ما.

ـ سأصمت. تستطيع أن تثق بي.

ـ هل أنت مستعد لأن تعدني بذلك بحق اسم علي المقدس؟

ـ بحق اسم علي المقدس يا ابن طاهر.

ـ حسن تعال إلى القرب من النافذة.

على نور بداية شروق النهار كشف له ابن طاهر عن الأثر الذي تركته نهشة مريم.

ـ هل ترى؟

ـ نعم، إن المرء يحسب أن أحداً عضك.

ـ انظر عن قرب أكثر!

ـ يا الله أي فاه صغير!

ـ هذه عضة أسنانها يا نعيم.

ـ أسنان مريم؟

رعشة متصقعة سرت في ظهر ذلك الولد المتخوف.

ـ نعم هذه هي الذكرى التي تركتها مريم، ستختفي هذه العلامة قريباً تناول قطعة من الشمع وذوّبها، ستساعدني بأخذ طبعة.

ـ حبًا وكرامة، يا آفاني.

ـ بعد قليل صار الشمع جاهزاً، عجن ابن طاهر شيئاً على شكل قرص. وعندما صار طرياً بما يكفي، لصقه على صدره، ثم رفعه بتؤدة. طبعة أسنان مريم الخفيفة نقشت على سطح هذا الختم المرتجل.

ـ يا الله! زفر ابن طاهر، نُقل في الحال. اعتباراً من هذا اليوم سيكون لي من هذا كنزاً عزيزاً. عانق نعيماً.

ـ أشكرك أيها الصديق، أنت الوحيد الذي يشاركني هذا السر. إني أثق بأمانتك.

ـ إنسان سعيد، قال نعيم متنهداً أنا أيضاً أتمنى لو أحب هكذا فعلاً. . .

ـ ربما يكون من الأفضل ألا تعرف هذا الشعور. فهذا الحب هو الجنة والجحيم بالوقت نفسه.

على هذه الكلمات افترقا، ومضى كل واحد إلى سريره.

ـ أنت سيد رهيب. عقبت مريم عندما جاء حسن لزيارتها ليلاً.

بيدك حق الحياة والموت علينا جميعاً. ماذا ستفعل بضيوف البارحة؟

نظرها حسن وهو يفكر ملياً.

ـ لا أعلم، فالظروف هي من تحكم.

لاحظ وجنتيها الفائرتين.

ـ لديَّ انطباع بأن الليلة الفائتة كانت بالنسبة لك امتحاناً عسيراً، قال بسخرية مبطنة.

ـ أنت تمنحني الكثير مما يجدر التفكير به يا ابن الصباح.

ـ عندما تنخرط امرأة في التفكير، تصبح خطيرة.

ـ أرغب أن أكون كذلك الآن.

ـ ماذا ستفعلين عندئذ؟

ـ سأهيب بالفدائيين أن يحترسوا منك.

ـ ينبغي إذن أن يكون برجي بينك وبينهم.

ـ ربما لا. لا سبيل إلى ذلك.

ـ أيها النساء، النساء، أنتن تفضن كلاماً، أما عند الفعل، فإنكن ترتجفن. للحظة أحسست بأنك قريبة جداً مني كنت سعيداً جداً لذلك، أمَّا الآن فأنا وحيد من جديد.

ـ لا حيلة لي بذلك. أفعالك ترعبني.

بقيا صامتين لوقت طويل ثم قالت:

ماذا ستفعل بالصبايا اللواتي سيتأثَّرْن بلهو الليلة الماضية؟

ـ أبّاما تعرف مواد وأعشاباً سوف تفي بالغرض. وفي حال عدم نجاح هذا، فسوف نترك الطبيعة تأخذ مجراها. جيل جديد سيأتي دائماً في الوقت المناسب.

ـ أطفال مساكين سيجدون أنفسهم أيتاماً من الأب.

ـ لن يكونوا الوحيدين. عزيزتي مريم لدي إحساس بأنك تودين أن تطرحي عليَّ سؤالاً آخر.

ـ لا أريد أبداً أن تسيء تأويل تفكيري.

ـ تكلمي فقط.

ـ كيف حال ابن طاهر؟ لقد أحست بالدم يصعد إلى وجهها لدى إفلاتها هذه الكلمات.

ـ هل أنت متعلقة به إلى هذا الحد؟ أظن أنه إمَّا يجتر أو يقهر عذابه العاطفي بطريقة ما.

ـ أنت ظالم!

ـ لم أعمل إلاَّ على تحقيق ما يبدو لي أكثر واقعية.

ـ هل ستكون مستعداً لتنفيذ واحدة من رغباتي؟

ـ نظر إليها حسن. لم ينطق بشيء أشار إليها بالتكلم.

ـ أرجوك، لتُحطهُ بشفقتك من أجلي.

ـ شفقة؟ ماذا تقصدين بذلك؟ أنا لا أعرف لا شفقة ولا ظلماً ولم أعمل إلاّ على تنفيذ خطتي.

ـ أفهم جيداً. لكنني أريد أن تأخذ رجائي في الاعتبار عندما ستمضي إلى اتخاذ قرار بصدد ابن طاهر بما له صلة بخطتك.

ـ أنت تطلبين كثيراً. ما جدوى هذه العشرين سنة من الاستعدادات؟

ـ انظر! لقد أطعتك على الدوام. وسأطيعك على الدوام، لكن عدني بهذا الوعد.

ـ لا أستطيع أن أعدك بشيء. فهذا يتجاوز حدود إمكانياتي.

ـ وماذا ستفعل لو اكتشف الحقيقة بنفسه.

ألقى عليها نظرة مستنكرة.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا تخشَ شيئاً، إني لم أبح بشيء، على الرغم من أنه كان جديراً بذلك.

لو جاء على كشف الحقيقة من تلقاء نفسه، يعني لو أنه قد أتى على كشف جزء من مشروعي؟

فلسوف أصدق فعلاً أنه قد فهمني. وسيصبح وريثي الروحي. هذا إذا لم يحسبني مخادعاً.

سيزعق في العالم قاطبة أنني دجال... نعم هذا هو الأكثر احتمالاً: كيف لواحد بعمره أن يفهم ما كرست من أجل فهمه حياة بأسرها؟

ـ وإن كان فهمها مذ ذاك؟

ـ أنت تطرحين أسئلة كثيرة. وكلانا متعبِ. لقد تأخرنا.

دموع لمعت في عيني مريم.

ـ لا تزالين طفلة!

دون أن ينطق بكلمة. توجه نحو الضفة حيث ينتظره عدي بالقرب من المركب.



الفصل الرابع عشر

سرعان ما عرفت نتائج هزيمة مقدمة جيوش السلطان أمام آلموت. ومن كل الجهات وصلت بيانات عن تطور المسألة.

في اليوم الذي تلا المعركة، توجه عبدالملك ممتطياً حصانه، على رأس عشرين فارساً إلى قلعة رودبار وتمركزوا عند المساء على مسافة مناسبة من الأسوار.

الجواسيس المسرعون إلى خطوط العدو نقلوا أنه لم يكن هناك كمحاصرين إلا حوالى مائة من الأتراك. ما كاد يطلع الصباح حتى أعطى الداعية أمراً بالهجوم. وكسرب من النسور، نزل الرجال المنحدر مسرعين ومن الهجمة الأولى اهلكوا ما يقارب نصف قوات العدو. وتفرق الباقون في كل الاتجاهات.

أرسل عبدالملك جواسيسه بعد ذلك في لقاء جيش السلطان في حين انطلق هو بأقصى سرعته مع مفرزته باتجاه قزوين، ثم باتجاه الرَّي من هناك عاد إلى آلموت محضراً معه ثلاثين سجيناً وقعوا في الأسر خلال مسير الطريق.

وبالإجمال فقد استغرقت الغزوة أربعة أيام بالكاد

منطقة الرودبار في غليان. الشعب الذي كان ـ يبجّل علياً ـ في كل وقت بشكل سري، ويمقت السلطان، كما يمقت خليفة بغداد العباسي، مجّد الانتصار الإسماعيلي كانتصار له هو بالذات. ومنذ الأيام الأولى التي تلت

القتال، قدِمَ معتنقون جدد إلى أبواب آلموت. متلهفين لأن يضعوا أنفسهم في خدمة الرئيس الأعلى.

عقبات كثيرة كانت أمام أبي سراقة بسببهم. وَجَّه الأكثر فتوة، والأقوى منهم إلى مدرسة الفدائيين. ومن الآخرين، أسس مينو تشرشر وحدات جديدة. كثير من الجنود القدامى والذين تميزوا في المعركة رقّوا إلى عرفاء. العرفاء القدامى وضباط الصف عُينوا في مراكز مشرفة خلال أقل من عشرة أيام من إحراز النصر، كانت هناك ثلاث وحدات جديدة، كل واحدة منها تتألف من مائة رجل، ألحقت بجيش المؤمنين الصغير.

ـ سيتوجب علينا أن نعدل كل النظام. وأن نضع على الفور قوانين جديدة أفضى حسن إلى داعي الدعاة أبي علي، إن كنا نريد أن نصنع من هذه الجماعات الغرّة جيشاً متماسكاً لا يعترف إلا بمذهب واحدٍ، وزعيم واحد، لقد كان النبي مصيباً بتحريم الخمر على المؤمنين، سنكون أغبياء إن لم نقلده بذلك، لأن حاجتنا إلى وحدات متينة مكونة قدر المستطاع من أفراد ذوي شأن وحازمين هي أكبر بكثير من حاجتنا إلى أعدد كبيرة من الجماهير وإننا لن نتوصل إلى تنظيم قوات كهذي إلاّ إذا كانت أحكامنا واضحة وصارمة إلى حد أقصى. علينا أيضاً أن نراقب ما ينفذ بشكل أعمى.

وفي نفس اليوم الذي أدت فيه الوحدات الملحقة حديثاً اليمين تلا أبو علي قائمة من التعليمات والقوانين الجديدة. بدلاً من الاحتفال الصاخب المنتظر سيعاقب بالموت كل من سيتمرد على رؤسائه كائناً من كان من لم ينفذ الأمر الذي يتلقاه، ما عدا حالة العنف القصوى، كل من يقتل إسماعيلياً خلال شجار نتيجة عمد وإصرار، كل عن يتحدث إلى الرئيس الأعلى بعبارات وقحة أو ينتقد قراراته، كل من يتعاطى الخمر أو يشرب أي شراب مسكر كل من يقترف الزنا، عقوبات جسدية ومعنوية صارمة ستتخذ بحق كل من يتعاطى الملاهي الدنيوية، كل من يؤلف الموسيقى أو

يستمع إليها من أجل المتعة وحدها، كل من يرقص أو يشارك في رقص الآخرين، كل من يقرأ كتباً ذات مضمون مضلل، أو يصغي إلى غيره وهو يقرأها. . .

رتب جديدة ستؤسس. حاكمو الولاية سيدخلون ضمن طبقة الدعاة ودعاة الدعاة، ويعتبر جندياً بشكل آلي كل مؤمن قادر على حمل السلاح. وقد أحدثت مدرسة خاصة من أجل الرفاق، الذين سيدربونهم، وسيُعد برنامج دراسات جديد ستخضع له الجماعة كلها، على الناس، أن يدرسوا فيه أصول العقيدة والتاريخ الإسماعيلي إضافة إلى العلوم الحربية.

وقد أوكلت إلى الفدائيين أعمال خاصة، بحسب استعدادات كل واحد منهم. صار جعفر مذ ذاك الرسول الدائم المكلف لشؤون العلاقات بين آلموت والرَّيّ حيث يدير موتسوفر الحكم، نعيم كان يعلِّم العقيدة إلى الجماعات الجديدة، ابن طاهر الجغرافية والتاريخ، يوسف وسليمان كانا يدربان التلاميذ الفدائيين على أساليب القتال.

كل يوم كانا يصحبانهم خارج القلعة نحو تلك الهضبة التي كان مينو تشرشر يدربهم فيها. عبيدة الماكر كان يدير مفرزة الجواسيس مع مهمة مراقبة حركة جنود السلطان. مساعدوه عبدالرحمن وابن فاكاس وعبدالله وخلف لم يكونوا يتوانون عن كشف أصغر الممرات بين قزوين والريّ، وآلموت. لم يستغرقوا وقتاً طويلاً للتغلغل في نيات الأمير أرسلان تاش الذي كان قد وزع قواته بغية محاصرة قزوين والرَّي بأسرع ما يمكن وكي يعزل بذلك آلموت كلياً عن بقية العالم، حيث إن موقع القلعة عند أسفل الإيلبورز لا يوفر في الواقع أية إمكانية للهرب عبر الجبال.

السجناء الأتراك الذين كانوا كلهم تقريباً مصابين بجروح خطيرة فوجئوا إذ وجدوا أنفسهم محاطين بالعناية، تعالجهم أيدي الطبيب الماهرة ومساعداه، التأمت جراحهم بسرعة على يدي الطبيب البارع ومساعديه عند

الصباح كانوا يأوون إلى مهاجعهم، ويؤذن لهم بالخروج للتنفس على المصطبة عند المساء.

بالقرب من الثكنات، كان الجراحون والجنود الذين كانوا يحضرون لهم الأكل والشراب يتحدثون معهم ويبوحون لهم بمغامرة الفدائيين العجيبة بأنهم أرسلوا إلى الفردوس لليلة واحدة، وعن المقدرة الخارقة التي أمدّ الله بها سيدنا، لكنّ ما أذهل هؤلاء الأجانب بشكل خاص، فهو ذلك الإيمان المطمئن الذي وضعه الإسماعيليون أياً كانوا في الانتصار. وعندما كانوا يسألونهم عن أسباب هذه الطمأنينة كان الجواب دائماً هو نفسه. سيدنا نبي كبير والإسلام بأسره لن يجد بُدّاً من الانضواء تحت رايته.

من وقت إلى آخر كان داعية آخر أو حتى أبو علي نفسه أحياناً يقوم بزيارة السجناء، يطلب منهم بعض الإيضاحات عن جيش السلطان، عن تدريب الجنود، عن قناعاتهم الدينية، وكان إثر ذلك يوضح لهم المذهب الإسماعيلي، والذي عزم زعيمه بفضله على تأسيس عهد تعمه العدالة والسلام على امتداد العالم.

بهذه الطريقة ومن خلال الحلم، وحسن المعاملة أيضاً، فإنهم لم يلبثوا أن زعزعوا يقينهم السابق والراسخ، أعدوهم بشكل غير ملحوظ، إلى الإلتحام الذي لا بد له من أن يربطهم إلى الأبد بالإيمان الجديد.

بعض هؤلاء الصعاليك الذين كان لا بد من بتر ذراعهم، أوساقهم، أو من صار عندهم نوع من عجز كامل، أعتقوا بأمر من حسن، كان في الواقع يريد أن يرى هؤلاء الناس، يمضون ليرووا ما رأوه في آلموت، وما عرفوه عن الإسماعيليين إلى جنود السلطان الذين ستثبط روحهم القتالية عندئذ ومن أجلهم جهزت المحامل ورفعت على ظهور الجمال، وموكب من المرافقة المسلحة رافقهم حتى قزوين حيث أطلق سراحهم بسرعة كبيرة.

نام يوسف وسليمان المتعبان بهدوء في الليلة التي تلت زيارتهم

للرياض. أما في مساء يوم غد فقد أحسّا بالإنهاك نتيجة قلق غريب. شيء ما كان يوحشهما، وهذا الفقد يوقظ فيهما هيجاناً فريداً. وبما أنهما لم يمتلكا أدنى رغبة في النوم، فقد انطلقا كل واحد بجهة يقومان بجولة باتجاه الحواجز ثم يخلصان إلى التلاقي عندها.

ـ إني عطشان! قال يوسف بعد مضي لحظة.

ـ يوجد الكثير من الماء في شاه رود.

ـ إنه قليل جداً عليَّ. ربما تستطيع أنت أن تفرغه لو أردت.

ـ هل عنَّتْ الخمرة على بالك؟

ضحك سليمان هازئاً، وقد نظر إليه يوسف بهيئة كئيبة.

ـ أعلن البوق ساعة النوم.

ـ لماذا تقول هذا؟ اذهب ونم لو سمحت.

جلسا على الحاجز وأصغيا هنيهة إلى هدير الماء.

ـ كان لديَّ إحساس بأنك ستأتمنني على شيء قال سليمان أخيراً بلهجة فضولية ساخرة.

قال يوسف مواربأً:

ـ ألا تفتقد لشيء ما؟

تكلم بصراحة، ما الذي ينغص عليك؟

ـ عندي إحساس بأن جذوة من نار تسري في أحشائي.

صدغاي يؤلمانني. إني أتعذب من عطش لا يحتمل.

ـ لماذا لا ترغب إذن في شرب الماء؟

ـ اشرب وأشرب منه، إنمَّا كما لو كنت أبتلع الريح إنه لا يخفف عني شيئاً.

ـ أعلم إنها تلك الأقراص المنومة. آه ليتنا كنّا نستطيع تناولها، واحد

ويكفي كي نخلد إلى السكون حالاً، هل تعتقد أن سيدنا لن يرسلنا ثانية إلى تلك الحديقة.

ـ ما أدراني؟ بمجرد ذكرى واحدة من تلك الليلة، أحسّ بحمّى تتملكني، أشعر أنني على وشك الذوبان.

ليس ببعيد عنهما مرّ خفير ملوّحاً بمشعله فجلسا القرفصاء خلف الحاجز.

ـ لننصرف يجب ألا يباغتنا أحد هنا ـ قال سليمان.

عادا إلى المهجع خلسة، كان رفاقهم نائمين ـ فقط ابن طاهر كان جالساً وقد اسند ظهره إلى الجدار.

كان يبدو مترصداً، ولم يستطع أن يخفي ارتعاشه لدى سماعه قدومهما.

ـ ألم تنم بعد، سأل سليمان؟

ـ مثلكما.

خلع يوسف وسليمان ثيابهما، واستلقيا على مرقديهما، كانت الحرارة خانقة في المهجع وكان العطش يعذبهما أكثر من أي وقت مضى.

ـ أيها السحر الملعون! تنهد سليمان وهو يلتفت.

ـ هل هي الذكرى التي تمنعك من النوم؟ سأل ابن طاهر.

ـ هل تعلم ماذا كنت أريد الآن؟ . . . أن أشرب خمراً.

ـ صمَّمتَ على ألا تنام هذه الليلة؟ اهتاج يوسف.

ـ ربما، وأنت؟ هل تفكر بالنوم أنت؟ ردَّ عليه سليمان ساخراً وغضوباً.

بعد صباح غد كانت أطراف الثلاثة متصلبة كالرصاص.

في ذلك اليوم بالتحديد أوكل إليهم أبو سراقة بمهماتهم ساعات قليلة وينتقلون من مسكنهم ليحلوا في الطابق الأرضي لأحد برجي الأسفل وليذهب آخرون ليخلفوهم في مهجعهم، أمّا هم فقد وزعوا إلى اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة في الغرفة لا أكثر.

تقاسم يوسف الغرفة مع عبيدة وابن فاكاس، وسكن ابن طاهر مع جعفر وسليمان ومع نعيم كان ابن طاهر ينخرط في عمله كل صباح كمعلم، ليس عنده ما يعذبه سوى حزن عميق. كان ينظر إلى الجدد ألم يكن حتى البارحة واحداً منهم؟ ويتألم من اكتشافه أن زمن التمرن السعيد قد ولى الادبار..

لن يعثر بعد إطلاقاً على براءة هؤلاء الفتيان، جدار لا يُعبر ضرب الآن بينه وبينهم، وكان يصغي بابتسامة كلمى إلى هذارهم المستهتر «ليتهم يعلمون!» فكّر.

الليالي التي ما عرف فيها إلى النوم سبيلاً، ما لبث أن فتكت بسيمائه الجميلة: البشرة شاحبة، القسمات متقلصة، العيون غائرة تحدق بشكل غريب.. لم يتوقف عن أن يرمق العالم بنظرات مكتئبة وساهمة.

ـ هذا ابن طاهر، واحد من هؤلاء الذين ذهبوا إلى الفردوس!

همس الجنود وهم يمضون في طريقهم.

البارحة كان تلميذاً غير مشهور، اليوم صار بطلاً من أبطال القضية الإسماعيلية وقد صار اسمه يجعل القلوب الفتية ترتعد تأملوا! لكم كان في الماضي يتمنى أن يكون اسمه معروفاً عند الجميع! والآن صار هذا بالنسبة له سيّان حتى نظرات المعجبين كانت تضايقه أحياناً، كان بوده أن يهرب بعيداً عن العالم، أن ينزوي في عزلته ويبقى وحيداً مع أفكاره، مع مريم...

نعم، كانت مريم، هي السر الكبير الذي كان يفصله عن كل هؤلاء القادمين الجدد، وحتى عن رفاقه القدامى كم من مرة حلم بها، عندما كان يستطيع أن يسرق النوم برهة! كان لديه إحساس بأنها حاضرة بقربه على الدوام. وجليس واحد كان يمكن له أن يزعجه، كان يغمض عينيه أحياناً عندما يتسنى له أن يكون وحيداً فيحسب أنه قد صار إلى السرادق المبتهج حالاً.. مريم تنحني فوقه.. وهو يلقاها بذلك الشوق.... يتعرف بكثير

من الوضوح على كل تقاطيع وجهها، ثم فجأة يحس بألم فظيع يستبد به: آه لو أستطيع لمسها فقط!... لم يكن ألمه في الواقع بأقل من ألم فرهاد التعس بعد أن فرقه كسروان عن حبيبته شيرين، كم من مرة خاف أن يفقد صوابه.

سليمان ويوسف كانا يحلمان بأن يكون لهما على الأقل من المجد عزاء. كانا يتقدمان منذ مطلع النهار على رأس مفرزتهما، وعندما كانا يغادران القلعة، كانت نظرات مفعمة بالإعجاب تتبعهما.

أمّا هذا الانفعال الذي ينغّص، فقد كانا يفرغانه في تلاميذهما، كان يوسف يزأر كالأسد عندما لم تكن الأمور تسير مثلما يريد. ثم سرعان ما كان التلاميذ يكتشفون أن عوارض سليمان الغضوب، كانت خطيرة جداً. إنه لم يكن يفوت أي فرصة لتصيُّد هفواتهم، بلا هوادة بلا إنسانية، وكانت ضحكته تقع عليهم كوقع السياط. أما يوسف فلم يكن يضنُّ بشروحاته.

كان يفضل أن يسمعهم يستفهمون، وكان يبدو مسروراً بتزويدهم إثر ذلك بكل الإيضاحات المطلوبة كان يكفيه ما يظهرون له من الرهبة والاحترام عندما كانوا يقتربون منه. أمّا أن يطرح أحدهم سؤالاً على سليمان فقد كان هذا يعني أنه يعرض نفسه لصفعة سيتذكرها حتى أمد بعيد. هكذا كانوا يبدون في النهار، أما عند اقتراب المساء فإن الغم والخوف كانا يستوليان عليهما.

كانا يعلمان أنهما محكومان بالأرق حتى آخر الليل.

اطلع سليمان يوسف وابن طاهر ذات يوم:

ـ لا أستطيع أن استمرَّ هكذا، سأذهب للقاء سيدنا.

ـ هل جننت؟ قال يوسف مرتعباً.

ـ هذا لا ينفع في شيء ـ حاول أن يبصّره ابن طاهر. عليك أن تتحمل مثلنا نحن الاثنين

انفجر سليمان

ـ مع ذلك، فأنا لست من خشب! سأذهب للقائه ولأقول له كل شيء ليوكل إليّ عملاً يمكنني من العودة إلى الفردوس. وإلا سأقضي على نفسي بنفسي.

كان يحرك عينيه البيضاوين اللتين كانتا تلمعان كعيني وحش مفترس، وفكاه كانا متشنجين. كل ما فيه ينطق بالخلل العقلي، والعياء الدائم. لقد ناشد أبا سراقة في نهار الغد كي يدخله إلى حضرة أبي علي.

ـ ماذا تريد منه؟

ـ يجب أن أتحدث إليه.

ـ بخصوص أي شيء؟ تريد أن تقدم شكوى؟

ـ لا أبداً، سأرجوه أن يعطيني مهمة.

ستتلقاها في الوقت المناسب، دون أن تطالب بها.

ـ إنما يجب أن أتحدث إلى أبي علي.

لاحظ أبو سراقة شرارة الجنون تسري في نظرته عندئذ.

«ليحصدوا ما زرعته أيديهم» ـ قال في سرِّه ـ

ـ حسنٌ، بما أنك تتوسل بهذا الإصرار. سأوصي بك عنده.

أحسَّ أبو علي بشيء من الكدر لدى تلقيه أن سليمان يريد التحدث إليه.

ـ انتظر لحظة! ـ أوعز إلى أبي سراقة ـ ثم ذهب مسرعاً يستشير، حسناً.

ـ أنصحك باستقباله ـ قال هذا الأخير ـ ثم تعال لتقدم لي تقريرك سنعلم أشياء مهمة دون شك.

استدعى أبو علي سليمان إلى غرفة المجلس الكبير، تواجدا هناك دون حضور أي شخص آخر.

ـ ماذا تضمر في قلبك؟ ماذا دفع بك لأن تطلب مني هذه المحادثة؟
أخفض سليمان عينيه.
ـ كنت أريد أن أرجوك يا داعي الدعاة الموقر بأن تصحبني إلى عند سيدنا
مكث أبو علي مذهولاً.
ـ ماذا يخطر في بالك إن سيدنا يعمل منذ الصباح حتى المساء من أجل رفاهنا، هل تريد أن تسلبه وقته؟
أنا ممّثله، قل لي كل ما في نيتك أن تقوله له، قُل لي ذلك دون انتظار.
هذا صعب. . . . فهو وحده من بيده العلاج الذي يلزمني.
ـ تكلم فقط، وسأنقل له كلماتك بأمانة.
ـ لا أستطيع أن أعمل بعد، أريد مهمة تفتح لي باب الفردوس من جديد!
انتفض أبو علي، وقد اكتشف نظرة سليمان: نظرة كانت تتقد بألق متوحش.
ـ أنت مجنون يا سليمان، أنت تعلم أن الإصرار هذا بمثابة عمل تمردي، وأن عقوبة التمرد عندنا هي الموت. .
ـ الموت أفضل من الاستمرار في عذاب كهذا، همس سليمان بهذه الكلمات بصوت يكاد لا يسمع، لكنّ أبا عليّ فهم.
ـ انصرف الآن. سأهتم بك، ربما يأتيك الفرج في أسرع مما تحسب.
عندما عاد أبو علي سأله حسن بنظره.
ـ يريد أن تعهد إليه بمهمة تكفل عودته إلى الجنة، يقول إنه لا يستطيع أن يستمر بعد.
ابتسم حسن.
ـ إني لم أخطئ، فهذا الحشيش، وهذه الحدائق قد أعطت ثمارها، ساعة الامتحان الأكبر ليست ببعيدة.

أوشك سليمان أن يُجن أمام عذاب كهذا. نهض بتؤدة بعد ليلة من السهاد، وراح يجلس في طرف مرقد الصغير نعيم، الذي أفاق منتفضاً، مندهشاً للغاية عندما رأى هذا الشكل الغامض عند قدميه، لكنّ خوفه سرعان ما تلاشى عندما تعرف في هذا الشكل إلى سليمان.

ـ ماذا يجري؟

لم يجب سليمان، بل حدّق به وهو مسمّر في مكانه، ووجهه الشاحب والغائر يبدو كبقعة كاشفة وسط العتمة. وشيئاً فشيئاً أخذ نعيم يميز قسماته.

ـ ماذا تريد؟ قال فجأة وهو يرتعد خوفاً.

وبحركة خاطفة رفع سليمان عنه الغطاء.

ـ أرِني صدرك.

كان نعيم متجمداً. وفجأة وقع الآخر بين ذراعيه. حضنه بشيء من الاستعار.

ـ أوه! حليمة حليمة!

ـ النجدة!

مزقت صرخة نعيم الظلام. كان وقع أقدام أحد الخفراء يصدر صوتاً في الممر. استعاد سليمان رشده.

ـ سأخنقك لو فضحتني. أنت كنت تحلم....

وراح إلى سريره بأقصى سرعته.

ـ هل صرخت يا نعيم؟ قال الخفير وهو يدخل غرفته.

ـ لقد حلمت حلماً مرعباً...

انصرف الخفير مطمئناً وفي الحال رفع نعيم الغطاء ونهض.

ـ لماذا رحت؟ أراد سليمان أن يعرف وقد رمقه بنظرة ثاقبة.

ـ خفت منك.

ـ أبله! عد إلى سريرك ونَم. أنا أريد أن أنام.

في صباح الغد توسل نعيم إلى أبي سراقة بأن يُحلّه في غرفة أخرى، فهو لا يريد بعد أن ينام في غرفة سليمان نفسها.

ـ ولماذا إذاً؟

رفع نعيم كتفيه. كان وجهه شاحباً ومتعباً من الخوف، لم يطرح أبو سراقة أي سؤال، «حسن، إني اعرف عن ذلك اقل ما يمكن» ـ قال في نفسه ـ

أذعن إلى طلبه وأمر عبد الرحمن أن يستقر عند سليمان.

الفدائيون الآخرون كانوا يتنافسون بحمية في تنفيذ المهمات الموكلة إليهم. أوفد عبيدة إلى رودبار يحمل أمراً موجهاً إلى بوزروق أوميد، الذي كان يحل محل ابن طاهر اسماعيل بصفته قائداً عسكرياً. وقد عين حسن لتوه هذا الأخير برتبة حاكم ولاية. كان يأتي من خلال مهمته بمعلومات محددة عن تحركات الأمير أرسلان تاش الذي كانت كتائب جنوده تجثم في العراء، أمام قزوين وأمام الرّي، ابن فاكاس كان يؤمن له الاتصال بين قزوين وقوات أمير الرّي. وإسماعيليو الأطراف كانوا ينبئونه يومياً عن حالة كل مفرزة عدوة مستقرة في المنطقة. خاصة وأن كل شيء كان يشير إلى أن الأمير لم يكن يريد أن يصل إلى آلموت إذ كان مع الفارسي الجميل، حريم بأسره. وكان يدعو كبار شخصيات المنطقة إلى ولائم مفتوحة...

وعندما لم يكن يُترك ينضم إلى مائدتهم دون قيد أو شرط، كان يشرب بصحبة ضباطه وصف ضباطه، ويقضي بقية الوقت مع المغنيات والراقصات، كان ضباط صفه وجنوده ينظمون نزهات بأنفسهم، نزهات مسلية في القرى والضواحي، ينهبون كل ما يعجبهم، ويثيرون نقمة أهالي المنطقة الذين لعنوهم، ولعنوا معهم السلطان وصدره الأعظم اللذين أرسلاهم.

نقل عبيده من منفذ لاحق أخباراً أكثر إبهاجاً فالسجناء المعتقون رووا لرفاقهم القدامى من جنود الأمير عن حياة الاسماعيليين الرائعة في قلعة آلموت. وعن فضائل زعيمهم العليّ القدير الذي كان يمتلك القدرة على إرسال مؤمنيه إلى الفردوس كان الجنود الغارقون في البطالة منذ زمن طويل، يصغون إلى هذه المحادثات الجميلة بابتهاج حتى ساعة متأخرة من الليل. وبفعل هذه المحادثات، قدم الكثيرون منهم يتحزبون إلى هذا المذهب الذي أحسن مخاطبتهم. حتى الآن وحده الفضول من كان يدفعهم نحو آلموت، حيث يهيمن ذلك الذي يسميه الناس بالزعيم... أو بشيخ الجبل.

بعد وقت وجيز، بدأ جواسيس الإسماعيليين يتحركون بين صفوف الأمير، كما لو كانوا بين صفوفهم، منظمين تجمعات حيث كانوا يتجادلون من خلالها بأمور سياسية أكثر منها دينية وحيث كانت الغاية الخفية بمذهب (الشيخ) تُعرَضُ بمنتهى الورع. حتى هؤلاء الذين لم يصدقوهم، والذين سخروا منهم، كانوا يتركونهم يدخلون ويخرجون دون أن يضايقوهم. ماذا تستطيع قلعة متواضعة يحميها خمس مائة متحمس مقابل جيش مؤلف من ثلاثين ألف شخص أرسله سلطان الإمبراطورية ضدهم. وبكلمة أخيرة فإن الأخبار التي نقلت إلى مسامع حسن كانت تشير بوضوح إلى أن العدو كان أبعد من أن يظهر حماسة كبيرة في مهمته. وأن تفريقه لن يكلف كثيراً.

حسن الذي أنبئ بكل هذه الأخبار الممتازة من فم أبي علي بالذات استخلص نتائجه كالعادة:

- تدمير جيش العدو سيكون نتيجة لواقعتين متتاليتين بدقة: هزيمة الفرسان الأتراك، ونجاح تجربة فردوسنا الأولى. فالأولى التي أجبرت الأمير على اتخاذ أكبر احتياط وعلى زحف متراص تعاني الآن من تواني خفراء التمويل. إنما وبينما كانت فعاليته تتقلص، يوماً بعد يوم، لأن هزيمة كهذه تخضع تلقائياً إلى النسيان، كان خبر المعجزة ينتشر بشكل

مباشر وغير مباشر، وسط أفراد الجماعة. أجل أساطير كهذه هي في الحقيقة أفضل ما يكون لإغناء تفكير العامة.

بعد زيارة الفدائيين، شوهدت الحياة في الرياض تخضع أيضاً لبعض التغيرات: فالصبايا اللواتي ذُقْنَ متع الحريم في الماضي، كنّ يتذكرن الذكريات القديمة: لم يسترسل البعض منهن في مقارنة أحلام الماضي الجميلة تلك مع هذه الصور الجديدة تماماً أما من جهة تلك اللواتي تركتهن زيارة الفتيان محبطات، فكن لما يزلن يستطعن القيام باستعراض تجاربهن القديمة، الأخريات كنّ يمجّدن مآثر ليلة الحب الأولى التي أهديت إليهن فجأة.

تبع ذلك مشادات، اتهامات، والهيجان العام بلغ أوجه طالما أن تلك الفتيات لم يكن لديهن شيء يفعلنه سوى أن يغزلن أو يخطن، أو يتفرغن لأعمال منزلية دقيقة، فما لبثت تلك المحادثات أن أخذت تستمر طيلة النهار. بعضهن كنّ فضوليات في معرفة فيما إذا كان زائرو المساء الفائت سيدعون إلى العودة، أخريات كن يصرّحن بأنهن غير مباليات بهذه المباحثة. أو حتى كن ينشدن نوعاً من التغيير ضمن النطاق الذي لم يكن فيه محطّ اهتمام عشاق الليلة الأولى المقنع يأملن بألاّ يكُنَّ مهمشات في المرة القادمة. غالبيتهن كن من جانب الرأي القائل بأن حسناً سيختار في نهاية المطاف عشاقاً جددًا ليرسلهن إليهن. حتى زليخة التي كانت تبكي يوسف في الأيام الأولى، دون أن تجد لنفسها عزاءً تحولت شيئاً فشيئاً باتجاه هذه الفكرة. وحدها حليمة التي لم تكن تستطيع ولم ترد أن تستوعب أنها ربّما لن ترى سليمان بعد على الإطلاق.

إضافة إلى أن حالتها كانت توحي إلى مريم بقلق حاد. ففي بضعة أيام رقَّ وجهها، واحمرت عيناها من البكاء، ورسم الأرق هالتين سمراوين حول عينيها. كانت تواسيها قدر المستطاع مهمومة، وكانت ترتجف دون توقف وهي تتأمل في مصير ذلك المسكين ابن طاهر، تتوقع دائمًا أن

يناديها حسن إلى محادثة جديدة. لكنه وبشكل شبه متعمد لم يكن مبالياً، بعدما صارت تعلل نفسها بما يخص ابن طاهر بنوع من الاهتمام الإمومي: شعرت وكأنها هي المسؤولة عن مصيره وعن مصير حليمة أيضاً، إذا ما أرادت أن تفكر بذلك ملياً.

مرّ شهر على الانتصار الذي أُحرِزَ على مقدمة جيش السلطان، عندما مفرزة من رجال موتسوفر رافقت الرسول الذي أوفده الصدر الأعظم تاج الملك، أمين سر السلطانة منذ عهد قريب، إلى حسن.

حالاً، قابل حسن المبعوث، الذي أبلغه أن خبر هزيمة الأمير بلغ السلطان قرب نهاوند[1] وهو في طريقه إلى بغداد. وعقب هذا النبأ الحانق بوصول نظام الملك الصدر الأعظم المخلوع حديثاً شخصياً، والذي حاول تهدئة السلطان الذي كان مستعداً لطرد الأمير أرسلان تاش، وإنذاره بالمثول أمامه كي يسوغ مسلكه.

تمكن نظام الملك من إقناعه بأن في ذلك مبادرة إلى سياسة سيئة. وأن مجمل الخطأ في هذه المسألة يقع على الوزير الحالي، الحليف السري للإسماعيليين بمباركة السلطانة. كان لا بد للوزير القديم نفسه من أن يتظاهر بأنه مقتنع بهذا الاتفاق لأن الملك سلمه مقاليده كصدر أعظم، الأمر الذي رفضت قبوله السلطانة والتي كانت تصر على إسناد هذا المنصب إلى تاج الملك. وبالمختصر فإن نظام الملك كان حتى تلك الساعة في سياق حشد جيوشه حول نهاوند، وقد أسفر عن نيته بالسير عبر أصفهان، بغية هزم نده بالقوة، وانتهاز الفرصة، لتوطيد سلطة السلطان... وسلطته هو، زد على ذلك أنه أعطى مهلة شهر إلى الأمير ارسلان تاش كي يستولي على آلموت، مع أمر بتدمير القلعة، وإلا سيجد نفسه متهماً بخيانة كبرى، توجيه أرسل إلى المخلوع قيزيل

(١) نهاوند: مدينة قديمة في إيران.

سريق الذي ما زال يعسكر دون جدوى، خلف جدران قلعة زوم غامبادان في القزوين.

«تلك كانت الأخبار التي استعجلت السلطانة، ووزيرها تسليمها إلى صديقهما القديم حسن: إنهما كانا يكفلان صحة هذه الأخبار، مقسمين على ذلك، ويرجوانه بتقديم مساعدته وقوته لهما في هذه المحنة.

أجاب حسن الرسول:

قبل كل شيء انقل تحياتي إلى سيِّدَيك، ثم قل لهما بأني مندهش للغاية لأنهما قد حنثا منذ وقت قريب بوعدهما، الآن وقد صارا في موقف صعب، ها هما يلتفتان إليّ من جديد على الرغم من أنهما قد نكثا بكلامهما. سآتيهما بالمدد لمرة واحدة على الأكثر، لكن ليأخذا حذرهما جيداً من أن يخيباني في المستقبل من جديد لتكن لهما عبرة من الانتقام المقبل من أعدائهما وأعدائي على هذا صرف المبعوث وأمر بأن يقام له استقبال ملكي وأن يزوّد بالهدايا وفق الأصول.

ـ اللحظة الحاسمة قد أزفت، أفضى إلى داعيته الكبير بعد ذلك.

لقد بدا هادئاً بشكل خارق: من هذه الرصانة، كان جزاء هؤلاء الذين أتوا على اتخاذ قرارهم يعلمون بأنه قرار لا يتخذ.

ـ عاد زمام السلطة من جديد إلى نظام الملك إذًا ـ استنتج ـ أن هذا يعني أنه سيصبح بالنسبة لنا عدواً متصلباً. سيفعل كل شيء لسحقنا، ومسحنا عن الوجود علينا أن نتصرف دون أي انتظار.

بانت على الداعية نظرة قلقة

ـ ما الذي تنوي فعله بالتحديد؟

ـ أن أقضي نهائياً على عدوي اللدود.

كان ابن طاهر يكرس جزءاً لا بأس به من يومياته في نظم الشعر. فالشعر وحده يمكنه من التعبير والتغلب على قلقه وأشواقه، وتصدع نفسه.

ينسخ أشعاره على قطع ورق رقيقة، ويخفيها بمنتهى الحيطة، عن أنظار المتطفلين يصوغ كل جملة بإتقان، ويجد في هذا العمل أُلهية لتصريف ذلك الجور الذي يهصر قلبه.

حجته بأنه يحضّر درساً من أجل تلاميذه، يمنحه عذراً أمام الناس:

استطاع بذلك أن يحول أزمته إلى فن أو أن يسترسل في العزلة في هذيانات. من صميم هذا العناء السري ولدت هذه القصيدة:

في الماضي كانت نفسي مفعمة.

بتعاليم النبي: لقد كنتم كل شيء بالنسبة لي

سيدنا، علي، وأنت يا إسماعيل

مبشّراً بذاك الذي لا بد أن يأتي!

أما اليوم يا مريم، فأنا لا أرى غير صورتك

إنها تغمر قلبي، ونفسي

ابتسامتك وصوتك المكتنزان بالأسرار

نفثة شفتيك

مفاتن جسدك

والتي بدونها تكون الحياة عندي موتاً

ذراعاك اللتان تروقان للنظر

عقلك الذي يدرك كل شيء، ومن ثم حكمتك

التي لم يُتَحْ لأي امرأة أن ملكتها.

هاوية عينيكِ السحيقة

مرآة كل كياني، وكل الكون

ماذا يهمني من النبي إذاً؟

مريم هي ديني، حياتي، وإلهي الوحيد.

هي فردوسي الوحيد على الإطلاق.
ودون منازع تهيمن الآن على قلبي
في أعماق عقلي في أعماق نفسي
صورتك حاضرة دائماً
توحي إليَّ بشك غريب:
هل أنت مثلي؟
بمشاعرك، ورغباتك
هل هي رغبات ومشاعر كائن من هذه الدنيا؟
طبعة ثغرك تحت قلبي
أليست برهاناً على ذلك؟
إنما هل يمكن أن تكوني إلاّ رؤية؟
خالية من اللحم والعظم
ثمرة سحر ابتكره فن سيدنا؟
كيف أَعتِقُ نفسي الآن
من هذا الوهم الظالم؟
والتي ما عادت مفتونة إلا بالريح
ولا تحب إلاّ زفرة مسمومة؟
هل سيدنا دجّال؟ أيها الشك الذي تخرق القدسيات
من تكون إذاً أيها السيد القدير
أنت الذي جعلتني أقع في هذا الشرك
هل أنت المهدي أم النبي؟ هل أنت الله؟
مجنون من الألم هل يلزمني إذاً

أن أنحت في الصخر

صورة هذه السعادة المفقودة؟

أم عليّ أن أمزّق قلبي لأجلها؟

من الذي أعطاك هذه القدرة إذاً يا سيدنا

بأن تفتح إلى الأحياء أبواب السماء

هل تستطيع إذاً أن تفتحها من أجل نفسك؟

هل تعرف مريم؟ أيها الشكُّ الجحيمي

أيتها الغيرة المجنونة

هل تعرف تلك الأسرار السحرية

التي كان يستخدمها السَحَرَةُ والنبي من قبل

سجنها في خاصرتي دومافاند المضطرمتين؟

مريم، نور حياتي، أيها السراب الجميل

ربّما لن تكوني بعد إلاّ النذل الخامد

لألاعيبك الشيطانية:

لا، لا، الحب يزأر في رحم الجحيم

ووحده العقل المتحجر يستطيع أن ينفي هذه البدعة

الأعذب بين الخرافات

لماذا إذاً أيتها النشوة

أغلقت هذه السماء التي كانت للحظة نصف مفتوحة؟

سيد ظالم وطيب، ذاك الذي يجمع ويفرق

إن كان الموت ثمناً لمريم

مُري، ومن أعلى هذه الذرى

سألقي بنفسي في الهاوية

هل عليّ أن أطعن قلبي بخنجر

كي أقترب من تلك السعادة الأبدية

التي تنتظرني بقربها أخيراً؟

هل علي أن ألتقي آلهة الخير عبر النار

مُري! كلمة منك

ويتوقف إلى الأبد هول الألم

ها أنذا كآدم المطرود من الفردوس

أعيديني يا مريم قبل أن يتهشم قلبي

في هذا الألم الذي لا حدَّ له

دعاه حسن ذات مساء كي يمتحنه:

- هل يقينك قاطع الآن؟

هو كذلك يا سيدنا.

- هل أنت مقتنع أنني أستطيع أن أفتح لك باب الفردوس متى أريد ذلك؟ هل تصدق ذلك فعلاً؟

- إني مقتنع بذلك، يا سيدنا.

كانا وحيدين في الغرفة، تفرسه حسن بإمعان.

أي تغيّر طرأ عليه منذ المساء الذي أرسل فيه إلى الفردوس!

لقد هَزُلَ، ووجنتاه تقعرتا، وعيناه الغائرتان بشكل مخيف تشعان ببريق محموم.

تأكد حسن من أن الآلة كانت تعمل بفعالية رهيبة.

- هل تريد أن تكون جديراً بالمسرّات الأبدية؟

ارتعش ابن طاهر وأشعَّ وجهه، ثم نظر إلى حسن نظرة متضرعة.

ـ يا . . . سيدنا!

اخفض حسن عينيه. وشعر فجأة بانقباض قلبه، وإليكم لماذا كان يحظُر على نفسه أن يختلط بهؤلاء الفدائيين . . ؟

ـ ليس من أجل لا شيء فتحت أبواب الفردوس. أريد أن يكون إيمانك إيماناً قاطعاً، وأن تفهم حتى النهاية ماذا ينتظرك عندما ستنفذ المهمة التي ستوكل إليك . . . هل تعلم من هو الغزالي؟

ـ دون شك، هل تريد أن نتحدث يا سيدنا عن هذا الصوفي؟ . .

ـ نعم هذا الذي قد هاجم مذهبنا ببشاعة في كتابه: «نقض الحكماء» منذ عام تقريباً. وقد عينه الصدر الأعظم معلماً في دار تعليم عالية في بغداد. مهمتك بأن تراوغ أنك تلميذه. سأعطيك كتابه هذا، إنه كتاب صغير. وأنت تملك ذهناً متقداً في ليلة واحدة ستستطيع قراءته ودراسته. تعال للقائي غداً صباحاً، الآن، أنت في إمرتي أنا مباشرة. وإياك أن تتفوه بكلمة عن هذا لأيّ كان. هل تفهمني؟

ـ فهمتك يا سيدنا.

ـ صرفه حسن، ورآه يغادر الغرفة، يفيض حماسة لم يكن يفكر في إخفائه.

سكنت قلبه السعادة دون أدنى شك.

التقى الولد أبا علي وبوزروق أوميد على السلم، كانا يلهثان، وثورة من السخط تعلو وجهيهما، كانا يجران خلفهما رجلاً:

هيئته كانت تدل على أنه قد قطع طريقاً شاقة، كان مغطّىً بالغبار من قدميه حتى رأسه، والعرق حفر أخاديد في وجهه الملطخ، يتنفس بصعوبه، التصق ابن طاهر بالجدار كي يدع الثلاثة يمرون. إلاّ أن شيئاً ما قد حدّثه بأن أيّاماً صعبة، أيّاماً عظيمة ستمر على الموت . .

حجب الخفير الستارة وأدخل الزائرين.

ـ رسول من قزوين، صرَّح أبو علي وهو يستجمع أنفاسه بصعوبة. . . زورغا مبادارن.

ـ ماذا حصل؟

ـ بذل حسن كل ما بوسعه كي يسيطر على نفسه. لكنه فهم في الحال، وحسب هيئتهم، أن الأمر يعني خبراً سيئاً.

ارتمى الرسول على قدميه.

ـ أيها الرئيس! لقد مات حسين القيني غيلة!

شحب وجه حسن حتى صار كالميت.

ـ من هو القاتل؟

ـ عفوك يا سيدنا! . . . إنه حسين، ولدك.

ارتعد حسن كمن وقعت عليه صاعقة. خبّطِ بذراعيه كمن كان يريد أن يقبض على عدو تحت يديه. ثم زلَّت قدمه التي لم تعد تحمله، وشوهد يدور حول نفسه قبل أن يتقوَّض كشجرة نشرت من جذعها.

الفصل الخامس عشر

ابن الزعيم الأعلى اغتال داعية خوزستان!

في الغد كانت آلموت كلها تتحدث عن ذلك. أحد لم يكن يعرف كيف انتشر الخبر. فالرسول لم يفض بذلك إلا إلى كبار الدعاة. وهؤلاء اقتادوه على الفور إلى حسن. هل وقع هذا الخبر على مسامع أحد الضباط، هل أفشى كبار الدعاة الخبر في الطريق عن غير قصد. وعلى أية حال صار كل قاطني المكان على علم بذلك: فلم تعد هنالك حاجة إذاً لإخفاء المسألة على عامة المؤمنين.

كان لا بد لابن طاهر من أن ينتظر مطوَّلاً قبل أن يتسنَّى لحسن استقباله.

أراد الزعيم الأعلى معرفة تفاصيل حادث الاغتيال كلها: أعطى أمراً إلى المبعوث بأن يقوم هو نفسه بسرد مفصل لكل ما حصل.

- إليكم، يا سيدنا... روى الرجل - عندما وصل طائر الحمام الزاجل يحمل رسالتك إلى زور غامباداان، كان قد مضى أسبوع تماماً على الحصار الذي ضربه قيزيل سيريق حولنا، لقد أسقط كل المواقع غير القوية والتي كانت لا تزال تقاوم في الحواشي، والقوات التي كانت كافية للانتشار حولنا تصاعدت إلى حوالى عشرين ألف رجل. منحنا فرصة الخروج هرباً لكنّ داعي الدعاة رفض. حسين، ولدك كان من أنصار التضحية بالموقع إلى العدو، الأمر الذي وضع القيني في أسوأ مأزق، رجاك هذا الأخير بأن تأخذ بنفسك القرار الذي تجده مناسباً... وأنت طلبت منه أن يلقي حالاً بابنك في السجن.

أخذ القينيُ على عاتقه إبلاغه هذا القرار وأوحى إليه أن يسلم نفسه طواعية. لكن حسيناً استشاط غضباً ورفض الإذعان للحكم. سمعه من كان موجوداً من الناس يصيح: «أيها الكلب. وشيت بي عند أبي!»، ثم استلَّ سيفه وضربه.

ـ ماذا فعلتم به؟

ـ إنه مكبل بالأصفاد داخل زنزانة «فالشيخ عبد الملك بن أتاش هو من بيده إمرة القلعة.

ـ وكيف الوضع هناك الآن؟

ـ عصيب أيها السيد، يوجد القليل من الماء والطعام لن يلبث أن ينفذ عند المؤمنين الذين وجدوا لأنفسهم ملجأ عند أسوارنا. إنهم أكثر من ثلاثة آلاف! شعب قزوين هو حقاً معنا، أما ذلك الإبليس قيزيل سيريق، فإنه رجل سفّاح، وكل رجال المنطقة يرتجفون أمامه.

ـ يجب أيضاً ألاّ يُعتمد على مساعدتهم أبداً!

شكره حسن الذي عاد الآن إلى رشده واستجمع كل رباطة جأشه.

ـ ماذا ستفعل بابنك؟ استفسر بوزروق أوميد.

ـ سنقتضيه بما تقضي قوانيننا.

صرف زائريه، ونادى ابن طاهر.

ـ ما رأيك بالغزالي؟

ـ لقد تفرغت له طوال الليل تقريباً يا سيدنا.

ـ حسن، هل علمت بما جرى مجدّداً في قزوين؟

لاحظ ابن طاهر التجاعيد الجديدة التي كانت تغضن وجهه.

ـ أعلم يا سيدنا!

ـ ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

وجه له الولد أصفى نظرة.

ـ سأقوم بما يأمر به القانون.

ـ أنت مصيب.. هل تعلم من يكون إبليس؟

ـ إبليس هو تلك الروح الشريرة التي أغوت آدم..

ـ إبليس أكثر من ذلك إبليس هو الذي كفر بربه. إنه عدو الله اللدود.

صدّق ابن طاهر على ذلك بإيماءة من رأسه.

ـ كل مرتد، وكل عدو للمذهب الصحيح هو قريب إبليس. لأن المذهب الصحيح وحده هو مذهب الله.

ـ ... نعم هو المذهب الذي يعتنقه اتباع اسماعيل!

ـ نِعمَ ما قلت.

ـ والآن، أسمعتهم يقولون إن أحداً كفر بالمذهب وأنه صار عدوّه اللدود؟

نظر الولد في عينيه، محاولاً أن يتنبأ بما يجول في ذهنه.

ـ ربما تفكر بالصدر الأعظم؟

ـ بالضبط، بقاتل جدك! كان قد اعتنق ديننا سابقاً. إنه إبليسنا، روحنا الشريرة. فهل تريد أنت أن تكون رئيس ملائكتنا وأن تثأر لجدك؟ جهز سيفك!

جمع ابن طاهر قبضتيه، وانتصب على طول قامته، وصار أشبه ما يكون إلى شجرة سرو.

ـ سيفي جاهز يا سيدنا.

ـ هل تعرف الطريق من الرَّيّ إلى بغداد؟

ـ أعرفه، فأنا من سافا التي تقع على الطريق.

ـ إذاً إصغ! ستمضي على هذه الطريق. وستذهب إلى الرَّي ومن هناك

إلى سافا وهمدان وصولاً إلى نهاوند. لكن تجنب دار أبيك، وعلى طول الطريق سيكون عليك ألا تفكر إلاً بشيء واحد: كيف تبلغ هدفك. لاحظ وتقصَّ في كل مكان كي تعرف نيات الصدر الأعظم.

لقد أُخبرت بأنه هبّ بجيش كبير، إلى حمل السلاح في نهاوند ضدنا، وضد خصمه تاج الملك في أصفهان هل تتابعني جيداً؟ الغزالي صديقه منذ الآن سيصبح اسمك عثمان تلميذ المنظر الشهير، الذي سيوصل إلى الصدر الأعظم التماس سيده. احمل معك أيضاً الكتاب الذي أعطيتك إياه، أعددت لك هنا ثوب تلاميذ السنَّة الأسود، وصرّة من المال من أجل الطريق، ورسالة مبعوثة إلى الرجل الذي عليك أن تصرعه.

الختم الذي تراه فيها سيفتح لك الأبواب التي توصلك إليه.

تلقى ابن طاهر الثوب الأسود بيديه تفحّصه بنوع من فرح قلق وضع الصرة تحت حزامه، والرسالة تحت جلبابه.

ـ لقد تعلمت الحركات التي ينتظرونها من ذلك الذي يقدم نفسه إلى صدر عظم عندما ستغادر آلموت ستحرص على إخفاء حاجاتك في حقيبة وتبدل ملابسك منذ أن تتوارى وستحرص على أن تتخلص من كل ما يمكن له أن يكشفك. أنا أعرف نظام الملك، عندما سيعلم بأنك مُرسل من قبل الغزالي، سيستقبلك ببالغ المودة. والآن إصغ جيداً!

في إحدى ثنيات هذه المغلف يوجد مختوم يستر شفرة مذلّقة وبتّارة بشكل رهيب إنها مصغَّر خنجر. وإليك الحركة التي عليك أن تقوم بها كي تسحب إلى يدك هذا السلاح الذي يتعذَّر على الجميع رؤيته. حركة رصينة لا تسترعي انتباه أي شخص... تماماً في لحظة فض المغلّف إلى المرسل إليه. هكذا عندما سينشغل الوزير بنزع الختم لن يكون عليك إلاّ أن تمدّ ذراعك.. وأن تغرز رأس الشفرة في عنقه. تماماً في هذا المكان. وإذا ما رأيت شيئاً يقطر من عنقه، فلن يكون ذلك إلاّ قطرة دماء. وهذه إشارة إلى أنك نجحت إنما عليك وعلى الأخص أن تأخذ حذرك من ألا تُجرح قبله

(لأن هذا السلاح مطلي بسم رهيب) فإن حصل لك وخدشت بأدنى خدش فإنك ستجد نفسك عاجزاً عن تنفيذ مهمتك. . . وستخسر إلى الأبد الفردوس الذي طالما تقت إليه. .

كان ابن طاهر يصغي، لونه كمدٌ، لكن عينيه كانتا مشعتين.

ـ وماذا عليّ أن أفعل إثر ذلك؟

رشقه حسن بنظرة خاطفة وحادة.

ـ إثر ذلك. . . إثر ذلك تضرّع إلى الله، باب فردوسك سيفتحُ لك، ولا أحد سيستطيع أن يحرِّم ولوجه عليك. آرائك طرية سوف تجدها مبسوطة تحتك، مريم ستكون هناك بانتظارك، محاطة بخادماتها اللواتي هنّ خادماتك. وإن سقطت فإنك ستنطلق مباشرة لتصبح بين ذراعيها هل فهمتني؟

ـ فهمتك سيدنا.

انحنى، وقبل سريعاً يد حسن الذي كبح ارتجافه، انشغاله بنفسه حال دون ملاحظة الاضطراب المفاجئ الذي تملك الرجل العجوز. الذي استدار، واتجه نحو الرّف، الذي كانت عليه الصندوقة المذهبة. الصندوقة التي يعرفها ابن طاهر فتحها وأخرج منها بضعة أقراص، ثم أوصد عليها في كيس من النسيج الرقيق.

ـ تناول منها واحدة كل مساء إنها ستقودك إلى عتبة الفردوس، ولكن احرص على الاحتفاظ بواحدة من أجل اللحظة الحاسمة:

سيكون عليك ابتلاعها في اللحظة التي سيتوجب عليك المثول فيها أمام الصدر الأعظم. ثم لا تتركها ترتمي. فهي المفتاح الذي يفتح الباب الذي تعرفه.

ربّت بيديه على كتفي ابن طاهر.

ـ والآن، امضِ في طريقك يا بني.

استأذن الولد بالانصراف، مرتبكاً، شاحباً فخوراً، ومتأثرًا بشكل لا عهد له به.

تبعه حسن بعينيه إلى أن اختفى خلف الستار، لمس قلبه بيده، غصَّ، عليه أن يصعد إلى المصطبة حيث ينعشه الهواء الرطب.

تنفس بعمق: «إن ساعتي لم تزف بعد ـ قال متأملاً ـ مع ذلك فإني أجد راحة في الموت.. يكفي أن آخذ القرار بثبات، وان ألقي بنفسي من أعلى هذا الحاجز، وكل شيء ينتهي. لكن هل يعلم الله أين سأصحو؟..

«خبر اغتيال القيني قذف به هذه الليلة إلى حالة أقرب ما تكون إلى الموت. كم صعب على الدعاة إبلاغه هذه الواقعة.

عندما أفاق، فإن أول فكرة راودته هي اعتقاده بأنه مات، وأنه انتقل إلى العالم الآخر.

ذعر جنوني استولى عليه. «هناك إذاً شيء ما بعد الموت... فكّر في الحال. حياته تسبّبُ له الرعب. أدرك بأنه ما زال يعيش، كما لو أن بعد الموت ليس إلاّ العودة إلى العدم الفظيع ثم جاءه صوت صديقيه الذي أعاده إلى الواقع.

تماسك مباشرة. الحمد لله لحظة الضعف هذه مرت.

كان قد صرف داعي الدعاة حسين القيني. ساعده الأيمن، مات غيلة على يد ولده. والقانون سيطبق حتماً، كان على ابن طاهر أن يمضي في الطريق! كتب الرسالة ذات البضع كلمات، والتي قد ختمها بعناية، ثم بحث عن شفرة مذلّقة أكثر رهافة من إبرة غطها بالسم وتركها لتجف. لم يبقَ عليه إلاّ أن يستلقي على سريره وينام كالقتيل.

علّق الداعيان وباقي الزعماء، اهتماماً كبيراً على قضية الاغتيال في قزوين.

ماذا سيفعل حسن؟ هل فعلاً سيطبق القانون بحرفيته؟ هل سيوقّع حكم إعدام على ابنه؟

سيكون الحسم في غاية الصعوبة على ابن الصباح ـ تنبأ عبدالملك، فحسينُ القيني هو مساعده الأول، لكن القاتل ابنه.

ـ القانون فوق كل شيء. ذكر ابراهيم.

ـ قل لغيري قل لغيري، الذئاب لا تأكل بعضها؟ قال الإغريقي بتهكم.

الأمر الذي سبب له بضع نظرات شزرة من إبراهيم.

ـ المسألة مسألة جريمة على قدر من الأهمية.

ـ أنا اعلم يا داعية إبراهيم. إنما يصعب أن أتخيل أباً يقود ابنه إلى الإعدام.

ـ حسين عضو في جمعية الاسماعيليين الأخوية.

ـ صحيح، لم يفت على أبي سراقة عندئذ أن يذكر ذلك.

لقد وقع في شرك القانون الذي وضعه هو بنفسه.

ـ من السهل عليكم أن تتكلموا ـ قال مينو تشرشر ساخطاً. من الأولى أن تحاولوا تخيل اللحظة التي سيتوجب عليه فيها أن ينطق بحكم مماثل ضد ابنه...

ـ في الواقع انه لأسهل من أن ينطق به ضد أبناء الآخرين ـ تمتم الإغريقي.

ـ ومن السهل على الآخرين أن يحكموا أيضاً. ـ أضاف أبو سراقة.

ـ إني لا أتمنى أن أكون مكان الزعيم ـ قال عبدالملك بإصرار. القيني كان بالنسبة إليه أكثر من ابن. وهو مدين إليه بنصف نجاحه...

ـ الأب، ليس مسؤولاً دائماً عن أفعال ابنه أكد إبراهيم حينئذ.

ـ لكنه لو حكم على ابنه فلسوف يقال: أي أب ظالم! لقد كان يمتلك القدرة على تغيير القانون ولكنه لم يبادر إلى ذلك كان هذا هو رأي أبي سراقه. وعليه أردف اليوناني:

ـ لن يلبث الأجانب أن يسخروا منه لكأني اسمعهم من هنا يقولون: «غبي! ليس هناك أغبى ممن لم يجد وسيلة للتحايل على قانونه...».

ـ لكن المؤمنين سيتمردون، إن لم يطبق هذا القانون نفسه، في كل صرامته، أليست حرفية أي قانون تقضي بتجاهل الخاص في سبيل المصلحة العامة؟

ـ سيدنا في الواقع سيجد نفسه أمام معضلة فظيعة. ختم الإغريقي، ففي اللحظة الأكثر تعقيداً فَقَدَ أفضل حامل للسلاح لديه، أجل، من سيلاحق ويبتز القوافل الهرطقية؟ من سيدفع له الضرائب الآن في قزوين؟

ربما لن يبقى لديه ما يفعله سوى تطبيق القانون بكل صرامته...

عاد يوسف وسليمان من نزهتهما الفروسية الصباحية مع التلاميذ، كانت الشمس تقرع الفناء بضراوة؛ تسارعا لينعما برطوبة غرفتهما الظليلة، تمددا على سريريهما، عاجزين عن مواجهة الضعف الذي كاد يبدد ما بقي لهما من العزم، قتلا وقتهما بجرش الفواكه، القاسية، وهما يتبادلان الاقتراحات المبهمة، أهواؤهما المتيقظة دائماً، وغير المشبعة حكمتهما بشكل غريب. كل منهما مثقل الرأس، ينظر في الفراغ بعينيه الغائرتين المحاطتين بهالة زرقاء.

أما نعيم الصغير فقد هجم على الغرفة فجأة.

ـ ابن طاهر عاد من عند سيدنا. مضى في طريقه.

صارا لذلك منذهلين

ـ من قال لك هذا؟

ـ رأيته يغادر البرج، حتى أنه لم يلمحني، ظننت أنه فقد وعيه: كان يبدو حائراً، لكأنه كان يضحك دونما سبب. سمعته يهيب بأحد الجنود أن يبيطر له حصاناً.

ـ لقد استلم طريق الفردوس!

وثب سليمان من سريره.

ـ تعال يا يوسف هيا نذهب للقائه.

كان ابن طاهر مشغولاً بصرته، توجب عليه أن يذعن إلى إتلاف صفيحة الشمع الرقيقة التي نقشت عليها طبعة أسنان مريم.

ثم لفّ قصائده على بكرة رفيعة، عهد بها إلى جعفر، عندما جاء هذا للقائه.

ـ احتفظ بهذه حتى عودتي، إذا مضى شهر ولم أعد، أعطها إلى سيدنا.

وعده جعفر بذلك، ثم، اندفع سليمان ويوسف إلى الغرفة يتبعهما نعيم الذي مكث واقفاً قرب الباب بهدوء.

ـ هل ذهبت إلى عند سيدنا.

جذب سليمان ابن طاهر من كتفيه، وأخذ ينظر إليه بعينين مستفهمتين.

ـ كيف عرفت هذا؟

ـ نعيم قال لي ذلك.

ـ ربما تعرف إذاً ما تكون مهمتي؟

خلّص نفسه من احتضان سليمان، جمع حقيبته التي كانت تحتوي على الحاجات. التي أعطاه حسن إياها، تأمله يوسف وسليمان بعين حزينة للغاية.

وجّه جعفر إشارة إلى نعيم فغادر الاثنان الغرفة.

ـ يشق عليَّ هذا، لكن لا بد لي من أن اسكت ـ صرَّح ابن طاهر للاثنين الآخرين عندما صاروا وحدهم.

ـ قل لنا على الأقل ـ إن كنّا سنعود قريباً إلى الفردوس. . .

كان صوت سليمان متضرعاً وبائساً.

تصبَّرا! نفّذا كل ما يطلبه سيدنا. ولتعلما أنه لا يتوقف عن التفكير بكما.

ثم ودعهما.

نحن فدائيون ـ أردف ـ يعني أننا قرابين، لكننا نملك امتيازاً بأن لنا مكافأة تنتظرنا.

الموت لا يخيفنا أبداً.

كان بوده أن يعانقهما مرة أخرى، لكنه كبح رعشة الحنان هذه. اكتفى بأن أشار إليهما بحركة وداع خاطفة، وعدا نحو الحصان الذي أتوا له به.

امتطاه في الحال، نزل الجسر، وأطلق كلمة السر إلى الخفير، ثم همز جواده».

وفي اللحظة التالية أخذ يعدو على طول المعبر، ولدى وصوله إلى الشعب التفت مرة أخيرة. قبل بضعة أشهر من الآن، كان في هذا المكان بالذات، اكتشف أبراج القلعة الضخمة التي كانت تهيمن على هذه الوحدة.

تلك هي كانت آلموت، عش النسر: بؤرة المعجزات التي قُدَّ فيها مصير العالم.

هل سيراها بعد. حزن فريد استولى عليه.

كان هذا السفر يطبق على قلبه بحيث جعل عينيه تمتلئان دموعاً.

وفي أحد الأمكنة غيَّر ملابسه خفيةً، دسَّ في جعبته كل ما لم يكن ينوي أن يحمله معه، ثم خبأ الكل في تجويف سدَّه ببضعة أحجار.

ارتدى الثوب الديني الجديد. والآن لا يحق له أبداً أن يكون ابن طاهر القديم. ألم يكن قد تربى في مدرسة بغداد العليا. تلميذ الغزالي المقرب.. بنطال أسود، سترة سوداء، عمامة سوداء، كان هذا هو لون السّنة الهراطقة، أعداء الدين الصحيح.

أخفى في أكمامه الواسعة الكتاب والرسالة التي تحتوي على الشفرة المشؤومة، تفقّد أربطة قربة الماء، وجعبة الزاد المتدليتين من السرج، وانطلق على الطريق باتجاه الجنوب.

لقد عدا على الحصان طيلة النهار ونصف الليل. ولم يتوقف إلاّ في الساعة التي بدا فيها القمر في السماء. ضرب خيمته وسط الصخور. وفي صباح الغد لمح من على قمة الهضبة مخيّماً رحباً كان ينبسط في الوادي، لقد كانوا حرس مقدمة جيش السلطان. طاف حول مواقعهم ووصل الرَّي عند المساء.

في النزل الذي قرر أن يقضي الليل فيه، علم أن أرسلان تاش، كان يفكر أخيراً في مهاجمة آلموت: كل الجيش كان يتقدم الآن نحو الجبال. هكذا كان قد قرر السلطان، متلهفاً لغسل عار هزيمة فرسانه الحديثة. لكنه لم يستطع الحصول على أي نبأ بما يخص مشاريع الصدر الأعظم.

أخيراً، حان وقت النوم. وبيد مرتجفة فكّ بقجته، وسحب منها واحدة من الأقراص المنومة، التي كان حسن قد أعطاها له.

ابتلعها، وانتظر أن يحس بأوائل تأثيراتها.

القوة الغريبة سمت به إلى تلك الارتفاعات التي ارتقاها في رحلته الليلية السابقة. إنما دون ذلك الإحساس بالخوف الذي كان قد خلع عليه إثر ذلك جزءاً من ظلاله.

كان يفكر في مريم، وصور جديدة مرت أمام نظره المفتون. قصور عملاقة من طراز عمارة قوطية، تنتصب فيها أبراج عالية، ويمتد أمامه بياضها المبهر ثم أخذت تضمحل كما لو أن يداً خفية قد هدمت عناصرها. كانت هذه إذاً مدناً بأسرها، بقباب مضاعفة الألوان تكشف عن فخامتها، راوده إحساس بأنه يهيمن على تلك المجاهل كملك على درجة من العزم لا شيء يصمد أمامه. أخيراً هذه الرؤى بلغت أوجها في نوع من نوبة تركته منهكاً ومبهوراً، وقد اكتسحه النوم.

استيقظ متأخراً في نهار الغد وأحسّ بأعضائه متهشمة. أوه لماذا اختلفت هذه اليقظة إلى هذه الدرجة عن تلك التي عرفها في المرة الأولى في السرادق الزجاجي، إنما لم يكن ينبغي أبداً إضاعة الوقت «إلى الأمام»!،

همس كي يتشجع واستلم طريقه من جديد. لقد تفادى بلده مسقط رأسه: كان يخاف الذكريات، كانت الشمس المحرقة تتوهج، فشعر بدوار في رأسه ولكي يهزم بلادته، كان يقسر نفسه على تثبيت أفكاره على هدف السفر. لم يكن لديه بعد ما خلا هذا، إلا رغبة واحدة: أن يصل إلى نزل ما، أن يستلقي، وأن يبتلع حبة منومة جديدة. . . وأن يستسلم إلى القدرة الغريبة التي يحتويها هذا العقار.

أمام همدان التقى مفرزة من الفرسان المسلحين.

- من أين أنت قادم أيها الولد؟ سأله أحد ضباط الصف.

- من أصفهان. أوفدت من بغداد إلى هذه المدينة. أحمل رسالة موجهة إلى الصدر الأعظم، إنما علمت حال وصولي إلى المكان أن الصدر الأعظم المبجل سلك هذه الطريق التي نحن عليها بفرض الذهاب للقاء السلطان.

- أنت تسعى إلى مقابلة جلالة نظام الملك؟

أظهر له في الحال ضابط الصف مزيداً من الاحترام.

- لدي التماس عنده، وقد علمت لتوي أن رجالاً آخرين يستلمون زمام الحكم في أصفهان.

- إذاً تعال معنا! إن جلالته في نهاوند التي أقام فيها مخيماً عسكرياً: فهناك تتجمع كتائبنا كي تسير مباشرة إلى اصفهان بحسب ما يروون.

- لم يكن الأمر يحتاج لأن أتورط في هذا المسلك العسير. فبمحض الصدفة بلغني وأنا في النزل خبر سفر فخامته السريع. هل من مشادة قد نشبت بشأن بعض الهراطقة؟

- تقصد الاسماعيليين؟ هؤلاء ليسوا خطرين أبداً. فالأميران أرسلان تاش، وقيزيل سيريق، سيصفيان حسابهما معهم قريباً. الأمر الذي يشغلنا هنا هو أكثر أهمية.

ـ أقرّ بأني أجهل كل شيء من هذا.

ـ يقال بأن صراعاً عنيفاً قد نشب من أجل خلافة العرش، ونظام الملك ينتظر تعيين بارقياروق أكبر ابناء السلطان ولي عهد أما السلطانة، فإن فخامتها تلحُّ على منح العرش إلى ابنها محمد. الجيش والشعب مع بارقياروق، لقد رأيته ذات مرة إنه رجل كامل، جندي من أخمص قدميه حتى مفرق شعره، لكنّ أحداً لا يمكن له أن يعلم إلامَ سيصير محمد، فهو لم يكدْ يخرج من المهد.

قبل أن يصلا إلى همدان كان ابن طاهر قد دخل في لب الإشاعات الجارية بين الشعب وبين صفوف الجيش عن دسائس البلاط. لقد عُلم في المدينة أن السلطان غادر نهاوند إلى بغداد تاركاً صديقه ضابط الصف في إيوانه، وقد قضى ليلة أخرى في النزل. عند الصباح استبدل جواده مقابل مطية فتية وتابع مسيره نحو نهاوند.

كانت كتائب الجنود تتوافد إلى المعسكر من كل نواحي البلاد، وقد نصبت عدداً لا يحصى من الخيام في الفيفاء التي أحرقتها الشمس حيث كانت الجياد، والبغال، والجمال تقضم العشب الهشيم بحريتها. تجمعات متباعدة من مشاهير الحرس المزوّدين بحقائب يعدون عدواً صاخباً تستدر عطف العين.

عجولٌ، وماعزٌ، وخراف كانت تتبع الجيش بالآلاف عبر مسيره، يسوقها رعاتها لترعى في سفوح الجبال النادرة الخضرة إلاّ من بعض البقع القليلة من العشب، أقصر درب كان محفوفاً بمفارز الجنود المتنقلين من قرية إلى قرية، بغية مصادرة العلف والمؤن الضرورية من أجل الجنود.

في وسط المعسكر، شوهد مكان فسيح وخال: هناك انتصبت خيام آل السلطان، والأرض عليها آثار مواقد كانت تشهد على مرور مرافقة الإمبراطور. خيمة وحيدة كانت لا تزال منتصبة في هذا المكان: خيمة فسيحة خضراء، بأبهى هيئة أقام الصدر الأعظم فيها ثكنته العامة.

كانت الشيخوخة تبدو على نظام الملك، منذ أن اختلف مع سيده قبل بضعة أشهر من الآن علماً أنه كان قد حافظ قبل ذلك على شباب مدهش، على الرغم من أنه بلغ السبعين عاماً. حسن إدارته لمنصبه جعلته محط إعجاب حاشيته، أمسك بزمام السلطة طيلة أكثر من ثلاثين عاماً إلى أن جعل منه ألب السلطان ارسلان تاش والد السلطان الحالي صدره الأعظم ولم يكن نادماً على ذلك طيلة عمره. عندما أحسّ بدنوٌ أجله، عهد بخادمه النموذجي إلى ابنه ولي عهده، تقبل هذا النصيحة ومضى به الأمر إلى أن منحه لقب: «أتابك» يعني «أمير الأمراء». وطد نظام الملك السلم في الحدود، شقّ الطرق، بنى المدن، والمساجد والمدارس. نظّم الضرائب، ارتقى بالأمن والازدهار إلى مستوى لم يسبق للبلاد أن وصلته من قبل. وهكذا فقد تمتع بثقة السلطان اللامحدودة. . إلى أن دخل في نزاع مع السلطانة الشابة، بخصوص خلافة العرش، حسّاد وخصوم من كل نوع حاولوا من قبل مرات عديدة أن يلطخوا سمعته أمام السلطان، إنما لم يكن السلطان ليعرهم أذناً صاغية: ولم يأخذ على صدره الأعظم الثروة التي جناها لنفسه أثناء عمله في خدمته، وقد سمح بأن يعين نظام الملك أبناءه الاثني عشر في أفضل مراكز إدارة البلاد لكن الحسناء توركانا خاتون لم تأل جهداً بأن تخلص إلى إقامة الدليل لزوجها، ولي العهد، بأن عدداً من الإجراءات المتخذة من قبل صدره الأعلى المفضل كانت تكشف عن استبداده المتعاظم بشكل ملموس، بحيث إن هذا يعامل سيده السلطان كتلميذ عاصٍ، علاوة على أنه يتعسف في سلطته بطريقة مخزية. تصرف تعس من الوزير معاد الدولة الابن الأكبر لنظام الملك، أتى في وقته ليؤكد أقوال السلطانة إذ عهد إليه الأمير بأن يعين أحدهم الذي يدعى عادل موظفًا عنده، لكن الوزير لم يتردد في رفض هذه الدعوة اللبقة متذرعاً بأن المرشح ليس كفؤاً لأن يشغل هذه الوظائف التي منحت إليه:

«إذاً أنا لا أساوي شيئاً على الإطلاق في بلادي!».

صرخ السلطان الذي عزل الوزير المغرور وعيّن مكانه المدعو: عادل.

أصاب هذا التصرف الصدر الأعظم في الصميم فتفوه ببضع كلمات لاذعة، يصفه فيها بنكران المعروف، ما لبثت هذه الكلمات أن تناهت إلى مسامع السلطان الذي غضب لذلك أشد الغضب، ومضى به الأمر إلى تهديد نظام الملك بأن ينتزع منه القلم والدواة، والقلنسوة التي تمثل شارات مهمة الصدر الأعظم.

ـ سأرد القلم والقلنسوة بكل سرور إلى السلطان.. قال الصدر الأعظم بمرارة ـ لكن ليعلم أن سلم وازدهار البلاد كانا من صنيعي. عندما كان البحر هائجاً، شرفني سموه بثقته، أما وقد أشرفت الأمواج على الهدوء، والسماء على الصفاء، فقد أصغى سموه إلى الواشين عليّ لكنه لن يلبث طويلاً حتى يدرك الخيط الوثيق الذي يربط أمن تاجه بصنيع ريشتي وقلنسوتي الموجودتين الآن بين يدي...

ما زادت هذه الكلمات الجارحة لشدّ ما من سخط السلطان، أخيراً عندما استسلم الصدر الأعظم من تلقاء نفسه إلى الاعتراف ببهتان شهادته، بما يخص كفاءات حسن، فإن السلطان جرح في كبريائه إلى أقصى درجة، مما جعله يخلعه تحت تأثير وطأة غضبه.

أمّا وقد أصلحا ما بينهما الآن أمام الخطر الذي تتعرض له البلاد، فإن نظام الملك أخذ يستعيد رشده رويداً رويداً، إذ وضع نصب عينيه هدفين: إسقاط خصمه تاج الملك، والقضاء على حليف هذا عدوه اللدود حسن. فإذا ما نجح فإنه سيصبح خلال وقت زهيد السيد الذي لا منازع له في سياسة الإمبراطورية. الخطوات الأولى التي أنجزت على هذه الطريق كانت مشجعة، إذ عرف بأعجوبة كيف يستغل هزيمة الفرسان الأتراك أمام آلموت، هذه المناوشة البسيطة لمقدمة الجيش.

هكذا حطم في لحظة، كل الثقة الجديدة التي وضعها السلطان في تاج الملك. أمّا الأمير فلم يكن ليغفل الجهود المبذولة من قبل السلطانة وأمين

سرها، بألاّ يُتخذ أي شيء جدي ضد الاسماعيليين، لقد صار باستطاعة نظام أن يقنعه مذ ذاك، بوجوب اتخاذ قرار صارم ضد هؤلاء المرتدين، إذا ما أراد أن يصون نفوذه على رعيته، أعاد السلطان إذاً، السلطة المطلقة إلى صدره الأعظم وقد كلفه هو شخصياً بالقضاء نهائياً على أناس آلموت. فالحكايات التي كانوا يتداولونها عن حدوث المعجزات الباطلة هناك، قصص هؤلاء المتحمسين، الذين يدَّعون بشموخ بأن حسناً أراهم الفردوس، كل هذا وصل إلى مسامع الصدر الأعظم، فعلى الرغم من أنه قد أخذ هذه الأخبار على أنها محض أباطيل، إلاّ أنه لم يبخس تأثيرها المحتمل على العامة. كان يعلم جيداً أنّ هؤلاء ليسوا متطيّرين وحسب، وإنما يجدون متعة لدى سماعهم أحداً يتحدث عن صانعي المعجزات، وينساقون طواعية أمامهم.

وهكذا فإن مخيم نهاوند قد أصبح بشكل ما العاصمة الموقتة للإمبراطورية، وصار الناس يأتون من كل حدب وصوب ليعرضوا شكاواهم والتماساتهم على نظام الملك. ومنذ أن سمي تاج الملك صدراً أعظم بدلاً من هذا فإنه قد صرف عدداً كبيراً من الموظفين، وأحل محلهم آخرين من طرفه نستطيع أن نتخيَّل كيف تلقى كل هؤلاء الذين فقدوا حظوتهم، عودة ظهيرهم القديم: هبُّوا إلى زيارته أو أوفدوا رجالاتهم الموثوقين متلهفين إلى الاحتفاء بصدر أعظم كانوا قد ساروا خلفه في السرّاء والضرّاء. أفلم يفقدوا مراكزهم لمجرد تفانيهم في سبيله. كان نظام يستقبل ويَعد. وفي الوقت نفسه كان يعمل على استنهاض جيش مهيب كوسيلة مثلى لإرغام خصمه ـ الذي كان محمياً دائماً من قبل السلطانة ـ على الاستقالة.

ذات يوم أعلن رئيس نظام التشريفات أن واحداً يدعى عثمان، وهو تلميذ الغزالي، يطلب أن يستقبل من قبل الصدر الأعظم. فقد أرسله معلمه من بغداد مكلفاً برسالة يسلمها باليد.

كان الصدر الأعظم نصف مستلق، نصف جالس على سرير من الأرائك، منهمكاً بتذوق غدائه: زبيب، لب الجوز المعقود بالسكر، وأطعمة أخرى من قطع الحلوى السُكرية. وُضع كل هذا على طبق مذهب، تمتد إليه يد ساهية بين حين وآخر، ومن جرة نحاسية صبَّ كوباً من نبيذ العسل، أخذ يرتشفه على مهل. كان قد صرف كل الملتمسين والزائرين، أما أمينا سره، فقد كانا جالسين على جانبي مخدعه، منهمكين بالكتابة:

ـ ماذا؟ تلميذ من تلامذة الغزالي قلت؟ ليدخل! ليدخل!..

حقاً إن استمالة قلب الصدر الأعظم لأسهل بكثير من كسب مودة زعيم الاسماعيليين، لقد اقتنع ابن طاهر بذلك في اللحظة نفسها.

فأمام المعسكر، كان قد صادف الخفير الذي قاده إلى قائد المركز، شوهد يبرز الرسالة السرية المختومة بختم مدرسة بغداد الكبرى، المحررة على عنوان الصدر الأعظم. فأذن له أن يتابع طريقه، إلى أن وصل حتى خيمة نظام الخضراء والتي سرهم أن دلوه عليها.

كان هادئاً ومسيطراً على نفسه بشكل لا يصدق، كل انتباهه كان متركزاً في اتجاه واحد: الأمر الذي كان الزعيم قد كلفه به والذي كان يتوجب عليه تنفيذه عند وصوله إلى الخيمة ابتلع الحبة التي كان يدّخرها، ثم دخل إلى قاعة الانتظار. استوقفه أحد الخفراء فأعرب عن غرض زيارته بصوت مسموع. لم يشعر بعد بتأثير المخدر. وفي اللحظة أخذت صورة مريم تلوح له في كل مكان. فارتسمت على ثغره ابتسامة طفولية. لم يكن فكّر بها خلال الأيام الفائتة تحديداً فجأة ألفى هذا اليقين يفرض نفسه على عقله: إنها تنتظره هناك.

وهذه مكافأة عمله! كان عليه أن يسخِّر كل قواه كي يظهر على مستوى مسؤوليته الرفيع.

دعاه الخفير إلى الدخول إلى قاعة أخرى، اقتحمها بشجاعة متهورة. كانت خيمة الصدر الأعظم قصراً حقيقياً!

كان محاطاً بحراسته الخاصة التامة الماثلة تحت أمرة ضابط يضع على كتفه ما يرمز إلى مهماته. مع كمٍّ من الأسلحة المصنوعة من الذهب الخالص.

كانت تلك الشخصية ترتدي بدلة باذخة: قميص مزركش بخيوط من الذهب والفضة، سروال فضفاض أحمر، عمامة مبرقشة يعلوها ريش طيور طويل، كان هذا هو القائم على مراسم التشريفات عند الصدر الأعظم، تملّى الزائر بنظرة ثم سأله عما يريد.

انحنى ابن طاهر أشد انحناءة، وأفصح بحذر عن اسم من أرسله، كاشفاً عن الرسالة، وعن الختم الذي مُهرت به. أشار رئيس المراسم إلى أحد الجنود بجسّه من أجل تفتيشه. لم يجدوا معه إلاّ كتاب الغزالي وصُرة تحتوي على شيء من المال.

ـ ما فعلناه هو مجرّد إجراء يعمل به ـ قال المسؤول عن التشريفات بلهجة من يعتذر.

ثم جرَّ الستارة، ودخل إلى الصدر الأعظم يعلن عن قدوم الزائر.

في اللحظات الأخيرة، شعر ابن طاهر بتوتر عنيف ينتابه. كان الشراب أخذ يفعل فعله. سمع من حوله أصواتاً أخذ يصغي إليها بانذهال. اضطرب إذ هُيِّئ له بغتة أنه تعرف من بينها على صوت مريم.

«ياالله! كان سيدنا محقاً، همس في سرّه، لكأن تلك الوشوشة هي نفسها وشوشة الفردوس!..».

كان على رئيس التشريفات أن يكرر مناداته مرتين قبل أن يعزم على المضي خلفه، عبر الباب الذي يمسك بستارته أحد الجنود. لمح عجوزاً صغير القامة يجلس على الأرائك تنم سحنته عن مهابة طيبة.

بدا لابن طاهر أن المجهول يوجه الكلام إليه، لكأن صوته كان يأتيه من البعيد. انحنى بإجلال، وعندما انتصب أخذ زخرف الحجرة يبدو متغيراً أمامه «إنه سرادق الفردوس» صرخ في سرّه، لكن صوتاً خافتاً خاطبه: اهدأ يا بني هكذا فالغزالي هو من أرسلك؟ لمح أمامه من جديد وجه الصدر الأعظم يبتسم له بمودة، حريصاً على مساعدته، للتخلص من هذا الارتباك الواضح، والذي كان يعبر بجلاء عن هذا السلوك الغريب. شرارة من التجلي لمعت في ذات ابن طاهر. «هذه الرؤى هي نتيجة هذه المادة التي ابتلعها».

ـ فكَّر ـ وهذه الفكرة ساعدته على التحكم بنفسه.

ـ نعم، يا جلالة، إن معلمي الغزالي هو من أرسلني بهذه الرسالة.

مدَّ يده بالمغلف إلى العجوز، وتقدّم نحوه، وزلّق حاملة السُّم المشيقة:

كانت الحركة رشيقة بقدر ما كانت متحفظة، بحيث أن أيًا من هؤلاء الموجودين لم ينتبه إلى ذلك أبداً.

فضّ الوزير الغلاف، وفك الرسالة:

ـ إلام آل الأمر بصديقنا العالم في بغداد؟

استفسر.

انحنى ابن طاهر، كما لو كان يريد الإجابة عليه، وبحركة سريعة غرز الشفرة في حنجرته، تحت ذقنه تماماً. ذهل الوزير لذلك أيّما انذهال إذ لم يشعر بأي وجع إثر ذلك مباشرة. اقتصر على فتح عينيه المندهشتين ثم ثبَّت نظره على الرسالة الخاصة، وفهم كل شيء.

استنجد فقط عندئذ.

لم يتحرك ابن طاهر، شُلّت حركاته فجأة، مثلما شُلت أفكاره، وديكور الحجرة أخذ يتبدل أمام عينيه المتوهمتين. ابتهل إلى اسم مريم متلهفاً للقائها في اللحظة نفسها. لم يعد لديه إلاّ رغبة واحدة.

أن يتمدد، وأن يستسلم لمفعول الشراب المخدّر اللذيذ، الذي يتوقد داخله لولا أن رجالاً، بادروا إلى تمريغه بالأرض، وآخرين اقتحموا الحجرة كي يؤازروهم. . .

وبشكل آلي، أخذ يقوم ببعض حركات دفاعية: كان يستخدم قبضته في الضرب، وأسنانه في العض، لكنّ وابلاً من اللكمات كان ينهال عليه. . . نزعوا عنه ثيابه. . وفجأة تذكر أن هدفه بالضبط هو الموت حال إتمام مهمته وهدوء كبير سرى فيه في الحال، كان ينتظر الضربة القاضية التي ستخلّصه، ونظره مثبّتٌ بإصرار على وجه مريم الذي تراءى له لتوه عبر ستارة من الدم، أذرع عملاقة أوقفته ثم رجع صدى صوت رهيب:

ـ صوت الصدر الأعظم الضعيف بلغ حتى عنده:

ـ لا تقتلوه! خذوه حياً! . . .

تلك الوحشية، وتلك اللكمات توقفت. شعر بأنهم يقيدون ذراعيه وساقيه، لكن الدم الذي كان يغمر وجهه كان يمنعه من الرؤية.

ـ من تكون أيها القاتل؟

ـ أنا الضحية التي قدمت نفسها قرباناً لسيدنا!

كانوا منهمكين في غسل وتضميد جرح الوزير، وأحدهم خرج راكضاً من أجل استدعاء طبيب. سمع الجريح جواب الفتى. .

ـ أوه! الأحمق ـ قال وهو يئن ـ فقد سمع هذا المجرم. . .

رئيس الحرس التقط الرسالة عن الأرض، وبعد أن ألقى عليها نظرة، ناولها إلى رئيس التشريفات الذي شاهده الجميع يثب عندما قرأ هذه الكلمات الوحيدة: «إلى لقائك. . . في الجحيم! ابن الصباح».

وصل طبيب الصدر الأعظم عندئذ، وأخذ بمعاينة الجرح.

ـ سيىء؟ استفهم الصدر الأعظم بصوت جعله الهمُّ مرتجفاً. إني أحسُّ أن الأمر ليس بحسن. . .

ـ أخشى من أن تكون الشفرة مُسممة همس الطبيب إلى رئيس الحرس.

ـ إنه سيّد آلموت من سلّح القاتل. أعلمه الضابط بصوت مسموع.

شاع الخبر فوراً، وصارت الأفواه تتناقله:

زعيم الإسماعيليين أرسل واحداً من رجاله ليغتال الصدر الأعظم!

ـ ماذا! شيخ الجبل؟ حسن هو من جعله الصدر الأعظم في ما مضى سخرية أصفهان؟

ـ بالضبط! وهذا هو انتقامه...

في تهور ابن الصباح هذا، كان هناك شيء يتعذر فهمه وقد جمّدهم جميعاً من الرعب.

ـ وهذا الغريب الأطوار، الذي غامر بنفسه وسط معسكر أجنبي كي ينفذ جرمه... إنه لا يمتلك أية فكرة عن الميتة التي تنتظره!

ـ هاكم ما يؤدي إليه التعصب.

ـ التعصب، بل الجنون الخالص، أجل!

لم يكن المسنون ليستطيعوا أن يفسروا أسباب هذا التهور، والآخرون قد التبس عليهم الأمر من الانذهال، أو من الإعجاب المكتوم بسلوك هذا القاتل الخارق.

ـ هاكم واحد، لا يهاب الموت أبداً!

ـ أو يحتقره...

ـ بل راغب فيه كثيراً..

سمع صوت قرع الطبول، ونفخ الأبواق: تصريح سريع أعلنه أحد الجنود الهارعين إلى الأمام، وهم يحملون أسلحتهم: أصيب الصدر الأعظم بجرح خطير، زعيم الإسماعيلية شيخ الجبل أرسل أحد القتلة لاغتياله....

استُقبل الخبر بجلبة مرعبة، وبقعقعة سلاح مُدوِّية. فلو أعطي أمر بمهاجمة الإسماعيليين لما تردَّد أحد من الانخراط في المعمعة بمنتهى الحماسة.

على الرغم من نجاح الطبيب في إيقاف الدم، أخذ الجريح يهزل بشكل ملحوظ وصار يشعر وكأن ضربات مطرقة تطرق رأسه.

ـ الشفرة مسمومة بالتأكيد ـ قال بصوت مرتعش ـ وقد رمق الطبيب بنظرة طفل بائس.

أليس هنالك من مجال لإغاثتي؟

وارب الطبيب.

ـ دعوني أقم باستشارة زملائي....

كان زملاؤه الذين استُعجلَ في استدعائهم ينتظرون في حجرة الانتظار.

حصلت استشارة سريعة.

قَدَّر غالبية الحاضرين وجوب كي الجرح.

ثم ذهبوا في موكب إلى سرير الجريح الذي كان على درجة فظيعة من الوهن.

ـ من الأفضل أن يكوى الجرح، صرَّح طبيب الصدر الأعظم.

ارتعد الجريح، وعرق بارد كان يتصبب من جبينه.

ـ أتصور أن هذا مؤلم جداً؟ كان صوته متكسراً نتيجة لتخوفه.

ـ لا يوجد حلٌّ آخر، أجاب الطبيب بجلافة.

ـ ليحطني الله بعطفه!

انخرط الأطباء في تأدية واجبهم. حضّروا أدواتهم المتخلّفة، وحمل أحد الخدم طبقاً من الفحم المتوهج حيث سمعت فرقعة الحديد الحادة. كان الصدر الأعظم يتأمل هذه التحضيرات دون أن ينخدع.

كان يشعر في قرارة نفسه بتقدم السُّم: لقد فهم لتوه أنه هالك.

ـ من غير المفيد ان تقدموا على الكي، قال لهم أخيراً بصوت مضنٍ، لا تنشغلوا بهذا، من الأولى أن تدعوني أموت...

نظر الأطباء إلى بعضهم بعضًا، لكأنهم يتواسون، كانوا متيقنين بأن لا جدوى من أية محاولة.

ـ هل فكّرتم بإعلام السلطان؟

هناك رسول في الطريق إليه، سيلتقي جلالته عمّا قريب.

ـ أيها الكاتب، اكتب، أمر بصوت ضعيف.

أملى:

«أيها الملك والإمبراطور العظيم، لقد كرّست الجزء الأزهى من حياتي لرفع الجور في مملكتكم، سلطتك ساندتني في هذا المشروع، والآن وأنا أقضي، وأسلم الروح إلى الملك العليّ القدير، لذاك الذي يوجب على السلاطين أنفسهم أن تكون أعمالهم كأعمالي في هذه الدنيا. إني أشْهده على إخلاصي لك، هذا الإخلاص الذي لم يضعف أبداً طوال الوقت الذي كنت فيه في خدمتك في عامي الثالث والسبعين أقع تحت طعنات يد مجرمة. أناشدك بألا تنسى اسم من سلّح تلك اليد، فطالما سيبقى هذا المجرم سليماً معافى، يهيمن وحده على الموت، فإنك لا أنت ولا مملكتك ستنعمان بالأمن. سامحني إن كنت أسأت إليك يوماً، مثلما أنا أسامحك أيضاً، لا تنسَ أبنائي الذين يكنون لجلالتك الإخلاص قلباً وقالباً».

أنهكه هذا الخطاب، وصار يتنفس بصعوبة:

وضع الطبيب على جبهته كمادّة باردة، وأملى أيضاً وداعاً سريعاً لأبنائه ثم استخبر:

ـ أين القاتل؟

ـ يُنكل به ـ أجاب الكاتب: يريدون أن يجبروه على الإدلاء بكل ما يعرفه.

ـ هاتوا لي به.

دُفع بابن طاهر المدمى والممزق أمام الجريح، وقد استطاع بالكاد أن يقف على ساقيه.

نظر الصدر الأعظم بوجه ابن طاهر وارتعد: «لكنه لا يزال طفلاً!» همس في سرّه.

ـ لماذا أردت قتلي؟

حاول ابن طاهر أن ينتصب، وتمكّن من أن ينطق بصوت خائر.

ـ كان هذا أمر سيدنا.

ـ لكن ألم تكن تعلم أن الموت سيكون بانتظارك إثر ذلك؟

ـ كنت أعلم ذلك.

ـ ولم تخشَهُ؟

ـ الموت أثناء إتمام الواجب، يعني السعادة بالنسبة لفدائي.

ـ أي جنون! قال الصدر الأعظم وهو يئن.

ثم انتابته رجفة غاضبة.

ـ تركت نفسك يعمى عليك. فأنت لا تعلم ما الذي أقدمت عليه، هل تعرف ما هو شعار الإسماعيلية النهائي؟

ـ أعرفه، نفّذ أوامر رئيسك.

ـ أبله، مجنون متحمسٌ! ألا تعرف أنني أيضاً أعرف مبدأ رئيسك؟

ـ أعلم، أنت مرتدٌّ، خائن.

ابتسم نظام ابتسامة تسامح.

ـ إصغِ إليَّ أيها الشاب. شعار الإسماعيلية الأعلى هو هذا:

«لا شيء حقيقيًا، كل شيء مباح!..».

ـ افتراء! كان ابن طاهر يرتجف من السخط، إنك تجهل من يكون سيدنا...

سيدنا هو الأقدس، وهو الأقدر بين كل الرِّجال، لتعلم أن الله أعطاه القدرة على فتح أبواب الفردوس لأتباعه.

رجَّع الصدر الأعظم زفرة. نهض بصعوبة على مرفقه ثم سبر الولد حتى أعماق عينيه: لا، لقد كان واضحاً عدم كذب هذا الفتى. هزَّ رأسه بطريقة مذهولة، كان يعلم الحكايات التي كانت شائعة عن آلموت. عن هؤلاء الشُّبان الذين يحكون عن قضائهم ليلة في الفردوس.

بدأ يستوعب...

ـ أنت تؤكد إذاً ذهابك إلى الفردوس؟

ـ رأيتها بهاتين العينين، ولمست بهذه الأصابع العجائب الموجودة هناك!

ـ أنت مقتنع دون شك بأنك ستلقى هذا المكان نفسه بعد الموت؟

ـ نعم، الموت سينقلني إلى هناك!

ترك الصدر الأعظم نفسه يتهاوى على أرائكه من جديد.

ـ يا الله، يا الله! تمتم بصوت ضعيف. أية خطيئة!

لهذا إذاً كان بحاجة إلى الكثير من تلك الإماء الحسناوات!...

لقد اشتراهن من كل الأسواق!

أصاخ ابن طاهر السمع. وقد وترّ تيقظه كل عضلات وجهه.

ـ ألم يتبادر إلى ذهنك الشك بأن تكون مضلَّلاً؟ أراد أن يعلم الصدر الأعظم.

ألم تتساءل في ما إذا كان ذلك الفردوس من صنع حسن بالذات؟

دون شك، رحت إليها دون حتى أن تغادر آلموت؟ لا تأوي آلموت

هكذا رياض فتلك التي دخلت إليها كانت مطابقة تماماً لما جاء وصفه في القرآن. أقحم نفسه من بين الموجودين ضابط قديم يعرف كل قلاع إيران في المحادثة.

ـ ربما يقصد تلك الرياض الفخمة التي أعدّها ملوك الديلم القدماء، خلف القلعة من أجل متعتهم. لطالما سمعتهم يتحدثون عنها.

حملق ابن طاهر بعينيه اللتين كانتا تنمان عن خوف طفولي.

ـ لقد أتيت على اختراع أسطورة تتعمد فيها أن تشوشني!

تضرّج وجه الضابط.

ـ ألجم لسانك أيها المجرم! أي واحد من الذين خدموا مثلي في شمال البلاد يستطيع أن يؤكد وجود هذه الرياض خلف آلموت: فهي معروفة باسم رياض ملوك الديلم.

بدأ كل شيء يهتز أمام ابن طاهر، إنما كان لا يزال عليه أن يبتليهم بالحجة الأخيرة.

ـ رأيت في تلك الرياض فهداً كبيراً مدجناً، إنه بوداعة الحمل، كان يتبع سيداته تماماً كأنه كلب.

أمّا هؤلاء الذين كانوا حاضرين، فقد خرجوا وعلى شفاههم ابتسامة لاذعة:

«إن أمراء وكبار هذا العالم يقتنون من الفهود المدجنة في حدائقهم أكثر مما يبتغون!

الصيادون يستخدمونهم عوضاً عن الكلاب...».

ـ والحوريات ذات العيون السود اللواتي كنَّ تحت تصرُّفي.

ـ والحوريات ذوات العيون السوداء، ضحك الصدر الأعظم بتألم، إنهن لسن إلا إماء خُصصن لمتعة حسن... كان يشتريهن من كل أسواق إيران. مكاتبي لديها معلومات دقيقة عن كل واحدة من تلك المشتريات...

أحسَّ ابن طاهر بقشور تسقط من عينيه، وفجأة صار كل شيء واضحاً أمامه. مريم أَمَةٌ وعشيقة حسن.. أمّا هو، ابن طاهر فضحية بائسة لدسائسهم وبدعهم.. أحسن بأن رأسه أوشك على الانفجار.

قصفت ركبتاه، فخَّر على الأرض وأخذ بالنحيب.

ـ سامحني يا الله!

فقد الصدر الأعظم المرهق من الجهد وعيه.

حشرجة مؤلمة كانت تمزق حنجرته، فجثا الكاتب إلى جواره.

ـ لقد أشرف على الموت ـ قال هامساً ـ ودموع ملأت عينيه.

تهافت الأطباء حول الجريح، فاستطاعوا إنعاشه بقليل من الماء العذب، وشيء من ماء العطور.

ـ أية جريمة ـ تمتم ـ وهو يستعيد رشده.

لمح ابن طاهر جاثياً أمامه.

ـ هل استبان لك كل شيء الآن؟

أدّى الولد إيماءة توكيدية، لم يكن يستطيع أن يتلفظ بكلمة واحدة فكل بناء حياته قد انهار.

ـ إني أموت بسبب طيشك أردف الجريح.

ـ يا الله! يا إلله! ماذا فعلت!

ـ أنت نادم على ذلك؟

ـ إني نادم يا سمو.

ـ بما أنك شاب موطّد العزم، هل ستمتلك الشجاعة على رأب جريمتك؟

ـ ليت هذا ممكناً.

ـ هذا ممكن. إرجع إلى آلموت، وأنقذ آلموت من مخالب ذلك التنين الإسماعيلي.

لم يكن ابن طاهر ليستطيع تصديق أذنيه. فوجّه إلى هؤلاء الحاضرين ابتسامة طفولية شاحبة تغطيها دموعه. أما الوجوه التي كانت أمام ناظريه فبدت مكفهرة وعدوانية.

ـ هل أنت خائف؟

ـ لا، أنا لست بخائف. لكنني لا أدري ماذا ستفعلون بي.

ـ سنرسلك إلى الموت.

حاشية نظام، أعربت بتحفظ عن استنكارها. إذ لا بد للمجرم من أن يُعاقب!

أومأ الصدر الأعظم المنهك بإشارة من يده.

ـ أنا أعرف الرجال، لا إن كان هناك من يقدر على تصفية الحساب مع حسن فهو فعلاً هذا الفتى.

ـ مع ذلك فنحن لا نستطيع أبداً أن نعيد الحرية إلى قاتلك! ماذا يقول جلالته؟

ـ لا تشغلوا بالكم بذلك، فأنا لا أزال حياً ومسؤولاً. أيها الكاتب، أكتب.

أملى نصّ قرار، نظر الحضور إلى بعضهم بعضاً وهم يهزون رؤوسهم.

ـ هذا الشاب الذي طعنني هو ضحية سفاح آلموت أكثر مما أنا ضحية وبانتقامه لنفسه فلسوف ينتقم لي. لتواكبه مفرزة من الرجال إلى القلعة. وعند عودته إلى هناك فلسوف ينجز ما يمليه عليه الواجب بحسبما يقدِّر.

ـ سأغرز خنجري في أحشائه.

نهض ابن طاهر وعيناه تتقدان بالحقد.

أقسم بأنني لن أحجم حتى أُتمم انتقامي أو أموت.

ـ هل سمعتموه؟ بادرة خير... والآن خذوه بعنايتكم، غسّلوه، وضمِّدوا جراحه، وأعطوه ثياباً لائقة.. آه كم أشعر بالإنهاك...

أغمض عينيه، كان دمه يتّقد ضمن عروقه كالجمر، ثم أخذ يرتجف

ـ أوشكت النهاية على الاقتراب ـ همس الطبيب ـ

أومأ بإشارة، غادر الجميع الحجرة، وتركوه وحيداً عند مرقد المحتضر.

قاد الحرّاس ابن طاهر خفية إلى إحدى الخيام، ساعدوه على الاغتسال، وعلى تضميد جراحه، وألبسوه ثياباً نظيفة وفي الختام ربطوه إلى عمود. يا للحياة كم هي مرعبة، فالرجل الذي كان جميع مشايعيه ينظرون إليه كشيء مقدس، هو في الواقع أسوأ الدجالين تلاعب بحياة وسعادة الناس، كما يلعب الطفل بالحصى، لقد استغل ثقتهم، هل كان يقبل، وبكل ارتياح أن يُعتبر كنبيٍّ؟ كمرسلٍ من عند الله... هل هذا ممكن؟

كلما كان ابن طاهر يغرق في التأمل كلما صار مقتنعاً: لا بد من عودته إلى آلموت! بغية التأكد من أنه لم يكن مخطئاً! فإن كان غير مخطئ، فلسوف يغرز له، وبمنتهى التلذذ شفرة مسمومة في جسمه.

على أية حال، لقد حُكمَ عليه بالموت.

ليكن ذلك بمشيئة الله...

قضى الصدر الأعظم ليلته في الحمى، بل كان فاقداً الوعي تماماً.

ومن وقت إلى آخر، كان يستيقظ مضطرباً بهذياناته المرعبة.

كان يئن ويتوسل إلى الله أن يكون في عونه. عند الصباح، خارت قواه، ولم يعد قادراً على استعادة وعيه. وعند الظهيرة توقف قلبه عن الخفقان.

أشاع الرسل هذا الخبر في كل حدب وصوب:

«نظام الملك، منظم الدنيا والبلاد، جلال الله والدين، عزة الدولة والدين صدر السلطان الأعظم قلب ارسلان تاش. ابنه ملك أعظم رجل في الدولة، والذي لم تعرف مثله إيران، قد مات ضحية لسيد آلموت».

الفصل السادس عشر

في غد اليوم الذي غادر فيه ابن طاهر آلموت، هرع جاسوس إلى القلعة حاملاً معه هذا النبأ:

فصائل الأمير أرسلان تاش، انداحت من جديد، وبشكل هائج في الميدان، الطبول تقرع، الأبواق تعزف وعلى جناح السرعة راح كل واحد يأخذ موقعه المخصص له في المعقل. والجنود القائمون على الحراسة على طول الطريق، تلقَّوْا أمراً بالالتحاق بمراكزهم، إلى أن تظهر أوائل فرق الفرسان المعادية في الأفق لكن لا بد من أن ينسحبوا إثر ذلك بنظام وليس دون أن يتركوا خلفهم وعلى امتداد الشُعب واقيات فتحات البوابات المستترة بعناية فائقة. من ساعة إلى ساعة كان يتقدم إلى باب الحصن مخبرون جدد يحملون أدق التفاصيل عن تحركات الجيش التركي. عند بزوغ فجر اليوم التالي دعا حسن كبيري دعاته إلى اللحاق به، في قمة برجه. وأخذ الثلاثة يراقبون الأفق بترصد.

ـ هل أنت متأهب لكل شيء؟ سأل أبو علي مضطرباً ورمق حسناً بنظره كنظرة حيوان وقع في الشرك.

ـ أي نعم، كل شيء، تم كما كنت أتوقع، وقد أعددت هجوماً مضاداً مقابل كل رمية.

ـ هل من الممكن أن تكون أرسلت ابن طاهر إلى نهاوند؟ قال بوزروق أوميد جملته عقب ذلك وقد هلع من جرأته.

قطّب حسن حاجبيه وواصل تفحص المشهد بهدوء وكأنه لم يسمع السؤال.

ـ كل الإجراءات التي اتخذتها ـ قال بعد لحظة ـ إنما اتخذتها من أجل نصر قضيتنا المشتركة.

تبادل الداعيان نظرة خاطفة، فقد كانا يتوقعان أي نوع من الطعنات المضادة يمكن له أن يكون قد أعدّ، لكنهما لم يرتعدا لذلك إطلاقاً. مهما يكن من أمر فمن الممكن للنجاح أن يناط إلى الكثير من المصادفات الصغيرة: إذ لا بد من وجود قوة خارقة أو غير عادية في هذا الرجل كي يكون متيقناً جداً من حساباته في كل لحظة.

ـ لنفترض أن جيش الأمير بقي أمام القلعة حتى الشتاء. قال بوزروق أوميد مستفهماً من جديد.

ـ تحسب أننا سنموت من العطش؟ قال حسن ضاحكاً. الاستحكامات قوية، ويوجد لدينا من المؤن ما يكفي لسنة.

ـ لو استبدل هذا الجيش بجيش آخر ثم بجيش ثالث، فما الذي سيحصل عندئذ؟

ـ لا أرى شيئاً من هذا يا عزيزي في الواقع، إنما أبذل جهدي كي لا أعتمد إلا على مهلة عاجلة أو آجلة جداً.

ـ إنه لخطر جسيم، بعدم وجود أي مخرج من أي جهة كانت.

ـ ومن ناحية الجبال يا عزيزي! لماذا لم أرسلكم جميعاً للبحث عن خلاصكم في أبعد مكان في الجبال؟..

ابتسم حسن لمزاحته بصمت ثم قال كمن يريد مواساتهم:

ـ برأيي أن مدة هذا الحصار لن تطول.

في هذه اللحظة رفع بوزروق أوميد العلم المنصوب في قمة برج الرصد، الذي يشير إلى مدخل المعبر: يد غير مرئية هزته بتؤدة، ثم جعلته يختفي.

ـ الخفير يترك موقعه قال وهو يستجمع أنفاسه. العدو يقترب.

بعد قليل من الوقت، لاحت زوبعة من الغبار في الأفق، مشيرة إلى اقتراب كتائب الفرسان، ثم لمحت الأعلام السود تخفق في الريح، ومفرزة أولى مجهزة قد انقضت مقتحمة الهضبة التي ينتصب فوقها برج الرصد. وفي اللحظة التالية، أخذ بيرق السُّنة الأسود الجبار، يخفق في مدخل الشعب.

أخذت فيالق الأفواج تتوافد من جديد، وكل الوادي المتجه نحو سافلة المعبر صار في وقت وجيز مغطى بالخيام التي ثُبّتَت في منحدر الجبل.

عند المساء ظهرت الأبراج الآلية وأسلحة الحصار: كان من الممكن لعددها أن يبلغ المائة. كان الزعماء الثلاثة يرقبون هذه الاستعدادات من أعلى برجهم بانتباه شديد.

ـ يبدو أنهم لا يأخذون الأمر على محمل المزاح.

ـ انتصار عظيم، يقتضي وجود عدو ضخم، أجاب حسن.

ـ ربما ستنتهي استعداداتهم هنا، خلال يومين أو ثلاثة ـ تنبأ بوزروق أوميد. وبعدها ستزف ساعة الانقضاض.

ـ لن يهاجمونا من خلال المعبر ـ قدَّر ابو علي ـ فالممر على درجة من الضيق، بحيث نتمكن من أن نهلكهم إثر بعضهم بعضاً، قبل أن يمروا إلى أسفل الأسوار. لكن لا، سوف يحاولون اتخاذ وضعيتهم فوق القمم المجاورة، بحيث يصيرون اكثر ارتفاعاً من معاقلنا، إنّما لن يشكل التهديد من هناك أية خطورة كبيرة إن عرفنا كيف نبقى محترسين.

ـ يلزمهم قائد جيش عبقري للغاية ـ أردف حسن ـ إذا أرادوا أن يستحوذوا على القلعة لسبب آخر غير الجوع. وبحسب معرفتي فإن استراتيجية كهذه ليست موجودة لا في إيران، ولا في مكان آخر.

ـ حليفهم الأقوى هو الوقت. ختم قوله بوزروق أوميد.

ـ أما حليفنا فهو (الفردوس) أردف حسن ضاحكاً.

كانت القلعة بذلك مرتعاً لهيجان أشبه ما يكون بهيجان خلية نحل. فالبرج الداخلي، والمعاقل المجاورة كلها مغطاة بالفيالق. الآليات المصلات كانت تجر أحجاراً وكريات خشبية ضخمة باتجاه مواقع الأتراك الأمامية، والقدور المعدنية المعدّة لتذويب الرصاص والقطران، أو لتسخين الزيت، كانت في مكانها تنزل من فوق المواقد الحجرية، كانوا يتحققون من انتظام عمل التشكل المخصص لصب المادة المشتعلة على العدو. أمّا الضباط الذين اعتمروا الخوذ، فكانوا يركضون من معسكر إلى معسكر يتفحّصون الاستعدادات، يراقبهم من بعيد مينو تشرشر، يرافقه مساعدا المعسكر وهما يمتطيان حصاناً.

كان الرجال قد أخذوا بتلابيبهم نتيجة هذا التهديد الرازح على المكان لا سيما وأن أحداً منهم، لم يكن يفكر بهذه الحيرة التي تسبّبها تحركات العدو. وحدهم الزعماء الثلاثة كانوا في أعلى قِمّة البرج يجتهدون في دراسة مسرح العمليات في مجمله.

كان الجدد في مدرسة الفدائيين ينتظرون أوامر المجيء. كانت وجوههم شاحبة، وقد تحيروا من إيقاف التعليم فجأة. عين سليمان ويوسف لقيادة جنود المتطوعين، ولن يتورعا عن إبراز صنائعهما الجديدة أمام فرسان الأتراك، حماستهم المُعدية ساعدت في الحفاظ على معنويات الجماعة المتمرسة جيداً من قبل، نسي المستمعون إلى الفتيان خوفهم وهم يحلمون بالأمجاد التي تنتظرهم: كانوا يعرفون أنفسهم جماعة نخبة، وعلى هذا الأساس كانوا يتصرفون. في فترة ما بعد الظهر في حراسة البرج حيث تتواجد هناك التماريد العالية: كانوا مُسلحين بالأقواس والحراب، ومفرزة من ستة جنود تمركزت بالقرب منهم لتقوم على العمل في قدور القطران والزيت.

بعد صلاة العصر، أحضرت وجبة سليمان ويوسف إلى موقعهما، كانا

ينتظران وهما جالسان، في مكان مستور من الحاجز وقبعات الحرب موضوعة على رأسيهما، لأن الحرارة كانت تطهوهما تماماً. وعلى الرغم من ذلك كان جبيناهما يقطران بالعرق، سيصعب كثيراً على من لم يراهما منذ وصولهما، أي قبل ستة أشهر من الآن، أن يتعرّف عليهما: وجنات مسمرة وغائرة، قسمات متصلبة، وقاسية، كانا يقومان بجرد الإجراءات المتخذة، والتي لا تترك مجالاً للقلق من كل الجهات.

ـ أُوصد علينا، وصرنا كفأرة في وكر، قال سليمان مستاء، فالمرة الأولى كانت شيئاً آخر: ضرب العدو على جمجمته بأقوى ما هناك من طعان السيف... هذا هو ما كان يروق لي!

ـ لنتريث ـ هدّأه يوسف، ربما كان سيدنا يخفي فكرة في رأسه. يوجد هناك ما يبلغ الثلاثين ألف هرطقياً. وهذا شيء لا يُستهان به.

ـ لا أهمية لوفرة العدد، ليتهم يعطونني الآن الأمر، فانقض عليهم في الحال، هل يتوجب علينا أن نتحمل هذه البطالة الجهنمية إلى الأبد!

ـ إني أفكر مثلك تماماً، بودي أنا أيضاً أن أريهم العجب، لهؤلاء الهراطقة الكلاب.

ـ هل تعلم ما الذي يشغلني طوال هذا النهار؟ إنما لا تتفوه به أبداً. أرغب بأن أقترح على سيدنا أن يدفع بي إلى العدو كي أقتل هذا الكلب ارسلان تاش.

ـ لن يسمح لك بذلك، نحن أدينا اليمين، وعلينا أن ننتظر أوامره.

ـ أوه، يا للانتظار المقيت! لا يحتاج الأمر لشيء كي أغدو مجنوناً. قلت لك ذلك ينتابني أحياناً إحساس غريب. فمنذ يومين، وبين صلاة المغرب والعشاء أحسست بنوع من الحنق يستولي عليّ فجأة لا أدري كيف ألفيت نفسي على هذا السور، خنجري في يدي تماماً إلى الأسفل، ثلاثة جدد كانوا يتمشون وهم يثرثرون، تركتهم يقتربون، وفي لحظة سرى الدم في عروقي، ورغبة جامحة تملكتني: فكّرت أن أغرز سكيني في بطونهم.

وبما أنهم مروا بمحاذاة مخبأي تماماً، انقضضت عليهم، وأخذوا بالعويل كالنساء. أغمدت خنجري، وهدأت في الحال، لقد كنت منهكاً لدرجة أنه، كان من الصعب عليّ أن أنتصب على ساقيَّ، استجمعت كل ما تبقى لي من قوة كي ابتسم: «حسنٌ! أنتم أبطال تافهون» قلت مغمغماً، كنت أريد امتحان شجاعتكم، لكنني أدركت أنكم غير مستعدين». وعلى هذا قدّمت لهم وعظاً سريعاً على طريقة عبدالملك: الإسماعيلي، هو قبل كل شيء فدائي، عليه أن يكون متأهباً على الدّوام... من الشائن بالنسبة لواحد من جماعة النخبة أن يعرض نفسه للمباغتة من قبل أي كان، وهكذا خلّصتُ نفسي من الورطة.

لكنني منذ ذلك اليوم أعيش في هاجسٍ أن أتحول إلى مجنون ومسعور إن لم يمنحنا سيدنا الخلاص.

ارتعش يوسف:

ـ هذه هي نتيجة شراب سيدنا المخدر!

لقد استخدمها كي يفتح لنا «الباب العالي»...

لكننا الآن (نفطس) من اللهفة لهذه الفكرة الوحيدة التي عشَّشت في رؤوسنا: العودة إلى هناك!

ومن هو ذلك الذي يتذوق الفردوس مرَّة ولا يريد أن يعود إليه؟ الله! يا الله! لماذا هذا الامتحان العسير.

وهكذا، فقد انقضى يومان على الاستعدادات الحامية والصمت المغمّ. فالانتظار بالنسبة لأهالي المكان كان تنكيلاً حقيقياً. لم يتوقف حسن وداعيا دعاته عن تفحّص الأرباض المحيطة بهم. كانوا يحسُّون بأن شيئاً ما يُرتّب له. لكن سفوح الشعب الشديدة التحدر كانت تحول دون رؤية ما كان يجري على القمم الأكثر قرباً، عهد حسن إلى عبيدة، بإرسال بعض الرّجال عبر قناة أبي علي ليستطلعوا عند خطِّ الذُّرى. فقد كان العدو آنفاً قد أزال العوائق المتروكة في الشّعب، وكان من الممكن رؤية رجال الأمير

المنهمكين في تفحّص الأمكنة من أعلى البرج. تلقى خلف وابن فاكاس. الأمر بالنزول، ومنذ بزوغ الفجر، حتى أسفل السور، وبإجتياز الحامولة من هناك، ثم بتسلُق الجُرف الذي ينتصب في الجهة الأخرى من الشُعب. كان كل رجال آلموت يتابعون بأنظارهم تقدمهم الذي يبعث على الدُوار: فحتى خبراء الطرق أنفسهم، الذين سبق لهم أن رأوا طرقاً أخرى غيرها، حبسوا أنفاسهم كان ابن فاكاس في المقدمة يقوم بالتسلّق، وعندما تمكّن من نتوء يمكن التشبُث به، قذف بحبل تمسَّك به من خلف وأخذ الاثنان يتابعان ارتقاءهما البطيء. كانت الشمس لا تزال عالية، عندما بلغا القمة، وحيث تعلقا ببعض الجذوع المتشعبة. شوهدا فجأة يلبدان، وقد تسدَّدتْ مقاذف النبال في وضعية تمكّن من حمايتهما. عندما فرغا من معاينة الأرباض بعناية فائقة، غامر المتسلقان الرشيقان كقردين يتسلَّقان جذعاً مائلاً عن سمت الرأس، علّقا به حبلهما، ثم راحا ينزلقان إلى أسفل الهاوية.

تجاوزا المسيل دون مواجهة أي عائق، ولم يكن على رفاقهما إلاّ أن يرفعاهما حتى أعلى السُور. كان الخبر الذي حملاه يقتصر على كلمات قلائل: اختار العدو قمة الجروف، وهو منشغل بتركيز المنجنيقات وقاذفات قنابل الاشتعال. لم يكن هناك إلاّ صرخة غطّت كل المكان. وما هي إلاّ دقائق وأول كرة مدفع طارت فوق المسيل، ثم حطت لتتحطم عند أسفل السور. ثم تلتها قذائف أخرى كثيرة، حيث غطى صوت صدمة هذا السلاح هدير شاه رود.

أحسَّ الرجال المتمركزون في أعلى الأسوار، بأن الأرض تميد تحتهم، وقد وجهوا وجوههم الشاحبة من الانتظار نحو العدو، قليل من الوقت، وتصدَّع الجرف المقابل الملغم على وجه الاحتمال. والذي انهار نتيجة للقصف في المسيل الذي جرف كل شيء في مسيره، صخور ضخمة آلت إلى نفس الطريق، جرفت المياه الأولى منها، أما تلك التي هبطت هناك،

حيث لم يكن الانحدار شديداً جداً، قد بقيت في وسط المجرى، وما لبثت أن شكلت نوعاً من سدٍّ طبيعي أخذت الأمواج المزبدة تتلاطم خلفه، أخيراً شوهدت بعض الظلال الدَّقيقة تتحرك.

على أقرب قمة: عدة فرق من الحرَّاقين كانت منهمكة في جرِّ بعض الآلات الضخمة. ألقى مينو تشرشر أمراً. وسربٌ من السهام انطلق باتجاههم، لكنهم كانوا بعيدين جداً بشكل يمنع إثارة أيِّ قلق حقيقي لديهم، وكرية خشبية مشتعلة انفجرت، كإجراء انتقامي قرب السور، تعلن أنها بداية لكثير من القذائف الأخرى، وأخيراً وقع أول سرب من السهام على المحاصرين.

اندفع مينو تشرشر نحو جندي جريح:

- أيها الأبله! لا تخاطروا بأنفسكم! انحنوا! زفر زفرة سخط صاخبة وغاضبة، بينما كان الجنود الذين شحب لونهم يتفرسون ببعضهم بعضاً بابتسامات ضجرة وقد بدا عليهم القلق بشكل ملحوظ نتيجة إحساسهم بأنهم أمام عدو أُحسِنَ تجهيزه بشكل فائق.

- هيا! ليس في كل هذا إلاّ شيء من الخداع والتمويه: زأر مينو تشرشر، فثمة براعة في خدعة حربية لا تشكل أدنى خطر....

إنما هذا الوابل من الحجارة والنار، كان له تأثيره على معنويات الجماعة، كان الرجال يعرفون أن كل مخارج القلعة مسدودة، كل واحد، وهذا مؤكد، كان يفضل مقارعة العدو بشكل سافر.

- لو يسمح سيدنا بذلك، لتسلّقت هذا الجرف على رأس فدائييّ ولبكرت في إبادة كل هؤلاء الموجودين في الأعلى قال عبدالملك مستعراً.

كان يوسف وسليمان اللذان يشدان قبضاتهما أيضاً. أوَّلَ الداعين إلى الإقدام على مذبحة.

أما سيدنا فكان يتمشى علانية في قمة البرج، يتباحث دون أن يخرج عن

هدوئه مع داعييه الكبيرين اللذين إليهما، يعهد بمشاريعه المقدسة، الأمر الذي كان يحرِّض نفاد صبر سليمان أكثر من أي وقت آخر.

جاء أبو علي يتفحص الموقع من أعلى الأسوار، ثم عاد من هناك إلى عند حسن.

ـ مع ذلك، كانت الجماعة قلقة قليلاً ـ قال بابتسامة متصنِّعة.

ـ لم يأت أرسلان تاش أصلاً إلا من أجل هذا، إنه يريد التأثير علينا، ليخضعنا ويخيفنا، إنما لو كان يسعى لاستغلال هذه الحالة النفسية، لكان عليه أن يعمل بسرعة، لأن جنودنا بعد يومين أو ثلاثة، سيعتادون على هذه البلبلة، وسيصل بهم الأمر إلى اللهو، بقذف هذه الأنشوطات مقابل هذه الكرات المشؤومة، ليروا إذا ما كان من الممكن التقاط البعض منها أثناء طيرانها:

ـ هل تعتقد إذاً بأنهم سيغامرون بأنفسهم تحت أسوارنا جدياً؟

ـ لا، لا، ما أفكر به بالأحرى، هو أنهم سيسعون إلى الإفضاء لنا... بما تنطوي عليه قلوبهم. عند صلاة العصر، توقف القصف مثلما بدأ فجأة. والصمت الذي تلا ذلك، كان ينطوي على شيء من الغم كل واحد في القلعة، كان يشعر بأن صخب الساعات الأخيرة لم يكن إلاّ استهلالاً لحدث جللٍ. سيذوقون مرّه قريباً. أمّا رجال البرج الثلاثة فكانوا أول من لاحظ حركةً غريبة: ثلاثة فرسان كانوا يرمحون على طول الشُّعب. عندما صاروا على مقربة من الجسر المتحرك أوقفوا مطيّاتهم، وأطلقوا بإشارات هُدنة.

ـ ربَّما ينطوي الأمر على خدعة ما، همس أحد الجنود في أذن مينو تشرشر.

ـ إننا لن نخفض الجسر طالما أن الزعيم الأعلى لم يُعطنا أمراً بذلك طمأنه آمر القلعة.

جاء الأمر في الحال، أخذت الرزَّات الحديد تصرُّ، والعبّارة تنخفض،

ثم دخل رسل جيش العدو الثلاثة شاحبين، لاهثين، استقبلهما مينو تشرشر بمنتهى الكياسة. وخلال قليل من الوقت، عاد كل الجنود الذين كانوا ينغلون في الفناء إلى أماكنهم بأمرٍ متعمد من حسن:

لم يبق على مرأى من هذا المكان، إلا الخفراء المنشغلون في خدمة المعقل. وعلى الباحة الأولى أخذ الفدائيون، وتلامذة المدرسة أماكنهم، قبالتهم بالضبط وقفت فرقة رماة السهام في الأعلى وعلى ساحة الوسط اصطف الفرسان بانتظام، صحب مينو تشرشر زائريه، يرافقه فيلق من الضباط وسط المكان الذي يتواجد فيه رجاله ثم تسمر رجال المنطقة باستعداد تام لتلقي الأوامر.

- حاولوا أن يؤثروا علينا: قال حسن الذي كان يرقب المشهد من أعلى.

وقد جاء دوري الآن لأؤثر عليهم. أريد أن أعرف إذا ما كانوا سيتذكرون ذلك حتى يوم الحساب. ومن جديد كان وجهه وصوته ينمّان عن تلك الحماسة الغامضة التي جعلت الداعيين يرتجفان حيث كانا يريان عنده تلك الابتسامة المكتنزة بالألغاز، والتي شهداها على وجهه في ذلك المساء الشهير حينما أرسل الفدائيين إلى الرّياض.

- هل تفكر أن تجهز عليهم، وتضع رؤوسهم على قمة ذلك البرج - سأل أبو علي.

- سأكون بمنتهى البلاهة، لو أقدمت على شيء من هذا القبيل، سيستشيط جيش الأمير غضباً، لأنهم سيستنزفون حتى آخر أثر لهذا الخوف الذي نولده لديهم بشكل مباشر، والحال كذلك، فإن هذا الشعور بالضبط هو ما يتوجب علينا أن نجعله يتفتح بهم، إن كنا نريد الفوز الحاسم عليهم.

- الجماعة متأهبة في نظام العرض، والرسل ينتظرون، علّق بوزروق أوميد وهو يلقي نظرة من أعلى الحاجز.

ـ لينتظروا! أرادوا إخضاعنا بإطلاق النار علينا، ونحن سنخضعهم بالانتظار. . .

زعيم رسل الأمير ارسلان تاش وقائد الفرسان أبو جعفر، قد دعي لكي يأخذ مكانه بين الفدائيين، ورماة السهام، كان يتكئ برفق على مقبض سيفه، يراقب تراصف الجنود، بازدراء ولا مبالاة متصنعيْن. والرجلان اللذان كانا يرافقانه وقفا بثبات على جانبيه، وقد أمسكا أيضاً بمقبضي سلاحهما. تجول نظراتهما المتوحشة في كل الجهات.

كان الثلاثة يسيطرون بالكاد على نفاد صبرهم المتصاعد. . . وعلى خوفهم من المصير الذي ينتظرهم.

على بعد بضع خطوات منهم، كان مينو تشرشر على رأس ضباط فيلقه يتفرّس الرسل بتعجرف، ومن وقت إلى آخر، يتبادل كلمة مع مرافقي معسكره بصوت خافت ولا يتوانى أبداً عن اختلاس النظرات باتجاه القصر. لكنّ أية إشارة لم تأتِ من تلك الجهة، كما لو أن حسناً قد نسي رجاله كلياً، ورسل العدو الثلاثة كانوا هناك بانتظار إرادته الطيبة.

كانت الشمس تسلّط بقيظ أشعتها دونما رحمة، لكن أحداً من جنود الجيش المترجلين، أو الذين امتطوا خيولهم لم يكن ليبدي أي تذمر. كانوا يقتصرون على تملي المبعوثين الغرباء الذين بدت عليهم أمارات القلق. أخيراً التفت زعيم هؤلاء المبعوثين المسمى أبو جعفر البادي الانزعاج، من هذا الانتظار الطويل، نحو مينو تشرشر وسأله بدماثة مشوبة بشيء من السخرية:

ـ هل جرت العادة عندكم أن تجعلوا الرسل ينتظرون تحت الشمس وسط الفناء؟

ـ نحن لا نعرف هنا إلاّ عادة واحدة: رضوخنا لأوامر زعيمنا.

ـ في هذه الحالة، سأجد نفسي مضطراً لأن أبلغ سموه سيدي أرسلان تاش، بأن هذا الانتظار يمثل جانباً من ردّ سيدك.

ـ مثلما تريد.

تقوقعوا في صمتهم من جديد. كان أبو جعفر يرجس السماء بنظراته الغاضبة، يمسح بظاهر كفه العرق الذي كان يتصبب من وجهه، وأخذ القلق يتلاشى تاركاً مكانه للكآبه. لماذا وضعوهم وسط هؤلاء الرّجال المسلَّحين؟ أيُّ مصير يخبئ لهم هذا الرئيس الأعلى عقب هذا الانتظار الطويل؟ كان خياله يعمل... وأخذ الخوف يتسرب إلى نفسه.

الزعماء الذين كانوا يرتدون بدلات فاخرة، وبرانس تتهدل على أكتافهم، والمحاطون بحراسة حسن الخاصة، قرروا مغادرة القصر أخيراً.

منذ أن استولى على قلعة آلموت، كانت هذه هي المرة الأولى، التي يظهر فيها حسن على مريديه، الذين لم يكونوا يجهلون مغزى هذا التصرف، لذلك هو نفسه لم يكن يتمالك نفسه من أن يشعر بنوع من التخوف.

نُفخ في البوق إعلاناً لقدوم سيد المكان. كل الأنظار اتجهت نحو الشرفة العليا: وظهر منها ثلاثة رجال يرتدون الثياب الناصعة البياض، محاطين بعبيد نصف عراة، يحملون أسلحة رهيبة حبس رجال الجيش أنفاسهم: واحد من هؤلاء الشخصيات الثلاثة، كان مجهولاً بالنسبة لهم. لقد استشعروا الحقيقة، لا يمكن لهذا أن يكون إلاّ سيدنا، حملق يوسف وسليمان بعيونهما.

ـ سيدنا! همسا إلى رفاقهما.

وأخذت الأفواه تتناقل الخبر.

ـ سيدنا ظهر أخيراً. أشياء جليلة تترتب...

عدوى ضجر الجنود سرت إلى الحيوانات التي أخذت بدورها تكشف عن علامات الهيجان. والمبعوثون الثلاثة أنفسهم أخذوا هيئة جادة: ما أن بدا هؤلاء الزعماء بزيِّهم الغريب حتى اشرأبت رؤوسهم وأخذ الشحوب يظهر على وجوههم.

تقدم حسن يتبعه موكب مرافقته إلى أقصى حافة الشرفة العليا، وخيَّم عليهم صمت عجيب، ولم يسمع بعد إلا جئير شاه رود المصم هذا الملازم الأبدي الصاخب لحياة آلموت. رفع القادم الجديد يده مشيراً إلى أنه سوف يتكلم. وبصوت جهوري توجه إلى أبي جعفر:

ـ من تكون أيها الأجنبي؟ ماذا جئت تفعل في آلموت؟

ـ ايها السيد! أنا القائد أبو جعفر بن أبي بكروف، وأنا هنا بأمر من سيدي، سمو الأمير أرسلان تاش، فجلالته، شرف البلاد وضياؤها، الكل القادر، السلطان ملك شاه، أرسلني كي أبلغكم بأنه قد عزم على استرداد قلعة آلموت التي استحوذت عليها بغير حق، جلالته يعتبرك كخاضع له، إنه يعطيك مهلة ثلاثة أيام، كي تسلم المنطقة إلى سمو القائد العام، الأمير أرسلان تاش، سيدي يضمن لكم سلامة الخروج، لك ولجنودك، أما إذا لم تمتثل لأمره، فلتعلم أن سموه سيعتبرك كعدو للبلاد: سيطاردك دون هوادة إلى أن تلقى هلاكك المطبق. لأنَّ سمّو الصدر الأعظم نظام الملك يسير شخصياً إلى آلموت على رأس جيش كبير مزمعاً على ألا يرحم الإسماعيليين، هذا ما كلفني به سيدي، بأن أضعك على بينة منه. لفظ هذه الكلمات الأخيرة بصوت تنقصه الجرأة. أجابه حسن بابتسامة ساخرة، متلاعباً من جهته بنفس الألفاظ:

ـ أبا جعفر بن أبي بكروف: لتبلغ هذا إلى سيدك، سموه، الأمير أرسلان تاش: آلموت مستعدة كما ينبغي للصمود أمام غارته على الرغم من أننا، لم نكن نحسبه إطلاقاً في عداد أعدائنا، نحن ننصحه أن يفكر في ذلك ملياً: إذا ما حصل، وسوّل له أن يطنطن قليلاً ولأجل بعيد بجيوشه في هذه الأنحاء، فلسوف يحصل له ما حصل لرئيس مقدمة جيشه.. سيصير الأمر مؤسفاً، بأن يقطع رأسه، ويعلق على هذا البرج، في رأس ذلك الرمح الصغير.

صعد الدم إلى وجه أبي جعفر، تقدم خطوة نحو الأمام، ثم وضع يده على سيفه.

- أنت تتجرأ على شتم سيدي؟ أنت أيها الغاصب! مرتزق مصر المأجور! ألا تعلم أننا ثلاثون ألفاً يحاصرون قلعتك!

أما الإسماعيليون الساخطون من هذا الجواب، فقد صلّوا بسيوفهم، بينما حافظ حسن على هدوء أعصابه.

- هل من عادات السلطان أن يشتم الزعماء الغرباء؟ سأل بصوت وديع.

- لا، إنّما من عاداتنا أن نردَّ على من يشتمنا بالمثل.

- لمحت إلى هؤلاء الثلاثين ألف رجل، المسلحين والقابعين على أبوابنا. هل جاء هؤلاء الرجال ليصطادوا الجراد؟ إلاّ إذا كان الحسد نال منهم لدى سماعهم بنبيّ جديد؟

- إذا كان الاسماعيليون جراداً، فهم إذاً جاءوا لاصطياد الجراد وإذا ما كان هناك وجود لنبي جديد في هذه الأماكن، فأنا لم أسمع به إطلاقاً.

- أنت لم تسمع إذاً أحداً تحدث عن واحد يدعى الحسن بن الصباح سيد الأرض والسماء، من أعطاه الله القدرة على فتح باب الفردوس للأحياء؟

- سمعتهم يتحدثون عن واحد يدعى حسن الصبّاح والمعروف بكونه زعيم فرقة من الهراطقة. إن كان حدسي لا يخطئ فأنا موجود الآن أمامه. أمّا أن يكون الحسن بن الصباح هذا سيد الأرض والسماء فهذا ما هو جديد بالنسبة لي. وبالمثل فإني أجهل أيضاً إن كان الله قد أوسع عليك بقدرة كهذه.

بحث حسن بعينيه عن يوسف وسليمان، ثم أومأ إليهما. غادرا صفوفهما، وجاءا يتمركزان عند أسفل السُلم، الذي يؤدي إلى الشرفة العليا، خاطبهما بطريقة يمكن أن يسمعها الجميع:

- هل تستطيعان أن تقسما بكل الأنبياء والشهداء، أنكما حظيتما بقضاء

ليلة في الفردوس وأنكما في تلك اللحظة كنتما سَليمي النفس والجسد بكامل قواكما العقلية؟

ـ نستطيع أن نقسم على ذلك. سيدنا.

أقسما على ذلك.

أقسما، وقد سمع الخافقان أقوالهما.

كان بود أبي جعفر أن يضحك فعلاً لكن صوت الولدين كان يعبر عن إيمان قاطع وقناعة صادقة كل الصدق بحيث شعر بأن قشعريرة تسري في ظهره. رمق مرافقيه بنظرة، هيئتهم كانت تعرب بأنهما كانا مغتبطين لعدم تطبعهما به في اللحظة الحاضرة. لقد جرَّ نفسه إلى قضية خاسرة دون شك. استأنف إنما بلهجة أقل صلابة مما كانت عليه في البداية:

ـ أنا لم آت إلى هنا أيها السيد كي أتجادل معك في مسائل المذهب، فأنا أحمل لك أمر سموه، سيدي الأمير أرسلان تاش. وإني أنتظر جوابك.

ـ لماذا توارب يا صديقي، هل الأمر عندك سواء، بأن تحارب من أجل النبي الحقيقي أو النبي المزيّف؟

ـ أنا لا أحارب من أجل نبيّ. إني أكتفي بأن أكون تحت تصرف سموه.

ـ هكذا كان يتكلم أيضاً هؤلاء الذين كانوا يقاتلون على حب وكرامة مختلف السلاطين ضد النبي، هكذا كانوا يمضون إلى حتفهم.

سُمِّرت عينا أبي جعفر في الأرض، صمت، التفت حسن نحو يوسف وسليمان، وقد وقف كل من الولدين ثابتاً تماماً، كما لو أنهما قُيِّدا في أسفل السُّلم، ينظران أمامهما، قبالتهما عينان تقدحان شرراً. نزل بضع درجات باتجاههما، ووضع يده تحت جلبابه ثم أخرج سواراً.

ـ هل تعرف هذا السوار يا سليمان؟

ـ غدا سليمان شاحباً كالميت. وزبد خفيف بدا عند طرفي شفتيه المتشنجتين وبصوت أخذ يرتجف من غبطة مجنونة همس:

ـ إني أعرفه سيدي.

ـ أذهب. إني آذن لك أن ترده إلى تلك التي يجب أن يُرَدَّ إليها.

أخذت ركبتا سليمان ترتجفان. ووضع حسن يده من جديد تحت جلبابه، وفي هذه المرة مدّ يده للصبي بحبة مخدرة.

ـ ستبتلع هذه.

ثم التفت نحو يوسف:

هل ستكون سعيداً يا يوسف لو دعوتك إلى أن تتبع سليمان.

ـ أوه... يا سيدنا.

كانت عينا يوسف تشعّان بنشوة الفرح، أعطى حسن إليه حبة مخدرة.

كان رسل الأمير يرقبون المشهد، وقد انتابهم شعور متعاظم بالانزعاج لا سيما وقد شوشتهم نظرة هذين الشابين الخافتة البريق لكأنها ساهمة:

لكأنهما يتعللان في حلمهما بنوع من رؤيا قادمة من وراء القبور لا يمكن أن يبلغها عامة البشر.

ـ ماذا يعني كل هذا أيها السيد.

ـ سترى، أنا أقول لك ذلك: افتح عينيك جيداً. ما سيجري أمامك، لم يسبق له أن حدث في تاريخ البشر إطلاقاً. ثم لفظ بصوت عميق وهو ينتصب بأبهة:

ـ يا يوسف! زليخة تنتظرك في الفردوس، أنت ترى هذا البرج! اصعد إليه ثم إلق بنفسك في الفضاء... في اللحظة التي ستلامس فيها الأرض ستجد رفيقة قلبك تتلقاك بين ذراعيها!

شعّ وجه يوسف من السعادة. فمنذ اللحظة التي تناول فيها الحبة أحسّ بنفسه تطفح بشعور غامر من الارتياح لم يسبق له أن أحسَّ به منذ أمد بعيد

هدوء عجيب، منعم، كل شيء عاد من جديد كأول يوم وصل فيه مع رفاقه إلى الرياض العليا.

ما إن انتهى حسن من إعلان أمره، حتى شوهد يوسف يستدير على كعبيه ويثب إلى البرج المرتفع ومن ضمن صمت كصمت الأموات، التفت حسن نحو سليمان قائلاً:

ـ هل تحمل خنجراً يا سليمان.

ـ ها هوذا يا سيدنا.

لم يتمالك الرسل الثلاثة من أن يضعوا أيديهم على سيوفهم: لكن حسناً الذي كان يهز برأسه طمأنهم بابتسامة. ثم خاطب سليمان:

ـ خذ هذا السوار الذي تراه ثم اغرز على الفور هذه الشفرة في قلبك. لقد حان الوقت لأن ترد هذه الحلية إلى تلك التي تنتظرك!...

تناول سليمان السِّوار بفرحة عارمة، ضغطه على صدره، ثم استل خنجره وطعن به قلبه سمعوه وهو يغرزه بكل قوته، يطلق زفرة الخلاص، ثم خرَّ عند آخر درجة من السُلّم، وتجلّت على محيّاه غبطة لا تجد لها تفسيراً.

تجمدّ الرسل الثلاثة، وكل من شهدوا ذلك المشهد من الهلع.

كشف حسن عن الجثة إلى المبعوثين الثلاثة، ممتقع الوجه، وابتسامة متعبة علت قسماته.

ـ اقتربوا، وانظروا!

ترددوا ثم امتثلوا كان الخنجر مغروزًا حتى مقبضه في جسم الفتى، وبقعة كبيرة من الدماء كانت تلطخ ثيابه البيض، حتى في الممات كان وجهه يوحي بالسعادة نفسها.

وضع أبو جعفر يديه على عينيه.

ـ يا الله يا رحيم ـ تمتم.

أشار حسن إلى أحد الحراس بتغطية الجسد، ثم التفت نحو البرج وأشار بحركة واضحة.

ـ انظروا هناك!

لاهثاً من الإعياء كان يوسف يتسلق آخر الدرجات قلبه يخفق بقوة في صدره.

كان خفراء الحراسة الموجودون على الطُّوار يتفرسونه دون أن يبدوا حراكاً، مسمرين في أماكنهم من شدة الانذهال. تسلّق أعلى الحاجز وقد غشي عينيه مشهد سماوي: أفق قصر رحب أمامه، أبراج، قباب تنشر رونقها وبهاءها تحت قدميه «إنني نسرٌ ـ فكّر ـ نعم! هاأنذا صرت أمير الطيور» بسط ذراعيه كطائر فرد جناحيه، ووثب وثبة واحدة ضمن الفضاء، وفي الحال ارتطم جسده، وقد أصدر هذا التحطم دوياً مصماً على بضع خطوات من الحضور، الذين استبدً بهم الذهول. شبت الخيول، وبصعوبة سيطر من يمتطونها عليها.

ـ لتتكرموا بتأمل جسد هذا الرجل. قال حسن مخاطباً المبعوثين.

ـ ما رأيناه يكفي. قال أبو جعفر بصوت غير مطمئن.

ـ جيد جداً، يا أبا جعفر، في هذا شيء من جوابي، انقل لسيدك ما رأيت بل قُلْ له هذا أيضاً، صحيح أن جيشك يحصي ثلاثين ألف رجلٍ، لكنه يفتقر إلى جنديين كهؤلاء». أمّا من ناحية تهديد الصدر الأعظم... فأفهمه أنني أعرف سرّاً على درجة قصوى من الأهمية، يهم هذه الشخصية السامية، لكن لا يزال الوقت باكراً على إفشائه: لينتظر من ستة إلى عشرة أيام... وسيعرفه هو أيضاً ليتذكرني، وليتذكر رسالتي... امض الآن، أتمنى لك سلامة الطريق.

أوعز إلى من يهمهم الأمر، بأن يسوقوا خيول حملة الرسالة الثلاثة. انحنى أبو جعفر ومرافقاه باحترام، وأذن لهم هو بالانصراف. حمل الخفراء الجثتين، وفي اللحظة التالية أخذ طريقه إلى برجه تبعه مرافقه.

عاد كل واحد إلى عمله وهو منقبض القلب بحماسة كئيبة. فأي من هؤلاء الذين شهدوا المشهد لم يجد الكلمات القادرة على التعبير عن غرابة كل هذا. بالكاد فُكّت الألسن...

ـ لا مجال لأي شك الآن. سيدنا هو من يتحكم بحياة أو موت أتباعه، لم يكن في هذا شيء من أسطورة: فهو يملك في الحقيقة القدرة على إرسال من يريد إلى الفردوس!...

ـ وإن أمرك أن تطعن نفسك بخنجر؟

ـ سأطعن نفسي.

كانت عيونهم محمرّة من الحمية ومن الرعب كلهم كانوا يتحرقون أكثر من أي وقت مضى ليبدوا متميزين في عيون العالم قاطبة...

ـ هل رأيت كم امتقع الرسل؟ وكم تراجع أبو جعفر من شدة الخوف؟

ـ هو ليس من السلاطين الذين يستطيعون أن يرفعوا رأسهم في وجه سيدنا.

ـ هل سمعتموه يسمي نفسه بالنبي الجديد؟

ـ أفلا تعرف ذلك أنت من قبل؟

ـ كيف لهم أن يؤكدوا أنه لا يزال في خدمة خليفة مصر؟

ـ بالحري، فإن العكس سيكون الصحيح...

تواجد الفدائيون على الحاجز دون أن يتبادلوا أية كلمة، تفرسوا ببعضهم بعضاً، بهيئة بائسة. وفي هذه المرة أيضاً، كان عبيدة هو من بدد الصمت.

ـ لقد تفانى يوسف وسليمان من أجلنا.. لن نراهم بعد في هذه الدنيا.

انهمرت الدموع من عيني نعيم الصغير.

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ ألم ترَ الخصيين ينقلون جثّتَيْهما؟

ـ هكذا إذاً قد انتقلا إلى الفردوس؟

ابتسم عبيدة بظرف.

ـ كانا مقتنعين حسب الظاهر.

ـ وأنت؟

ـ سيدنا يؤكد ذلك. وبالنتيجة يكون الشك محظَّراً عليَّ.

ـ في الواقع، سيكون الشك جريمة ـ صرّح جعفر بمنتهى الرصانة.

ـ كل شيء يبدو لي خاوياً فجأة. الآن وحيث لم يعودا بيننا، قال ابن فاكاس بحزن.

ابن طاهر غادرنا أولاً، والآن هذان الاثنان...

ـ إلى أين صار ابن طاهر؟ استفهم نعيم، دون شك في الفردوس هو أيضاً؟....

ـ وحدهما الله وسيدنا يعلمان ذلك. أجاب ابن فاكاس.

ـ أي سعادة ستغمرنا، لو نراه ثانية... فكّر الولد.

أخشى أن يكون قد توجب عليه السفر، في نفس الطريق الذي سار فيه رفيقاه في السفر، قال عبيدة بشيء من الإبهام.

لم يكن لدى القائد أبي جعفر ما يكفي من كلمات كي يطلع سيده الأمير ارسلان تاش عن اندهاشه.

ألا ترى سموك بأن أكثر ما كان يدعو إلى الغرابة يتجلى تماماً في تسارعهما إلى تنفيذ أمر سيدهما الرهيب؟ ستقول لي دون شك إنهما لم يكونا يملكان خياراً أفضل في مواجهة طاغية فادح الظلم... لن يمكنك أن تتصور مدى انذهالنا، مدى رعبنا، أمام ذلك الفرح الجنوني والهمجي الذي قرأناه على وجهيهما، في اللحظة التي ألقيا فيها بنفسيهما إلى الموت، ليت سموّك رأى ضياء الغبطة التي كانت تنبعث من عيونهما، عندما لفظت هذه الكلمة (الفردوس)! لم يكن هناك أدنى أثر للشك يمكن

له أن يزعزع قلبيهما. يقينهما بأنهما سينتقلان في الحال إلى ذلك المكان السّماوي الذي أكدا بأنهما زاراه، كان أكثر رسوخاً من صخرة آلموت.

المرافقان الاثنان سيؤكدان بأنني لا أبالغ أبداً. أرسلان تاش التائه بين أفكاره، ذرع المكان جيئة وذهاباً تحت خيمته. كان رجلاً ذا قامة جميلة، ومظهره المتأنق يدل على أنه يحب الرفاهية، ويتذوق مباهج الحياة أما قسماته فتعبر عن القلق. لكن جواب حسن كان ينذر بالشر. نظر في عيني كل واحد من رسله على التوالي. . .

ـ هل أنتم متأكدون من أنكم لستم ضحايا الوهم؟

ـ إننا متأكدون من ذلك! أصرّ أبو جعفر: فالمسمى سليمان الذي طعن نفسه كان بالكاد على بعد خمس أو ست خطوات منا، وكل آلموت رأت صديقه يوسف يرمي نفسه في الفضاء من أعلى الحاجز.

هزّ أرسلان تاش برأسه.

ـ لا أستطيع تصديق ذلك. . . . سمعتهم يحكون عن صنائع سحرة الهند الشهيرين الكبيرة، تلك الحبال المعلقة في الهواء بذاتها، وعن هؤلاء الذين يلهون بالرقص عليها وهذه الحبال نفسها التي وبأمر يطلق سرياً تجر في سقوطها من علو يسبب الدوار البهلوان المتهور الذي خاطر بنفسه من أعلاها. . . يبدو الساحر في هذه اللحظة نفسها يقلب سلة على البائس الذي تهشم صلبه يتمتم بصلاة ما. . . . والراقص المحتضر ينتصب واقفاً وهو يضحك رشيقاً كما أنت وأنا. . . أجل أنا أعلم كل هذه الأشياء أعلم أيضاً أنها تتعلق بفن التضليل الخادع.

ـ لكن لا صلة للأمر بهذا النوع من السحر، يمكنك أن تصدقني! قاطعه الضابط، فالسكين كانت فعلاً حتى مقبضها في قلب سليمان، وثيابه كانت مبللة بدم حقيقي.

كان الأمير يفكر، في الحقيقة، كل هذا كان يبدو له غير قابل للإدراك.

ـ مهما يكن، فأنا آمركم بأن تبقوا صامتين صمت القبور، عمّا رأيتموه،

وسمعتموه هناك! من الممكن للجنود أن يتمردوا ويرفضوا الانقياد، إذا ما علموا ما هو نوع العدو الذي نواجه. فالصدر الأعظم متأهب، ولن يمازح أبداً إن لم ننفذ أمره.

تبادل المرافقان نظرة هلعة.

أثناء المسير، كانا يتكلمان عن الاستقبال الغريب الذي رتبوه لهما في آلموت. لكن الأمير المنشغل، ذرع خيمته كمسعور، دون أن يعبأ بإيمائيتهما.

ـ ماذا كان يقصد زعيم الإسماعيليين بأن لديه أخباراً بخصوص الصدر الأعظم، لن يطلعني عليها إلا بعد ستة أو عشرة أيام؟

ـ لقد نقلت إلى سموّك، كل ما قاله لي. أجاب أبو جعفر.

أراد أن يخيفني، ما الذي يعرفه عن الصدر الأعظم، ولا أعرفه أنا؟ إنه في طريقه إلى أصفهان؟ وينوي أن يبرر سلوكه إثر ذلك أمام المحاصرين في آلموت؟.. فإذاً؟

أوقفه الأمير بإشارة من يده كانت تنم عن شيء من نفاد الصبر.

ـ لماذا توجب أن يناط بي هذا الشرف غير المضمون في إبادة هؤلاء الهراطقة؟ هل حسبه أن يكون عدواً شريفاً؟ يلبد في حصونه، يتحاشى معركة مكشوفة، يضلل مخيّلة الجهلة بما لا أعرف، من تلك الخرافات ويحولهم بالطريقة نفسها إلى مجانين خطرين. كيف البلوغ إلى ذلك العدو الذي يتوقع أنه سيبقى فعلاً صعب المنال!

ثم بعد لحظة من الصمت:

ـ حسن، بإمكانكم أن تنصرفوا، لقد أخذت ما يكفي من تقريركم. والآن صمت مطلق على هذا. انحنى الرسل ثم انصرفوا.

عندما بقي لوحده، انطرح الأمير على سرير من الأرائك، صبّ لنفسه كأساً من الخمر وأفرغها بجرعة واحدة، أخذ وجهه يستعيد لونه، صفق

بيديه وأمتان فتيتان وجميلتان أفرجتا الستارة وتسارعتا إليه. جلستا بظرف إلى جانبيه تهديان إليه أعذب مداعباتهما. . . آلموت وسيدها، صار فوراً في عالم النسيان.

لم يكن لدى الجنود، وأمام هيئة المبعوثين المكتنزة بالأسرار، من شيء يلهب فضولهم، أكثر من رغبتهم في الاستفسار عمّا كانوا يريدون أن يفشوه بالنسبة لزيارتهم لآلموت. وبسرعة الإعصار، ذاع الخبر في كل أرجاء المخيم، عندما خرج أبو جعفر من خيمة الأمير مع شريكيه، لم يفت على أصدقائه أن ينهالوا عليه بأسئلتهم، وضع إصبعه على فمه، وأفضى إليهم بصوت خافت بأن الأمير أعطاه أمراً صارماً بأن يبقى صامتاً صمت القبور. النتيجة الأولى لهذه الحركة السرية لم تتأخر بالظهور: فقد تجمع الضباط في الحال خلسة في إحدى الخيام. وضعوا خفيراً أمامها، وأخذوا يعقبون بشغف على القليل الذي علموه من أفواه الرسل المتهورة، باقي الجنود، راحوا يفلتون العنان لتفكيرهم.

ـ من الممكن جداً، وبعد كل شيء أن يكون سيد آلموت نبياً حقيقياً، كمحمد الذي بدأ بعدد قليل من الأتباع، وثم، فإن آلافاً مؤلفة من الرجال قاتلوا في صفوفه.

ـ الاسماعيليون هم المشايعون لعليّ، ألم يكن آباؤنا أيضاً كذلك؟

لماذا نرمي نحن، إلى تفتيت هؤلاء الذين ظلوا مخلصين إلى دين آبائهم وأبنائنا؟

ـ كان النبي يتمتع بسلطة أضعف من سلطة سيد آلموت. فهو نفسه كان قادراً على الانتقال إلى الفردوس، إنما هل استطاع أن يرسل أحداً غيره إليها، أقصد أحداً من الأحياء؟ . . . .

ـ بحسب ما يروى، فإن الشابين الذين تدافعا إلى الموت أمام أنظارهم، كانا قد زارا الفردوس. . . بودي أن أصدق ذلك: وإلاّ كيف استطاعا أن يقضيا بهذا القدر من الحماسة؟

بعمري ما سمعت عن شيء من هذا القبيل. هل هناك من معنى لأن يحاربوا ضد نبيّ بهذه المقدرة؟

ـ هل الإسماعيليون أتراك، أم صينيون كي يشن السلطان الحرب عليهم؟ إنهم إيرانيون مثلنا... وإنهم لمسلمون...

ـ يريد الصدر الأعظم أن يحابي السلطان، وقد أرسلنا ضد آلموت كي يفعل شيئاً ذا شأن، فيصبح لا غنى عنه. نحن ندرك هذه القصص إننا لسنا أغراراً...

من حسن الحظ، فإن أميرنا رجل فطن. لا شيء يدعوه إلى التعجل، وعندما سيهجم البرد، فإننا سنأوي إلى ثكنات الشتاء إلى الجنوب قليلاً هذا كل شيء.

ـ سيكون مجنوناً فعلاً بمحاربة عدو لا أحد يكرهه.

رافق الداعيان الكبيران، حسناً إلى شقته دون أن ينبسا ببنت شفة فزعيمهم كان منهكاً بشكل ملموس. وبحركة مرهقة خلع برنسه الأبيض الذي كان يغطي كتفيه ـ ثم ألقى بنفسه على الأرائك. انتظر الاثنان، وبدد حسن الصمت أخيراً:

ـ هل تعرفان من أتمنى أن يكون بجانبي في هذه اللحظة الحاضرة؟ عمر الخيّام

ـ لماذا هو تحديداً؟

لهجة أبي علي كانت قاسية. أو تقريباً مهددة.

ـ لا أعرف بالضبط. بودي لو أستطيع التحدث إليه هذا كل شيء.

ـ هل تعاني من تبكيت الضمير؟

رمقه بوزروق أوميد بنظرة حانقة، وهو يلفظ هذه الكلمات.

ـ نهض حسن على الرغم منه. تفرس في داعيته بنظرة مشككة لكنه لم يحر جواباً.

ـ هل تعلم أنني في الليلة التي خرجت فيها للقاء الشباب الثلاثة، اقترحت على أبي علي صرعك، ورميك من أعلى هذا البرج في شاه رود؟

وبحركة آلية أمسك حسن بمقبض سيفه.

ـ كان عندي شك بهذه النية الشريفة. لكن لماذا لم تنفذ مشروعك هذا؟

رفع بوزروق أوميد كتفيه. وحدق به أبو علي بهيئة حزينة ثم تابع:

ـ حسنٌ، إن أردت أن تعرف، فإني قد ندمت لتوي، إذ لم أقم بذلك.

ـ أنت ترى، إنه من أجل هذا دون شك أنني تمنيت منذ لحظة من الآن وجود عمر الخيام بجانبي. لكن لا تحسب أبداً أني خائف. أرغب فقط في إمكانية التحدث عن هذا إلى أحد ما. لا شيء أكثر.

ـ تحدث! نحن نصغي إليك.

ـ إذاً دعوني أطرح عليكما سؤالاً هل الفرحة التي تمنحها الدمى المبرقشة إلى طفل هي فرحة حقيقية؟

ـ لماذا هذا اللف والدوران من جديد يا ابن الصباح؟ قال بوزروق أوميد، وقد عيل صبره. قل لنا ما لديك مباشرة.

ـ أنتما قلتما إنكما ستصغيان إليّ. لهجة حسن صارت من جديد جازمة وعازمة. وليس في نيتي أن أبرر سلوكي أمامكما. أريد فقط أن أوضحه لكما.

ـ من الحقيقي أن الفرح الذي يشعر به طفل أهديت له دمية مغرية، هو على نفس القدر من عنف المتعة التي يحسها رجل ناضج في عدِّ ماله، أو في مداعبة امرأة.

فلو وازنا الفرح من وجهة نظر كل فرد لكان كل فرح يحسه الفرد، هو فرحاً صادقاً وحقيقياً، لا أحد يستطيع أن يكون سعيداً إلاّ بهذه الطريقة. وبالتالي فإن ذلك الذي يعني له الموت السعادة سيجتني بالموت المتعة نفسها التي يجتنيها آخر بتكديس المال، أو بمغازلة امرأة حسناء نحن ندرك أخيراً أن الندم بعد الموت ليس جائزاً بعد.

ـ كلب حيٌّ، خيرٌ من ملك ميت. همس أبو علي.

ـ ستموت سواء كنت كلباً أم كنت ملكاً، فالأفضل أن تكون ملكاً.

ـ الكلام سهل عليك. أنت الذي تستأثر بسلطة التحكم بالحياة والموت، قال بوزروق أوميد، فمن ناحيتي أفضل أن أكون آخر الكلاب على أن أموت، كما مات فدائيوك.

ـ إنك لا تفهمني. أجاب حسن ـ من يحدثك عن موتٍ كهذا؟ فبين وجهة نظرك ووجهة نظرهم مسافة لا حدود لها. وما كان يمثل ذروة السعادة بالنسبة لهم، يوحي إليك بهول فظيع، لكن هل تعلم أن ما هو بالنسبة إليك سعادة عظمى، لن يكون بالنسبة لآخر من أية وجهة نظر أخرى على الأقل إلا أفظع ما يكون من المصائب. لا أحد منّا يستطيع أن يختبر سلوكه من كل وجهات النظر مجتمعة. هذا دون شك غير ممكن إلاّ لله الذي يرى كل شيء. ومن ثمَّ ليكن كل واحد سعيداً بطريقته.

ـ خدعت هذين الولدين بدراية، من أين أخذت الحقَّ، بأن تتصرف هكذا مع الناس؟ المتفانين في سبيلك دون قيد أو شرط!

ـ إني استمد هذا الحق من اليقين التالي: قضية الإسماعيليين العليا هي صحيحة.

ـ وتتحدث في الوقت نفسه عن الإله الذي يرى كل شيء؟

في هذه اللحظة هبَّ حسن واقفاً. بدا وكأنه استطال بمقدار رأس.

ـ نعم، لقد تحدثت عن إله يرى كل شيء، لم يستطع يهوه. ولا الإله المسيحي، ولا الله أن يخلقوا هذا العالم الذي تعيش فيه والذي لا شيء فيه متعلق بشيء. حيث تلمع الشمس في وقت واحد على الحمل والنمر، على الذبابة والفيل، على الصقر والفراشة، على الأفعى واليمامة، على الأرنب والأسد، على الزهرة والسنديانة، على الملك والمتسول حيث يطال المرض العادلَ والشريرَ، القوي والضعيف، النَّبيه والأبله، تبذر الرياح السعادةَ والشقاءَ في كل اتجاه دون تبصر. وحيث نهاية حتمية تنتظر

كل من يحيا الموت. . . . لا! مثلما تريانني. أنا نبي هذا الإله الذي يرى كل شيء. . . له فقط!

هنا، ارتجف الداعيان الكبيران. كان هذا كنه هذا الرجل الغريب، هنا كان «جنونه» هذا اليقين العنيف الذي ساقه بلا شك إلى هذا الحد الذي وصل إليه الآن؟

كان مع ذلك يعتبر نفسه نبياً بلا شاهد. وكل فلسفته لم تكن أكثر من خداع، مكرس دون شك لتضليل عقل المتشككين و. . . . . من يعلم فلسفته الخاصة؟ ألم يكن في قرارة نفسه، في إيمانه، في انحدار تفكيره أكثر قرباً إلى الفدائيين منه إلى زعماء الإسماعيليين العاديين؟

- أنت تعتقد إذاً بإله ما! قال بوزروق أوميد بلهجة هلعة تقريباً.

- قلت لك ذلك لتوي.

هوّة كبيرة فُتحت بينهم. انحنيا قبل أن ينسحبا.

- نفذا مهماتكما ستكونان وارثيّ.

ابتسم لهما ابتسامة بمثابة وداع، كأب يبتسم لأطفاله.

عندما صارا في الممر صرخ أبو علي:

- أي هيولى بالنسبة لفردوسي!

الفصل السابع عشر

انتهى الفصل الرابع. . . . همس حسن مرة عندما بقي وحيداً.

في المساء ذاته، أمر باستدعاء عبيدة، وعبدالرحمن وجعفر، نقل أبو سراقة الأمر إلى الفتيان، وهيجان اعترى الفدائيين في الحال. وجه عبيدة الأسود صار إلى لون الرماد، عندما أُخبر بما ينتظره. أخذ يجول حوله بنظرات، كأنها نظرات حيوان يطارد إلى فخه.

عبدالرحمن كان خائفاً أيضاً.

ـ لماذا إذاً يدعونا في هذا اليوم بالتحديد؟

ـ إنه يفكر دون شك بإرسالكم بدوركم إلى الفردوس. الآن وحيث لم يعد سليمان، ويوسف وابن طاهر في متناول يده ـ أوحى ابن فاكاس ـ .

ـ هل سيتوجب علينا عندئذ أيضاً أن نرمي بأنفسنا من أعلى البرج، أو أن نطعن أنفسنا بخنجر؟

ـ إسأل سيدنا عن ذلك.

ـ وحده جعفر تلقى الخبر بإذعان هادئ.

ـ الله هو مالك حياتنا وموتنا ـ قال ـ وسيدنا هو ممثله على هذه الأرض.

استقبلهم أبو علي عند باب القصر، وقادهم إلى البرج.

أبو سراقة الذي نقل الخبر إلى الشبان خرج يبحث عن مينو تشرشر وهو

في غاية القلق عندما وجده عند الحاجز في سياق تفحّصه لقدور القار، ناداه خفية، وأخبره عن مخاوفه:

ـ ما رأيك أيها الأمير بموت الفدائيين؟

ـ سيدنا سيدٌ عليٌّ قدير...

ـ أريد أن أعرف رأيك أنت بذلك هل توافقه على تصرفه؟

ـ لم أفكر بذلك يا عزيزي، وأنصحك بأن تفعل الشيء نفسه.

ـ هل بهذه الوسائل سنقهر جيش السلطان؟

ـ سيدنا وحده يعلم ذلك. فكل ما أعلمه أنا، أننا لا نستطيع مقاومته لأمد بعيد بجنودنا وحدهم.

ـ لديّ منذ الآن قشعريرة في ظهري.

ـ لست الوحيد، فلا بدَّ لأرسلان تاش ـ كي لا أستشهد إلاّ بواحد منهم ـ من أن يكون عرق بارد يجري في ظهره في اللحظة التي يعيشها الآن.

ـ وهل تظن ـ بناء عليه ـ أن سيدنا بلغ هدفه.

ـ شيء ما يحدثني، بأننا نستطيع أن نكون على ثقة قاطعة بذلك. فلا عهد لما شهدناه اليوم في آلموت أن شهدناه البتة في التاريخ...

غادره أبو سراقة وهو يهزُّ رأسه، وقد راح إلى التماس رأي الطبيب. بدأ الطبيب بأن نظر حوله، كي يطمئن إلى عدم وجود أي شخص بالقرب منه ثم همسَ في أذن محاوره:

ـ أيها الداعية الجليل! في هذه اللحظة، كنت ألعن اليوم الذي خرجت فيه من سجني البيزنطي. لأن ما وقعت عليه عيوننا هذا الصباح في القلعة يتجاوز خيال كل ما جاء به كاتب مسرح إغريقي خلّاق، ففظاعة المشهد الذي أعدّه سيدنا الأعلى على مرأى منا، كانت مصمَّمة بمنتهى الدقة، بحيث يمكن لها أن تجعل الملك نفسه يشتهي جهنم. وفي مجرد التفكير أنه من الممكن لي أنا أيضاً أن أتذوق يوماً ملذات فردوسه خلف جدران آلموت ما يجمدني من الذعر.

امتقع وجه أبي سراقة.

ـ هل تظن أنه سيرسلنا نحن أيضاً إلى هذه الرياض العظيمة المجهزة خلف القصر؟

ـ كيف لي أن أعرف ذلك؟ أيها المحبب الذي يتلف وقته عبثاً! فمهما يكن، فإن الاستفسار عن معرفة ما إذا كان باب فردوسه مفتوحاً ليلاً ونهاراً ليس مطمئناً البتة، بالنسبة لأي من أولئك الذين كان لهم ـ مثلنا ـ شرف السكنى في هذه القلعة.

ـ هذا مرعب، مرعب! همس أبو سراقة، ماسحاً بكمه العرق الذي يتلألأ على جبينه. لحسن الحظ أن أبناءنا عند موتسوفر.

ـ في الحقيقة نعم، أبدى الإغريقي استحسانه.

لم يرَ أبو سراقة وهو يبتعد، الابتسامة المرَّة التي أَتْبَعَ الطبيب كلماته بها.

كان كل شيء معداً في الرياض، من أجل استقبال الزائرين الجدد. عندما برزت الصبايا، كان هذا من أجل المساء نفسه، جو احتفالي هيمن على البيت كله. أجل صرن يعلمن الآن من أجل أي شيء هُنَّ مخصصات فالحب صارَ مهنتهن، وهذا لم يكن في النهاية ليثير اشمئزازهن كنَّ فقط قلقات. من أجل حليمة كانت هذه تكن ولاءً حقيقياً لذكرى سليمان: كانت تعتبره كمالك لها، إليه تتجه سراً، وإليه وحده لتستشيره بالسلوك الذي تتخذه في كل مناسبة، كما كانت تسأله عن الكثير من أمور الكون التافهة.

كانت تشعر عندئذ بحضوره إلى جانبها. وتسترسل معه في محادثات طويلة وهامسة، حصل حتى أن باغتتها الصبايا في ضحكات مجنونة كما لو كانت فعلاً في جلسة غزل مع كائن من لحم ودم. حاولن كثيراً أن يعدنها إلى رشدها، أن يفهمنها بأن من الممكن جداً لسليمان ألاّ يعود بعد، وبما أن صديقتهن، كانت تأخذ تنبيهاتهن على محمل الهزار تركنها سريعاً في أوهامها، وعندما علمت أن شباباً لا بدّ لهن أن يلتقيهن عند المساء، فقد

ألفينها ترتجف كورقة، وفي لحظة تغير لونها، ووقعت بين أيديهن فاقدة وعيها.

ـ رحماك أيتها السماء! صرخت مريم، ماذا نفعل من أجلها؟

ـ سيدنا سمح لك بعدم استقبال الشبان القادمين هذا المساء حاولي أن تحصلي لها على نفس الأذن ـ اقترحت زليخة ـ .

ـ إنها ستظن أننا عملنا على انتزاع سليمان منها ـ تدخلت فاطمة ـ وأخشى فعلاً من أن تقدم على تصرف تؤذي به نفسها.

ـ كيف تمكنت من أن تغرس في ذهنها أن لا بد لسليمان من أن يعود ذات يوم؟ قالت رقية مستغربة.

ـ إنها تحبه. قال إنه سيعود: يجب ألاّ تأمل بعد بذلك ـ اختصرت فاطمة القول ـ إنه بالنسبة لها نبي أعظم من سيدنا!

كانت تلك الصبية تعود رويداً، رويداً إلى وعيها. رمقت صاحباتها بنظرة مندهشة، وبلمح البصر، تذكرت النبأ الذي أعلنَّه لتوِّهن، شوهد وجهها يتضرج، وهرعت إلى غرفتها تهيئ نفسها.

ـ سأقول كل شيء كررت مريم.

ـ لن تصدّقك ـ خمنت زليخة ـ أنا أعرفها جيداً، فهي عنيدة، وستحسب أننا نريد أن نغرِّرَها بسليمان.

ـ لكنّها، لو رأت واحداً منهم، لتقصّف قلبها.

ـ ستعتاد على ذلك، مثلما اعتدنا نحن عليه. قالت سارة.

ـ حليمة ليست مشابهة لك، ضعي هذا في حسبانك. لا، أنا أفضّل أن، نتحدث بذلك مع سيدنا.

ـ إصغ يا مريم ـ قالت فاطمة بإلحاح ـ لنحاول أولاً أن نعقلها، حتى لو كنا لا نملك إلاّ بصيص أمل في الوصول إلى ذلك.

هرعن للقائها في غرفتها، وجدنها جالسة أمام مرآتها، منشغلة في

زينتها، وابتسامة تعلو شفتيها. عندما لمحت صاحباتها، قطبت حاجبيها، وبدت حانقة جداً، لما أتين عليه من إفساد لأفكارها الجميلة.

انقبض قلب مريم.

ـ تحدثي إليها أنت، همست إلى فاطمة.

وبسرعة خاطفة، أقحمت هذه نفسها في الموضوع:

ـ ها أنت مبتهجة لاقتراب قدوم زائرينا. . .

ـ دعيني! أريد أن يسعفني الوقت لتجهيز نفسي.

ـ أصغ يا حليمة ـ غامرت مريم ـ أنت تعلمين جيداً، بأنه لا يجوز لأيٍّ من زائرينا أن يلتقينا أكثر من مرة واحدة، مرة واحدة في هذه الرياض.

حاولي أن تألفي هذه الفكرة. . .

دخل أهريمان الحجرة وأخذ باشتمام هذه الطفلة الحسناء.

ـ هيا، يا أهريمان، اطردهنّ، فقد غدون شريرات جداً.

ـ مريم لا ترمي إلى مشاكستك. قالت فاطمة متشبثة برأيها قليلاً.

ـ هيَّا انصرفن!

ـ أنت عنيدة قالت سارة المهتاجة.

غادرن الغرفة ـ كفاطمة وزليخة كانتا حزينتين:

ـ إنها لا تريد أن تصغي إلى صوت العقل. . . . فهي ترفض كل ما يقال لها. . . حتى من فم مريم.

جاءت أيّاما بعد قليل، تنقل إليهن خبراً من سيدنا: كان على كل واحدة أن تأخذ اسماً جديداً من أجل هذه السهرة أو أن يتبادلن الأسماء في ما بينهن، لا سيما أن يكنَّ صاحيات إلى عدم القيام بأي عمل أخرق. وكلفت مريم وفاطمة بالطواف لتوزيع الأسماء، التي على كل واحدة أن تلتزم به. . .

ـ حليمة، لا تنسي هذا المساء أنت ما عدتِ حليمة وإنما صفية.

ـ ابتسمت الطفلة الحزينة «يعتقدون فعلاً بأن تلك الحيلة البائسة تكفي لئلا تجعله يتعرف عليَّ؟...».

ـ لاحظت ابتسامتك. ـ أخطرتها مريم ـ مع ذلك فإن الأمر أكثر جديَّة مما تتصورين، إنكنَّ، لستن مخصَّصات إلى نفس رياض المرة الفائتة.

حينئذ وحدها حليمة من شعرت بالقلق جدياً.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت تعرفين جيداً ماذا يعني هذا... قالت لها فاطمة.

تفرّستها الأخرى والدموع في عينيها.

ـ لكن لماذا أصبحتُنَّ إذاً، شريرات كثيراً معي!

على هذا، هربت إلى خلف الحديقة، حيث لحقتها سارة عازمة أن تستخدم معها آخر دليل.

ـ ألا تدرين أن كلاً من فاطمة وزليخة تنتظراه مولوداً؟ لقد سمعتهما تُسرَّان بذلك إلى مريم. أرجو ألاّ تقولي لأحد ما قلته لك.

ـ لماذا هنَّ فقط!

ـ عجباً، عجباً! هل تريدين أنتِ، أنتِ أيضاً أن تحضني بالصدفة طفلاً؟

مدَّت لها حليمة لسانها وابتعدت عنها.

قبل المساء استدعى حسنٌ مريم إلى واحدة من تلك الحدائق، حيث أفضت له بتخوفاتها من ناحية تلك الغضَّة حليمة التي تصرُّ على انتظار سليمان. رشقها حسنٌ بنظرة ناقمة:

ـ كان عليكن، أن تصببن لها الخمر الصرف أيضاً، كي يساعدها على النسيان فإذا ما سار شيء على غير ما يرام هذا المساء، فإنكنَّ أنتنَّ من سيتحمل مسؤولية هذه الخيبة...

ـ وفر عليها هذه الخيبة: إني أنا من يسألك ذلك.

ـ اليوم هي، غداً واحدة أخرى، عشرون عاماً وأنا أعدُّ خطتي وما ضعفت مرة، تريدينني أن أخضع لنزوة!

ـ اسمح على الأقل أن آخذ مكانها ألحت مريم التي كانت تتفرسه حينئذ دون حياء.

لكن حسناً كان متمنعاً.

ـ لا، لن أسمح بذلك أبداً ستجنين ما زرعت.... هذا المساء في الموعد المحدد ستعودين معي إلى الحديقة. سننتظر معاً نتيجة اللقاء. مفهوم؟

كزت على أسنانها، وغادرت دون أن تقول له وداعاً.

حال عودتها إلى عند الصبايا، بحثت عن حليمة.

ـ هل علمت أن سليمان لن يأتي هذا المساء؟ حذار أن تقومي بحماقة ما. وإلاً فستودين بحياتك.

اكتفت حليمة بأن ضربت الأرض بقدمها، بعناد، مقتنعة أكثر من أي وقت مضى بدورها كضحية مضطهدة دون رحمة، مكرِّرة بلا كلل اللازمة نفسها: «لماذا إذاً هنَّ شريرات جداً معي هذا المساء».

لم ينسَ عبيدة ما روى له الفدائيون الثلاثة عن زيارتهم إلى الفردوس. وبشكه العفوي، فقد تساءل بالتأكيد عمّا كان سيفعله لو كان مكانهم مرات عديدة، لم يكن يوافقهم في قصصهم مما لم يفوِّت إيقاظ شكوكه.

عندما مثل ورفاقه أمام الزعيم الأعلى، لم يكن فضوله أقلّ من خوفه. مع ذلك عرف كيف يسيطر على نفسه بأعجوبة، وكيف يجيب بوضوح وتميز على أسئلة حسن لم يكن الداعيان الكبيران حاضرين هذه المرة. بالإضافة إلى أن حسناً لم يكن بحاجة إليهما. تجربته الأولى والأكثر صعوبة تجاوزها. ومن حينها صار يتحكم في إدارة هذه الآلية التي كان

يستخدمها بأناة. جعفر وعبدالرحمن من ناحيتهما، كانا فريسة لخوف بالغ. هكذا إذن!

كانا مسلِّمَيْن بذاك الذي كان يحكم الإسماعيلية وهما لا يزالان في الملحقات نفسها وكان هو، أمامهما!... لم يعد أي شك يعذبهما كانا يتلهفان للإجابة عن أسئلته... لتنفيذ أوامره. عندما أُبلغا بأن أبواب الفردوس ستفتح لهما أيضاً، فإن ابتسامة شعَّت على وجهيهما، عبيدة وحده، من شعر بنفسه يشحب، لكنه أصر بثبات على كتم اضطرابه لقد عزم على أن يحافظ على عينيه متيقظتين:

قادهم حسن حتى المصطبة السرية، دلَّهم على المراقد التي أعدت من أجلهم، قدم لهم الخمر، وأعطى لكل منهم حبة مخدرة، تهافت كل من جعفر، وعبدالرحمن على ابتلاعها، لكنَّ عبيدة كان حاضر البديهة، دسَّ تلك الحبة الغريبة في زاوية من شفتيه الغليظتين، بصقها بعد ذلك خلسة قبل أن يدسَّها في أحد جيوب جلبابه، من تحت أجفانه نصف المعلقة كان يراقب حركات رفيقيه اللذين لم يلبثا أن أخذا يتلوّيان ويئنّان. فقرَّر أن يقلِّدهما في كل شيء.

كان عبدالرحمن أول من نام، جعفر الذي قاوم قليلاً من الوقت أيضاً، انقلب بتثاقل على خاصرته، ثم استسلم بدوره إلى النوم. ضيّقت الكآبة على عبيدة، وبصعوبة تجرأ على تسليل نظرة من بين أهدابه. حسن الثابت وهو لا يزال واقفاً، أخذ برفع الستارة، فاسحاً لضوء الغرفة المجاورة أن يخترق خلوتهم، من الواضح أنه كان ينتظر حتى ينام الثلاثة. ماذا سيفعل بعد ذلك؟ أصدر عبيدة شخيراً صاخباً، انقلب على مرقده، وأخذ يقلّدُ تنفس النائم المنتظم. في اللحظة التالية غرق في الظلام. رشق حسن فوقهم غطاءً. قرع صنجة دوى صداها فارتجت لها الحجرة كلها بشكل غريب. خيِّل لعبيدة أنها غارت في هاوية. فاته أن يصرخ من الذعر تشبث بحاشية السرير، وانتظر بلا تذمر نتيجة هذه الرحلة الغريبة نحو الأعماق:

كان ذهنه يشتغل بطريقة رهيبة كل حواسّه كانت متنبهة، وفجأة أحسّ بأن المصطبة تتحرك على أرض راسخة، برودة الكهوف اجتاحت الغرفة لمح وميض شعلة وسمع صوت حسن الذي كان يستفهم:

- كل شيء على ما يرام.

- كل شيء على ما يرام - سيدنا.

- تصرفوا كما في المرة الماضية تماماً.

أيد أمسكت بالمحمل ورفعته، أحسّ عبيدة بأنهم كانوا يعبرون جسراً صغيراً ثم وضعوه وهو لا يزال نائماً في قعر مركب، سمع صوت مجاذيف، جرى الزورق مسافة لا بأس بها قبل أن يرسو في أحد الأمكنة. وفي الحال حملوه، ونقلوه بعيداً. تولد لديه إحساس، بأنهم كانوا يخترقون حجرة، حيث سمع صوت صبايا... ونغمات موسيقية... أيادٍ أمسكت به بقوة من كتفيه وقدميه، وطرحته على ما يشبه السرير. ثم ابتعدت، خطوات هؤلاء الذين كانوا يرافقونه. «ها أنذا قد انتقلت إلى فردوس سيدنا حدث نفسه، وهو يحبس أنفاسه. هذا المكان الذي كان يوسف وسليمان يحترقان من أجل العودة إليه لدرجة أنهما لم يترددا عن إيثار الموت؟

أحسَّ بنفسه فريسة لخوف يعجز الوصف عنه. «أيَّ تدجيل فكّر - عبد الرحمن، وجعفر لا يشككان بشيء»، ماذا سيجري لهما؟ فهو لم يكن يستطيع أن يفضح نفسه! وهو ماذا يفعل لو أمره سيدنا أن يطعن نفسه بخنجر كسليمان، إذا ما تمرّد، فإنه سيعرِّض نفسه لميتة اكثر بشاعة أيضاً.

«رعب، رعب غريب! تنهد صوت يرزح في أعماقه.

خطوات خفيفة اقتربت من سريره، كان عليه الآن أن يتظاهر بأنه استيقظ في الفردوس ويراوغ بأنه اكتشف عالماً جديداً... أحد ما رفع عنه الغطاء. فتح عينيه خلال جزء من الثانية. ذلك يكفيه، كي ترسخ في ذاته هذه الصورة المثيرة: كانت الصبايا ذوات الوجوه الجميلة التي تمثل

الحسن ذاته يتحلقنّ حوله وأخذن ينظرن إليه بهيئة فضولية وخجولة معاً. ترك نفسه تستسلم لرغبة، كَنَسَتْ في لحظة كل غمه. أراد أن يندفع حتى أقدامهن، وأن يشبع بهن شهواته التي اضطرمت فيه... لكنه لم يتجرأ بعد. كيف وصف سليمان يقظته؟... لا يزال عليه أن يمثل دور النائمين لكن أذنه كانت تترصّد لأدنى صوت، كأنه يترقب علامة فارقة.... ودون جدوى أُخبرت حليمة بأنه لا يمكن لسليمان أن يكون في عداد زائري هذه الليلة. قلبها الصغير البريء كان يؤمن بعودته بشكل لا مجال للشك فيه، وكما في المرة الأولى ترأست فاطمة مجموعتها الصغيرة، وسارة كانت هناك أيضاً. أمّا زينب، وأخريات منهنَّ كن مخصصات لزائر آخر. حتى السَّرادق لم يكن نفسه: تواجدن الآن في حديقة الوسط في ذاك السَّرادق الذي كانت مريم قد احتفلت فيه آنذاك بالليلة الأولى.

عندما طرح الخصيون المحمل الذي كانت ترتسم عليه حدود جسد الشاب النائم، ارتجفت واختبأت خلف ظهر سارة. مستغيثة ومرتاعة من اللحظة التي ستكشف فاطمة فيها عن وجه ضيفهن، بدلاً من أن يبدو الجانب الوضاء من وجه سليمان، لاح وجه عبيدة القاتم، كان هذا كما لو أنَّ غلالة تمزقت في داخلها. تهدّم عالمها الذي كان يعج بالمباهج، جحظت عيناها، ابتلعت صرختها، وعضّت قبضتها حتى سال دمها. فهمت الآن أنها فقدت سليمان إلى الأبد.

انطلقت كالسهم حتى الباب ماذا يهمها مما يعقب: كان يمكن لكل الأخريات أن يسخرن منها عندئذ بحجة أنها لم تصدّقهنّ... وقبل أن تتنبه رفيقاتها إلى ذلك صارت في آخر الممر، دلفت إلى الدهليز الذي يؤدي إلى الصخرة ذات الزواحف....

- رُقيَّة! ساره بسرعة امسكا بها قالت فاطمة بصوت مخنوق.

طارت الصبيتان نحو الرياض، دون أن تلاحظا حتى أن أهريمان قد انضم إليهما.

ركضتا مباشرة نحو الحافة التي تعلو المسيل الجارف.

لمحتا حليمة في ذروة الصخرة، كان لديهما من الوقت ما مكنهما من رؤيتها تفتح ذراعيها، وتندفع بوثبة واحدة نحو الهاوية، صرخة طويلة يائسة رافقت سقوطها.

سقطت في أغزر مكان من المجرى في المياه العميقة، أهريمان الذي نزل الجرف بسرعة البرق ألقى بنفسه في اقتفائها. غطس الحيوان باتجاهها، ونجح بإحكام فكَّيه القويين على ربطة شعرها المتموج. لكن التيار جرفهما بعيداً، فريسة لخوف قاتل. حاولت حليمة أن تمسك بعنق الحيوان. أوشكا خلال لحظة أن يرتطما بالصخور الناتئة خارج الماء، عند أسفل القلعة. أهريمان الذي كانت عيناه تبدِّدان الظلمة، استخدم كل عضلاته لبلوغ الحافة القريبة، لكن الأوان فات فمخالبه تزحلقت على الصخرة الملساء، مرة أخيرة حاول مقاومة التيار، لكنّ قواه خانته، وزوبعة سحبت الاثنين معاً نحو الأعماق...

كانت سارة ورقية بعيدتين كي تتمكنا من حضور هذا المشهد، لكنهما خمنتا فظاعة ذلك. عادتا بدموعهما، بينما كانت زوفانا تنتظرهما عند باب السرادق.

اختفت محمولة بالتيار.. ألقت بنفسها في الماء!

لم تستطيعا أن تقولا المزيد.

- بحق الله لا تتفوها بكلمة واحدة عمّا رأيتما... لقد أفاق الولد لتوه في هيئة تدعو إلى الغرابة، لكأنه يرفض أن يعتبرنا حوريات...

كان عليهما أن تمسحا دموعهما وتتبعا زوفانا إلى داخل السرادق.

كان عبيدة يعانق فاطمة وجوفيرا بالتناوب، وهو مسترخ على الأرائك برباطة جأش يهدي إليهما بابتسامات، كشف من خلالها عن شيء من الاحتقار. دون جدوى حاولن إسكاره، فقد كان بالكاد يغط شفاهه في الأقداح، وينتقل فوراً إلى المداعبات، ويأخذ في استعراض الحياة في

آلموت أمامهم. وعبارة ماكرة أفلتت من شفتيه عندما نوّه بها إلى اسمي يوسف وسليمان، بادرت الصبايا إلى تبادل النظرات. وبنوع من الفرح البائس وصف لهن كيف مضى الاثنان في طريقهما إلى الفردوس.

علم أنه أصاب الهدف عندما رأى بعض الوجوه تمتقع: تلك الوجوه التي لم تكن تحسن إخفاء انفعالاتها. تولد عنده لذلك سرور مضنٍ، يفسده قليلاً شعور الغيرة، إذ إن أحداً قد سبقه إلى التلذذ بتلك الحسناوات الفتيات.

لمح سارة في هذه اللحظة، فقال متجاسراً: «هذه إذاً ساره السوداء التي تحدث عنها سليمان، على الرغم من انها تغير اسمها ما بين وقت وآخر»، فدم أسلافها يجري في عروقها: هكذا يجب أن تكون الإماء المرصودات إلى عظماء العالم!... مدَّ يده، سحبها من معصمها وجذبها إليه فاتسعت فتحات أنفه انتزع حجابها الوردي وضمها بين ذراعيه بكل قوته بحيث أن عظام كليهما أخذت تطقطق، كان يجأر كضيون نزوٍ. أخيراً، طرحها وألقى بنفسه فوقها بوحشية. نسيت سارة المصير الذي آلت إليه حليمة ومنذ ذلك الوقت صار من السهل إثماله دون إكراه، ودون إرادة صار يقبل كل ما يهدى إليه. ثم ما لبث أن نام، وقد صرعه التعب، لم تكن فاطمة تنتظر إلاّ تلك اللحظة:

- رقية! اجري بسرعة وابحثي عن مريم! قولي لها كل شيء! إن حليمة قفزت في المسيل المتدفق، وأن عبيدة لا يؤمن بحكاياتنا.

كان أحد المراكب راسياً في القناة! عهد بحراسته إلى معاد.

قفزت رقية:

- خذني إلى عند مريم حالاً!

- أفضل!

- في منتصف الطريق، التقيا مصطفى كان يعيد أبّاما إلى الحديقة الأخرى.

ـ غرقت حليمة في المسيل! صرخت لها رقية.

ـ ماذا قلت؟

كررت رقية ما قالته لتوها. والخصيون والعجوز يرتجفون من الهلع.

ـ أرني المكان ربما نستطيع إنقاذها.

ـ فات الأوان، حملها التيار منذ وقت طويل.

ـ يا الله. يا الله، لماذا كل هذا....

أرخى مصطفى المجذافين وغطى وجهه بيديه.

جالساً في ظل سرادق صغير في منأى عن الأنظار، كان حسن ومريم صامتين.

ـ ألم تعلمي بعد ـ أفضى إليها فجأة ـ أن داعييَّ دعاتي، كانا يريدان الإطاحة بي من أعلى البرج إلى أسفل شاه رود. كان هذا في نفس الليلة التي فتحت فيها للفدائيين باب جنان الله؟

ـ ولماذا ذلك، قالت مريم مندهشة.

ـ لأنهما لا يريدان أن يفهما، أن على المرء الالتزام أمام نفسه، بإنجاز العمل الذي شرع فيه.

ـ هل تقصد بالحري، أن تصرفاتك تثير رعبهم، ـ أجل! ـ وماذا فعلت بهما؟

ـ ماذا فعلت؟ إنهما يتنزهان في القلعة بحرية، تماماً مثلما كانا يفعلان من قبل، الرغبات الشريرة تضنينا جميعاً. وإنني لست بحاقد عليهما ماذا كانا يستطيعان أن يفعلا أكثر من ذلك ضدي؟ فخلاصنا جميعاً يتعلق بحسن سير الخطة التي حسبها أن تنجح فقط في إبادة عدوِّنا اللدود!

ورغماً عنه، ضحك بشكل خفي...

ـ أريد التحدث بالتوكيد، عن ندِّي القديم، عن عدوي اللدود. الوحيد الذي يتمنى موتي ضمنياً.

ـ أنا أعلم من تقصد؟ قالت بتحفظ. عاد الصمت يخيم من جديد.

كان يعلم مدى ثقل العبء الذي يرهق قلب مريم. لكنه كان يتحاشى الاقتراب من هذا الموضوع الشائك. هي أيضاً لم تكن تتجرأ أن تكون البادئة في التحدث عنه. مع ذلك صممت أخيراً:

ـ قل لي، ماذا فعلت بهؤلاء الفتيان الثلاثة، الذين كانوا أوائل زائري فردوسك؟

ـ يوسف وسليمان ساهما هذا الصباح، بشكل منقطع النظير في تثبيط عزيمة جيش السلطان الذي يحاصرنا.

نظرت فيه بإمعان، علها تستطيع أن تقرأ ما ينطوي عليه قلبه.

ـ دفعت بهما إلى الموت.

ـ التزما به بنفسيهما. وكانا سعيدين جداً عندما انتهيا إليه. صدقيني.

ـ أنت وحش ضار، أطالب بأن تحكي لي كل شيء! دون أن أترجاك. أصغت إليه، وقد تنازعها الافتتان والرعب.

ـ وأنت لم تشعر بأي شيء، وأنت تضحي بهذين الولدين اللذين كانا مخلصين لك حتى الموت!

أحسّت به متضايقاً. لاستعدادها للدفاع عنهما.

ـ أنت لا تستطيعين أن تدركي. كان يجب أن أكمل ما بدأته. إنما اعترف عندما نطقت بهذا الأمر، أنا نفسي كنت هَلِعاً، صوت غامض همس في أذني: لو كان هناك أحد في السماء فوقنا، لما سمح بذلك. فإمّا الشمس ستخسف، وإمّا الأرض ستنشق، وتنهار القلعة، وتطمرك تحت أنقاضها مع جيشك. . . . وإليك أقول ذلك، كنت أرتجف في داخلي، كما يرتجف طفل أمام الأشباح، كنت أنتظر إيماءة صغيرة على الأقل. إني أقول الحقيقة، فلو أن شيئاً ما قد تحرك فقط، لو أن غيمة في تلك اللحظة

حجبت الشمس مثلاً، ولو أن الريح هبّت فجأة لكنت غيرت رأيي. كنت انتظر نائبةً، لكن السماء كانت تواصل دون ضعف نشر ضيائها عليَّ وعلى آلموت، وعلى الأجساد التي ترقد عند أقدامي.

راودتني عندئذ هذه الفكرة: فأما لا وجود لقدرة تسمو عليّ، أو أن هذه القدرة لا تعبأ إطلاقاً بما يجري في هذه الدنيا وإما أيضاً أنها تنظر بعطف إلى تصرفاتي السيئة.

أعترف بأني كنت لا أزال عندئذ أؤمن بشيء من الألوهية في سري، لكنَّ تلك الألوهية كانت تختلف جداً عن تلك التي كنت أعتقد بها في شبابي. كما العالم نفسه، كانت تتحرك ضمن الكثير من المتناقضات، ومثله آنذاك، كانت ـ وبحصر المعنى ـ معتدلة، محدودة. محجمة. السرمدي في المحدود سديم هائل في آنية زجاجية، تنين مرعب ومقرف. وهذه الألوهية، التي تعبدتها طيلة حياتي بغموض..

كانت عيناه تبدوان منفتحتين على الخواء، كما لو أن رؤيا بدعة خارقة ملكت عليه. «هذا الرجل، ليس عاتياً، مستبداً وحسب وإنما مجنون» فكرت مريم.

ـ وهل يمكن لك أن تقول لي أين ابن طاهر؟

خَفَضَ حسن ناظريه.

ـ لا شك أنك قد أرسلت به إلى عدوك اللدود؟

حدّق فيها بنظرة ترمي إلى محاصرتها تماماً.

ـ ألم تؤكدي لي يوماً ـ ذكّرها ـ بأنك لم تكوني تعتقدين بشيء في هذا العالم، وانك لم تكوني تخشين شيئاً؟ ماذا صار لبأسك؟ الآن صار عليك أن تخلّدي تلك الأفعال، التي آل إليَّ وحدي وزرها؟ أنت تملكين الشجاعة بالنسبة للأمور التافهة إنما يجب عليك أن تملكيها حيال الأمور الجلّى.

في هذه اللحظة بالضبط، دنا معاد من الجرف. هرعت رقية نحو مريم. مضطربة أيّما اضطراب. حتى أنها لم تلتفت إلى حسن.

حليمة رمت بنفسها في المسيل المتدفق. وزفرت بنهدة.

وضعت مريم يدها على قلبها، التفتت نحو حسن، ونظرتها قالت له بوضوح:

- هذا هو صنيعك!

رأته يرتجف، أراد أن يسمع كل التفاصيل.

- هل هربت، عندما رأتهم يحملون عبيدة بدلاً من سليمان؟ وأنت تقولين أن عبيدة لا يؤمن بقصة فردوسنا؟

نظر إلى مريم التي وضعت رأسها بين يديها وراحت في نحيب واختلاج.

لدى رؤيته إياها في هذه الحالة أردف قائلاً في الحال:

- إنما انتبهن لأن يسير ما تبقى سيراً حسناً.

توجه إلى الضفة حيث كان عدي ينتظره في مركبه هناك.

- إلى القلعة بسرعة أمر.

- اخنقوا ذاك الذي جئتم به إلى حديقة الوسط. قال إلى الخصيين اللذين استدعاهم على جناح السرعة. انتظروا من أجل هذا حتى تنفردوا به فتشوه، وانقلوا إليّ كل ما ستعرفونه عنه. ولتدفنوه بعد ذلك مع كل الذين ماتوا هذا الصباح، في الجهة الأخرى من الرياض، تماماً عند أسفل الجبل.

أمّا من ناحية زائرَيْ هذه الليلة الآخرين، فأحضروهما لي حالما سينتهيان من زيارتهما. بدت على وجهه تعابير الكآبة والتجمد.

صعد إلى قمة البرج دون أن ينطق بكلمة، تسلّق سلم أعلى مصطبة، وأطلق إشارة مناسبة باتجاه الحدائق: لقد أزفت الساعة كي يغادر

المصطفون فردوسهم لليلة واحدة. ممّا عزّاه أن أبا علي وبوزروق أوميد لم يكونا هناك. ماذا بقي لديه مما يقوله لهما أيضاً؟

كان يتوجب عليه حينئذ أن يسوّغ تصرفاته ويفسرها للعالم، أن ينقل إلى المؤمنين، بكلمات بسيطة، وتعابير مجازية خلاصة ما كان يعلمه وأن يشرح آخر الأسرار إلى خلفه، كانت هذه أيضاً مهمة شاقة. والحال كذلك، فالحياة قصيرة وهو صار عجوزاً.

عاد إلى غرفته منهكاً تماماً، تداعى فوق سريره، لكن النوم عصاه.

ربما سينسى خوفه غداً. . . أمّا الآن فوجه سليمان لا يفارق ذاكرته يلازمه بهوس واضح: كان يبدو سعيداً، مع ذلك حتى اللحظة الأخيرة التي انطفأت فيها حياته. أيها الإله العظيم! أي تجربة رهيبة! هذه الفكرة وحدها كانت ترعبه، وتجعل العرق ينضح من جبينه. رأى بعد ذلك ابن طاهر يمتطي جواده ميمماً شطر نهاوند، وقع تحت تأثير فكرة واحدة، هناك عدوه اللدود النقيض المفترض الصدر الأعظم نظام الملك، العقل المشع والمتفتح، والذي بنى عمله على قيم لعلّ الإنسانية تزكو بها إذ تعتبرها سامية. ومع ذلك فإن الكذب كان يتغلغل فيه: إذ كان ينحني أمام الشعب ومعتقداته، ويرغم نفسه على إخراس القناعات الممضة التي تأصلت في قرارة نفسه.

لقد اكتسب تقدير كل الجماهير، وبلغ ذروة السيادة وكل هذا كان من فرط طيبته وكرمه. . . وتنازلاته اليسيرة إلى الرغبات الشعبية.

هل هنالك مكان في العالم لمن يعادله؟ في الحقيقة فإن نظام الملك تخطّاه في كل مكان. سبق في مسيرته خصمه العتيد حسن بعشر سنوات، ولم يجد من مخرج سوى أن ينطلق في طريق آخر: طريق نقيض! «هو مبتسم وأنا كئيب، هو متسامح، وأنا صُلف، هو لطيف، وأنا أرغم نفسي على أن أكون شرساً»، مع ذلك كان يعلم أنه من الممكن للصدر الأعظم

أن يكون متصلبًا وعديم الرحمة بالنسبة له، عاودته هذه الفكرة: «إن أحطِّمْه أصبح سيِّدَ إيران الوحيد».

ـ ليت لهذه الليلة أن تنتهي. قال متنهداً. التف بمعطفه ثم عاد إلى الشرفة. كان يحب تأمل الرياض من علٍ. كان الخصيون ينتزعون آخر الفوانيس، وجه نظراته نحو الجبل، أضواء كانت تلمع عند اسفل السفح.

«إنهم يدفنون الأموات. . .» فكّر، وهو يدرأ ارتعاشه. لكن فكرة اقتحمته وأفعمته بالهلع: لا بد له، هو أيضاً، من أن يعود إلى العدم ذات يوم! «ليس هناك من شيء راسخ، ففوقنا تقبع النجوم الخرساء. ونحن خاضعون لفرضيات، ونستسلم إلى أوهام. مرعب ذلك الإله الذي يسوقنا».

عند عودته إلى ملحقاته، ألقى نظرة على الحجرة الصغيرة التي تشرف على مدخل الممر السرّي. كان جعفر وعبدالرحمن يغطان في نوم عميق.

رفع عنهما الغطاء، وضوء الغرفة المجاورة قد كشف عن وجهيهما المتعبيْن بشكل غير واضح. تأملهما مليًا.

ـ في الحقيقة، إن الإنسان لأغرب مخلوق في العالم ـ همس ـ يتمنى أن يطير كالنسر، لكنه لا يملك أجنحة، يتمنى أن يملك قوة الأسد، لكنه لا يملك مخالبه، كم خلقته ناقصاً أيها الربُّ! ولكي تعاقبه منحته العقل، وملكة إدراك بؤسه. . . .

رقد من جديد، غالب نفسه كي ينام، لكنّ النوم لم يزره إلاّ عند طلوع الصباح.

ـ ابن صباح نبي مصدّق. وهو يعتقد على الرغم من كل شيء بإله ما أسرَّ هذه الليلة إلى أبي عليّ وبوزروق أوميد.

رمقه بنظرة صافية، طفولية تقريباً، ثم وبنفس اللهجة السرية:

ـ أترى. إني لم أسئ فهمه. فمع كل الزندقة التي كانت تطرح في

خطاباته كنت مقتنعاً بأنه هو وحده من يمكن أن يكون زعيم الإسماعيليين لأنه وحده من يمتلك الشجاعة الكبرى اللازمة من أجل هذا.

الحمد لله! لدينا نبي!

ـ نبي مرعب، نعم همس بوزروق أوميد.

ـ لم يكن محمداً اقلَّ إرعاباً، فقد دفع بآلاف الرجال إلى الموت. ومع ذلك فقد كانوا يؤمنون به جميعاً. الآن ينتظرون المهدي. . . .

ـ يقول لي إنك تنتظره، أنت أيضاً؟

ابتسم أبو علي ابتسامة ماكرة.

ما انتظرت الجماهير أحداً على الإطلاق عبثاً. والتاريخ يشهد على ذلك، سواء كان طيباً أم مرعباً. سيأتي مبعوثاً برغبة آلاف وآلاف القلوب. هنا يكمن سر الإنسانية: لا أحد يعرف لا من أين ولا متى سيأتي. . . إنما من يُنتظر، يخلص دائماً إلى المجيء.

ـ يتضح أن شيئا من الجنون قد أخذ يستحوذ على دماغك. أنت تؤمن! ومع ذلك فإنك تعرف أنَّ الإنسانية لا تحيا إلا بالخداع.

ـ إن هو يؤمن، فلماذا لا أؤمن أنا!

ربما. كانت هذه رغبتكم العميقة في كلا الاثنين!

ـ الدعاة لا يثقون بنا، أليس هذا لأننا زعماؤهم؟ هو وحده من ملك مفتاح كل شيء. بفضل فدائييه. نحن أيضاً علينا أن نعود إليه.

ـ إن مواربتك تربكني بشكل رهيب. لكنك مصيب دون شك. فنحن لا ننتظر ترقيةً في مقاماتنا. ونملك أحداً معنا. مع ذلك فإن مكانتنا قريبة من مكانة الزعيم.

في الساعة نفسها من تلك الليلة. كانت الفتيات المتجمعات حول حوض الماء في سرادقهن، يبكين حليمة بيأس. فاطمة هي من أخبرتهن بما جرى. من يراهن يحسبهنَّ سرب حمام أجفله ظل طير كاسر. دموعهن

لا تكفي للتعبير عن الأسى الذي يمزقهن لاختفاء صديقتهن. الخبر الرهيب، ولَّد لديهن أكثر من أي وقت مضى الإحساس بأنهن أسرة حقيقية. كل واحدة راحت تعبر عن حزنها.

ـ كانت حليمة أفضل واحدة فينا...

ـ تبدو الحدائق خاوية من دونها...

ـ سنحزن عليها حتى الموت

ـ كيف سنستطيع أن نحيا بدونها؟

كانت مريم تجلس مختبئة، تصغي إلى ما يعلِنَّه، فتضاعف أساها. شعرت بنفسها واهنة القوى، وقد اكتشفت أن لا شيء يربطها بالحياة بعد. وبالتالي ما الجدوى من الاستمرار في التألم؟

عند طلوع الصباح، أرسلت الصبايا إلى النوم. انصرفت تبحث عن شفرة حادة صقيلة قاطعة، دلفت إلى غرفة الحمّام التي تفضي إلى غرفتها الخالية. تعرّت، أرخت الماء واستلقت في حوض الاستحمام. حركة بسيطة، وأخذ الدم يسيل رويداً على رسغها. شعرت الآن أنها بحالة جيدة. شيئاً فشيئاً، أخذ الماء يتلون باللون الأحمر، كانت الحياة تنسحب منها بشكل بطيء مخلفة فيها وهناً شديداً. «النوم!» لم يعد لديها أمنية أخرى تبحث عنها. أغمضت عينيها واسترخت في دفء الماء.

في نهار الغد، وعندما جاءت فاطمة تبحث عنها، وجدتها شاحبة عارية، غارقة في ماء أحمر. أطلقت صرخة دوَّى صداها في البيت بأسره وفقدت وعيها في الحال.

كانت الشمس في أوجها عندما اكتشف، جندي من جيش السلطان المكلف بمراقبة الخيول والبغال، اكتشف بين الأغصان جسد صبية عارياً تماماً. أمسك بها ثم جرّها حتى الجرف.

ـ أي جمال!

فاته أن يصرخ.

على بعد خطوات من هناك، تجثم جثة حيوان كبير، عرف في الحال أنه فهدٌ، جرّه أيضاً إلى الحافة. كانت الخيول التي اشتمت رائحة حيوانية تصهل صهيلاً صاخباً. ما أن أخبر الرجل ضابط الخدمة حتى احتشد الجنود، فضوليين لأن يروا الاكتشاف الغريب عن كثب.

ـ فهد وصبية مجتمعان في عناق الموت. نذير شؤم! قال جندي عجوز.

أعطى القائد أمراً بدفن الجثتين الواحدة قرب الأخرى.

الفصل الثامن عشر

في الأيام التالية، تابع الحراقون لدى السلطان قصف قنابلهم من الموقع. لكن الإسماعيليين ما لبثوا أن اعتادوا على صوت هذه الأحجار تطرق جدرانهم. كان الجنود الذين يحرسون في أعالي المتاريس يراقبون الرمي بعين الخبير ويعلقون على كل طلقة، ويندّدون بهؤلاء الذين يخطئون هدفهم. ويمضون إلى التهليل بصخب لأولئك الذين يصيبون كانوا يلهون بتبادل إشارات مع العدو، وفجأة لم يعد أحد يحسُّ بأدنى خوف صار ابن فاكاس رئيس الجواسيس عند غياب عبيدة. بدا له أن الفرصة صارت مؤاتية للإفادة من العلاقات الطيبة التي أخذت تنعقد بين المعسكرين من أجل إقامة اتصال مباشر مع فرق جنود الأمير. كلّف واحداً من جنوده بمرافقة أحد السجناء حتى المراكز الأمامية للجنود المهاجمين وجرى ما كان يمكن للمرء أن يتوقعه: تسارع السجين إلى أفراد جماعته يروي لهم عن مدى حسن معاملة الإسماعيليين له.

صوت من جهة المحاصرين سأل رجال الأمير إن كانوا يقبلون أن يتفاوضوا مع أهالي آلموت بانفصال: يوجد في القلعة من المال ما يكفيهم جميعاً!

ظهرت عصابة تهريب ليلية أفادوا منها من ناحيتين لا سيما وأن ابن فاكاس اغتبط إذ تلقى أخباراً قيمة من هذه القناة: وأهم ما علمه، أن جيش الأمير لا يحصي ثلاثين ألفاً، وإنما بالكاد نصف هذا العدد.

خبر مهم آخر: المحاصرون غير مزودين بمؤونة كافية، بدأوا يفتقرون إلى الطعام. وفرق الجيش الناقمة، أخذت تسرع بالرحيل جهاراً.

فكّر الأمير أرسلان تاش في وقت ما، بإعادة قرابة خمسة آلاف رجل إلى الريّ وقزوين، لكن ما كان يعلمه عن عزم الإسماعيليين المرعب أدى به إلى إرجاء هذا القرار: فهو لو خفّف قواته كثيراً أفلن يعرِّض نفسه لأن يحصل له ما حصل لمقدمة الجيش التي أُجْهِزَ عليها قبل بضعة أسابيع من اليوم؟

أسبوع واحد، لا أكثر، مضى عندما مثل على باب الأمير رسول لاهثٌ كُلِّف بنقل هذا الخبر إليه: الصدر الأعظم طعن بيد اسماعيلي متعصب وسط جيشه.

مكث أرسلان تاش مذهولاً كمن أصابته صاعقة، وفي الحال تداعت إلى مخيلته صورة مجرم مقنع كان يسعى لتصفية حسابه معه... وبدوره أحسَّ بعرق بارد يتصبب من حينه.

ـ ليذهب أحد، يبحث عن أبي جعفر في الحال.

مثل الزعيم العسكري دون تأخير.

ـ هل سمعت؟ قال الأمير بلهجة قلقة.

ـ لقد سمعت يا سمو الأمير، نظام الملك اغتيل.

ـ ماذا قال سيد آلموت؟

ـ قال بأن لديه خبراً عن الوزير، لن تسمع به سموك قبل ستة إلى اثني عشر يوماً... ورجاك حينئذ أن تتذكره وتتذكر كلماته.

ـ يا الله! يا الله! كان يعلم كل شيء مسبقاً! إنه هو حتماً من أرسل القاتل إلى نهاوند! ماذا كان يقصد بهذه الكلمات: أن أتذكره؟

ـ لا،

ـ لا أظنه ينوي خيراً بالنسبة لك، أخشى ذلك.

مرَّ الأمير بيده فوق عينيه، ثم اندفع نحو الباب كمن صار في وضع ميؤوس منه.

ـ يا رئيس الحرس! بسرعة! ضاعف جنودك إلى العشرة أمثال، وليتأهب كل الرجال إلى حمل السلاح. وعلى الأخص، لا تدعْ أحداً يعبر هذا النطاق، ما عدا ضباطي الذين سأدعوهم بنفسي.

ثم قال مخاطباً أبا جعفر:

ـ وحِّد الصفوف! على كل الجند أن يكونوا متأهبين حالاً. ولو كان لأي أحد أدنى اتصال بآلموت فسوف يُقطع رأسه في الموقع.

قبل أن يتمكن أبو جعفر من تنفيذ الأمر حتى قدم أحد الضباط مندفعاً داخل الخيمة.

ـ خيانة! الرجال الذين يديرون السلاح، ولَّوْا سريعاً، الخيول والبغال هربت نحو الجنوب. والضباط الذين أرادوا الإمساك بها من أعنتها ارتموا ووجدوا موثقين بإحكام إلى أرض الموقع.

أخذ أرسلان تاش رأسه بين يديه.

ـ يا كلب! يا ابن الكلب! كنت دون شك من بين هؤلاء الذين سمحوا بذلك!

أخفض الضابط عينيه كاتماً غيظه.

ـ إنهم جياع ـ لا يريدون أن يقاتلوا ضد نبي بمستوى «الشيخ» الذي يسيطر على هذه الجبال.

ـ انصحني إذاً، ماذا علي أن أفعل؟

أجاب أبو جعفر بشيء من الخشونة.

ـ الصدر الأعظم، ألدُّ أعداء الاسماعيليين مات. تاج الملك قد بزَّه. من صالح سيد آلموت...

ـ ماذا تعني بهذه الكلمات؟

ـ الرّجال المضطلعون بإدارة آلات الحصار هربوا. فما حجتنا بالبقاء بعد حول هذه القلعة.

لوحظ أرسلان تاش مواسىً بشكل واضح. مع ذلك كان يحسب نفسه مجبراً على الصراخ.

ـ أنت تنصحني إذاً بفرار مخزٍ؟

ـ لا يا سمو الأمير. فالوضع تغير رأساً على عقب منذ وفاة الصدر الأعظم. علينا أن ننتظر أوامر السلطان والصدر الأعظم الجديد.

ـ هذا شيء آخر. . .

جُمعت فرقة الضبّاط. الغالبية طالبت بالانسحاب. الجيش كان في حرب ضدّ الإسماعيليين.

ـ حسنٌ، قال أخيراً الأمير الحذر. لتطووا الخيام، وليتأهب كل الجيش إلى الخروج بمنتهى الصمت.

في صباح اليوم التالي، كانت الشمس تلمع على سهل مقفر. وحدها آثار الدعس على الأرض وبقايا الأسلحة النارية الكثيرة، تشهد على أن جيشاً ضخماً كان يخيم بالأمس في هذا المكان.

علم ابن فاكاس من وسطائه خبر موت الصدر الأعظم في الحال. «إسماعيلي قتل نظام الملك وسط معسكره! جيش السلطان يندحر مهزوماً أمام آلموت. وبشكل يدعو للرثاء!». انتشر الخبر في القلعة، كما تنتشر النار في القطن، نقل ابن فاكاس النبأ إلى أبي علي أولاً، الذي ذهب على الفور يلتقي بوزروق أوميد.

ـ نفّذ ابن طاهر الأمر! مات نظام الملك!

راحا يبلغان حسناً الذي كان قد انغلق في عزلته منذ أن تلقى نهاية مريم المأسوية. سارت مكيدته بحسب ما تصور لكنها كانت تسحق بين مشابكها كل هؤلاء الذين لم يكونوا مكرسين لخدمتها. ضحية أولى جرّت ضحية

ثانية، وهذه الثانية جرَّت ثالثة. كان يشعر بأنه لم يعد يسيطر عليها تماماً، وأنها كانت تأخذ استقلالية غريبة بالنسبة لإرادة سيدها، مودياً إلى العدم أيضاً بهؤلاء الذين كانوا أعزاء عليه... والذين كانت خطتُه بحاجة إليهم، من الآن صار وحيداً، ويوحي برعب مبهم لهؤلاء المقربين أنفسهم. انتحار مريم كان يمثل بالنسبة إليه غياب آخر كائنٍ بشري يمكن له أن يكشف أمامه عن نفسه، أي شخص كان، ليته كان يستطيع أن يجد عمر الخيام بقربه!

كيف كان الشاعر سيرى هذه الأفعال؟ إنه بالتأكيد لن يؤيدها، لكنه سيفهمها. لكن هذا على أية حال كان أكثر أهمية من ذاك.

عندما دخل كبيرا الدعاة غرفته، فهم من هيئتهما على الفور، أن لديهما خبراً مهماً سيطلعانه عليه.

ـ جيش الأمير يجرُّ هزيمة فادحة. فدائيك قتل الصدر الأعظم!

هبَّ حسن واقفاً، الأكثر ألمعية بين الأصدقاء الثلاثة الذين وحد بينهم قسم الشباب العظيم مات. فطريقه سالك الآن!

ـ أخيراً. همس ـ موت هذا الرجل بالنسبة لي هو بداية سعادتي، ثم وبعد صمت:

ـ هل هنالك من أخبار عن المنفذ؟

رفع بوزروق كتفيه.

ـ لا نعرف شيئاً. هل هناك غير احتمال واحد؟

ـ حدق حسنٌ في عيونهما، محاولاً أن يقرأ افكارهما، كان وجه أبي علي يعبر عن الوفاء والثقة، ووجه بوزروق أوميد عن الاستحسان اكثر من الإعجاب.

تنهد.

أخبروا الفدائيين، أن عليهم من الآن فصاعداً، أن يبجلوا ابن طاهر

كأعظم شهيد لدينا، ليذكروا اسمه في صلواتهم مع اسمي يوسف وسليمان. هذا أمرٌ مني. سيسمو نهجنا من الآن فصاعداً عنوة، كل القلاع المحاصرة ستصبح محررة.

ولا بدَّ لرسول من أن ينطلق مباشرة إلى زوغامباداان. لا بد من الثأر لحسين القيني. لتحضر قافلة ابني إلى هنا، حالما يرفع قيزيل سيريق الحصار عن القلعة.

صرفهما وصعد إلى قمة البرج، من هناك، كان يستطيع أن يرقب خروج جنود الأمير.

في صباح الغد، مضى المبعوثون في اتجاه كل الحصون الإسماعيلية. وقد كلّف ابن فاكاس بمهمة الاتصال بأهالي رودبار.

عند هبوط الليل، هرع أبو علي لاهثاً يخطر الزعيم الأعلى.

ـ حصل شيء لا يحتمله العقل ـ هتف منذ أن صار على الباب.

عاد ابن طاهر إلى القلعة. . . .

بالنسبة لابن طاهر، كانت الليلة التي تلت اغتيال الصدر الأعظم أكثر الليالي هولاً في حياته، جسمه وقلبه محطمان على حد سواء، قدماه مقيدتان، وقبضتاه مربوطتان بوتد الخيمة، إذ ظلّ ساعات وساعات ممدداً دون حراك على الأرض، تتحرك فيه أفكار القنوط. يخيّل إليه يسمع ضحكات شيخ آلموت الساخرة كيف كان له أن يكون مغفّلاً إلى هذه الدرجة بعد إكتشافه تلك البدعة منذ بداياتها؟ يا الله! يا الله! إنما كيف كان له أن يعتقد بأنَّ من الممكن لزعيم ديني آمن كل أتباعه بأنه كرَّس نفسه من أجل الحقيقة، أن يكون دجَّالاً بهذا الشكل؟ المتمكن من خدَع أعدّها بهدوء! مريم، تلك المخلوقة الملائكية الحسن، ما هي إلاّ متواطئة. إنها أكثر فساداً منه. بما أنها تُجيِّر شعوراً سامياً كالحب في خدمة أغراض شائنة.

أوه! يا للاحتقار الذي لا حدود له والذي يكنه لها الآن.

كانت ليلته ليلاء، قضَّ الألم والغم مضجعه دون رحمة، هل كانت مريم عشيقة هذا الشيخ الكريه؟ هل كانا يسخران معاً من سذاجته السخيفة؟ وهو ابن طاهر الذي أهداها أجمل قصائده! كم حلم بها، تاق إلى رؤيتها، تفانى في سبيلها، هذا الشيخ الدنيء يلهو بجسدها الساحر، يشبع شبقه، يتلذذ بمفاتنها، ويدفع إلى الموت بهؤلاء الذين آمنوا به، الذين احترموه وأحبوه.

الله! يا الله! أية رؤية مرعبة! إنما كيف كان هذا ممكناً؟

ألم يكن في سمائنا أحد سامٍ كي يعاقب على مثل هذه الجرائم؟

واحد يكبح هذا السلوك المتوحش! مريم! عاهرة! كانت هذه الفكرة هي من أكثر ما يتعذر تحمله بين الأفكار.

جمالها، ذكاؤها، رقتها لم تكن إلاّ أفخاخاً نصبت إلى البلهاء مثله! لا يجوز له أن يعيش في ظل عار كهذا. كان عليه أن يعود إلى آلموت ويصفي حسابه مع الشيخ أيضاً.

كلّفه بالقتل، ونفّذ هذا الأمر، وبناء على ذلك فهو يستحق الموت بدوره.

آه! مع ذلك! أفلم تبق مريم في إحدى طيّات قلبه الخفية، كأرق، وأروع مخلوق في الوجود. أية شعلة متأججة أضرمت في قلبه!

لقد أيقظت فيه الكثير من القوى المجهولة. حتى صار على بينة من أمره.

لا يزال الآن وقد علم ذلك يشتهي. . . أوه! أن يضمها إلى صدره مرة واحدة. . . في آخر عناق!

في يوم الغد ابلغوه أنَّ الصدر الأعظم قد مات.

قرار إرساله إلى آلموت لم يُتَّخذ بعد كانوا ينتظرون ما كان سيقرره السلطان. . . كان هذا قد التقى مبعوثي المخيمات حينما كان في منتصف

طريق بغداد. رجع على أعقابه. بعد يومين صار في طريق عودته إلى نهاوند.

مضرّجاً بالعطر، مطيباً، غلائله من النسيج الأرجواني، وعمامة مهيبة تعلو رأسه.

كان جسد الصدر الأعظم مسجىً على منصَّة، تحت قبّة السماء الزرقاء. ضمن استعراض باذخ من الأعلام، من الأكاليل ومن الزينة. وضعت القلنسوة السوداء والدواة، والقلم شارات عمله ـ عند أقدامه. كان وجهه الشاحب كالشمع والمحاط بلحية جميلة بيضاء، يعبر عن النبل، عن الهدوء، والعزة. هرع أبناء المرحوم الكثر من كل أصقاع البلاد يمتطون أسرع خيولهم، جثوا أمام والدهم المتوفى، يلثمون أصابعه الباردة والمتخشبة مطوّلاً، بكاء وعويل من الجميع، جعل الهواء يهتز حول المنصة الجنَّائزية.

عندما أبصر السلطان جسد الصدر الأعظم أخذ بالنحيب كطفل. لقد خدم الراقد وطنه طيلة ثلاثين عاماً! الأتابك أمير الأمراء. كم كان يستحق هذا اللقب! وها هو الآن يتأسف ما بدر منه من سوء معاملة تجاهه في العام الفائت. كيف كان له أن يتساهل في أن تتدخل امرأة في شؤون الحكم؟ كان من الأولى به أن يحبسها في الحريم كباقي النساء الأخريات. تلقى من قادة المعسكر تفاصيل حادثة الاغتيال. ذلك كان إذاً وجه حسن الحقيقي! بأية سهولة استطاع القاتل أن يستهدفه، وفي مقرّ صدره الأعظم! ارتعدت أوصاله من الرُّعب لا، لا يمكن له أن يتسامح حيال تفاقم هذه الجرائم على مرأى من الجميع. لا بد من القضاء على حسن! مع كل الإسماعيليين. لا بد لكل قلاعهم من أن تحصد!

أوعز إلى أبناء الأمير بنقل جثمان والدهم إلى أصفهان، وإلى دفنه هناك بحسب الأصول. أمّا بالنسبة لما يخصُّ القاتل، فقد أجمع الجميع على أنّ

من المناسب أن تُنفذ وصية المتوفى. «سيبيد كل قوة آلموت» قرّر السلطان ذلك، وقد أعطى أمراً بأن يحضر إليه ابن طاهر.

مشدود الوثاق، متورم الجسد، دامي الجراح، دفع به إلى داخل الخيمة الملكية. دُهش السلطان لدى رؤية وجهه فسنوات حكمه قد أكسبته فراسة في معرفة الناس.

هيئة هذا الإسماعيلي لا تدلُّ أبداً على أنه قاتل.

ـ كيف استطعت أن تقترف جريمة كهذه؟

أفضى ابن طاهر بكل ما كان يكتنزه في قلبه. لم تكن في كلماته أية مراوغة أو تصنُّع لكن ما رواه كان كفيلاً بإثارة الرعب عند مستمعه المتصلب.

كان الأمير يعرف جيداً تاريخ الأزمنة القديمة: فطيلة حياته، لم يسبق له أن سمع بخطة شيطانية كهذه.

ـ هل تأملت الآن في الدور الذي أوكل إليك أن تلعبه؟ سأل الشاب حال انتهائه من سرد قصته ـ بقوة سلاح ذلك الشيخ السافل!

ـ إني أتحرق فقط لغسل جريمتي. ولتخليص العالم من غول آلموت.

ـ لي كل الثقة فيك. سأطلق سراحك. ثلاثون رجلاً سيرافقونك حتى القلعة، كن حذراً، أشدّ ما يمكن من الاستسلام سريعاً. إكبح غضبك إلى أن تصل أمام ذاك الذي عليك أن تصرعه. أنت شاب حازم وذكي. ولا يجوز لخطتك أن تفشل.

عاود السلطان طريقه إلى بغداد، بعد أن اتخذت الإجراءات اللازمة، غذّ ابن طاهر ومرافقته في سفرهم يحرقون المسافات حيث كان خبر مقتل الصدر الأعظم قد سبقهم بيوم. على الطريق بين الريّ وقزوين، وقعوا على عصابة من الجنود الذين خرجوا عن جيش الأمير. علموا منهم التأثير الناجم عن موت نظام على الجيش: لقد رفع الحصار عن آلموت!

كانوا معرضين لخطر الوقوع بين بعض المفارز الإسماعيلية.

خلّصهم ابن طاهر من المأزق:

- أنا اعرف درباً سرياً من الجهة الأخرى لشاه رود. إنه الطريق الأكثر سلامة.

قادهم إلى مكان، استطاعوا أن يعبروا منه مجرى الماء. من الجهة الأخرى، بين المسيل الجارف والمنحدر ينحصر ممر ملتو وسط الأحراش، تابعوا مسيرهم باتجاه آلموت. وفجأة أشار الرجل الذي يمثل الطّليعة عن اقتراب فارس يأخذ طريقه في الاتجاه المعاكس لطريقهم، اختبأوا في جوف الأدغال، وأعدّوا كميناً.

ما أن لمح ابن طاهر المسافر حتى تعرف فيه على ابن فاكاس. كآبة صمّاء استولت عليه. «لا شك أن سيدنا قد أرسله إلى رودبار» - فكّر - كان يتمنى في قرارة نفسه لو يستطيع هذا الفدائي أن يفلت من الفخ المنصوب على الرغم من أنه كان يلوم نفسه على هذا الضعف:

«هو ليس مجرماً في آخر الحساب... أليس ضحية لخداع الشيخ كما هي الحال بالنسبة لي أنا نفسي؟». ومن ثم كان لا بد له من الاعتراف من كل أعماقه بأنه لا يزال يحمل الود المفرط لعالم آلموت....

وبلمح البصر، أحيط ابن فاكاس بالمقتحمين، كان المكان ضيقاً جداً بحيث لم يتمكن من استخدام رمحه. تخلّص منهم، سحب سيفه، وقف بوجههم وقد أطلق صرخة:

- احضر أيها المهدي!

هؤلاء الذين كانوا على مرمى طعناته تحركوا متراجعين، وقد ذهلوا بشجاعته المتهورة. وابن طاهر الذي تراجع قليلاً أحسّ بنفسه يشحب. لكأن حركاته قد شُلّت. تذكر أولى المواقع عند أسفل القلعة... حادثة انتزاع العلم من العدو... سليمان الذي ضرب الأرض بقدميه عندما منعه

أبو سراقة من سحب سيفه. . . كان يرى ولادة العظمة الاسماعيلية، وقوتها التي تجابه اليوم جيشاً يبلغ تعداده آلافاً مؤلفة من الرِّجال.

أحنى رأسه فوق عنق فرسه وبكى بصمت.

كان ابن فاكاس حينذاك يكافح كشيطان هائج، وقد نجح تقريباً في شقّ ممر لنفسه قرع سيفه كان يدوّي على رؤوس وخوذ هؤلاء الذين تحلّقوا حوله. قفز أحد الجنود إلى الأرض أخيراً، التقط رمح الفدائي وغرزه في بطن فرسه: انتصبت الفرس على قائمتيها الخلفيتين وخرّت أرضاً بكليتها جارّة فارسها تحتها. افلت ابن فاكاس بسرعة، خلّص نفسه، لكنه لم يقدر على تحاشي ضربة صولجان أوقعته أرضاً. فأوثقوا قيده. لم يكن جرحه بليغاً. وبينما كانوا يضمدونه استعاد وعيه: ما إن فتح عينيه حتى لمح ابن طاهر. البارحة ذكر اسمه في الصلاة بين أسماء الخالدين. . . وغصّة من الخوف وقفت في حنجرته: هكذا إذاً، لقد متُّ أنا أيضاً. . .». لكنَّ زعيم المفرزة المعادية اقترب منه بينما هزّه صديقه القديم من كتفه، ليخرجه من غفلته:

- إصحَ، ألم تتعرّف إليَّ يا ابن فاكاس؟

طلب إحضار الماء إلى الجريح الذي غبَّ منه بنهم.

- ابن طاهر!. . . أنت لم تمت إذاً؟ ماذا تفعل بين هؤلاء الناس؟

أشار إلى الضابط الغريب.

- أنا عائدٌ إلى آلموت لأقتل أكبر كاذب، أكبر دجّال في كل العصور. الحسن بن الصباح ليس نبياً إنما هو مخادع دنيء. الفردوس الذي فتح لنا أبوابه. لم يكن إلاّ من زخرف صنعه. الرِّياض التي تواجدنا فيها في آلموت والمخفية خلف القصر. . . ما هي إلاّ متنزه سري، جهّزه ملوك الدَّيلم في الماضي!

كشَّر ابن فاكاس عن ابتسامة احتقار.

ـ يا خائن!

علت وجه ابن طاهر الحمرة، لم يكن الجريح يريد أن يسمع شيئاً، مصراً على إيمانه الأعمى:

ـ أنا لا أؤمن إلاّ بالقَسَمِ الذي يربطنا بسيدنا!

ـ هذا العهد لم يمنعه من التضليل بنا فهو لا يمكن له أن يربطنا!

ـ باسم هذا العهد المقدّس هزمنا جيش السُلطان. إن أعداء الإسماعيليين يرتجفون الآن أمامنا!

ـ إليّ وحدي تعود هذه النتيجة. لا تنسَ أنا من قتل الصدر الأعظم.

ـ أعلم ذلك، ولهذا فقد سمَّاك الزعيم الأعلى شهيداً. والآن تريد أن تغتاله هو بدوره!..

ـ لو كنت أعلم من قبل ما أعلمه الآن لما قتلت غيره.

ـ تقتله؟ تحت أمره، وأمام مرآنا جميعاً طعن سليمان نفسه، ويوسف ألقى بنفسه من أعلى البرج. لقد رأيت ما كان ينم به وجهاهما حتى في الموت. لم يكونا يشكان أبداً بالسعادة التي تنتظرهما في السماء!

ـ آه، يا للقاتل المتوحش! لنسرع! فكلما أسرعت في غرز سكيني في أحشائه كلما أسرع العالم في الخلاص من هذا الكابوس... ساروا في طريقهم، فرقة الجنود الصغيرة توقفت، التفت الضابط الذي كان يرأسها نحو ابن طاهر.

ـ عليك ان تكمل وحدك حتى القلعة. الآن نحن نحتفظ بالسجين كرهينة، أتمنى أن تنجح بثأرك لنفسك، وليمنحك الله ميتة مشرفة بعد ذلك!

عبر ابن طاهر المسيل على حصانه. على بعد خطوتين وصل المكان الذي أخفى فيه ملابسه بعد أن خرج من القلعة. بدَّل ثيابه واتخذ وجهة الشُّعب، تابعه رفاقه بأنظارهم. ثم أمرهم قائدهم بامتطاء خيولهم. وعادوا في طريقهم المؤدية إلى الريّ.

خفير برج الرصد الذي يشرف على مدخل المضيق تعرَّف على الفدائي وتركه يمر. ولم يجد صعوبة أيضاً في إخفاض الجسر المتحرك: تفرَّسه الجنود الذين استقبلوه في البلاط كعائد بعد غياب طويل. توجه إلى ضابط القسم:

ـ يجب أن أتحدث إلى سيدنا، حالاً! معي خبر مهم أحمله من معسكر السلطان!

هرع الضابط يعلن الحدث لأبي علي! الذي تسارع بدوره إلى إنباء حسن. كان ابن طاهر ينتظر خلال هذا الوقت مكدّراً وجاداً. والرغبة في تصفية حسابه مع هذا الدجّال كانت أقوى من خوفه بكثير.

لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتحسّس سيفه الذي كان يحمله تحت جلبابه! أخفى أيضاً خنجره تحت حزامه العريض، وفي كمه، الشفرة الصقيلة المسمومة التي كان قد وخز بها الصدر الأعظم.

عندما أُخبر حسن بعودة ابن طاهر مكث صامتاً. حدّق في أبي عليٍّ بنظرة مبهمة كما لو كان قد نسي وجوده. كان يستعرض كل الاحتمالات التي يمكن لها أن تفسّر هذه الأعجوبة الخارقة، تحركت أفكاره في كل الاتجاهات، وخمّن بغريزته أن في الأمر نوعاً من كمين.

ـ اذهب، وليدخل ابن طاهر للقائي. قل للخفير أن يدعه يدخل.

على هذا أُدخل كان قد أوعز إلى خمسة من حراسه بالصعود، دعاهم إلى التخفي خلف ستارة المدخل، ثم أمرهم بالاستيلاء على الرجل القادم، وثم بتجريده من سلاحهُ بتقييده.

ثم انتظر.

عندما علم ابن طاهر بأن الرئيس الأعلى لم يتردد بدعوته للقائه، تيقّظ عقله تماماً «يجب أن أبلغ هدفي!... وليمدني الله بعونه!» تذكر تدريبات المعركة، السابقة التي درّبه عليها عبد الملك. يجب أن يتوقع إمكانية شرك رتّب له في طريقه. حسبه أن يصل فقط حتى غرفته.

كان ممتقعاً، لكنه عازم بجموح مثل عند أسفل برج القصر، شمّر عن كُمّ جلبابه قليلاً، يده متأهبة لقبض الخنجر، خطواته توحي بشيء من التردد، عندما مرَّ بالقرب من الخفراء الذين يرتدون السواد. وكانوا يحرسون كل مدخل، مثلما يحرسون أطراف الممرات. سيطر على نفسه كي لا يتراجع عن قراره استلم السلّم الشاهق، ثم ارتقاه كما لو كان في حلم. لم يكن الخفير المتمركز عند أعلى درجات السُّلم بصولجانه الغليظ على كتفه ليعره انتباهاً. ساعة العمل أزفت: أحسَّ بأنه لم يضعف أبداً. عَبَرَ الممرَّ بشجاعة، خفيرٌ آخر كان يقوم على حراسة باب حجرة الانتظار. رفع الستارة، وأشار إليه بالدُّخول.

رعشة باردة سرت في صلبه. «بسرعة، بسرعة! ـ ردد كي يتشجّع ـ لنتخلصْ منه بأسرع ما يمكن».

دخل بحذر، وإنما بمنتهى العزم. شفاهه متشنجة.

في هذه اللحظة بالذات، قبضاتٌ رهيبة وقعت عليه، ومن خلف ظهره، شخصٌ ما، حاول تقييد معصميه، لكنه وبحركة قوية أعتق نفسه وسحب سيفه. ضربةٌ على قذاله رمته أرضاً. أحسَّ إثرها، أن شعباً من العمالقة يهصره تحت ثقله. عندما استعاد رشده ألفى يديه وقدميه مُكبلّة بالقيود.

ـ أيُّ ابله أنا! صاح في سورة غضب مفاجئة واهنة.

خرج حسن من غرفته.

ـ نفذنا أمرك يا سيدنا.

ـ حسنٌ، تمركزوا في الممر، وانتظروا.

تأملَّ ابن طاهر الذي كان طريح الأرض مقيداً، ووجه إليه ابتسامة تنم عن لغز كبير.

ـ أيُّها المجرم. يا جلاّد الأبرياء! أما تزال يداك غارقتين بالدماء!

لم يبال حسن بما سمع.

ـ هل نفّذت الأمر؟ سأله بكل بساطة.

ـ لماذا تشغل بالك بذلك، أيها الدّجال؟ أنت أكثر الناس علماً بمدى طيشي...

ـ حسنٌ، كيف أفلحت بالعودة؟

بدرت من ابن طاهر ابتسامة محزنة.

ـ هل هذا يقلقك؟ أنا حي. ولا بدَّ لهذا أن يكفيك... كي أغرز خنجري في أحشائك...

ـ لن يحصل هذا بسهولة، يا بطلي.

ـ أرى ذلك. للمرة الثانية انقاد كأبله.

ـ لماذا. طالما أنت فدائي، فأنت منذور للموت. لقد سمَّيناك شهيداً، وها أنت ذا، عدت لتفسد خططنا. لقد آن الأوان في الحقيقة لإرسالك إلى الفردوس الذي وُعدَ به الشجعان.

ـ هوذا! طالما خُدعتُ بأكاذيبك: فتحت لنا أبواب جنائن ملوك الديلم... كان هذا هو فردوسك، ومن أجل هذا السراب الجميل، أتيت على ذبح رجل: شخصية كانت عزة زمانها!... والذي بما كشفه لي، قد تكرّم وأعادني إلى رشدي... يا لوحشيتك!

ـ هدئ نفسك يا ابن طاهر ربّما تكون البشرية جمعاء تحيا في زيغٍ مشابه لزيغك.

ـ كيف لذلك أن يمضي بشكل مختلف! عندما يبرع باستغلالها هؤلاء الذين وضعتْ فيهم ثقتها؟ نعم لقد كنت أوّل من صدّقك لأنه كان من الممكن أن أتصور كل شيء، أكثر مما أتصور كيف يمكن لرجل مثلك، نصف من يعتنق الإسلام يحسبه نبياً، ألاّ يكون إلا مدعياً ودجالاً! كم أغويتَ وبضراوة مشايعيك المخلصين! كم استغليت إيمانهم في سبيل تحقيق خططك الإجرامية!

ـ هل لديك أيضاً ما ترغب في التعبير عنه؟

ـ لعنة الله عليك.

ابتسم حسن.

ـ ليس في كلماتك هذه ما يخيفني إطلاقاً.

أحسَّ ابن طاهر بقواه تخذله، فأرغم نفسه على شيء من الهدوء:

ـ ستقتلني، أعرف ذلك، إنما أريد أن أطرح عليك سؤالاً قبل ذلك.

ـ إني أصغي إليك.

ـ كيف استطعت أن تتصور خطة بهذه الدُّونيّة... بل وعلى حسابنا أيضاً! نحن الذين نذرنا أنفسنا إليك قلباً وقالباً؟

ـ هل تريد أن تسمع التعليل الحقيقي؟

ـ لا أريد شيئاً سواه.

ـ أصغ إلي إذا... ولتكن هذه آخر فرصة... ما زلت أروي لأنصاري على الدوام باني أتحدر من أصل عربي. أخصامي كانوا يجدُّون لإثبات العكس. يتفق أنهم كانوا مصيبين. إنما لماذا تصرّفت كذلك؟ لأنكم أنتم الإيرانيين تعيبون عرقكم. لأنه لو جاء واحد من أردأ المتسولين من البلاد التي كان يقيم فيها النبي، لبدا لكم من البعيد على أنه الرجل الأكثر نفوذاً بين الرجال. لقد نسيتم أنكم أنسال «رستم وزهراب» ومينو تشرشر، وفردان، وأنكم ورثة ملوك فارس القديمة آل «خسرو، وفرهاد» الأمراء الفارسيون، نسيتم أن لغتكم هي لغة الفردوسي، والأنصاري، والكثير من الشعراء الآخرين، ثم خضعتم إلى دين العرب، ولهيمنتهم الرُّوحية. وها أنتم الآن ترقدون منبطحين أمام الأتراك، سارقي خيولكم القادمة من البيداء! أنتم تتقبلون أن يحكمكم هؤلاء السلاجقة الكلاب، أنتم أبناء زرداشت، أديت في عهد شبابي يميناً قاطعة بحضور صديقيَّ: أحدهما أصبح ذلك الصدر الأعظم الذي قتلته والآخر عمر الخيام، تعاهدنا على

الإطاحة بالسلاجقة الغاصبين وعزمنا على الارتقاء بأنفسنا حتى أعلى مراكز المجتمع.

وأن يساعد كل منا الآخر للمضي في هذه الطريق، إلى أن نصل إلى النفوذ اللازم من أجل تحقيق خطتنا، بحثت عن أداة بين المتحزبين لعلي، والذين كانوا أخصام بغداد، وبالتالي أخصام السلاجقة: وعلى العكس، فإن الصدر الأعظم قد دخل في خدمة هؤلاء الأخيرين، في البداية، فكّرت أن في إقدامه على ذلك وسيلة للتغرير، اختارها من أجل إعلاء شأن عهدنا. عندما أنذرته كي يجيبني، أبدى اندهاشه بأنني ما أزال أتعلق بأفكار صبيانية. وأدخلني إلى البلاط اضطر لأن يفهم أني ما زلت على إخلاصي لقرارنا القديم، عندما أدرك أن نفوذي قد أخذ يتسع أخذ يدبر لي المكائد كي أصل إلى حتفي، صار لزاماً عليّ أن أمضي إلى منفاي، وقد حددوا مبلغ عشرة آلاف قطعة ذهب جائزة لمن يحضر رأسي! هكذا اكتمل حلم شبابي... كان الصدر الأعظم قريباً من مكاسب النفوذ، وقد خضع للغرباء بخساسةٍ. عمر الخيّام كان يتعاطى الخمر، يحب النساء، يعوّل على حريته المفقودة، ويسخر من العالم قاطبةً.

أمّا أنا، فواظبت، لكنَّ هذه التجربة وغيرها أيقظتني تماماً، أدركت أن الشعب كان كسولاً، وغير مبالٍ، ولا يستحقُّ أبداً أن تضحي بنفسك من أجله. استنهضته، ودعوته، دونما جدوى، هل تحسب أن أكثرية الناس الساحقة تنشغل بالحقيقة؟ قطعاً! يريدون راحتهم، وخرافات تشبع معتقداتهم الوهمية. أو هل تفكر أن العدالة تشكل بالنسبة لهم همًّا؟ إنهم يسخرون من ذلك حسبهم أن يرضوا مصالحهم الشخصية. لم أعد أريد أن أنخدع. وبما أن البشرية هكذا، فلنستغل نقاط ضعفها كي نبلغ الهدف السَّامي الذي هو هدفنا، والذي يخدم مصلحتها أيضاً... إنما كم هي عاجزة عن الإدراك! طرقت باب الغباء والسَّذاجة والإنسانية، راهنت على استعداد البشر للمتعة ولشهواتهم الأنانية، ففُتحت لي الأبواب على

مصاريعها، صرت نبياً ذا شعبية. . . هو نفسه الذي أردت الالتحاق به، والذي تتجه العامة إليه الآن، سددتُ سبل العودة إلى الوراء: عليَّ أن أمضي إذاً إلى الأمام دائماً، إلى أن تنهار الإمبراطورية السلجوقية. . . لكنك تجد صعوبةً في فهمي دون شك؟. . .كان ابن طاهر يصغي إليه فاتحاً عينيه المشككتين، كان يتوقع كل شيء، ما عدا أن يرى حسناً يبرر مسلكه، ويبرئ نفسه هكذا! لم يكن هذا قد انتهى من كلامه بعد. . .

ولا تحدثني عن شجاعة رفاقك الفدائيين المزعومة فالستون عاماً التي قضيتها من عمري، عشتها مجازفاً برأسي على الدوام. ولو كنت أعلم أنَّ من الممكن لموتي أن يخلِّص عرش إيران الماجد من الطغاة الأجانب، لما تورّعت من أن اندفع إلى ذلك من دون أن انتظر أي فردوس ثمناً لذلك. إنما أبيت أيضاً أن أغتر:

لم أغفل أنني إذا ما أطحت بالواحد منهم فإنّ آخر كان سيحل محله. . . .

في الواقع، لا أحد في ذلك العهد كان قادراً على الانتفاع من موتي. كان لزاماً عليَّ أن أتصرّف بشكل مغاير: إعداد متطوعين من أجل التضحية العظمى. . . وأن أقطف أنا ثمار تفانينهم. إعداد السواعد المستعدة لاستهداف الرؤوس التي تشغل المناصب الرفيعة، عوضاً عن استهداف رأسي.

أحدٌ لم يكن يريد الإقدام على ذلك بشكل عفوي؟ أحدٌ لم يكن يملك الوعي الكافي بواجبه، ولا فخوراً لدرجة يضحي فيها بنفسه من أجل أهداف سامية إلى هذا الحد؟ لجأت إذن إلى وسيلة أخرى. هذه الوسيلة. . . أنت تعرفها: إنها الفردوس المصطنع، الذي ابتكرته في الجهة الأخرى من الصخرة، مرمِّماً جنائن ملوك الدَّيلم، التي أتيت على ذكرها بشكل صحيح من حيث يبدأ وهم الحياة تنتهي الحقيقة. من الصعب أن أعبّر عن ذلك، أنت لا تزال صغيراً جداً على فهم هذا. لكن ليتك لو كنت

في عمري! كنت سترى عندئذ أن فردوس كل إنسان ليس إلا سراب الرغبة الخاصة. الملذات التي سينعم بها هناك. هي بالنسبة له ملذات حقيقية، لم يعد بحاجة إليها، فلو أنك لم تكشف حيلتي، لكنت متّ سعيداً في هذا اليقين الذي مات فيه يوسف وسليمان.

هزّ ابن طاهر رأسه منذهلاً.

ـ لدى سماعك، تصبح المعرفة هديّة مرعبة...

ـ هل تعلم ماذا يكون الأَعْرَاف؟[1]

ـ لك كل البراهين التي تجعلك تتأكد من أني أعرفه يا سيدنا، إنه الجدار الذي يفصل الفردوس عن الجحيم.

ـ حسنٌ ـ لقد قيل إن هذا الجدار خُصِّصَ لاستقبال هؤلاء الذين قضوا في سبيل قضية عظيمة، إنما رغماً عن إرادة ذويهم، إنهم لا يستطيعون دخول الجنة، لكنهم لا يستحقون جهنم، فنصيبهم هو أن يتأملوا هذا وذاك من الأعلى بغية أن يعلموا! أجل الأعراف هو صورة لوجهة نظر كل هؤلاء الذين تفتحت أبصارهم ولديهم الشجاعة على تطبيق سلوكهم على ما يعلمون!

أنظر! عندما كنت تؤمن، كنت في السَّماء! أمّا وقد ألفيت نفسك تشك فإنك في الجحيم! لا مكان على جدار الأعراف لا للفرح ولا لخيبة الأمل!

الأعراف هو ذلك المكان الذي يتأرجح فيه الخير والشرُّ طويلاً، ووعرة الدرب التي تؤدي إليه ونادراً ما يتجرأ من لمحه على مواصلة المسير حتى نهاية الدرب، لأنَّ هؤلاء المتواجدين في الأعلى، هم الوحيدون المنفصلون عن نظائرهم إلى الأبد، ولكي يبقوا في هذه الارتفاعات عليهم أن يمتنوا قلوبهم... هل فهمت الآن؟

---

(١) يقول الله عز وجل في سورة الأعراف، الآية ٤٨ ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾.

ـ كل هذا فظيع. قال ابن طاهر متنهداً.

ـ ما الذي يبدو لك فظيعاً؟

ـ أن تكون هذه هي المعرفة... وأن تأتي متأخرة جداً. فالآن وبعد سماعك فقط، سأستطيع ربما أن أبدأ الحياة...

أحاطه حسن بابتسامة مشعّة تهللت لها أسارير وجهه. مع ذلك، فإن إحساساً خفياً بالريبة جعل صوت حسن يرتجف عندما جازف بهذا السؤال:

ماذا ستفعل ابتداء من هذه اللحظة ـ إذا ما كان عليك أن «تبدأ» الحياة؟

ـ سأحاول أن أعلم قبل كل شيء... سأبدأ بقراءة ما استطاعت عقول الماضي الكبيرة أن تعرفه قبلي، أريد لو تسنى لي أن أدرس كل العلوم، أن أخترق كل ألغاز الكون والطبيعة. سأرتاد أشهر المدارس، سأنقب في كل المكتبات...

ابتسم حسن.

ـ والحب؟ هل نسيته؟

ـ اكفهر وجه ابن طاهر

ـ سأتحاشى هذا الشر. المرأة عديمة الذمة.

ـ عجباً! عجباً! من أين أتيت بهذه المعرفة العميقة؟

ـ أنتَ تعرف هذا أكثر مني.

ـ أتقصد مريم؟ لتعلم أنها كانت على الدوام تلتمس لك الرحمة. لكم جميعاً! إنها ماتت. قطعت عروقها، دمُها وحياتها تسرَّبا معاً...

ارتجف ابن طاهر: هصرت الكآبة قلبه من جديد... نعم، كان لا يزال يحبُّها!

ـ من يريد أن يرتقي الأعراف عليه أن يكون معلماً في الحب أيضاً.

ـ بإمكاني أن أفهم. . . حتى هذا:

ـ ما رأيك بي الآن؟

ابتسم ابن طاهر.

ـ صِرتَ أكثر قرباً مني. . . قريباً بشكل هائل. . .

ـ لعلَّك تدرك الآن أيضاً، ماذا يعني تطواف العالم مدة أربعين عاماً. في سبيل مشروع كبير أحمله في القلب؟ ماذا يعني العمل خلال عشرين عاماً لنتمكن من تحقيق حلم كبير. حلمٌ كهذا، مشروع كهذا، هما بمثابة أمر صادر من وليّ أمر لا يمكن مسُّه. فالعالم الذي يحيط بنا، هو أشبه ما يكون بجيش عدوٌ يحاصر قلعة، على المرء أن يخرج حيًا أسوار الموقع إن كان يريد أن يكون لهذا الأمر وقعٌ وسط كتائب الجنود العدوة، يجب أن يكون باسلاً ويجب مع ذلك أن ينجو. أن يكون متهوراً وحذراً في الوقت نفسه. هل تدرك ذلك جيداً؟

ـ أكتشف أنك تبرع أيضاً في تفتيح أذهان هؤلاء الذين يصغون إليك. . .

ـ هل لا تزال تظنُّ أنني مجرَّد جانٍ مجرم؟

ـ أنت تعلم جيداً أنه واعتباراً من هذا اليوم. لن يكون لهذه الكلمة أيَّ معنى.

ـ هل تملك الشجاعة من أجل الصُّعود إلى الأعراف؟

ـ لقد عرفتَ كيف ترسخ في ذهني هذه الشهوة، حتى لو لم أكن أملك الحيلة إلى ذلك. . .

مشى حسنٌ باتجاهه، وفكَّ أغلاله.

ـ انهض، أنت حر.

جحظت عينا ابن طاهر.

ـ ماذا تعني؟ إني لم أفهم ـ تمتم.

ـ أنت حر:

ماذا؟ أنا؟ هل نسيت أني جئت كي أقتلك؟

لا وجود لابن طاهر بعد الآن، تستطيع أن تعثر على اسمك الحقيقي: أفاني بدأت بتسلق الأعراف الأخوة لا تؤذي بعضها بعضاً.

أخذ ابن طاهر بالنحيب وارتمى على قدميه.

ـ سامحني! سامحني!...

ـ ارحل بعيداً عن هنا يا بني، تعلم وابحث عن المعرفة، لا تتراجع أمام أي شيء. أمام أي شيء، تخلَّص من كل عداوة، أرجو ألا تستخفَّ بشيء، تفرغ لكل شيء. كن شجاعاً. وعندما تشعر بأن العالم ضاق عليك ارجع! ربَّما أكون قد متُّ، لكنَّ أتباعي المخلصين سيبقون، سيرحبون بك كثيراً. سأحرص على ذلك. اعتباراً من هذه الساعة من حياتك ستصبح على الأعراف.

قبَّل ابن طاهر يده بانفعال، ساعده حسن على النهوض، ونظر مطوَّلاً في أعماق عينيه، ثم احتضنه، وعانقه وهو يخفي دموعه.

ـ يا بني... قلبي الذي هرم يضع فيك كل غبطته. سأعطيك المال. سأحرص بذلك على أن تستطيع أن تُحضِر كل ما ستريد...

كان ابن طاهر مرتبكاً.

ـ هل أستطيع أن أتأمل رياضك لمرة واحدة أيضاً؟

ـ تعالَ معي إلى أعلى هذا البرج.

صعدا إلى الشرفة، كان الروض الفسيح ينشر بهاءه تحت أقدامهما.

تنهد ابن طاهر:

عائق أخير رزح في أعماقه، وضع رأسه على الحاجز وأخذ في نحيب لا ينقطع...

عادا من هناك، أعطى حسن كل الأوامر اللازمة. جمع الفتى حاجياته

دون أن ينسى قصائده: هذه الذكريات كانت غالية عليه كأكثر من صكٍّ تملك. غادر القلعة، مسلحاً جيداً، مزوداً بالمال. يسوق حماراً محملاً بأمتعة كثيرة، كانت الشمس ترخي بكل أشعتها نقل طرفه المذهول على كل ما يحيط به. كان العالم أمامه كمولود جديد. أحسَّ وكأنه يراه للمرة الأولى. كمٌّ هائل من الأسئلة التي تنتظر أجوبة. لقد مات ابن طاهر الفدائي فعلاً، أفاني الفيلسوف بدأ المسير في درب طويلة. . .

عاد حسنٌ إلى ملحقاته بقلب مفعم بإحساسٍ كان حتى ذلك الوقت مجهولاً بالنسبة له.

لحظات، وقد حثَّ داعيي دعاته بالمجيء إلى عنده لاهثين.

ـ ماذا يعني هذا: هل تعلم أن ابن طاهر غادر القلعة؟ شاهدوه جميعاً راحلاً، بدا، وكأنه أهدأ بالاً من كل من عليها. . .

بدا حسن متهيجاً.

ـ أخطأتما، عيونكما ضللتكما ابن طاهر مات. شهيداً في سبيل الإسماعيلية، من رأيتماه هو واحد آخر، فأنا شخصياً لا أعرف شيئاً. . . أجل، ما دمت أحيا. دعوني أسرُّ إليكما بأن شيئاً جيداً حصل لي اليوم، يجب أن أقوله لكما: لديّ من الآن فصاعداً طفل. . .

تفرّس داعيا الدعاة ببعضهما بعضاً، وهما يهزان رأسيهما.

أي تعليق كان دون طائل.

المفرزة التركية التي رافقت ابن طاهر حتى آلموت عادت بالسجين إلى نهاوند، أرسلته السماء. إنه التعس ابن فاكاس. على طول الطريق، كان الجنود يصيخون السَّمع إلى الخنازير ـ أناس المعركة.

كانوا يتوقعون بين لحظة وأخرى نبأ مقتل زعيم الإسماعيليين بدوره! ضاع تعبهم سدى.

ففي نهاوند، لم يجد الملك ابن الصدر الأعظم المتوفى، لم يجدْ شيئاً

يفعله أفضل من الأمر بقطع رأس المسكين ابن فاكاس بمنتهى السرعة على أنه هو من اغتال الصدر الأعظم الماجد. كان في هذا ثأر رخيص لوالده، وتناول الطريق الأسهل من أجل التستر على هروب القاتل الحقيقي المحير أمام الناس.

في هذه الساعة، كان المسافر ابن طاهر، قد غادر أرض إيران، ميمماً شطر الهند: كان لا بدَّ له من الآن فصاعداً من أن يشقَّ دربه الخاص.

الفصل التاسع عشر

ما لبث خبر اغتيال الصدر الأعظم أن انتشر من ناحية إلى ناحية أخرى، يشيعه مبعوثون سريعون، فيبذر القلق على امتداد إمبراطورية السلاجقة الواسعة، مثيراً عدداً لا يحصى من المغبات، وبلبلة ستهز الإسلام بأسره، قلعة «زور غامباداان» مركز المقاومة الإسماعيلية في خوزستان والتي أوشك مدافعوها المستهلكون من الجوع والعطش على الاستسلام أُخليت خلال ليلة واحدة من محاصريها تماماً كآلموت، الصدر الأعظم عدو الإسماعيلية اللدود مات. خلفه ونظيره تاج الملك حسب على أنه صديق حسن كتائب، جنود قزيل سيريق حكمت أيضاً بعدم جدوى متابعة الحصار: إذ تفرّقت بمبادرة منها، حتى قبل أن يتلقى رئيسها أمراً من السلطان أو من الصدر الأعظم الجديد. بعد بضعة أيام ذهل رسول حسن الذي حمل إلى الشيخ ابن أتاش، خلف حسين القيني، الأمر بتسليم قاتل «الداعية» الكبير من إمكانية دخول القلعة بأمان.

في نهار الغد بالذات أحضرت قافلة ذات عدّة حسيناً معها إلى آلموت.

انتهى خبر مصرع الصدر الأعظم أيضاً إلى مسامع ابن السلطان الأكبر الشاب «بارقياروق» الذي كان يحارب آنذاك ضدّ متمردي الجبهة الهندية. تاركاً لأخيه سنجار إمرة الجيش، ومشى إلى أصفهان مع بقية الكتائب، كي يدافع عن حقوقه في الخلافة، ولكي يحبط المشاريع المحتملة لـ «زوجة

أبيه توركان خاتون»[1] صدرها الأعظم تاج الملك المحتملة. لكن لم يفت هذا الأخير أن يغتنم الوقت. عمل من جهته على أن يُطالب بمحمد الأصغر لولاية العرش، والذي كان لا يزال ابن أربعة أعوام، خصم هذا المشروع الأساسي لم يعد على قيد الحياة، والسلطان المتردد لم يكن لديه بعد أحدٌ يؤيد إرادته ضد تطلبات زوجته الطامعة. علاوة على ذلك كان اهتمام السلطان بهذه المشادات أقل ممّا ينبغي.

كان حتى ذلك الحين في بغداد، حيث كانت تقام على شرفه أعظم الأعياد والاحتفالات الرسمية، إضافة إلى رجال الخليفة، تلقّى ولاء العديد من الملوك والأمراء، والشخصيات الكبيرة التابعة له، في كل نواحي الإمبراطورية. كان في أوج مجده ونفوذه.

موت ذاك الذي كان مستشاره المخلص طيلة سنوات عديدة، لم يكدر شعوره بالعظمة كثيراً. لم يعد يشتهي شيئاً بعد. كان سعيداً بشكل عام...

لم يلبث خبر تفرق جيوش السلطان أمام آلموت، وزور غامباذان أن لفت انتباه تاج الملك الذي بات صاحياً لخطر حليفه القديم حسن، الذي شاع خبره في البلاد. الآن وقد صار خلفاً لنظام الملك، بقدر ما هو يحكم الإمبراطورية، فقد شعر بنفسه مسؤولاً كلياً عن أمن وسلامة رعاياه. والأمر الصارم الذي أصدره السلطان إليه، بأن يقدم على فعل شرس ضد الإسماعيليين جاء في الوقت المحدد، عزل في الحال الأميرين أرسلان تاش وقيزيل سريق وعين مكانهما ضابطين تركيين شابين وحازمين، مع مهمة تجميع وإعادة تنظيم فرق الجنود المتفرقة وإرسال حملة هجومية جديدة ضد آلموت وزور غامباذان.

هذه الأسابيع الأخيرة كانت مضطربة جداً، استخلص حسن وهو يتوجه إلى داعيي دعاته، نحن بحاجة إلى قليل من الراحة كي نستعد للمعارك اللاحقة.

---

(١) خاتون: سيدة، أميرة.

لا بدّ لنا أيضاً من ردم الثغور التي انكشفت في صرحنا، لنحاول بالتالي أن نبرم سلماً مشرّفاً مع السلطان.

عُيَن الفدائي «خلف» لنقل الشروط المكتوبة التي اعتمد على تسليمها إلى السلطان في بغداد مكان إقامته في بغداد. قدّم له حسن الاقتراح التالي: أن يعيد إلى الإسماعيليين القلاع والحصون التي كانوا يملكونها قبل الحملة التي شنت ضدهم بتوجيه من الصدر الأعظم تعويضاً عن القلاع التي تهدَّمت، على السلطان أن يدفع تعويضاً عن القلاع التي تهدمت. في المقابل فإن حسناً يلتزم بأن يكفّ عن الاستيلاء على مواقع جديدة.

في الوقت نفسه فهو مستعد لحماية جبهات الشمال كلها من غارات البربر، إنّما على السلطان أن يدفع له نفقة الجيش الذي وضعه طواعية تحت تصرفه ومقدارها خمسين ألف قطعة ذهبًا كل عام. لم يستطع حسنٌ أن يتمالك نفسه عن الابتسام. وهو يضع ختمه على الرسالة. كان يشعر فعلاً بأن عروضه كانت بمثابة تحدٍ حقيقي.

كان متلهفاً لأن يعرف كيف سيستقبل السلطان ذلك. لأن ما كان يتطلبه في النهاية من سلطان إيران المبجّل لم يكن بالفعل إلا ضريبة سنوية!

على الرغم من صفته مبعوثًا مأذونًا له، إلاّ أن رجال شرطة السلطان أوقفوه في همذان وقادوه إلى بغداد، أقدامه مكبلة بالأغلال. حمل قائد حرس الجيش الرسالة إلى السلطان المحتفى به. فضّ السلطان الختم وقرأ بلهفة، امتقع وجهه، وأخذت شفتاه ترتجفان.

ـ أنت تتجرأ، في هذه الأيام المشهودة أن تمدَّ لي، بهذا الكلام الفظّ! صرخ على مسمع الضابط المسكين.

انبطح قائد الحرس أمامه، وأخذ يستجدي لطفه.

ـ إقرأ إذن! قال السلطان منددأ.

صرف كل من في بلاطه، وافلت العنان لغضبه، اقتلع ستائر النوافذ،

سجاد الجدران، هشّم كل ما يمكن له أن يتهشم، استرخى على الأرائك، منهكاً وقد غصّ مختنقاً.

ـ أحضروا لي المجرم ـ قال آمراً بصوت أجش.

ـ أحضر ـ خلف ـ مقيداً، أشبه بالميت منه إلى الحي.

ـ من تكون؟

أخذ السجين يتلعثم.

ـ قلت فدائي؟ يعني: مجرم محترف!

وثب قباله ذاك، الذي لا حيلة له ولا حول، استعر غضبه إلى حد الجنون ثم سحب سيفه، وضرب المبعوث التعس فأرداه قتيلاً. فجأة همد هذا الهيجان العنيف مثلما بدأ.

استعاد الأمير رشده، لدى رؤيته الجثة أمامه. فسأل أمين سره الخاص وقائد الحرس بهدوء: بماذا ينصحانه أن يجيب على تحدي حسن المشين؟

ـ أن يعزز جلالته مواقعه الحربية ضد الإسماعيليين.

ـ أشار القائد.

إنما يجب أيضاً، أن يردَّ على الشتيمة قال ـ أمين السر ـ اسمح لي أن أحرر جواباً باسم جلالتك.

قرروا إرسال مبعوث إلى آلموت. في الرسالة خاطب أمين السر حسناً على أنه سفاح، خائن لوطنه، ومرتزق خليفة القاهرة طلب منه أن يخلي حالاً الحصون التي استولى عليها بشكل غير شرعي. وإلاّ فلن يبقى منها حجر على حجر. وَلَسَوْفَ يبيدون الإسماعيليين في أماكنهم مع نسائهم وأطفالهم المباغتين عن بكرة أبيهم ومن ناحيته هو بالذات، فسيحكم عليه بأقصى عقوبة. كان هذا هو الجواب الذي أعده له سموه.

ضابط شاب يدعى «خلف» من غزنه عُين كمبعوث. امتطى حصانه، وبعد مضي ستة أيام على انطلاقه من المركز، مثل أمام باب آلموت.

احتجزه مينو تشرشر في برجه، وراح يحمل الرسالة إلى أبي عليّ، الذي سلمها إلى حسن، قرأها ثم أراها بكل هدوء إلى داعي دعاته. نادى «بوزروق أوميد أيضاً ولخص الموقف.

نشوان يغمض عينيه السلطان على الخطر الذي يحيق به. إنه لا يريد أن يفهمنا. بئس المصير بالنسبة له.

أمر بتقييد المبعوث الذي أرسلوه إليه مكبلاً بالأصفاد.

في البداية رفض خلف أن يستسلم للقيد.

ـ هذه جريمة! صرخ أنا مبعوث جلالته، سلطان الإمبراطورية وشاه إيران! فإنكم إذ تقيدونني تشينون بذلك إليه.

لا شيء يجدي. يجب أن يمثل أمام الزعيم الأعلى وهو موثق بالأغلال.

ـ إني أحتج بإصرار على هكذا معاملة، بدأ قوله عندما وصل إلى غرفة الانتظار حيث كان الزعماء بانتظاره.

ـ أين مبعوثي؟ سأل حسن ببرود.

ـ أولاً... حاول أن يتابع خلف.

لكن السخط لم يكن قد احتدم بعد.

ـ أين مبعوثي؟ عينا حسن كانت ثاقبتين وهو ينظر في عيني الضابط. كان صوته أجش وآمراً. خفض خلف أنظاره بشكل تلقائي، وصمت.

ـ هل صرت أخرس؟ انتظر قليلاً سأريك في الحال وسيلة تحلُّ عقدة لسانك.

أمر الخصيَّ بالذهاب لإحضار الجلاد ورجاله، هكذا هي أساليب التعذيب ثم التفت نحو داعيي الدعاة، وتابع محادثته معهما دون تكلف حاول خلف أن يستأنف الحديث خجلاً:

ـ لقد أتيت باسم جلالته، لم أقدم إلاّ على تنفيذ أمره...

لم يولِ حسن لحديثه أي اهتمام. حتى أنه لم ينظر إليه. بالإضافة إلى أنّ الجلاّد، قد حضر يواكبه مساعداه الاثنان. كان الثلاثة عمالقة حقيقيين شرعوا فوراً في إعداد منصة التعذيب، وهم ينفخون جذوة يحيط بها نوع من فرن صغير من الحجارة. أدوات معدنية وضعت في صندوق، تخشّ بطريقة مرعبة طرحوها على الأرض في زاوية من الحجرة. كان العرق ينضح من جبين المبعوث الذي كان يبلع لعابه بصعوبة.

ـ كيف لي أن أعرف إلى ما آل إليه مبعوثك؟ قال بصوت مرتجف كل ما في الأمر أنني تلقيت أمراً، وأنا أنفذه.

أدار له حسن أذنه الصماء. والجلاّد حينئذ انتهى من إعداد تلك الأدوات.

ـ كل شيء جاهز سيدنا.

ـ ابدأ بلدعه قليلاً.

تناول الجلاد مسلّة من الحديد وأخذ يُحميها على النار.

ـ سأقول كل ما أعرفه! صرخ خلف.

لم يتذمر حسن هذه المرة أيضاً. بلغت الحرارة في رأس المسلة إلى أن أبيضّ.

سحبها الجلاد من النار، واقترب من السجين، عندما لمح هذا الرأس الحامي أوشك على الاختناق.

ـ سيدي! عفوك! عفوك!... السلطان شخصياً هو من قتل رسولك بطعنات سيفه.

التفت حسن نحوه وأوحى إلى الجلاّد بالتعذيب.

ـ موهبة الكلام عاودتك إذاً؟ هكذا إذاً، قتل السلطان رسولي بيده؟

الرديء، الرديء...

كان يتساءل عن أفضل وسيلة يُرهب بها السلطان. وبينما كان يتفرّس مبعوثه لمعت في رأسه خطة.

ـ اذهب واحضر الطبيب! أمر الخصيّ.

ارتجف خلف تكهّن بأنه لا يمكن للحكم الجديد أن ينطوي على شيء حسن بالنسبة له. في غضون ذلك، أشار حسن إلى داعيي الدعاة أن يتبعاه إلى غرفته.

ـ إننا لا نستطيع أن نعرض أنفسنا لبذخ الانتظار ستة اشهر أخرى.ـ قال لهم ـ علينا أن نبيد العدو من الآن إن كنا لا نريد أن يسبقنا إلى ذلك، من الأجدر ألا ننخدع. فالسلطان سيحشد كل قواته كي يبيدنا.

لكنه أغفل أن يحدِّد بوضوح ما كان ينوي القيام به بالنسبة للخطة الحالية.

جاء الخصيُّ ليعلن قدوم الحكيم.

ـ ليدخل! قال حسن.

ـ اقتحم الإغريقي الغرفة. وانحنى ببالغ الاحترام.

ـ هل لمحت سجيننا؟ سأل حسن.

ـ أجل! لا يزال ينتظر في غرفة الإنتظار.

ـ ارجع إليه أريد أن تفحص شخصيته.

امتثل الإغريقي، ولم يظهر إلاً بعد دقائق.

ـ هل تجد بين فدائيينا من يشابهه؟ سأل حسن.

نظر إليه الطبيب بعينين محملقتين.

ـ لم أفهم ما تقصده يا سيدنا. من حيث الوجه، فهو هناك شيء من الالتباس بينه وبين المرحوم عبيدة.

بدت من حسن تكشيرة توحي بالضجر.

ـ أو. . .قوامه قريب من قوام خلف الذي أرسلته لا أعرف أين منذ أسبوعين. . .أليس كذلك؟

لا؟ ربّما يشابه عفّان؟ لا، فعلاً أنا لا أعرف... ساقاه متقوستان كساقي جعفر... هل تظن هذا؟

فجأة تصبب العرق من جبين الإغريقي. ممّا أثار ضحك حسن.

- أنت طبيب ومجمِّل ماهر. هل يكون بإمكانك أن... تجعل من جعفر شيئاً من هذا الرجل؟

استنار وجه الطبيب.

- هذا الفن يعنيني. إنه من فنون بلادنا.

- أترى أترى، لقد تفاهمنا.

- ظننت في البداية أنك تمزح يا سيدنا... الرجل الذي ينتظر هناك في الخارج، له لحية قصيرة ومجعدة وأنف منحن قليلاً، ووجه فيه ندباتٌ. كما لو أنّ كل هذا قد سُوي من أجل تحويله إلى شخص آخر.

لكن عليك أن تمهلني إلى أن يقع هذا النموذج مع الزمن تحت عيني خلال عملي.

- حسنٌ، لكن هل تستطيع أن تؤكد لي أن الشبه سيكون مدهشاً؟

- لن يكون أقلَّ من تشابه بيضة مع بيضة أخرى...

دعْ لي الوقت فقط لإعداد كل ما سأكون بحاجة إليه من أجل ذلك.

- ليكن. إجرِ سريعاً إلى استعداداتك.

انصرف الطبيب وحسن قام باستدعاء جعفر. عندما مثل هذا أمامه صارحه:

- عيَّنتكَ لمهمة عظيمة، ما أن تنفذها حتى يحفر الاسماعيليون اسمك على النجوم، وأبواب الفردوس ستفتح أمامك على مصراعيها.

تذكر جعفر ابن طاهر، فهم لا يزالون يبجلونه كشهيد، على الرغم من أنه رآه بأم عينه عائداً إلى آلموت مشعاً بالسعادة وعلى الرغم من أنه قد أعاد إلى الشاب البطل البكرة التي كان قد عهد إليه بها قبل رحيله إلى

نهاوند. إن وراء هذا الظهور، وهذا الاختفاء سرٌ لا يمكن لإدراكه أن يبلغه.

ـ بأمرك، سيدنا.

أشع وجهه باعتزاز...

كان خلف يتساءل طوال ذلك الوقت عن مصيره، يزيد الشك من خوفه. على بضع خطوات كان الجلاّد يستعرض ذراعيه المفتولتين، ويوجه إليه ابتسامات ساخرة. مساعداه يضرمان النار بانتظام، ومن وقت إلى آخر يلقيان بنظرات متوعدة على أدواتهم، ولا يتوانيان عن تحري انتظام عمل منصة التعذيب. أخيراً عبر الطبيب الغرفة من جديد يحمل هو أيضاً أدواتٍ غير مطمئنة.

كان حسن في الحجرة المجاورة يعطي إلى جعفر تعليمات دقيقة:

ـ ستبدأ بمراقبة السجين المقيم في غرفة الانتظار جيداً، عليك أن تتذكر كل حركة من حركاته، طريقته في الحديث، وفي التعبير عن نفسه. أخيراً عليك أن تنقش في ذاكرتك كل ما ستسمعه يقول أثناء الاستجواب الذي ستحضره انتبه لئلا تدع شيئاً يفوتك!

سيتوجب عليك وبسرعة أن تكون قادراً على تقليده بشكل فائق: بحيث إن كل من سيرونك سيقتنعون بأنك هو من يمتّ لهم بصلة! تحول حقيقي، إن صح القول!

التحقوا بالسجين في غرفة الانتظار، أشار حسن إلى الجلاّد أن يأخذ وضعية الاستعداد، ثم سأل السجين:

ـ ماذا تدعى ومن أين أتيت؟

حاول السجين أن يتملّص.

ـ أنا مبعوث جلالته.

صرخ حسن:

ـ يا جلاّد، جهّز وسائلك!... من ناحيتك، فإني أنذرك بالإجابة الصحيحة على كل أسئلتي، لتعلم قبل كل شيء إني أنوي ان أُبقيك في آلموت ردحاً من الوقت ولو بدا واحد من اعترافاتك خاطئاً فلسوف أقوم بتقطيعك في أسفل الساحة. أنت تعرف الآن سبب احتجازك. تكلم!

ـ اسمي خلف بنُ عمر يعود نسب أسرتي إلى غزنة!

ولِدْتُ وقضيت فيها شبابي.

ـ تذكر، يا جعفر!... كم عمرك ومنذ متى دخلت جيش السلطان؟

ـ عمري سبعة وعشرون عاماً. أخدم في الجيش منذ كنت في السادسة عشرة.

ـ كيف دخلت الجيش؟

عمي عتام بن حسين والذي يشغل منصب قائد الحرس، زكّاني عند سموه.

ـ اذكر لنا سجل أعمالك في الخدمة.

ـ خدمت أولاً في بلاط أصفهان. بعد ذلك رافقت سموه عبر كل البلاد بصفة مبعوث.

ذكر أسماء المدن التي عبرها. حيث أقام فيها بعضاً من الوقت، ثم الطرق التي سلكها. في نهاية الاستجواب. أخبرهم بأن لديه زوجتين وولداً من كل واحدة منهما. كان حسن يلح دائماً على أبسط التفاصيل سأله أيضاً عن رؤسائه، عن عاداتهم، مهنتهم، ثم عن رفاقه، عن ساعات خدمتهم، عن كيفية استثمارهم للوقت، كان الرجل يصف علاقته الاجتماعية هذه وتلك، وروى بالتفصيل كيف كانت تجري تحقيقاته مع السلطان، ولا سيَّما الأخيرة. ثم حدَّد أخيراً مقرّات مراكز أصفهان وبغداد، إعدادها، الاحتياطات التي يجب اتخاذها من أجل الوصول إلى ملحقات السلطان، عن أشكال المراسم... كان لا بدَّ لجعفر وخلال قليل من الوقت من أن

يغرس في مداركه شكل عالم جديد بالنسبة إليه. وصار عليه الآن أن يؤقلم فكره بحيث يشعر بأنه في غاية الارتياح.

وفي الختام طلب حسن من السجين أن يذكر كل محطات السفر نحو آلموت. وأيضاً اسم وموقع كل مركز. ثم أمر الجلاد بفك أغلال الرجل كي يقدر على خلع ملابسه.

ما لبث خلف أن عبَّر عن رعبه:

ـ ماذا يعني هذا، أيها السيد؟

ـ هيا بسرعة! بلا مراوغة! لا تجبرني على استخدام وسائل أخرى. انزع عمامتك أيضاً.

ـ لا، إلاّ هذا، لا تفضحني هكذا ـ أنَّ الآخر.

بإشارة من حسن، قبض عليه الجلاد من عنقه بيد قوية، وحمل مساعده المسلَّة المحماة حتى الإبيضاض، وقربها المنفذ من صدر السجين العاري. قبل أن يلامس الحديد الجلد أخذ الجلد ينشُّ ويشيط.

أطلق السجين صرخة متوحشة.

ـ اعملوا بي كما تريدون، إنمَّا لا تكووني!

عروه تماماً. ثم قيدوا يديه إلى خلف ظهره من جديد.

كان جعفر يشاهد المنظر دون أن يقطب حاجبيه. لقد تعلم في آلموت فنَّ السيطرة على العواطف خاصة، فإن المهمة الموكلة إليه أثارت في سرِّه الكبرياء أخيراً.

ـ جاء دورك الآن، لترينا مهاراتك. قال حسن متوجهاً إلى الحكيم... قل لنا أيها السجين أين أصبت بهذه الجراح؟

حكى وهو لا يزال يرتجف من الخوف، بأن مشادة نشبت بينه وبين خصي عند السلطان. خلال هذا الوقت، أعدَّ الطبيب شفرة صقيلة وحادة، ومسلَّة طويلة، وسوائل مختلفة، ومراهم، ثم دعا جعفراً إلى خلع ملابسه

حتى خصره. وشمر عن أكمامه على طريقة الخبير، ثم كلّف أحد مساعدي الجلاد أن يقوم بمعاينة حقيبته التي كانت مجهزة بأدوات غريبة للغاية، ثم شرع بالعمل.

بدأ بوضع المرهم على المنطقة المعينة من جلد الفتى، رسم عليها بعد ذلك شكل الجرح والندبات، ثم طلب من الآخر أن يحمي الشفرة والمسلّة في النار بهذه الأدوات، أخذ يمرُّ على الجرح حازًّا، واخزاً الجلد بلطف، كان جعفر يقلّص شفتيه، وشوهد أحياناً يمتقع من الألم، إنما في كل مرة، كان نظر حسن يتقاطع فيها مع نظره، كان الولد يهديه أحلى ابتسامة، ويعتذر مصرِّحاً أن لا أهمية لكل ذلك. شيئاً فشيئاً، بدأ خلف يفهم ما ينوي عليه ربُّ هذا البيت. أخذ يضطرب لذلك في قرارة نفسه. لو نجح هذا التحويل في النهاية لامتلك هذا الإسماعيلي كل فرص النيل من السلطان شخصياً. فاغتيال الصدر الأعظم يؤكد ما كان يمكن له أن يحصل في ما بعد. «اللعنة ستقع عليَّ. لأنني أنا من سيمهد لهذه جريمة!» كان المبعوث المخلص يحدث نفسه:

«أكبت خوفك! أهاب له صوت. قم بواجبك تجاه سيِّدك السلطان!».

كانت ساقاه متحررتين. انتظر اللحظة التي يغرز فيها الطبيب الشفرة في وجنة جعفر كي يقفز ويوجه له ضربة قوية في بطنه، وبجرَّة واحدة فإن الإغريقي قد شطب بشفرته وجه جعفر حتى وسطه. بلحظة غمر الدم وجهه.

جلبة قوية نتجت عن ذلك، ترنح الطبيب ووقع من طوله أرضاً. فقد خلف توازنه وقد اصطدم فمه بمرفق الطبيب، الذي أطبق عليه بأسنانه، ممَّا جعل ضحيته يطلق صرخة بأعلى صوته، بذل أبو علي وجعفر والجلادون كل ما بوسعهم للتدخل. لكن المسعور لم يفلته إلا بعد أن خطر ببال أحد مساعدي الجلاَّد أن يغرس رأس مسلته الحامية في ظهره

وصراخ جديد أعقب ذلك. لقد انهار الموفد الشجاع وهو يحاول دون جدوى وضع يده على المكان المجروح.

ـ إلى التعذيب. جزم حسن بحدة.

قاوم خلف بكل ما أوتي من قوة، لكنَّ قبضات حديد قهرته إثر ذلك. لحظات قليلة كانت كافية لربطه إلى منصة التعذيب.

تمالك الإغريقي نفسه، وأخذ يتأوه وهو يغتسل، ويدلك نفسه بالمرهم، ويضمد جراحه أثناء ذلك كان جعفر مضرَّجاً بالدم، ينتظر بهدوء، أن يعود الطبيب بكل رضى إلى متابعة تعديلاته.

ـ أفسد عليَّ الوغد كل شيء! قال الحكيم متذمراً وهو يتفحص الضرر عن كثب. ماذا سأفعل حيال هذا الجرح الكبير وسط وجهه؟

ـ ابدأ بغسل الجرح ـ نصحه حسن ـ سنرى بعد ذلك ما ينبغي فعله بشأن ذلك الوغد.

ثم قال متوجهاً إلى الجلاد:

ـ انجز مهمتك. وعندما يفقد وعيه، سيكون في الإمكان الإفادة منه.

أخذت الآلة تمدِّدُ أعضاء السجين وأخذت المفاصل تطقطق. أطلق خلف صرخات مرعبة.

امتقع الحكيم، كان حقاً جرَّاح عصره. لكنه لم يسمع من قبل إطلاقَ صرخات بهيمية بهذا الشكل.

أسرع في غسل جرح جعفر. كان حسن يراقب العمل. عندما جاءته هذه الفكرة:

ـ جعفر! لن يكون عليك، إلاَّ أن تقول أن زعيم الإسماعيليين نفسه، هو من جرحك هذا الجرح... أنت رسول سموه، فلشدَّ ما أثارت الرسالة سخطه! ضربك بسيفه. هل فهمتني؟

ـ فهمت، سيدنا.

ـ هيَّا، أيها الطبيب. أكمل عملك!

أطلق خلف في البداية أنواعاً من الزئير المتقطع. . . ثم تلاشت صرخاته خلف صرخة واحدة، لم تتوقف إلاَّ بعد وقت يسير.

أوقف الجلاد حينئذ عمل آلاته الحامية كنار جهنم، والسجين فاقد وعيه.

ـ حسنٌ، ـ قال حسن ـ إنهِ عملك بدوننا.

غادر الحجرة، وراح مع داعيي دعاته إلى قمة البرج. في ذلك الوقت، كان الحكيم الإغريقي وبيد رشيقة يحول جعفر إلى خلف رسول جلالته. بعد بضع ساعات، اقتيد الفدائي الذي تغير شكله والذي ألبس ثياب السجين أمام الزعيم الأعلى، ارتعش حسنٌ رغماً عنه، فالتشابه كان مذهلاً. حتى نمط حلاقة ذقنه وشاربيه، حتى الندبة في وجهه، حتى أنفه المعقوف. . . حتى هذه الدرنة خلف أذنه! شيء جديد في هذا الوجه الذي نسخ عن وجه آخر بأمانة، جرح كبير طريٌ محفور على كامل خدّه.

ـ من أنت؟

ـ أنا خلف بن عمر أسرتي ترجع في نسبها إلى غزنه. . .

ـ حسناً، هل تذكر الباقي أيضاً؟

ـ تماماً، يا سيدنا.

ـ والآن إصغ جيداً. ستمتطي حصاناً، وستنطلق هذا اليوم بالذات إلى بغداد عبر الطريق الذي سلكه هذا المبعوث حتى وصل إلينا، ستحمل إلى سموّه جواب زعيم آلموت شفوياً. أنت تعرف النزل والمحطات. لا تكن أعمى أو أصمَّ، حاول أن تعرف بالصدفة وأنت في الطريق، إن كان السلطان قد مضى إلى هناك، اطلب مقابلته بأي ثمن كان، لا تدع عزيمتك تتثبط، إنك لن تستطيع تسليم جوابي إلاَّ إلى السلطان شخصياً. إحرص بثبات على هذا التأكيد. إروِ أثناء مرورك عن سوء الاستقبال الذي لقيته في

آلموت. هل فهمتني؟... خذ، هذه بضع حباتٍ مخدرة، هل تعرف استعمالها؟ إحملها من أجل الطريق: تناول واحدة كل ليلة، إنَّما لا بد من أن تحتفظ بواحدة، من أجل اللحظة التي ستمثل فيها أمام السلطان، هذا نوع من السمِّ أيضاً. احفظه في مأمن، وفي عناية فائقة، لأن أصغر خدش تسببه شفرة طُليت بهذه المادة يعني الموت! أنت تعلم ما بقي عليك أن تفعله، عندما ستصبح أمام السلطان. كي تستحقَّ الفردوس، والمجد الخالد على هذه الأرض وبين الإسماعيليين. هل كل شيء يبدو لك واضحاً.

ـ نعم يا سيدنا.

كان وجه جعفر يتقد حماسة.

ـ هل إيمانك راسخ؟

ـ نعم سيدنا.

ـ وعزمك؟

ـ ثابت.

ـ وضعت فيك ثقتي، أنا أعلم أنك لن تخيِّبني. خذ هذه الصرة الصغيرة، من أجل الطريق أمنحك بركتي. لتتكلَّلْ بالمجد، الذي سيتدفق على كل الإسماعيليين!

على هذا صرفه.

بعد بضع ساعات. خنجر حيٍّ غادر آلموت.

كان حسن يتجول في الرياض، فمنذ أن فارقت مريم وحليمة الحياة بشكل يدعو إلى الأسى، عمَّ الذُّعر بين سكان هذا المكان الساحر، لم يكن تأثير هذا الذعر على البنات فقط، إنمَّا كان يتقاسمه معهن الخصيان وحتى أباما.

دُفنت مريم تحت مرجة خضراء وسط غيضة من السَّرو. غرست الصبايا

الزنابق، والنرجس، والبنفسج، والزُّغَدَ على قبرها. نحتت فاطمة على قطعة من الصخر شكل امرأة نائحة، لكنها لم تتجرأ على كتابة أي شيء عليها، ووضعتها بجانب القبر، ثم نصبت على ربوة مزهرة بالجوري غزالة نحتت من الحجر، ذلك كان الصرح الساذج الذي شيدنه إكراماً لذكرى تلك الصغيرة حليمة.

كن يزرن هذا المكان كل صباح، ويبكين صديقتيهن الفقيدتين.

منذ ذلك الحين، أوكلت مهمة مريم إلى فاطمة. لكن لم تكن بينها وبين حسن أية علاقة، إلاّ بواسطة أباما. ممّا أخرس لديهن كل مشادة. فضلاً عن ذلك، فإن أبّاما، كانت تحيا حياة وحدة كاملة. كنَّ يلمحنها أحياناً تتجول بمحاذاة الممرات، وهي تخبط بيديها، وتتحدث بصوت عالٍ، تكلم نفسها وكأنها برفقة شخص غير مرئي. ربَّما كان للواحدة منهن أن تسمح لنفسها بالابتسام، إنَّما كنَّ جميعهن يعدن إلى خوفهن القديم، عندما كانت تظهر أمامهن هذه المرأة المسنة الشرسة. مهارتها في تبديد نتائج غرام زائري الليل كانت باهرةً لدرجة تثير العجب.

كانت ليلى وزليخة وسارة يشعرن بأن حياة جديدة تتفتح في داخلهنَّ. ويعشن في انتظار ممض وجميل. لكنَّ أكثرهم حماسة كانت جوفيره لرؤية الحدائق آهلة بالناس.

وعوضاً عن المتواريتين، فقد أرسل حسن لهن، صديقتين جديدتين. وعلى وداعتهما وتواضعهما، فإنهما لم تجدا إلاّ قليلاً من التغيير في هذه الحياة الرتيبة.

ـ ها هما الخريف والشتاء، قد أوشكا على الحلول ـ فكَّر ـ حسن وهو يتنزه بصحبة أباما في ركن مقفر من المتنزه.

ـ علينا أن نستغل هذه الأمسيات الجميلة الأخيرة. إني أنوي إرسال بعض الشبان الجدد إلى الرياض. لأن المطر يقتربُ ويقترب معه البرد والثلج. وعندها وداعاً لمباهج الفردوس!

ـ ماذا على الفتيات أن يفعلن الآن؟

ـ لديك ما يكفي من صوف الغنم والجمال، ومن الحرير أيضاً، ليغزلن، وليحكن، وليخطن. ليمارسن كل الفنون التي تعجبهنَّ. آلموت بحاجة إلى كل شيء!

ـ وماذا بشأن المدرسة؟

ـ هل لا زلت تستطيعين أن تعلميهن بعض الشيء؟

ـ لا شيء سوى فن الحب، وهذا الذي لا يستطعن تعلمه أبداً.

لم يسبق لحسن أن ضحك هكذا، من كل قلبه، منذ أمدٍ بعيد.

ـ حسنٌ، هذا يكفي من أجل اللحظة. انظري إني لا أختلف عنك في شيء، ليس لدي شخص أورثه علمي.

ـ لديك ولد.

ـ نعم إني أنتظر أن يحضروه لي إلى القلعة بين يوم وآخر، إني أفكر بقطع رأسه.

رمقته أباما بنظرة عتاب مستنكرة.

ـ أهذه واحدة من «مزاحاتك»؟

ـ لماذا أمزح؟ هل يستحق هذا الوغد الذي اغتال ألمع حلفائي شيئاً غير ذلك؟

ـ لكنه ابنك.

ـ ابني! ماذا يعني ذلك. سأقول لك بالرغم من أنك تعلمين حذري، ربما يكون ثمرة جسدي، إنما لن يكون أبداً ثمرة روحي!... إذا أردنا أن نتكلم بشكل موزون، يجب أن يكون لدي فعلاً من أوصي له بإرثي... وهذا الشخص وفي هذه اللحظة بعيد جداً من هنا، إنه يطوف العالم فعلاً، ولا أعرف أين... ومن الممكن لاسمه ألاّ يكون معروفاً من قبلك. إني أقصد ابن طاهر.

ـ ماذا قلت؟ ابن طاهر؟ أفلم يمتْ؟ أليس هو من قتل الصدر الأعظم؟

ـ نعم قتله، ومع ذلك نجا من الموت. . .

روى لها، عن آخر محادثة له مع الفتى. وأصيبت المرأة العجوز بدهشة عجيبة.

ـ وأنت يا حسن! تركته يرحل؟

ـ نعم.

ـ هذا مستحيل.

ـ لو كنت تعرفينني حق المعرفة، لكنت فهمت. إنه أصبح واحداً من بيننا. ابني، أخي الأصغر. في كل مساء أستعرض في تفكيري مسلكه، فأرى فيه شبابي. إني ألاحقه بروحي، وأرى عيونه تنفتحان على المعرفة. أرى كيف يكوّن لنفسه تصوراً عن العالم، الذي يُطبع به. كم أشعر بانشداد نحوه!

هزَّت أباما رأسها. واكتشفت حسناً جديداً بالنسبة لها.

فكَّرت وهي تغادره:

«لا بد أنه يشعر بنفسه وحيداً حتى يتعلق بكائن هكذا تعلق! إنما أليس هو في داخله ككل الآباء: يَخفي طيبته تحت قناع الهيبة المألوف؟»

في اليوم التالي، قافلة من زورغامباداان، كانت تقلُّ إلى آلموت المسمَّى: حُسَيْن الابن الشائن، مكبلاً بالقيود. كل الحامية تسارعت إلى البلاط لترى قاتل داعيتي خوزستان بأم عينيها.

أطرق حسين رأسه في الأرض، وهو مقيدٌ بأغلال ثقيلة، ينظر إلى قدميه بكآبة.

كان أطول قامة من أبيه، لكنَّ من ينظر إلى وجهه، يرى فيه قسمات أبيه، لكن مسحة من الهجمية، بل من التوحش تظهر عليها وتشوهها.

بين وقت وآخر، كان يسترق النظر إلى هؤلاء الذين كانوا يحيطون به.

ومن كانت عيناه تلتقي به، كان يشعر بقشعريرة تسري في ظهره، إذ كان يتولد لديه انطباع مفاجئ بأنه يمثل أمام أصهب، وأصهب بات مسعوراً، كونه مأسوراً.

استقبله مينو تشرشر كسجين عادي.

- قدني حالاً إلى أبي!

تظاهر الجندي العجوز بعدم سماعه.

- أبونا! خذ ستة رجال معك، وألقوا بهذا الرجل داخل زنزانة!

أزبد حسين من شدة الغضب.

- أفلم تلتقط أذنك ما قلته لك لتوي؟

أدار له مينو تشرشر ظهره. سمع صرير أسنان الآخر، حاول أن يرفس على الرغم من كل قيوده، مستعملاً في ذلك كل ما أوتي به من عنف. التفت الضابط، وصفعه على وجهه. فأطلق الولد صرخة بهيمية...

- لتعلم لو أني كنت حراً، لتلذذت بانتزاع أحشائك يا كلب يا ابن الكلب!

قبض عليه أبونا، وجرّه رجاله إلى داخل قبو برج الحراسة، حيث هناك زنزانات الموت الأكثر رعباً. دفع به بوحشية داخل واحدة من هذه الخلوات الانفرادية، تعثَّر السجين ووقع، ارتطم وجهه بالأرض.

- انتظروا قليلاً، حالما استعيد حريتي سأسلخ جلودكم ككلاب جربة!

لكنَّ الباب الثقيل الذي أرتج خلفه، خنق صرخته.

منذ شهرين، وهو مكبل بالحديد، كقط بري وقع في الفخ، مستعد للعض، كان يكره العالم قاطبة لم يبالغ بمشاعره عندما يزعق بأن سيخنق أول واحد يقع تحت يديه حالما يصير حراً، إنه لم يندم على قتل حسين القيني ولم يكن يهتز أيضاً من أجل مصيره أو حياته.

منذ نعومة أظفاره، كان يمثل الرعب بالنسبة لحاشيته، لم يكن يقبل بأية

سلطة، والغضب كان يدفعه، إلى أكثر أنواع العنف سوءاً كان حسن قد تخلى عنه زمناً طويلاً. رزق به من زوجته الأولى، التي ربته كيفما اتفق، في بيت أهلها في فيروز كوه، حاول الجدُّ أن يروض العاق الصغير بالعصا، وبحرمانه حتى من الطعام، لكن الفتى المسعور، لم يغير ما بنفسه، كان يرفض أن يرضخ لكل من كان يعترض على إشباع نزواته، كان سلفه الشرس أول ضحية للكره القاتل الذي كان الولد يكنه لذويه، ما إن صار هذا في عمر يستطيع فيه العراك، حتى ترصَّد له، ولم يتردد أبداً عن تحطيم رأسه. منذ ذلك اليوم، أخذ يألف عالماً متوحشاً مرهباً أقرباءه، رافضاً العمل في الحقول، ومن كل الرعية، كان يفضل صحبة الجنود والخيول.

عندما علم أن أباه عاد من مصر، وجاء ليستقرّ في شمال البلاد، عزم على السير للقائه، لم يكن يعرفه أبداً، كان يعلم فقط أنه ارتحل وسافر كثيراً، وقد عاش هنا وهناك حياةً كان يتخيلها مليئة بالمغامرات. فكرة تقليد هذا الشخص المجهول في تطوافة كانت تستهويه. بيسر كان عليه أن يخفف من غلوائه سريعاً. وما كان والده ينتظره منه، هو ما كان يثير اشمئزازه بالتحديد، وهو ما كان يحتقره أكثر من أي شيء: الدراسة، والخضوع، والجد. ما لبث أن كرهه، وحتى عندما يحاول أن يتنكر في البداية لمشاعره، فإنها سرعان ما كانت تظهر دون قناع. ذات يوم، وحيث صار ذلك فوق احتماله أفرغ أمامه كل غله:

ـ ليدرس البلهاء! ليتذلل خادموك عند أقدامك! من ناحيتي أنا، لا أريد أن أكون لا من هؤلاء، ولا من أولئك!

ـ حسنٌ جداً ـ أجاب حسن ـ وعلى هذا أمرهم حسن أن يربطوه إلى عمود وأن يضرب بالمقرعة أمام الحامية كلها.

حزم أمره في ما بعد، على تجنيده عنوة بين جنود جيش القيني برتبة جندي بسيط. ظنَّ أنه يحطم تعنته بذلك.

لكنَّ الفتى قد اغتنم إقامته في زور غامباداان، كي يعلن أكثر من أي وقت عن تمرده، داعي الدعاة الذي كان يحكم الموقع، خلص، بعدما أُرهِق كثيراً إلى أن يطلب تدخل أبيه، لكنَّ مكروهاً لحق به إثر ذلك، لأن حَسَناً طلب منه أن يكبل السفيه بالأصفاد، فعاقب الفتى داعي الدعاة بأن صرعه بيده.

حتى تلك اللحظة، كان يستخف بالعقاب الذي ينتظره. لم يكن يستطيع أن يقدر فداحة الجريمة، كما يراها الإسماعيليون.

بحسب رأيه، فإن الفعل الوحيد الذي قام به داعي الدعاة بأن رفع يده عليه، وهو ابن الزعيم الأعلى، كان كافياً لأن يبرِّر فعله.

ألم يعطه نسبه هذه الحقوق؟ ما من شك بأن يكون له نفس التصرف لو أن الشيخ ابن آتاش تجرأ على أن يحذو حذو سابقه.

وها هو ذا قد وجد موثقاً بالقيود، في عقر دار والده!

عهد إلى أبي علي بإنباء حسن خبر قدوم ابنه.

ـ حسنٌ، سأتكلم إليه، ليحضر إليَّ.

راح أبونا ورجاله يحضرون السجين.

ـ بسرعة، انهض، عليك أن تمثل أمام سيدنا!

بدر من حسين استهزاء سيئ.

ـ أخيراً. الحمد لله! لن ألبث أن أفلح في تقطيع سيوري على ظهوركم.

عند باب القصر، وضعه أبونا بين يدي رجال الحراسة. في هذه اللحظة أحس ببداية الخوف. فالحياة، في الحقيقة، تغيرت في آلموت، نظام صارم كان يهيمن على كل مكان، نظام من العبودية. لم يبدِ الخصيان العمالقة الذين كانوا يقومون بالحراسة حول أبيه الطمأنينة. . . كي لا نقول شيئاً عن ذاك الذي يقوم بنوبته في الحراسة في أعلى السلم، كان الولد يشعر بثقل نظر الخفير الأسود على قذاله. . . ليس في هذا ما ينبئ بالخير.

من يستطع أن يتخيل أن يكون لأبيه حق الرجوع عن خدمات هذه المخلوقات الغريبة!

أُحضر إلى غرفة الزعيم الأعلى. توقف، بعد أن خطا بالكاد خطوة داخل الغرفة، لم يتكرم حسن حتى برفع رأسه. كان يبدو مستغرقاً في قراءة إضبارة من الوثائق. بعد وقت لا بأس به تفرَّس في وجه ابنه، بصمت كالعادة، وقبل أن يعزم على النهوض، صرف الحراس. وجاء يقيس المتمرد بأنظاره.

انفجر هذا.

ـ تستطيع أن تبدأ ذلك، بأن تنزع عني هذه القيود! منذ متى أُقِرَّ. بأن على الولد أن يمثل مقيداً أمام والده!

ـ لو لم يسبق لأحد أن رأى هذا من قبل، فلسوف يراه يحصل بالتأكيد هذا اليوم.

ـ أنت خائف مني إذاً!

ـ إنهم يربطون الكلاب المسعورة قبل أن يقتلوها.

ـ والد رائع! في الحقيقة.

ـ أنت على صواب. لأنني أتحمل بصمود الخطيئة التي ارتكبتها عندما جئت بك إلى هذه الدنيا.

ـ أنت لا تنوي أن تحررني من قيودي؟

ـ أشعر بأنك لا تحسب أي حساب لما ينتظرك. لتعلم أنني سأكون الأول في احترام القوانين التي أصدرتها.

ـ لا أخاف تهديداتك مطلقاً.

ـ غبي! اعتدادك هذا، هو اعتداد شخص بليد!

ـ لتشتمني! إن هذا لا يؤثر بي.

ـ أيتها السماء! أنت لا تزال تجهل أية جريمة اقترفت!

ـ على أية حال، أعرف ما لي: ليس لأحد الحقُّ في تقييدي.

ـ إذاً! قتلت أفضل حليف لي، أصدق صديق... وهذا لأنه كان ينوي تنفيذ أمري.

ـ هل لصديقك موقع عندك أكبر من موقع ابنك؟

ـ للأسف، الأمر كذلك.

ـ يمكن لإيران كلها أن تفخر بأب فريد من نوعه! ماذا ستفعل بي؟

ـ أي عقاب نذرت لقاتل تعس؟

ـ لم أدرس قوانينك.

ـ لا يهم.

ـ سأقول لك ذلك بنفسي. بحسب القانون، يكون الجزاء هو التالي: أولاً تقطع يده اليمنى، أخيراً يقطع رأسه في حضور جماهير المؤمنين.

نظر إليه حسين بعينين محملقتين.

ـ مع ذلك، فإنك لا ترمي لأن تقول إن هذا العقاب، هو العقاب الذي ينتظرني.

ـ هل تظن أنني سننت هذه القوانين على سبيل الهذار؟

ـ في الحقيقة، ما من أحد، إلاً ويستفظع هكذا أب.

ـ أنت تسيء فهمي.

ـ سأعترف بذلك بطيبة خاطر.

ـ أنت وقح دائماً.

ـ ماذا تريد! الشجرة لا تعطي غير ثمرتها.

ـ ليس لدي وقت أضيعه في سماع كلماتك البارعة. غداً ستمثل أمام المحكمة، وسينطق داعي الدعاة بالحكم عليك. أنت تعلم ماذا ينتظرك. هذه هي المرة الأخيرة التي نتحادث فيها مع بعضنا، أنت وأنا. ماذا عليَّ أن أقول لأمك؟

ـ اشكرها على اختيارها لي هذا الأب الفاضل. كان لأية دابة أن تعامل صغيرها أفضل. . .

ـ دون شك، لأنها دابة ـ نحن الرجال لدينا عبء آخر نتحمله، عبء العقل. مقتضياتنا هي في النتيجة، تلزمنا قوانين صارمة، وقدر الإمكان عادلة. هل لديك من شيء آخر تريد أن تطلعني عليه؟

ـ ماذا سيكون لديَّ ليقال لك؟ أم ربما تحسب أنك قد هزمتني، بكونك مستعداً لأن تتخلص من ابنك الوحيد، من وريثك الوحيد؟ من سيكون خلفك إذاً؟

قهقه حسن بصوتٍ عالٍ.

أنت يا حسين وريثي؟ أنت من سيدير هذا البناء المبني على أولوية العقل، على الحجة الصحيحة؟ أنت لا تفقه شيئاً، ولا تعرف شيئاً، إن لم يكن في هذا ربَّما إلاَّ قلب للموضوع؟ أين سبق لأحد أن رأى نسراً يتخلى عن مملكة الجوارح لعجل؟ هذا هو سبب طيشك، كنت تخال أنك كنت تستطيع أن تفعل كل ما يحلو لك!

تمنى حسين لو يمزقه بعينيه.

ـ يولد الكلب من الكلب، والعجل من الثور. ذاك الابن لذاك الوالد!. .

ـ إن كان صحيحاً، فأنت لست ابني!. . .

ـ ربَّما تريد أن تجلب العار إلى أمي؟

ـ أبداً كنت أريد فقط أن أؤكد لك أنه إن كان توكيدك يناسب الكلب والعجل فهو ليس كذلك بالنسبة للإنسان. وإلا لما انهارت الممالك التي أسسها الآباء بذكائهم وشجاعتهم نتيجة أخطاء أبنائهم العاجزين والأغبياء.

ـ صحيح. لكن لم يوجد في العالم سلطان أو شاه. أورث مملكته إلى غريب، وقد أنجب ابناً.

ـ من هذه الجهة أيضاً، سأبتكر. . . ليس لديك ما تطلبه مني؟ ما أبلغه عنك لأمك؟

ـ لا شيء غير ما قلته لك.

نادى الرجل العجوز حراسه.

ـ أعيدوا السجين إلى الزنزانة.

ـ اصطك حنك الولد.

ـ جرب فقط أن تناديني أمام محكمة جرائمك! سأعلن عراك أمام الناس أجمعين!

في اليوم التالي، دعيت المحكمة إلى الاجتماع، كان أبو علي يرأس الجلسة.

ـ افحص القوانين واحكم حسبها بعد ذلك بصرامة. هذا ما أمر به حسن.

عندما أخذوا مكانهم جميعاً أدخل الحراس حسيناً.

اتهمه أبو علي بجريمة مضاعفة. أولاً تمرد ضد رئيس. ثم اغتيال رئيس.

والمسلكان يستحقان الموت.

ـ هل تعترف بذنبك يا ابن حسن.

ـ أنا لا أعترف بأي ذنب. اعترف فقط بالأفعال التي تتهمني بها.

ـ التمرد وحده، ضد رئيس يعاقب عليه بأقصى عقوبة!

انفجر حسين:

ـ لا تنسَ أنني ابن الرئيس الأعلى.

ـ القانون لا يحتمل الاستثناء. لم تكن بالنسبة للقيني إلا جندياً بسيطاً، ونحن نقر بذلك.

ـ بماذا يقتضيني من رماني مكبلاً بالقيود!

ـ مثلما ترى. فهمت ذلك آنفاً، ألا تملك فعلاً أي عذر تتعلل به؟

ـ أي عذر تنتظر مني. القيني وشى عليَّ لأبي بمنتهى الغدر، كي يستطيع أن يتخلص مني. لم أستطع أن أتهاون في هكذا معاملة! فأنا لست أياً كان. ربمَّا قد نسيت ذلك. أنا ابن الزعيم الأعلى. زعيم الإسماعيليين!

ـ تمردت عليه. الرئيس الأعلى شخصياً، أمر بتقييدك، ومعاقبتك. وإثر ذلك، أقدمت على اغتيال من لم يقم إلاَّ بتنفيذ الأمر. أفلم تسر الأمور هكذا فعلاً؟

ـ هكذا حصل فعلاً.

ـ جيد. يا عبدالملك! أقرأ ما ينص عليه القانون بالنسبة لجريمة التمرد على رئيس ثم لجريمة اغتيال رئيس!

انتصب عبدالملك على طول قامته. وفتح الكتاب الثقيل على المكان الذي عُلِّمَ بدلاَّلة، لامسه بجبينه باحترام، ثم قرأ بصوت مجلجل:

«أي واحد كان، من بين المؤمنين الإسماعيليين، سيعترض على رئيس، أو سيتمرد على الأمر الذي أعطاه هذا الرئيس، أو يسهو عن تنفيذه بأية طريقة، إلاَّ إذا كان المانع قوة جبرية، سيعاقب بالموت، وسيقطع رأسه. أي واحد من الإسماعيليين المؤمنين سيقترف جريمة مهاجمة رئيسه، أو قتله سيعاقب بالموت. إنما تقطع يده اليمنى قبل أن يقطع رأسه».

أغلق عبدالملك الكتاب، انحنى أمام المحكمة، وبرصانة ترك الحديث إلى أبي عليّ.

ـ أيها الدعاة الموقرون! سمعتم ما نصَّ عليه القانون بالنسبة لجريمة التمرد ضد رئيس وبالنسبة لجريمة اغتياله، سأطلب منكم الآن، إن كنتم تستطيعون حقاً، إذا ما كان المتهم مجرَّم بهاتين الجريمتين.

التفت نحو بوزروق أوميد، ناداه باسمه ودعاه إلى الإجابة.

ـ مجرم. نطق دون تردد.

ـ أمير مينو تشرشر.

ـ مجرم.

ـ داعية ابراهيم؟

ـ مجرم.

ـ داعية عبدالملك؟

ـ مجرم.

ـ داعية أبو سراقة؟

ـ مجرم.

قرر الحكم بالإجماع.

عند لفظ كل اسم، كان حسين يدرأ اختلاجه حتى النهاية، كان يأمل في سره أن يعترض أحدهم على الحكم، أن يرتفع صوت يدعو إلى أن له الحق بما فعل، وإلى أنه لم يفعل هذا إلاّ من أجل الدفاع عن شرف طبقته. عندما ثبت آخر صرخ في وجههم:

ـ كلاب مجرمون!

على الرغم من قيوده، حاول أن يقذف بنفسه عليهم. لم يكن لدى الحارس وقت لتثبيته. سيطر عليه بصعوبة، بينما كان يجول بنظراته المجنونة التي تنطق بالحنق والعجز.

نهض أبو علي بهيئة رسمية.

ـ الدعاة الموقرون! إنكم بالإجماع سميتم المتهم مجرماً بجرائم تدينه.

حكم على حسين بن حسن وحفيد صباح أن يتكبد عقوبة الموت، ستقطع أولاً يده اليمنى، كما نصَّ القانون على ذلك، ثم يقطع رأسه. سينفذ الحكم حالما يوقعه الرئيس الأعلى، هل أحد من بين أعضاء المحكمة الموقرة لديه شيء يضيفه.

نهض بوزروق أوميد وطلب التكلم.

ـ أيها الدعاة الموقرون سمعتم الحكم الذي نطق به للتو، ضد حسين ولد حسن، المجرَّم باغتيال شخص داعية خوزستان الكبير، الجرم مثبت، والمجرم قد اعترف بفعلته شخصياً. والعقاب الذي وجه إليه شرعيٌّ وعادل تماماً، لكنني مع ذلك أحب أن أذكر للمحكمة العليا، أن جريمة حسين هي الأولى من نوعها، مما عرفته المحكمة، منذ أن وطَّد الزعيم الأعلى جلاء القوانين، لهذا فإني أقترح أن نلتمس من سيدنا العفو، إذا ما كان المتَّهم موافقاً على ذلك.

رُحبَ بالاقتراح من خلال همس مستصوب.

التفت أبو علي نحو حسين.

ـ أيها المحكوم! هل تريد أن تطلب العفو من الزعيم الأعلى؟

لم يدع حسين غير هيجانه يتكلم.

ـ أبداً! لن أتوسل إلى أب يسلم ابنه الوحيد إلى الجلاد!

ـ هدئ نفسك يا حسين.

حاول بوزروق أوميد أن يقنعه لكنَّ الآخر استوقفه.

ـ أنت تضيع وقتك.

ـ تغلب على عنادك! هذا الالتماس هو آخر فرصة لك ـ ذكَّره أبو علي.

ـ ليس لدي إلاَّ التماس واحد أقدمه: اذهبوا، وقولوا له نيابة عني إنه أسوأ من كلب!

قال إبراهيم المخضب الجبين، مستسلماً لسورة الغضب:

ـ اكبح لسانك أيها المجرم!

ـ أمامك ربما، أنت الذي تعفن فمك!

تقدم بوزروق أوميد، وعبدالملك من السجين.

ـ إعدلْ عن رأيك يا ابن حسن، توسل إليه داعي الدعاة. ليس عليك إلاَّ أن تتفوه بكلمة. أنا من سيعمل ما بوسعه بعد ذلك لإقناع أبيك.

ـ ليس من العار بالنسبة لمحكوم أن يطلب العفو. ألحَّ عبدالملك. إنها دلالة على تقدير سعة غلطته، وتكفل بإصلاحها.

ـ افعلوا ما تشاؤون. خلص حسين بأن سلم الأمر إليهم.

راح أبو علي، وبوزروق أوميد، وعبدالملك يعلمون حسناً بقرار الهيئة. أصغى حسن بهدوء، وعندما أورد بوزروق أوميد عريضة التماس العفو، رماها ببرود.

ـ أنا من ثبَّت القوانين، وأريد أن أكون الأول في الخضوع إليها.

ـ هذه هي المرة الأولى التي يحكم فيها على إسماعيلي بسبب جريمة كهذه.

ـ لهذا بالضبط يجب أن يكون عبرة لغيره.

ـ الرحمة في أوانها، تكون أحياناً فوق العدل الضيِّق.

ـ في أية حال أخرى ربَّما، لكن ليس في هذه الحالة. فإن أعف عن حسين سيقول المؤمنون: انظروا. سنت القوانين لنا، فهي لا تطبق على ابنه». سيتيقنون بأن العداء لا يقع بين الأهل. . . لا أريد هذا!

ـ لكنك إن أمرت بتنفيذ الحكم سيهتفون برعب: «أيَّ أب ظالم!»

تغضَّن وجه حسن.

ـ وضعت القوانين من أجل كل الإسماعيليين دون استثناء. أنا الرئيس الأعلى، وأنا أستجيب للقانون. لهذا فإنني سأوقع على حكم الإعدام.

تناول القرار الذي ناوله إياه عبدالملك. قرأ بامعان. ثم غطَّ ريشته بدواة ووقع بيد ثابتة.

ـ خذ يا أبا علي! ستذيع قرار الهيئة، غداً منذ ساعات الصباح الأولى، وقبل طلوع الشمس. سيؤدي الجلاد واجبه. هل اتضح كل شيء؟

ـ كل شيء واضح يا ابن صباح.

بوزورق أوميد الذي مكث واقفاً، في معزل عن مرأى الجميع، ولم ينطق بكلمة طيلة ذلك الوقت، أشار إلى أنه كان يريد التكلم.

ـ أجد أنَّ الممكن تخفيف الحكم آخذين باعتبارنا أن الادعاء الأول قابل للطعن.

ـ لقد وقعتُ، شكراً لجهودكم.

عندما أصبح وحيداً. كانت هذه الفكرة ترغمه على التفكير بفعله التعسُّفي: «كان ابني حجرة عثرة أمام عملي. ألست بإعدامه وحشاً مفترساً».

لا بد للصرح الذي بدأت به من أن يكتمل، إن كان قلبك سيقف حائلاً دون ذلك فمُرْه بالصمت. فعلى كل عظيم أن يتجاوز ما هو إنساني.



الفصل العشرون

في اليوم التالي. وقبل طلوع الشمس، أخذت الطبول تقرع وسط الجميع، وأخذت الألسن تتناقل الخبر، سيقطع رأس ابن الزعيم الأعلى لأنه قتل داعية خوزستان الكبير دخل أبو علي مع مينو تشرشر وإبراهيم إلى زنزانة السجين. لقد تهدَّج صوته، لدى إعلامه هذا بأن الرئيس الأعلى قد رمى عريضة التماس عفوه.

ـ تشجع يا ابن حسن. يجب أن تطبق العدالة!

حدَّق حسين بالرجلين بعيني وحش مفترس. ثم قذف بنفسه فوقهما، لكن قدميه تعرقلتا بالسلاسل فوقع.

ـ كلاب ملعونون، كلاب ملعونون! قال بصوت جريح.

قبضوا عليه، وقد خارت كل قواه. استمر الحرس في جره خارج الزنزانة. فرقة الجيش المصطفة في نسق استعراضي، شغلت المصطبتين السفليتين. في وسط السفلى منهما، انتصب النَّطع، جلاد يرافقه مساعداه، ظهوره لفت الأنظار. نصفه الأعلى كان عارياً. يحمل الساطور باعتزاز، ويتظاهر بأنه لا يولي أي انتباه إلى الموجودين.

تهامسٌ سرى بين الصفُّوف.

ـ إنهم يقتادونه.

كان حسين يشتم ويكافح بين الحراس كفهد وقع في فخ الموت.

والرجال الذين كانوا يحيطون له، خارت قواهم بشكل ملحوظ. وهم يدفعونه كي يتقدم.

عندما لمح الجاني الجلاد وساطوره، أخذ يرتجف، تشنج فمه عاجزاً عن لفظ أية شتيمة أخرى. فَهم الآن ما كان ينتظره.

ـ ابن سيدنا... ابن الزعيم الأعلى... تهامس الرجال في صفوفهم.

امتطى أبو علي وبوزروق أوميد، ومينو تشرشر، مطياتهم. سمع رجع صدى البوق، فض أبو علي الورقة وقرأ الحكم بالموت بصوت جهوري، ثم دعا الجلاد إلى تأدية واجبه.

خيَّم صمت مطبق، لم يكسره إلاً هدير المسيل الوحيد.

فجأة خرجت صرخة من صدر حسين.

ـ أيها الرجال! ألم تسمعوا! الأب يسلم ابنه الوحيد إلى الجلاد.

ضجيج سرى بين الصفوف. تمركزت في الأمام فرقة الفدائيين الصغيرة، استدار عبدالرحمن، وقد تقاطعت نظراته مع نظرة نعيم، كان وجه الولد ممتقعاً بلون الشمع أمسك مساعدا الجلاد بالولد. وحرَّر يده اليمنى. قاوم حسين بكل ما أوتي من طاقة اليائس. وأخذ يحاول بشكل غريزي أن يبتعد عن النِّطع.

لكن العملاقين جراه إلى هناك عنوة، وجعلاه يجثو على ركبتيه، ووضعا يده على خشبة القصاص. ثبت الجلاد المعصم بوحشيه، واستلَّ ساطوره. هَوَت الشفرة بسرعة، وسمع تحطم العظم، أطلق حسين صيحة متوحشة والدم لطخ وجه المعاونين، رفعوا المنكل به، الذي فقد وعيه، ووضعوا رأسه على النطع. وبضربة ساطور واحدة بتره الجلاد. مدًّ له معاونه بمعطف ألقاه على الجسد المرمى.

التفت المنفذ نحو أبي علي. ولفظ بجلافة الصيغة الشعائرية.

ـ أتمَّ المنفذ واجبه!

ـ نفذ القصاص. أجاب داعي الدعاة.

تقدم بمطيته نحو الحشود المجتمعة.

ـ أيها الإسماعيليون! شهدتم حكم القصاص السائد في آلموت. سيدنا رئيسنا الأعلى لا يستثني أحداً. إن القانون يعاقب وبصرامة من يقترف الجريمة، لا المرتبة الاجتماعية، ولا النسب يحميان أحداً من العقاب المستحق. لذا فأنا أدعوكم إلى احترام القانون وعلى فهم نصوصه بدقة. لا إله إلا الله ومحمد نبيه، بانتظارك أيها المهدي!...

أصدر أمراً وكل الرجال عادوا إلى أعمالهم، وجلبة كانت تسمع هنا وهناك...

ـ في الحقيقة، لا يزال هناك وجود للعدالة على الأرض!...

ـ هل عرفتم زعيماً آخر، أميراً آخر كان مستعداً لتقديم ابنه قرباناً للقانون؟

خبر العقاب الذي أعده الزعيم الأعلى لابنه، انتشر من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها بسرعة البرق. وفي نظر الناس أحيط وجه الزعيم الشيخ بهالة جديدة، حيث هزم شعورُ الاحترام شعورَ الرهبة أكثر من أي وقت مضى.

عرف جعفر الذي تحول إلى خَلف مبعوث السلطان كثيراً من المغامرات، وهو في طريقه إلى بغداد، فبعد قزوين مباشرة، التقى جيشاً ثقيلاً من الجنود الذين كانوا يسيرون في نوع من الفوضى. مترجلين وخيالة اختلط بعضهم ببعضهم الآخر. كانوا بقايا جحافل جيش قيزيل سريق الذي تفرق بسرعة نتيجة الغزوة التي شنت دون جدوى ضد مواقع خوزستان. ما إن فهم الجنود المنهكون أن المبعوث ليس إلاً واحداً من ضباط السلطان الأعظم حتى صاروا يتخفون بصمت.

عند كل محطة لترحيل الخيول كانوا يبذلون جهدهم لوضع أفضل مطياتهم تحت تصرف المبعوث الإمبراطوري، أمضى الليلة الأولى في

العراء. أمّا وقد صار على الطريق، فقد حاول أن يقوم بمحطة في خان قوافل مريح، ذات ليلة، ولدى بلوغه منتصف طريقه إلى بغداد، ألفى نفسه مدعواً ليتقاسم الغرفة مع مجموعة من الضباط العائدين من خدمتهم تحت إمرة قيزيل سيريق، علم في الوقت نفسه خبر رفع الحصار عن زور غامبادان، والوقع المثبط الذي أحدثه ذيوع خبر موت الصدر الأعظم على جيوش السلطان، والتعليقات على النبأ كانت قائمة على قدم وساق. . .

كل مقاطعات الشمال صارت في أيدي الشيعة الذين يعتبرون الإسماعيليين كأخوة لهم. الآن، وقد مات نظام الملك، فأي معنى سيكون للقتال ضد سيد الجبل؟

أفضى لهم جعفر بأنه رسول السلطان، وأنه عائد مباشرة من آلموت حيث خيم صمت مطبق.

ـ لا تفضحنا، توسلوا إليه بذلك أخيراً. كل الجنود يفكرون مثلنا. إنما عندما ستتلقى الأمر سنكون من جديد مستعدين للقتال، كما دائماً. . .

طمأنهم، وقد سكَّنَ فضولهم. كان مندهشاً في نفسه، فهل كان لتحول شكله الخارجي هكذا تأثير عليه، أم أنَّ الخوف من أن يفضح أمره يدفعه إلى تقمص هذا الدور كلياً؟ لقد روى الكثير من الفظاعات عن آلموت. وأكد الكثير من الأعمال الوحشية التي انتصب لها شعر مستمعيه. هو نفسه ضاق صدراً من هذه الهواجس غير المطمئنة إنما في اليوم التالي صدرت منه حركة عفوية بسيفه عندما لمح كل هذه الأسلحة المتدلية على الجدران. كان يلزمه بضع لحظات كي يستعيد رشده، ويتذكر المكان الذي كان فيه، ويعيد إلى تفكيره المهمة التي كلف بالقيام بها. أدَّى صلاته الصباحية، تناول زبدية من اللبن الرائب مع قطعة من خبز الشوفان ثم امتطى حصانه. على مسافة ليست ببعيدة، رأى وصول مفرزة قادمة أمامه، تغذُّ في مسيرها بانتظام. أوقفه رئيسها وأنذره بذكر هويته. أعلمه جعفر بأنه مبعوث السلطان، وأنه في عودته من آلموت.

ـ جيد. لدي بالضبط مهمة إعادة النظام بين فرق الجنود التي تشتتت بشكل مخزٍ أمام جدران القلعة. أمر سموه بأن نمشي من جديد في مواجهة الإسماعيليين.

«هل يعلم سيدنا بالخطر الذي يهدد آلموت هذه المرة؟». فكَّر جعفر بتخوف، إنمَّا لم يكن عليه أن يتوقف عند هذه التأملات. فغيّر مهمته لا شيء آخر له أهمية، عليه أن يقتنع بذلك.

كان طريق الجيوش يبدو له إثر ذلك، مشابهاً لنوع من معسكر حربي فسيح، حيث فرق الجيش كانت تتتالى بعضها إثر بعضها الآخر في نظام منضم. كي لا يتعرض دائماً للتوقيف. أخطر الضباط من بعيد بأمر مهمته، وقد تركوه يمر من جهتي الممرّ المرتفع، كانت الخيول والجمال والبغال والحيوانات ذوات القرون المتجمعة بالآلاف على شكل قطعان في العراء تقتلع من الجبال ما تبقى من بقع النبات.

كان عليه أن يلتف حول نهاوند المحتلة من قبل جيش حقيقي. أما بعد ذلك فالطريق سالكة باتجاه بغداد.

ومن جديد فقد قضى ليالي جميلة في السَّراي، حيث لم يجد أي عناء في إيجاد غرفة له وحده، في إحدى هذه المحطات، استطاع أن يبتلع أول حبة. أقلقته هذه التجربة من أعماق نفسه للغاية، سكنه قلق غامض حيناً، وهلوسات غير معقولة تفرض نفسها بجلاء أمام ناظريه وتستولي عليه.

كان يبدو له أحياناً أنه قد ضلّ في مدينة ضخمة تعج بصخب العامة، ثم كانت أمامه الرياض الآهلة بالحوريات ذوات العيون السود، التبس عليه النهار والليل، والمادة المنومة المحتواة في تلك الحبات صارت مصدر كل لذة، وكل هوى، حتى صار عليه أن يبذل ما بوسعه بعد بضعة أيام كي يحتفظ بالحبة الأخيرة، تلك التي هو بأمسّ الحاجة إليها عندما ستزف الساعة المشؤومة!

كان يعدو بسرعة خيالية، عندما وجد نفسه على أبواب مدينة ضخمة،

خفراء مسلحون حتى أسنانهم، عرقلوا طريقه، لقد تعود على هذه التجلّيات الأثيرية. أبطأ عدوه بصعوبة عندما وجهت إليه سبعة رماح في اللحظة نفسها، تبخر السراب. لقد غادر آلموت منذ عشرة أيام، وكاد يصل إلى مشارف بغداد! سيطر بمهارة على أفكاره.

ـ أنا رسول سموه قال بفظاظة.

فحص قائد المركز أوراقه.

ـ حسناً تستطيع أن تمر.

ما إن عبر التحصينات، حتى بدت له الحقيقة ملتبسة مع أحلامه. على امتداد الطريق التي كان يتقدم فيها، لم يكن يرى إلاّ تتابع قصور من المرمر، علي أبعد منها بقليل وجدت المساجد ذات القباب المذهبة والفيروزية، منارات من كل الأشكال منتصبة عالياً نحو السماء. أسواق، تعج بالناس كممالك النمل، كانت ترغمه على أن يقوم بكثير من المنعطفات.

لم يلبث أن وجد نفسه تائهاً تماماً. ولم يبق له من الإيضاحات التي تلقاها من شبيهه في آلموت عن طبوغرافية المدينة غير عون هزيل.

كي يستمد الشجاعة، أرغم نفسه على مداعبة هذه الفكرة:

«هيًا يا جعفر، مدن أجمل من هذه المدينة بكثير، ستفتح لك أبوابها عندما ستنجز مهمتك!».

أبصر دورية من أربعة جنود. فتوجه إلى ذاك الذي كان يبدو عليه رئيسهم:

ـ دُلني على أقصر طريق يؤدي إلى قصر جلالته!

رمقه الرجل بنظرة مرتبكة، لكنه لم يترك مجالاً لنفسه للإضراب.

ـ إلى ماذا ترمي بتفرسي هكذا؟ دلني على الطريق فوراً!

ـ نحن عائدون إلى هناك بالضبط. اتبعنا.

ساق واحد من الرجال جواده من لجامه. اجتازوا أيضاً كثيراً من الأحياء الأخرى، ثم انتهت قصور المكان إلى حدائق فسيحة.

ـ هذا مكان إقامة جلالته.

بناء ضخم تكشف بياضه أشعة الشمس تعرَّف عليه في الحال، كان خلف قد وصفه له بأدق التفاصيل.

تركه مرافقوه كي يلتحقوا بمعسكراتهم المقامة على أطراف الرياض.

تابع بنفسه حتى المدخل الكبير، وهناك ألقى بكلمة السرّ التي حفظها.

اندهش حارس الخدمة:

ـ كلمة السرّ تغيرت.

ـ لا أجد غرابة في ذلك، فأنا رسول جلالته، ومنذ أيام كثيرة غادرت القصر. أنا قادم من آلموت. لدي رسالة مستعجلة عليَّ أن أسلمها.

راحوا يخبرون قائدهم الذي وجد في الفارس الذي كان معفراً بالغبار هيئة غريبة، ويبرز وجهه المحموم الغائر من التعب، مع ندبة قبيحة تناهبت نصف وجهه.

ـ يجب أن أذهب للبحث عن ضابط الخدمة.

أحس جعفر فجأة بضعف مفاجئ يسيطر عليه، أعصابه سُحقت بين حجري رَحى. لمح الضابط الذي كان يقترب. هل كان يتوجب عليه أن يتظاهر بمعرفته؟ أوشك أن يستسلم للذعر. عندما صرح الآخر:

ـ عجباً أليس هذا صديقنا خلف بن عمر؟

ـ نعم، من تريد أن أكون غيره؟ بسرعة، هيا! إجر، وأبلغ نبأ قدومي إلى رئيس حراس جلالته. ينبغي أن أستقبل في اللحظة.

ـ أخرج من هذه السَّذاجات واتبعني، قال الضابط وهو يهز برأسه.

مشيا بصمت. لاحظ جعفر رفيقه يتفرسه خلسة، لكنَّ نظرته لم تكن تتضمن شيئاً من القلق فهو لم يحتج إلى كثير من العناء حتى تعرف إليه

على أنه خلف غزنه. حقاً، لقد بدا متغيراً بشكل لا بأس به، ومنهكاً بشكل واضح.

أدخل في الحال إلى الأمير المسؤول عن الحراسة.

ـ وهذه المهمة؟ كيف خرجت منها سالماً؟ قال الأمير.

ـ باتباعي تعليماتك بدقة. لكن هذا لم يكن سهلاً. كان الاستقبال مرعباً. حاولوا أن يتشدَّدوا في استنطاقي كي يعلموا مني شيئاً عن نيات جلالته. أظنُّ أني استطعت أن أتدبر أمري جيداً. إني أحمل أخباراً مهمة للسلطان.

ـ هل تحمل رسالة؟

ـ لا، لا شيء سوى رسالة شفوية.

ـ إروِ.

ـ مستحيل، فزعيمهم وجهها إلى جلالته. إليه فقط.

ـ هل نسيت أعراف وتقاليد البلاط؟

ـ لا، أيها الأمير، لكن الطعنة التي رماني بها الزعيم الهرطقي لا تزال تشوه وجهي، وعظامي كلها تؤلمني عليَّ ألاَّ أضيع الوقت. إني أحمل أخبارًا رهيبة.

ـ أيُّ رجل هذا إذاً الحسن بن الصباح؟

ـ جلاد حقيقي، وحش مفترش على هيئة انسان.

ـ آن الأوان لكي نمحوه عن الأرض، ولكي نبيد رعاعه.

ـ هذا فعلاً ما سيحدث. . . انتظر هنا. سأرى إن كان جلالته يستطيع استقبالك، اغتنم جعفر فرصة كونه وحيداً كي يبتلع آخر حبة بقيت لديه.

كان مفعولها فوريًا تقريباً، عاظمت شجاعته، حيث إن الأشياء التي كانت تأخذ مظهراً غريباً من حوله. صارت الآن تبدو مألوفة بالنسبة إليه. قاوم مد التخيلات التي أحس بها تحتدم في رأسه مركزاً تفكيره على فكرة وحيدة.

فكرة المهمة التي كان عليه أن ينجزها.

صادف ذلك اليوم بتاريخ الثامن عشر من تشرين الثاني عام اثنين وستين وألف ميلادي، قبل الظهر تماماً. كان السلطان ملك شاه الذي عاد من زيارة قصيرة إلى الحريم، حيث تسكن أخته، زوجة الخليفة الوحيدة قد نجح لتوه بإقناع أخ زوجته قائد المؤمنين باقتناع شبه قسري على تعيين جعفر الصغير - الذي زوجه بأخت السلطانة بالضبط - خلفاً له بتسنم عرش الإسلام متنكراً - بذلك حتى الخلافة ابنه الأكبر مستظهر كانت هذه هي الواقعة الأخيرة للنزاع الطويل بين الرجلين: كان على السلطان أن يبعد في اللحظة المحددة أخ زوجته العزيز الذي كان يهيمن باسم المقتدر على عزلة البصرة المقيتة، بعد ذلك كان الخليفة قد حصل على مهلة نهائية - عشرة أيام - ليقول إن كان موافقاً أو غير موافق على شروط أخ زوجته السلطان. وها هو ذا في نهاية زيارته لأخته، فإن السلطان قد تبين أن الخليفة قد أذعن إلى مطالبه مبدئياً على الأقل. جالس على عرش حقيقي من الأرائك، صار يفرك حينئذ بيديه، كان في عز الشباب: رجل ذو عقل مستنير، ذو بنية قوية، كان يحب الترف ويحب أن يكون أليف العلوم والفنون وكل ما هو جديد، وكل ما هو خارق كان يمتعه. وصل إلى هذه الفكرة: «ماذا يمكن لي أن أشتهي أكثر من ذلك؟»، فحدود امبراطوريتي اتسعت أكثر من أي وقت مضى. الملوك والأمراء خضعوا إلي من تحت خطاي برزت المدن في الصحراء، والشمس تضيء الدروب التي شققتها. والشعوب تحيا برخاء تحت سلطتي وتقدسني. وقد أتيت على جعل قائد المؤمنين يركع لي. أحد أعضاء أسرتي سيتسنم عرش ممثل النبي. بلغت الأهداف التي وضعتها نصب عيني، وها أنذا الآن في قمة نفوذي».

أنبأه أمين سره بقدوم الحارس، دخل الأمير، أدى الفرض الرسميَّ، ثم صرَّح:

ـ يا جلالة السلطان! خلف ولد عمر عاد من آلموت. جروح في وجهه. زعيم الإسماعيليين نكل به. كي يبتزَّ منه معلومات عن نياتك. ليحمل إليك رسالة شفوية. إنه يتضرع إلى جلالتك أن تستقبله.

ـ امتقع السلطان.

ـ كيف تجرأ على التنكيل برسولي! أواه! المتوحش الدَّنيء عديم الخلق! إنما أحضر لي خلفاً هذا في الحال، ليخبرني بنفسه عما جرى.

خرج الأمير وأحضر جعفر.

انبطح الفدائي عند أقدام السلطان.

ـ انهض، يا ابن عمر.

رأى السلطان وجه جعفر، ولم يستطع أن يكتم سخطه:

ـ كم أسيئت معاملتك يا خلف؟ تكلم، تكلم! كيف استقبلك المجرم الذي يهيمن على هذه الجبال؟ بما عهد إليك لي؟

كان جعفر يقاوم الدوار الذي كان يغشى عينيه. لقد تغيرت الأشياء من حوله بقوة الحشيش الناجعة، وتحولت بشكل هائل، تعلق بكل ما استطاع من قوة بالفكرة التي كانت تحدد مستقبله: «أزفت الساعة لتنفيذ أمر سيدنا. . . الحوريات تنتظرني!» تذكر ألفاظ خلف والكلمات التي كان يجب أن ينطق بها أمام السلطان:

ـ جلالتك! رمز البلاد وضياؤها، تمتم، لتعلم أولاً أني بلغت آلموت فعلاً، ومن ثم ضربني هذا الرجل. . . تلمس بيد الخنجر المدسوس في كمه، ثم زحلقه في راحة كفة، قبض به من نصله بثبات مستجمعاً كل شجاعته. وارتمى على السطان.

ـ تراجع هذا بشكل عريزي. وبحركة من ذراعه، أبعد الخنجر الذي

خدش أذنه. رفع جعفر السلاح مرة أخرى، لكن الأمير استلَّ سيفه، ورأس الولد قطعت فوراً.

أطلق أمين السرّ صرخة.

ـ اصمتوا! أمر الأمير.

ساعد السلطان الذي امتقع بشكل مخيف، وأخذت أوصاله كلها ترتجف في التمدد على الأرائك.

ـ فقد هذا الرجل وعيه ـ قال إثر ذلك بصوت يتظاهر بالاطمئنان. انحنى على الجثة مسح الشفرة بثياب هذا.

فقد وعيه، ردَّد السلطان بشكل تلقائي.

كل ما يأتي من آلموت يحركه الجنون والجريمة...

صرخة أمير السر استنفرت بضعًا من الخفراء، وأصحاب المقام الذين هرعوا إلى الغرفة.

أحسَّ السلطان بالعرق يتفصد من جبينه فجففه بظاهر كمه...

لاحظ أن نسيج ثيابه قد تلطَّخ بالدم.

ـ ماذا يعني هذا؟

هول جنوني بدا في عينيه وأمين سره اندفع نحوه.

ـ جلالته جلالته جرح!

التقط الأمير عندئذ الخنجر الصقيل الذي كان مرمياً على الأرض. شحب لونه، عادت إلى ذاكرته تفاصيل مصرع الصدر الأعظم الكبير. رعشة باردة سرت في أوصاله.

فحص الجثة التي كانت مطروحة عند أقدامه: أذاب الدم الطِّلاء الذي كان يغطي وجهه. سحب الأمير اللحية والشاربين، فبقيتا في يديه.

ـ ما عاد هذا خلف.

نظر السلطان وفهم. رعب لا يوصف ارتسم على وجهه. فكّر بصدره الأعظم المغتال! علم عندئذ بأنه سيموت لا محال هو أيضاً.

تجمع الجميع حول الجثة. استدعي طبيب السلطان الذي همس الأمير في أذنه: أخشى أن يكون جرح بشفرة مسمومة تعال بسرعة!

فحص الطبيب الجريح.

ـ الجرح ليس كبيراً ـ قال بلهجة مطمئنة ـ سيكون من الأفضل أن نكويه من باب الوقاية.

ـ أنت تخشى إذن أن يكون قاتلاً؟

كان صوت السلطان متشنجاً من الخوف.

ـ لنأمل بأن كل شيء سيتحسّن. أجاب الطبيب.

استدعى معاونه الذي حمل إليه المعدات الضرورية، وبسرعة صار كل شيء جاهزاً.

فهم الأمير مغزى كل هذا. ووزع أوامره المقتضاة.

ـ لا لأحد أن يغادر القصر. حافظوا على الصمت بالنسبة لكل ما حصل هنا! سأستلم الآن الإمرة وأرجو أن أطاع.

حمل الخفراء الجثة خارج القاعة، والخدم المعنيون بخدمة السلطان الخاصة، أسرعوا إلى تنظيف بقع الدم.

ألقى الجريح نظرة على قطعة الفولاذ، التي أخذوا بتسخينها على النار وسأل بقلق:

هل هذا يوجع كثيراً؟

ـ ليشرب جلالته بضع أقداح من الخمر، هذا سيخفف الآلم.

تسارع الخدم إلى الجرار وإلى الأكواب. وما أن أحسَّ السلطان ببداية الثمالة، حتى لامس الطبيب الجرح بالرأس المحمى حتى الابيضاض. أفلتت من الجريح صرخة ألم.

ـ الصبر يا جلالة السلطان.

ـ سأقطع رقبتك إن واصلت تعذيبي هكذا.

ـ ليفعل جلالته ما يروق له. إنمّا لا بدَّ للجرح من الكيِّ.

عضَّ السلطان على شفتيه. واستطاع الطبيب أن يكمل عمله.

ـ أوجعني هذا كثيراً. أنت تعلم، تنهد المريض عندما انتهى كل شيء. لكنه كان ممتقعاً كالشمع.

حمله خادموه إلى غرفته على نقالة. جرَّعه الطبيب منشطًا، ثم سحب الستائر، ولم يلبث المريض أن استسلم للنوم.

خرجت حاشية الملك إلى غرفة الانتظار. ومن وقت إلى آخر كان الطبيب يذهب لفحص المريض. وكل ينتظر عودته بقلب قلق. «لا يبدو هذا خطيراً»، قال ذلك تكراراً ثم استغرقت إحدى زياراته وقتاً طويلاً. وشوهد عند عودته شاحب الوجه.

ـ جلالته، عنده حمى... حمى شديدة، جعلته يهذي. أخشى أن يكون السم...

ـ يا الله! أية جريمة شنيعة!... همس الأمير.

رافق الطبيب حتى مخدع الجريح. وشعاع باهت من الضوء ينير الحجرة.

ـ أنقذوني! أنقذوني! تضرع إليهم السلطان في لحظة خاطفة من التجلي. النار تلتهب في عروقي...

ـ استبدَّ به الهذيان.. وقد تهافت هؤلاء الذين كانوا ينتظرون في غرفة الانتظار. فجأة أخذ المحتضر بالغناء. فركع الجميع. ولامسوا الأرض بجباههم.

ـ أية نهاية مرعبة!

بعد قليل، رأوا الجريح ينتصب، ينظر حوله بهيئة مذعورة، أراد أن ينهض، أمسك به الطبيب، وأشار إلى الآخرين بمغادرة الحجرة.

جمعهم الأمير في غرفة الانتظار.

عندما سيعود إلى رشده ينبغي أن نطلب منه على من منًا تصادق مشيئته بما يخص خلافته. فالصغير محمد. لم يبلغ من العمر الرابعة بعد، وهو في هذا العمر لا يستطيع بعد كل حساب أن يمسك بزمام مقدرات الإمبراطورية.

ـ مع ذلك، لننتظر قليلاً أيضاً. اقترح عجوز ممالق.

ـ حتى تستغل السلطانة ذلك، وتنتهي بأن تفرض علينا حكومة تاج الملك ـ قال أمين السر ساخطاً.

ـ يجب ألاً نظهر للمريض بأننا نتوقع له الشر، اعترض واحد من الشخصيات الشريفة الموجودة.

ـ سيسري الخبر في كل إيران. أجابه الأمير بجلافه.

ـ ربمًا يكون من الواجب إخبار أخت جلالته.

ـ لن ندع أحداً يدخل إلى هنا ـ قال الأمير ـ مُثاراً مهتاجاً، يجب الأ يعلم أحد بأن السلطان سقط بخنجر الإسماعيليين.

وإذا ما حصل المكروه، فإننا سنقول بأن الموت كان نتيجة حمى قاتلة.

فلو تسرب الخبر بأن جلالته انتهى كما انتهى صدره الأعظم ضحية السفَّاح آلموت، لتوجب علينا قبل كل شيء أن نجيب على هاتين المأساتين. . . وسيمتلك الشعب ذعراً، بحيث إن أحداً لن يريد حمل السلاح ضد هؤلاء الهراطقة.

سهروا قرب المريض حتى الفجر، لم تكن الحمى تتوقف عن التصاعد. وقد صار واضحاً أن لحظة الاستفسار عن مسألة الخلافة فات أوانها.

فالسلطان لن يستعيد رشده أبداً.

عند طلوع الشمس راح في غيبوبة، وعند موعد الصلاة الثانية، تأكد الطبيب بأن قلبه توقف عن الحركة، بكى الجميع: فقدت إيران سيدها الوحيد الذي لا يزال يستطيع إدارة أمورها.

بغداد المضطربة، بغداد النائحة، بغداد التي كانت البارحة تصخب بحبور الاحتفالات، صارت فجأة صامتة. وتلفَّعت بالحزن. لكنَّ خبر موت السلطان لم يكن قد بلغ بعد الأراضي البعيدة. الخبر الذي سيحول مسألة الجدل في الخلافة إلى حرب أهلية.

رسل مستعجلون. انتشروا في كل الاتجاهات، يذيعون الخبر الحزين. الأمير قائد جند الحراسة أرسل رجاله إلى بارقياروق الذي لا يزال يغزو عند الحدود الهندية. وقد فعل الشيء نفسه بالنسبة لابن الصدر الأعظم المغتال.

المتحزبون لمحمد استعجلوا رجالهم إلى أرملة السلطان وإلى تاج الملك اللذين ما زالا سيدي أصفهان الدائمين. الأمراء التابعون إلى سورية، ولباقي تخوم الإمبراطورية والذين تجمعوا حول السلطان في بغداد، عادوا إلى مواقعهم بالسرعة القصوى، كي ينتهزوا الفرصة غير المتوقعة للخلاص من وصايه سلاجقة إيران. الخليفة الذي أعلن الحداد لستة أشهر إكراماً لشرف المرحوم، كان فرحاً في سرّه لتغير الأمور على هذا النحو الممتاز. سيتمكن أخيراً من أن يختار وريثه بحسب قراره: ابنه البكر من جديد... والسُّعاة جواسيس ومروّجين سيتهافتون على نقل الخبر إلى أسيادهم المنتشرين في كل أنحاء البلاد.

مئات الدسائس ما زالت تحاك في بلاط بغداد، فمنذ أول يوم لوفاة السلطان والطامعون بولاية العرش، بدأوا يخرجون من الأرض مدجَّجين بالسلاح، ولحساب كل واحد شرذمة من المتخربين المتحمسين له. كان لكل واحد تقريباً من اخوة وأبناء السلطان المتوفى مدافعون، أسرعوا

جميعاً إلى التآمر لصالح مرشحيهم وللضغط على الخليفة التعيس ليجبروه على الوقوف إلى جانبهم.

وكما يحصل دائماً في حالة مشابهة، بحسب التحالفات والمساومات الجارية بحسب العرف فإن معسكرين انتهى بهما الأمر إلى التجابه: معسكر بارقياروق، ومعسكر حمد. كان السلطان قبل موته يميل إلى الأخير، وقد رجح بوضوح كفة السلطانة مع مواطنها تاج الملك. كل هؤلاء، أمراء وشخصيات مرموقة، موظفون كبار، ورجال دين والذين كانت أطماعهم الجامحة دون شقاق محتواه من قبل سلطة الصدر الأعظم المغتال انحازوا إلى محمد الأصغر تقريباً، وقد نجحوا في وقت قصير بجعل الخليفة يرجح معسكرهم.

كان الصراع يعد بأن يكون دامياً. لم تكن حياة المتشيعين لبارقياروق مطمئنة في بغداد. ويمكن للخيار الذي كان أمام هؤلاء أن يلخص في هذا تقريباً: التستر أو الهرب.

أنصار محمد كانوا من جهتهم يتلظون، وهم ينتظرون أخبار أصفهان حيث حشدت السلطانة وتاج الملك قواتهما: كان يلزمهما قبل كل شيء أن يحصلوا من الخليفة الضعيف. أن يظهر أمام جميع الناس، وأن يسمى مرشحهم سلطاناً. كان لا بدَّ من أن يكون في هذا، الضربة القاصمة التي لن تقوم للخصم قائمة منها. ففرق الجنود التي كانت مستقرة حول نهاوند وهمدان، والتي كانت دُعيتْ للقتال ضد الإسماعيليين، تلقت أمراً في نفس الوقت الذي تلقت فيه نبأ موت السلطان، بالتخلي عن القتال ضد الهرطقي بشكل موقت، والسير إلى أصفهان. لكنها وفي منتصف طريق هذه المدينة التقت بمبعوثي أرملة السلطان الذين تمكنوا من اطلاعهم بالاقتراحات المقنعة: لقد شوهد الزعماء يغدقون بالنعم من الكرماء الحاليين، وكان قد اتفق أن تمنح فرق الجنود راتباً مضاعفاً، إن أعلنت مناصرتها لمحمد الصغير. موفدون آخرون تابعوا طريقهم آنذاك إلى بغداد،

كي يفصل الخليفة ـ وهذا أيضاً بناءً على وعد بمغانم كثيرة ـ في تتويج محمد الصغير، وأن يدعى له في الخطبة في كل إيران.

لم يكن هناك مجالٌ لإضاعة الوقت، عندما وصل بارقياروق أصفهان على رأس قسم من جيوشه. لم يكن قد علم بعد أن أباه قتل بعد الصدر الأعظم بقليل، وجد المدينة مستسلمة لأسوأ بلبلة، جنودها هارعون من كل حدبٍ وصوب يهللون لمحمد الصغير، في حضور مناصريه. لقد فهم بأنه قد وصل متأخراً بضعة أيام. حاول أن يستنهض الأهالي ضد أرملة السلطان صدرها الأعظم عندما في هذه اللحظة بالذات وصل الخبر من بغداد: الخليفة قرَّر أخيراً تسمية محمد سلطاناً! أسرع بارقياروق إلى حشد بقايا جنده، وسار بهم في طريق إلى سافا، حيث سيمنحه طيقشتيجان، صديق طفولته المبكرة لجوء أميناً.

كان عليه أن يجمع المتحزبين إليه من جديد، وأن يبحث بكل جهده، عن محالفة هؤلاء الذين كان لهم الحق في التذمُّر من السلطان الجديد.

خمسة من أبناء نظام الملك، التحقوا به، وأسرع هو في تعيين واحد من بينهم صدراً أعظم، وما هي إلاَّ فترة وجيزة، حتى تمكن هذا من جمع جيش على درجة من الأهمية، كان من الواضح على أية حال أنه لم يكن يقر بعجزه.

السلطانة وصدرها الأعظم فكَّرا بكل شيء في هذه المسألة، حيث إن الفوضى العامة خدمت مصالحهم.

لم ينسيا إلاَّ شيئاً واحداً حليفهم القديم حسن والأمير طقيشتيجان وموتسوفر كانا جارين متفقين. وبواسطة هذا، فقد سعى بارقياروق إلى الاتصال بزعيم آلموت.

الفصل الحادي والعشرون

بينما كانت إمبراطورية السلاجقة تنهار، والتي كانت في الأمس تمدُّ نفوذها على نصف العالم، بينما كان أبناء، وأخوة، وأعمام، وأخوال، وأبناء أخوة السلطان المغتال، يتنازعون على إرثه، لدرجة أن أحداً في إيران، لم يعد يعلم بوضوح، من كان يهيمن على ماذا، لم يكن البناء الإسماعيلي، يتوقف عن التوطُّد، وعن دعم استحكاماته، بحيث أصبح أشبه ما يكون بالصخرة التي بنيت عليها آلموت.

كان خبر مقتل السلطان، عيداً حقيقياً بالنسبة لمشايعي حسن، كل البلاد المتصلة بمواقع الرَّي وردبار وقزوين كل الجبال وصولاً إلى فيروزخان وداماغان بل حتى كورد كوهي، دون أن ننسى زور غامباذان ومنطقتها صارت الآن في أمان: ليس فقط المبعوثون الإسماعيليون، وإنما المفارز بأسرها حتى كانت تستطيع أن تسلك هذه النواحي بسلام، وهي تمضي من قلعة إلى أخرى، دون أن ينتابها أي قلق. هكذا شهدت آلموت توافد موجه جديدة من المؤمنين القادمين يبحثون عند أسوارها عن الرَّخاء، وعن حرية ممارسة عقيدتهم، في الوقت نفسه سرعان ما صارت القلعة تضيق بكل هؤلاء الناس، وقريباً لن يحتفظ الداعية أبو سراقة حوله إلاَّ بالأشداء والمتمكنين، داعياً الآخرين إلى العودة إلى بلادهم محملين بهدايا، قدمها لهم الرئيس الأعلى، كي ينظموا هناك جماعات قوية من المؤمنين يربطها الولاء بسيد آلموت وتمكث تحت حمايته المباشرة.

عصر جديد سيبدأ، عما قريب فإن كل شمال إيران ستتمكن من أن تهتف باسم علي على غرار مصر الفاطمية، وسيشع مذهب مشايعيه.

قسم الإعلام الذي أسسه حسن كان يعمل بشكل مذهل، مطلعاً بكل ما ينسَّر له على تفاقم التطور الكامل لكل واحدة من الزمر التي كانت تتنازع على العرش، كان واحداً من الأوائل الذين علموا بتقليد محمد سلطاناً، خيبة بارقياروق أمام أصفهان، وقد اغتبط كثيراً لدى تأكده من أن أركان الإمبراطورية السلجوقي قد انهارت بعضها إثر بعضها الآخر. حلم صباه القديم، أوشك أن يصبح حقيقة!».

إن كل هذا أشبه ما يكون بخرافة ـ قال في سره. لو لم أكن أنا نابض هذه الاضطرابات. لتمنعت عن تصديق ذلك. في الواقع إن في بعض الرغبات قوة متميزة. فهي تتحرك كما لو كانت قد خلقت من مادة. تماماً كمطارق صنعت من فولاذ حقيقي!».

انتابه عندئذ شعور بوحشة غريبة. كما لو أن العالم كله قد صمت من حوله فجأة، شيء عظيم ومخيف، يقطنه بهاء حقي، كان يغادره، ويبحث عن نفسه، في كل مكان تحت الشمس. الحنين إلى أيام القلق، إلى تلك الأيام القاسية والتي تهرب الآن كي يرى صراحة ثانية كي يحصي قواته، ولكي يوفر لها وسيلة الاستمرار بعده.

في بداية الشتاء، شوهد أبو الفاضل اللومباني ريِّس الرَّي قادماً إلى القلعة تماماً كما حدث قبل ستة أشهر من الآن، كان يحمل رسالة مهمة: أمير سافا تيكشكوجان استقبل بارقياروق، ووضع كل فرق جنوده تحت تصرفه، أراد أن يسميه سلطاناً على الرَّي حاضرة إيران القديمة.

من أجل هذا الغرض كان قد طلب العون والدعم من موتسوفر الذي نصحه بأن يتفاهم مع حسن أولاً، وأن يتأكد من موافقته. من أجل هذا جاء أبو الفاضل إلى آلموت. وقد عزم بارقياروق على السير بكل جيشه إلى أصفهان، وعلى خلع محمد عن العرش حالما يسمى سلطاناً.

لا بدَّ من عقد مشاورة: دعا حسن كبيري دعاته ومينو تشرشر إلى الانضمام إليه مع أبي الفاضل في ملحقاته.

ـ اللحظة حاسمة، أفضى إليهم حينما كانوا يجتمعون كلهم حوله الخليفة وجميع زعماء الجيش تقريباً مع جنودهم، قد اعترفوا بمحمد، لا يجوز لنا أن نخدع. فإن حمله حزب السلطانة على ذلك فإننا سنكون نحن الإسماعيليين ـ أول من سيتلقى ضربات تاج الملك. لأنه وصل إلى السلطة بمساعدتنا وكأي مستبد جديد سيسعى إلى التخلص من كل حاملي سلاحه، وقد أثبت لنا سابقاً على أنه رجل من هذا الطراز.

سيحاول بارقياروق هو أيضاً أن يتخلص منَّا دون شك، عندما سيصبح بغنى عنَّا. إنَّما هذا هو ما علينا أن نتحاشاه. بالضبط ليكن شعارنا هو التالي: ليس لأي سلطان إيراني أن يصل بعد إلى سلطة غير محدودة!

أنا أفكر إذاً أننا نستطيع أن نساعد بارقياروق بشكل موقت على قلب محمد ليسمه طقيشتيجان سلطاناً على الرّي. عندما سيسير نحو أصفهان سيغطي مؤخرة جيوشه. لكن الحكمة تقول، يجب أن نطرق الحديد وهو حام. قبل كل شيء سيتوجب على بارقياروق أن يوقع على تعهد لصالحنا، يلتزم فيه بألاَّ يهاجم قلاعنا، إن نجح ـ وألاَّ يضطهد مؤيدينا. ولكي نحسسه بقوتنا سنبدأ، بأن نطلب منه، مقابل دعمنا ـ، ضريبة سنوية. لقد حان الوقت لأن يفهم السلاطين وأصحاب النفوذ في هذا العالم أن حياتهم بين أيدينا.

لن يشكل أي زعيم أدنى معارضة لنا، ولم يضف أدنى تعليق. فكتبوا على شرف بارقياروق رسالة عرضوا فيها شروطهم ثم دارت المحادثة بعد ذلك على نحو من أجمل ما يكون. جرَّة من الخمر كانت تنتقل من يد إلى يد. التفت حسن فجأة إلى «الريس» وسأله بابتسامة ذكية:

ـ ماذا صار بذلك الدواء الذي كان عليك أن توفره لي لمعالجة الجنون؟ إني ما أزال أنتظره.

حك أبو الفاضل وراء أذنه.

ـ أنت تعلم! يا ابن الصباح، لقد صرت عجوزاً، ولم أعد أتفاجأ بشيء

في هذا العالم، إني متأكد من أن ما كان يبدو لي نصوحاً منذ سبع سنوات قد ظهر على أنه مجرد بلاهة، إن الجنون الظاهري قد صار حكمة سامية لـم أعد أفهـم من ذلك شيئاً. أزمعت أيضاً على ألاً أبدي رأياً بأمور هذا العالـم. لقد أنهيت وقت خدمتي.

ترك حسن مجالاً لصمت قصير قبل أن يقهقه بحبور.

ـ هل تتذكر حلمي أيها الريس الصديق؟ كم كان هشًا ذلك النبأ الذي كنت تحسبه قد بني كي يخلَّد. لقد كفى قليل من الرجال اعتمدت عليهم وبشكل أعمى كي أحطم السنديانة السلجوقية! أسألك ذلك: هل لا يزال هناك من سلطان، من زعيم، من نبي أو من حكيم، من نظام، من تأسيس تخشاه آلموت؟

ـ لا أرى شيئاً من ذلك فعلاً يا ابن الصباح. لأن خناجرك الحيَّة، تستطيع أن تطال من يعارضك لأدنى مقاومة، من تسوّل له نفسه أن يكون عدوَّك ضمن هذه الظروف؟

ـ مع ذلك، لا يزال يوجد البعض منهم يا عزيزي. إنَّما سيأتي يوم يرتجف فيه أمام سلطتنا حتى الأمير القابع في طرف المعمورة الآخر. إذاً سنجبي ضريبه من كل السلاطين، من كل الملوك. ومن كل أصحاب النفوذ على هذه الأرض، ولو كان يسكن في الجهة المقابلة من البحار.

ـ هزَّ أبو الفاضل رأسه بهيئة المربك.

ـ أصدقك، لأنني لا أجد بداً من تصديقك، لكني ما زلت لا أفهم: كيف كان بالإمكان وجود كثير من الشباب الذين يضحون بحياتهم بكل رضى تحت أمر منك؟

ـ هذا لأنهم يعتقدون بأن الموت يوصلهم مباشرة إلى ملذات الفردوس الأبدية.

ـ ألن تطلب مني بعد ذلك أن أومن بهذه الخرافة.

رمقه حسن بغمزة خبيثة.

ـ هل تريد أن تتأكد من صحتها بنفسك؟

تظاهر أبو الفاضل بأنه يخفي وجهه، لكنَّ ذعره لم يكن خفياً إلاّ نصف. . .

ـ ليحفظني الله من هكذا فضول إلا أنك قادر على كل شيء. تخيل أنك تنجح أخيراً بإقناعي من صحة فردوسك. . . ستراني من هنا أنقضُّ وخنجري بيدي على سلطان أو صدر أعظم، رغماً عن عظامي التَّالفة ولحيتي الشائبة.

وعبر هذه المزاحة التي لاقت استحساناً من خلال ضحك عام انتهت الجلسة.

ـ في اليوم التالي صباحاً، غادر أبو الفاضل آلموت مغدقاً بالهدايا، ممتطياً ظهر جمل بارتياح.

ـ لم تمض سبعة أيام، حتى جاء رسول إلى حسن يحمل رسالة من بارقياروق، يخبره فيها بأنه قبل شروطه، والنتيجة لم تتأخر: سمى طقشتيجان بارقياروق سلطاناً على الري، تعاهد الاثنان على السير نحو أصفهان في أول فرصة، أراد تاج الملك أن يسبقهما ويقود جيشه نحو سافا. التحم الجيشان في بارودجير بين همدان وخرب. سُجِنَ تاج الملك المندحر، فأسرع بارقياروق إلى قطع رأسه. منذ ذلك الوقت صارت طريق أصفها مفتوحة أمامه، وصل عند حصون المدينة في أول أيام السنة. حسن ثاني أولاد الصدر الأعظم المغتال الذي هرع بجيوشه من خراسان وانضم إليه. في الحال عينه السلطان الجديد صدره الأعظم. شيئاً فشيئاً تزايد عدد هؤلاء الذين كانوا يغادرون معسكر أرملة المرحوم ملك، لكنَّ تلك دأبت للتفاهم مع بارقياروق، لطلب السِّلم. هو نفسه كانت له أسبابه في مجابهة عمه (خاله) إسماعيل بن ياقوتي حاكم أذربيجان، والذي باع نفسه لخوركانا خاتونا: سجنه ثم قطع رأسه. لكنه وبصعوبة سوَّى هذه المسألة، بحيث إنه عندما تمرد عليه أخوه من ابن الياقوتي توتوش دمشق واستولى على إنطاكية بالتواطؤ مع اقسونقور والي حلب. ثم من الموصل راح حتى اقتضاء الخليفة المذعور الذي سماه سلطاناً.

اشتعلت الفتنة في أرجاء الإمبراطورية، كان الملوك والأمراء التابعون قد طالبوا باستقلالهم على التوالي. وما لبث الولاة أنفسهم أن عملوا على خلع وصاية السلطة المركزية، وبسرعة صار كل واحد إلى حرب مع جاره، بينما كان الخليفة التعس يعين هذا حيناً، وذاك حيناً آخر وهكذا فقد حصل في بغداد أن أذكر في الخطبة اسم ثلاثة أو أربعة سلاطين مختلفين في الشهر نفسه.

حان الوقت بالنسبة لحسن لاتخاذ الإجراءات اللازمة:

استدعى إلى آلموت كل زعماء قلاعه، ودعا أصدقاءه في كل مكان ومشايعي مذهبه. كان ذلك في يوم من أيام الشتاء، لم يكن الثلج قد هطل بعد، لكنَّ القمم حينها كانت مغطاة بعباءة سميكة بيضاء. ريح قارسة جارحة كالشفرة، كانت تهب من الجبال، لكن ما إن كانت الشمس تعلو الذرى حتى كانت تمنح الجو دفئاً أخاذاً.

كان الليل حالك السواد عندما أخذت الطبول تجول وفي لحظة صار كل واحد متأهباً، جميعاً، جنوداً، فدائيين، ضباطاً، مؤمنين، بسطاء، ارتدوا ثياب الأبهة. أخذت الألسن تتناقل أن هذا اليوم سيكون مشهوداً أكثر من أي يوم مضى في تاريخ آلموت: قرارات جسيمة ستتخذ، تسميات سيكون لها نتائج حتى وقت بعيد.

بعد الصلاة الأولى، اجتمع الزعماء والضيوف أصحاب الممالك في قاعة المجلس ذات الأرض المكسوة بالأرائك.

دخل حسن يتبعه كبار الدعاة، يتهدل برنسه ناصع البياض، وعمامة رائعة بلون الثلج تحيط بجبينه. وقفوا جميعاً، وانحنوا، ببالغ الاحترام. مضى من الواحد إلى الآخر يصافح كلاً منهم بوجه بشوش.

عندما صار أمام موتسوفر سأله:

- كيف حال ابنتاي؟ هل هما مجدتان وتعملان على كسب قوتهما؟

أسهب موتسوفر بمدحهما على ذمته.

ـ حسنٌ، قال حسن، إنهما تبدوان فعالتين. وإذا ما تقدم طالبا زواج مناسبان، فلا أرى بأساً من أن تتنازل لهما عنهما.

وعد موتسوفر أن يفعل ما يجدر فعله.

لم يتمالك عندما لمح أبا الفاضل من أن يحييه مضمناً التحية شيئاً من الخبث. يسرني أن أراك على الدوام هذه الأيام. هل يتفق لك أن تبقى معي في آلموت؟

سأعهد إليك بمهمة الإشراف على الرياض... لي فيها بعض الحوريات اللواتي يستطعن انتشالك من الحيرة...

ـ شكراً لجهودك، اعتذر الريس، فالوقت الذي سأطرق فيه باب الفردوس الحقيقي ليس ببعيد.

استحسن حسن الجواب، ثم دعاهم إلى الجلوس.

ـ أصدقاء وزعماء الإسماعيلية! دعوتكم اليوم كي نحدد معاً بجلاء، وبشكل قاطع جوهر وأهداف نظامنا... كل ما باشرنا به، بعد حيازتنا على هذه القلعة قد نجح، وهذا ما يدل على أننا أرسينا بنياناً متيناً لقد وضعنا قوتنا على المحك، كشفنا عنها في القتال على الرغم من وحدة وصلابة أمورنا، فإن بعض الأمور لم تعد غامضة على الأقل لا سيمّا تلك التي تتعلق بقراراتنا مع سائر العالم. واضح بما يكفي أن النجاح الحاسم لمؤسسة هو دائماً نتيجة لمشروع أولي ولكل العوامل الملموسة، وغير الملموسة التي ساهمت في تحقيقه.

ـ عندما أخذنا من السلطان المتوفى هذه القلعة فقد استندنا إلى الذي منحنا كامل الصلاحية كي ينجز هذا العمل. كان هذا شيئاً ضرورياً للغاية لأن نفوذنا كان لا يزال هزيلاً، بل لنقل غير موجود... منذ ذلك الوقت، فإن العصور تغيرت. ألدُّ أعدائنا ماتوا. الإمبراطورية السلجوقية العظمى أخذت في الانحلال، مصر بعيدة، ونحن في المقابل تطورنا، حتى غدونا قوة من حديد. هذّبنا، وأعددنا مؤمنين لم تتمتع بمثلهم أية قضية أخرى،

حميتهم أسطورية، عزمهم لا يتخطى. تفانيهم لا يضاهى. ماذا تعني بالنسبة إليهم القاهرة؟ لا شيء. ماذا تعني آلموت؟ كل شيء...

ـ أيها الرجال! إني عجوز ولا يزال هناك كثير من الأشياء لا بدَّ من القيام بها.

أودُّ قبل أن أغادركم أن أرى مذهبنا موضح في أدق تفاصيله. وهذه التفاصيل مسجلة كتابياً بخط اليد، من أجل هؤلاء الذين سيأتون بعدنا. يجب أن تكون مبادئنا متوافقة بمنتهى الصحة مع رتب طبقات مجتمعنا الثمانية لتعلموا أخيراً بأن هذه هي المرة الأخيرة الذي أظهر فيها على المؤمنين: أنوي من الغد أن أعتكف في برجي وألاَّ أخرج منه بعد. في الانتظار، سأكون سعيداً بسماع اقتراحاتهم.

بحث عن أبي علي بعينيه، فاستلم ذاك الحديث حالاً.

ـ الزعماء والأصدقاء الأماجد، بودي أن أدعوكم بادئ ذي بدء إلى القيام بمبادرة: يبدو لي أن الوقت قد حان بالنسبة لنا، كي نقطع ارتباطنا بالقاهرة، أجل! علينا أن نعلن وبإصرار استقلالنا الكامل! وفي فعلنا هذا سنظهر للعالم بأسره بأننا نعرف قدرتنا، إنما أيضاً سنكسب تعاطف هؤلاء الرجال الذي حال ارتباطنا بالأجنبي دون انضمامهم إلينا حتى ذلك الحين، الإيرانيين منهم أينما كانوا.

تلقى زعيم الإسماعيليين هذا الاقتراح بحماسة. رمق موتسوفر أبا الفاضل بنظرة مرعبة.

ـ ناشدتكم بالله العظيم! هل خطر في بالكم ما سيفكر به المعتنقون الكثر الذين يؤمنون بأن خليفة مصر هو فعلاً من نسل علي وفاطمة؟ كل هؤلاء سيرحلون من آلموت.

ـ لا تخشَ شيئاً يا موتسوفر واساه بوزروق أوميد. هؤلاء الأنصار ليس لنا بهم أية فائدة. بينما لا يتعرف هؤلاء الذين ارتكزت عليهم قوتنا، إلاَّ بشعار واحد: آلموت.

ـ إن قوة بنائنا لا تكمن في عدد أنصارنا ـ أشار حسن ـ وإنما في نوعيتها ليست قوتنا لا أبداً في اتساع أملاكنا، إنَّما في أمن مواقع قلاعنا، فنحن أصحاب السيادة المطلقة في كل مكان من الأماكن المقتطعة، لا بدَّ من أن نمضي في كل مكان نجد فيه أنفسنا في منعة. إننا لن نولد فعلاً إلى الحياة إلاّ عندما نستقل عن القاهرة. فإذا ما أراد الطفل أن يكبر فعليه بقطع حبله السري والابتعاد عن أمه.

عاد موتسوفر إلى محاكماته. اقترح أبو علي عندئذ تقليد حسن ضمن احتفال رسمي الوظائف التي ستصبح وظائفه من الآن فصاعداً. وظائفه: مؤسسًا، ورئيساً أعلى لدولة سيكون مقرها كما كان سابقاً آلموت. صدق على الاقتراح بالإجماع. كتب الدستور. والذي أعلن فيه استقلال الدولة الإسماعيلية الكلي تحت حماية زعيمها الحسن بن الصباح. وكل هؤلاء الحضور وضعوا عليه توقيعهم.

نهض حسن وشكرهم على ثقتهم، ثم عين أبا علي، وبوزروق أوميد، كممثلين وخلفاً له: أوكل إلى الأول الإدارة الداخلية للبلاد. والى الثاني إدارة الشؤون الديبلوماسية.

بقي عليه أيضاً بضع كلمات لا بد من قولها...

ـ هذا وقد وضح الرِّباط الذي يربطنا بسائر العالم. فما زال علينا أن ننظر في تنمية وتطوير قوتنا لمواجهة المستقبل، لأن تأسيسنا تريد لنفس البقاء حياً وقوياً، لا يجوز له أن يتوقف عن النماء. يجب أن يبقى على الدوام في حركة وفي تحول، بغية المحافظة على مرونة جيشه أحسن تدريبه. لقد أقمت أعظم دولة قلاع قوية في أنحائنا.

عدد منها لا يبتغي إلاّ الاستسلام لنا وسيكون منهم نقاط الارتكاز الصلبة بالنسبة لقضيتنا. أنتم تعرفون جميعاً قلعة لامسير إنها موقع رائع تحميه الآن حامية هزيلة هي أبعد ما تكون عن الحماسة، سيتسلى بوزروق أوميد بالاستيلاء عليها بترتيب الوسائل اللازمة لذلك. إني أعتمد عليه كي يكون

الأمر مدبراً من كل الجهات... عبد الملك، أنت المقدام والشاب سيكفيك بعض المغامرين، الذين تختارهم بفطنة لانتزاع القلعة الرائعة من الشهديين، والمتوضعة قرب أصفهان التي عمل السلطان على بنائها قبل أن يموت، لكأنه قد هيأها لنا عمداً. هكذا سنستطيع أن نراقب عن كثب من يلقبون سلاطين إيران... إليك يا أبا علي ادَّخرت المهمة الأكثر صعوبة وبالتالي الأكثر اعتباراً. أنت المقتحم الحديد.

أنت تعرف سوريا، وتعرف قلعة مصياف، إنها آلموت أخرى، على حدِّ قولك. إنها ذائعة الصيت بمنعتها ستأخذها إذاً... اصطحب ما يلزمك من الجنود والفدائيين، والفوضى التي تسود البلاد اليوم ستسمح لك بالوصول إلى أسوارها دون عائق. مصياف ستسقط ستؤسس فيها مدارس فدائيين على غرار مدرسة آلموت. ستتخذ هناك الإجراءات التي تقدر أنت وجوب اتخاذها. إني احرص فقط على أن تحيطني علماً بقراراتك... أخيراً أنت يا بن آتاش. فإني أعينك داعية دعاة، ستعود إلى خوزستان، حيث ستتابع إدارة موقع زور غامباذان، إنما أعتمد عليك أيضاً في تحصين مدينة كوركوهن في شمال البلاد وانتزاع كل حصون الأطراف أيضاً.

إن احتجت لفدائي من أجل مهمة خاصة فإني سأرسله لك...

وأنتم جميعاً من ستديرون الموقع، سيكون إليكم إضافة إلى ذلك، واعتباراً من الآن مكانة دعاة حاكمي المنطقة الكبار، كل واحد سيكون له ارتباط مباشر بداعية دعاة سيكون الأقرب من مراكز قياداتكم... انتم تعرفون بنية هيئتنا، ستتلقون في قلاعكم مختلف القوانين التي توضح سير العمل حالما تصبح هذه القرارات رسمية... اذهبوا الآن للقاء الجيش. أنت يا أبا علي، وضح للجنود هذه الإجراءات وأخبرهم عن قدومي. فاليوم هي آخر مرة يرونني فيها.

ابتهجت جماعة المؤمنين التي جمعت من قبل أبي علي بكل هذه القرارات:

قرار المطالبة باستقلال حكومة آلموت استقبل بحماسة، وأخيراً فالإعلان عن حروب قادمة، وفتوحات جديدة جعلهم يعبرون جلياً عن فرح بطولي: فجميعهم، كانوا يشعرون بأن جدران آلموت قد ضاقت فعلاً عليهم.

ظهر أخيراً الرئيس الأعلى على الشرفة العلوية، فخيَّم صمت أشبه ما يكون بصمت القبور. هتف بصوت كان يبلغ آخر نسق من الجماعة.

ـ أيها المؤمنون الإسماعيليون! لقد أتى داعي الدعاة على إعلامكم بالإجراءات المتبناة اليوم من قبل مجلس زعمائنا. لقد أصبحنا في واقع الأمر أقوياء. لكنَّ قوتنا كلها ترتكز عليكم، يعني على امتثالكم لقضيتنا. أنتم تنفذون أوامر رؤسائكم المباشرين، وهؤلاء ينفذون أوامري، وأنا خاضع لأمر ذلك العلي القدير الذي أرسلني بشكل مباشر أو غير مباشر، إننا جميعاً لا نعمل إلاَّ على تنفيذ أوامره.

عودوا الآن إلى واجباتكم اليومية... ولا تنتظروا المهدي بعد... لأن المهدي جاء!

قبل حتى أن تهدأ الحماسة التي أثارتها كلماته الأخيرة اختفى عن العيون، شوهد بعد ذلك لبرهة قصيرة في قاعة المجلس. حيث ودَّع أصحاب الرتب العالية في الدعوة. ثم انسحب إلى ملحقاته يرافقه كبار الدعاة.

ـ ذلك كان خامس وآخر مقطع في مسرحيتنا ـ قال لهم ذلك المساء بابتسامة شبه حزينة. لم يعد هناك أحد يعلو علينا باستثناء الله، وسماؤه المفعمة بالألغاز. لا عنها ولا عنه نعرف شيئاً تقريباً، وربما لن نعرف شيئاً على الإطلاق: هكذا يغلق وإلى الأبد الكتاب العظيم لأسئلة بلا جواب...

أنوي الآن أن أقتنع بهذا العالم كما هو.

توصيته تملي عليَّ أن أتبنى السلوك الوحيد: ابتكار خرافات ملونة قدر المستطاع، سنوقفها لمريدينا الأطفال... منتظرين ضمن هذا الملاذ حل لغزنا الأعظم. من المباح لشيخ عجوز يعرف العالم أن يردَّ على الناس

بالأساطير والأمثال. كم لا يزال أمامي من الشغل؟ من أجل عامة المؤمنين، عليَّ أن أتخيل ألف قصة وقصة تحلل مكونات العالم، مذكراً بالفردوس والجحيم، بالأنبياء، بمحمد، وبعلي، والمهدي... بما يتناسب وطاقة هذه الرعية، سيكون للمؤمنين والمقاتلين الحق بفهم لماذا وكيف هناك قواعد ومحظورات تحكمنا: سأعد من أجلهم قانوناً وكتاب تعليم ديني مجازي. سيلج الفدائيون معرفة سرية. سأعلمهم بأن القرآن كتاب مفعم بالألغاز، ويجب أن يفسر بواسطة مفتاح، وإذا ما أظهروا بأنهم جديرون من الاقتراب من المرتبة النهائية، فسوف نكشف لهم عن المبدأ المدهش الذي يحكم صرحنا كله: لا شيء حقيقي وكل شيء مباح!

أمَّا من ناحيتنا نحن الذين بنينا خيوط هذه الآليات، سنحتفظ لأنفسنا بآخر أفكارنا.

- أية خسارة بأنك تنوي أن تبعد عن العالم! تأسف بوزروق أوميد. تماماً في اللحظة التي وصلت بها إلى آخر درجة...

الإنسان الذي أتمَّ عملاً عظيماً لا يبدأ الحياة إلا بموته، لا سيما النبي. لقد فعلت ما كان عليَّ فعله. حان الوقت الآن لأن أفكر في نفسي قليلاً سأموت من أجل البشر. كي أولد من جديد في أعماقي. لا أعلم وسيلة أخرى لخلود الذات. أتصور أنكما تفكران مثلي...

«إنمَّا لو سألتماني عن معنى هذا التصرف وبم يفيد فإنني لن أعرف أن أجيبكما، - تابع - نحن نكبر لأن قوة في ذاتنا تدفعنا لان نكبر، كما البذرة التي تنتش في التربة، وتخرج من الأرض. وتزهر وتعطي ثماراً. فجأة وجدنا وفجأة سنموت...

هيا الآن نلق بنظرة أخيرة على رياضنا...!».

سبقهما ببضع خطوات نحو المسطحة المتحركة. وهبطوا حتى أسفل البرج. أحد الحراس كان يدير العبَّارة الملقية على المسيل الجارف، ثم قادهم عدي في المركب حتى الحديقة التي تشغل مركز المتنزه. كانت

الأشجار عارية، والحواشي مقفرة، ما عادوا يرون لا خضرة، ولا زهراً، وجدها آجمة سوداء من السرو كانت تقاوم الشتاء.

ـ لو أرسلت الآن أحداً إلى هذه الرياض، لتعذّر عليه الاقتناع بأنه جاء إلى الفردوس.

ـ خلق العالم من ألوان، من الحرارة، من الضوء ـ أجاب حسن ـ هذا هو غذاء حواسنا شعاع شمس يغمر طبيعتنا وكل شيء يتغير أمام نواظرنا. وهذا التغير يجر تغيراً في مشاعرنا، في أفكارنا، في مزاجنا، في هذا تكمن معجزة تجديد كل حياة دون توقف. لا شيء أكثر.

ـ جاءت أياما للقائهم.

ـ كيف تعيش الصبايا؟ استخبر حسن.

ـ يتحدثن كثيراً، يعملن كثيراً، يضحكن كثيراً. . . ويبكين كثيراً، لكنهن يفكرن قليلاً.

ـ أفضل، وإلاّ لأدركن بأنهن يقمن في سجن، لا يهم.

فالنساء معتادات على الحريم وعلى السجن. من السهل جداً سجنهن ما حيين ضمن أربعة جدران، وإذا هنَّ لم يشعرن بأنهن حبيسات فهنَّ لسن بحبيسات.

فهناك آخرون ممن يعتقدون بأن كوكبنا كله مجرد سجن. إنهم ينظرون في فضاء الكون اللامتناهي، في ملايين كواكبه، في الأجرام السماوية التي حرم عليهم الدنو منها إلى الأبد. . . هذا الشعور جعل منهم أكثر الناس عبودية يمكن للمرء ان يتصورهم: إنهم عبيد الزمان والمكان.

مشوا بصمت على طول الممرات المهجورة.

ـ لا شيء من جديد ـ أنت تقول ـ في هذا الفردوس المقفر؟

لا شيء سوى أننا ننتظر بعض الأطفال. . .

ـ سنكون بحاجة إليهم. راقبي كل ما يجري جيداً.

ثم قال وهو يلتفت إلى كبيري الدعاة.

سيكونون هم الكائنات الوحيدة في العالم، الذين تصوَّرا آباؤهم يقين قاطع بأن أمهاتهم كنَّ حوريات الفردوس. . . كائنات غير بشرية إن صحَّ التعبير.

التفوا حول المسبح.

ـ سيأتي الربيع، ثم الصيف ـ تابع حسن ـ لتقضين الشتاء بأفضل ما يمكن، وبأدفأ ما يمكن. . . بانتظار أن تعيد الطبيعة بهاءها إلى هذه الحدائق. . . نحن أيضاً سننغلق على أنفسنا في هذا الرواح.

كانت السماء قد تلفَّعت بوشاح مريب. ربما ستثلج غداً. . . البرد، البرد القارس يقترب. . . عندما وصلوا إلى القلعة استأذن حسن من صاحبيه بالانصراف.

ـ لقد أتمت الأرض بالكاد نصف دورتها حول الشمس. . . في تعاقب آلاف وآلاف من الدورات المتشابهة تماماً. يحسبونها على أنها قسمتها. ومع ذلك نستطيع أن نقول إنَّ كثيراً من الأشياء قد تغيرت تحت الشمس. إمبراطورية إيران بادت.

أن خرج بناؤنا حينئذ من الظلام. ما هي قصته الآتية! لا جدوى مما نسميه جواباً. الكواكب تصمت فوقنا.

عانق صديقته للمرة الأخيرة، ثم اندفع نحو المسطَّحة المتحركة. تابعاه بأنظارهما بحزن غريب.

انغلق على نفسه في ملحقاته. وقضى من أجل العالم.

حملته الأسطورة تحت جناحها.

ـ النهـايــة ـ

الفهرس


rico
Riko94
Riko94_

هذا الكتاب

في ربيع العام ١٠٩٢ ميلادي، شهدت طريق الجيوش القديمة، والتي كانت تتوغل ابتداءً من سمرقند وبخارى وصولاً إلى سفح جبل الإيلبوزر شمالي خراسان مرور قافلة على درجة من الأهمية، غادرت بخارى مع بداية ذوبان الثلوج، وغذت في السير منذ بضعة أسابيع. كان قادة القافلة يلوحون بسياطهم، ويحثون بصراخهم الصاخب البهائم المنهكة تقريباً. كانت الجمال الوحيدة السنام، والبغال، والجمال ذات السنامين، تتقدم في رتل طويل، ورجال الموكب الذين امتطوا خيولاً صغيرة ذات شعر طويل، يتأملون سلسلة الجبال التي كانت تنتصب في الأفق بحالة من السأم من طول الانتظار.

